

تأليف

أبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري

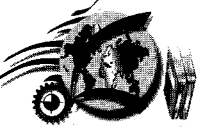
المتوفى ٤٨٧ هـ

حققه ووضع فهارسه

الدكتور جمال طلبة

الجزء الأول

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

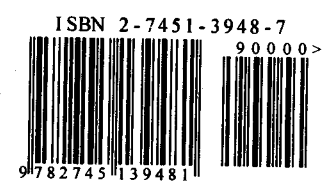
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد وأصحابه، ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعدُ:

فقد عُنِيَ بتحديد البلدان والبقاع الكثيرة الواردة فى أشعار الجاهليين والإسلاميين وأحاديث الرسول ﷺ، وقد كان البحث فى أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى.

ويعد الكندى أول من كتب فى ذلك، ثم ظهر بعد ذلك ابن خُرداذبة فى كتابه «المسالك والممالك» حوالى ٢٣٢هـ، معتمدًا على ما كتبه بطليموس فى بيان حدود الأرض ومسالكها.

ثم كان عمل أبى عبد الله الجيهانى (حوالى أواخر القرن الثالث الهجرى) وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة، فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودَخْلِها وكيف المسالك إليها، وذكر الطريق شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال.

ثم يأتى بعده أبو زيد البلخى، ثم ابن الفقيه (حوالى آخر القرن الثالث الهجرى) وابن رسته الذى صرف جلَّ همه إلى ما كان يستهويه من الأشياء العجيبة النادرة فى اليمن ومصر والقسطنطينية والهند وفى بلاد المجر والصقالبة.

* أما كتاب الهمذانى (المتوفى ٣٣٤هـ) «صفة جزيرة العرب» فهو يصف فيه جزيرة العرب وصفًا لغويًا.

وصنَّف قدامة بن جعفر كتابه «الخراج وصناعة الكتابة» وصف فيه مملكة الإسلام وما جاورها من الممالك.

كما صنَّف اليعقوبى (المتوفى حوالى آخر القرن الثالث الهجرى) كتاب «البلدان» معتمدًا فيه على ملاحظاته الخاصة.

وفى القرن الرابع الهجرى يطالعنا المسعودى فى مؤلفاته التاريخية بالحديث عن التجارب والمشاهدات التى عرضت له فى أسفاره وتُعَدُّ كتب المقدسى وابن حوقل الذروة التى بلغها العرب فى وصف البلدان.

وفى سنة ٣٧٥هـ كتب المهلّبى للخليفة الفاطمى العزيز بالله كتابًا فى الطرق والمسالك، ويُعَدُّ أول كتاب يصف بلاد السودان وصفًا دقيقًا.

كما ألف محمد التاريخى المتوفى عام ٣٦٣هـ كتابًا فى وصف إفريقيا والمغرب، وهو عالم جغرافى أندلسى، وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة أنه أكبر مرجع اعتمد عليه البكرى.

- وفى القرن الخامس الهجرى كان كتاب أبى عبيد البكرى «المسالك والممالك» وهو مرجع فى الجغرافيا العامة، وقد طبع جزء منه باسم «المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب» وقطع خاصة بالروس والصقلب، منه مخطوطتان فى باريس برقم ٢٢١٨ و٩٠٥ والجزائر ١٥٤٨ والمتحف البريطانى ٣٧٤ قطعة عن إفريقيا، والأمبروزيانا ١٠٠ ونور عثمانية ٣٠٣٤ ولا له لى ٢١٤٤ وبطر سبرج ثان/١٠١، وهو الذى ننشره هذه النشرة العلمية المحققة عن دار الكتب العلمية ويعد كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى موسوعة فى البلدان فى نسق فريد يجمع بين الحديث عن كتب الهيئة والمسالك ووصف البلدان وعادات الشعوب.

وتظهر فيه شخصية البكرى الذى قرر أنه لم يرتحل ولم يزعم أنه رأى أو شاهد، وإنما جمع ذلك من الكتب التى أُلّفت قبله، فيعرض لعادات الشعوب والقصص التاريخى وينبه على الغرائب والعجائب رافضًا منها ما يتعارض فى نقله مع العقل.

ويبدأ البكرى كتابه بمقدمة تاريخية تدور حول مبدأ الخلق وتاريخ الأنبياء من آدم إلى محمد ﷺ ثم ينتقل إلى الحديث عن المعتقدات الدينية عند الأمم المختلفة ثم ينتقل للحديث عن البحار السبعة وأهم الأنهار، وهو الذى عنون له بقوله: «استبداد الممالك» وهكذا حتى نهاية الكتاب.

* **أما عن مصادر أبى عبيد البكرى فى كتابه «المسالك والممالك»** فهى عديدة ومتنوعة، وذلك نظرًا لموسوعية الكتاب وموضوعه، وهذه قائمة بأهم هذه المصادر التى حرص على الأمانة العلمية بذكرها والنقل عنها مع تصرفات يسيرة له: مرتبة ترتيبًا هجائيًا بأسماء مؤلفيها:

(١) إبراهيم بن وصيف شاه = (الوصيفى)، صاحب كتاب العجائب نقل عنه البكرى فى تاريخ مصر القديمة.

(٢) الأزرقى: صاحب كتاب [أخبار مكة]. اعتمد عليه البكرى فى أخبار مكة ووصفها ووصف جهاتها.

(٣) الإصطخرى: صاحب كتاب «المسالك والممالك». اعتمد عليه البكرى فى الحديث عن كرمان والسند وخراسان.

(٤) البلاذرى: صاحب كتاب «فتوح البلدان». اعتمد عليه فى الحديث عن مدينة البصرة واختطاطها.

(٥) الجاحظ: له كتاب «الأمصار».

(٦) الجيهانى: «أبو نصر سعيد بن غالب».

(٧) ابن حوقل.

(٨) ابن خرداذبة له «المسالك والممالك»: وقد ذكره البكرى فى عدة مرات.

(٩) الرازى (أحمد بن محمد): المؤرخ والجغرافى الأندلسى، اعتمد عليه أبو عبيد البكرى اعتمادًا كبيرًا فى وصف الأندلس.

(١٠) ابن رستة: له «الأعلاق النفيسة». نقل عنه البكرى، ورمز له بالرمز (ر).

(١١) السمهودى: له «وفاء الوفا من أخبار دار المصطفى»، و«خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى». اعتمد عليه البكرى فى الحديث عن المدينة المنورة ومسالكها ووصفها.

(١٢) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)، ورمز له بالرمز (ط). اعتمد عليه البكرى فى الحديث عن الأنبياء وملوك الفرس وملوك اليمن وبلاد كرمان والمدائن وغيرها.

(١٣) ابن عبد الحكم: له كتاب: «فتوح مصر وأخبارها». اعتمد البكرى عليه اعتمادًا كليًا فى الحديث عن مصر وتاريخها وملوكها.

(١٤) ابن الفقيه.

(١٥) ابن قتيبة: له كتاب «المعارف». استشهد به البكرى فى حديثه عن الأنبياء، ورمز إليه بالرمز (قد).

(١٦) القرطى (أبو حفص): له تاريخه المعروف. واستشهد به البكرى فى حديثه عن الأنبياء.

(١٧) القوطى: نقل عنه فى حديثه عن الأنبياء. ولعله القرطى السابق الذكر.

(١٨) المسعودى (أبو الحسن): اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، فينقل عنه فى الجزء الأول حوالى ثلث الكتاب تقريبًا، واستخدمه باسمه أو رمز إليه بالرمز (س) واعتمد على كتبه: أخبار الزمان، ومروج الذهب، والتنبيه، والإشراف.

(١٩) محمد بن يوسف الوراق: له «المسالك والممالك». ويعد أبرز المصادر الرئيسة التى اعتمد عليها أبو عبيد البكرى فى حديثه عن المغرب.

(٢٠) اليعقوبى: صاحب البلدان. نقل عنه فى الحديث عن بغداد.

هذه هى أبرز المصادر الرئيسة التى اعتمدها البكرى مصدرًا لكتابه المسالك والممالك، ويعد أبرزها فى الاستخدام والنقل عنها ما اعتمده برموز مثل(ر): للأعلاق النفيسة، و(س): المسعودى، و(ط): الطبرى ونظرة يسيرة إلى قائمة المصادر والمراجع تطلعك أيها القارئ الكريم على طبيعة الكتاب ومادته.

* * *

ترجمة المصنف
أبو عبيد البكرى

هو أبو عُبَيد عبد الله بن أبى مصعب عبد العزيز بن أبى زيد محمد بن أيوب بن عمر البكرى، نسبته إلى بكر بن وائل.

وهو من بيت إمارة، فكانت لسلفه إمارة فى غربى جزيرة الأندلس وقيل كان أميرًا تَغَلَّب عليه المعتضد.

وولد فى شَلْطِيش (غربىّ إشبيلية) وانتقل إلى قرطبة، ثم صار إلى المرية، فاصطفاه صاحبها (محمد بن معن) لصحبته، ووسَّع راتبه، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير.

وقال الصفدى: كان أميرًا بساحل كورة لَبْلَة.

وقد ذكر بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ٩/ ٢٠٥ أنه ولد سنة ٤٣٢هـ وكذلك جايانجوس فى إحدى تعليقاته على ما ترجمه فى نفح الطِّيب أن أبا عُبَيْد وُلد سنة ٤٣٢هـ، وأنَّ سنه عندما دخل به أبوه قرطبة (سنة ٤٤٣هـ) كانت إحدى عشرة سنة، ولم يورد جايانجوس مصدره الذى اعتمد عليه، ممَّا جعل دوزى يرفض هذا التاريخ، ويؤيد دوزى فى ذلك قول ابن حَيَّان أن أبا عُبَيْد فى ذلك الحين بَذَّ الأقران جمالاً وبهاءً وسَرْوًا وأدبًا ومعرفةً، وهو كلام لا يقال عن صَبىٍّ فى الحادية عشرة أو نحوها. ثم إنَّ الآراء متفقة على أن أبا عُبَيْد البكرى توفى سنة ٤٨٧هـ عن سنٍّ عالية، فإذا كان قد وُلِدَ سنة ٤٣٢هـ، فقد كان سنُّه يوم تُوُفِّىَ ٥٥ سنة على هذا الحساب، وهى ليست بالسن العالية حيث قال ابن خاقان إنه قد رآه فى مجلس ابن منظور وقد بلغ سن ابن مُحَلِّم، أى أن أبا عُبَيد البكرى كان فى الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلامًا، لأن ابن مُحَلِّم، هذا هو عوف بن مُحَلِّم الشيبانى صاحب البيت المشهور:

إن الثمـــــانيـن ـ وبُلِّغْتهـا ـ　　　　قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

يقول الدكتور حسين مؤنس: وما دام ابن حَيَّان يذكر أن أبا عُبَيْد لم يَطُل مقامه

فى قرطبة حتى عرف بِسَعَة العلم، فإنّنا نستطيع القول إنه دخلها شابًا بين العشرين والخامسة والعشرين فى الأغلب وأجمعت المصادر التى ترجمت لأبى عُبَيْد البكرى أنه توفى بقرطبة فى شوال سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. وانفرد الضَّبِّى صاحب بغية الملتمس بأن وفاته كانت سنة ٤٩٦هـ.

• شيوخه:

ذكر ابن بشكوال فى الصلة ١/ ٢٨٢ رقم ٦٢٨ من شيوخه:

١ ـ أبو مروان بن حَيَّان.

٢ـ أبو بكر المُصْحَفِى.

٣ ـ أبو العباس العذرى، سَمِع منه بالمَرِيَّة.

٤ ـ أبو عمر بن عبد البر، له عنه إجازة.

• كتبه:

من مُصَنَّفاته:

١ ـ كتاب «الإحصاء لطبقات الشعراء»، ذكر فى الأعلام ٤/ ٩٨ ومقدمة سمط اللآلئ/ ك، قال الأستاذ الميمنى: وهو كبير ويظهر أنه حَوْكُ كتاب الآمدى «المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء» وقد كان البكرى وقف عليه.

٢ـ كتاب «اشتقاق الأسماء» ذكره السيوطى فى البغية ٢/ ٤٩ والميمنى فى مقدمة السمط، ومقدمة اشتقاق الأسماء للأصمعى ص٥١ تحقيق د/ رمضان عبد التواب ود/ صلاح الدين الهادى.

٣ ـ «أعلام نُبُوة نبينا محمد ﷺ»، ذكره السيوطى فى البُغية ٢/ ٤٩ وقال: أخذه الناس عنه، والزركلى فى الأعلام ٤/ ٩٨ وابن بشكوال فى الصلة ١/ ٢٨٢ والميمنى فى مقدمة السمط.

٤ ـ «التدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب»، ذكره الميمنى فى مقدمة السمط ص/ ل وفى معجمه.

٥ ـ التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه، طبعه الأب لويس شيخو اليسوعى فى بيروت سنة ١٩٢١، ثم طبع ملحقًا بالأمالى لأبى علىٍّ القالى، ونشره الأستاذ

الميمنى فى السِّمط.

٦ ـ شفاء عليل العربية، ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون ١٢ـ١٠٥ .

٧ ـ كتاب «صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المُصَنَّف»، لأبى عُبَيْد القاسم ابن سَلاَّم، ذكره ابن خير فى فهرسته ٣٤٣ والميمنى فى مقدمة السمط ص/ل والدكتور رمضان عبد التواب فى مقدمة الغريب المُصَنَّف ١/ ٥١ .

٨ ـ «فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال»، يرويه ابن خَيْر بِسَنَدَيْ المفصول (فهرسة ابن خير ص٣٤٤)، ووقف عليه ابن الشيخ البلوى (ألف باء ١/ ٣٨ و٤٢٩ ـ و٢/ ٨٥ و/ ٤٤٤) وذكره السيوطى فى البُغْية ٢/ ٤٩ والزركلى فى الأعلام ٤/ ٩٨ .

ونشره الدكتور إحسان عباس والدكتور عبد المجيد عابدين، وصدرت منه ثلاث طبعات آخرها طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٣م .

٩ ـ «اللآلئ فى شرح أمالى القالى» وهو أكبر مؤلفاته فى ميدان اللغة والأدب، ذكره السيوطى فى البغية ٢/ ٤٩ والزركلى فى الأعلام ٤/ ٩٨ والميمنى فى مقدمة السمط ص/م ونشره الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مجلدين فى القاهرة ١٩٣٦م مع إضافات وتعليقات واستدراكات تحت عنوان «سمط اللآلئ».

١٠ ـ «المسالك والممالك» وهو نشرتنا تلك.

١١ ـ «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع».

١٢ ـ كتاب «النبات» كذا سماه ابن خير فى فهرسته ٣٧٧ .

وفى الأعلام للزركلى ٤/ ٩٨ «أعيان النبات» وسماه ابن أبى أصيبعة كتاب أعيان النبات والشجريات الأندلسية.

* وقال الزركلى فى الأعلام ٤/ ٩٨ : «له رسائل بعث بها إلى بعض معاصريه، وإنشاؤه سجع على طريقة كتَّاب زمانه».

* وأبو عُبَيْد البكرى ممن كانوا يعتنون بكتبهم، فكان يكتبها بالخطِّ الجيد، ويجلِّدها التجليد النفيس، وكان الملوك والرؤساء يتهادونها فى حياته ويتنافسون فى اقتنائها.

* وأمَّا نثره فكان يجرى فيه مجرى المشارقة أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد، وصفه معاصره الفتح بن خاقان أمير البيان فى قلائد العقيان ١٩١ بأنه «عالم الأوان ومُصنَّفه، ومُفرط البيان ومُشنِّفُه، بتآليف كأنها الخرائد، وتصانيف أبْهَى من القلائد، حَلَّى بها من الزمان عاطلاً، وأرسل بها غَمَام الإحسان هاطلاً، ووضعها فى فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من إتقان وإبداع. وأمَّا الأدب فهو كان مُنْتَهاه، ومحلَّ سُهاه، وقُطْب مداره وفَلَك تمامه وإبداره، وكان كُلُّ مَلك من ملوك الأندلس يتهاداه تَهادى المُقل للكرَى، والآذان للبُشْرى، على هَنَات كانت فيه، فإنه رحمه الله ـ كان مُبَاكرًا للرَّاح لا يصحو من خُمَارها، ولا يَمْحُو رَسْمُ إدمانه من مضْمارها، ولا يُريح إلاَّ على تعاطيها، ولا يستريح إلاَّ إلى مُتَعَاطيها؛ قد اتَّخَذ هجِّيرَه، ونُبذَ من الإقلاع نَبْذَ عاصم بن الأيْمَن مُجيرَه، فلما حان انقراضُ شَعْبَان وانصرامُه، كانت فيه مُسْتَبْشَعَة الذِّكر، مُسْتَشنَعة النُكْر، تمحوها الأوهام والخواطر، ويُثْبتُها السماع المُتَوَاترُ، وقد أَثْبَتُّ له ما يَشْهَدُ له بتَقَدُّمِّه، ويُريك مُنْتَهى قَدَمه، رأيتهُ وأنا غلامٌ ما أقْمَرَ هلالَىَّ، ولا نَبَغ فى الذكاء كَوْثَرى ولا زُلاَلى، فى مجلس ابن منظور وهو فى هيئة كأنما كُسيَتْ بالبهاء والنور، وله سَبَلَةٌ يروقُ العيون إيماضُها، ويفوق السوادَ بياضُها، وقد بلغَ سنَّ ابن مُحَلِّم، وهو يَتكلَّم فيفوق كُلَّ مُتكلِّم، فجرى ذكرُ ابن مُقْلَة وخَطِّه، وأُفيض فى رفعه وحَطِّه، فقال:

خَطُّ ابن مُقْلَةَ من أرْعَـاهُ مُقْلَتُـه	وَدَّتْ جَوَارِحُه لو أَصبَحَتْ مُقَلا
فالدُّرُّ يَصفَرُّ لاستحسـانه حسـدًا	والوردُ يحمرُ من إبداعـه خَجَلا

وقال ابن بسام فى الذخيرة ـ القسم الثانى ـ المجلد ١/ ٢٣٢: «وكان بأفقنا آخر علماء الجزيرة بالزمان، وأولَّهم بالبراعة والإحسان، وأبعدَهُم فى العلوم طَلَقًا، وأنْصَعهم فى المنثور والمنظوم أفُقًا، كأن العرب استخلفته على لسانها، أو الأيام ولَّتْهُ زمامَ حدثانها، ولولا تأخُّر ولادته، وعُهْدَةٌ فى زيادته، لأنْسَى ذكرَ كنيِّه المتقدّم الأوان، ذَرَبَ لسان، وبراعةَ إتقان، لا يجمع الزمانُ حُبّه، إلاَّ كما يؤلف كتبه، ولا يهزُّ البرقُ حسامَه، إلاَّ كما يصرِّفُ أقلامه، ولا يتدفَّقُ البحرُ إلا كما يجيش صَدْرُهُ، ولا يكون السّحرُ إلا كما يروق نظمه ونثره».

وقد دفع الدكتور حسين مؤنس عن البكرى تهمة إدمان الخمر فقال: والحقيقة أننا إذا نظرنا فى مؤلفات البكرى، تجلَّى لنا رَجُلٌ هو أبعد ما يكون عن هذا الإدمان الذى رمى به، فكيف يجمع هذا الجمع الغزير ويصنف هذا التصنيف العلمى الدقيق الرائق رجلٌ لا يفيق من الخمر؟، أقرب الآراء إلى الصحة ـ كما قال دوزى ـ أن أبا عُبَيْد كان ذا طبيعة شاعرة وحب للطبيعة والزهور، وميل إلى شىء من اللهو والمَسَرَّة، وأنه لم يكن يتحرَّج من كأس من الخمر طلبًا لمزيد من مسرة أو التماسًا للسلوان عن هموم الأيام.

* * *

وصف المخطوطات

اعتمدنا فى تحقيقنا لكتاب المسالك والممالك على المخطوطات الآتية:

(١) نسخة لا له لى باستنبول، وعنها نسخة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ورقمها ٢١٤٤.

وتقع فى ١٢٥ ورقة، ومسطرتها ٣١ سطرًا، وبكل سطر نحو خمس عشرة كلمة تقريبًا.

وبالورقة الأولى: «كتاب الممالك والمسالك، تأليف الشيخ الإمام المحقق أبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى القرطبى، أثابه الله الجنة ورضى عنه برسم الخزانة العالية».

وجاء فى آخره، كمل بحمد الله وعونه ولطفه ومنه وجوده على يد يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العمرى السعدى نسبًا، الشافعى مذهبًا فى يوم الأحد ٢١ رجب سنة ٧٣٧هـ.

والخط واضح وجيِّد.

(٢) نسخة نور عثمانية، ورمزت لها بالرمز (ن) ورقمها ٣٠٣٤، وعنها مصورة فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ورقمها ٥٤ جغرافيا.

وخطها مشرقى مشكول وإن كان لا يخلو من أخطاء كثيرة فى ضبطه ولغته، ويبدو أن ناسخها غير ملم بقواعد العربية.

ويقع المخطوط فى ٢٤٦ ورقة، والورقة صفحتان ومسطرتها ١٥ سطرًا، فى كل سطر نحو ١٠ كلمات تقريبًا ويعود تاريخ نسخها إلى سنة ٨٥١هـ.

والصفحة الأولى بها العنوان «كتاب المسالك والممالك» تأليف الشيخ الإمام العالم أبى عُبَيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى القرطبى أثابه الجنة بكرمه».

وهذا العنوان داخل إطار، بآخره أنه يرسم الجناب العالى السيفى جاثم داودار القر الأشرفى تمر باى».

وفى الصفحة الثالثة خاتم التملك وعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله، بدأ بالقول فى مدة عمارة الأرض».

وبآخره فى الورقة ٢٤٦ «كمل بحمد الله وعونه ولطفه ومَنِّه وفضله وتوفيقه وحوله وقوته وكرمه وحُسن توفيقه وذلك يوم السبت المبارك الحادى والعشرين من شهر شعبان المكرم من شهور سنة ٨٥١ أحسن الله عاقبتها، بمحمد وآله، وصحبه وسَلِّم، وصلاة الله وسلامه الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وآله».

(٣) الجزء المطبوع بعنوان «المغرب فى ذكر أفريقيا والمغرب» نشرة دى سلان، وهو يقابل مخطوطة المتحف البريطانى بلندن برقم ٩٥٧٧، لذا اعتمدنا المطبوعة، نشرة دى سلان يخطها المغربى وهى تناظر تقريبًا غالب الجزء الثانى من المسالك والممالك.

* * *

منهج تحقيق الكتاب

اتبعت فى تحقيق كتاب «المسالك والممالك» لأبى عبيد البكرى منهجًا تتحدد معالمه فيما يأتى:

(١) مقابلة النسخ المخطوطة والمطبوعة.

(٢) تخريج الآيات القرآنية.

(٣) تخريج الأحاديث والآثار من مظانها.

(٤) تخريج الشواهد الشعرية.

(٥) تخريج الأمثال وأقوال العرب.

(٦) عمل ترجمة موجزة للأعلام، مع الإشارة إلى مصادر الترجمة.

(٧) التعريف بالأماكن وضبطها.

(٨) عمل الفهارس الفنية وتشمل:

١) فهرس الآيات القرآنية مرتب حسب السورة فى المصحف.

٢) فهرس الحديث والأثر.

٣) فهرس الأمثال وأقوال العرب.

٤) فهرس الكتب الواردة فى الكتاب.

٥) فهرس القوافى.

٦) فهرس الأعلام.

٧) فهرس الأمم والقبائل والجماعات والفرق والطوائف ونحوها.

٨) فهرس الأماكن والجبال والمياه والمراسى ونحوها.

٩) فهرس مصادر الدراسة والتحقيق.

١٠) فهرس المحتويات.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

د/ جمال طلبة

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله

[illegible]

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ذلك ستة آلاف
سنة وكذلك قال أهل الكتاب وأخذوا ذلك ما أخذنا شرعنا
أبو صالح عن كعب ألفي سنة بن معقل عن وهب مثله قال
والأول الصواب لرواية ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم أجلكم في أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغيب الشمس
وقوله عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع ما بين
السبابة والوسطى. وصح عنه مع ذلك ما رواه ابن وهب
يرفعه إلى أبي ثعلبة الخشني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم
يريد اليوم الذي هو مقدار ألف سنة، فإذا كان ذلك كذلك
كان معلوما أن الماضي إلى ظهور الإسلام ستة آلاف سنة
وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم قول يدل على صحة
القول الأخير، وأصح ما روي في التاريخ على ما ذكره طس

إن من الطوفان إلى مولد إبراهيم عليه السلام ألف وتسع وسبعون
سنة. ومن مولد إبراهيم إلى خروج موسى من مصر ببني إسرائيل
إلى التيه الذي مات فيه خمسمائة سنة وخمس وستون سنة.
ومن ذلك الوقت إلى أربع من ملك داود وهو وقت ابتداء
بناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة سنة وسبع عشرة
سنة. ومن مولد المسيح ابن مريم إلى بعث محمد صلى الله عليه
وسلم خمسمائة سنة وإحدى وستون سنة. فذلك ستة
آلاف سنة ومائة سنة واثنتان وثمانون سنة. ويوافق
ما اخترناه من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة لقول الأثاري
ذلك وقول الفلاسفة أن تدبير هذا العالم الذي نحن فيه السنبلة
وسلطانها سبعة آلاف سنة، فإذا استكمل العالم قطع هذه المسافة
وقع الفساد والدثور ثم عاد التدبير إلى الميزان، فاجتمع المراد
يبتدي النشر عودا. وسلطان الحمل عندهم اثنا عشر ألف سنة
والثور إحدى عشر ألف سنة ثم كذلك على التوالي حتى تكون
قسمة الحوت ألف سنة، فإذا انصرمت هذه المدة انقضى عالم

صورة الورقة الأولى من مخطوط (ن)

صورة الورقة الأخيرة من مخطوط (ن)

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقى إلا بالله

القول فى مُدّة عمارة الأرض

عن سعيد بن جُبَيْرٍ[١] عن ابن عبَّاسٍ[٢] - رضى الله عنهم - أن ذلك ستة آلاف سنة، وكذلك قال أهلُ الكتاب[٣]، وأخذوا ذلك مأخذًا شرعيًا.

أبو صالح[٤] عن كعب[٥] ألْفَىْ سنةٍ.

(١) سعيد بن جُبَيْر الأسدىّ، مولاهم الكوفىّ، ثقة، ثبت، فقيه من الثالثة، وروايته عن عائشة وأبى موسى ونحوهما، مرسلة، قتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين.
انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى ٣٨ وتذكرة الحفاظ ١/ ٧٦ وحلية الأولياء ١/ ٧٦ وخلاصة تذهيب الكمال ١١٦ وشذرات الذهب ١/ ١٠٨ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٥٦ وتهذيب التهذيب ٤/ ١١ وتقريب التهذيب ١/ ٣٤٩ وتهذيب الكمال ٢٢٤٥ ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٤ وطبقات الفقهاء ٨٢ والمعارف لابن قتيبة ٤٤٥ وطبقات المفسرين للداودى ١/ ١٨١.

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم فى القرآن، فكان يُسَمَّى البحر والحبر لسعة علمه، ومات سنة ثمان وستين بالطائف، وهو أحد المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة.
انظر ترجمته فى: أسد الغابة ٣/ ٢٩٠ والإصابة ١/ ٣٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ١٧٣ وتذكرة الحفاظ ١/ ٤٠ وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٧٦ وتقريب التهذيب ١/ ٥٠٤ وتهذيب الكمال ٣٣٥٨ وخلاصة تذهيب الكمال ١٧٢ وشذرات الذهب ١/ ٧٥ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٢٥ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٤١ والعِبَر ١/ ٧٦ والنجوم الزاهرة ١/ ١٨٢ ونكت الهميان للصفدى ١٨٠.

(٣) كذا فى البدء والتاريخ ٢/ ٥٢ وفى الكامل ١/ ١٣ «سبعة آلاف سنة».

(٤) هو عبد الرحمن بن قيس، أبو صالح الحنفى، الكوفى، ثقة من الثالثة، قيل إن روايته عن حذيفة مُرْسَلَة.
انظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٢٥٦ وتقريب التهذيب ١/ ٥٨٧ رقم ٤٠٠١.

(٥) هو كعب بن ماتع الحميرىّ، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار ثقة من الثانية، مخضرم =

ابن معْقِلٍ عن وَهْبٍ مِثْلَهُ.

قال (ط) : والأول الصواب لرواية ابن عمر[1] عن رسول الله ﷺ : « أَجَلُكُم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى مغيب الشمس »[2].

وقوله عليه السلام : « بعثت أنا والساعة كهاتين، وجمع ما بين السبابة والوسطى »[3].

وصح عنه مع ذلك ما رواه ابن وهب[4] يرفعه إلى أبى ثعلبة الخُشَنِىّ[5] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لن يُنْقِصَ اللهُ هذه الأمة من نصف يوم »[6].

= كان من أهل اليمن فسكن الشام، مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة، وليس له فى البخارى رواية إلا حكاية لمعاوية فيه، وله فى مسلم رواية لأبى هريرة عنه من طريق الأعمش عن أبى صالح.

انظر: تقريب التهذيب ٢ /٤٣ وتهذيب التهذيب ٨ /٤٣٨.

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن العدوى المدنى الفقيه، أحد الأعلام فى العلم والعمل، شهد الخندق، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة فعيّن لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل علىّ، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضى الله عنهما، ومناقبه جمّة، أثنى عليه النبى ﷺ ووصفه بالصَّلاح، وتوفى سنة أربعين.

انظر ترجمته فى: أُسْد الغابة ٣ / ٣٤٠ والإصابة ١ /٣٣٨ وتاريخ بغداد ١ / ١٧١ وتذكرة الحفاظ ١ /٣٧ وخلاصة تذهيب الكمال ١٧٥ وشذرات الذهب ١ / ٨١ والعبر ١ /٨٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١ /٤٣٧ والنجوم الزاهرة ١ / ٢٩٢ ونكت الهميان ١٨٣.

(٢) الخبر فى تاريخ الطبرى ١ / ١١ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ / ١١٢ وابن الجوزى فى المنتظم ١ /١٢٦ وابن الأثير فى الكامل ١ /١٣.

(٣) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير رقم ٣١٤٦، وأحمد فى المسند ٣ /١٢٤، ١٣٠ والبخارى ٧ /٦٨، ٨ /١٣١١ ومسلم فى الفتن ١٣٢، ١٣٣ والترمذى ٢٢١٤ والطبرى فى تاريخه ١ /١٨ والسنن الكبرى ٣ /٢٠٦.

(٤) هو أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، تاريخ الطبرى ١ /١٨.

(٥) أبو ثَعْلَبَة الخُشَنِى: بضم المعجمة بعدها نون، صحابى مشهور بكنيته، قيل: اسمه جُرثوم، أو جُرثومة، أو جُرثم، أو جرهم.. واختلف فى اسم أبيه أيضاً، مات سنة خمس وسبعين، وقيل قبل ذلك بكثير أول خلافة معاوية، بعد الأربعين.

تقريب التهذيب ٢ /٣٧٢، وتهذيب التهذيب ١٢ /٤٩.

(٦) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير رقم ٧٣٩١ جـ١ /٤٥٣، والترمذى وأبو داود، وذكره الطبرى فى تاريخه ١ /١٦ برواية « لن يُعجز... ».

يريد: اليوم الذى هو مقدار ألف سنة، فإذا كان ذلك كذلك، كان معلوما أن الماضى إلى ظهور الإسلام ستة آلاف سنة، وقد روى عنه ﷺ قول يدل على صحة القول الآخر.

وأصح ما روى فى التاريخ على ما ذكره ط س: أن من الطوفان إلى مولد إبراهيم عليه السلام: ألفا وتسعا وسبعين سنة، ومن مولد إبراهيم إلى خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل إلى التِّيهِ الذى مات فيه خمسمائة سنة وخمس وستون سنة، ومن ذلك الوقت إلى أربعٍ من مُلْكِ داود، وهو وقت ابتدائه لبناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة سنة وسبع عشرة سنة، وبين مولد المسيح ابن مريم إلى بعث محمد ﷺ خمسمائة سنة وإحدى وستون سنة، فذلك ستة آلاف سنة ومائة سنة، واثنتان وثمانون سنة، ويوافق ما اخترناه من أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، لقوة الآثار فى ذلك، وقول الفلاسفة أن تدبير هذا العلم الذى نحن فيه السُّنْبُلَةُ وسُلْطَانُها سبعة آلاف سنة، فإذا استكمل العالم قطع هذه المسافة، وقع النفاد والدثور، ثم عاد التدبير إلى الميزان، فاجتمع المراد، ويبتدئ النشر عودًا.

وسلطان الحمل عندهم اثنا عشر ألف سنة، والثَّوْرِ إحدى عشر ألف سنة، ثم كذلك على التوالى حتى تكون قسمة الحوت ألف سنة.

فإذا انصرمت هذه المدة انقضى عالم الكون والفساد، وهذا قول هُرْمُس، وزعم أنه لم يكن فى عالم الحَمَلِ والثور والجوزاء. على الأرض حيوان.

فلما كان عالم السرطان تكونت دواب الماء وهوام الأرض.

فلما كان عالم الأسد تكونت ذوات الأربع.

فلما كان عالم السنبلة تولد الإنسانان الأولان «أَرْمَانُوس».

وزعم غيره أن مدة العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدَرَجِ الفلك. والكوكب يقطع البُرْجَ فى ثلاثة آلاف سنة، فذلك ستة وثلاثون ألف سنة، وهى ألف وعشرون كوكبًا.

وزعم أهل التوراة أن ما مضى من لدن خلق آدم إلى الهجرة على ما وجدوه

فيها أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون[1] سنة[2].

وزعم أهل الإنجيل أن ذلك إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسع مائة سنة، واثنتان وتسعون سنة[3].

وزعم المجوس أن مدة الزمان من لدن جُيُومَرْثٍ وهو آدم عندهم إلى الهجرة ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وتسع وثلاثون سنة.

والله أعلم بغيبه، وأحكم.

* * *

القول فى مبدإ الخلق

قال أبو عبيد ـ رحمه الله ـ: إن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مثال، وابتدعها من غير أصل، وأنشأها من غير حاجة إليها، لِيُسْتَدَلَّ بذلك على قدرته، ويعتبر فى بديع حكمته، فتبارك الله خالق كل شىء، وهو أحسن الخالقين.

ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن»[4] رواه ابن عباس وغيره.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ «القلم طوله خمسمائة عام، واللوح من ذهب، دَفَّتاهُ من ياقوتة حمراء، عرضه ما بين السماء والأرض، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين[5] نظرة، يخلق، ويرزق، ويحيى، ويميت[6].

(ط): وقال ابن إسحاق: أول ما خلق الله: النور، والظلمة.

(١) فى الأصل (واثنتين وأربعين) تحريف.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ١٩ والكامل فى التاريخ ١/ ١٤.

(٣) فى الأصل (واثنتين وتسعون) تحريف، وراجع تاريخ الطبرى ١/ ١٩.

(٤) الحديث أخرجه البخارى ٤/ ١٢٨ وأحمد بن حنبل فى المسند ٤/ ٤٣١ وابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ٧ وفى تفسيره ٤/ ٢٤٠ والقرطبى فى التفسير ٩/ ٨ والطبرى فى تاريخه ١/ ٣٢ والسيوطى فى الدر المنثور ٣/ ٣٢١ وابن الأثير فى الكامل ١/ ١٦ .

(٥) فى الأصل «وستون».

(٦) راجع تاريخ الطبرى ١/ ٢٩.

والأول أصح[1]، قال: ثم إن الله خلق بعد ذلك سحابا رقاقا، وهو الغمام الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَة﴾[2].

كما روى أبو رَزِين[3] قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا عز وجل قبل أن يخلق خلقه؟ قال: فى عَمَاء[4] تحته هواء، وما فوقه هواء».

ثم اختلف فى الذى خلق بعد هذا الغمام، فقيل: الكرسى، وقيل العرش، وقيل الماء، فكان عرشه على الماء باتفاق.

وقيل: إن الماء كان على متن الريح[5]، عن ابن عباس رضى الله عنهما: لما أراد الله عز وجل أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانا فسما، فسماه سماء، فقضاهن سبع سموات فى يومين، بعد تمام سائر الخلق، وذلك قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَان﴾[6].

ودحى الأرض فى يومين، أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقهن سبع أرضين فى يومين، وفرغ من سائر الخلق فى يومين.

وروى أنه لما أراد عز وجل خلق السموات والأرض سلط الريح العقيم على الماء فعظمت أمواجه، وكثر زبده وصعد دخانه، وسما فسماه سماء، وقال لزبده: اجمد فجمد، فصار أرضا، وخلق الأرض على حوت.

---

(١) لم يسند محمد بن إسحاق قوله هذا إلى أحد، ومن ثَمَّ فالأول أصحّ للحديث، انظر: الكامل لابن الأثير ١/ ١٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢١٠.

(٣) أبو رَزِين العقيلى: هو لقيط بن صَبِرة، بفتح المهملة وكسرالموحدة صحابىٌّ مشهور، ويقال إنه جده، واسم أبيه عامر، وهو أبو رَزِين العقيلى، والأكثر على أنهما اثنان.
تقريب التهذيب ٢/ ٤٧ وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٥٦.

(٤) فى الأصل فى غمام تحته هواء وماءٍ فوقه هواء». والحديث أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ١١ كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء والترمذى فى السنن حديث رقم ٣١٠٩ والطبرانى فى الجامع الكبير ١٩/ ٢٠٧ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢٨ والسيوطى فى الدر المنثور ٣/ ٣٢٢ والألبانى فى الأحاديث الضعيفة ٢/ ٢٨٤.

(٥) البدء والتاريخ ١/ ٣٤٩.

(٦) سورة فصلت: آية ١١.

(س) (ط): والحوت هو الذى ذكره الله عزّ وجلّ، قال: ﴿ن والقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ﴾[١]، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صفَاة، والصَّفَاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة فى الريح[٢]، وهى الصخرة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز حكاية عن لقمان عليه السلام[٣]، فاضطرب الحوت، فتزلزلت الأرض، فأرساها الله عز وجل بالجبال، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا... ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[٤].

* * *

ذكر الأيام

قال أبو عبيد: واخْتُلِفَ فى اليوم الذى ابتدأ الله فيه الخلق، فقيل: الأحد، وقيل: السبت، وقيل: الاثنين

(ط) والأول أصح[٥]، كذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وعبد الله ابن مسعود، ورواه مالك يرفعه إلى ابن سلام قال: خلق الله الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق ما عليهما من المنافع يوم الثلاثاء والأربعاء، وفتق السموات فكانتا رتقا يوم الخميس والجمعة، وإنما سمى الجمعة، لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض[٦].

---

(١) سورة القلم آية ١.

(٢) فى قوله تعالى فى سورة لقمان آية ١٦ ﴿يا بُنَىَّ إنَّها إن تَكُ مثْقَال حَبَّة من خَرْدَلٍ فتكُن فى صَخْرَةٍ أو فى السمواتِ أو فى الأرض يأتِ بها الله﴾. وراجع عرائس المجالس للثعلبى ١٠.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٥٣.

(٤) الآية ١٠، ١١ من سورة فصلت.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٣٤.

(٦) فى الجامع الصغير للسيوطى ١/ ٣٣٩ خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل».

وذكره أحمد فى مسنده ٢/ ٣٢٧ ومسلم فى صحيحه وكشف الخفا ١/ ١٢١ والدر المنثور حديث ٢٠٤ صـ١٣٦.

ابن سلام وكعب: وخلق آدم فى آخر ساعة من يوم الجمعة، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة.

(ج): عن عكرمة خلق فى ساعتين منه الملائكة، وفى ساعتين الجنة والنار، وفى ساعتين الشمس والقمر والكواكب، وفى ساعتين الليل والنهار.

واخْتُلفَ أيهما خلق قبل، والصواب: قول من قال: إن الليل خلق قبل النهار، لأن النهار من ضوء الشمس.

وذكر (ق): أن آدم عليه السلام خُلِقَ يوم الخميس.

وذكر (ط): فى خبر إبليس، أن الله عز وجل خلق الملائكة يوم الأربعاء، والجن يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة.

وقال: بعد إحدى عشرة ساعة منه، فمكث جسدًا ملقى أربعين عامًا من أعوام الدنيا، ثم نفخ فيه الروح، وكان مكثه فى السماء، ومقامه فى الجنة بعد ذلك إلى أن أصاب الخطيئة، وأهبط منها ثلاثًا وأربعين سنة وأربعة أشهر، وذلك من ساعات الأيام الستة فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ...**﴾[1] إلى آخرها.

قال (ح) عن عطاء[2] وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم: «إن الله عز وجل خلق الجبال يوم الثلاثاء؛ فلذلك تقول الناس إنه يوم ثقيل»[3].

قال عطاء وابن عباس ـ رضى الله عنهم: وفرغ من سائر الخلق فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، صحّ لهما.

---

(١) سورة فصلت آية ٩.

(٢) هو عطاء بن السائب بن مالك الثقفى، أبو السائب الكوفى روى عن أبيه، والحسن وسعيد بن جبير وخلق، وعنه أبو حنيفة والسفيانان والحمادان وشعبة، وخلق، قال أحمد: ثقة، رجل صالح من خيار عباد الله، مات سنة ست وثلاثين ومائة.

انظر ترجمته فى: طبقات الحفاظ للسيوطى ٦٧ وخلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ٢٥٥ وشذرات الذهب لابن العماد ١/ ١٩٤ وطبقات ابن سعد ٦/ ٢٣٥ والعبر فى خبر من غبر للذهبى ٨/ ١٨٤.

(٣) النص فى تاريخ الطبرى ١/ ٢٢ (ط دار الكتب العلمية).

قال (س) : وإنما سمى السَّبْت، لأن خلق المخلوقات انقطع فيه، يقال : سَبَتَ شَعْرَهُ، إذا سَحَفَهُ[١] .

والأيام النحسات كل أربع يوافق أربعا من الشهر نحو : أربع خلون، أو أربع بقين، أو أربع عشرة خلت أو بقيت، أو أربعا وعشرين خلت أو بقيت .

قال (ط) : وكل يوم من هذه الستة أيام، مقداره ألف سنة[٢]، وكان بين خلق القلم وسائر المخلوقات ألف سنة، وهو يومٌ[٣] على ما قدمناه .

فقدر ما بين ابتداء الخلق إلى الفراغ منه سبعة آلاف سنة، كذلك روى عكرمة عن ابن عباس، وأبو رَوْقٍ عن الضحاك، وأبو صالح عن كعب، والضحاك بن مُزَاحم يقول : إن أسماء الأيام التى خلق الله فيها المخلوقات الجدال قد نسيت[٤] .

ورواه (خ) عن زيد بن أرقم، وهذا لا تناقض فيه، لأن اختلاف الألسنة واللغات ممكن .

قال ابن عباس ووهب[٥] رضى الله عنهم : إن السموات والأرض والبحار لفى الهيكل، وإن الهيكل لفى الكرسى وإن قدميه عزّ وجلّ على الكرسِيّ، وهو كالنعل لقدميه » انفرد بهذا وهب .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١ / ٢٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٥٩ والمنتظم لابن الجوزى ١ / ١٢٥ .

(٣) قال ابن الأثير: أمَّا ما ورد فى هذه الأخبار من أن الله تعالى خلق الأرض فى يوم كذا، والسماء فى يوم كذا، فإنما هو مجازٌ، وإلاَّ فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال، لأن الأيام عبارة عمَّا بين طلوع الشمس وغروبها، والليالى عبارة عمَّا بين غروبها وطلوعها، ولم يكن فى ذلك الوقت سماء ولا شمس . وإنما المراد به أنه خلق كل شىء بمقدار يوم، كقوله تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بُكْرَةً وعَشِيًا﴾ وليس فى الجنة بكرة وعشى » . الكامل ١ / ٢٠ .

(٤) قال ابن الأثير « أمَّا ما ورد فى هذه الأخبار من أنَّ الله تعالى خلق الأرض فى يوم كذا، والسماء فى يوم كذا، فإنما هو مجازٌ، وإلاَّ فلم يكن ذلك الوقت أيام وليال؛ لأن الأيامَ عبارة عمَّا بين طلوع الشمس وغروبها، والليالى عبارة عمَّا بين غروبها وطلوعها، ولم يكن فى ذلك الوقت سماء ولا شمس، وإنما المراد به أنه خلق كُلَّ شىءٍ بمقدار يوم، كقوله تعالى : ﴿ولهم رِزْقُهُم فيها بُكْرَةً وعَشِيًا﴾، وليس فى الجنَّة بكرة وعَشِىّ . الكامل فى التاريخ ١ / ٢٠ .

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل بن سيح بن ذى كتانة اليمانى، أبو عبد الله الأنْبَارى، مات سنة ١١٠هـ، على خلاف فى ذلك . تقريب التهذيب ٢ / ٢٩٣ وتهذيب التهذيب ١١ / ١٦٧-١٦٨ .

والكرسى داخل فى العرش، والعرش داخل فى علم الله سبحانه وعلا.

(س)[1]: سماء الدنيا من درة بيضاء، والثانية من فضة، والثالثة ياقوتة حمراء، والرابعة درة خضراء، والخامسة ذهب، والسادسة ياقوتة صفراء، والسابعة نور، قد طبقها بملائكة قيام قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة، ورءوسهم تحت العرش من غير أن تبلغه، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

(ق): عن علىّ، وهو البحر المسجور، قال: وهذا تنبيه فى التوراة على أن السماء ما بين ما بين.

(س): وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطيح فيه من الدواب مثل ما فى بحور الأرض، مستمسك بالقدرة[2].

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: السماء الدنيا موجٌ مَكْفُوفٌ[3]، وسقف محفوظ، ولولا ذلك لأحرقت الشمس الأرض ومن عليها، وبين السماء والعرش مسيرة ألف عام، ثم قال رسول الله ﷺ: هو الأول لا شىء قبله، والآخر لا شىء بعده، وهو بكل شىءٍ عليم»[4].

وقال بعض أهل الأثر: إن البيت المعمور، فوق السموات السبع، وله ثلاثمائة وستون بابا جعلت درج الفلك بإزائها، وإن كل علم ورحمة وقضاء، إنما تنزل من تلك الأبواب إلى ما يوازيها من درج البروج، ثم يصير إلى الأرض.

وقال بعضهم: إن الخلائق العالية الروحانية، وهم الملائكة اثنا عشر صفا حِذا البروج الاثنى عشر، وإنهم نوريون، جعل الله فيهم حولا وقوة، يقدر أحدهم أن يلج فى سم الخياط لطفا، ويخوض فى تخوم الأرض والبحار نويرةً.

وزعم أهل الطبائع أن الفلك حى مميز ذو صورة، وأن الكواكب ذوات صور حية ناطقة حساسة.

وروى وهب بن منبه أن النبى ﷺ قال: «إن لله عز وجل ثمانية عشر ألف

(1) النص فى مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٥ـ٢٦.
(2) مروج الذهب ١/ ٢٦.
(3) البدء والتاريخ ٢/ ٦.
(4) الحديث فى مجمع الزوائد ٨/ ١٣١.

عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كحبة خردل فى كف أحدكم»[١].

وفى الحديث: «إن لله عز وجل مدينتين، واحدة بالمشرق واسمها: جابَلَقَا، والأخرى بالمغرب، واسمها: جابَرْصَا[٢]، طول كل واحدة اثنا عشر ألف فرسخ، ولكل مدينة عشرة آلاف باب، يحرس كل باب كل ليلة عشرة آلاف رجل، لا تلحقهم النوبة إلى يوم القيامة، الرجل منهم يعمر ستة آلاف سنة إلى ما دونها، وهم يأكلون ويشربون ويتناكحون، وفيهم حِكَمٌ كثيرة، والمدينتان خارجتان من الدنيا، لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يعرفون إبليس، ولا آدم، يعبدون الله، وإن لهم نورًا يسعون فيه من نور الله، من غير شمس، ولا قمر.

قال رسول الله ﷺ: مَرَّ بى جبريل عليهم فآمنوا بى، فدعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى فأجابوا، فمحسنهم مع محسنكم، ومسيئهم مع مسيئكم»[٣].

* * *

ذكر إبليس

كان الله قد شرَّفه وملَّكه سماء الدنيا والأرض وجعله مع ذلك من خزنة الجنان، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ولذلك سُمُّوا جنًا[٤].

قال ابن عباس: وكان من أشرف الملائكة قبيلا، اسمه: الحارث، وقيل: عزازيل، وكنيته: أبو مرّة، فدخله من ذلك كِبْر، ودعا من تحت يده إلى عبادته.

---

(١) ورد هذا الخبر عن علىّ بن أبى طالب فى البدء والتاريخ ٢/ ٧٢.

(٢) فى معجم ما استعجم ٢/ ٤ جَابَلَق: بفتح الباء واللام بعدها قاف، قال الخليل: جَابَلَق وجَابَلَص بالصاد المهملة: مدينتان، إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، ليس خلقهما أنيس.. وذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْدانى فى كتاب الإكليل: أنَّ فى جابَلَق وَجَابَلَص بقايا عاد وثمود الذين آمنوا بهود وصالح. وانظر: المنتظم ١/ ٣٥ واللآلئ المصنوعة ١/ ٤٥.

(٣) الخبر فى الطبرى ١/ ٤٩ ـ ٥٠ وذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة ١/ ٤٥، وإسناده ضعيف.

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٢٤.

وقيل: إنه أول من أسكن الأرض الجن، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم، حتى ألحقهم بالبحار وأطراف الجبال، فاغتر إبليس فى نفسه، ووقع فى صدره كبر، ولم تعلم بذلك الملائكة، فأراد الله إطلاعهم عليه بما أراهم من معصيته.

وقيل: إن الله عز وجل لما أسكن الأرض الجن بعث إليهم إبليس قاضيا يقضى بينهم، فبقى يقضى بينهم بالحق ألف سنة، حتى سماه الله حكيما، فعند ذلك تكبّر.

وقيل: إن الذين كان بُعِثَ إليهم إبليس: الْبَاس، والعَرَار فاقتتلوا فى الأرض ألفى سنة، حتى إن خيولهم كانت تخوض فى دمائهم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، فبعث الله عند ذلك نارًا فأحرقتهم، وعرج إبليس إلى السماء، فلم يزل يعبد الله مجتهدا، لم يعبده شىء من عباده مثل عبادته حتى كان من آدم ما كان، فأهبطه الله عز وجل فى أقبح صورة وأشرّها تشويها، فسكن البحر، ووضع عَرْشا على الماء، وجُعِلَتْ له ولاية، وأُلقيت عليه شهوة الفساد وجعل لقاحه كلقاح الطير.

وذكرت الهند والفرس إن الجن مائة واثنتان وثلاثون قبيلة، فالذين يطيرون فى الجو خمس عشرة قبيلة، والذين يمشون على أرجلهم خمس وعشرون قبيلة، والذين يخرجون مع الزوابع اثنتا عشرة قبيلة، والذين مع لهب النار عشر قبائل، ومسترقو السمع ثلاثون قبيلة، وسكان الهوى وهم مثل الدخان ثلاثون قبيلة.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: الجن ضَعَفَةُ الجن، وإن الكلاب من الجنّ، فإذا رأوكم تأكلون فألقوا إليهم، فإن لهم أنفسا، يعنى: يَعينُون، أى: يصيبون بالعين.

عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم: أن الله عز وجل أمر جبريل أن يأتيه بطين من الأرض، فاستعاذت الأرض منه، فأعاذها، ثم أمر ميكائيل كذلك، ثم أمر ملك الموت، فاستعاذت منه، قال: أعوذ بالله أن أرجع، ولم أنفذ أمره،

---

(١) سورة ق آية ١٥.

فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنوه مختلفى الألوان[١].

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بعث الله عز وجل فأخذ من أديم الأرض من عذبها وملحها، فمن ثم سمى آدم، ومن ثم قال إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[٢]، أى هذه الطينة أنا جئت بها.

وفى حديث أبى موسى الأشعرى[٣] ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال: خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر ذلك: الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيب[٤].

قال (ط) ثم بُلَّت طينة آدم حتى صارت طينًا لازبًا، ثم تركت حتى صارت حمأ مسنونا، ثم تركت حتى صارت صلصالا كالفخار، ومدة ذلك أربعون ليلة[٥].

وقيل: أربعون عامًا، فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[٦].

وقيل: مائة وأربعون سنة، وهو أصحها.

وذكرَ الأربعين[٧] سنة أيضا، قال: وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل، ثم يدخل من فيه، ويخرج من دبره، ويقول: لست شيئا، ولشىء ما

---

(١) البداية والنهاية ١/ ٧٩، والبدء والتاريخ ٢/ ٨٢ وقصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٣٨.

(٢) الإسراء آية ٦١.

(٣) أبو موسى الأشعرى، عبد الله بن قيس، استعمله النبى ﷺ مع معاذ على اليمن، ثم ولى لعمر الكوفة والبصرة وكان عالمًا عاملاً صالحًا لكتاب الله، إليه المنتهى فى حسن الصوت بالقرآن حدَّث عنه طارق بن شهاب وابن المسيب وخلق، مات فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين.
ترجمته فى: الإصابة ٣/ ٣٥١ وأسد الغابة ٦/ ٣٠٦ وشذرات الذهب ١/ ٥٣ والعبر ١/ ٥٢ والنجوم الزاهرة ١/ ١٢٦ وطبقات القراء للذهبى ١/ ٣٧.

(٤) أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية١/ ٧٩ والترمذى فى سننه وقال هذا حديث حسن صحيح ٢٩٥٥ وابن سعد فى الطبقات ١/ ٢٦ وأبو داود فى سننه ح٤٦٩٣ والطبرى فى تاريخه ١/ ٦٣ والحاكم فى المستدرك ٢/ ٦١ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ١٩٩ ومرآة الزمان ١/ ١٨٨.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٦٣ (ط: دار الكتب العلمية).

(٦) سورة الإنسان آية ١.

(٧) فى الأصل (الأربعون) وهو تحريف.

خلقت، ولئن سُلّطتُ عليك لأهلكك، ولئن سُلِّطْتُ عَلَيَّ لأعصينك ونُفِخَ فيه الروح على ما تقدم آخر ساعات الجمعة، وهو اليوم السادس من نَيْسَان[١]، فجعل ما يجرى الروح فى شىء من جسمه إلا صار لحما ودما، ثم عطس فقالت له الملائكة: قل الحمد لله، فقالها، فقال الله تعالى: يرحمك ربك يا آدم.

فلما رأى ثمار الجنة، دخل الروح فى عينه، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام، فوثب يريدها قبل أن تبلغ الروح رجليه، فذلك قال الله عز وجل: **﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾**[٢].

عن عَلِيٍّ ثم جعل الله آدم محرابا، وكعبة، وبابًا، وقِبْلَةً[٣]، أُسْجِدَ له الرَّوْحَانِيُّون الأبرار، سجدوا إلا إبليس، فأوقع الله عليه اللعنة وأخرجه من الجنة، وبقى فى السماء لم يهبط على الأرض، فذلك قوله: **﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا...﴾** إلى قوله: **﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[٤].

وعلمت الملائكة ما كان عنهم مستترا، ثم عَلَّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، قال عبد الله بن عباس: كلها عموما[٥].

وقال وَهْبٌ: أسماء ذريته، وقال آخرون: أسماء الملائكة، ثم عرض الله سبحانه وتعالى أهل الأسماء على الملائكة، فقال عز وجل: **﴿أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٦].

وكانوا يقولون: لما أخذ فى خلق آدم ليخلق ربنا ما يشاء، فلن يخلق خلقا إلا كنا أعلم منه، فذلك قوله: **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٧].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٧.

(٣) روى المسعودى هذا الأثر فى مروج الذهب ١/ ٢٧.

(٤) الآيات قوله تعالى: ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنَّ عليك لعْنَتِى إلى يوم الدين * قال رَبِّ فأنظرنى إلى يوم يُبْعثُون * قال فإنَّك منَ المُنْظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزَّتك لأغْوِيَنَّهُم أجمعين * إلاَّ عِبادَك منهمُ المُخْلَصِين * قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكَ ومِمَّن تَبِعَك منهم أجمعين﴾ سورة ص الآيات (٧٧ ـ ٨٥).

(٥) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ١/ ٩٧.

(٦، ٧) سورة البقرة آية ٣١.

ففزعوا إلى التوبة، وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١]، ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾[٢] الآية.

* * *

القول فى خلق حواء عليها السلام

ثم خلقت حواء من آدم، وأسكنها الجنة، وأصح ما قيل فى مدة مقامها بها على أن أُهبطا ما تقدّم ذِكرُه، قال: مكثا ثلاث ساعات، وهو ربع يوم ومائتان وخمسون سنة من أعوام الدنيا[٣].

قال: مكثا فيها ستة أيام، وأُهبطا فى يوم الجمعة الثانية، وتظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم يوم الجمعة، وفيه أُهبط إلى الأرض، وأخرجه من الجنة يوم الجمعة، وقبضه يوم الجمعة وتاب عليه يوم الجمعة[٤].

وقال بعضهم: أُخرج آدم من الجنة فى الساعة العاشرة أو التاسعة، والمعروف ما تقدّم أولا.

كما أن بعضهم قد ذكر أنه خلق لساعتين مضتا من يوم الجمعة، وقيل لثلاثٍ[٥]، والصحيح ما تقدم.

وأَهبط الله آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذى خلقه فيه بالهند على جبل يقال له: وَاشِمٌ[٦]، عند واد يقال له سُهَيْل بين الرَّهْنَج والمَنْدَل، وهو بِشَرْقى أرض

(١) سورة البقرة آية ٣٢.

(٢) سورة البقرة آية ٣٣ ﴿قال يا آدمُ أَنْبِئْهُم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أَقُلْ لكم إِنِّى أعلمُ غَيْبَ السموات والأرضَ وأعلمُ ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون﴾.

(٣) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٩.

(٤) المنتظم ١/ ٢٠٧.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٧٥.

(٦) المعارف لابن قتيبة ١٥ وفى المنتظم ١/ ٣٠٨ «واسم». وعن ياقوت: واسم، وقال: جبل بين الدهنج والمندل فى أرض الهند وهما بشرقى أرض الهند والخبر فى تاريخ الطبرى ١/ ١٢٢

الهند[1]. وقيل على جبل يقال له: يرد[2]، وقيل: بِسَرَنديب، على جبل الرُّهُون منها، وعليه الوَرَق الذى خصفه فيبس، فذرته الريح فى بلاد الهند؛ فَعِلَّةُ كون الطِّيب فى بلاد الهند من ذلك الوَرَق عن ابن عباس رضى الله عنهما، مثله.

وأُهبطت حواء بجدة، والحَيَّةُ بإصْبَهَان[3]، وقيل: بالبَرِيَّةِ وإبليس بساحل بحر الأُبُلَّة[4] بميسَان.

أبو جعفر: وهذا لا نعلم صحته.

وأما هبوط آدم بأرض الهند، فذلك ما لا يرفع علماء الإسلام فيه، وأهل التوراة، وأهل الإنجيل.

وإن آدم لما أهبطه من الجنة، أخرج معه ثلاثين قضيبا مُودعَة أصناف الثمار[5]، منها: العشرة لها قشرة، وهى: الجوز، واللوز، والجَلُوزُ، والفستق، والخشخاش، والشاه بُلُوط، والبلوط، والرابخ، وهو جوز الهند، والموز، والرمان، وعشرة ذوات نوى، وهى: الخوخ، والمشمش، والأجاص، والرطب، والغُبَّيْرَل، والنبق، والزعرور، والعناب، والمقل، والقراسيا.

ومنها ما لا قشر له ولا حجاب ولا نوى، وهى: التفاح، والسَّفَرْجل، والعنب، والكمثرى، والتين، والتوت، والأُتْرُجُّ، والقثَّاء، والخيار، والبطيخ، مثله إلا أنه ذكر مكان المُقْلِ الشَّاهِلُوكِ، وهو العُنَيْقد، ومكان القثاء الخَرْنُوب.

---

(١) انظر: مروج الذهب ١/ ٢٩.

(٢) فى المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٠٨: على جبل يقال له نَوْذ.
وفى تاريخ الطبرى: بَوْذ، وفى الكامل: (نُوْد) بضم النون وسكون الواو وآخره دال مهملة.
وفى البلدان لياقوت (نوذ) ٥/ ٣٥٨ «نَوْذ: بالفتح ثم السكون، وذال معجمة: جبلٌ بسرنديب عنده مهبط آدم - عليه السلام - وهو أخصب جبل فى الأرض، ويقال: أمْرَع من نَوْذ وأجْدب من بَرَهُوت».

(٣) راجع: تاريخ الطبرى ١/ ١٢٢ والمنتظم ١/ ١٢٢ ومروج الذهب ١/ ٢٩.

(٤) فى الأصل: «الأَيْلَة» وهو تحريف: وانظر المنتظم ١/ ٢٠٨.
الأُبُلَّة: بضم أوله وتشديد اللام وفتحها: بلد على شاطئ دجلة بالبصرة معجم البلدان ١/ ٨٩ ومعجم ما استعجم بتحقيقنا ١/ ٨٨.

(٥) انظر: مروج الذهب ١/ ٢٩-٣٠ وتاريخ الطبرى ١/ ١٢٨ ومرآة الزمان ١/ ٢٠٢ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢١٠.

وأما المُقْل فإنه يثمر بالهند ثمرًا طيبا، يستعمل ولا يكاد يثمر فى غيرها، ولها شجر يشبه النخل.

ثم جاء آدم عليه السلام فى طلب حواء، فتعارفا بعرفات فبذلك سميت، وازْدُلِفَت حواء بالمزدلفة فسميت بذلك أيضا.. طوى الله له الأرض وقبض المفاوز، فلم يضع آدم قدمه فى موضع إلا صار عمرانا، حتى وصل إلى مكة.

كان موضع قدميه قرية، وخطوته مفازة.

وعن عطاء وابن عباس ـ رضى الله عنهم، أن آدم لما أُهبط، كان يمسح رأسه السماء، ومن طوله نفرت دواب الأرض، فصارت وحشيا من يومئذ، ثم اتفقا فحفظه الله عز وجل، حتى حَطَّ طوله إلى ستين ذراعا[1].

صحّ عن النبى ﷺ فقال: يا ربّ كنت أسمع أصوات الملائكة يسبحونك، وأجد ريح الجنة وطيبها، وكنت آنَسُ بذلك، فقد ذهب ذلك عنّى، فأجابه الله سبحانه: يا آدم لمعصيتكِ فعلتُ بك ذلك، وأوحى الله إليه أن لى حرما بحيال عَرْشِى، فانطلق فابن فيه بيتا تُحَفَّ به، كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى، فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى[2].

فقال آدم: يا رب وكيف لى بذلك، فقيَّض الله له ملكا، فانطلق به نحو مكة، فكان آدم إذا مرّ بروضة أو مكان يعجبه، فسأل الملك أن ينزل به، حتى أتى مكة، فصار كل مكان نزل به عمرانا، وكل مكان تعدّاه مفازةً، فبنى البيت من خمسة أجبل[3]، من طور سيناء وطور زَيْتَا، ولبنان، والجُودِىّ، وبنى قواعده من حِرَاء، ثم أراه الملك المناسك كلها.

ثم ذكر أيضا أن شيئًا بنى الكعبة بالحجارة والطين، وأنه كان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة، لما اشتد جزعه على مفارقتها، وأن تلك القبة لم تزل فى

(١) الكامل فى التاريخ ١/ ٣٧، وذكر ابن كثير أنَّ فى هذا نظرًا، ففى الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» وهذا يقتضى أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعًا، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن، قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٤٨.

(٢) انظر: الكامل فى التاريخ ١/ ٣٧، وقصص الأنياء لابن كثير ١/ ٤٨.

(٣) المنتظم ١/ ٢١٤.

الكعبة حتى رفعها الله سبحانه وتعالى حين أرسل الطوفان.

وكان آدم قد أنزل معه الحجر الأسود[١]، وكان درة بيضاء وقال ابن عباس: ياقوتة بيضاء، وعصا موسى وكانت من آسِ الجنة، طولها عشرة أذرع على طول موسى، ثم أنزل الله عليه الصُّلاَّقَ والمِطْرَقة، وكان أول شىء ضرب آدم المُدْيَة ثم ضرب التنور، وهو الذى ورثه نوح عليه السلام، ففارَ بالعذاب بالهند، وغزلت حواء الصوف والشعر من الثمانية أزواج التى أنزل آدم من الجنة، وحاكته بيدها حاكهُ آدم فاكتسيا، وبقى آدم وحواء يبكيان على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة، ولم يقرب حواء مائة سنة ولم يأكلا، ولم يشربا أربعين يوما، ولم يزل سائلا الله قبول توبته، وأن يرجعه إلى الجنة حتى أجابه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَم مِنْ رَبِّه كَلِمَات﴾[٢].

قال جماعة: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ الآية[٣]، واستطعم آدم ربه، فبعث إليه جبريل بسبع حبات من حنطة، وزن الحبة مائة ألف درهم، وثمانمائة درهم، وأراه كيف يبذرها.

وقيل: إن آدم أهبطها مع نفسه من الجنة، فلما بلغ الزرع أتاه أمر الله فدرسه، ثم أذْرَاهُ وطحنه، ثم أمره فعجنه وأراه جبريل كيف يُورى النار فطبخه، فلم يبلغ ذلك حتى بلغه الجُهْدَ ما شاء الله أن يبلغ، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّة فَتَشْقَى﴾[٤].

ومسح الله ظهر آدم بنُعُمَان من عرفة، فأخرج ذريته فنشرهم بين يديه كالذَّرِّ، فأخذ مواثيقهم، كما تكرر فى التفسير.

* * *

(١) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ١/ ٨٤ـ٨٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف، آية ٢٣، والآية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسنا وإن لم تَغْفِرْ لنا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ من الخاسرين﴾.

(٤) سورة طه، آية ١١٧.

القول فى كيفية تصور الجنين

ذكر جالنيوس فى كتابه عن أبِقْراط الحكيم، أن مقام المَنِىِّ مقام الفاعل والمفعول به فى تصور الجنين.

وقال صاحب المنطق: إن المَنِىَّ يغتذى دم الحيض قبل الحركة يستحيل ريحا، فيخرج من الرحم.

وحكى جالنيوس أيضا أنه يجرى إليه الدم الذى هو الطمث فينميه، ويجذب عليه الروح من العروق والشرْيَانات.

وقد ذهب قوم أن فى الرَّحِمِ قالبًا يتصور فيه الجنين، والذى يقضى على جميع هذا هو ما أخبر به البارى سبحانه وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1]، ولم يخبر بكيفيته ذلك بل استأثر بعلمه، فهذا مما ينقطع علم العقول عنده، وذكر أن له عز وجل ألف أُمَّة وعشرين أمة، بعدد الكواكب الثابتة، فى البحر منها ستمائة، وباقيها فى البر، أحسنها كلها صورة، وأجلها خلقا، وأتمها اعتدالا.

الإنسان خلقه الله ـ عز وجل ـ على صورة إسرافيل وفى الحديث:

«لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل». ويقال: إن فى الإنسان من كل الخلق، فلذلك سخر له جميع الحيوان، وأكل جميع المأكولات، وعمل بيده جميع الأعمال، وألهم على جميع المنافع والمضار، وعلم العلوم، وإياه خاطب البارى ـ عز وجل ـ وهو المُتَعَبَّدُ من هذه الأمم وعليه وقع الأمر والنهى.

وكان آدم لا يولد له بطن إلا توأمين، ذكرًا وأنثى فيخالف بينهم فى المناكح، حتى ولد له ابنان يقال لأحدهما قابيل والآخر هابيل، الصحيح قاين، وقد ذكر (س)[2] على بن الجهم ذلك فى قصيدته فى بدء الخلق: [من الرجز]

---

(١) سورة آل عمران، آية (٦).

(٢) المقصود بالرمز (س) المسعودى فى كتابه مروج الذهب.

واقْتَنَيْنَا الابن فسمّى قاينا
وعايَنَا من نَشْئه ما عايَنَا[١]
فَشَبَّ هابيلُ وشَبَّ قاينُ
ولم يكن بينهما تَبَايُنُ

فزوج أخت قاين هابيل وأخت هابيل قاين، وتلك كانت شيمة آدم احتياطا[٢].

وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف بين البطون[٣]، ولم يتخذ المخالفة. ولهم فى هذا سر يدعون فيه الفضل، قد ذكرته فى كتابنا الموسوم بأخبار الزمان، فأبى قابيل أن يتزوج أخت هابيل لأنها كانت أخته أجمل من أخت هابيل وقال: أنا أحق بها «فقربا قربانا على الله عز وجل - أيهما أحق بالجارية، فقرب هابيل شاة سمينة وكان صاحب ماشية، وقرب قابيل حزمة سنبل وكان صاحب زرع، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل.

(ق): وكان ذلك بمنًى[٤] فغضب قاين وقال: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾، فكان من أمرهما ما نصه الله تعالى[٥]، فاغتاله قاين فى برية ببلاد دمشق من أرض الشام، وقتله شَدْخًا[٦] بحجر، ويقال: إن الوحش هناك استوحش من الإنسان لأنه بدأ بالشر والقتال، وكان من الغراب فى المواراة ما كان.

---

(١) مروج الذهب ١/ ٣٠.

(٢) يعنى الاحتياط لأقصى ما يمكنه من ذوى المحارم، لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب.

(٣) انظر: مروج الذهب ١/ ٣٠.

(٤) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٧ «فقرَّبا القربان بمنىً، فمن ثَمَّ صار مذبح الناس إلى اليوم».

(٥) قال الله تعالى: ﴿واتْلُ عليهم نبأَ ابْنَى آدم إذْ قَرَّبا قُرْبانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر قال لأَقْتُلَنَّكَ قال إنَّما يَتَقَبَّلُ اللهَ من المتَّقين * لئن بسطت إلىَّ يدك لَتقتلنى ما أنَا بباسطٍ يدى إليك لأقتلك إنّى أخافُ الله ربَّ العالمين * إنّى أريدُ أن تبوءَ بإثمى وإثمك فتكونَ من أصحاب النّار وذلك جزاء الظالمين * فطوّعت له نفسُه قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فأصبحَ من الخاسرين * فبعثَ الله غُرَابًا يبحثُ فى الأرض ليريه كيف يُوارى سَوْأَةَ أخيه قال يا ويلتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النّادمين﴾ سورة المائدة، الآيات (٢٧ - ٣١).

(٦) شَدْخُ الشىء: كسره وسَجُّه.

وفر قابيل بأخته إلى عدن من أرض اليمن، وبلغ آدم ما صنع، فوجد هابيل قتيلا وقد نشفت الأرض الدم، فلعنها ـ من أجل لعنته لا تنشف الأرض الدم ـ ومن أجل لعنته أنبتت الشوك.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول:

«إن قابيل وتوأمته وُلِدا لآدم فى الجنة، فلم تجد حواء ـ عليها السلام ـ عليهما وَصبًا ولا طَلْقًا ولم تر معهما دما ثم أول ما ولدت بالأرض هابيل وتوءمته فوجدت ما تجده النساء. ويقوى هذا ما أتى فى الحديث عن ابن عباس ووهب وابن زيد وغيرهم، أن الله عز وجل ـ لما قال لآدم: يا آدم أمِنْ أين أتيت؟ قال: من قِبَلِ حواء. قال: علىَّ أن أجعلها تحمل كرها وتضع كرها، فقد كنت خلقتها تحمل يسرا وتضع يسرا»(١).

قال صاحب هذه المقالة ولذلك فاق حُسْنُ أخت قابيل أخت هابيل.

وقال قوم: لم تكن قصة هذين الرجلين الذى قتل أحدهما أخاه فى عهد آدم ولا كانا لصلبه، إنما كانا من بنى إسرائيل. قالوا لأن القربان لم يكن إلا فى بنى إسرائيل(٢).

والصحيح ما قدمناه عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس(٣) مظلومة إلا كان على ابن آدم كِفْلٌ منها، لأنه أول من سنّ القتل»(٤).

وتكررت الأخبار عن علىٍّ ـ رضى الله عنه ـ أن آدم ـ عليه السلام ـ بكى هابيل فقال(٥): [من الوافر]

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ١/١٠٨ وتفسيره ١/٥٢٥.

(٢) الطبرى ١/٩١ وتفسيره ١٠/٢١٤ والمنتظم ١/٢٢٣.

(٣) فى الكامل ١/٤٤ «ما من نفس تُقْتَل ظلمًا».

(٤) أخرجه البخارى، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريّته، ومسلم كتاب القسامة ـ باب إثم مَنْ سَنَّ القتل، والترمذى: كتاب العلم، باب ما جاء الدَّال على الخير كفاعله ٥/٢٦٧٣ والنسائى، كتاب تحريم الدم.

وانظر: تاريخ الطبرى ١/٩١ وتفسيره ١٠/٢١٤ والمنتظم ١/٢٢٣ والكامل ١/٤٤.

(٥) استفاض الناس فى شعر يعزونه إلى آدم، حين حزن على ولده وأسف لفقده، انظر فى ذلك: المنتظم ١/٢٢٤ ومروج الذهب ١/٣١ وتفسير الطبرى ١٠/٢٠٩ ومرآة الزمان ١/٢١٧ـ٢١٨ =

تَغَيَّرَتِ البِلاَدُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الأَرْضِ مغبرٌّ قَبِيحُ
قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلاً أَخَاهُ ... فَوَا أَسَفًا عَلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
فَمَا لِى لاَ أَجُودُ بِسكْبِ دَمْعِي ... وَهَابِيلُ تَضَمَّنَهُ الضَّرِيحُ
أَرَى طَولَ الْحَيَاة علىَّ غَمًّا ... وَمَا أَنَا مِنْ حَيَاتِى مُسْتَرِيحُ
أَبَا هَابِيلَ قَدْ قُتلاَ جَمِيعًا ... وَصَارَ الْحَىُّ كَالْمَيْت الذَّبِيحِ[١]
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِى طَعْمٍ وَلَونٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهُ الْمَلِيحُ[٢]

وأوحى الله إلى آدم: إنى مخرج منك نورى الذى أباهى به الأنوار، وأجعله خاتم النبيين الأبرار. فتَطهَّرْ وقَدِّسْ وسَبِّحْ واغْشَ زوجتك على طهارة منها. فإن وديعتى تنتقل منكما إلى الولد الكائن بينكما، فواقع آدم حواء، فحملت لوقتها، وتلألأ النور فى مخائلها ولمع من محاجرها، حتى إذا انتهى حملها وضعت (شيثا) بعد خمس سنين من مقتل هابيل، ولمائة سنة وثلاثين من مهبط آدم، وقال فى خبر شيث ولمائتى سنة وخمس وثلاثين.

ومعنى (شيث) هبة الله خلف من هابيل ـ كذلك قال أهل التوراة[٣] ـ وذكروا

= وقال: وقد أنكر ابن عباس هذا الشعر، وقال: من قال إن آدم قال شعرًا، فقد كذب على الله ورسوله، ورمى آدم بالمأثم، إن آدم والأنبياء كلهم فى النهى عن الشعر سواء، ولكن لَمَّا قتل قابيل هابيل رثاه آدم، وهو سريانى، وإنما يقول الشعر من يتكلم العربية، فلمَّا قال آدم مرثيته فى ابنه هابيل، وهو أول شهيد كان على وجه الأرض، قال آدم لشيث: يا بنىّ إنك وَصِىّ، فاحفظ هذا الكلام ليتوارث فِرق الناس عليه، فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، وهو أوّل من خَطَّ العربية، وكان يقول الشعر، فنظر فى المرثية، فإذا هى سجع، فقال: إنَّ هذا ليقُوَّم شعرًا، فردَّ المُؤخر إلى المُقَدَّم، والمُقَدَّم إلى المؤخَّر، فوزنه شعرًا، وما زاد فيه ولا نقص، فقال الأبيات».

(١) فى الأصل (بالميت).

(٢) رُوِىَ هذا البيت ينصب بشاشة من غير تنوين، ورفع الوجه على أنه فاعل قَلَّ، وذلك ليسلم من الإقواء.
ومنهم من يرفع بشاشة على الفاعلية ويضيفها إلى ما بعدها، فيكون فى البيت إقواء.
قال ابن كثير فى قصص الأنبياء ١/ ٥٢، هذا الشعر فيه نظر، وقد يكون آدم عليه السلام قال كلامًا يتخزَّن بلغته، فألَّفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال، والله أعلم».

(٣) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٨ أنه فى التوراة أن آدم طاف على امرأته حواء، فولدت له غلامًا =

أنه وُلِدَ فردًا بغير توأم، لم يولد لآدم فرد سواه. قال وهو بالعبرانية (شيث)، وبالعربية (شت)، وبالسريانية (شاة)[1]، وانتقل النور من (حوّاء) إليه، حتى لُمح من أسارير جبهته وسبق فى طلعته وغُرَّته، حتى إذا ترعرع وأينع، كان كأسرّ الناس، وأحسنهم صورة، وأتمهم وقارا، وأكملهم هيبة، مجلّلا بالنور والهيبة، موشحا بالجلال والأبهة، وكان أشبه ولد آدم بآدم ثم أشبههم به بعده (يوسف)، فعهد إليه آدم، وعرَّفه بمحل ما استودعه. وأعلمه؛ لأنه حجة الله بعده وأنه الخليفة فى الأرض، والمؤدّى حقَّ الله، فاحتقب[2] شيث بتلك الوظيفة واحتفظ بمكنونها.

وذكر ابن اسحاق أن جميع ما ولدته حواء لآدم أربعين بطنا، وقد عدَّ (ق) من أسماء ذكرانهم خمسة عشر اسما، وقالت طائفة:

إن حواء ولدت لآدم مائة وعشرين بطنا. قال: ويقال إن آدم مات عن أربعين ألفا من ولده، وولد ولده.

وأنزل الله على آدم تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وحروف المعجم فى إحدى وعشرين ورقة، وهو أول كتاب كان فى الدنيا أخذ الله عليه الألسنة كلها[3]. وإلى (شيث) تنتهى أنساب البشر باجتماع. وانقرض سائر ولد آدم قال: وقد قال غيره ذلك.

وأمر آدم بكتابة الصحف، وعلم اللغات كلها التى تقر بها الجن والشياطين، وحساب الأزمنة، ومسير الكواكب، وسأل ربه أن يريه مثال الدنيا، وما يكون فيها من خير وشر إلى يوم القيامة فَمَثُلَتْ له برا وبحرا، فنظر إليها وإلى من يملكها ويسكنها من ولده وأورى صورة الأنبياء وما يكون فى العالم.

ولما كَثُرَ ولده بعثه الله إليهم بعد[4] سبعمائة سنة وسبعين سنة من مهبطه،

= قسمَّاه شيئًا، من أجل أنه خَلَفَ من عند الله مكان هابيل. وانظر: سفر التكوين - الإصاح الرابع، الآية ٢٥.

(١) فى تاريخ الطبرى ١/ ٩٦ وهو بالعربية: شث وبالسريانية: شاث وبالعبرانية: شيث».

(٢) احتقب، أى أحكم حفظها، وادَّخرها. انظر القاموس (حقب) ١/ ٧٥.

(٣) انظر: المعارف لابن قتيبة صـ١٨.

(٤) فى الأصل (فى).

يأمرهم وينهاهم ثم أمره الله ـ عز وجل ـ إذا أراد أن يتوفاه أن يجعل وصيته إلى شيث ويعلمه جميع هذه العلوم المذكورة وأمره أن يرفع إليه مصحفه بسر الملكوت الذى كان عنده، ولا يمتحنه بعد شيث إلا إدريس، فكانوا يتوارثونه مختوما لا ينظرون فيه، حتى وصلت إلى إدريس ثم كانت الوصية من ولد شيث، فيمن يأتى ذكره، حتى وصلت إلى إدريس ـ صلوات الله عليهم ورضوانه ـ، وعُمِّرَ آدمُ تسعمائة[١] سنة وثلاثين سنة.

* * *

القول فى وفاة آدم ـ عليه السلام ـ

تكررت الروايات عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: إن الله ـ تعالى ـ لما فرغ من خلق آدم ـ عليه السلام ـ قبض له يديه، وقال له: «اختر»، فقال: «اخترت يمين ربّى ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين ـ ففتحها فإذا فيها صورته وصورة ذريته، وإذا كل واحد مكتوب عنده أجله، وإذا آدم كُتِبَ له عُمْرُ ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور، فقال آدم:

«يا رب من هؤلاء؟» فقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ «هؤلاء الأنبياء والرسل» وإذا فيهم رجل هو أضوؤهم نورا ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة، فقال آدم: «يا رب ما هذا. . .[٢] ذلك أجله الذى كتبت له»، قال: «يا رب انقص له من عمرى ستين سنة[٣]، قال رسول الله ﷺ: ثم أهبطه الله إلى الأرض، فكان يَعُدُّ أيامه، فلما أتاه ملك الموت ليقبضه قال آدم: «عجلت علىَّ يا ملك الموت، وقد بقى من عمرى ستون سنة»، فقال له ملك الموت: «قد سألت ربك أن يكتبها لابنك داود»، فقال: «ما فعلت»، فقال رسول الله ﷺ: «فنسى آدم فنسيت

---

(١) فى الأصل (مائتى).

(٢) فى تاريخ الطبرى ١/ ١٥٥ فقال يارب ما بال هذا من أضوئهم نورًا، ولم يكتب له من العمر إلاّ أربعون سنة، فقال: ذاك ما كتب له، فقال: يارب انقص له من عمرى ستين سنة. .».

(٣) الحديث ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٧ وذكره بنحوه الترمذى فى كتاب التفسير ـ سورة الأعراف، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٣٢٥ وابن كثير فى قصص الأنبياء ١/ ٤٠ـ٤١.

ذريته، وجحد فجحدوا». فيومئذ وضع الله الكتاب وأمر بالشهود[١]، وأكمل لآدم ألف سنة، ولداود مائة سنة[٢].

ويزعم أهل التوراة والإنجيل أن عمر آدم تسعمائة وثلاثون سنة، وكذلك ذكر (حفص القرطبى) فى تاريخه[٣]، وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عمره كان تسعمائة وستة وثلاثين سنة.

قال ابن إسحاق: إن آدم لما قبض كسفت عليه الشمس والقمر سبعة أيام[٤]، وذُكر عن يحيى بن عباد عن أبيه أن الله بعث إليه كفنه وحنُوطه من الجنة.

صح عن أُبىٍّ أن الملائكة غسّلته، وكفّنته، وصلّى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ثم دفنوه وقال: «هذه سُنَّتكم فى موتاكم يا بنى آدم»[٥].

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن شيثا قال لجبريل ﷺ: «صَلِّ على آدم» فقال له جبريل «تقدّم أنت فصلِّ على أبيك، وكبّر عليه ثلاثين تكبيرة»[٦]. قال الطبرى: «ومات على الجودى» الجبل الذى أهبط عليه يوم الجمعة، لستٍّ خَلَوْنَ من نيسان فى الساعة التى خلقه فيها[٧].

وتنازع الناس فى قبره: فمنهم من قال: إنه بمنى، ومنهم من قال: إنه فى كهف فى جبل أبى قُبَيس فى غار يعرف بغار الكنزِ، وذكر: أن نوحا أخرجه عند الطوفان ثم أعاده فى مكانه، وقيل: إنه دفنه حين أخرجه من السفينة ببيت المقدس. والله أعلم.

وعاشت حواء بعده سنة، ثم دفنت معه فى الغار المذكور.

* * *

(١) انظر: عرائس المجالس للثعلبى ٤٨ـ٤٩.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ١٥٥ـ١٥٦.

(٣) انظر: تاريخ اليعقوبى ١/ ٧ والمعارف لابن قتيبة ١٩.

(٤) البداية والنهاية ١/ ٩١.

(٥) انظر الخبر فى: المعارف لابن قتيبة ١٩ والبداية والنهاية ١/ ٩١، وتاريخ الطبرى ١/ ١٥٨ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ١٢٧.

(٦) أخرجه أحمد فى المسند ٥/ ١٣٦ والهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٩.

(٧) تاريخ الطبرى ١/ ١٦١.

شيث عليه السلام

لم يزل مقيما بمكة يحج ويعتمر، وجمعَ ما أنزل الله من الصحف ـ وهى خمسون[١] ـ ولم يزل عاملا بما فيها، وبنى الكعبة بالحجارة والطين. قال ابن إسحاق وتزوج أخته (حَزْوَرَة) فولدت له (أنوش)[٢] لمائة سنة وخمس وستين من عمره.

وتوفى شيث وقد بلغ تسعمائة سنة واثنتى عشرة سنة[٣]، انتقل النور الذى ذكرناه إلى أنوش، وقلد سياسة الملك وتدبيره» بعد أن مضى شيث إلى سبيله، ولم يَخْلُفْ بنين وبنات سوى أنوش.

وفى زمن أنوش قُتِلَ قابيل بن آدم، قاتل أخيه هابيل، قال ولقتله خبر عجيب قد أوردناه فى كتاب أخبار الزمان. قال وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الأول، فكانت مدته تسعمائة وستين سنة[٤].

وذكر أن قابيل لما هرب من أبيه إلى اليمن حين قتل أخاه أتاه إبليس فقال له: «إن هابيل إنما قُبِلَ قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك» فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها[٥].

قال: وولد قابيل أول من ضرب الصَّنْجَ، وولده أول من تَجَبَّر، قال: ولم يمت آدم حتى أظهروا الفواحش والمعاصى، ونهى آدم شيثا وولده أن يناكحوهم.

قال: ولم يتركوا عُقْبا إلا قليلا، فجُهِلت أنسابهم وانقطع ذكرهم.

ونسل الناس اليوم من شيث بن آدم، وقال جماعة من أهل الهند ممن يُقِرُّ بآدم،

---

(١) فى الحديث عن أبى ذرّ عن الرسول ﷺ: «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسون صحيفة». قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٥٨.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٣.

(٣) انظر: تاريخ اليعقوبى ١/ ٨.

(٤) مروج الذهب ١/ ٣٣.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ١٦٥.

ينتسب إلى هذا الشعب من ولد قابيل، وأرض هذا النوع أرض قِمَار من الهند، وإليهم يضاف العُود القِماريّ. وولدَ أنوش بن شيث (قينان) ـ وإليه الوصية ـ ونفرا كثيرا، قال: فولدَ قينان مهلائيل، فولد مهلائيل إليارِد، فولد إليارد خَنُوخ وهو إدريس بعد مائة سنة من عمره وكان عمر قينان تسعمائة سنة[1]، وتوفى فى تموز، وكان عمر مهلائيل ثمانمائة سنة وخمسا وثمانين سنة.

والنسّابون من الفرس ـ يزعمون أن مهلائيل هو أشيم[2] الذى ـ ملك الأقاليم السبعة، وأنه أول من استخرج المعادن وأول من بنى المدائن، بنى مدينة بابل، ومدينة السُّوس، ومدينة الرَّىّ، وكان فاضلا محمودا فى سيرته، ونزل الهند، وتنقل فى البلاد، ولما استوثق الأمر عقد على رأسه تاجا وخطب خطبة ذكر فيها أنه ورث الملك عن جده جيومرث ـ وهو آدم عندهم. وذكر أنه قهر إبليس وجنوده ومنعهم من الاختلاط بالناس، وكتب عليهم فى قرطاس أبيض أخذ عليهم فيه المواثيق ألا يعرُضوا لأحد من الإنس، وأنه قتل منهم جماعة من مَرَدَتِهم ومن الغيلان.

وكان عُمْرُ يارد تسعمائة سنة وإحدى وستين سنة، وكانت وفاته فى أذار، قال: وكان بين ولد قاين ويارد حروب ـ وقد ذكرناها فى أخبار الزمان ـ[3].

* * *

إدريس ـ عليه السلام ـ

قال المسعودى[4]: «الصابئة تزعم أنه هُرْمسٌ ومعنى هرمس عطارد، نبأه الله ـ عز وجل ـ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من طرز الطُّرز، وخاط الثوب، وأول من خطَّ بالقلم[4] بعد آدم وكان يَعُد عدة خطوط، وهو أول من

(١) انظر: المعارف لابن قتيبة ٢٠.

(٢) فى تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٨ اسمه: «أَوْشَهَنَك».

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٤.

(٤) النص عن المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٣٥.

(٥) انظر: المعارف ٥٥٢.

جاهد فى سبيل الله ـ عز وجل ـ وسَبَى ولد قاين لما دعاهم إلى الله فلم يجيبوه، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، فتمت الصحف يومئذ ثمانين صحيفة.

ولما ولد إدريس، أتى إبليس محويلَ الملك فى صورة روحانى له جناحان، وأخبره أنه ولد مولود يكون عدوا للألهة، وسبب فساد، فقال له الملك «أتقدر أن تُهلِكَهُ» قال: «سأحرص على ذلك»، فوكل الله بإدريس ملائكة يحفظونه، وأوصى إليه أبوه، ونبأه الله بعد أربعين سنة من عمره.

وذكر أنه رفع فى حياة أبيه، وأن أباه يارد عاش بعد رفع إدريس أربعمائة سنة وثلاثين سنة، وتنبأ على عهد آدم وقد مضى من عمر آدم ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة.

ق: عن وهب[١] كان إدريس طويلا ضخم البطن، عريض الصدر وكانت إحدى أذنيه أكبر من الأخرى، وكانت فى جسده نكتة بيضاء من غير برص، وكان رقيق الصوت، قريب الخطى، وسمى إدريسا لكثرة ما كان يدرس من كتب الله عزّ وجل.

وقال: واستجاب له ألف إنسان، ورفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة. وقيل: إن إدريس أول من نظر فى النجوم بعد آدم، وأن أزرائيل الملك علمه علم الفلك والكواكب وسعودها ونحوسها، وصور البروج.

وفى التوراة: أن إدريسا أحسن خدام الله تعالى[٢] ـ فرفعه الله إليه، ولما رأى إدريس انهماك ولد قابيل فى المعاصى سأل الله ـ تعالى ـ أن يرفعه إليه ويطهره من خطاياهم، فأجابه الله إلى ذلك، وأوحى إليه أن يلازم الهيكل أربعين يوما هو وشيعته، وكانوا سبعين حبرا، فاغتسلوا ودخلوا هيكل الله المنصوب وقدسوا الله فيه أربعين يوما، وأوحى الله إليه أن اجعل الوصية فى (مُتوَشْلِخَ)[٣] فإنى مخرج من ظهره نبيا. أرضى فعله[٤].

---

(١) ساق ذلك ابن قتيبة عن وهب بن منبه فى حلية إدريس ﷺ انظر: المعارف صـ٢٠ـ٢١.

(٢) الإصحاح الخامس ـ سفر التكوين ـ آية ٨.

(٣) فى تحقيق متوشالخ، متو: مات، وشالخ: الرسول. وقيل: متوشلخ ومتوشالخ ومتوشالح. راجع: المعارف صـ٢١.

(٤) مروج الذهب: ١/ ٣٤.

فلما رفع إدريس حزن عليه بنو آدم الحنفاء حزنا شديدا، وكثر الاختلاف والتنازع، وأشاع إبليس أنه أراد الصعود إلى الفلك فاحترق، وسُرَّ بعده محويل الملك، وأظهر أن صنمهم الأكبر أهلكه؛ فزادوا فى عبادتها والتقرب إليها.

ولزم متوشلخ الهيكل مع بنى أبيه، والأحبار السبعين فولد إدريس متوشلخ، وولد متوشلخ لامك وأهل الإنجيل يقولون لامِنْ، وإليه الوصية ووُلِدَ لِلاَمِك نوح، أمه قينوش من ذرية قابيل بن آدم القاتل وذلك بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة.

وروى عن جماعة من السلف: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على ملّة الحق، وأن الكفر إنما حدث فى القرن الذى فيه نوح، وإنه أول نبى بعث إلى الكفار.

قال الوصيفى: وقد اختلف الناس فى المدة التى كانت بين آدم ونوح.

فقال أصحاب التواريخ: ألفا سنة وعشر

وقال بعضهم: ألف سنة وسبعمائة سنة وكسر

وقال المِصْرِيُّون: ثمانية عشر ألف سنة.

لأن الطوفان كان وقلب الأسد فى أول درجة من السرطان ومقامه فى كل برج ستة آلاف سنة، وهى ثلاث بروج، صح وصفا.

* * *

القول فى نوح - عليه السلام -

ذُكر أنه بعث بعهد بيوراسب، وتقدم فى خبر إدريس أنه كان وقع إليه كلام من آدم فاتخذه سحرا فى ذلك الزمان، فكان إذا أراد شيئا من جميع مملكته أو أعجبته امرأة أو غير ذلك، نفخ قصبة كانت له من ذهب، وكان يجئ إليه كل شىء يريده، فمن ثم ينفخ اليهود، وكان قومه أهل أوثان، قال الله عز وجل - حكاية عنهم -: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ الآية[1].

(١) سورة نوح آية ٢٣.

وروى عن عبد الله بن عباس: إن الله بعثه إليهم وهو ابن أربعمائة سنة، وثمانين سنة، ثم دعاهم فى نبوته مائة وعشرين سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ثم مكث بعد ذلك ثلاثمائة سنة وخمسين، فذلك ألف سنة إلا خمسين عاما.

وقال وهب كذلك: أنه بعث ابن خمسين، فدعا قومه إلى أن بلغ ستمائة سنة، عن ابن عباس إنه بعث ابن أربعين، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ثم كان الطوفان وعاش بعد ذلك مائة سنة وقيل: عاش بعد الطوفان ستين سنة، فذلك ألف وخمسون. قال وهب: وعُمِّرَ نوح ألف سنة لأنه بعث ابن خمسين وأقام فيهم ألفا إلا خمسين، وقالت طائفة: إن عمره كان ألفا ومائتى وخمسين سنة فلم يجبه قومه.

قال ابن اسحاق: كان لا يأتى منهم قرن إلا أشد من الذى قبله، وكانوا يقولون: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنونا وكانوا يبطشون به، ويخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون حتى يئس منهم وعظم طغيانهم، فشكا إلى ربه ودعا عليهم بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾[1] الآية، وبقوله: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، فأوحى الله سبحانه إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3].

قال عبد الله بن عباس، وقد كان الله أمره بغرس شجرة فغرسها، وبقيت أربعين سنة، فعظمت وتناهت، ثم أمره بقطعها، فاتخذ منها السفينة.

وزعم أهل التوراة[4]: أنه أمره أن يتخذها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا، وعرضها خمسين ذراعا وأن يجعلها ثلاثة أطباق، وبابها فى عرضها. صحّ عن ابن عباس.

(١) سورة نوح آية ٢١.

(٢) سورة نوح آية ٢٦.

(٣) سورة المؤمنون آية ٢٧.

(٤) نص التوراة فى سفر التكوين ـ الإصحاح السادس والسابع والثامن عن المعارف لابن قتيبة صـ٢٢.

وقال الحسن: طول سفينة نوح ألف ذراع، ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وقال القرطبى فى كتاب الديوان:

إنه أنشأها فى مائة سنة، وأقامت على البر سبعة أشهر.

وقيل: إنه لم يدر كيف يصنعها، فأتاه جبريل فأمره أن يصنعها مثل صدر الدجاجة، فلما فار التنور بالهند - وهو تنور من حجارة - كان لحواء قاله ابن عباس وقد تقدم غير ذلك، وقيل: فار بناحية الكوفة - رواه الليث عن مجاهد وكان الشعبى يحلف بالله، ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة.

وأدخل نوح فى السفينة من أمره الله بإدخاله، وما أمره من الأزواج، وأدخل التابوت الذى فيه آدم. (ق): وكان من خشب الشَّمْشَار، وقال غيره حملته الملائكة وكان بتهامة، فأدخل مع نفسه ثمانين نفسا، روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وقال ابن جريج: أدخل بنيه الثلاثة وكنائنه الثلاث، وامرأته، فكانوا ثمانية نفر.

عن ابن إسحاق: وكانوا عشرة نفر.

عن وهب: مثله أدخل بنيه ونساءهم، وأربعين رجلا وأربعين امرأة، وكذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢].

قال الوصيفى: إنه كان معه فى السفينة ستمائة رجل سوى ولده، وقال قوم: إنهم أعقبوا، وقال قوم، لم يعقبوا إلا ولد نوح.

قال ابن الكلبى: إنه حمل معه فى السفينة امرأته، وبنيه الثلاثة ونساءهم - ثمانية نفر - واثنين وسبعين سواهم. قال غيره: كلهم من ولد إدريس إلا (فَيْلَمُون) كاهن مِصْرَ، فإن ملك مصر كان أنفذه إلى الدَّرَمْشِيلَ ليُحَاجَّ نوحا فى عبادة الأصنام، فآمن بنوح.

وأدخل من كل زوجين اثنين، قال ابن عباس - رضى الله عنهما:

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١/ ١٠٣.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٥.

أول ما حمل الذُّرة، وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار تعلق إبليس بذنَبِه، فلم تَسْتَقِلَّ رجلاه، وجعل نوح يقول: ويحك ادخل، فلا يستطيع، حتى جزم نوح وقال:

ادخل وإن كان الشيطان معك، كلمة زلت عن لسانه، فلما رآه نوح فى السفينة قال له: من أدخلك علىَّ يا عدوّ الله، قال ألم تقل كذا، كذا، وأمره الله أن يدخل معه قوت سنة، وجعل تابوت آدم حاجزا بين الرجال والنساء.

وكان ركوبهم فى السفينة لسبع عشر خلون من آذار، عن وهب: لعشر خلون من رجب، على رأس ستمائة سنة من عمر نوح، ثم أرسل الله الماء أربعين يوما بلياليها، وتحركت ينابيع الغوط حتى طبق الماء الأرض، وارتفع على أعلى جبالها خمسة عشر ذراعا، ثم حمل الماء الفلك، وجعلت تجرى بهم فى موج كالجبال، وسارت بهم الأرض كلها، وطافت بالحرم أسبوعا، ولم تدخله، ورفع البيت المعمور على أبى قُبَيْسٍ، وهو الذى بناه آدم، فبقيت فى الماء مائة وخمسين يوما باتفاق من أكثرهم، واستقلت يوم عاشوراء من المحرم، فصام نوح وأمر من معه من الإنس والوحش والدواب فصاموا شكرا لله عز وجل ـ فكان بين الوقت الذى أرسل الله الطوفان إلى أن غاض الماء ستة أشهر وعشرة أيام، وذكر الوصيفى: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: سنة.

وكذلك روى ابن إسحاق عن ابن الكلبى: أن نوحا ركب السفينة لثلاث عشرة مضت من رمضان، وخرج منها أول يوم من رمضان من قابل، فذلك سنة إلا ثلاثة عشر يوما.

قال: وبقى الماء فى الأرض الحرم، وهى حَسْمَى خمسا وأربعين سنة بعد أن غاض الماء من جميع الأرض من المحَبِّرِ ولم يبق على الأرض شىء من الحيوان ولا الشجر إلا ما حُمل فى السفينة.

وأما العوجُ ابن أعناق ـ فيما يزعم أهل الكتاب ـ فإن الطوفان لم يغرقه، ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده[١].

فهذه البحار من بقايا ذلك الماء، ذكر أنه ما أسرع من الأرض إلى بَلْع مائه، كان

(١) انظر رد الإمام ابن كثير على بطلان ذلك بالمعقول والمنقول فى البداية والنهاية ١/ ١٠٧.

ماؤه إذا احتفر عذبا، وما لم يسرع إلى القبول أعقبه الله بماء ملح وسبخ، والحديث من ذلك إلى ثغور من الأرض فمن ذلك البحار، وهى بقية من هلك به من أمم.

واستقلت السفينة بالجُودِىِّ وهو جبل بالحَضِيض[١] من أرض الموصل بينه وبين الدجلة ثمانية فراسخ.

قال: وموضع جنوح السفينة على رأس الجبل، إلى هذه الغاية، وابتنوا فى سفح الجبل مدينة سموها مرقة ثمانين بعددهم.

وقيل بنوها بقِرْدَى[٢]، فسموها ثمانين، قال وهى تعرف بذلك إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

ووجه نوح التابوت الذى فيه جسد آدم ـ عليه السلام ـ إلى غار الكنز فجعل فيه[٣] ـ وقد تقدم الاختلاف فيه.

وأوحى الله إلى نوح ألا يعيد الطوفان[٤] أبدا، وإن قوسه الذى فى السحاب أمان من ذلك.

وتزعم المجوس أنهم لا يعرفون الطوفان، ويقولون: إن الملك لم يزل فينا من عهد جَيُمرت وهو آدم، وبعضهم يقر بالطوفان ويزعم أنه كان بإقليم بابل، وأما هم وديارهم بالمشرق، ولم يصل إليهم.

وكان نوح من أولى العزم من الرسل، وكان طويلاً جسيمًا[٥]، أَدَمَ دقيق البشرة، فى رأسه طول، عظيم العينين، دقيق الساعدين والساقين، كثير لحم الفخذين، طويل اللحية.

---

(١) فى الأصل (بالحضين).

(٢) قَرْدَى: بفتح أوّله وإسكان ثانيه، كُورة فى ديار ربيعة، وهى كُلُّها بين الحيرة والشام. معجم ما استعجم ٣/ ٣٠٥.

(٣) فى المعارف لابن قتيبة صـ١٩ عن وهب بن منبه: «وحفر له فى جبل أبى قُبَيْس حين كان زمن الغرق، فاستخرجه نوح وجعله معه فى تابوت فى السفينة، فلما نضب الماء وبدت الأرض لأهل السفينة رَدَّه نوح إلى مكانه».

(٤) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ١١٩.

(٥) فى صفة نوح وحليته عن وهب بن منبه، راجع: المعارف لابن قتيبة صـ٢١.

وهلك (محويل) الملك على رأس مائتى سنة من عمر نوح، وملك بعده ابنه (الدرمشيل) فأعلى أمر الأصنام، وشدد فى عبادتها ودعا الناس كافة إليها، ونال نوحا بمكروه كثير وحبسه حتى رأى فى منامه رؤيا هالته، فأمر بإرساله من السجن، وهو الذى أدركه الطوفان، ولما اتصل بالدرمشيل أن نوحا قد ركب السفينة، وحمل فيها ما أمره الله عز وجل ـ أقبل فى عدة من أصحابه ليحرقها عليهم: فلما أتاه قال: يا نوح أين الماء الذى يحمل سفينتك هذه، قال: هو يأتيك فى مقامك هذا، فقال: وهذا أعجب أن تقول إنه يكون فى أرض يبس ماء غُمْرٌ يحمل هذه السفينة فانزل منها وإلا أحرقكم أجمعين، فقال نوح: ويلك ما أشد اغترارك بالله، فعجل الإيمان واخلع الأنداد تسلم وترشد.

فبينما هو فى محاورته، إذا أتاه من أخبره أن امرأته كانت تخبز فى تنورها، فنبع الماء منه، فقال: ما عسى أن يكون من ماء، قد فار من تنور؟ فقال له نوح إنها علامة السخط، وإن الأرض تخلخل فيأتى الماء من جميعها، فحرك فرسك فإن الماء سينبع من تحت قدميه، فأزال الفرس من موضعه، فإذا الماء ينبع من موضع حوافره، فعاد إلى موضع آخر فكان كذلك، وعادت رسله تخبره أن الماء قد كثر وفار، فرجع إلى داره ليأخذ أهله وولده، ويَتَحَصَّن فى المعاقل التى كان عملها لذلك، فكانت الحجارة تنحط عليها من رءوس الجبال، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر، ويقال إنه كان ماء ذميما منتنا فأهلك أهل الأرض إلا من كان فى السفينة وإِلاّ عوج ـ على ما تقدم.

* * *

خبر عوج ابن أعناق

قال وزعم أنه إذا قام صارت السحاب له مئزرًا، وقال غيره: عوج بن عناق[١].

وذكر فى بعض الأخبار أن حواء ولدت لآدم عناقا مفردة، بغير ذكر مشوهة الخلق، لها رأسان، ولها فى كل يد عشرة أصابع، لكل إصبع ظفران مثل المنجلين الحادين.

وذكرها علىٌّ - رضى الله عنه - وقال: هى أَوَّلُ من بغى وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصى، واستخدمت الشياطين، وصرفتهم فى وجوه السحر، وكان الله - عز وجل - قد أنزل على آدم عُوذا وأسماء تطيعها الشياطين، ويملكون بها - على ما تقدم - فعلقها على حواء لتكون لها حرزا، وكانت حواء تصونها فاستغفلتها عناق وهى نائمة فأخذتها، واستجلبت الشياطين بتلك الأسماء، وعملت السحر، وجاهرت بالمعاصى، وأضلت كثيرا من ولد آدم، وولدت عوجا الجبار، فدعا عليها آدم، فأَمَّنت حواء فأرسل الله إليها أسدا أعظم من الفيل، فمزق أعضاءها وأراح الله منها، وعُمِّرَ عوج إلى زمان فرعون، ولم يغرقه الطوفان ولا بلغ ماؤه إلا بعض جسده، وطلب السفينة ليغرقها وقطع صخرة على قدر عسكر موسى[٢]. وكان فيه أكثر من مائتى ألف - ليطرحها عليهم، فأرسل الله عليه طيرا، فنقر تلك الصخرة فنزلت من رأسه إلى عنقه، ومنعته الحركة، وأمر الله - عز وجل - موسى بقتله فوثب موسى، وكانت وثبته عشرة أذرع وطوله مثل ذلك وطول عصاه مثل ذلك أيضا، ولم يلحق إلا عرقوبه فقتله، وأقام جسرا على النيل يعبر الناس والدواب عليه مدة طويلة.

وفى حديث آخر أنهم جروه بألف عجلة وألفى ثور فى كل يوم نصف ميل، إلى أن طرحوه فى بحر القُلْزُم.

---

(١) ويقال عَوْج بن أعتاق، راجع هذا الخبر والرد عليه فى البداية والنهاية ١/ ١٠٩ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٣٥٤ ومرآة الزمان ١/ ٤٢٩.

(٢) المنتظم ١/ ٣٥٥.

وقيل بل قطعوه قطعا وجروه إلى البحر، وقيل: ترك بموضعه وأردم عليه بالصخر والرمل، فكان كالجبل العظيم فى صحراء مِصْر.

* * *

القول فى ذرية نوح عليه السلام

قال بعض أهل التوراة: لم يكن التناسل ولا وُلد لنوح ولد إلا بعد الطوفان، وإنما كان معه فى الفلك قوم آمنوا به، إلا أنهم باروا فلم يبق عقب.

وقال بعضهم: كان لنوح قبل الطوفان ابنان، هلك أحدهما: كنعان ـ وهو الذى غرق فى الطوفان ـ والآخر عاش ومات قبل الطوفان. وروى عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: ولد نوح الذى غرق: كنعان، والعرب تسميه يام.

(ق): المختلف عن نوح الذى قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾[1] لم أر له فى التوراة ذكرا. يقال له: اسمه يام، والعرب تقول: إنما هو عمنا يام.

* * *

ذكر بيوراسب

وتسميه أيضا الضحاك[2]، وهو ذو الأفواه، والعجم تدعى الضحاك، واليمن تدعيه وتنسبه هذه النسبة، تزعم أنه علوان بن عبيد[3] بن عويج، وأنه ملك ألف سنة، وملك الأرض كلها، وإياه يعنى أبو نواس بقوله: [من المنسرح]

وكان مِنَّا الضَّحَّاك يعبدُهُ الـ ـخَابِلُ والجنّ فى مَسَارِبِهـا[4]

(١) سورة هود، آية ٤٢.

(٢) قال ابن خلدون فى تاريخه ٢/ ١٧٩: «وهو بصاد بين السين والزاى وحاء قريب من الهاء، وكاف قريبة من القاف».

وراجع أيضًا: تاريخ الطبرى ١/ ١٩٤.

(٣) فى تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٩ «ابن عبيدة».

(٤) البيت لأبى نواس فى ديوانه ١٥٥ وفيه (والوحشُ فى مساربها).

الخابل: ضرب من الجنّ.

وإياه عنى حبيب بقوله[١]: [من الرجز]

ما نالَ ما قَدْ نالَ فرعون ولا هامانُ في الدنيا ولا قارونُ

بل كان كالضَّحَّاك في سطوتهِ بالعالمين وأنت أفريدونُ

والفرس تسميه الازدهاق، وتنسبه نسبة أخرى، وهو أول من سن الصَّلْبَ، ووضع العشور.

يقال: إنه خرج فى مَنكِبَيْه سِلْعَتَان، كل واحدة منهما كرأس الثعبان. قال كثير من أهل الكتاب يتحركان تحت ثوبه إذا جاع أو غضب، فكان يشتد وجعهما حتى يطليهما بدماغ إنسان، فكان يقتل لذلك رجلين كل يوم، وكان يقسمهما على الآفاق.

وزعموا أنه نمرود صاحب إبراهيم، وقد زعموا أنه مقيد مغلول فى جبل دُنْباوَنْد بين الرى وطبرستان، واتخذوا اليوم الذى قيّد فيه عيد المهرجان، قيده أفريدون، فقام عليه كابى رجل من أهل أصبهان ـ من أجل ابنين له قتلهما، ودعا الناس إلى مجاهدته، فأسرعوا إليه، ونهضوا إلى الضحاك، فألقى الله الرعب فى قلبه، وخلا عن منازله، فافتتح الأعاجم ما أرادوا، واجتمعوا إلى كابى وسموه درفش كابى، وتبركوا به، فأعلمهم أنه لا يتعرض لِلْمَلك، وأقرهم أن يملّكوا من بيت المملكة، وكان أفريدون مستخفيا من الضحاك فملّكوه، وهو أول من تسمى بالكيية[٢] كَيْ[٣] أفريدون، فقام عليه. وتفسير ذلك من التنزيه والبهاء واتبع الضحاك وأسره، واتخذوا ذلك اليوم عيدا، وسموه المهرجان، وأصله بالفارسية «مَهْرَمَاه» أى: نفس الملك ذهبت».

وأفريدون هو أول من ذلل الفيلة وامتطاها، ونتَّج البغال وعالج بالترياق. وقد

(١) البيتان لأبى تمام فى ديوانه ٣/ ٣٢١ من قصيدة يمدح بها الأفشين وتاريخ الطبرى ١/ ١٩٤ والمنتظم ١/ ٢٤٥ ومرآة الزمان ١/ ٢٥٠.

(٢) فى تاريخ الطبرى ١/ ٢١٣ (ط) دار المعارف «قيل: إن أفريدون أوَّل من سُمِّى بالكيِّيَّة، فقيل له: كَىْ أفريدون، وتفسير الكيّيّة أنها بمعنى التنزيه كما يقال: روْحانى، يعنون به أن أَمْرَه مخلص منزّه يتصل بالروحانية وقيل: إن معنى (كَىْ) أى طلب الدخل.
ويزعم بعضهم أن (كَىْ) من البهاء، وأن البهاء تغشى أفريدون حين قتل الضحاك».

(٣) انظر: المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٦.

زعم بعضهم أن الضحاك كان فى زمن نوح وإليه أُرْسل.

وروى عن النبى ﷺ فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[١] أنهم سام، وحام، ويافث»[٢] وبذلك تكررت الأخبار والآثار، وهم لأم واحدة، وقيل تزوجها بعد خمسمائة سنة من عمره، وأصاب حام امرأته فى السفينة، فدعا نوح أن يغير الله نُطْفَتَهُ، فجاءت بالسودان.

وقال أهل التوراة: إن نوحا تعرَّى، فأبصر حام عورته، فأطلع على ذلك أخويه، فأخذا رداء فألقياه على عواتيقهما ومشيا على أعقابهما فواريا عورة أبيهما ـ وهما مدبران ـ فعلم بذلك أبوه نوح، فقال: ملعون كنعان ـ بنى حام ـ يكونون عبيدا لأخويه ومبارك سام، ويكثّر الله يافث[٣].

أما سام فسكن وسط الأرض: الحرم وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت إلى عُمان إلى البحرين إلى عالج ويبرين ووبار والدُّو، والدَّهْنَاء.

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: نزل بنو سام سرَّةَ الأرض فيما بين ساتيدما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله ـ عز وجل ـ فيهم النبوة والكتاب، وسام كان القيم بعد نوح فى الأرض ـ ومن ولده الأنبياء كلها، عربها وعجمها، والعرب كلها يَمَنِيُّها ونزارها.

فولد سام (أرفخشد) وهو أرفخشات، وهو القائم بأمره بعده، وإرم وما كان فمن ولد أرفخشد قحطان بن غابر بن شالخ بن أرفخشد أبو اليمن، وجرهم بن يقطن بن غابر نزلوا مكة وقطورا ـ بنو عمهم ـ وجُرْهُم أخوال ولد إسماعيل وملكان بن أرفخشد من ولده الخضر عليه السلام.

ومن ولد إرم عاد بن عوص بن إرم، ومنازلهم الأحقاف والرمل إلى

(١) الآية ٧٧ من سورة الصافات.

(٢) الحديث أخرجه أحمد فى المسند ٥/ ٩ و١١ والترمذى فى سننه ح ٣٢٣١ و ٣٩٣١ والطبرانى فى المعجم الكبير ٧/ ٢٥٤ و١٨/ ٤١٦ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢٠٩ وابن سعد فى الطبقات ١/ ٤٢ وابن كثير فى التفسير ٧/ ١٩ والبداية والنهاية ١/ ١١٥.

(٣) الإصحاح التاسع من سفر التكوين، الآيات ٢٠ـ٢٧.

وانظر: مروج الذهب ١/ ٣٥، والمعارف ٢٥ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٧.

حضرموت، وثمود بن غابر بن إرم، منازلهم الحَجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، وطسم، وجديس أبناء لاوذ بن إرم، نزلوا اليمامة وما حولها إلى البحرين، واسم اليمامة إذ ذاك جو. وأخوهما عمليق بن لاوذ، نزل بعضهم الحرم، وبعضهم الشام[١].

فطسم، وجَديس، وعاد، وثمود، والعماليق، ويَعْرُب، وجُرْهُم هم العرب العاربة[٢]؛ لأنه لسانهم الذى جُبلوا عليه، ويقولون لبنى اسماعيل، العرب المتعربة؛ لأنهم تكلموا به حين سكنوا بين أظهرهم.

ومن العماليق الجبابرة بالشام، والفراعنة بمصر، وأهل تَيْمَاء وعمان. منهم أمة يسمون جاسم[٣]، وكان ملك أهل الحجاز وتيماء منهم، واسمه الأرقم.

ومن ولد إرم أميم بن لاوَذ بن إرم أخوهم. نزلوا بأرض وبار وأجناسُ الفرس كلهم من ولده، ومن إرم شقّ الكاهن الأول ابن حويل بن إرم ـ وهذا غير شقّ الأنمارى، فأما ماش فنزل بابل ومنه النبط أجمعون، وأرنيط بن ماش.

وزعم قوم أن النبط من ولد كنعان بن حام، وولد ماش نمرود بن ماش صاحب الصَّرح، مَلَك خمسمائة سنة، وهو ملك النبط، وفى زمانه فرق الله الألسنة فجعل فى سام تسعة عشر لسانا، وفى حام سبعة عشر وفى يافث ستة وثلاثين، وبنى الصرح بعد البَلْبَلِة وهو الذى يسمى المجدل، وكان ارتفاعه خمسة آلاف ذراع ومائة وسبعين ذارعا، وكان أسفله أوسع من أعلاه، وكان فيه محاريب كثيرة من فائق الرُّخام مزينة بالذهب والجوهر، وما لا يكاد سامعه يصدق الخبر عنه.

ويقال إنه بناه بأرض فارس، لأنه بعد البلبلة انتقل عن بابل إلى أرض فارس، وفرض على الناس عبادة النار، ويقال إن المجدل بُنِى فى زمان غابر.

---

(١) العبارة بنصها عن مروج الذهب للمسعودى ١/ ٣٥.

(٢) فى أنساب الأشراف ١/ ٣ ـ ٤ «العرب العاربة عاد وعبيل ابنا عوض بن إرم بن سام بن نوح، وجُرهم بن عابر بن سبأ وهو ابن أرفخشذ بن سام بن نوح، وطسم وعَمليق، وجاسم وأميم بنو يلمع بن عامر بن أشليخا بن لوذين سام بن نوح وحضر موت، وهو حضر موت وشالاف وهو السلف، والموذاذ وهو المود بنو يقطان ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، وثمود وجديس بن إرم بن نوح ويقظان، وهو يقطن فى قول بعضهم».

(٣) فى الأصل «داسم».

وذكر أن لاوذ ولد سام لصلبه، وذكر أنه كان لسام ولد يسمى آدَمَ، وذكر أنه يسمى مالكا وأنه حيي ـ وذلك أن ساما دفن تابوت آدم فى وسط الأرض، ووكل مالكا بقبره فأوحى الله إليه: إن الذى وكلته بقبر آدم أبقيه إلى آخر الأبد.

فأما يافث بن نوح: فمن ولده الصقالب، وبرجان والأشبان أعجمية، وكانت الأشبان منازلهم أرض الروم، ومن ولده الترك والخزر، ويأجوج ومأجوج[١].

وأما حام بن نوح فولده قوط بن حام، فنزل الهند والسند، وأهلها طرًا من ولده، وأهل الهند يقولون إنهم من ولد سلا بن قوط، وسلا: أحد ملوك العالم المشهورين.

وكنعان بن حام من ولده الجبابرة والكنعانيون بالشام، الذين قاتلهم موسى، ويوشع بن نون، ويقال إن فراعنة مصر منهم، وهؤلاء غير العمالقة ومنهم جالوت، وكوش والنوبة، والزنج، والفزان والزغاوة والقبط والحبشة والبربر.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وفارس، والروم، وأهل الشام وأهل مصر، ويافث أبو الخزر، ويأجوج ومأجوج، وحام أبو هذه الجبلّة السوداء»[٢].

وقال سعيد بن المسيب: «ولد نوح ثلاثة، وولد لكل واحد منهم ثلاثة، سام ولد العرب والفرس والروم ـ وفى كل هؤلاء خير، وحام ولد السودان، والقبط، والبربر، ويافث ولد الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وليس فى واحد من هؤلاء خير»[٣].

وقال أهل الخبر: إن الشيطان نزغ بين بنى سام، وبنى حام فوقعت بينهم مناوشات وحروب، كانت الدائرة فيها لسام وبنيه، وكان من أمر حام، أن هرب إلى ناحية مصر، وتفرَّق بنوه ومضى على وجهه يريد المغرب حتى انتهى إلى السُّوسِ الأقصى، إلى موضع يعرف اليوم بِأَسْفَا، وهو آخر مرْسى تبلغه مراكب البحر من عين الأندلس إلى ناحية القبلة، وليس بعده للمراكب مذهب، وخرج

(١) المعارف، لابن قتيبة صـ٢٦.

(٢) أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١٠٨ والحافظ أبو بكر البزار فى مسنده.

(٣) الخبر فى تاريخ الطبرى ١/ ٢١٠ والمنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٤٧.

بنوه فى أثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعا.

وانقطع عنهم خبره، وأقامت بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ووصلت إليه طائفة منهم، فأقاموا معه وتناسلوا هناك.

وكان عمر حام أربعمائة سنة وإحدى وأربعين سنة أو قال قوم: كان عمره سبعمائة سنة وسبعين سنة، ولما مات دفنه[١] بنوه فى صخر منقور فى جبل أصيلة.

وقال الجيهانى: إنما تفرقت الألسنة حين ملكهم نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام، فردهم عن الإسلام، فأمسوا وكلامهم السريانية وأصبحوا وليس منهم مخلوق يعرف بكلام صاحبه؛ فتبلبلت ألسنتهم، ففهَّم الله تعالى ـ العربية عادا وعبيل ابنى عوص بن سام بن عمليق وطسم، وأميم، وجاسم بنى لاوذ بن سام هكذا ذُكر.

قال الطبرى: فافترقت لغة بنى آدم على اثنين وسبعين لسانا، لبنى سام منهما اثنان وثلاثون، وسائرها لبنى حام وبنى يافث. قال: ونزل عبيل بموضع المدينة ـ مدينة النبى ﷺ فأخرجت العماليقُ بنى عبيل من المدينة وأنزلوهم موضع الجُحْفَة[٢]، فأقبل سيل من الليل فاجتحفهم فألقاهم فى البحر فسميت الجُحْفَةُ، وقد احتمل السيلِ الحجّاج بالجحفة، سنة ثمانين من الهجرة، ويقال: إنها عند ذلك سميت الجُحْفَة، فذهب كثير من الناس وأمتعتهم، ورحالهم وذلك يوم الاثنين.

وقال أبو السنابل: [رجز]

لَمْ تَرَ عَيْنى يوم الاثنين
أكثر محزونًا وأبكى للعين
إذْ هَبّ السيل بأهل المصْرَيْن

(١) فى الأصل «دفنوه».

(٢) ذكر البكرى فى معجم ما استعجم ٢/ ١٤ سبب تسمية الجُحْفة لأن السّيول اجْتَحَفَتْهَا. وذكر ابن الكلْبى أنَّ العماليق أخرجوا بنى عَبيل، وهم إخوة عاد، من يثرب، فنزلَوا الجُحْفة، وكان اسمها مَهْيَعة، فجاءهم السيل، فاجتحفهم، فسمّيت الجُحْفة. وبين الجحفة والبحر نحو من ستة أميال.

وأقبـل المُخَبَّآت يَسْعَيْن
حـواسرا فى جبلين يَرْقُلْن

ويقال أيضا: إن النبط من ولد أرفخشد، وإرم وملوك بابل من النبط، وهم الذين عمَّروا الأرض، ومهَّدوا البلاد، وكانوا أشرف ملوك الأرض، فأذلهم[١] الدهر وصاروا إلى ما هم عليه من الذلة فى هذا الوقت، كما شاهد من بالعراق وغيرها منهم، وقد ادّعى كثير ممن ذكرنا أنهم من العرب، وأكثر أجناس العجم[٢] يزعمون أنهم عرب، فرقة من الروم تزعم أنها من غسان، من آل جَفْنة، ممن دخل مع جبلة بن الأَيْهَم[٣] الغسَّانى ـ أحد ملوكهم إلى بلاد الروم، فإنه دخل معه ثلاثون ألفا فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه.

وقوم منهم يزعمون أنهم من إياد دخلوا بلاد الروم، عند إجلاء أبرويز إياهم من أرض العراق فى سبعين ألفا، فنزلوا أنقرة، وقوم منهم يزعمون أنهم من ولد قُضَاعة من تنوخ، خرجوا من الشام مع هرقل ملك الروم لما غلبه المسلمون عليها.

ونصارى الشام يزعمون أنهم من العرب، فبعضهم يقول: إنه من ولد الحارث ابن كعب بن مذحج، ناقلة من الشام، وبعضهم يقول: إنه من لخم رهط النعمان ابن المنذر ـ وكانوا كلهم على دين النصرانية ـ وبعضهم يقول إنه من آل عَبَّادِ بن تميم رهط زيد بن العبّادى، وبعضهم يزعم أنه من بنى سليم، والدَّيْلَمُ تزعم أنها من بنى قيلة بن أُدّ بن طابخة، وذلك بأن سابل بن ضبة نافر إخوته، فسار إلى بلاد الديلم فأقام بها. والجَدَلِجَيَّةُ خاصة يزعمون أنهم من حِمْيَر، وغيرهم من أجناس

---

(١) فى الأصل «فأدال منهم».

(٢) فى الأصل (العرب).

(٣) جَبَلَة بن الأَيْهَم بن جبلة الغسانى، من آل جفنة: آخر ملوك الغساسنة فى بادية الشام، عاش زمنًا فى العصر الجاهلى، وقاتل المسلمين فى دَوْمَة الجندل (سنة ١٢هـ) وحضر وقعة اليرموك (سنة ١٥هـ) وهو على مقدمة عرب الشام من لخم وجذام وغيرهما، فى جيش الروم، وانهزم الروم وجبلة معهم، ثم أسلم، وهاجر إلى المدينة (فى رواية ابن خلدون) ثم ارتدَّ فيها وخرج إلى بلاد الروم. وفى رواية البلاذرى أنه ارتدَّ فى الشام، ولم يزل بالقسطنطينية عند هرقل (ملك الروم) إلى أن توفى ٢٠ هـ). الأعلام ٢/ ١١١ـ١١٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨١١ وفتوح الشام للبلاذرى ١٤١ و١٤٢.

الترك يدعى العرب، ويسمون أولادهم بأسماء العرب العاربة.

والأكراد يزعمون أنهم من قيس، ثم من هوازن، وهم مقيمون على هذه الدعوة إلى هذه الغاية.

والخزر يزعمون أنهم من قريش ومن بنى أمية، وأن الدولة العباسية لما ظهرت هرب قوم من بنى أمية، فتناسلوا هناك.

والبربر كلهم يزعمون أنهم من العرب، وهَوَّارَة تزعم أنها من عاملة ناقلة من الشام، وزويلة تزعم أنها من جُرْهُم لما نالهم ما نالهم بمكة هربوا فصاروا بزويلة.

وقبط مصر - من أهل الصعيد - يزعمون أنهم من ربيعة ثم من تغلب، وأن قوما من تغلب انتجعوا بإبلهم أرض مصر لطلب الكلأ - وهم على دين النصرانية، فتزوجوا القبطيات وتناسلوا هناك وهم التيمون من القبط.

والحبشة - الذين ببلاد النجاشي - يزعمون أنهم من اليمن، فغلبت الحبشة على أرض اليمن فى قديم الدهر، ومُلكُهم بها ومُقامُهم بها أربعون[١] سنة، حتى صاهروا، وصوهر إليهم.

* * *

هود - عليه السلام -

عن وهب: هو ابن عبد الله بن رباح بن حارث[٢] بن عاد بن عوص بن إرم[٣] - ومنهم من يزعم أنه: هود بن غابر بن شالخ بن أرفخشد - هذا هو قول أهل اليمن - لما وقعت العصبية بين يمن ومُضَر ففخرت مُضَرُ بأبيها إسماعيل، ادعت اليمن هود أنه من ولد أرفخشد أبيها.

وقال حبيب البصرى: هو هود بن عبد الله بن الخلود[٤]، أرسله الله على

---

(١) فى الأصل (اربعين).

(٢) فى الأصل: (حاوب) تحريف.

(٣) ابن إرم بن سام بن نوح، المعارف لابن قتيبة صـ١٢٨.

(٤) فى البداية والنهاية ١/ ١١٢ «هود بن عبد الله بن الخلود بن رياح بن الجارود بن عاذ بن عوض ابن إرم بن سام بن نوح».

قومه عاد - الأولى - وكانوا ثلاث عشرة قبيلة وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح.

وذكر جماعة من أهل العناية: أن المُلك بعد نوح تأثّل فى عاد الأولى، قبل سائر الممالك وذلك قوله - عز وجل -: **﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾**[١]. قال: كانوا فى هيئة النخل طولا، وكانوا فى القوة واتصال الأعمار بحسب ذلك.

قال وآثارهم بالشحْر، ومواضع مساكنهم تدل على عظم أجسامهم قال وكان عاد رجلا جبارا يعبد القمر، وتزوج ألف امرأة، وولد من صلبه أربعة آلاف ولد، وعاش ألفا ومائتى سنة.

ثم ملكهم بعده ولده شداد بن عاد. وهو الذى بنى مدينة إرم ذات العماد وهذه عاد الثانية -، فقد قال الله - تعالى - فى الأولى وبيَّنها بقوله عز وجل -: **﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾**[٢]، وقال فى هذه: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾**[٣].

ولشداد مسير فى الأرض، وحروب فى البلاد، ويقال: إنه تغلب على سائر ملوك الأرض.

ويقال: إن جيرون بن سعد حلَّ دمشق فمَصَّرَ مِصْرَهَا، وجمع عَمَدَ الرخام والمرمر إليها، وشيَّد بنيانها، وسماها إرم ذات العماد وبقية هذا البنيان فى هذا الوقت بدمشق يعرف ببنيان جيرون وهو بناء عظيم.

وأكثرهم كان بالدَّوّ، والدهناء، وعالج، ويبرين، ووبار إلى عمان والشحْر وحضرموت، والأحقاف، قال الله - عز وجل -: **﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾**[٤]، فلما سخط الله عليهم جعلها مفاوز وغياضًا - وكانت أخصب البلاد - ولحق هود ومن تبعه بمكة، فلم يزالوا حتى ماتوا.

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٩.

(٢) سورة النجم آية ٥١.

(٣) سورة الفجر الآيتان ٦، ٧.

(٤) سورة الأحقاف آية ٢١.

(د) ويقال إن قبر هود بحضرموت(١).

وقال أبو الطفيل: سمعت عليا ـ رضى الله عنه ـ يقول لى: رأيت كثيبا أحمر يخالطه مُدْرَة حمراء، وأراك، وسدر كثير بناحية كذا، وكذا من أرض حضرموت هل رأيته؟ قال: نعم والله إنك لنعتَّ نعت رجل. قال: ما رأيته ولكنى حدثت عنه وفيه قبر هود ـ عليه السلام ـ عند رأسه سدر وسلَم.

وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة: أن رجلا من مهرة أتى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقال ممن أنت؟ قال له: من مهرة قال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(٢) وقال ابن لهيعة: قبر هود بمَهْرَةَ.

وكانت عاد أصحاب أَوْثَان(٣)، وكانت لهم ثلاثة أصنام:

صَمّود، وصَدَّاء، والهَبَا. قال الله عز وجل ـ حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾(٤) فحبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فأوفدوا وفودا ليستسقوا لهم بمكة، وهو قَيْلُ بن عِتْر، ولُقيم بن هزّال، ومرثْد بن سعد ـ وكان مسلما يكتم إسلامه ـ، ولقمان بن عاد، وجُلْهُمة بن الخُبَيْرى ابن خال معاوية بن بكر فبلغوا بأشياعهم سبعين، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر ـ وهذه عاد الأخرى ـ وكانوا أخواله وأصهاره فأكرمهم وأقاموا يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان، قينتان لمعاوية فمكثوا كذلك شهرا، فلما رأى ذلك شقَّ عليه، وقال لهم هلك أصهارى وأخوالى، وهؤلاء مقيمون وقد بعثوهم يتغوَّثون لهم واستحيا أن يأمرهم بالخروج؛ فيظنون أنه أضيق لمقامهم، فقالت له جارية من جواريه: قل شعرا، نغنيهم به لعله يحركهم، فقال(٥): [من الوافر]

---

(١) انظر تحقيق ذلك فى البداية والنهاية ١/ ١٢٣.

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١.

(٣) راجع: البداية والنهاية ١/ ١١٣.

(٤) سورة هود آية ٥٣.

(٥) لمعاوية بن بكر فى البداية النهاية ١/ ١١٩ ومروج الذهب ١/ ٤٥٦ والطبرى ١/ ٢٢٠ وورد فَهيِّم مكان فهينم، ويمنحنا مكان يُصْبحنا، ومن العطش مكان (من الجهل)، ونرجو مكان يرجو، وبه مكان له، وتمامًا مكان التماما، وفى مرآة الزمان ١/ ٢٥٥ «لعل الله يمنحنا». =

أَلاَ يَا قَيْلُ وَيْحَك قم فَهَيْنِمْ لعلّ اللــه يُصْبِحُنَـا غَمَامَـا
فيسقى أرضَ عادٍ إنَّ عـادًا قد أمسوا لا يُبينون الكلامَا
من الجهد الشَّديد فليس يرجو به الشيـخَ الكبيرَ ولا الغُلامَـا
وأنتم هَاهُنَـا فيمـا اشْتَهيْتُم نَهَـاركم وليـلكُم التَّمَامَـا
فَقُبِّح وَفْدُكم من وَفْدِ قَومٍ ولا لُقُّوا التَّحِيَّـةَ والسَّلامَا

فأجمعوا على الاستسقاء، فقال لهم مَرْثَدٌ[1]: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتمونى سُقيتم، آمنوا بهود[2]، وأظهروا إسلامَهُ.

فقال له معاوية بن بكر حين سمع ذاك منه: [من الوافر]

أبا سعـد فإنك من قَبيلٍ ذوى كَرَمٍ وأمُّـك من ثمودِ
وإنا[3] لن نطيقـك مـا بقينا ولسنـا فاعليــن لمـا تريد
أنتـركُ[4] دين آبـاء كـرام ذوى رأى ونَتْبَعُ رأْىَ هـودِ

وقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثد بن سعد ولا يخرج معنا؛ فإنه قد ترك دين آبائنا وديننا وخرج عنا، وخرجوا يستسقون، فقالوا: اللهم إن كان هودٌ صادقا فاسقنا، فإنا قد هلكنا فأنشأ الله لهم سحائب بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم نادى مناد من السحاب: يا قَيْلُ اختر لنفسك: فقال اخترت السحابة السوداء، فناداه مناد:

اخْتَرْتَ رَمَـادًا أَرْمَـدَا لا تُبْقى مِنْ عـادٍ أَحَـدَا

= والبيتان الأولان فى الكامل لابن الأثير ١/٨٦.

الهَيْنَمة: الكلام الخَفِىّ.

(١) فى الأصل (مريد) تحريف.

(٢) فى الأصل (أنيبوا)، والعبارة قلقة ومضطربة، وعبارة الطبرى فى تاريخ ١/٢٢١ (ط/ دار المعارف) «فقال مَرْثَد بن سعد بن عُفَير: إنكم والله لا تُسْقَون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأَنَبْتُم إليه سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك».

(٣) فى تاريخ الطبرى ١/٢٢١ (فإنا).

(٤) فى تاريخ الطبرى «ونترك.. ونتبع دين هود» والأبيات لمعاوية بن بكر فى البداية والنهاية ١/١١٩ وتاريخ الطبرى ١/٢٢١ (ط/ دار المعارف).

لا والدًا نترك ولا ولَدَا　　　إلا جعله الله هَمْدَا

وساق الله السحابة السوداء بالنقمة إلى عاد، فلما رأوها قالوا: هذه عارض ممطرنا، قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾[1] الآية فـ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2] أى: دائمة.

ولم يصب هودا ومن تبعه إلا ما تلين عليهم الجلود، وتلذ به الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظَّعينة بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة.

وقال ابن اسحاق: لما سُخِّرت الريح على عاد قال سبعة رهط منهم ـ أحدهم الخلجان ـ تعالوا نقوم على شَفير الوادى فنردَّها، فجعلت الريح تردهم وتنسفهم حتى تركتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[3]، فلم يبق إلا الخلجان[4]، فقال له هود: ويحك أسلم تسلم، قال: ومالى إن أسلمتُ. قال الجنة، قال: فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البُخت؟ قال: الملائكة، قال: إن أسلمت ينقذنى ربك منهم، قال ويلك هل رأيت ملكا يُعيذُ من جنده، قال: لو فعل ما رضيت، ثم جاءت الريح فألحقته بأصحابه.

وفى سابعهم ـ يقول الأول ـ وهو النَّبْهَان ـ ابن الخليل[5]: [من الرجز]

لو أن عادا سمعت من هود　　　مـا أصبحت غـامرة الجلود

هامـدة الأجسـام بالوهيـد　　　صَرْعى على الأنف مع الخدود

مـاذا جَنَى الوفـد على الوفُـود　　　أُحْـدُوثة للأبـد الأبيـد

وقال مرْثد[6] بن سعد: [من الوافر]

عَصَتْ[7] عادٌ رَسُولَهُمُ فَأضحوا[8]　　　عِطَاشًا لا تَبُلُّهُمُ السَّمَـاءُ

(١) سورة الأحقاف آية ٢٤.

(٢) سورة الحاقة آية ٧.

(٣) الحاقة آية (٧).

(٤) فى الأصل: الجلجال.

(٥) فى مروج الذهب للمسعودى ١/٤٥٧ للهيل بن الخليل.

(٦) فى الأصل (مزيد) تحريف.

(٧) فى الأصل (عَصِيَتْ).

(٨) فى تاريخ الطبرى ١/٢٢٣ (ط/ دار المعارف): فأمْسُوا عطاشا مَا تبُلُّهم».

ألاَ قَبَّحَ[١] الإله حُلَوم عَـادٍ فَإِنّ قلوبهـم قفْـرٌ هَـــوَاءُ

ويقال إن الريح أُرسلت عليهم يوم الأربعاء، فلم ترد الأخرى وعلى الأرض منهم حمىٌّ، فلذلك كرهت الأربعاء.

وروى عاصم بن بهدلة ـ عن أبى وائل، عن الحارث بن حسان، قال[٢]: مررت على عجوز بالربذة وهى تبغى الصحابة إلى رسول الله ﷺ وأنا أريد رسول الله ﷺ ـ فاحتملتها، قال: فدخلت المسجد ـ وهو غاصٌّ بالناس ـ، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال مقلَّد بالسيف، قائم بين يدى رسول الله ﷺ ـ قال: فلما دخل رسول الله ﷺ ـ رحله أذن لى، قال فدخلت المسجد، فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين بنى تميم شىء؟ قلت: نعم يا رسول الله، كانت لنا الدائرة عليهم، وقد مررت على عجوز منهم بالربَّذة منقطع بها، فقالت: إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فاحتملتها، وها هى ذى بالباب قال فأذن لها رسول الله ﷺ فدخلت، فلما قعدت، قلت يا رسول الله. إن أردت أن تجعل الدهناء حجازا بيننا وبين بنى تميم فافعل، فإنها قد كانت لنا، فاستوقدت العجوز وأخذتها الحمية، فقالت يا رسول الله فأين تضطر مُضَرَ؟ قال: قلتُ أنا والله يا رسول الله، كما قال الأول: مَعْزَى حملت حتفها، حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت خصما، أعوذ بالله يا رسول الله أن أكون كوافد عاد، قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟، قال: قلت يا رسول الله على الخبير سقطت. فقال رسول الله ﷺ: إنه يستطعم... الحديث[٣]، فقلت إن عادا قحطوا فبعثوا وافدهم قيل، فنزلوا على معاوية بن بكر شهرا يسقيه الخمر وتغنيه الجرادتان، قال ثم مضى حتى أتى جبال مهرة، ثم قال: اللهم تعلم إنى لم آت لأسير فأفديه، ولا لمريض فأداويه، فاسق عبدك ما كنت تسقيه، فمرت سحائب سود، فنودى منها: أن تخيّر السحابة، فقال: هذه السحابة

---

(١) فى تاريخ الطبرى (نزع الإلهُ).

والأبيات لمرثد بن سعد بن عُفَير فى مروج الذهب ١/ ٤٥٦ وتاريخ الطبرى ١/ ٢٢٣ (ط/ دار المعارف).

(٢) الحديث أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية١/ ١٢٠ والطبرى فى تاريخه ١/ ٢١٨ وتفسيره ١٢/ ٥١٣ـ ٥١٥.

(٣) يستطعم الحديث، أى يغريه بأن يحدثّه.

السوداء، فنودى منه: أن خذها رمادا أرمدًا[١]، لا تدع من عاد أحدا.

قلت يا رسول الله: والله لقد بلغنى أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى حلقة الخاتم.

قال أبو وائل: وكذلك بلغنا، ويقال، إن قبر هود بمهرة على ما تقدم

قال (د): ومن أعاجيب أرض عاد أن هناك منارة من نحاس، عليها تمثال من نحاس، فإذا كانت الأشهر الحرم سالت ماء فى حياضهم.

وروى أنه كان قيل لوفد عاد حين نشأت لهم السحاب: وقد أعطيتم مناكم، فاختاروا لأنفسكم، فقال لقمان بن عاد: أعطنى يا رب عمرا، فقيل، لا سبيل إلى الخلود، فاختر لنفسك بقاء سبع أَبْعَار يُحفر فى جبل وعر لا يَرْقى به إلا القطر، أو بقاء سبعة أنسر، إذا مضى نَسْرٌ، خلّف نسرًا مكانه[٢]، فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، حتى إذا مات أخذ غيره، وكان آخرها لُبَد[٣]، ولُبَدُ بلسانهم الدهر ـ فماتا جميعا.

وكان هود أشبه ولد آدم بآدم ـ ما خلا يوسف عليه السلام ـ.

* * *

---

(١) فى تاريخ الطبرى: رمادًا رِمْدَدًا.

والرمددُ: المتناهى فى الاحتراق.

(٢) راجع: الكامل فى التاريخ ١/ ٨٧.

(٣) وبه ضرب المثل فقيل: أكثر من لُبَد، وقيل: أىَ أَبَد على لُبدَ وقيل: أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد.

انظر: مجمع الأمثال ٣/ ٧٣. وانظر: المنتظم لابن الجوزى ١/ ٢٥٤.

صالح ـ عليه السلام ـ

هو صالح بن عبيد، من ذرية إرم بن سام.

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو صالح بن عبيد بن جابر بن هود النبيّ ـ عليه السلام ـ ابن غابر بن إرم بن سام بن نوح ـ وقد تقدم من نسب هود غير[1] هذا.

قال وهب: بعثه الله إلى ثمود حين راهق الحُلُم، وكان يمشى حافيا ولا يتخذ حذاء، كما كان يمشى المسيح ابن مريم، ولا يتخذ مسكنا ولا بيتا، ولا يزال مع ناقة ربه حيثما توجهت.

وكان منازل قومه بالحِجْر، وبين الحجر وبين قَرْح ثمانية عشر ميلا، وقرح هى وادى القرى، وبيوتهم إلى وقتنا هذا مَبْنِيَّةٌ منحوتة فى الجبال، ورِمَمُهم باقية، وآثارهم بادية، وهى بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى على طريق الحاج من الشام، وهى فى ناحية تبوك، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا هذا، وهذا يدل على أن أجسامهم كانت كأجسامنا لا كأجسام عاد الأولى.

وأول ملوكهم غابر بن إرم بن سام، وثمود بن غابر بن سام بن نوح، وكانت أجسامهم وأعمارهم تطول، فيبنون كل بناء فينهدم فاتخذوا من الجبال بيوتا فارهين، وقالوا لصالح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

وكان القوم أصحاب إبل، فقال له زعيم من زعمائهم: إن كنت صادقا فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة سوداء عشراء ذات عرق وشعر، ووبر، فأتى بهم هضبة، فلما رأته تمخَّضت كما تمخض الحابل وانشقت عن الناقة، ثم تلاها سَقْبُها فى نحو صفتها، فآمن كثير منهم، وآمن زعيمهم جندع بن عمرو، فكان شِربها يوما، وكان

---

(١) فى المعارف لابن قتيبة صـ٢٩ عن وهب بن منبه «هو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح».

وفى البداية والنهاية ١/ ٢٢٣ «هو صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح».

(٢) سورة الأعراف آية ٧٠.

شربهم يومًا.

فإذا كان يوم شربها حلبوا لبنا فملأوا كل إناء ووعاء، وعاقرُ الناقة - أحمر ثمود[١] - وهو قُدار بن سالف، وكان أحمر أشقر أزرق، سُناطا قصيرا، والعاقر الآخر مَصْدع بن مهرج، واستغويا تسعة من قومهم، وهم الذين أخبر الله عنهم فى كتابه أنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، وكانت لهما صاحبتان أغوتاهما - عنيزة وصدوق - بذلتا لهما أنفسهما إن عقرا الناقة، فأتوها فضرب قدار عرقوبها بالسيف، وامتثل مِصدع فعله فى العرقوب الآخر، واستهموا لحمها.

فلما عقرت خرجت ثمود تعتذر إلى صالح، بأنه عقرها فلان وفلان ولا ذنب لنا، فقال: انظروا هل تدركون فصيلها، فعسى أن يرفع عنكم العذاب.

ولما رأى الفصيل أمه تضطرب، صعد جبلا يقال له القارة[٢]، فأوحى الله عز وجل - إلى الجبل، فطال فى السماء، حتى ما تناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه، ثم استقبل القوم، فرغا ثلاثا. وقيل: إنه لحقه بعضهم فعقروه.

فقال لهم صالح: لكل رغوة أجل يوم ﴿**تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾[٣]، قال لهم: وآية ذلك أن تصبح وجوههم مصفرة، وفى اليوم الثانى محمرةً وفى الثالث مسودة، فلما رأوا صدق قوله فى اليوم الأول، همَّ بعضهم بقتل صالح، وقالوا: إن كان صادقا عاجلناه، وإن كان كاذبا جزيناه بكذبه، فأتوه ليلا، فحالت الملائكة بينهم وبينه، ومنعه الله منهم، ثم لما رأوا صدق ما أنذرهم به فى اليوم الثانى والثالث تحنَّطوا فى الثالث وتكفَّنوا وصاحوا، وضجروا وبكوا، وانتحبوا، فجعلوا يقلِّبون أبصارهم إلى السماء مرَّة وإلى الأرض مرَّة، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فصبَّحهم فى اليوم الرابع - وهو يوم الأحد - صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم فى صدورهم ﴿**فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[٤].

---

(١) ضُرِب به المثل فى الشؤم، انظر: المعارف ابن قتيبة صـ٢٩.

(٢) فى الأصل «الغمارة» وهو تحريف.

(٣) سورة هود آية ٦٥.

(٤) سورة هود آية ٦٧، ٩٤.

عقروا الناقة يوم الأربعاء، وصبَّحهم العذاب نهار الأحد.

قال غيره: وخرج عنهم صالح بمن آمن معه ليلة الأحد، فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين.

وقال حباب بن عمرو ـ وكان ممن آمن مع صالح ـ: [من البسيط]

كَانَت ثَمُودُ ذَوِى عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ مَا إنْ يُضَامُ لَهَا فى النَّاسِ من جَارِ

فَأَهْلَكُوا نَاقَةً كَانت لِربِّهِم قد أنذروها وكانوا غَيْرَ أَبْرَارِ

وروى عن رسول الله ﷺ: أن الله ـ عز وجل ـ أهلكهم بتلك الصيحة أجمعين إلا رجلا واحدا هو أبو رِغال كان فى حرم الله، فمنعه من العذاب[1]، وقد نهى رسول الله ﷺ أصحابه لما مرَّ بهذه القرية أن يدخلوها وأن يشربوا من مائها، وأراهم مرتَقى الفصيل.

قال (ط): وأهل التوراة يزعمون أنه لا ذكر لعاد ولا لثمود، ولا لصالح عندهم، وأمرهم عند العرب فى الجاهلية والإسلام كشُهرة إبراهيم[2].

(ق) عن وهب: ولما رأى صالح أنها دار قد سخط الله عليها، ارتحل هو ومن معه، فأهلوا بالحج على قلائص حمر مخطمة بحبال الليف، حتى ورد مكة، فلم يزل بها حتى ماتوا، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة والحِجر[3].

* * *

(١) البداية والنهاية ١/١٢٩.

(٢) علّق ابن الأثير فى تاريخه ١/٩٣ على ذلك بقوله «وليس إنكارهم ذلك بأعجب من إنكارهم نُبوّة إبراهيم الخليل ورسالته، وكذلك إنكارهم حال المسيح عليه السلام».

(٣) المعارف لابن قتيبة ٣٠.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ

هو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن أسرع[1] بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح.

قال (و): وكذلك في التوراة إلا أنه مكان أسرع شاروع.

واختلف في الموضع الذي ولد فيه، فقيل: بالسُّوس من أرض الأهواز، وقيل بأرض بابل من أرض السواد ـ سواد الكوفة ـ، وقال بعضهم: بكوثا من السواد أيضا وفيها كان نمرود.

وقال عامة السلف: ولد في عهد نمرود بن كوش ـ المتقدم ذكره ـ وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون سنة.

وقال بعض أهل الكتاب: ألف سنة، ومائتا سنة وثلاث وستون سنة.

وقال (د): تسعمائة سنة واثنتان وأربعون سنة.

قال (و): إنما سمى أبو إبراهيم آزر النمرود، لما صار قيما على خزائنه، وقيل: إن النمرود ملَّكه الشرق.

وقال مجاهد: إن آزر ليس باسم أبيه، وإنما هو اسم صنم وقيل إنه عيب عابه به، معناه معوج.

ولما قرب أمر إبراهيم، طلع كوكب على نمرود، فذهب بضوء الشمس والقمر، فدعا المنجمين والكهنة، فسألهم عن ذلك ـ وفي زمانه ظهر القول بأحكام النجوم[2]، وكوِّرت الأفلاك وعملت الآلات، وقرب فهم ذلك إلى قلوب الناس ـ ونظر أصحاب النجوم فيما سألهم عنه، فأخبروه: أن مولودا يولد يكون على يده هلاكه، وذهاب مملكته، وفساد آلهتهم.

فأمر بقتل الولدان وعزل الرجال عن النساء، وخرج نمرود إلى قرية أخرى،

---

(١) في تاريخ الطبري ١/٢٣٣ «إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر ابن شالخ بن قينان بن أرفخْشَد بن سام بن نوح.

(٢) انظر: تاريخ اليعقوبي ١/٢٣.

وأخرج الرجال مع نفسه، ولا يولد مولود إلا قتله.

وعرضت حاجة للنمرود إلى المدينة، فلم يأمن عليها إلا آزر، فأرسله فيها ونهاه عن مواقعة أهله، فقال له آزر: أنا أضنُّ بديني[١]، فلما دخل المدينة، لم يتمالك أن وقع على زوجته ثم مر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة، فجعلها في سَرَبٍ، وكان يتعاهدها بالطعام والشراب، فولدت إبراهيم، فكانت جُمْعَتُهُ كالشهر لسرعة شبابه.

وترعرع إبراهيم، ونسى الملك ما أُنْذِرَ به، فلما أمن عليه أبوه أخرجه من السرب بعد المغرب، فرفع رأسه فإذا هو بالكوكب المشترى، وكان من أمره ما نصه الله ـ تعالى ـ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: وخرج فى آخر الشهر، فلذلك لم ير القمر قبل الكوكب، وكان قد أوتى رشده من قبل، ومن أوتى رشده فقد عصم من الزلل، وعبادة غير الواحد الصمد.

ثم أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فعلمه دينه، واصطفاه الله خليلا ونبيا، فدعا قومه إلى الإسلام، وكان من كَسْرِ الأصنام ما نصّه الله ـ تعالى ـ، فشاور نمرود فى أمره، فقال رجل منهم يقال له هيزم[٢]: حرِّقوه، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة.

وقال عبد الله بن عمر لمجاهد: أتدرى من أشار بحرق إبراهيم؟ قال: قلت لا، قال: رجل من أعراب فارس، قلت: وهل للفرس من أعراب، قال: نعم الكُرْد[٣].

ولما رُفِعَ إبراهيم ليُقْذَفَ به فى النار، سألت السموات والأرض وكل من عليها ـ غير الثقلين ـ ربها ـ تبارك وتعالى ـ أن يأذن لها فى نصرته، فقال: إن استغاث بشىء منكم، فلينصره وإنه لم يدع غيرى فأنا وليه.

فرفع إبراهيم رأسه فقال: «اللهم أنت الواحد فى السماء، وأنا الواحد فى الأرض».

---

(١) فى الأصل: (أنا أظن بابنى).

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤١.

(٣) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٠.

فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[١].

فقال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ: لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها، ولم يُنتفع بنار فى ذلك اليوم وظنت كل نار أنها هى المأمورة[٢].

ونظر النمرود إلى إبراهيم فى روضة خضراء فى سواء النار، ومعه رجل، ورأس إبراهيم على حجره، وهو يمسح العرق عن وجهه ـ وكان ملك الظلِّ ـ وإبراهيم حينئذ ابن ستة عشر سنة ـ فعجب نمرود من ذلك وما كف عن إبراهيم وقال: إنى مقرِّب إلى إلاهك أربعة آلاف بقرة، فقال إبراهيم: وإنه لا يقبلها منك، ما كنت على شىء من دينك.

واستجاب لإبراهيم رجال من قومه بتلك الآية على خوف من نمرود، وآمن به ابن أخيه لوط[٣].

وتزوج إبراهيم سارة بنت عمه هران الأكبر بن ناحور، هى سارة ابنة هران بن ناحور، أخت لوط، وابنة عم إبراهيم، فآمنت به. قال (و): وهى أول من آمن به.

وخرج إبراهيم مهاجرا بمن معه حتى قدم مصر، قال (و): فلسطين فوجد بها فرعون من فراعنة القبط.

قال وهب: يقال له صادوف.

فذُكر له حسن سارة، فأرسل إلى إبراهيم فسأله عنها، قال: هى أختى ـ وخاف أن يقتله عليها لو قال: هى زوجتى فقال: زينها وأرسل بها إلى، أنظر إليها، فمد يده إليها فرعون، فيبست إلى صدره، فقال: ادعى ربك أن يطلق يدى، ولا أمسك ففعلت وانطلقت يده، ووهب لها هاجر، فوهبتها سارة لإبراهيم.

وقال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم غير ثلاث: إنى سقيم، وبل فعله

(١) سورة الأنبياء آية ٦٩.

(٢) فى الأصل «المأثورة».

(٣) وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم. تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٤.

كبيرهم هذا، وقوله للجبار إذ سأله عن سارة: هى أختى[١].

فخرج إبراهيم حتى نزل فلسطين بين الرملة وإِيْلَيَا.

وقال وهب: إن الله أخرج الجبار الذى عرض لسارة من تلك المدينة، وأورثها إبراهيم، فأثرى بها، فولدت هاجر - وهى قبطية - إسماعيل لست وثمانين سنة من عُمْرِ إبراهيم، ووُلد له إسحاق، وهو ابن مائة سنة وعشرين، وسارة بنت تسعين سنة، واختُتِن إبراهيم بعد تسع وتسعين سنة، وختن الله إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة.

وكان من إخراج إبراهيم لهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ما قد شُهِرَ، أسكن إسماعيل بمكة وهو ابن ستة عشر سنة وقيل ابن أربع عشرة سنة.

وانفجرت زمزم من تحت يد إسماعيل، فاستسقت هاجر، وجعلت تدَّخره فى قربتها، فلولا الذى فعلت ما زالت زمزم معينا طاهرة، ثم أجاب الله دعوة إبراهيم - فأنسهم بجُرهم، وجعل أفئدة الناس تهوى إليهم ورزقهم من الطيبات

ثم بنى إبراهيم البيت مع ابنه إسماعيل على ما أمره الله - تعالى - به.

وذكر آخرون أن الذبح كان قبل بناء الكعبة وهو أصح - والله أعلم - ثم أمر الله إبراهيم أن يذبح ولده على كثرة الاختلاف فيه.

قال: إن كان الذبح وقع بمنى قبل ذبح الفداء - فعلى ما تكرر فالذبيح إسماعيل - لأن إسحاق لم يدخل الحجاز، وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح إسحاق، لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمله أبوه منه، وقد تكررت الآثار: أن الموضع الذى خلا فيه بابنه وأضجعه للذبح فيه شِعْب ثُبير.

وعن على وابن عباس - رضى الله عنهم - أن الكبش أهبط فى ثبير، قال عبد الله بن عباس - وكان رَعَى فى الجنة أربعين خريفا، قال: فأرسل إبراهيم ابنه، فاتبع الكبش حتى إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصات فأفلته عندها، فجاء الجمرة الوسطى، فرماه بمثلها فأفلته، ثم رماه عند الجمرة الكبرى بمثلها، وأخذه فأتى به إبراهيم المَنْحَر من مِنى فذبحه .قال عبد الله بن عباس - رضى الله

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٢٤٥.

عنهما ـ لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنه فى ميزاب الكعبة قد وخش (يعنى يبس).

وقال أبو جعفر: مما امتحن الله به إبراهيم؛ النار، والكواكب، والشمس، والقمر، وأمره بذبح ابنه[1]، والكلمات التى ذكرها الله فى محكم كتابه على اختلاف الناس فيها، وقيل خمسة أقاويل ـ فلما علم الله منه الصبر على ما ابتلاه، والقيام بما لزمه واسترعاه، جعله الله لمن بعده إماما، وجعل فى ذريته النبوة والرسالة، وخصَّهم بالكتب المنزلة والحِكم البالغة.

وروى: إن أول من ركب الخيل إبراهيم، وقالت العرب إن أول من ركب الخيل إسماعيل بن إبراهيم، وكانت وحوشا فأوحى الله إليه بآية الخيل، فدعا بها فأتته، فأمكنته من نواصيها هو وولده، فعتاق الخيل تنسب إليهم إلى هذه الغاية، فيقال الخيل العربية.

وروى أن إبراهيم سأل ربه أن لا يتوفاه حتى يكون هو الذى يسأله الموت، فبعث الله إليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم، وكان إبراهيم كثير الإطعام، فبينما هو يطعم الناس إذ رأى شيخا كبيرا يمشى فى الحر، فبعث إليه بحمار فركبه حتى إذا جاء أطعمه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فيدخلها عينه وأذنه يدخلها فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، فقال إبراهيم للشيخ حين رأى ذلك منه: ما بالك؟ قال الكبر. . فسأله عن سنه، فزاد على سن إبراهيم سنتين فقال إبراهيم: إنما بينى وبينك سنتين، فإذا أتيت عليها كنت مثلك، قال نعم، قال إبراهيم اللهم اقبضنى إليك قبل هذا، فقام الشيخ فقبض نفسه.

وتُوفى وهو ابن مائتى سنة، وقيل ابن مائة وخمس وسبعين سنة[2] ـ صح عنهم ـ، ودفن بأرض الكنعانيين فى حَبْرُون[3] فى مزرعة اشتراها إبراهيم، وفيها دفنت سارة وإسحاق وموضع قبورهم مشهور، وهى على ثمانية عشر ميلا من

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٢٨٥.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٣١٢.

(٣) حَبْرُون من أسماء الخليل، ويقال لها أيضًا «حَبْرَى» وكان مكانها على التل شمال غربى البلدة الحالية. معجم بلدان فلسطين ٢٨٨.

بيت المقدس، فى مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم.

وأنزل الله على إبراهيم. عشرة صحف، قال رسول الله ﷺ - أمثالا ومواعظ[١]، منها على العاقل أن يكون بصيرا لزمانه مقبلا على شأنه، حافظا لسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فى ما يعينه

(ق): وما عاشت سارة سوى مائة سنة وسبع وعشرين سنة، واختلف هل هى أول موتا أو هاجر، والصحيح: أن هاجر تقدمتها، ولا اختلاف أنهما ماتتا فى حياة إبراهيم، ودفنت هاجر بحجر مكة، وفيه دفن ابنها إسماعيل وتزوج بعدها إبراهيم امرأتين من الكنعانيين: قطورا، وحجورا، وله ثلاثة عشر ذكرا منهم مدين بن إبراهيم، جدّ شعيب، فجميع ولده ثلاثة عشر، ولم يذكر إلا قطورا، ولدت له سبعة نفر ولم يذكر الأخرى.

وكان لإبراهيم أخوان: حرَّان أبو لوط، ويقال هاران، وهو الذى بنى حرَّان، وإليه تنسب[٢] وناهر، وهو أبو رفقا امرأة إسحاق، وفى التوراة: أنه ناحور لا ناهر، وناهر لوهب.

وأما الدليل على أن هاجر سبقت سارة، فما رواه السدى: أن إبراهيم اشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارة أن يأتيه، فأخذت عليه عهدا ألا ينزل غيرةً على هاجر، فركب البراق ثم أقبل فوجد أم إسماعيل قد ماتت.

وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم، ولم يجد إسماعيل، ورأى المرأة فظة غليظة[٣]، فقال لها: إذا جاء زوجك فقولى له: جاء هنا شيخ من صفته كذا، كذا، ويقول لك، لا يرضى عتبة بابك، ففعلت، فلما أخبرته طلقها، وتزوج ثانية وجاء إبراهيم مرة أخرى ثانية، فلم يجد إسماعيل، ووجد امرأة سهلة طلقة، وأتته باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، وجاءته بالمقام، فوضعته تحت شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه، فبقى أثر قدميه فيه، وغسلت شق رأسه الأيسر، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك،

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٣١٣.

(٢) فى الأصل «يثبت».

(٣) فى تاريخ اليعقوبى١/ ٢٧ «هى الهيفاء بنت مُضاض الجرهمية».

قال أبو جعفر: ثم لبث ما شاء الله أن يلبث، وأمره ببناء الكعبة.

وفى رواية أخرى قيل كان على أتان، ولدعوة إبراهيم لا ينقطع اللبن بمكة فى فصل من فصول السنة، ولذلك كانت لحومها أطيب اللحوم، حتى إن القصاب ليعطى الشحم بدلا من اللحم يغش به.

وأما نمرود ـ صاحب إبراهيم ـ فعذّبه الله بأضعف خلقه ببعوضة توغّلت فى خياشيمه، فمكث، أربعين عاما يعذب فى حياته، وكان يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس عنده من جمع يديه، فضرب بهما رأسه، وهو الذى جوّع الأربعة الأَنْسُر، وقرنهن بالتابوت، فلم يزل يرفع اللحم حتى وقع فى ظلمة لا يرى ما فوقه ولا ما تحته، ففزع وألقى اللحم فانفضت النسور، وكان طيرانهم من بيت المقدس وسقوطهم بجبل الدخان، وذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾[١] الآية.

ثم أخذ بعد ذلك فى بنيان الصرح، فبنى حتى إذا ظن أنه أسنده إلى السماء ارتقى فوقه، ينظر بزعمه إلى إله إبراهيم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٢] فيقال عند ذلك تبلبلت ألسُنُ الناس من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية.

* * *

إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ

وتزوج إسماعيل بعد التى أمره أبوه بطلاقها[٣]، أُسَيدة بنت مُضاض بن عمرو الجرهمى، وهى التى رضى عنها أبوه، فولدت لإسماعيل اثنى عشر ذكرا، نابت ابن إسماعيل، ويقال نبت، وقيدور ونَبَت هو بِكرُه.

(١) سورة إبراهيم آية ٤٦.

(٢) سورة النحل، آية ٢٦.

(٣) زوجه الأولى هى الحيفاء بنت مُضَاض الجرهمية تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٧.

وبعث الله - عز وجل - إسماعيل إلى العماليق وقبائل اليمن، وقيل إنه لما حضرته الوفاة، أوصى إلى أخيه إسحاق، وقيل إلى ابنه قيدور. وزوج ابنته من عيصو بن إسحاق، وعاش مائة وسبعا وثلاثين سنة، ودفن بالحجر، حيال الموضع الذى فيه الحجر الأسود عند قبر أمه.

وانتشر بنوه فى البلاد وظهروا، وهم نفوا[١] العماليق.

وسمى إسماعيل لأن الله - عز وجل - سمع دعاء هاجر ورحمها فيه، وقيل إن الله سمع دعاء إبراهيم، وقيل: هو وإسماعيل أول من ركب الخيل على ما تقدم - وكانت وحوشا، وأول من عمل قوسا عربية فرمى بها.

* * *

إسحاق ويعقوب - عليهما الصلاة والسلام -

وتزوج إسحاق رفقا ابنة عمه - على ما تقدم - وهو قول أهل التوراة[٢].

وقال ابن اسحاق: هى رفقا ابنة بَتُويل بن ناحور بن آزر، فولدت له عيصو ويعقوب توأمين، وذلك بعد أن مضى من عمر إسحاق ستون سنة. فولدت لعيصو من ابنة إسماعيل الروم، فكان بنو الأصفر من ولده، وقيل إن الأشبان من ولده، ولا أدرى أَمِن إسماعيل أم لا؟، وولد عدة أولاد سواه.

قال: ووُلد للعيص ثلاثون رجلا، ومن بنى الأصفر ملوك الروم، ومنهم الإسكندر فى قول الروم، قال عدىّ: [من المتدارك]

وبنـو الأصفَرِ الكرامِ مُلوكُ الـ ـرُّوم لم يَبْقَ مِنْهُم أحدٌ مَذْكُور[٣]

وقد اختلف فى الروم، فقيل: إنهم من ولد إسحاق، وقيل: إنما سموا روما بإضافتهم إلى مدينة رومه - وليس اسم رجل - وكان منزل عيصو الشام، فكثر

---

(١) فى الأصل «بنو» وهو تحريف.

(٢) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٨.

(٣) لعدى بن زيد العبادى فى الأغانى ٢/ ٣٤ وروايته:

وبنو الأصفر الكرامِ مُلوكُ الـ ـرُّومِ لم يَبْقَ منهم مذكـور

ولده. فصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية، ثم إن الروم غلبوا الكنعانيين.

قال: وكان العيص فيما ذكر يسمى آدم لأدمته، ولذلك سُمّيَ ولده بنو الأصفر، وكان الروم رجلا أصفر فى بياض، ولذلك سمى ولده بنو الأصفر - فكان أكثر دعاء إسحاق ليعقوب، وظهرت البركة له بدعائه، فغاظ ذلك العيص، وتوعد يعقوب بالقتل، فخرج هاربا إلى خاله ببابل، فكثر جزع يعقوب من أخيه العيص، فأمنه الله - عز وجل - من ذلك.

وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم، فساهم أخاه العيص فيها، وأعطاه عشرها استكفافا لشرّه، وخوفا من صولته، بعد أن أمَّنه الله منه، فعاقبه الله فى ولده لمخالفته لوعده، وأوحى الله إليه: لم تطمئن إلى قولى، لأجعلن ولد عيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين سنة، وهو عدد ما أعطى العيص من غنمه، فكانت المدة مذ أخربت الروم بيت المقدس، واستعبدت بنى إسرائيل إلى فتح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بيت المقدس.

ولم يزل يعقوب يتألف أخاه العيص حتى ترك له البلاد وعبر إلى الروم، فأوطنها، فصار الملك من ولده، وهم اليونانية فيما يزعمون.

وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة، ودفن مع أبيه إبراهيم، وقد كف بصره، .

وأمر إسحاق ابنه يعقوب أن لا ينكح امرأة من الكنعانين وأمره أن ينكح من بنات خاله (لابان) بن ناهزة بن آزر، فنكح بنتيه لايا، وراحيل - بالحديث المشهور - وكانوا يجمعون بين الأختين حتى جاءت شريعة موسى ﷺ

وقيل: إنه لم يتزوج راحيل حتى توفيت لايا، فولد له منها الاثنى عشر سبطا، وكان ولدا راحيل: يوسف وبنيامين، وقيل اثنان سواهما، وقيل: إن الاثنى عشر سبطا من أمتين كانتا لبنتى لايا، جهزهما فوهبتهما له.

ولما توجه يعقوب إلى خاله لينكح ابنته، أدركه الليل فبات فى بعض الطريق متوسدا حجرا، فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى السماء، والملائكة تعرج فيه، وتنزل منه، فأوحى الله إليه: «إنى أنا الله لا إله إلا أنا، وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة، وذريتك من بعدك، ثم أنا معك أحفظك حتى أردك إلى هذا المكان، فأجعله بيتا تعبدنى فيه»، فهو بيت المقدس - عن (ق) -.

ثم كان من أمره مع خاله ما كان، وتوفى يعقوب بمصر وهو ابن مائة سنة وسبع وأربعين سنة، ودفن عند قبر إبراهيم وإسحاق. وكان يعقوب قد أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه مع أبيه بالشام ففعل.

(ق): وعاش يعقوب مع يوسف بمصر سبع عشرة سنة، وعاش عيصو كعمر يعقوب سواء.

* * *

يوسف ـ عليه السلام ـ

كان بعد دخول يوسف مصر إلى أن دخلها موسى بن عمران أربعمائة سنة، وعاش يوسف بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة، وفى التوراة مائة وعشرة[1].

وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وقد قيل سبعا وسبعين سنة.

وقيل: كان بين رؤياه، ومجئ تأويلها أربعون سنة فتلك مدة مغيبه عنه إذًا، وهذا لا يصح؛ لأنه ألقى فى الجبِّ وهى ابن سبع عشرة سنة، ولم يعش بعد أبيه إلا ثلاثا وعشرين سنة ـ وهذا الصحيح ـ لأنك إذا حملت على هذا سنة إذا خرج عنه، وذلك سبع عشرة سنة، يبقى من عمره ثمانون سنة وهى المدة التى غاب عنه فيها.

وأوصى يوسف إلى أخيه يهوذا، وجعل يوسف لما توفى فى تابوت رخام، وسُدَّ بالرصاص، وطلى بالأطلية الدافعة الهواء والماء، وطرح فى نيل مصر.

ويقال إن موسى جعل جسده فى تابوت عند خروجه من مصر. وقد روى أنه أوصى أن يحمل إلى الشام فيدفن مع أبيه وجديه.

وولد ليوسف أفرائيم، وميشى[2]، فولد ميشى موسى، تنبأ قبل موسى بن عمران، وهو صاحب الخضر ـ فيما ذكر أصحاب التوراة. صح ط ق.

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٤١.

(٢) فى قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢١٦ «أفرايم ومنا».

(لوط ـ عليه السلام ـ)

وهو مُقَدَّمٌ فى المرتبة، لأنه كان فى زمان إبراهيم.

هو ابن هاران أخو إبراهيم، ولما هاجر إلى الشام ـ على ما تقدم ـ واستوطن إبراهيم فلسطين، أنزل ابن أخيه لوطا الأردن، فأرسل الله لوطا إلى أهل سَدُوم[1] وما حولها ـ وهى المؤتفكات ـ وكانت خمس قريات، وسدوم هى القرية العظمى وهى باقية إلى وقتنا هذا ـ وهى سنة ثلاثمائة واثنين وثلاثين سنة ـ خراب لا أنيس فيها، والحجارة المُسَوَّمة موجودة فيها يراها السفر سودا براقة قال: وكان فى قرية منها مائة الف.

* * *

أيوب ـ عليه السلام ـ

كان فى زمن يعقوب، زوجه بنت يعقوب، وهى المَضْرُوبَةُ بالضِّغث.

وهو أيوب بن عوص بن رعويل، وكان أبوه ممن آمن مع إبراهيم، إذ ألقى فى النار.

وقال ابن إسحاق وغيره: رعويل بن عيصو بن إسحاق، وأم أيوب بنت لوط باتفاق. ويقال إن زوجه المضروبة بالضغث، وهى ابنة إفرائيم بن يوسف.

وكان أيوب كثير المال، كانت له البثنية والجابية من الشام كلها له، فيها ما لا

(١) سَدُوم: وتعنى: إحراق، هى المدينة الرئيسية فى مجموعة المدن فى عمق السديم، التى حربت لفساد أهلها. وقد ذكرتها التوراة فى وصف تخوم أرض كنعان.
اختارها النبى لوط مسكنًا، لأن الأرض المحيطة بها كانت أرض سقى مخصبة. . يعتقد العلماء أنها تحت البحر الميِّت جنوب منطقة اللسان، وقد صارت سدوم مضرب الأمثال للخطيئة والشرّ ومخالفة أوامر الله، وإليها تنسب السدومية أى (الشذوذ) الذى انتشر بين قوم لوط، وهؤلاء كانوا قد نزلوا سدوم التى أهلكها الله ولم يَنْجُ منها إلاَّ لوط وابنتاه. معجم بلدان فلسطين ٤٤٥ـ٤٤٦.

يحصى من العبيد، والغنم والدواب، وابتلاه الله فى ماله وولده، فصبر، ثم ابتلاه الله فى جسمه، وبقى مطروحا فى كناسة سبع سنين وشهرا فصبر.

قال (و): مسجده والعين الذى اغتسل فيه مشهور إلى وقتنا هذا، فيما بين دمشق وطَبَرِية[١] على ثلاثة أميال من مدينة نوى.

وعُمِّرَ ثلاثا وسبعين سنة[٢].

وبعث الله بعده بِشْرَ بن أيوب[٣].

* * *

ذو الكفل ـ عليه السلام ـ

وأقام بالشام حتى مات وعُمِّرَ خمسا وسبعين سنة.

قال (ق): لم نجد فيما نقله وهب له ذكرا ـ.

وهو رجل من بنى إسرائيل[٤] أرسل إلى ملك يقال له كنعان فدعاه إلى الإيمان، وكفل له الجنة، وكتب له كتاب ذِكرٌ ـ حق على الله ـ فآمن ذلك الملك، وسُمى ذا الكفل بالكفالة[٥].

* * *

(١) مروج الذهب ١/ ٤١.

(٢) تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٤.

(٣) وسُمّى بذى الكفل.

(٤) وذكر الطبرى أنه قيل هو بشر بن أيوب. تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٥.

(٥) لأنه كان قد تكفَّل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضى بينهم بالعدل فَسُمِّى بذى الكفل.
انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٢٣٦.

شعيب ـ عليه السلام ـ

من ذرية مدين بن إبراهيم، وجده شعيب، ابن لوط.

وقال بعضهم: لم يكن شعيب من ذرية إبراهيم، وإنما هو من ذرية من آمن به، إذ ألقى فى النار، وكان عربى اللسان.

وكان شعيب ضرير البصر، حدَّث بذلك ابن جبير فى قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾[١].

ويقال له: خطيب الأنبياء.

بعثه الله إلى مدين، وهم أصحاب الأيكة، وهم من ولد مدين بن إبراهيم، ومن ملوكهم: أبو جاد، وهوزّ، على تواليها.

فكان أبو جاد مُلْكُه مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوَّزُ، وحُطِّى ببلاد وجّ، وهى الطائف وما اتصل بها من أرض نجد، وكلمن، وصعفص، وقُرَشت[٢] ببلاد مصر[٣].

وفيما لحق بهم من عذاب الله يقول المنتصر بن المنذر: [من الطويل]

مُلُوك بنى حُطِّى وصَعْفَصٍ ذى النَّدى
وهَــوَّز أربـابُ البَلِيّــة والحِجْــرِ

هم أُمْلِكوا أرض الحجـاز بأوْجِـهِ
كمثلِ شُعَاعِ الشَّمْسِ أو صُـورَةِ البدر

وهم قطَّنـوا أرض الحـرام قطـونا
وسـادوا بالمكـــــارم والفَخْـرِ

(١) سورة هود آية ٩١، عن سعيد بن جبير كان أعمى، وعن شريك وأبى نعيم: ضعيف البصر.

(٢) فى الأصل (قريشات)، والتصحيح عن مروج الذهب ٢/ ١٦١.

(٣) فى المسعودى «وكلمن وسعفص وقرشت ملوكًا بمدين، وقيل: ببلاد مصر».

وقال ابن خرداذبة فى تاريخه: كان شعيب ألثغ(١)، وعُمِّر مائة وأربعين سنة، وتوفى بمكة، ودفن عند المسجد الحرام حيال الحجر الأسود وأوصى إلى موسى بن عمران، صهره، وسلط الله ـ عز وجل ـ على قومه حرا شديدا حتى أخذ بأنفسهم، ثم بعث الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابة فوجدوا لها بردا، فلما صاروا تحتها، أرسلها الله عليهم نارا، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾(٢)، فاحترقوا كما تحترق الجراد فى المَقْلَى.

وكانوا أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان.

ولم يكن أهل مدين قوم شعيب، ولكنها أمة بُعث إليها، وما أدرى كيف هذا؟ والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾(٣).

قال: وكان اسم شعيب: يثرين(٤).

وروى ابن لهيعة: أن ابا هريرة سأل رجلا فقال: ممن أنت؟ قال: من جِذَام، قال أبو هريرة: مرحبا بأصحاب موسى وقوم شعيب.

فإن صح هذا، فجذام من مدين ولد إبراهيم.

وزعم قوم أن أهل مدين الذين بُعث إليهم شعيب من العرب العاربة، والأمم الدائرة، وليسوا من ولد مدين.

وتزعم قريظة والنضير أنهم من رهط شعيب، وأنهم من جذام.

* * *

(١) فى الحديث «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يرادفهم به. تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٧.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٨٩.

(٣) سورة الزخرف، آية ٨٥.

(٤) فى تاريخ الطبرى ١/ ٣٢٥ «يزون» وذكر المحقق فى نسخة «يثرون».

الخضر ـ عليه السلام ـ

الخضر عليه السلام، هو: بَلْيَا بن مَلْكَان بن فالغ بن عابر بن شالخ(١).

وقال عامة [أهل] الكتاب(٢): كان فى زمان أفريدون المتقدم ذكره.

وقيل: إنه كان على مقدمة ذى القرنين، الأكبر الذى كان فى زمن إبراهيم، وبلغ الخضر مع ذى القرنين: نهر عين الحياة، فشرب منه، ولم يعلم به ذو القرنين، ولا من معه، فهو حىٌّ إلى الآن(٣).

وقد قيل: إنه وَلَدُ فارس ـ والله أعلم.

* * *

موسى وهارون ابنا عمران ـ عليهما السلام ـ

موسى وهارون ابنا عمران بن قاهث، بن لاوى، بن يعقوب، صحّ.

وقيل: عِمْران بن يصهُر بن قاهث.

قال: وقارون بن يَصْهُر بن قاهث.

[وقيل]: قارون بن صافر بن قاهث، فهو على هذا ابن عم موسى.

واسم أم موسى وهارون: نوخابت، وقيل: باختة من ذرية يعقوب، من ذرية نفشان بن إبراهيم.

وكان هارون أسنَّ من موسى بثلاثة أعوام، وكانت لهما أخت اسمها: مريم، كانت أسن منهما، وكانت تحت كالب بن يُوفَنَا، ولما قبض الله يوسف ـ عليه

(١) رفعوا نسبه إلى نوح فقالوا هو: بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح. تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٥.

(٢) راجع تاريخ الطبرى ١/ ٣٦٥.

(٣) نقل الطبرى عن عبد الله بن شوذب: أن الخضر من ولد فارس وإلياس من بنى إسرائيل، يلتقيان فى كل عام بالموسم.

السلام ـ توارثت الفراعنة من العماليق مُلك مصر، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم حولا، وهم على بقايا من دينهم الذى كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويوسف، عليهم السلام شرعوا لهم، حتى كان فرعون موسى ـ وهو: الوليدُ بن مصعَب، صحّ عنهم، عن وهب.

وقيل: إن فرعون مصر، هو فرعون يوسف، عُمِّر أكثر من أربعمائة سنة.

قال: وغيره ينكر هذا.

فعذَّب بنى إسرائيل، وكان سيئ المِلْكَةِ، شديد البطش وكان قد نكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحم من خيار النساء.

لما أراد الله ـ عز وجل ـ من أمر موسى، فلما تقارب زمن موسى، أعلمه المنجمون بما وجدوا من أمره فى علمهم، وقالوا: قد أظلك زمانه.

وقيل: بل رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس، فأحرقت القبط بمصر، وتركت بنى إسرائيل.

فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك القبط.

روى ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ.

فأمر بقتل الغلمان، واستحياء الجوارى، فكان من أمر موسى ما نصَّهُ الله ـ عز وجل.

فلما شبَّ موسى، وكان يركب مثل ما يركب فرعون، ويلبس كلبسه، وكان يدعى موسى بن فرعون؛ لأنه كان تبنّاه، وركب يوما، وقد ركب فرعون، وهو يتبعه، وقد خلت الأسواق لاحتفال الناس مع فرعون، فكان من أمر القبطى والإسرائيلى الذى استنصر بموسى ما كان، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾[١]، ثم خرج خائفا يترقب تلقاء مدين، وكان من أمره وأمر الجاريتين ما نصه الله ـ عز وجل ـ وهما: ليا وصفورة، وتزوج منهما صفورة.

(١) سورة القصص: آية (١٥).

وكلمه الله تكليما، وأمره أن يأتى فرعون، وشدَّ عَضُدَه بأخيه، ثم كان من أمره وأمر فرعون ما كان.

وقيل: إن عدد السحرة الذين حشر له فرعون خمسة عشر ألفا، فكانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء، قتلهم فرعون لإيمانهم لما رأوا الآية المعجزة، وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى أن يسرى ببنى إسرائيل، فقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً﴾[١] فأمرهم أن لا ينادى إنسان صاحبه، وأن يسرحوا من بيوتهم، ثم خرجوا، وألقى على القبط الموت، فأصبحوا يتدافنون فاشتغلوا بذلك حتى طلعت الشمس، فذلك قوله ـ عز وجل ـ ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾[٢].

وخرج موسى فى ستمائة ألف، وعشرين ألف مقاتل، لا يعد ابن العشرة لصغره، ولا ابن الستين لكبره.

وتبعهم فرعون، وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف، وسبعمائة ألف حصان، ليس فيها ماذيانة، أى: حجر.

ولما وعد الله موسى، أتاه جبريل على فرس يقال إنه فرس الحياة، فأخذ السامرىّ من تربة حوافره.

والسامرى: موسى بن ظفر.

واتخذ لهم العجل، وقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِىَ﴾ يقول: أترك موسى إلهه هنا وذهب يطلبه؟ ثم انصرف موسى من عند ربه، ولم يستطع أحد بعد ذلك أن ينظر فى وجهه؛ لما يغشاه من النور، حتى كان موسى يلبس وجهه بحريرة[٣].

وأنزل الله عليه الألواح بطور سيناء من زمرد أخضر، فيها كتابة بالذهب الأحمر، فلما رأى ما أحدثه قومه من بعده، ارتعد، فسقطت الألواح من يده فتكسرت، فجمعها وأودعها فى تابوت السكينة، وكان قد ضرب التابوت من ذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة مثقال وجعله فى الهيكل، وكان هارون قيم الهيكل.

---

(١) سورة الدخان آية ٢٣.

(٢) سورة الشعراء آية ٦٠.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٣.

ثم أظهروا من توبتهم، وبقتلهم لأنفسهم ما ذكر الله ـ عز وجل ـ، ثم أمر الله ـ عز وجل ـ موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى قومه سبعين رجلا، ثم كان من سؤالهم أن يروا الله جهرة، فأماتهم الله ثم أحياهم، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1].

ثم أمرهم الله عز وجل بالمسير إلى أريحا، وهى أرض بيت المقدس، فساروا لما قربوا منها، وبعث موسى اثنا عشر نقيبا من أسباط بنى إسرائيل، فلقيهم رجل من الجبابرة[2]، فجعلهم فى حجزته، وعلى رأسه حزمة حطب، فانطلق بهم إلى امرأته وقال: انظرى إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يقاتلونا، فطرحهم فى يدها، وقال: الآن أطحنهم برجلى، فقالت امرأته: لا بل خلٍّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا، فذلك قول بنى إسرائيل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3]، فقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[4].

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية[5].

فخرج موسى إلى التيه وعددهم ستمائة ألف بالغ، وأتاهم بالآيات المشهورة.

والتقى موسى بعد ذلك عوج بن أعناق، فارتفع موسى فى الهواء عشرة أذرع، وكان طول عصاه مثلها، وطول موسى مثلها ثلاثون ذراعا، فأصاب كعب عوج بن عُنُق فقتله، حدَّث بذلك سعيد بن جبير، عن ابن عباس[6].

وقيل: إن عوجا عاش ثلاثة آلاف سنة.

* * *

(1) سورة البقرة آية ٥٦.

(2) فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٢٩ «اسم هذا الرجل: عاج».

(3) سورة المائدة: آية ٢٤.

(4) سورة المائدة: آية ٢٥.

(5) سورة المائدة: آية ٢٦.

(6) عن ابن إسحاق، ذكر الطبرى أن طول عوج ثمانمائة ذراع. تاريخ الطبرى ١/ ٤٣١.

القول فى وفاة موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ

حدث ابن عباس، وابن مسعود رضى الله عنهما، أن الله عز وجل أوحى إلى موسى: إنى مُتَوَفّى هارون، فَأْت جبل كذا، فانطلق موسى وهارون إلى ذلك الجبل، فإذا فيه شجر وبيت مبنىٌّ، وإذا فيه سرير، وعليه فرش، فلما نظر إليه هارون أعجبه، وقال: يا موسى إنى أحبُّ أن أنام على هذا السرير، فقال: نم عليه. قال إنى أخاف رَبَّ البيت، قال موسى: أنا أكفيك، فلما نام هارون قبض الله روحه، ثم رفع البيت والسرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل ليس معه هارون، قالوا: إن موسى قتل هارون، وحسده [على] حُبِّ بنى إسرائيل له، وكان هارون أعطف عليهم.

قال: دُفن هارون فى جبل مُوَاب[1] نحو جبال السُّراة مما يلى الطور، وقبره مشهور فى مغارة عادية يُسمع فيها فى بعض الليل دوىٌّ عظيم يجزع منه كل ذى روح.

وقيل: إنه غير مدفون، بل هو موضوع فى الغار ظاهرا، ولهذا خبر عجيب، من وصل إلى هذا الموضع علم ما وصفناه.

وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر وثلاثة أعوام.

وقاله أيضا، وتلك التى كان يزيد عليه هارون فى سنه، فماتا فى سن واحد، فكانت سنُّ كل واحد منهما مائة وعشرين سنة.

وقبضا ولم يحدث لهما شىء من الشيب، ولا حالا عن صفات الشباب.

وكانت فى جبهة هارون شامة، وعلى طرف أرنبة موسى شامة وعلى لسانه شامة، وهى العقدة التى ذكرها الله، العقدة حدثت من الجمرة التى وضعها فى فيه لما دنت آسية له جمرا وياقوتا حين نتف لحية فرعون، فأرادوا قتله، فأتى جبريل فوضع فى يده الجمرة.

---

(١) فى الأصل «موازى».

ثم إن موسى كان مع يوشع، إذ أقبلت ريح شديدة، فظن يوشع أنها الساعة، فالتزم موسى، واشتمله من تحت الثياب، فذهب موسى وتركها في يديه.

فلما رجع يوشع إلى بنى إسرائيل بالثياب، وفقدوا موسى، اتهموه بقتله، وأرادوا قتله، فسألهم أن يؤخروه ثلاثة أيام، فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى منامه أن يوشع لم يقتل موسى، وأن الله عز وجل رفعه إليه.

وذكر ابن إسحاق أن موسى مرَّ برهطٍ من الملائكة يحفرون قبرا، فسألهم: لمن هذا؟

فقالوا: لعبد كريم على ربه.

فقال: إن لهذا العبد من ربه لمنزلا، قالوا: أتحب أن تكون هو؟

قال: وددت ذلك، قالوا: فانزل فاضطجع فيه، وتوجّه إلى ربك، ففعل، ثم تنفس، فقبض الله روحه، وسوّت عليه الملائكة.

قال: وكان فى زمن موسى بَلْعَم بن باعور، وهو من الرهط الذين آمنوا بإبراهيم يوم ألقى فى النار، وكان بقرية من قرى البلقاء، قد أوتى ملكا عظيما، وأُعْطى اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعِىَ به أجاب.

فسأله قومه من العماليق أن يدعو على موسى وبنى إسرائيل، فأبى، [فلم] يزالوا به حتى فتنوه، فركب أتانه، وارتفع إلى الجبل يدعو عليهم، فصرف الله لسانه بالدعاء على قومه، ثم أمرهم أن يُرسلوا النساء الحسان إلى عسكر بنى إسرائيل بالسلع، وأن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فوقع رجل من بنى إسرائيل بامرأة، فوقع فيهم الطاعون، فيقال إنه هلك منهم سبعون ألفا.

ففى بلعم أنزل الله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذى آتَيْنَاهُ آيَاتنَا**﴾ الآية إلى قوله: ﴿**يتَفكَّرُونَ**﴾[1]، وهو الذى نطقت أتانه بفضيحته وقالت: وَيْلى منكَ، تنكَحُنى

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ و ١٧٦ ﴿وَاتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأَتْبَعَهُ الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إنْ تَحْمِل عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذلك مَثَلُ القوم الذين كَذَّبوا بآياتنا فاقْصُص القَصَصَ لعلهم يتفكّرون﴾.

وراجع: تفسير ابن عباس (بهامش الدر المنثور) ٢/ ١٤٠ ـ١٤١ وفتح القدير ٢/ ٢٦٦.

بالليل وتركبنى بالنهار.

قال (س): فأما السامرية، ذرية السامرى، فهم فى وقتنا هذا، وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، فى قرى متفرقة ببلاد فلسطين والأردن إلى نابلس، وأكثرهم فى هذه المدينة، وهم يقولون: لا مساس.

وهم صنفان متباينان كمباينتهم لسائر اليهود، ويقال لأحدهم: الكَوْشان، والآخر: الدَّوْشان[1]، يقول أحدهما بِقِدَمِ العالم، ويزعمون أن التوراة الصحيحة هى بأيديهم، وأن الذى بيد اليهود ليست التى أنزلت على موسى؛ لأنها حرقت وقت سَبْيِهِم[2].

وأن المحدث لهذه التى بأيديهم: رُوبَابيل.

***

ذكر يوشع

ثم بعث الله بعد موسى، يوشع بن نون بن أفراييم، نبيا، وأمره بمقابلة الجبارين، فسار ببنى إسرائيل بعد شهر من موت موسى إلى بلاد الشام، وقد غلب عليها العماليق، فسار إليهم ملك الشام، وهو: السُّمَيْدَع بن هَوْبَر، فقاتلهم يوشع يوم الجمعة قتالا شديدا حتى غربت الشمس، فدعا الله أن يرد عليه الشمس، فردها عليه، وزاد فى النهار يومئذ، فهزم الجبارين، واقتحموا عليهم يقتلونهم، فكانت العصابة من بنى إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها فلا يقطعونها.

وأمرهم يوشع أن يُقَرِّبُوا أغنامهم تلك إلى الله، فلم تزل النار تأكلها، وجاء رجل إلى يوشع فصافحه، فالتصقت يده بيده، فقال: هلم ما عندك، فأتاه برأس ثور من ذهب مُكلل بالدر والجوهر كان غَلَّهُ، فجعله فى القربان، وجعل الرجل معه، فأكلتهما النار.

---

(١) فى المسعودى ١/٥٦ «أحد الصنفين يقال له الكوسان والآخر الدّروسان».

(٢) راجع: مروج الذهب ١/٥٦ـ٥٧.

وكان عُمْرُ يوشع مائة وعشرين سنة، فأقام أمر بنى إسرائيل مذ توفى موسى سبعا وعشرين سنة.

وفى هذه الوقيعة يقول عوفُ بن سعد الجرهمى[١]: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَلْقَمِيَّ بن هَوبَرٍ ... بأَيْلَةَ أَمْسَى لَحْمُهُ قَد تَمَزَّعَا

تَدَاعَتْ عليه من يَهُود جَحَافِلٌ ... ثَمانين[٢] ألفًا حاسِرِين وَدُرُّعَا

وفى أُذَيْنَةَ بن السَّمَيْدَع هذا الجبار يقول الأعشى[٣]: [من المتقارب]

أزالَ أُذَيْنَةَ عن مُلْكِهِ ... فأخرجَ عن أهله ذا يَزَنْ

وأما نبىُّ إسرائيل بعد يوشع: كالب بن يوفنا

قال: ويوشع وكالب، الرجلان اللذان أنعم الله عليهما[٤].

وكالب، زوج مريم أخت هارون.

وأقام فيهم ثمانى سنين.

* * *

ذكر حزقيل

(ط): ثم بعث الله بعد ذلك حزقيل بن بوذا، وهو الذى يُقال له: ابن العجوز؛ لأن أمه سألت الله الولد، وقد كبرت، فوهبه الله لها، وهو الذى دعا القوم الذين ذكر الله فى كتابه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾[٥].

واختلف فى أمرهم كيف كان؟

---

(١) البيتان لعوف بن سعد الجرهمىّ فى مروج الذهب ٤٨/١.

(٢) فى الأصل (ثمانون).

(٣) البيت للأعشى فى ديوانه صـ١٥ ورواية عجزه (وأخرج عن حصنه ذايَزَنْ).

(٤) حكاية ذلك فى سورة المائدة آية ٢٣ ﴿قال رَجُلان من الذين يخافون أَنْعَمَ الله عليهما ادخلوا عليهم البابَ فإذا دَخَلْتُموه فإنكم غالبون وعلى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كنتم مؤمنين﴾.

(٥) سورة البقرة آية ٢٤٣.

(ذكر إلياس)[1]

ثم بعث الله من بعده إلى بنى إسرائيل إلياس بن ياسين بن العيزار بن عدون ابن عمران.

قيل: هو من سبط يوشع بن نون إلى قوم من بنى إسرائيل يعبدون بعلا: صنما، وملكهم: أحب أحاب، وامرأته رُوبيل بنت ملك مصر، وكان يستخلفها على مُلْكه، وكانت قتّالة للأنبياء، وهى التى قتلت يحيى بن زكريا، وتزوجها سبعة من ملوك بنى إسرائيل.

واستخفى منها إلياس شفقة على نفسه عند امرأة لها ابن يقال له: اليسع بن أخطوب، وكان به ضرٌّ، فدعا له إلياس، فعُوفى، واتبع إلياس.

فلما رأى إلياس أن قومه لا يجيبوه، وأنهم مقيمون على أخبث ما كانوا عليه، دعا ربه أن يرفعه إليه، ويُؤخر عنه مذاقة الموت، فقيل له: اخرج إلى موضع كذا، فما جاءك من شىء، فاركبه، ولا تهبه، فخرج ومعه اليسع، وأقبل فرس من نور حتى وقف بين يديه، فوثب عليه، فناداه اليسع، فلم يجبه، فكساه الريش وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وجعله أرضيًا سماويًا، ملكيًا، بشريًا.

ويقال: إن الخضر وإلياس يلتقيان فى كل عام فى الموسم.

* * *

ذكر اليَسَعَ

ثم تنبأ فيهم اليسع، فكان فيهم ما شاء الله أن يكون، ثم قبضه الله، فكثرت فيهم الخطايا والفواحش، وسلط عليهم الجبابرة، فأخذت منهم السكينة، غلبوهم عليها فى بعض حروبهم، فمات ملكهم كمدا لذلك، ولم يزالوا مقهورين، حتى بعث الله فيهم إشماويل.

(١) زيادة ليست فى الأصل، يقتضيها السياق.

ذكر إشماويل

هو إشماويل بن هلقانه بن بَرْوخان بن ناحور.

واسم أمه: حَنَّة، من بنى إشمائيل، قالوا: وإشماويل: هو إسماعيل، وهو الذى قالوا له: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

ولم يكن بين يوشع وبينه نبى.

وذكر أن من رتب الأنبياء بعد يوشع، هم بعد إشماويل، وكانت مدة ما بين إشماويل واليسع، قال (س): كان بين خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر إلى أن ملك عليهم طالوت: خمسمائة سنة واثنتان وسبعون سنة[2]، وملكهم بعد يوشع بن نون إلى أن بُعث فيهم إشماويل، أحد عشر ملكا من أسباط مختلفة وقيل إن ندعون منهم نبى.

وشمويل هو شمعون، فلما طال على بنى إسرائيل البلاء، رغبوا إلى الله أن يبعث إليهم نبيا.

وكان سبط النبوة قد هلك، فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى، فأخذوها وحبسوها، خوفا أن تلد جارية، فتبدلها بغلام، فولدت غلاما وسمته شمعون، فتنبأ وهو غلام صغير، فأعلمهم أن الله ـ عز وجل ـ قد بعثه نبيا، فكذبوه، وقالوا له: استعجلت النبوة ولم يأن لك، وقالوا له: إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا، فدعا الله، فأتى بعصا تكون على طول الذى يبعث فيهم ملكا، فقال لهم: إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا، فقاسوا أنفسهم بها، فلم يكونوا مثلها.

* * *

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ٥١.

ذكر طالوت [1]

وكان طالوت رجلا سقاء يسقى على حمار له، فضلّ حماره، وانطلق يطلبه، فلما انصرف، دعوه فقاسوه بها، فكان مثلها، وقيل: كان دباغا، يعمل الأدم.

فقال قومه: ما كنت قط أكذب منك الآن، نحن من سبط المملكة ويُملَّكُ علينا هذا.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

قال: إن كنت صادقا، فأتنا بآية.

قال: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾[2] يريد: عصا موسى ورُضَاض الألواح.

فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، ينظرون إليه نهارا عند الفجر، حتى وضعته عند طالوت.

روى ذلك ابن وهب عن زيد.

وكان مدة مغيب التابوت ببابل عشر سنين، فأقرُّوا غير راضين.

* * *

(١) اسم طالوت بالسريانية: شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح بن أيش ابن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.
قال ابن إسحاق: كان النبى الذى بعث لطالوت من قبره حتى أخبره بنبوته أليسع بن أخطوب.
تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٥ وراجع تفسيره ٥/ ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٨.

ذكر جالوت

واشتد سلطان جالوت، وبلغه أمر طالوت، فسار جالوت من فلسطين بأجناس البربر، فنزل بساحة بنى إسرائيل، فسار إليهم بنو إسرائيل، وسلط عليهم العطش، فابتلاهم بنهر بين الأردن وفلسطين، فشربوا منه هيبة من جالوت، فعبر منهم معه أربعة آلاف، ورجع ستة وسبعون ألفا، فمن شرب منه عطش، ومن لم يشرب منه إلا غرفة بيده روى، فلما رأى الذين معه عدد جالوت ﴿**قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ...**﴾ الآية[١].

فرجع عنه أكثر من عبر معه، وخلص إلى جالوت فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا بعدد أصحاب بدر.

وقتل طالوت كل من شرب من النهر عن آخرهم، فعبر داود فيمن عبر معه.

وكان أبوه[٢] له ثلاثة عشر ولدا، أصغرهم داود، قال: وكان يُدَّعَى على أبيه، وكان فيه قصر، وزرق، وقرعٌ فى ناحية من رأسه، وكان داود يأتى أباه فيقول: يا أبتى إنى لا أرمى ببندقتى هذه شيئا إلا صرَعْتُه، فيقول: أبشر يا بنى، فإن هذا خير أعطاكه الله عز وجل، ثم أتاه يوما فقال له: يا أبتى إنى لأمشى بين الجبال وأُسَبِّحُ، فما من شىء إلا يسبح معى، فقال له مثل مقالته الأولى.

فأتى النبى إشماويل بقرن فيه دهن، وتنور من حديد، فبعث إلى طالوت، وقال: إن صاحبكم الذى يقتل جالوت، يوضع هذا القرن على رأسه، فَيَنْتُنُ[٣] دُهْنُهُ، ولا يَسيلُ على وجهه منه شىء، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل فى هذا التنور فيملأه.

فدعا طالوت ببنى إسرائيل، فخوَّفهم[٤]، فلم يوافقه منهم أحد، فلما فرغوا

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٢) أى سليمان النبى.

(٣) فى الأصل (فيثبت).

(٤) فى الأصل (فجرّبهم).

قال: هل بقى منكم أحد، قال أبو داود: نعم قد بقى ابنى داود، وهو يأتينا بطعام، فلما انصرف داود، كان قد مر فى الطريق بثلاثة أحجار، فكلمته وقالت: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، فأخرج الحجارة فأخذها وجعلها فى مخلاته.

وكان طالوت قال: من قتل جالوت زوَّجته ابنتى، وأجريت خاتمه فى ملكى.

فلما أتى داود وجرّبوه بالقرن، فكان كما قال النبى، وبالتنور فملأه، وكان منحوفا مضمارا، ولم يدخله أحد إلا تغلغل فيه.

وكان جالوت من أجسم الناس، فمشى داود إلى جالوت، فأخرج الحجارة وجعلها فى القذافة، فكلما أخرج حجرا منها قال: باسم أبى إبراهيم، والثانى، باسم أبى إسحاق، والثالث: باسم أبى يعقوب، ثم أدار القذافة فصارت الأحجار حجرا واحدا، ثم أرسله فصدًّ به عينى جالوت، فنقبت رأسه وقتلته، ولم يزل كل إنسان تصيبه بحياله، فهزمهم عند ذلك.

وزوَّج طالوت ابنته من داود، وأجرى خاتمه فى ملكه، فمال الناس إلى داود وقال: سلَّم له طالوت الجباية، وثلث الحكم، ثم حسده بعد ذلك طالوت وأراد اغتياله، وسجى له داود خمرا فى مضجعه، ودخل طالوت فضربه، فطارت نقطة من الخمر إلى فيه، فقال طالوت، يرحم الله داود، ما كان أكثر شربه للخمر. ثم أتى داود طالوت، فوضع سهمين عند رأسه وهو نائم وآخرين عند رجليه، فلما استيقظ طالوت كان عرفهما، وأيقن أن داود خير منه حين كف عنه وقد ظفر به، ثم إن طالوت كان لا ينهاه أحد عن داود إلا قتله.

ثم أدركه الندم من ذلك، وأقبل على طلب التوبة، فسأل امرأة كان عندها الاسم المكنون، فقالت: لا أعلم لك توبة إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك فتقاتلوا فى سبيل الله حتى تقتلوا، ففعل طالوت ذلك حتى قُتل.

قال القوطى: وأتى داود غلام حسن حين هزم الجيش من المسلمين الذين كانوا مع طالوت، فقتل طالوت، وأتى بسواريه وقال: وجدته جريحا، فأجهزت عليه، لما علمت أنه عدوك وأتيتك بسواريه، لأحظى عندك بذلك.

فأمر داود بقتله، وقال: قتلت مقدِّس الرب، وأمير بنى إسرائيل، وكان الغلام عربيا من العماليق.

[قيل] إن طالوت لما رأى ظهور داود وميل الناس إليه وصرفهم عنه، مات على سرير ملكه ليلة كمدا.

وانقادت بنو إسرائيل لداود، وبعثه الله نبيا.

واسم طالوت بالسريانية: شاوِل بن قيس، من ذرية يعقوب.

الموضع الذى قتل فيه جالوت: بيَسان، من أرض الغَوْر، من بلاد الأردن.

* * *

داود - عليه السلام -

هو داود بن إيشا[١]، من ذرية يهوذا بن يعقوب.

أعطاه الله عز وجل ما نصّه الله فى كتابه من الآيات، ولم يزل قائما بأمر بنى إسرائيل أحسن قيام إلى أن كان من أمره بامرأة أوريا ما كان، وهى التى ولدت سليمان بن داود.

فلما واقع الخطيئة، اشتغل بالتوبة، واستخف به بنو اسرائيل، ووثب عليه ابن له يقال له أَبْشالوم، وهو ابن بنت طالوت، وهو بكره، وأراد نزعه من الملك، ودعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزيغ، فلما تاب الله على داود، ثابت[٢] إليه الناس، وحارب ابنه حتى هزمه، ووجه فى طلبه قائدا من قواده، وتقدم إليه أن يتلطف فى أمره ولا يقتله.

فلم يزل يتبعه القائد حتى اضطره إلى شجرة، فتعلقت أغصانها بشعره، ولحقه القائد فقتله مخالفا لأمر داود، فاشتد حزن داود عليه.

وأصاب بنو إسرائيل فى زمانه طاعون، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله، ويسألونه كشف البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجدا، وذكر أن ذلك لإحدى عشرة سنة خلت من ملكه.

وقد تقدم فى بيت المقدس غير هذا.

(١) فى الأصل (أنيشا) وراجع: تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٦.
(٢) فى الأصل (ثاب).

قال: وتوفى قبل أن يتم بناءه، وأوصى إلى ولده سليمان باستتمامه، فبناه فى ثمانى سنين.

وصح عن القوطى قال: ابتدأ سليمان بناءه فى السنة الرابعة من ولايته، وأتمه فى السنة الحادية عشرة.

ويذكر أن سليمان لما فرغ من بنائه، أطعم فتية بنى إسرائيل فيه اثنى عشر ألف ثور.

والذى بنى منه داود، هو المعروف بمحراب داود، وليس فى بيت المقدس بناء أعلى منه فى هذا الوقت، يرى من أعلاه البحيرة الميتة، وبحر الأردن، والبحيرة المنتنة بأرض العراق، وهى لا تقبل الغُرَقاء، ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره، وإليها ينتهى ماء بحيرة طبرية، وهو الأردن، فإذا انتهى إلى البحيرة الميتة خرقها وانتهى إلى وسطها متميزا من مائها، فيغوص فى وسطها، وهو نهر عظيم، لا يُدرى أين غوصه، من غير أن يزيد فى البحيرة المنتنة شيئا.

ومن البحيرة الميتة تخرج الأحجار التى تستعمل لوجع الحصاة، وهى نوعان: ذكر، وأنثى، فالذكر للرجل، والأنثى للمرأة. ومنها يخرج العقّار[١] المعروف بالحُمر.

وكان عمر داود فيما وردت به الأخبار عن النبى ﷺ مائة سنة.

وقال أهل الكتاب: تسعة وتسعون سنة.

ومدة ملكه: أربعون سنة، كان ملكه على فلسطين والأردن، وكان عسكره ستين ألفا، أصحاب دَرَقٍ وسيوف.

والنصارى يزعمون أن قبره فى الكنيسة الجسمانية ببيت المقدس.

وكان داود إذا قرأ الزبور، يرق له الوحوش حتى تؤخذ بأعناقها، وإنها لَمُصِيخَةٌ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط، والعنوج، إلا على أصناف صوت داود عليه السلام[٢].

(١) فى الأصل (العقاب).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ١/ ٤٧٨.

سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ

أمه امرأة أوريا.

أتاه الله عزَّ وجلَّ النُّبُوَّة، وسأل ربه أن يؤتيه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فسخر الله له الجن والإنس والطير والريح غدوها شهر ورواحها شهر[١].

ذُكر أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه: نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيا وجدناه، غدَوْنا من اصطخر فقلناه، ونحن رائحون الشام إن شاء الله».

وخبره مع بلقيس مشهور، ويذكر أنه تزوجها، ويقال إنه إنما أنكحها من تُبَّع ملك همدان، فردَّها إلى اليمن، ولم يزل زوجها ملكا باليمن، حتى مات سليمان ﷺ.

ولما غلب سليمان والدَ جرادة المَلِك، وقتله، واصطفى جرادة وكانت من أجمل الناس، فأحبها سليمان حبا شديدا، وكانت لا تزال تبكى أباها، فوجد لذلك سليمان وجْدًا شديدا، حتى سألته أن يأمر الجن فيصوروا لها صورة أبيها، فلعلها تسكن، فأمر سليمان الجن بذلك، فعمدت إلى الصورة فلبستها وعممتها، وجعلت تسجد لها هى وَوَلَائِدُها غدوة وعشية، وبلغ ذلك آصَفُ، وكان صدّيقا، فأعلم سليمان، فكسر الصنم وعاقب المرأة، فسلبه الله خاتمه عقوبة، وقد ذكر الحديث بطوله فى أخبار جزائر البحر الأخضر.

وروى أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان إذا رأى شجرة نابتة بأرض المقدس، أو فى أرضه، يقول لها: ما اسمك؟ ولأى شىء أنت؟، فإن كانت لدواء كُتبت وعُلِّمت،

فبينما هو يمشى إذ رأى شجرة قائمة، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرُّوب،

(١) قال تعالى فى سورة سبأ، آية ١٢ ﴿ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحها شَهْرٌ وأَسَلْنا له عَيْنَ القِطْرِ ومن الجنِّ من يعملُ بين يديه بإذن ربِّه، ومن يَزِغ منهم عن أَمْرِنا نُذِقْهُ منَ عَذَابِ السَّعير﴾.

قال: ولأى شىء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم غُمَّ[١] على الجن موتتى، حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.

فنحتَ الخرّوب، وأخذ منها عصاه، وتوكأ عليها ميتا حولا كاملا، فأكلت الأرضة العصا، حتى خرَّ سليمان، فلما خرَّ سليمان شكرت الجن للأرضة، فهى تأتيها بالماء والطين، وتنقل إليها الطين حيث كانت. وقال: ألم تر الطين الذى يكون فى جوف الخشب، هو مما يأتيها به.

وكان جميع عمر سليمان نيفا وخمسين سنة، اثنتين وخمسين سنة، وبعد أربع من مملكته ابتدأ بناء بيت المقدس.

قال: وكانت مملكته أربعين سنة، صح لهم.

قال القوطى: ولى وهو ابن سبع عشرة سنة، وبقى أربعين سنة، فعمره على هذا سبع وخمسون سنة.

قال القوطى: أول حُكْمٍ حكمَ به فى الصبا فى أمر الصبى، الذى ادعتاه امرأتان، فدعا بالسيف، وأمر بشق الصبى وقسمته عليهما، فرضيت بذلك التى لم يكن لها، وقالت أمه: بل نعطيه الأخرى حيا، فحكم به لها، وعجب بنو إسرائيل من حكمه وفهمه.

ثم حكم بعد سليمان ابنه رجيعا[٢]، فتفرقت عليه بنو إسرائيل، سبعة عشر عاما، وتوارث ذلك عقبه، ولم يزالوا برهة (يجتمعون على ملك منهم ثم يفترقون إلى رأس مائتى سنة من موت سليمان إلى أن بعث الله عز وجل)[٣] فيهم شعيا نبيًا.

* * *

(١) فى الأصل (عَمَّ).

(٢) فى تاريخ الطبرى (رُحُبْعُم بن سليمان).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل.

ذكر شعيا ـ عليه السلام ـ

هو شعيا بن آمُوص[١]، وهو الذى بشر بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ.

وكان فى زمان حَزْقيا ملك لبنى إسرائيل، من ذرية سليمان، هذا الصحيح، وقد قيل فى زمن جَدِّه، وقيل: يُوَطان.

وكان حزقيا الملك مستقيم السيرة، صحيح الإيمان، نابذا للأوثان التى كان اتخذها بنو إسرائيل من قبله، وقطعها من جميع أرض يهودا.

فلما حان انقضاء ملكه، بعث الله عليهم سَنْحَاريب ملك بابل، ومعه ستمائة ألف راية ـ سنحاريب ملك الموصل ـ حتى نزل أرض أَيْلياء، والملك مريض.

وأوحى الله عز وجل إلى شَعْيا أنْ سِر إلى الملك، وأعلمه أنه ميت، وأمره أن يستخلف من شاء على ملكه.

فلما قال له ذلك شعيا، بكى وجزع، وتضرع، فأوحى الله عز وجل إلى شعيا، أن قد أخرت أجله خمس عشرة سنة، وإنى منجيه من عدوه، فشكر الملك، وسجد لله عز وجل.

قال القوطى: وبعث الله الطاعون على عسكر سنحاريب، فهلك منهم فى ليلة واحدة، مائة ألف وخمس وثمانون ألفا، لم يسلم منهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه وقواده، أحدهم: بُخت نصر بعد أن فروا فأدركوا فى مفازة، وأوتى بهم ملك بنى إسرائيل، فخر ساجدا من حين طلعت الشمس، حتى كان وقت العصر وأمر بأن توضع الجوامع فى رقابهم، ويطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس، ثم أرسله ومن معه لينذروا من وراءهم.

وكان ملكه إلى [أن] توفى سبعة وعشرين سنة.

وبقى الملك فى ولده إلى ملك لهراسيف ملك الفرس.

(١) فى الأصل (راموص).

(٢) فى تاريخ الطبرى: لهراسب.

تنافس بنو إسرائيل الملك، فأمر الله شعيا أن يقوم فيهم بِوَحْيِهِ، فلما فعل قتلوه، فسلط الله عليهم عدوهم، فوجه لهراسيف بخت نصَّر، فبنى مدينة بلخ، وسماها الحُسْنَى، فقاتل الترك، واشتدت شوكة بخت نصَّر، حتى أتى دمشق فصالح ملك بنى إسرائيل، وهو رجل من ولد سليمان، وأخذ منه رهائن، وانصرف، فوثب بنو إسرائيل على ملكهم فقتلوه، وقالوا: راهنت أهل بابل وخذلتنا، فكر بخت نصَّر راجعا إليهم فأخذ المدينة عُنوة، وقتل وسبى، وحرق البيت، وهدم أسوار المدينة.

وكان آخر ملوك بنى إسرائيل شدخش، وقيل، خَرْخش، من ذرية سليمان بن داود، فانقطع سلطان بنى إسرائيل، ووجد فى سجن بنى إسرائيل: إرميا النبىّ.

* * *

ذكر إرميا النبى ـ عليه السلام ـ

وكان الله قد بعثه إليهم يحذرهم مما حلَّ بهم من بخت نصَّر، إذا لم يتوبوا فضربوه وسجنوه، فسأله بخت نصر عن شأنه، فأخبره، فأحسن إليه، وخلّى سبيله، وانصرف بخت نصَّر بعد أن غزا مصر لما منع منه ملكها، فأتى بنى إسرائيل، وقتل ملكها، فهو فرعون الأعوج[١]، وسبى أهله، ورجع ومعه شىء كثير، فيهم: عُزَير ودانيال وغيرهم.

وفى ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل، فنزل بعضهم بأرض الحجاز يثرب ووادى القرى وغيرها، وانتهى عدد سَبْيِه من بنى إسرائيل ثمانية عشر ألفًا.

قال: وعمد بخت نصَّر إلى التوراة، وإلى ما كان فى هيكل بيت المقدس من كتب الأنبياء وطرحه فى بئر، وعمد إلى تابوت[٢] السكينة، فأودعه فى بعض المواضع من الأرض.

* * *

(١) فى تاريخ اليعقوبى ١/ ٦٥ «فرعون الأعرج».

(٢) فى تاريخ اليعقوبى ١/ ٦٥ «أن الذى أخذ تابوت السكينة هو أرميا النبى».

ذكر دانيال ـ عليه السلام ـ

(ق): فأما دانيال، فهو الذى عبَّر رؤيا بخت نصَّر، فنزل منه بأحسن المنازل، وكان قبره بناحية السوس.

ووجده أبو موسى الأشعرى، فأخرجه وكفَّنه، وصلَّى عليه، ثم قبَّره.

وقال فى أخبار الفرس: إن دانيال كان بين نوح وإبراهيم.

وثبت هذه المقالة، وقال: وهو الذى استخرج العلم، وما يحدث فى الأزمان إلى أن تنقضى الأرض ومن عليها، وعلوم ملوك العالم، وما يحدث فى السنين والشهور من الحوادث، ودلائل ذلك فى الآفاق.

وفى مدينة (بابل) الخَرِبَة التى كانت مملكة الفرس جُبٌّ يعرف بجبٍّ دانيال، الذى تقصده النصارى يوم عيدهم، واليهود فى أعيادهم.

قال أبو عَبَّاد فى كتاب الأقوال: لما فتحوا السُّوس[1]، وأميرهم أبو موسى الأشعرى، وجدوا دانيال فى بَدَن[2]، وإلى جنبه مال موضوع، من شاء اقترض منه إلى أجل، فإن أتى به إلى ذلك الأجل، وإلا بَرِص.

والتزمه أبو موسى وقبَّلَهُ، وقال: دانيال وربِّ الكعبة، وكتب فى شأنه إلى عمر، فكتب عمر إليه: كفِّنْهُ، وحنِّطْهُ، وصلِّ عليه وادفنهُ كما دُفِنت الأنبياء[3]، واجعل ماله فى بيت المسلمين.

قال: فكفَّنه فى قباطٍ بيضٍ، وصلَّى عليه ودفنه.

قال: حدثنا بذلك حسان بن عبيد الله، عن السدّى بن يحيى عن قتادة.

* * *

---

(١) السُّوس: بضم أوله وسكون ثانية وسين مهملة أخرى، بلفظ السُّوس الذى يقع فى الصوف، بلدة بخوزستان، فيها قبر دانيال النبى عليه السلام. معجم البلدان (سوس).

(٢) فى الأصل (جرن).

(٣) أى مكان، فإن الأنبياء يدفنون حيث يموتون.

ذكر عزير

فأما عزير، فأقام لبنى إسرائيل التوراة، بعدما أُحرقت، حين عاد إلى الشام، فقال طائفة منهم: هو ابن الله.

وهو الذى أكثر المناجاة فى القدر، فمحى الله اسمه من الأنبياء، فلا يذكر فيهم، وهو رسول.

وبقى إرميا بأرض مصر حتى أوحى الله إليه، أن اخرج فالحق بإيليا فلتكن بلادك، حتى يبلغ الكتاب أجله.

فخرج إرميا مذعورًا، فركب حماره وانطلق حتى رُفِعَ له شخصُ بيت المقدس، فرأى خرابًا لا يوصف ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾[١] الآية، فبعث الله ملكًا من ملوك الفرس يقال له كَوْش[٢]، فعمر بيت المقدس، وملك لهراسيف مائة وعشرين سنة، وملك بعده يستاسف[٣] ابنه، فبلغه خراب بلاد الشام، وإنه ليس بها أحد من الإنس، فأذن لبنى إسرائيل أن يرجعوا إلى الشام، ونودى فى الناس بذلك، وملَّك رجلاً من آل داود عليهم، فعمروها، وذلك بعد سبعين سنة.

وإنما فعل ذلك الملك الفارسى، لأنه كان إستخلص جارية من بنى إسرائيل، فسألته ذلك، قال: والذى ملَّك عليهم: روبابيل، فأقام فيهم ستة وأربعين سنة.

وقيل إن رجوعهم كان فى أيام كورش الفارسى الملك، وكان دانيال حل هذا الملك، ثم أحيا الله سبحانه وتعالى إرميا عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة آية٢٥٩ ﴿أَوْ كالذى مَرَّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عُرُوشها قال أَنَّى يُحْيِى هذه الله بعد موْتِهَا فأماتَهُ الله مائة عامٍ ثم بَعَثَهُ قال كم لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يومًا أو بعض يومٍ قال بل لَبِثْتَ مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّه وانظر إلى حمارِك ولنجعلَكَ آيةً للناس وانظر إلى العظام كيف نُنشِزُهَا ثم نكسوها لحمًا فلمَّا تَبَيَّن له قال أَعْلَمُ أَنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾.

(٢) فى الأصل (كوشك).

(٣) فى تاريخ الطبرى ١/ ٥٤٠ «يشتاسب».

ذكر زرادشت الذى تدعى بنبوته المجوس

وفى زمان يستاسف[١] صاحب بابل، ظهر زرادشت بن اسبيتمان[٢] الذى تدعى المجوس أنه نبيهم، وكان من علماء أهل فلسطين، خادمًا لإرميا، فخانه، فدعا الله عليه، فبرص، ولحق ببلاد آذربيجان، وشرع فيها دين المجوسية، وقصد الناس على الدخول فيه، وقَتَل فى ذلك وعذَّب، حتى دانوا له.

وأتى زرادشت بالمعجزة الباهرة، وأخبر عن الكائنات من الكليات والجزئيات، وأتى بكتاب يدور على ستين حرفًا من المعجم، وهى لغة معجز عن إيرادها، ولا يدرك كنه مرادها.

وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد ووعيد، وأمر ونهى، وغير ذلك من العبادات، واسم هذا الكتاب بَسْتاه[٣]، وأول سورة منه سورة حَنَرِفْت، فيها ذكر مبتدأ الخليقة، وأصول الطبائع وامتزاجها، وعمل له زرادشت تفسيرًا سماه بازَنْ، وهو كتاب يعجزُ عن حفظه، وأكثر ما يحفظونه أسباعًا، إذا انتهى الحافظ للسبع، ابتدأ الحافظ للسبع الثانى وكانت نبوة زرادشت فيهم خمسة وثلاثين سنة، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة.

* ومما تحمل الفرس عنه: أن القديم تعالى طالت وحدته، فطالت فكرته، فلما طالت فكرته اشتدت وحشته، فلما اشتدت وحشته تولد الهَرْمَنْدُ، فصار مُضادًا للنور الأكبر.

والهرمند: هو الشيطان، وأن الله - عز وجل - لو كان قادرًا على إفناء الهرمند، لما ضرب له أجلاً ولا أخره أمرًا، يغوى عباده، ويفسد بلاده وهذا هو المحال عينه، والناقص نفسه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

---

(١) فى تاريخ الطبرى ١/ ٥٤٠ «لهراسب».

(٢) فى الأصل (أستيمان).

(٣) فى الأصل السناه.

ولم تزل الفرس تتدارس نواميس هذا الكتاب جيلاً فجيلاً، حتى ظهر فيهم خَاهَشْت الغلام، فشرح لهم تأويلاً، وأحدث لهم قرابين فى مذاهبهم اعتمدوا عليها، واتخذوا بيوت النيران، وقربوا لها القرابين، ورتبوا لها السدنة، ووضعوا لها أيضًا الهَرَابِذَةُ، واحدهم: هَرْبَذ، وتأويله: فقيه الدين، ووضعوا مَرْزُبَانًا، وتأويله: قاضى القضاة، وهو بالفارسية: الدِّين، وهو حافظ الدين.

وكانت لهم صلوات، وزمزمة وقرابين يقربونها فى بيوت النيران.

وجملة اعتقادهم محصور فى الكتاب الذى جاءهم به زرادشت.

وكان ملك يستاسف مائة سنة واثنتى عشر سنة.

وبخت نصَّر رجل من العجم، عاش دهرًا طويلاً جاوز ثلاثمائة سنة. وخدم عدة من ملوكهم، آخرهم بَهْمَن، وهو ابن يستاسف[1].

وبهمن أبو دارَاى، دارا الذى قُتِل فى عهد الإسكندر الأكبر، ودارا الأكبر، هو الذى عقد له أبوه بهمن التاج، وهو فى بطن أُمِّه حنانا ابْنَتَهُ، فلما رأى ذلك ساسان بن بهمن، وكان يتصنَّع للملك لا يشك فيه - وهو رجل كامل - لحق بإصطخر، وتزهد، وخرج من خَلِيَتَّه، وتعبَّد، واتخذ غنمًا، فكان يتولى ماشيته بنفسه، واستساغت العامة ذلك عنه، ونطقت به، فمن ساسان: الساسانية وهم الفرس الثانية، أوَّلَهم أَرْدَشِير بن بابل بن ساسان أبو أربعة إلى ساسان بن بهمن.

* * *

عيسى وزكريا - عليهما الصلاة والسلام -

كان زكريا بن آزن، وعمران بن ماتان بن أليقيم[2] من ولد سليمان بن داود من سبط يهودا، وكانا فى زمان واحد.

فتزوج زكريا أشياع بنت عمران أخت مريم، واسم أمها: حنة وكان يحيى وعيسى ابنى خالة، وكان زكريا نجارًا، وأشاعت اليهود أنه ركب من مريم

---

(١) فى الأصل (يشتاسف).

(٢) فى الأصل (بغائيم) وانظر تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٤٣.

الفاحشة، ففر منهم، فلما أحس بهم، دعا الله ـ عز وجل ـ أن يفتح له جوف شجرة فدخل فيها، ودلهم إبليس عليه، وبقى هَدَبْ ردائه ظاهرًا، فنشروا الشجرة، ونشروه معها، ولذلك يتخذ أهل الكتاب الهُدْبَ فى أَرْدِيَتها.

* * *

ذكر يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ

وأما يحيى فكان مولده قبل عيسى بستة أشهر، فنبَّأه الله واستظهر به عيسى، وبعثه الله فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس، فكان ما نهوا عنه بنو إسرائيل [نكاح] ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخ تُعْجِبُهُ، أراد أن يتزوجها، فبلغ نهيهم أمها، فحقدت على يحيى حين نهى أن يتزوج الملك ابنتها، وأمرت ابنتها أن تتلطف للملك وتسقيه، وتتعرض له، فإن أرادها على نفسها أبت حتى يعطيها ما سألته، فإن أعطاها، ذلك سألته أن يُؤْتَى برأس يحيى، ففعل الملك ما سألته، وهو أحب، وأمرأته أزبيل وقد تقدم ذكرها.

قال: فلما وضع رأس يحيى بين يديه، جعل يتكلم ويقول: لا تحل لك، واستمر غليان دمه، فأمر بتراب فألقى عليه، فما ازداد إلا انبعاثًا.

فبعث الله عليهم ملك من ناحية الشرق، يقال له: خردوش، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا سبعين ألفًا، إلى أن سكن دمه.

وذكر أن الذى فعل ذلك بخت نصَّر، وهذا لا يُسْتَفْهَم، لأنه كان من خراب بيت المقدس على يد بخت نصَّر إلى مولد عيسى ـ عليه السلام ـ خمسمائة سنة وسبعون سنة، تعد مَلِكًا مَلِكًا.

كما أنه لا يستفهم أن يكون أحب هو الذى قتل يحيى، وهو الذى بُعِثَ إليه إلياس بن ياسين، وبين يحيى وإلياس مثل هذه المدة.

قال: وولد فى أيام ملوك الطوائف[1] لِمُضِى ثلاثمائة سنة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الأسكندر على بابل، هذا هو الصحيح.

(١) فى الأصل: الطائف، وهو تحريف.

وقال وهب بن منبِّه: إن الإسكندر كان فى الفترة بعد عيسى، وهذا وَهْمٌ؛ لأن ملوك الطوائف إنما كانت بعد الإسكندر.

ويقال: إنه لما وُلِدَ عيسى، لم يبق على وجه الأرض صنم يُعْبَدُ إلا سقط على وجهه، ففزعت الشياطين، وجاء إبليس فأخبروه، فقال: إن لهذا شأنًا، وذهب يطوف الأرض، حتى مر بالمكان الذى ولد فيه عيسى - عليه السلام - بيت لحم يهودا، فرأى الملائكة محدقين به، فأراد أن يأتيه، فمنعته الملائكة، ورجع إلى أصحابه فأخبرهم.

وفرت بعيسى أمه إلى أرض مصر، خوفًا من هذا، وخوفًا من هرادش فذلك قول الله - عز وجل: ﴿وآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[١] ثم ردته إلى الشام بعد اثنتى عشرة سنة من عمره.

وجاءه الوحى بعد ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين، وآتاه الله الآيات التى نص عليها، وأنزل الله عليه المائدة، سفرة حمراء مغطاة بمنديل بين غمامتين.

(س): ومر عيسى ببحيرة طبرية، وعليها ناس، فدعاهم إلى دين الله، فاتبعه ثلاثة من الصيادين، واثنى عشر من القَصَّارين، فهم الحواريُّون[٢].

وذُكِرَ أن أحد الحواريون دل اليهود على عيسى، حتى[٣] هموا به، ثم ندم على ما فعل، فاختنق، وقتل نفسه، وقد كان عيسى عليه السلام ذكر لهم ذلك.

وقال: ثم لقيه الحواريين بعدما رُفِعَ، وليزيلَ ما فى نفوسهم، فسألهم عنه، فقالوا: قتل نفسه، قال: لو تاب، تاب الله عليه.

وذكر ابن خرداذبة[٤]: أن الذى صُلب مكانه أَيْشُوع بن قَيْدَار، وأنه كان بين هبوط آدم إلى الأرض ورفع المسيح خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وثلاثون سنة.

قال القوطى: وكان بين انقضاء أمر المسيح وكُفر اليهود وتفرق جماعتهم وتمام اللعنة عليهم إلى يوم القيامة، وإخراجهم من ديارهم على يدى قيْصر طَيْطُوش؟

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠.

(٢) مروج الذهب ١/ ٦٠.

(٣) فى الأصل (حين).

(٤) فى الأصل (قرداذبة) وهو تحريف.

تسع وثلاثون سنة.

قال القوطي وغيره: وكان انقضاء أمر المسيح زلزلة عظيمة، عمّت الدنيا شرقا وغربا، انهدّت لها الجبال، وتصدّعت الصخر، وتهوّرت المدن، دليلها وشاهدها الكور التى وضع عنها الخراج لانهدامها، وذلك موجود فى الدواوين، وكُسفت الشمس ذلك اليوم من الساعة السادسة إلى آخر النهار، حتى صار ذلك النهار ليلا، وفى ذلك قال شاعر اليونانيين ترجمناه عربيا: [من الكامل]

فَزعَت له الدنيا وَظَنَّت أنَّه ... ليلٌ عليها ما يزالُ مُؤبَّدا

لَمَّا رأى الناس الكسوف على ... خلاف سبيله ظنوه ليلاً سرمدًا

لأنها كسفت فى انتصاف الشهر، والشمس لا تعرف كسوفها إلا فى انقضاء الشهر، وعند اجتماع النيِّرين.

* * *

يونس بن متى

وقد كان من الأنبياء قبل عيسى، يونس بن متّى - عليهما الصلاة والسلام.

وكان من أهل قرية من قرى الموصل، يقال لها نينوى.

وكان قومه يعبدون الأصنام، فكان من أمر قومه ما نصه الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾[1].

* * *

(١) سورة يونس آية ٩٣.

[ذكر من كان بين موسى وعيسى عليهما السلام][(١)]

● **ومن كان بين موسى وعيسى ـ عليهما السلام**: (بنو حضور بن عدى): وكانوا أمة عظيمة ذات بطش.

وزعموا أنه من ولد يافث، وقيل من العرب الداثرة.

بعث الله عز وجل إليهم: شُعَيْب بن ذى مَهْرَم بن حضور نبيًا، فكذبوه وقتلوه، وهذا غير شعيب، صاحب مدين، بينهما مئون من السنين.

● **وقد كان بين موسى وعيسى ألف نبىٍّ**، فسلط الله على بنى حَضور جبارًا يقال له: بخت نصَّر، فسار إليهم بجنوده، وغشى ديارهم، وصاح بهم صائح من الهوى، وقد استعدُّوا لحربه، فعم الصوت أسماعهم [من الطويل]:

سيُغْلَب قَومٌ غالبوا الله جهرةً ... وإن كايدوه كان أقوى وأكْيَدَا

كذاك يُضِلُّ الله من كان قَلْبُهُ ... مَرِيضًا، ومَنْ وَالَى النفاق وألحدَا

فعلموا أن الأمر نازل بهم، فانفضت جموعهم، وحصدهم السيف أجمعين يقول الله ـ عز وجل ـ فيهم: ﴿**فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ**﴾[(٢)].

● **ومن كان فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ: جُرْجُس**:

وهو من أهل فلسطين، وبُعِثَ إلى ملك الموصل يدعوه إلى الإسلام، فقتله بالعذاب مرات، وأحياه الله ـ عز وجل ـ آية لهم وعبرة، ونشره قطعًا ورماه إلى الأُسْد الضارية، فخضعت الأُسْدُ برءوسها، وضلَّ قومُه كذلك، فلما أدركه الليل جمعه أوصاله، ورد روحه، ثم أقبل عليهم اليوم الثانى يعظهم، ويغلظ عليهم، فلما استمروا فى عُتُوِّهم وكفرهم بعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم عن آخرهم.

● **ومن كان فى الفترة**، الذين حكى الله ـ عز وجل عنهم فى قوله: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ...**﴾[(٣)] الآية،

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة للضرورة.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٢.

(٣) سورة يس آية ١٣.

وأسماؤهم: صادق، وصدوق، والثالث: شلوم، الثالث بَطْرُس بالرومية، وبالسريانية: شمعون، وبالعربية: سَمْعَان، وقد سمى الاثنين أيضًا بالرومية، فقيل: بُطرُس، وبولس، وقيل: يَرْما ويُومن.

بعثهم الله إلى فرعون من الفراعنة، كان بمدينة أنطاكية، أصل هذا الاسم بالرومية: أنطجين، وهو لقب للملك الذى بناها، وتفسيره: مُحَوِّط الحيطان، فلما افتتحها المسلمون حرفت الأحرف إلا الألف والنون والطاء.

ويقال: إنهم من الحواريين، ولم يكونوا من الأنبياء، والذى جاء يسعى رجل اسمه: حبيب، كان يعمل الحرير[١]، فلما قال لهم: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾[٢]، وطئوه بأرجلهم، حتى خرج قضيبه على دبره، فأدخله الله الجنة حيًا يرزق فيها، فذلك قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[٣].

قال: وصلب الكافر لعنه الله المرسلين منكوسين، فأهلكهم الله جميعًا، فذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾[٤].

فلما ظهر دين النصرانية، جعل الرُّسُل[٥] فى أخزنة من البلور وهم فى كنيسة هنالك بمدينة رومية، ولها بناء عظيم.

*** وممن كان فى الفترة: أصحاب الأخدود:**

فإنهم كانوا بنجران من اليمن، وبلغ ذا نواس أن قومًا بنجران على دين المسيح، وكان هو يهوديًا، فنهض إليهم بنفسه، وحفر لهم الأخاديد، وأضمرها نارًا، ثم دعاهم إلى اليهودية، فمن أجاب نجا، ومن لم يجب قذفه فى النار، فأُوتى بإمرأة معها طفل من سبعة أشهر، فأبت أن ترجع عن دينها، فأدنيت من النار، فجزعت، فأنطق الله الطفل، قال: امضِ على دينك، فلا نار بعدها،

(١) فى الأصل (الحديد).

(٢) سورة يس آية ٢٠.

(٣) سورة يس آية ٢٦.

(٤) سورة يس آية ٢٩.

(٥) فى الأصل(النصرانية).

فألقيت فى النار، فسلط الله عليهم الحبشة وغلبوهم على أرض اليمن، إلى أن كان من أمر ذى يزن واستنجاده أنو شروان ما كان.

***

جملة من القول فى جزيرة العرب وذكر شىء من أخبارها

قال جعفر بن محمد: سألت المغيرة بن عبد الرحمن عن جزيرة العرب فقال: مكة والمدينة واليمامة واليمن.

قال يعقوب: والقَرْح أول تهامة.

قال أبو عبد الله: جزيرة العرب ما بين حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن من الطول، وأما العرض، فمن بين يَبْرِين إلى منقطع السَّماوة وحفر أبى موسى، على خمس مراحل من البصرة.

قال الأصمعى: جزيرة العرب: عدن أَبْيَن، إلى ريف العراق فى الطول، وأما العرض، فمن جُدَّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطرار الشام[1].

قال أبو يوسف يعقوب بن شيبة الخراسانى المُحَدِّث، قال شَرْقِىُّ بن القطامى وغيره: كانت أرض الجزيرة خاوية، ليس فى تهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحد، لإجلاء بخت نصَّر إياها وإخلائها من أهلها، إلا من اعتصم برءوس الجبال وأشعابها.

وبلاد العرب على خمس أقسام: من جزيرة بطعة، وهى التى صارت فى قسم من أنطق الله عز وجل بها اللسان العربى حين تبلبلت الألسنة ببابل فى زمان نمروذ، فقسَّم فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح الأرض بين ولده.

وإنما سمتها العرب الجزيرة[2]؛ لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها، وصاروا منها فى مثل الجزيرة، وذلك أن الفرات أقبل من ناحية بلاد الروم فظهر بناحية

---

(١) معجم ما استعجم ١/٩.

(٢) انظر: معجم ما استعجم ١/٩.

قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق، حتى [وقع] فى البحر[1] من ناحية البصرة والأُبُلَّة، وامتد البحرُ من ذلك الموضع لمطيفها منقطعا عليها، فأتى على سفوان وكاظمة، ونفذ إلى القطيف، وبنجد وأسواق عمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت، وناحية أبين وعدن ودهلك، واستطال ذلك العنق، فطعن فى تهائم اليمن ببلاد بُرْسان وجاور، وحكم، والأشعريين، وعكّ، ومضى إلى جُدَّة، ساحل مكة، والجار ساحل المدينة، ثم إلى ساحل الطور، وتيماء، وخليج أَيْلَة، حتى بلغ قُلْزُم مصر، وخالط بلادها، وأقبل النيلُ فى غربى هذا العنق، من أعلى بلاد السودان، مستطيلا مُعارضا للبحر حتى وقع فى بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين، فمرَّ بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور ساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من ساحل دمشق، ثم نفذ إلى ساحل حمص وسواحل قنّسرين، والجزيرة إلى سواد العراق.

* قال أبو نصر سعيد بن غالب الجيهانى: حدُّ جزيرة العرب مما يلى الشمال فى الخط الذى يخرج من ساحل أَيْلَة، فيمرُّ مستقبل الشرق فى أرض مَدْيَن إلى تبوك، ودومة الجندل إلى البلقاء، وتيماء، ومأرب وهى كلها من الشام، ويمضى فى وادى شيبان وبكر وتغلب، ويصل بالكوفة والنجف والقادسية والحيرة، ونجران السواد، وهى على يسار الكوفة، وعن يمين هذا الخط مما يلى الجنوب أرض الهجر ووادى القرى، واسمها وَجّ فى القديم، وهى أرض لثمود، وما دونها إلى الأغوار والتهائم والنجود، إلى أن يصل ساحل حضرموت، كُلُّ ذلك من أرض العرب، ومما يلى الشمال من هذا الخط، فمن بلاد الأردن الشمالى.

وحدُّ جزيرة العرب مما يلى الشرق، وهو مهبُّ الصَّبَاء، بطائح البصرة، حتى ينتهى إلى الجزيرة، ثم فيض البصرة، وهو نهرها الذى البصرة عليه، وكان زياد بن سُمَيَّة حفره إلى الأبلّة، ثم استوى إلى سفوان وكاظمة وقطيف، وأسياف، والبحرين، وعمان.

ثم يستمر منحدرا من الشمال على ساحل البحر، حتى يأتى غبّ عدن والغَبُّ ينزوى فيه الماء شبه الخليج، فينعطف عنق من البحر، ويأخذ مع الصَّبَاء منعطفا

(١) فى الأصل: البحرين.

على جزيرة العرب.

* ويستمر نحو الهند على الشمال، والبحر مع دجلة البصرة فى هذا الموضع غربيه يسمى أرض العرب، وشرقيه يسمى فارس، وما وراء ذلك من شرقى البحر عند منقطع أرض فارس، فهو من بلاد الهند، ويتسع البحر ويصير جزائر.

* وحدُّ جزيرة العرب مما يلى الجنوب، ساحل هذا العنق من الصباء، وهذا العنق على يمين الذاهب منه جزيرة العرب إلى ضفة البحر، وعلى يساره بلاد الزنج.

* وفى ساحل هذا العنق يصاب العنبر، ويمضى ذلك العنق حتى يمر بساحل حضرموت وأبين، وينتهى إلى عدن، وعدن منتهى هذا العنق، ثم ينعطف هذا العنق من عدن إلى الجنوب،فيمر منعطفًا على جزيرة العرب مستقبل الشمال، فعن يمين الذاهب منه جزيرة العرب، وعن يساره بلاد السودان، والحبشة، وغيرهم.

ثم يمر هذا العنق ببلاد العرب على سواحلها، دهلك، وبلاد برسان وحكم، والأشعريين، وعك وغيرها، حتى يتصل إلى جدة، وهو ساحل مكة.

ثم يصير إلى الجار، وهو ساحل المدينة، ثم يمضى إلى الحوراء، وهو ساحل وادى القرى، ثم إلى خليج الأُبُلَّة، ثم إلى ساحل الطور، وساحل راية، حتى ينتهى إلى القلزم، ويقارب بلاد مصر، ثم ينقطع ذلك العنق ويقف.

قال ابن شيبة والجيهانى معًا: فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة على خمسة أقسام: تهامة، والغور، والحجاز، والعروض، واليمن.

وذلك أن جبل السراة، وهو أعظم جبال العرب، أقبل من أرض اليمن حتى بلغ أطراف بوادى الشام، فسمته العرب حجازًا؛ لأنه حجز بين الغور وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر ـ فصار ما خلف ذلك الجبل فى غربيه إلى أسياف البحر، من بلاد الأشعريين، وعك، وكنانة ـ لم يذكر الجيهانى كنانة ـ وغيرها، إلى ذات عرق والجحفة، وما طابقها، وعارض أرضها.

قال الجيهانى: وما صار فيها، وغار من أرضها الغور، غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك فى شرقيه بين الصحارى، النجد إلى أرض العراق، والسماوة وما بينهما، ونجد يجمع ذلك كله.

وصار الجبل نفسه سراته، وهو الحجاز، وما انحجز فى شرقيه من الجبال، وانحاز ناحيته، فمر والجبلين إلى المدينة، ومن بلاد مذحج، تثليث وما دونها إلى ناحية فيد، حجازًا، والعرب تسميه نجدًا وجلسًا وحجازًا والحجاز: يجمع ذلك كله.

حدُّ الحجاز السُّويداء، والمدينة أربعة وأربعون ميلاً.

قالا: وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض، وما فيها نجدًا، وغورًا؛ لقربها من البحر والانخفاض، ومواضع فيها مسائل وأودية، والعروض تجمع ذلك كله، وصار ما خلف تثليث، وما قاربها إلى صنعاء، وما والاها من البلاد إلى حضرموت، والشحر، وعمان اليمن، وفيها التهائم والنجود، واليمن تجمع ذلك كله. انتهى قولهما.

وقال الجيهانى، دون يعقوب: فإذا انتهى[1] إلى ناحية نخلة، كان منها خيطى ويسوم، وهما جبلان بنخلة، وكان يطلع منها إلى جبل العرفج، وجبل العرس، والأشعر، والأسود: جبلان، من جبال جهينة، ولها أودية وشعاب كثيرة.

وذكر عن عمر بن الخطاب أنه قال لعتبة بن غزوان، حين بعثه إلى البصرة، إذا قطعت أقصى أرض العرب، وبلغت إلى أرض العجم، فانزل فكان مناخه بباء البيضاء.

وطول جزيرة العرب، من آخر حدود الشام وأول حدود الحجاز إلى عدن، اثنتان وخمسون مرحلة بسير الإبل، وذلك ألف وخمسمائة ميل، وعرضها من بحر جدة إلى بحر الأبلة، على الاستقامة ثلاثون مرحلة بسير الإبل، وذلك ثلاثمائة ميل.

وفى مواضع منها يختلف هذا الطول والعرض، على حسب دخول البحر فى أرضها، وخروجها عنه، ونزحه منها.

واسم هذه الجزيرة فى كتب الأوائل مقدس، وذلك بإبيان منها وهبوب الرياح إليها، ويسميها اليونانيون. . . وتسميها العرب: السعيدة.

---

(١) يعنى جبل السراة الذى مبدؤه بلاد اليمن، ويمتد حتى يبلغ الشام.

ذكر شيء من أخبار العرب العاربة، والأمم الداثرة ومذاهبهم، وديانتهم، وسيرهم واعتقادهم

أما طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وجديس بن عابر بن إرم بن سام، فإنهم ساروا ونزلوا البحرين واليمامة.

واسم اليمامة: جوف(١)؛ وإنما سُميت اليمامة بامرأة(٢).

فمكثوا كذلك برهة، وبلادهم أفضل البلاد، وأكثرها خيرًا، حدائق ملتفة، وقصورًا مصطفة، إلى أن غمطوا النعمة، وانتهكوا الحرمة، فملكهم رجل من طسم يقال له: عملوق، فظلم وغشَمَ، لا ينهاه شيء عن هواه، فاختصمت إليه امرأة من جَديس يُقال لها هُزَيلة بنت مازن، مع زوج قد فارقها فى ابن لهما، أراد أخْذَه منها، فتشاجرا فى ذلك، فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما فيُجعل فى غلمانه، فقالت هُزيلة فى ذلك: [من الطويل]

أَتَيْنَا أَخَا طَسْمٍ لِيَحْكُم بَيْنَنَا ... فَأبرمَ أمْرًا فى هُزَيْلَة ظالمًا

لَعَمْرِى لقد حُكِّمت لا مُتَوَرِّعًا ... ولا فَهِمًا عند الحكومة عَالِمًا

نَدِمْتُ فلم أقْدِرْ علَى مُتَزَحْزَحٍ ... وأَصْبَحَ زوجى حَائِرَ الرَّأى نَادِمًا(٣)

فبلغ عملوق قول المرأة، فغضب، وأمر ألا تتزوج امرأة من جَديس، فتُهدى إلى زوجها، حتى تُحمل إليه فيَفْتَضَّها، موجدة على النساء، فلقوا من ذلك ذُلا عظيما طويلا، حتى تزوَّجت الشَّموس بنت غفار، وقيل اسمها غُفيرة أخت الأسود بن غفار.

---

(١) جوف: هو اليمامة، وقيل: هو قصبة اليمامة، وقيل: بل قصبة اليمامة حَجْر. والمعروف فى قصبة اليمامة، أنَّ اسمها جَوّ. معجم ما استعجم ٢/٤٦.

(٢) جوّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: اسم اليمامة فى الجاهلية حتى سَمَّاها الحميرىّ لمّا قتل المرأة التى تسمّى اليمامة باسمها، وقال الملك الحميرىّ:

وقُلْنَا فَسَمُّوها اليمامة باسْمِها ... وسِرْنا وقلنا لا نريدُ إقامهْ

معجم ما استعجم ٢/٤٨.

(٣) الأبيات لهُزيلة بنت مازن فى مروج الذهب ٢/١٤٨.

وكان الأسود سيدا فى جديس، فلما كانت ليلة إهدائها، حُملت إلى عملوق، ليطأها، ومعها القينات يغنين ويقلن[١]: [من الرجز]

ابْدِى بعملوق وَقَوْمِى فَارْكَبِى
وَبَادِرِى الصُّبْحَ بأمرٍ مُعْجَبِ
فمـا لبكرٍ بَعْدَكُمْ مِنْ مَـذْهَبِ

فلما افتضَّ عملوق غُفَيرة، خرجت على قومها فى دمها[٢]، شاقَّةً عن جيبها، وعن قُبُلِها ودُبُرِها، وهى تقول[٣]: [من الرجز]

لا أَحَدَ أَذَلُّ من جَدِيس!
أهكـذا يُفْعَلُ بالعَرُوس؟

وأبت أن تمضى إلى زوجها، وقالت تُحرِّضُ قومها[٤]: [من الطويل]

أيصلُح ما يُؤْتَى إلى فَتَيَاتكم ... وأَنْتُم رجـالٌ فيكمُو عَـدَدَ النَّمْلِ[٥]
فَإِن أَنْتُمُ لَمْ تَغْضَبُوا[٦] بَعْدَ هَذه ... فكونوا نسـاءً لا تَفِرُّوا من الفَحْلِ[٧]
ودونكمو طِيبُ العَرُوسِ وإِنَّمَا ... خُلقتم لأثواب العروسَة والكحل
فلو أننا كنا الرِّجـال وكنتُمُـو ... نساءً، لكنا لا نُقِرُّ على الذُّلِّ

فلما سمعت جديس ذلك، أنِفت وغضبت، واجتمعت إلى الأسود بن غفار، فأجمعوا أن يصنعَ الأسود لعملوق وأصحابه طعاما، فيدعوهم إليه، فإذا جاءوه متفضّلين فى الحُلل والنعال، نهضوا إليهم بأسيافهم، فأتوا عليهم، فقالت غُفَيرة لأخيها: الغدر عار، وعاقبته بوار، صبِّحوا القوم فى ديارهم، تظفروا بهم، أو تموتوا كراما.

(١) الرجز فى مروج الذهب ٢/١٤٨ والأغانى وفيه (فما لبكر عنده من مَهْرَب).
(٢) ذكر ابن منظور فى اللسان (٩/ ٤٢٤ قصة غفيرة) مادة (عنز).
(٣) الرجز لعفيرة فى اللسان (عنز) ٩/ ٤٢٤ بالعين المهملة.
(٤) انظر: مروج الذهب ٢/ ١٤٩.
(٥) فى المروج (عدد الرمل).
(٦) فى المروج (لا تغضبوا).
(٧) فى المروج (لا تفروا من الكحل).

فقالوا، الغدر أمكن من نواصيهم.

فانقاد لمذهبهم، واصطنعوا طعاما، واخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل، فلما توافى القوم إلى المائدة، واستكملوا فى المدعاة، أتوا عليهم أجمعين.

وهرب من طَسْم رجل من مُرَّةَ، وهو رِيَاحُ بن مُرَّة[١]، فأتى حسان بن تُبَّع، فأعلمه غدر جَدِيس بقومه، واستعداءه عليهم، فكان من إيقاعه ما كان، وشهر وسبى نساءهم وصبيانهم.

وهرب الأسود بن غفار حتى نزل بديار طىّ، فأجاروه. ونسله اليوم فى طىّ، وسارت وَبَارُ بن أُمَيْم بن لاوذ بن إرم بن سام إلى رمل عالج، وهى الأرض المعروفة بأرض وبار، فأهلكهم الله، لما كان من بغيهم فى الأرض، فانقرضوا.

وسار داسم بن عمليق بن لاوذ بن سام، وهم من العماليق إلى أرض السماوة، وهى بين العراق والشام، فأهلكهم الله بالريح السوداء؛ لإفسادهم، فلم يبق منهم باقية.

وكانت بلاد داسم الجولان، وبلاد حوران[٢]، والبَثَنِيّة[٣]، وذلك بين دمشق وطبرية، وانقرضوا وأبادهم الله جميعهم. وكذلك بنو طخم بن إرم نزلوا الطائف، فدثروا ببعض غوائل الدهر، وهم أول من وضع حروف المعجم.

فجميع العرب من أقطار الأرض من ولد عدنان بن قحطان.

والعرب تزعم أن ديار وبار، سكنتها الجن، وحمتها من كل من أرادها، وكانت أخصب بلاد الله ـ عز وجل ـ وأكثرها شجرًا وأطيبها ثمرًا، وإذا دنا أحد من تلك البلاد ساهيًا أو متعمدًا سَفَتْ الجن عليه سوافى الرمل، وأثارت عليه الزوابع فخبلوه وربما فتكوه، وقال الشاعر فى ذلك[٤]: [من الطويل]

---

(١) انظر اللسان ٩/ ٤٢٤ مادة (عنز).

(٢) فى الأصل (جرجان) وهو تحريف، وحَوْران على وزن فَعْلان: أرض بالشام أتى به امرؤ القيس مذكرًا فقال:

ولَمَّا بدا حَوْران والآلُ دُونَهُ ... نظرتَ فلم تنظر بعينك مَنْظرا

انظر: معجم ما استعجم ٢/ ١٠٥.

(٣) البَثَنِيّة: هى بالشام معروفة، من كُور دمشق. معجم ما استعجم ١/ ٢٠٩.

(٤) البيت لرجل من وبار ـ مروج الذهب ٢/ ١٥٤.

دعا جحفلا لا يُهْتَدى بمقيله[١] من اللُّوْم حتى يُهْتَدى لِوبَارِ

فيزعمون أن ليس بهذه الأرض، إلا الجنّ، والجمال الوحشية وهذا عند كثير من ذوى الحِجَى باطل.

والعرب تعتقد أن نفس الإنسان دمه، والروح هو المحرك له، فلذلك سموا المرأة نُفَسَاء[٢]، لما خرج منها من الدم.

واختلف الفقهاء فيما له نفس سائلة، إذا سقط فى الماء[٣]، وقال تأبط شرًا لخاله الشَّنْفَرَى، وقد سأله[٤]: ألْجَمْتُهُ غَضبًا، فسالت نفسه سكبًا.

واحتجوا أن الميت لا ينبعث منه دم، إلا ما كان محقونًا قبل موته.

وقد زعم بعضهم أن النفس هى، الهامَةُ، الطائر الذى يصرخ على القبر، ولذلك قال بعض الشعراء فى أصحاب الفيل: [من الخفيف]

سُلِّط الطَّيرُ والمَنُونُ عَلَيْهم فَلَهُم فى صَدَى المقابِرِ هَامُ[٥]

ويزعمون أنها تُعلِم الميت بما يكون من شأنه بعده.

قال أمية[٦]: [من الكامل]

هَامِى تُخَبِّرُنى بما استَشعرُوا[٧] فَتَجَنَّبُوا الشنعاءَ والمكروها

وقال توبة، ويُنسبُ إلى غيره: [من الطويل]

لَسَلَّمْتُ تسليم البشاشة أوزقا إليها صدًى من جانب القبر صائحُ[٨]

---

(١) المقيل: موضع القيلولة.

(٢) انظر: مروج الذهب ٢/ ١٦٥.

(٣) يعنى: هل ينجّسه أم لا؟

(٤) سأله عن قتيل قتله، كيف كانت قصّته؟

(٥) البيت بلا نسبة فى مروج الذهب ٢/١٦٦.

(٦) نسبه المسعودى فى المروج ٢/ ١٦٦ للصلت بن أمية، وقال الشارح: لعلّه والد الشاعر أُمَيّة بن أبى الصلت.

(٧) فى المروج: تستشعرُ.

(٨) لتوبة بن الحُمَير فى الأغانى ١٠/ ٧٧ ومروج الذهب ٢/ ١٦٦ وقبله البيت:

ولو أنّ ليلى الأخيلية سَلَّمَتْ عَلَيَّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ

فدلَّ أن الصدى والهام تنزل إلى قبورهم، وتصعق حتى قال رسول الله ﷺ «لا هامَ ولا صَدًى»(١).

* * *

ذكر الغول

فأما الغُولُ، فثابت عندهم، وقد ذكر عمر بن الخطاب عنه أنه شاهدها فى بعض أسفاره، وضربها بسيفه، وذلك قبل الإسلام.

وقد زعم بعض المتفلسفين، أنه حيوان مشَوَّه، لم تُحْكِمْهُ الطبيعة، فلما خرج منفردا فى هيئته ونفسه، توحَّش فى مسكنه، وهو بين الإنسان والحيوان البهيمى.

وقد ذكر أهل الهند أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان عائبا من الكواكب عند طلوعها، فيُحدث رأس الغول عند طلوعه تماثيل وأشخاصا تظهر فى الصحراء، فسميت غولا باسم الطالع، وهى ثمانية وأربعون كوكبا.

ويُحدث طلوع الكلب، وهو الشِّعْرَى العبور داءً فى الكلاب، وسُهيل فى الجِمال، حتى قيل إنه لا يقع عليه عين جَمل إلا أهلكه.

قال تأبَّط شرًا فى الغول(٢):

وأدْهَم قـد جُبتُ جِلْبَابَه كما جابت الكاعِبُ الخَيْعَلا(٣)

---

(١) الحديث «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» رواه الشيخان عن أنس وأبى هريرة وأحمد عن أبى هريرة بزيادة (وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد)، ولفظ مسلم، لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر، وفى لفظ له: لا عدوى ولا هامة ولا طيرة وأحب الفأل الحسن. وكشف الخفاء ٢/٣٣٦ حديث رقم ٣٠٧٩.

(٢) الأبيات لتأبط شرًا فى مروج الذهب ٢/١٦٨ مختار الأغانى ٣/٢٤٥ والأول منها نسب أيضًا لحاجز السروى فى اللسان (خعَل) ٤/ ١٥٠ وروايته:

وأدهم قـد جُبْتُ ظَلْمَـاءَهُ كما اجتابت الكاعِبُ الخَيْعَلا

(٣) الكاعب: الفتاة قد نَهَد ثدياها.

الخَيْعَل: قميصٌ لا كُمَّىْ له، أو ثوب غير مخيط الفرجين يكون من الجلود ومن الثياب. اللسان (خعل) ٤/ ١٥٠.

على إِثْرِ نارٍ ينُورُ بها — فَبِتُّ لها مدبراً مُقْبِلاَ
فأصبحتُ والغولُ لى جارةٌ — فيا جارتى أنت ما أهولا
وطالبتُها بُضْعَهَا فالْتَوَتْ — بوجهٍ تَغَوَّلَ فاستَغْوَلاَ
فمن كان يسألُ عن جارتى — فإنَّ لها باللّوى مَنْزِلاَ

وقد زعموا أن رجليها رجلا عير، والعرب ترتجز فى الفيافى وتقول: [من الرجز]

يا رِجْلَ عير[1] انهقى نهيقا
لم نترك السَّبْسَبَ والطَّرِيقا

وذلك أنها تتراءى لهم بالليل وأوقات الخلوة، وتناديهم فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها فتضلّهم، قال الشاعر: [من البسيط]

* وحافر عير فى ساقٍ خدلَّجة *

وقد ذكر المصنفون: وهب بن مُنَبِّه، وابن إسحاق، وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجانّ من نار السَّمُوم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، فغشيها فحملت وباضت إحدى وثلاثين بيضة، فمنها القطاربة، وهى أمثال الهرة، والأباليس من بيضة زعيمهم الحارث أبى مرة، ومسكنهم البحور، والمردة من بيضة أخرى، ومسكنهم الجزائر، والغيلان من بيضة أخرى، ومسكنهم الفلوات، والسعالى من بيضة أخرى، ومسكنهم الجبال، والنهاريس من بيضة أخرى، ومسكنهم الحمامات، والسبَّاطات والهوام من بيضة أخرى، ومسكنهم الهواء فى صور من الحيَّات ذوات أجنحة.

* * *

(١) فى مروج الذهب «غير» (٢/١٦٨).

ذكر النسناس

فأما النسناس، فيزعمون أنه ببلاد حضرموت، وأنه كمثل نصف الإنسان، بيد واحدة ورجل واحدة، يثب وثبًا، ويعدو عدوًا شديدًا، وأنه يغتذى بجميع النبات، ويصبر على العطش.

ويروون خبرًا عن شيب بن شيبة بن الحارث التميمى قال: قدمت الشحر فنزلت على زعيمها، فتذاكرنا النسناس، فقال: استعدوا فإنا خارجون فى قنصهم.

فلما خرجنا ألظَّ كلبان منهما بواحد، وله وجه كوجه الإنسان، وشعرات فى ذقنه، رجلاه كرجل الإنسان، قال: فجعل يعدو وهو يقول:

الوَيْلُ لِى مِمَّــا به دَهَانى
دَهْرِى من الهُمُوم والأحزانِ
قِفَـا قليلاً أيّهــا الكلبــانِ
إليكمــا حتى تُجَــارِيانى
ألفيتمـانى حـــاضرًا عنانى
لَوْ بى شباب مـا ملكتمانى
لكن قضاء الملك الرحمـــانى
يُذِلُّ ذا العزة والسُّلْطــانِ[1]

فالتقيا به فأخذاه، فعمدوا به إلى موضع فيه شجر، فذبحوه، فقال قائل منهم، من شجرة: سبحان الله ما أشد حمرة دمه.

قالوا: نسناس، خذوه، فأخذوه، فأجابه آخر من شجرة أخرى، قال: لأنه كان يأكل السُّمَّاق.

قال: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: لو سكت لم يعلم بمكانه.

(١) الأبيات فى مروج الذهب ٢/ ٢٣٩.

فقالوا: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: أنا صامت، فقالوا: خذوه، فأخذوه.

فقال آخر: يا إنسان احفظ رأسك.

فقال: خذوه.

قال (س): ورأيت أهل الشحر وحضرموت يستطرفون أخبار النسناس، ويتوهمون أنه ببعض البلاد، وهذا يدل على عدم كونه، وأنه من هوس العامة، كما وقع لهم خبر عنقاء مغرب[1].

* * *

ذكر عنقاء مغرب

وأما عنقاء مغرب، فرووا فيه حديث عروة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ـ أنه طائر فضل به بنو إسرائيل، ذكر وأنثى، فانتقل نسله بعد يوشع بن نون، وانتشر إلى بلاد قيس عيلان بحدود الحجاز، فأذى الصبيان والولدان، فشكوا ذلك إلى خالد بن سنان، وكان بين عيسى ومحمد ﷺ، فدعا الله أن يقطع نسل العنقاء، فقطع نسلها، وبقيت صورتها تصور فى البُسُطِ.

وكان من أجمل طائر خلقه الله تعالى وأعظمه، وكان وجهه على هيئة وجوه الناس، وقد ذهب ناس من أهل الدرايات أن قولهم: عنقاء مغرب، إنما هو للأمر العجيب.

والعَنَقُ: السرعة.

وقد ذكر أن حنين بن إسحاق حمل النسناس إلى المتوكل، وكان أمره وغيره من الحكماء أن يوردوا عليه ما يأتى لهم من مثل هذا.

قال: والخبر عن النسناس كالخبر عن القُبَينى[2] وغيره، والصحيح أن النسناس: السِّفْلة من الناس والأرذال.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٤٠.

(٢) كذا بالأصل.

ذكر الهواتف

فأمَّا الهَوَاتف، فقد كانت كثرت فى العرب، واتصلت بديارهم، لاسيما بين يدى مولد النبى ﷺ وهى أصوات مسموعة من غير رؤية منصوب.

وقد ذكر جماعة أن ذلك من قبل التوحُّد فى القفار، والتفرد فى الديار، والإنسان إذا توحَّد توحَّش، وإذا توحَّش فكَّر، وإذا فكَّر وَجِلَ، فداخله الظنون الكاذبة، والهموم السوداوية الفاسدة، فوهّمته المحال من الأصوات والأشخاص.

والعرب لا تختلف أن علقمة بن صفوان بن أمية بن حجر الكندى، جدّ مروان ابن الحكم لأمه، قتلته الجن، وأن شقًا اعترض له، فقال علقمة[1]: [رجز]

شَقٌّ مـــا لى ولَكْ
اغْمِد عَنِّى مَنْصُلَكْ
تقتل مَنْ لا يَقْتُلك

فقال شق: [رجز]

عَلْقَم، غنيـتُ لَكْ
كيمـا أبيحُ مقتلَك
فاصبر لأمرٍ حُمَّ لَكْ[2]

فضرب كل واحد منهما صاحبه، فخرَّا ميِّتَيْن.

وممن قتلته الجن: حرب بن أمية، ورَثَتْهُ الجنّ.

وقتلت: مرداس بن أبى عامر، والد العباس بن مرداس.

وقتلت الفريض [المغنّى]، لشعر غناه، كانت نهته عنه.

وهذا متعارف عندهم مشهور.

* وقد ذكر أبو عبيدة عن منصور بن يزيد الطائى، أن قبر حاتم طيٍّ حوله قدور

(١) الرجز فى مروج الذهب ٢/ ١٧٤ لعلقمة بن صفوان.

(٢) الرجز لشق الكاهن فى المروج ٢/ ١٧٥.

عظيمة من بقايا قدوره التى كان يطعم فيها مُكَفَّأة فى نواحيه، وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة، وعن شماله مثلهن محتجرات على قبره كالنائحات، لم يُرَ مثل بياض أجسامهن وجمال حسنهن، وربما رآهن الرائى فيفتن بهن، ويميل إليهن، فإذا دنا منهن رأى حجارة، وهم يزعمون أنها من عمل الجن، فهن بالنهار كما وصفوا، وإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه.

قالوا: ونحن فى منازلنا نسمع ذلك إلى طلوع الفجر.

وكان رجل يكنى أبا البخترى[١]، مر فى نفر من أصحابه بقبر حاتم، فجعل يناديه: أبا الجعد أَقْرِنا، فقالوا له: تنادى رِمَّةً بالية، فقال: إن طيًا تزعم أنه لم ينزل به أحد إلا قراه، فنزلوا فناموا، فانتبه أبو الخيبرى، مذعورًا ينادى: وا راحلتاه.

فقال له أصحابه: ما بالك، قال: خرج حاتم من قبره بالسيف، وأنا أنظر حتى نحر راحلتى، فنظروا، فإذا بها منجدلة، تنبعث، فقالوا: قد والله قراك، وظلوا يأكلون لحمًا مشويًا وطبيخًا، ثم ارتدفوه وانطلقوا سائرين، فإذا راكب بعير يقود آخر، قد لحقهم وقال: أيكم أبو الخيبرى؟ قال الرجل: أنا، قال الراكب: أنا عَدِىّ ابن حاتم وإن حاتمًا جاءنى الليلة، فذكر أنك استقريته واستبطأته، وهو ينشدك: [من المتقارب]

أبا البخترى وأنت امرؤٌ ... ظلوم العشيرة شَتَّامُها
أتيتَ بصحبك تبغى القِرَى ... لدَى حُفْرةٍ صَدَحَتْ هَامُها
أتبغى لى الضَّيم عند المبيت ... وحولك طىّ وأنْعَامُها
فإنا سَنُشْبِعُ أضيافَنَا ... ونأتى المَطِىّ فَنَعْتَامُها[٢]

وقال الشاعر فى عدى بن حاتم: [من الطويل]

أبوك أبٌ سَبَّاقَة الخير لم يَزَلْ ... لَدُن شَبَّ حتى مات فى الخير رَاغبَا
قَرَى قَبْرُهُ الأضيافَ إذ نزلوا به ... ولم يَقْرِ قبرٌ قَبْلَهُ الدَّهرَ راكبَا[٣]

(١) فى الأصل الخيبرى والتصحيح عن مروج الذهب ٢٠/ ١٧٥.

(٢) نعتامها: نأخذ أفضلها.

(٣) البيتان لسالم بن زرارة الغطفانى فى مروج الذهب ٢/ ١٧٦.

ذكر القيافة والزجر

القِيَافَة والزَّجْر من خواص العرب، فضلاً بهما دون سائر الأمم.

فأما ما يوجد من الزجر فى الإفرنجة، فإنما أخذوه ممن جاورهم من العرب فى سالف الدهور، ويمكن أن يكون أخذوه ممن جاورهم من العرب ببلاد الأندلس بعد ظهور الإسلام، ولعل الله قد خصَّ بالزجر أمة غير العرب، والأول أشهر.

والقيافة من القَفْوة، وهو تتبُّع الأثر والبحث عليه والتنقير. وأصل ذلك أن الأشكال انفصلت فى الصور، فتشكل، فخصَّ الأجناس ثم خصت الطبيعةفى كل نوع من الجنس بفضل إبانته من أغياره، وكالطول فى أزد شنوءة، فكذلك خُصت أيضا أحاد الأشخاص المنفصلة فى الهيئة عن أقفارها، فالقائف الهيئات، فيحكم للأقرب صورة.

وكان نظر القائف إلى القدم؛ لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة، والولَدُ لو خالف أباه فى سائر شكله، لوافقه فى القدم، وقد صَدَّق رسول الله ﷺ محرزًا المُدْلِجى.

وقال بالقيافة أكثر فقهاء الأمصار[١]، وأنكر جماعة منهم الحكم بها. وحُجج الأولين: خبر المُلاعنة، لما أتت به على النعت المكروه، وخبر ابن وَليدة زمْعَة، وغير ذلك.

واحتج الآخرون بإلحاق النبى ﷺ الصبى بأبيه الذى شك فيه لما وُلد أسود حين قال: «ولعل عِرْقا نزعه»[٢] على ما سنورده.

والكهانة فى اليمن خصوصًا، والقيافة والزجر فى نزار، ورثوها عن آبائهم، على ما سنورده، ثم خُصت بنو أسد بالزجر، وبنو مُدلج بالقيافة.

وقد قَفَتْ القافة بقريش أثر رسول الله ﷺ وأبى بكر على الحجر الصّلد،

---

(١) فى الأصل (الأنصار).

(٢) مروج الذهب ٢/ ١٨٤، والحديث أخرجه البخارى - كتاب الطلاق ٢٦، وكتاب الحدود ٤١ ومسلم كتاب اللعان ١٨و ٢٠ وأبو داود كتاب الطلاق ٢٨ وراجع: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٦/ ٤٠٦.

والجبل الجَرْدِ، حيث لا تكتسى الأقدام فى رمل ولا تراب حتى انتهوا إلى باب الغار، فحجبهم الله ـ عز وجل ـ عنهم بما كان من نسج العنكبوت، وبما[1] سَفَتْ عليه الريح.

وبلاد الجفار بين مصر والشام، بها بلاد ناس من العرب يتخذونهم الولاة يقصُّون آثار الناس، فيخبرونهم بالآثار، أىُّ الناس هم، ممن طرد تلك البلاد، وهم إنما عاينوا الأثر لا القدم، وهذا حِسٌّ دقيق، ومعنى لطيف.

ولما حضرت نزار الوفاة، قال لإياد هذه الجارية ـ لجارية له شمطاء ـ وما أشبهها لك.

ودعا أنمار وهو فى مجلس له، فأعطاه بَدْرَة، وقال: هذه البَدْرَةُ والمجلسُ لك وما أشبهها لك.

ودعا ربيعة، فأعطاه خباء له أسود من شَعر، فقال: هذا وما أشبهه لك.

وأعطى مُضَرَ قُبَّة حمراء، وقال: هذه وما أشبهها لك، ثم قال: وإن أشكل عليكم شىء، فأتوا الأفعى الجرهمىّ، وكان ملك نجران.

فلما مات، ركبوا رواحلهم يريدون الأفعى، فلما كانوا من نجران على يوم، فإذا هم بأثر بعير، قال إياد: هذا أثر بعير أعور. وقال أنمار: وإنه لأبتر، قال ربيعة: وإنه لأزْوَر، قال مُضَر: وهو شَرُود لا يستقر.

فلم يلبثوا أن رُفع لهم راكب، فلما غشيهم قال لهم: هل رأيتم من بعير ضال، فوصفوه له، قال: إن هذه لصفته عينا، فأين بعيرى؟

قالوا: ما رأيناه.

قال: أنتم أصحاب بعيرى، وما أخطأتم من نعته شيئا.

فلما أناخوا بباب الأفعى، واستأذنوا عليه، فأذن لهم، صاح الرجلُ بالباب، فدعا به الأفعى، فقال له، ما تقول؟

قال: أيها الملك، ذهب هؤلاء ببعيرى،

فسألهم الأفعى عن شأنه، فأخبروه.

---

(١) فى الأصل (وربما).

فقال لإياد: ما يدريك أنه أعور؟

قال: قد رأيته قد لحس الكلأ من شِقٍّ، والشق الآخر وافر، فعلمت أنه أعور.

وقال أنمار، رأيته يرمى ببعرٍ مجتمعا، ولو كان أهلب مضغ به، فعلمت أنه أبتر.

وقال ربيعة: أحد رجليه ثابتة، والأخرى فاسدة، فعلمتُ أنه أزور.

وقال مُضَر: رأيته يرعى الشُّقة من الأرض، ثم يتعداها، فيمرُّ بالكلأ الغضّ، فلا ينهش منه شىء، فعلمت أنه شرود،

فقال الأفعى: صدقتم، وليسوا بأصحابك، التمس بعيرك.

سألهم الأفعى عن نسبهم، فأعلموه، فرحَّب بهم وحباهم، ثم قصُّوا عليهم قصة أبيهم، فقال: فكيف تحتاجون إلىَّ وأنتم على ما أرى؟

فقالوا: قد أمرنا بذلك أبونا.

فأمر خادم دار الضيافة أن يحسن إليهم ويكرمهم، وأمر وصيفا له أن يلزمهم، وينتقد كلامهم.

فأتاهم القهرمان بشَهْدٍ فأكلوا وقالوا: ما رأينا شَهْدًا أعذب ولا أحسن منه.

فقال إياد: صدقتم، لولا أن نحلة صنعته فى هامَةِ جبَّار.

ثم جاءهم بشاةٍ مشوية، فأكلوا، فاستطابوها.

فقال أنمار: صدقتم، لولا أنها غُذِّيت بلبن كلبة.

ثم جاءهم الشراب، فاستحسنوه.

فقال ربيعة: صدقتم، لولا أن كَرْمَهُ نبت على قبر.

ثم قالوا: ما رأينا منزلا أكرم قِرًى، ولا أخصب رَحلا من هذا الملك.

قال مُضَر: صدقتم، لولا أنه لغير أبيه.

فذهب الغلام إلى الأفعى فأعلمه، فدخل الأفعى على أمه، فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتنى من أبى؟

فقالت: أى بُنَىَّ، أنت ابن الأفعى الأعظم.

قال: حقًا تصدقينني.

فلما أَلَحَّ عليها: فقالت: أى بُنَىَّ، إن الأفعى كان شيخا كبيرا قد أنفل، فخشيت أن يخرج هذا الأمر عنا أهل البيت، وكان شاب من أبناء الملوك، اشتملتُ عليك منه.

ثم بعث إلى القهرمان، فقال: أخبرنى عن الشَّهْدِ الذى قدمته إلى هؤلاء النفر، ما خطبه؟

قال: جُزنا بدير فى طَيْفٍ فيه عظام نَخِرةٌ، وإذا النحل قد عسَّلَت فى جمجمة من تلك العظام، فأمرت باستزباره، فأتوا بعسلٍ لم يُر مثله قط، فقدمته إليهم لجودته.

ثم بعث إلى صاحب مائدته، فقال: ما هذه الشاة التى أطْعَمتها هؤلاء النفر.

فقال: إنى بعثت إلى الراعى أن يبعث إلىَّ بأسمن ما عنده، فبعث بها، فسألته عنها، فقال: إنها أول ما ولدت من غنمى، فماتت أمها، وأَنَست السخلة بجراء كلبة ترضع معهم، فلم أجد فى غنمى مثلها، فبعثت بها إليك.

ثم بعث إلى صاحب الشراب، فسأله عن شأن الخمر، فقال: هى كَرْمَة غرستها على قبر أبيك، فليس فى بلاد العرب مثل شرابها فعجب الأفعى من القوم، وقال: ما هم إلا شياطين.

ثم أحضرهم فسألهم عن وَصِيَّة أبيهم.

فقال إياد: جعل لى جارية شمطاء، وما أشبهها من ماله.

فقال الأفعى: إنه إن ترك غنما، فهى لك، ووعاؤها مع الخادم.

فقال أنمار: جعل لى بَدرةً ومجلسه، وما أشبههما من ماله.

فقال الأفعى: لك ما ترك أبوك من الرقة والأرض.

وقال ربيعة: جعل لى بيتا أسود، وما أشبهه.

فقال الأفعى: إن ترك أبوك خيلا دُهْما، وسلاحا، فهى لك وما فيها من عبيد، فقيل: ربيعة الفرس.

وقال مُضر: جعل لى قبة حمراء وما أشبهها.

فقال: إن أباك ترك إبلاً حمرًا فهى لك، وما أشبهها، فقيل: مُضَر الأحمر.

فكانوا كذلك زمانًا، إلى أن أصابتهم سَنَةٌ، فأهلكت الشاة وعامة الإبل، وذهبت بالرقة والمتاع، فكان ربيعة يغزو على خيله، ويغير، ويعول إخوته.

وكان سبب تحول أنمار إلى اليمن، أنه تعرق عظمًا فى جنح الليل ورمى به، وهو لا يبصر، فانفرز فى عين مضر ففقأها، وصاح مضر وتشاغل إخوته به، وجرد أنمار بعيرًا من كرائم إبله، فلحق بأرض اليمن.

ومن عجيب الزمان خبر عبيد الراعى، لما خرج فى ركب من قومه يريدون رئيس بنى أسد، فسنحت لهم ظباء سنوحًا منكرًا، ثم أعرضت الركب مقصرة فى حصرها، واقفة بين شأوها، فأنكر ذلك عبيد، فلم يأبه أصحابه لما كان السانح عندهم محمودًا، فقال عبيد: [من الطويل]

ألم تدر ما قال الظباء السوانِحُ أطَفْنَ أمام الرَّكب، والرَّكب رائحُ

فكبَّر من لم يعرف الزجر منهم وأيْقَنّ قلبى أنهنّ نوائحُ

* * *

ذكر الكهانة

أما الكهانة، فلم تخل أمة إلا قد كان فيها كهانة، وهى من الأمور المثبوتة غير المرفوعة فى جميع الأمم.

فزعم اليونانيون أن النفس إذا صفت اطلعت على أسرار الطبيعة، وما يريد أن يكون منها؛ لأن ظهور الأشياء عندهم فى النفس الكلية، ولذلك كان فيثاغورث يعلم علومًا من الغيب، وضروبًا من الوحى.

وهم يعرفون هذه الطائفة الرومانية، وهذه علة النبوة عند الصابئة ولذلك كان عندهم هرمس وأغاثيمون وغيرهم أنبياء.

وذهبت طائفة أن سبب الكهانة الوحى الفلكى، وأن ذلك فى المولد عند ثبوت عطارد على شرفه، وكان سائر الدرارى فى عقد متساوية الدفاع متكافئة، ومناظر متوازية، فيجب حينئذ لصاحب المولد التكهن.

وذهب كثير إلى أن كون ذلك فى القرانات الكبار لعلل ذكروها.

وادعى قوم أن الأرواح المسعورة من الجن تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم لما صفت صارت لتلك الأرواح من الجنّ موافقة.

وقول الشرعيين إن الشياطين تسترق السمع، وتلقيه على ألسنة الكهان.

وزعم كثير ممن تقدم أن النفس إذا هى قويت وزادت، قهرت الطبيعة، وغلب القسم النفسى القسم الجسدى، فأباحت للإنسان كل سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، ولذلك وجد الكهان من نقصان الخلق ما يوجدون كشق الأنمارى، وسطيح الغسانى واسمه ربيع بن ربيعة، وسَمْلَقة، وزوبعة الكاهنين وعمران أخى عمرو بن عامر مزيقياء، وحارثة، وجهينة، وكاهنة باهلة.

وقد كان سطيح يدرّج جسده كما يدرّج الثوب، خلا جمجمة رأسه إذا لمست باليد، أثرت فيها للين عظمها.

وشق هذا الأنمارى، هو غير شق الأوّل، وشق الأول هو ابن حويل بن إرم بن سام بن نوح، وهو أول كاهن كان فى العرب، وإرم أبو الجبابرة من عاد وثمود وجديس، وطسم وغيرها.

ويقال: إنه كانت له عين واحدة فى جبهته، ويقال: إن الدجال من ولده، ويقال: هو الدجال بعينه، أَنْظَرَهُ الله إلى الوقت المعلوم، وهو محبوس فى بعض الجزائر، ويقال إن الشياطين تأتيه بما يأكله، ويقال إنه لا يحتاج إلى غذاء، وقيل: إن أمه امرأة من الجن تعشق أباه حويل فتزوجها وأولدها الدجال، واسمه: حوض ابن حويل. وهو مُشَوَّه مبذول.

وكان إبليس يعمل له الأعاجيب، فلما كان وقت سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ دعاه فلم يجبه، فحبسه فى جزيرة فى البحر.

ويقال إنه كان له أخ فاستهوته الجن، لما كانت أمه منهم، وإنه ملك بوار التى غلبت عليه الجن، وهى مدائن العرب، وإن الجنّ فى طاعته. وقيل أن مجلسه كان فى قُبَّة بوادى برهوت فى اليمن، فكانوا يحجُّون إليه، وإنه لم ينم قط.

وكانوا يرون من عينيه نارًا بيضاء، وموضعه الذى هو فيه مسجون، وأنه يعلو

مكانه بالنهار دخان، وبالليل نار مضيئة.

ومذهبهم أن النفس لا يحويها البدن، وإذا بطلت أفعالها من البدن لم تبطل هى فى ذاتها، والروح يحويه البدن، فإذا فارق البدن بطل.

وفى هذا تنازع كثير واختلاف، وليس هذا موضع استقصائه.

وسبب صدق الرؤيا عندهم من هذا، لأن النفس تخلص فى المنام من شوائب الأجسام، فنشاهد الأشخاص[١] بالقوة الروحانية لا بالقوة الجسمانية.

فمن كانت نفسه صافية، لم تلد رؤياه كذب، ثم تكون الرؤيا بقدر مراتب النفس من الصفاء والكذب.

* * *

ذكر العراف

فأما العرَّافُ، فهو دون الكاهن، مثل: الأبلق الأسدى، والأجلح الزهرى، ورياح بن كملة، وعراف اليمامة الذى قال الشاعر فيه: [من الطويل]

فقلت لعرَّاف اليمامة داونى فإنك إن داويتنى لطبيبُ

وكان أول من تكَهَّن سطيح الغسانى، بأمر سيل العرم، وأنذر به قومه، ولم تزل أرض سبأ من أخصب أرض، وأهلها فى أرغد عيش، وكانت مسيرة شهر للمجد الراكب فى مثل ذلك، وكان المار يسير فيها جلالاً من أولها إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقه الظل، مع تدفق الماء، وصفاء الهواء، واتساع الفضاء، فمكثوا كذلك ما شاء الله، لا يعارضهم ملك إلا قصموه، ولا يعارضهم جبار إلا كسروه، وكانت شمسه الذى يتملك البلد باسمه، قال الشاعر: [من المنسرح]

من سبإ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سَيْلِه العَرِما[٢]

---

(١) فى الأصل (الغزلان).

(٢) البيت للأعشى فى معجم ما استعجم ٤/٥١ وينسب لأمية بن أبى الصلت فى الروض المعطار ٥١٦ وهو له فى ديوانه ٥٩ وللنابغة الجعدى فى ديوانه ١٣٤ وجمهرة اللغة ٢/٧٧٣ و١٠٢٢ وسمط اللآلى ١٨ وشرح أبيات سيبويه ٢/٢٤١ واللسان (عرم).

وقيل أن مأرب سمة لقصر ذلك الملك فى صدر الزمان، قال أبو الطَّمَّحان: [طويل]

ألم تروا مأربًا ما كان أحصنه   وما حَوَالَيْه من سور وبُنيان؟[١]

وكانت أرض سبأ فى بدء الزمان عامرة، تركبها السيول، فجمع ملك من ملوك حمير الحكماء، وأحضر البصراء، وشاورهم فى رفع ذلك تمامًا، وحصره، وإزالة ما كان من أمره، فأجمعوا على حفر مصارف له إلى جدار يواريه إلى البحر، فحشد الملك أهل مملكته، حتى صرف الماء، واتخذ له سدًا فى الموضع الذى كان فيه بدوّ جريان الماء من الجبل إلى الجبل، وذلك نحو فرسخ، وصَفَّه بالبنيان والحجارة والحديد، وجعل فيه ثلاثين مخراقًا للماء فى استدارة الذراع، على أصح هندسة، وأكمل تقدير، ويجتذبون منها مقدارًا للماء معلومًا، وشربًا للأرض مقسومًا.

قال ابن وهب: بعث الله اثنى عشر نبيًا، وكان من بعث عليه سَيْلَ العَرِمِ منهم يعبدون الشمس، فأرسل الله - عز وجل - عليهم رسلاً يدعونهم إلى الحق، ويزجرونهم عن الباطل، ويذكرونهم آلاء الله تعالى صادقين، فأنكروا نعمة الله، وقالوا: إن كنتم صادقين فادعوا الله أن يسلبنا ذلك حتى قالت امرأة منهم[٢]: [من الرجز]

إن كان ما نُصْبِحْ فى ظِلاَلَهْ
مـن ربكم فَلْيَنْطَلق بمـا لَهْ
إليـــه عنّا وإلى عِيَـالهْ

فدعت عليهم الرسل، فأرسل الله عزوجل عليهم سَيْلَ العَرِمِ بفأرة خرقت ذلك السد المحكم، والصخر المُنْضَمّ، ليكون أثبت فى العبرة وأبين فى الحجة، وأبادَ الله غضراءهم، وأذهب أموالهم، ومزقهم كل ممزق، وباعد بين أسفارهم، ففى ذلك يقول الأعشى: [من المتقارب]

---

(١) البيت لأبى الطمحان القينى فى مروج الذهب ٢/ ١٩٧.

(٢) الرجز لامرأة من مأرب فى مروج الذهب ٢/ ٢٠٥.

ففى ذاك للمؤتَسى أسوةٌ ومأرِبُ قَفَّى عليهـا العَرِمْ
رُخَـامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْيَر إذا جـاءَهُ مَاؤُهم لم يَرِمْ
فأَرْوَى الحروثَ وأعنـابهـا على سعة ماؤها قد قُسِم
فكـانوا كـذلك فى خفية فمـال بهم جـارِفٌ مُنْهَـدِم
فصـاروا أباديد ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِم[1]

وكان سطيح وعمران بن عامر أخوا مزيقياء، وصريفة الكاهنة ينذرون مزيقيا بذلك.

وطريفة امرأة من أهل ردمان، فكان عمرو مزيقيا يقول لطريفة: وما آية ذلك؟

فتقول: إذا رأيت جرذا يكثر بيديه فى السَّدِّ الحفر، ويقلب برجليه الصخر، فاعلم أنه قد اقترب الأمر.

فيقول: ما هذا الأمر؟

فيقول: وَعْدٌ من الله نزل، ونكال بنا نكل، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل، وكان عمرو يحرس السَّدَّ، حتى رأى به يوما جرذا، يقلب بيديه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا، ورجع وهو يقول[2]: [من الرجز]

أبْصَرْتُ أمرًا هاج لى بَرْحُ السَّقَمْ
من جرذ كفحـل خنزير أجَمْ
له مخـاليب وأنيـاب قُضُمْ
يَسْحَبُ فِهرًا من جَلاميـد العَرِمْ
مـا فاته سَجْلاً من الصخر قصَمْ
كأنهـا تَقْرِض قطعًا من أَرِمْ

فأجمع عمرو على الخروج من سبأ، وبيع ماله بها، وأعمل الحيلة فى أن لا

(١) الأبيات للأعشى فى ديوانه ٤٣ ببعض الاختلاف، فرواية الأخير:
فطار واستراعا ومـا يقـدر ون منه لشرْبِ صَبىٍّ فطِمْ
(٢) راجع الأبيات فى مروج الذهب ٢/ ٢٠١، باختلاف ثَمَّ.

ينكر الناس ذلك منه، فقال لابنه: إنى صانع طعامًا، وادع إليه أهل مأرب، فاجلس عندى، ونازعنى الحديث، واردُدْ عَلَىَّ مثل ما أقول لك، ففعل ذلك، وتشاءما، وصاح عمرو: وا ذُلاَّه يوم فخر عمرو ومجده، يضرب وجهه صبى، وحلف لا يقيم ببلد صنع به ذلك فيه، فجعل يبيع أمواله.

فقال بعضهم: اغتنموا غضبة عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فلما اجتمع لعمرو أمواله، أخبر الناس بسيل العرم، فأجمعوا على الجلاء.

فقال لهم عمران الكاهن أخو مزيقياء، سأصف لكم البلدان، فاختاروا أيها شئتم، من كان منكم ذا هم بعيد، وجمل غير شديد، فليلحق بالشعب من كرود، فلحق به همدان، ووداعة دخلت فيهم.

قال: ومن كان منكم ذا سياسة وصبرعلى أزمات الدهر، فليلحق ببطن مر، فلحقت به خزاعة، وهم بنو عمرو بن يحيى، انخزعت هناك من أخواتها، ولذلك يقول حسان: [من الطويل]

ولما هبطنا بطن مُرٍّ تَخَزَّعَتْ خُزَاعَةُ مِنَّا فى الحُلُولِ الكراكرِ[1]

وهم: مالك وملكان بنو قصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء.

قال: ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل، فنزلها الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو.

قال: ومن كان منكم يريد الخمر والخمير، والديباج والحرير، والأمر والتأمير، فليلحق ببصرى وحفير، وهى من أرض الشام.

فنزلها غسان.

وقال الزبير بن بكار: أنه قال: من كان يريد خمرًا وخميرًا، وبرًا وشعيرًا، وذهبًا وحريرًا، فلينزل بصرى وسريرًا.

وزاد أنه قال: من كان ذا جمل رفق، وهو راض بدق، فليلحق بأرض شق.

فلحق عمران بن عامر بن نعمان، وبها يومئذ شق غسان، وهم جفنة:

---

(١) البيت لحسان بن ثابت فى مروج الذهب ٢/ ٢٠٣ وديوانه ١١٩ (ط/ دار صادر) ومعجم ما استعجم ٤/ ٨٣.

الحارث، وعوف، وكعب، ومالك، والنعمان، بنو عامر، ومعهم عمرو بن عامر أبوهم، وبنو مازن، والأزد، وسموا غسان؛ لأنهم نزلوا على ما بين الأشعريين وعك، يقال له: غسّان، فنسبوا إليه، قال شاعرهم: [من البسيط]

أمَّا سألت فإنا مَعْشَرٌ نجبٌ الأَزْدُ نِسبَتُنا والماء غَسَّانُ[1]

قال الكاهن: ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيول العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراق، فلحق بها بكر بن مالك بن فهم الأزدى، وهم من كان بالحيرة من غسان.

* * *

القول فى مذاهب العرب وغيرها

قال أبو عبيد: فأما مذاهب العرب وغيرها فى عبادة الأصنام على صور الملائكة، فعبدوها، وقربوا إليها القرابين.

وذهبت فرقة إلى أن الكواكب أقرب الأجسام فى المرتبة إلى الله، وإنها حية ناطقة[2]، وإن الملائكة تختلف فيما بين الله ـ عز وجل ـ وبينها، وإن كل ما يحدث فى العالم، فإنه على قدر ما تجرى به الكواكب، وقربوا لها القرابين لتنفعهم، فلما رأوها تخفى بالنهار، وفى بعض أوقات الليل، وبعض الأزمان جعلوا لها أصنامًا وتماثيل على صورها، وبنوا لذلك البيوت والهياكل وسموها بأسماء الكواكب، على أنهم إذا عظموا من ذلك شيئًا تحركت له الأجسام العلوية بكل ما يريدون، فيقول الله ـ عز وجل ـ حكاية عنهم:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[3] الآية.

* * *

(١) البيت بلا نسبة فى مروج الذهب ٢/ ٢٠٥.

(٢) فى الأصل (قاطعة).

(٣) سورة الزمر آية ٣.

ذكر معبودات العرب، وعلة عبادتهم للأصنام

قال: وذكر أن ابتداء عبادة العرب الأصنام، هو أن عمرو بن لُحَى[١]، خرج من مكة إلى الشام، فلما قدم مأرب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم يعبدون الأصنام، فسألهم إياها، فأعطوه هُبَل، صنم، فقدم به مكة، فنصبه وأمر بعبادته.

وقيل: أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل، لأن الرجل منهم كان إذا ظعن من مكة، حمل مع نفسه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيث ما نزل، طاف بالكعبة، حتى خلفت الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، وصاروا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالة.

فقد كانت لقوم نوح أصنام يفعلون عليها، كما قال الله ـ عز وجل ـ[٢]، وقيل علة ذلك أن إسافًا ونائلة كانا رجلاً[٣] وامرأة من جرهم، فجرا فى الكعبة فمسخهما الله.

وذكرت علة رابعة: إن أول صنم عُبِد من دون الله (وَدّ)، وذلك أن ودًا رجل مسلم من أهل بابل، وكان محببًا فى قومه، فلما مات، عسكروا حول قبره فى أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم، تشبَّه فى صورة إنسان وقال: أرى جزعهم على هذا الرجل، فهل لكم فى أن أصوركم مثله، فيكون فى ناديكم فتذكرونه، قالوا: نعم، فصنع لهم تمثالاً جعلوا يقبلون عليه ويذكرونه، حتى اتخذ كل واحد منهم تمثالاً فى منزله يعظمه ويتبرك به، ثم تناسلوا على ذلك.

---

(١) حدث ابن هشام فى سيرته ١/ ٧١ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ عمرو بن لُحَى يَجُرُّ قُصْبَه فى النار، فسألته عمن بينى وبينه من الناس، فقال: هلكوا».

(٢) فى قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعا ولا يغوث ويَعُوقَ ونَسْرًا وقد أضلُّوا كثيرًا﴾ سورة نوح الآيتان ٢٢ و ٢٣.

(٣) فى الأصل «رجلين» وهو تحريف.

القول فى البيوت المعظمة فى الجاهلية

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام، هو بيت زحل، ولذلك طال مقامه معظمًا على مرور الدهر، لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت، وذكروا أمورًا أعرضنا عن ذكرها، منها استعمال الثغت والشعت عند حجه، وغير ذلك.

والبيت الثانى من السبعة: بيت على رأس جبل أصبهان على ثلاثة فراسخ منها، ويقال له **ماربين**[1]، وكانت فيه أصنام، فجعله يستاسف بيت النار، لما تمجَّس، وهو معظَّمٌ عند المجوس إلى هذه الغاية.

والبيت الثالث من السبعة: ببلاد الهند، يدعى **مندوسان** فيه من القوة الدافعة والجاذبة والمنفرة، وأوصاف لا يسع ذكرها، وهو بيت مشهور، ومن أراد البحث عليه فليبحث.

والبيت الرابع من السبعة: هو التوبهار، الذى بناه منوشهر الهندى بمدينة بلخ من خراسان بنيت على اسم القمر، وكان من يلى سدانته يعظمه الملوك، وتنقاد إليه الأموال، واسم الذى يلى سدانته: برمك، وبه سميت البرامكة، لأن خالدًا كان من ولد من ولى هذا البيت، وكان بنيانه من أعلى المبانى تشييدًا ينصب فى أعلاه شقائق الخز الأخضر، طول الشقة مائة ذراع لتدفع عنه قوة الريح، فخطف الريح يومًا بعض تلك الشقاق فرمت به على مسافة خمسين فرسخًا، وهذا يدل على ذهابه فى الجو.

وعلى باب التوبهار كتاب بالفارسية، فيه قال بوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى خصال ثلاث: عقل وصبر ومال، وتحت هذه الكتابة مكتوب بالعربية: كذب بوداسف، الواجب على الحُرِّ إذا كانت معه واحدة من هذه الخصال، ألا يلزم باب السلطان.

والبيت الخامس: بيت غُمْدان[2] الذى بمدينة صنعاء، وكان الضَّحَّاك بناه على

---

(١) فى الأصل (لها مارس).

(٢) انظر: البلدان ٢١٢.

اسم الزهرة، وخَرَّبه عثمان، فهو فى وقتنا هذا خراب، وقد صار تلاً عظيمًا، وجبلاً ضخمًا، وكان الوزير على بن عيسى بن الجراح لما نفى إلى اليمن احتفر فيه بئرًا، وبنى عليه سِقَايةً. ويزعم أهل اليمن أنه سيبنى على يد غلام يخرج من بلاد سبأ يؤثر فى هذا العالم تأثيرًا عظيمًا.

وقال الجاحظ: وكان أربع عشرة طبقة بعضها فوق بعض.

وقيل: إن ملوك اليمن كانوا إذا قصدوا على هذا البنيان بالليل، وأشعلت السرج، رُئِىَ ذلك على أيام كثيرة.

والبيت السادس: كاوُسان، بناه كاوس الملك، ولهذا خبر طريف ذكر فى كتاب «أخبار الزمان» وكان الملك كاوسا بناه على اسم المدبّر الأعظم وهو الشمس، بمدينة فرغانة، من مدن خراسان، خرَّبه المعتصم.

والبيت السابع من البيوت، بأعالى بلاد الصين، بناه ولد عامور بن سوبل ابن يافث بن نوح، على سبعة أبيات، فى كل بيت منها سبع كوى، تقابل كل كوة صورة كوكب من الخمسة، والنَيِّرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب.

ولهم فيه أسرار بزعمهم فى اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون وتأثيرها، وقد قرب ذلك إلى عقولهم، بأن جعل لهم مثالاً من الشاهد يدل على ما غاب عنهم.

* * *

[ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين]

والذى بنته اليونانية من البيوت والهياكل ثلاثة:

* **بيت أنطاكية**: من أرض الشام على جبل داخل مدينتها، على يسرة الجامع اليوم، وكانت فيه تماثيل من الفضة والذهب، وأنواع الجواهر بناه سقلايوس[1]، وخربِّه المسلمون.

(١) فى الأصل (شعلا بيوس).

ولقد كان ثابت بن قُرَّة بن كرايا الصابى الحرانى حين وافى المعتضد بالله فى سنة تسع وثمانين ومائتى سنة، أتى هذا الهيكل وعظمه.

* **وبيت ثان الهَرَم**[1]، الذى يرى على أميال من الفسطاط.

* **وبيت المَقدس**، والشرعيون يذكرون أن داود بناه، وأتمه سليمان عليهما السلام. وقد قيل.

* فأما بعل الصنم الذى ذُكِرَ فى التنزيل، فكانت اليونانية اختارت له جبل لبنان، فاتخذوا له هناك هيكلاً فيه نقوش عجيبة فى الحجر، لا يتأتى حفر مثلها فى الخشب.

* * *

[البيوت المعظمة عند الصقالبة]

وللصقالب بيوت ثلاثة، فيها مخاريق مصنوعة، وآثار موسومة تدلهم على الجبل الذى ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم، وعلى الجبل الأسود.

والبيت الثانى تحيط به مياه عجيبة، وأشجار ذوات طعوم مختلفة، وفيه صنم عظيم على صورة رجل، هيئته شيخ، بيده عصا، يحرك به عظام الموتى، وتحت رجله اليمنى صور لأنواع النمل، وتحت رجله اليسرى غرابيب سود مصورة من صور الغداف وغيرها.

والبيت الثالث: يحيط به خليج من[2] البحر مبنى بأحجار المرجان الأحمر والزمرد الأخضر، فى وسطه قبة عظيمة فيها صنم أعضاؤه من جواهر أربع: زبرجد، وياقوت، أحمر، وأصفر، وبللور أبيض، رأسه من الذهب الأحمر، وبإزائه صنم على صورة جارية.

* * *

(١) فى الأصل (انهدم).

(٢) فى الأصل (فى).

[بيوت الصابئة]

وكانت للصابئة هياكل، منها: هيكل الصورة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، مستديرات الأشكال، وهياكل الكواكب والنَّيِّرَيْنِ على أشكال مختلفة من التسديس، والتربيع، والتثليث، وكانت لهم فيها رخن وقرابين، يطول وصفها.

والذى بقى من هياكلهم المعظمة الآن بحران، بيت فى باب الرقة يعرف بمقليتيا، وهو هيكل آزر أبى[1] إبراهيم، ولهم فى آزر وابنه إبراهيم كلام كثير.

وعنه سراديب أربعة لأنواع صور الأصنام التى على صور الأشخاص السمائية، وما ارتفع عن ذلك من الأجرام العلوية، وما يظهر من أنواع أصواتها، وفنون لغاتها، بِحِيَلٍ قد اتخذت، ومنافخ قد عملت، ومخاريق قد وصلت، يقف السدنة من وراء الجدار، وتتكلم بأنواع الكلام، فتجرى الأصوات فى تلك المنافخ والمخارق إلى تلك الصورة المجوفة، فيظهر منها نطق على حسب ما دبر فى قديم الزمان، على هيئة كيفية هندسته.

والصابئة حشوية الفلاسفة، وإنما يضافون إلى الفلسفة إضافة، وليس كل يونانى حكيمًا.

وعلى باب مدينة حَرَّان مكتوب بالسريانية قول أفلاطون وهو: «من عَرَف ذاته تألَّه».

وهذا يشبه قوله: «الإنسان نبات سماوىّ».

ولأفلاطون كلام فى النفس كثير:

* وهل النفس فى البدن، أو البدن فى النفس، كالشمس: هل هى فى الدار؟ أو الدار فى الشمس؟ وكيف انتقالها من جسد إلى جسد بالتدبير.

وبطلان ذلك الشخص الذى تنتقل عنه.

---

(١) فى الأصل (أبو).

وهى فى ذاتها لا تفسد، ولا يستحيل جوهرها.

والصابئة من الحرَّانيين يقربون[١] فى بعض قرابينهم فى وقتٍ مأثورًا أسود يشد عيناه، ثم يظهر من الاختلاج والحركات، فيكون ذلك دليلا على أحوال السنة.

ولهم فى قرابينهم أسرار ومخبآت.

وفى أقاصى أرض الصين هيكل مُدَوَّر، له سبعة أثواب فى داخله قُبَّة مُتسعَةٌ عظيمة الشأن، فى أعلاها جوهرة أكبر من رأس العجل، يضىء منها جميع أقطار ذلك الهيكل، وقد أراد جماعة من الملوك أخذها، فلم يَدْنُ منها أحد على عشرة أذرع، إلا مات.

وإن رام أخذها بشىء من الآلات الطوال، إذا بلغ ذلك المقدار، انعكس، فليس يتأتى تناولها بوجه ولا بسبب.

وإن تعرض أحد لهدم شىء من الهيكل، مات مكانه، قوة دافعة منفِّرة قد عُملت من أنواع الأحجار المغنطيسية.

وفى هذا الهيكل بئر، وعلى رأس البئر شبه الطَّوْق، مكتوب عليه بكتاب قديم بقلم المسند هند: «هذه البئر تؤدى إلى مخزن الكتب الأولى، وتاريخ الدنيا، وعلوم السماء، وما كان فيما مضى وما يكون فيما يأتى».

وتؤدى هذه البئر إلى خزائن غرائب هذا العالم، لا يصل إلى الدخول إليها، والاقتباس مما فيها، إلا مَن وازنت قدرته قدرتنا، وساوى علمه علمنا.

وإن وقع البصر على هذا الهيكل، وقع فى قلب الرَّائى له جزع منه، وحنين إليه مختلطان.

وهو على جبل شامخ من حجر صلد، لا يتأتى فيه حَفْرٌ أَلْبَتَّةَ.

* * *

(١) فى الأصل (يفرقون).

ذكر بيوت النيران

فأما بيوت النيران واتخاذها، فأول من رأى ذلك: أفريدون وقيل غيره قبله، لأنها من جنس الآلهة النورية، وأن بالنور صلاح هذا العالم، والنورية تجذب الحيوان كالفراش الطائر والوحش والغزلان، ومن الطير ما يُصاد بالسُّرج ليلا، كما يصاد السمك من الماء ببلاد البصرة ليلا فى الزواريق المُسْرَجة من جهتها، فيظهر السمك من الماء حتى يقع فى جوف الزورق.

والنور عندهم أصل لكل حى، ومبدأ لكل تمام، ولهم فيه كلام يكثر عن إيراد مجمله، فكيف مفصّله، فاتخذ بيتا للنار بطوس، وبيتا بمدينة بخارى، ثم اتخذ الملوك بعده بيوت النار فى المماليك.

ومن البيوت الباقية لها المعظمة عند أهلها: بيت بمدينة دَارَابجِرْد من أرض فارس، كان زرادشت قد أمر يستأسف الملك أن يطلب نارا كان يعظمها جمّ، فطلبت، فوجدت فى مدينة خوارزم، فنقلها يستأسف إلى درابجرد، وهى تسمى آذرجُوى، وتفسيره: نار النهر، وذلك أن آذر: أحد أسماء النهر، وجوى: من أسماء النار، وهذا بالفارسية الأولى، والمجوس تعظم هذه النار الآن أشد تعظيما، وهى أعظم نيرانهم.

وكان لهم بيت نار بإصطخر بأرض فارس يعظمونه، وهو الآن لا نار فيه، والناس يذكرون أنه مسجد سليمان.

قال (س)[١]: قد دخلته وهو على نحو فرسخ من مدينة أصطخر، فرأيت بنيانا عجيبا، وهيكلا عظيما، وفى أعلاه صور من الصخر محكمة عظيمة القدر من الخيل وسائر الحيوان، يحيط بذلك كله سور عظيم منيع من الحجر، وفيه صور الأشخاص قد شكلت وأنبتت وأتقنت، يزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٦٩.

وفي جوف هذا الهيكل، الريح غير خارجة منه فى ليل ولا نهار، لها هبوب وخفوق.

يذكر من هنالك من المسلمين، أن سليمان حبس الريح فيه، وأنه كان يتغذى ببعلبك من أرض الشام، ويقبل بمدينة تدمر فى الملعب المتخذ فيها، وهى فى البرية بين العراق ودمشق، وبينهما وبين أرض الشام ستة أيام، ثم يتعشى بها فى المسجد.

وبتدمر خلق من العرب، من قحطان.

* وبمدينة جور الذى يضاف إليها الورد الجورىّ، بيت للنار بناه أردشير، له عيد، وهو على عين هناك عجيبة، وإليه منتزَّهاتهم، وفى وسط جور بنيان كانت تعظمه الفرس، يعرف بالطربال، خرّبه المسلمون.

وإنما فضل ماء وردهم؛ لصحة التربة، وصفاء الهواء، قالوا: إن سكانها فى غاية الحسن من الاعتدال الحمرة والبياض، وبين جور وشيراز، وهى قصبة فارس عشرون فرسخا.

* * *

القول فى الأرضين والأنهار والبحار

أبو عبيدة: اتفقوا أن طول عمران الأرض من الأميال التى الميلُ منها أربعة آلاف ذراع، الذراع: الذى وضعه المأمون لذراع الثياب، ومساحات البناء، وهى أربعة وعشرون إصبعا.

قال الدولابى، وهو ذراع السواد، وذلك ألفان وثلاثمائة وثلاثون خطوة، وهو بالذراع الهاشمى: ثلاثة آلاف ذراع، ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة، وذلك أن أقصى جزائر أقتابس الستة.

وأقتابس: البحر المحيط، الذى لا يُدرى ما وراءه غربا، إلى أقصى عمران الصين شرقا، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين، طلعت على الجزائر، وبالضدّ.

فأما الأقاليم السبعة:

فالأولى: أرض بابل، منها خراسان، وفارس، والأهواز، والموصل، وأرض الجبل.

له من البروج: الحَمَل.

ومن النجوم: المشترى.

والثانى: السند، والهند، والسودان.

له: الجدى، وزُحل.

والثالث: مكة والمدينة، واليمن، والحجاز، وما والاها.

له: العقرب، والزهرة.

والرابع: مصر وإفريقية، والبربر، والأندلس.

له: الجوزاء، وعطارد.

والخامس: الشام والروم والجزيرة.

وله: الدلو، والقمر.

والسادس: الترك، والخزر، والديلم، والصقالبة.

له: السِّرْطان، والمِرِّيخ.

والسابع: الدَّيْبُل، والصين.

له: الميزان، والشمس.

وذكر صاحب كتاب «الزِّيج»[1] عن خالد بن عبد الله المروزى أنه رَصَد الشمس للمأمون ببرية ديار ربيعة، بريّة سنجار، فوجد مقدار درجة من الفلك: ستة وخمسين ميلا من الأرض، فضرب العدد فى ثلاثمائة وستين ميلا، فهو دور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر، فقطعوها على هذا ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وعشرين ميلا، ونصف عشر بتقريب.

والمعمور نصف هذا القطر من خط الاستواء إلى الشمال، ومنتهى العمران فى

(١) هو حسين المنجّم.

الشمال: جزيرة نَوْل فى بريطانية.

ذكر جغرافيًا، أن عدد هذه الأرض المعمورة عشرة آلاف ميل وخمسمائة وثلاثون ميلا، وإن عدد البحار المحيطة بالأرض: خمسة، وجميع العيون الكبار: مائتان وثلاثون عينا، والأنهار الكبار الجارية: مائتان وسبعون.

وذكر أن طول كل إقليم من الأقاليم السبعة: تسعمائة فرسخ، فى مثلها.

وقد زعم المجسْطى، أن دور كرة الأرض: أربعة وعشرون ألفا وثلاثون ميلا، وأن قطرها وعمقها: سبعة آلاف وستمائة وتسعة وثلاثون ميلا.

قال (ط): تسعة آلاف، وإنهم أدركوا ذلك بأنهم أخذوا ارتفاع القطب الشمال، فى مُدَّتين على خطٍّ واحد، أعنى أن يكون جميعا، واقعتين تحت خط نصف النهار، فيتفقان فى الطول ويختلفان فى العرْض، مثل الاتفاق الذى وقع بين تدمر فى برية العراق، والرقة، فوجدوا ارتفاع القطب الشمال فى الرقة خمسة وثلاثين، وفى مدينة تَدْمُر أربعة وثلاثين وثلثًا، ثم مسحوا مسافة ما بينهما، فوجدوه تسعة وثمانين، فوجب أن يكون مقدار الدرجة من الفَلَك فى الأرض ستة وثلاثين ميلا، وثُلثى ميل للتقريب، ثم ضربوا ذلك فى ثلاثمائة وستين، وإذا قُسِم دور الأرض على ثلاثة وسبع، كان مما يخرج مقدار الأرض، وذلك إذا ضَربوا مقدار القُطْر فى الدور، كان مما يجتمع مسافة جميع الأرض، مكسورا، ولذلك قال مرجان الفيلسوف: إن دور جميع الأرض، على ما امتحنه أردستانس الحكيم، مائتان وخمسون ألفا، إسْتبروا بالرومية، واستباد يوميل، وذلك واحدٌ وثلاثون ألفا ومائتان وخمسون ميلا.

وحقيقة الإسباديو عندهم: أربعمائة باع، والربوة: عشرة آلاف عُلوة.

قال: والأرض كلها مسيرة خمسمائة عام عندهم، ثُلُث: عمران، وثلث: بحار، وثلث: قفار، غير مسكونة.

وذكر فى السفر الثانى أن استدارة الأرض ست وثلاثون درجة، والدرجة خمسة وثلاثون فَرْسخا، والفرسخ: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع اثنان وأربعون إصبعا، والإصبع ست حبات وتسعان، ومصفوفة بعضها إلى بعض، فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ، وهذا غير ما تقدم، فى كثرة العدد، وكِبر الذراع.

ثم قال: وإنما ننقل فى كُلٍّ موضع من هذا الكتاب ما ينسخ لنا، وعندنا كتب الناس، فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده، لا ما نقطع على صِحَّته.

وقد مسح جماعة ممن أتى بعد بطليموس مقدار الدرجة من درج الفلك فيما بين مدينة الرَّقة وتدمر على ما ذكرناه. ووجد حساب الدرجة الواحدة خمسة وعشرين فرسخا، فوجب على هذا أن تكون مساحة أعظم دائرة تقع على كرة الأرض تسعة آلاف فرسخ، إلا أن بطليموس وتيتوس صاحب تركيب كتاب الأفلاك أنكر أن تكون مساحة الدرجة الواحدة تنتهى إلى أكثر من ستة وثلاثين ميلا وثلثى ميل.

وذكروا أن المعمور من الأرض أقل من الثلث وأكثر من الربع، وطول الجزء المعمور من الأرض مبدؤه من الجزائر الخالدات التى هى أقصى بلاد المغرب إلى مدينة شيراز إلى أقصى بلاد الصين، وذلك على الخط الموازى لدائرة معدل النهار، فرأس هذا الخط الذى مبدؤه الجزائر الخالدات هو نظير درجة الشمس بالسواء، إذا كانت الشمس برأس الحمل.

وطول هذا الخط مائة وثمانون جزءًا من أجزاء الفلك.

فأما بَدْءُ عَرْض البلاد، فإنه من ناحية مجرى سُهَيل من أرض الحبشة عن مسافة عشرين ليلة فى سمت مهبّ الجنوب من عدن إلى نول الجزيرة الواقعة تحت الخط الذى يجرى لمنتهى الشمال، وهى بلاد الصقالبة والخزر.

ونول هذه الجزيرة، هى الواقعة تحت منتهى الخط الشمالى.

* * *

جملة جمعتها من كتب فلاسفة اليونانيين فى الأقاليم السبعة

جعل طول الأقاليم جميعها من المشرق إلى المغرب، وهى مسافة اثنتى عشرة ساعة من دورة الفلك، وبين عرض كل إقليم والذى يليه نصف ساعة معتدلة من النهار الأطول.

فالإقليم الأول يميل وسطه على الموضع الذى يكون طول نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة، والسابع يمر وسطه على المواضع التى يكون طول نهارها الأطول ست عشرة ساعة.

* **فالإقليم الأول:** من حيث يكون طول نهاره الأطول اثنتى عشرة ساعة وربع ساعة، إلى حيث يكون طوله ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة، ومن حيث يرتفع القطب من الأفق ستة عشر جزءًا وثلثى جزء، إلى حيث يكون ارتفاعه عشرين جزءًا ونصف جزء، وذلك مسافة أربعمائة وأربعين ميلاً من أقاصى بلاد الصين.

وفيه مدينة مَلِكُها اسمه وَاسْكَرَا، وهى مرسى الصين، ثم يمر على سواحل البحر فى جنوب بلاد السند، ثم يمر فى البحر على جزيرة الكوك، ويقطع البحر إلى جزيرة العرب وأرض اليمن.

ففيه من البلاد المشهورة بلاد ظفار وعُمَان وحضرموت وعدن وصنعاء وما وراء تُبَالة[1] وجُرَش ومَهْرَة،(وسبأ، ثم يقطع الإقليم بحر قلزم فيمر على بلاد الحبشة، ويقطع نيل مصر، وفيه هناك مدينة ملك)[2] الحبشة تسمى جرمى دنقلة، ثم يمر الإقليم فى بلاد المغرب (أعلى جنوب بلاد البربر)[3]، إلى أن ينتهى إلى بحر المغرب.

* **والإقليم الثانى:** من حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب أربعة وعشرين جزءًا وعشر

---

(١) فى الأصل: ثبالة.

(٢) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفسية ٩٦.

(٣) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفيسة ٩٦.

جزء، إلى حيث يكون سبعة وعشرين جزءًا أو نصفًا، وهو مسافة أربعمائة ميل، يبتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين. ثم على بلاد الهند، ثم على بلاد السند، وفيه المنصورة والنيرون، ثم يمر بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة، ويقطع جزيرة العرب فى أرض نجد وأرض تهامة. وفيه من المدن المشهورة هناك: اليمامة والبحرين وهجر ومدينة يثرب والجار ومكة والطائف وجدة، ثم يقطع عرض القُلْزم، (ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل، وفيه من المدن هناك: مدينة قوس وأخميم وإسنا وأنصنا وأسوان، ثم)[١] يمر فى أرض المغرب على وسط بلاد إفريقية إلى بحر المغرب.

* **الإقليم الثالث**: وسطه من حيث يكون طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة إلى حيث يكون طوله أربع عشرة ساعة وربع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب ثلاثين جزءًا وثلاثة أخماس ونصف خمس، إلى حيث يكون أربعة وثلاثين جزءًا، وذلك مسافة ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً. وهو يبتدئ من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين، ثم يمر على بلاد الهند.

وفيه مدينة القَنْدَهار[٢]، ثم يمر على شمال بلاد السند على كابل وكرمان وسجستان وجيرفت والسيرجان، وعلى سواحل بحر البصرة، وفيه من المدن هناك: مدينة إصطخر وجوردفا وسابور وجنايا وسينيز وماهير وبان[٣].

ويمر بكور الأهواز والعراق والبصرة وواسط وبغداد والكوفة والأنبار وهيت حتى يمر على بلاد الشام، وفيه من المدن هناك: خيار وسلمية وحمص ودمشق وصور وعكا وطبرية وقيسارية وبيت المقدس والرملة وعسقلان وغزة والمدائن والقلزم، ثم يقطع أسفل أرض مصر، وفيه هناك: الفرما وتنّيس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم، ثم يقطع الإسكندرية، ثم يمر على بلاد برقة وإفريقية وفيه مدينة أطرابلس، والقيروان، ومدينة فاس، وينتهى إلى بحر المغرب.

* **الإقليم الرابع**: وسطه من حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة

---

(١) ما بين المعقوفين عن الأعلاق النفيسة ٩٦.

(٢) فى الأصل: القيدهار.

(٣) انظر: الأعلاق النفيسة ٩٧.

ونصف إلى حيث يكون أربع عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وارتفاع القطب سبعة وثلاثين جزءًا، وذلك مسافة ثلاثمائة ميل، ويبتدئ من المشرق فيمر ببلاد التبت إلى خراسان، فيكون فيه من المدن: فرغانة وخُجَنْدَة وأَشْرُوسَنَة وسمرقند وبخارا وبلخ وآمد وهراة ومروروز وسَرْخَس وطوس ونيسابور وجرجان والرى وإصبهان ونهاوند والدينور وحلوان وشَهْرَزور وسُرَّ من رأى والموصل ونصيبين وآمد ورأس العين وقالى قلا[1] وشمْشاط وحران والرقة وقَرْقِيسيَا[2] ويمر على شمال الشام وفيه من المدن هناك: بالس ومنيح وملطية وزبطرة وحلب وقنسرين وأنطاكية وطرابلس الشام والمصيصة والكنيسة السوداء وأذنة وطرسوس وعمورية واللاذقية، ويمر فى بحر الشام على جزيرة قبرس ورودس، ثم يمر فى أرض المغرب على بلاد طنجة، وينتهى إلى بحر المغرب.

وفى هذا الإقليم تقع قرطبة وما يليها؛ لأن طول نهارها فى تناهيه أربع عشرة ساعة وثلثا ساعة، فبينها وبين الإقليم الرابع نصف سدس ساعة، وذلك خمسة وعشرون ميلاً سواء.

* **الإقليم الخامس:** وسطه من حيث يكون طول النهار الأطول خمس عشرة ساعة وربع ساعة، ومن حيث يكون ارتفاع القطب واحدًا وأربعين جزءًا ونصف جزء، وذلك مسافة مائتى ميل وخمسة وخمسين ميلاً.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ومأجوج، ثم يمر على بلاد خراسان، وفيه من المدن هناك: الطراز، وهى مدينة البحار ونوكث واسبيجاب، ثم يمر فى بلاد الروم على خرشنة، ثم يمر بسواحل الشام مما يلى الشمال، ثم

(١) قالى قلا: مدينة من مدن أرمينية، مداخلة لبلاد الروم، وهى ثغر لأهل أذربيجان وأرمينية، وهى مدينة حسنة جليلة عامرة وتغلّب عليها الروم وعلى ما جاورها مرّات، واستنقذها المسلمون من أيديهم، وبينها وبين تفليس أربع مراحل، ومنها ابتداء الأنهار العظام، وإليها ينسب أبو علىّ القَالى صاحب النوادر. انظر: آثار البلاد ٥٥١-٥٥٢ والروض المعطار ٤٤٧ ونزهة المشتاق ٢٦٧.

(٢) قرقيسيا: كورة من كور ديار ربيعة، بين الحيرة والشام، وفى الجانب الشرقى من الفرات، فتحها عنوة عمرو بن مالك بن عبيد بن نوفل بن عبد مناف وأجاب أهلها إلى الجزية. الروض المعطار ٤٤٥.

يمر على بلاد الأندلس؛ لأن طول نهارها فى تناهيه خمس عشرة ساعة، فعليها يمر وسط الإقليم الخامس بالسواء.

* **الإقليم السادس**: من حيث يكون طول النهار الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ساعة إلى حيث يكون خمس عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وارتفاع القطب واحد وأربعون جزءًا وخمس جزء إلى سبعة وأربعين جزءًا وربع جزء، وذلك مسافة مائتى ميل وعشرة أميال.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق ويمر على بلاد الخزر، فيقطع وسطه بحر طبرستان إلى بلاد الروم، فيمر على جزران وأماسيا وخلقيذيون والقسطنطينية وبلاد برجان، وينتهى إلى بحر المغرب، وفى هذا الإقليم تقع لابردة وأواخر بلاد إفرنجة وبلاد شاخس.

* **الإقليم السابع**: وسطه حيث يكون طول النهار الأطول ست عشرة ساعة إلى حيث يكون ست عشرة ساعة وربع ساعة، وارتفاع القطب ثمانية وأربعون جزءًا وسدس جزء، إلى حيث يكون خمسين جزءًا ونصف الجزء، وذلك مسافة مائة وخمسين ميلاً وقيل خمسة وثمانون ميلاً.

وهذا الإقليم يبتدئ من المشرق ومن شمال يأجوج، ثم يمر على بلاد الترك، ثم على سواحل بحر طبرستان مما يلى الشمال ثم يمر ببلاد برجان والصقالبة، وينتهى إلى أوائل جزائر المتاشبيتش.

فأما ما وراء هذا الإقليم إلى آخر المعمور، فإنه يبدأ من المشرق[1] من بلاد التغزغز على أرض الترك على بلاد اللآن، ثم يمر على برجان، ثم على الصقالبة، وينتهى إلى بحر المغرب.

وهذا الإقليم خارج عن الأقاليم السبعة، وطول نهارهم زائد على ست عشرة ساعة ونصف إلى نحو سبع عشرة ساعة.

وقيل إن المعمور يبلغ إلى طول ما يكون أطول النهار، وأطول الليل عندهم ثمانى عشرة ساعة، كما أن قبل الإقليم الأول إلى خط الاستواء ببلاد السودان الذين يأكلون الناس.

(١) فى الأعلاق النفيسة ٩٨ «فإنه يبدأ من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمرُّ على بلاد التغزغر».

أخبرنى (د) قال: ذكر لى رجل من أهل الحذق والمعرفة بالهندسة قال: دخلتُ بلاد غياروا من وراء بلاد غانة وأطول نهارهم من اثنتى عشرة ساعة ونصف.

وذكر أنه لا ظل لنصف نهارهم من شهر مايه - وهو حزيران - ثم يكون ظلهم من ناحية الجنوب إلى نصف شهر شتنبر بلا ظل أيضا نصف نهارهم ينعكس بعد ذلك فيكون من ناحية الشمال.

وأهل هذا الموضع أشد سوادا، وشعورهم أشد تفلفلا، وخلقهم أشد تشويها من سائر السودان[١]، وطباعهم وحشية، ونفوسهم سبعية، وكثير منهم يثبون على الناس كالكلاب الكَلِبة.

فأما الذى لا يُعمر من الأرض، ولا يكون فيه حيوان ولا نبات، فهو ما كان من الجنوب، عرضه عن خط الاستواء تسع عشرة درجة؛ لأن الشمس إذا صارت فى السُّنبلة فى حدّ ثلاث درجات إلى أن تبلغ خمس درجات من الحوت، قَرُبت منه وثبتت عليه فأحرقت كل شىء هنالك.

وأخبرنى العذرى قال: أخبرنى رجل من قريش أنه كان على حافة البحر المحيط - بحر المغرب - فأصبح على أحد بيوت ذلك الموضع طائر قد وقع على البيت وانهدم البيت من وقوعه، ودخلت فى حوصلته خشبة من خشب البيت فألقى ميتًا، وزعم أنه من طرف جناحه إلى الطرف الثانى ثمانون شبرًا، ولم نر أحدًا ذكر أنه عاين شيئًا من هذا الحيوان دون خط معدل النهار إلا الفيلة؛ فإنها تجلب من هناك، وتعيش فيما ولدت بها من الأقاليم ولكنها لا تتوالد.

وذكر بطليموس أن مدن الأرض فى عهده أربع ألاف ومائتان[٢].

وقد بين أهل العلم بالهندسة بغير وجه من البراهين، أن الأرض ثابتة فى وسط العالم، قائمة فى مركزه لا حركة لها فى ذاتها، وأنها مستديرة الشكل، وأن جميع الأثقال تميل وترجع إليها بالطبع، وأن كل جزء من أجزائها البعيدة عن المركز بدور الارتفاع والانخفاض مطيعة إلى مركزها، وأن الفلك المستقيم يدور عليها بجميع ما

(١) انظر: الأعلاق النفيسة ١٠١.

(٢) ذكر المسعودى فى مروج الذهب ١/٨٦ أنّ مدن الأرض فى عهد بطليموس أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة.

يحيط به من الأفلاك والكواكب السيارة والثابتة دورة واحدة فى كل أربع وعشرين ساعة مستوية، التى هى جملة النهار والليل من آخر النهار.

وركب الله عز وجل على الأرض جرم الشمس، ليعلمه بالحكمة التى ينبغى أن يكون عليها تركيب العالم فى فلك أخرج مركزه عن مركز الأرض بدرجتين ونصف من درج فلك البروج، فلذلك ما اختلفت حركة الشمس على الأرض، فحمى مزاج جوهر الهواء المحيط بالناحية الجنوبية، وكان الجزء المعمور من الأرض فى الناحية الشمالية، إذ كان كل حيوان بطبعه أحمل للبرد منه للحر، ألا ترى أنه يتولد فى الماء من الحيوان ما لا يحصى كثرة، وكذلك من النبات؟

ولا يتكون فى النار منه شىء إلا الشاذ النادر ـ إن صحَّ ذلك فيه ـ كما زعموا أنه يتكون فى أفران الزجَّاجين ضرب من سام أبرص حمر الألوان، فإذا خرجت عن النار هلكت.

فوجب لهذه العلة أن يكون رسم الأقاليم السبعة وبحدودها فى الجزء الشمالى من الأرض ـ كما ترى ـ .

وأهل القطب الشمالى يَرَوْنَ بَنَات نَعْشٍ[1]، ولا يرون كواكب القطب الجنوبى كسُهيل، فإنه لا يرى بخراسان، ويرى بالعراق فى السنة أيامًا، ولا يقع عليه عين جمل من الجمال إلا هلك، فهذا خاصة فى هذا النوع من الحيوان، وسهيل يظهر فى البلدان الجنوبية السنة كلها.

* والأرض كلها نصف عشر ثمن جزء من الشمس، فهى أعظم منها مائة وستين مرة، وقطب الشمس اثنان وأربعون ألفًا، وسائر الكواكب العلوية أعظم من الأرض بدون هذه النسبة، وما تحت الشمس منها أقل من الأرض.

فأما القمر، فإنه أعظم من الأرض سبعًا وثلاثين مرة وأقرب بعد القمر من الأرض مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل، وبُعْدُ زُحَل من الأرض سبعة وسبعون ألف ميل إلا شيئًا.

* * *

(١) بَنَاتُ نَعْشٍ: سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالى، شُبِّهت بحملة النَّعْشِ.

القول فى البحار

زعم كثير من الفلاسفة وأهل العلم بالهندسة أن البحر الأعظم محيط بالأرض من جميع جهاتها، لأسباب ذكروها، ليس هذا موضع ذكرها، وأن الشكل الذى ينسب إلى العنصر المائى السيال الجوهر، هو شكل ذو ثمانى قواعد مثلثات، وذلك جسم يحيط به ثمانية سطوح مثلثات متساوية الأضلاع قائمة الزوايا، يسمى كعبًا، وهو شكل الأرض على رأى أفلاطون وكثير من القدماء.

وجميع بحار الأرض فروع من هذا البحر، وهى متصلة الأجزاء ملتقية المياه.

وقد نقل بعض المؤرخين أن أحد ملوك الأرض أراد أن يعلم صحة ذلك، فأنشأ سفنًا ضخمة حصينة، وشحنها بالرجال والأزواد والمال، وأرسلها نحو المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فأصابوا جميع أجزاء البحر يتصل بعضها ببعض، وألفوها كلها تتشعب من البحر الأعظم المحيط.

وقال أهل العلم بهيئة الأرض والبحار، إن الأمهات الكبار المتفرعة من البحر المحيط أولها البحر الأعظم الآخذ من المغرب إلى الجنوب، وكذلك عرف بالبحر الجنوبى، وهو يأخذ من المغرب إلى القلزم ويمر بوادى القرى إلى الجار[1] وجُدَّة وأَيْلَة وعدن أَبْيَن والشّحر وعمان وعبادان إلى أرض السودان، ويمر بالنصف ببلاد العود إلى أكثر الهند إلى واق واق (فى الصين)[2].

وله جناحان أحدهما يأخذ إلى جزيرة العرب، ويمر باليمامة وعمان ومهرة والشحر، والجناح الآخر يأخذ إلى بلاد فارس، وعليه يقع سيراف والمولتان[3] والدَّيْبُل، وبهذين البحرين سمى البلد بالبحرين.

* وأما البحر الثانى الذى يتلو البحر الجنوبى فى العظم، فهو البحر الشمالى الآخذ من الشمال إلى ناحية الجنوب، وابتداؤه من طول واحد، ويمتد إلى طول

(١) فى الأصل (انجار).

(٢) ما بين المعقوفين عن مختصر البلدان ١١.

(٣) فى الأصل (ماوه) والتصحيح عن مختصر البلدان ١١.

سبعة عشر على صورة الطيلسان إلى أن يأتى شكله شكل قطعة دائرة، ثم يمر احديداب إلى أن يأتى شكله شكل الثابورة[1].

وليس على هذا البحر من المدن إلا مدينة واحدة يقال لها مولية، ولا يركبه أحد لغلظ جوهر مائه وظلمته وتكاثف الهواء عليه، وإنما يدخل منه الموضع الموازى لسمت المغرب، فإنه يركب من هناك إلى الجزائر التى من أقاصى بلاد المغرب.

* وأما البحر الثالث، فهو البحر الرومى السد، وهو يأخذ من أنطاكية إلى أقصى بلاد المغرب، وهو يلتقى البحر المظلم، ويخرج إلى الجزائر الخالدات[2]، ويخرج من هذا البحر الرومى خليج كبير يمر بجزيرة الأندلس، ثم يمر هذا البحر إلى السُّوس الأقصى من بلاد فارس والأهواز، ثم يأخذ هذا البحر الثالث من أنطاكية فيصير بحرا رابعا إلى القسطنطينية، ثم ينعطف إلى ناحية المغرب آخذا إلى الأبواب من ناحية بلاد الخزر.

وعلى هذا البحر المنعطف تقع المدن الخمس التى يأخذ الخزر عليها فى ممرهم إلى القسطنطينية، منها المدينة البيضاء.

وعلى ساحل هذا البحر تقع طَرَسوس والمَصِّيصة والإسكندرية وأنطاكية واللاذقية وعرقة وأطرابلس الشام وسائر ما يتلو هذه البلاد، ثم يدور إلى بَلْخ مدينة الخزر الموضوعة، ومن هناك يأخذ إلى باب الأبواب.

* * *

(١) كذا بالأصل.

(٢) جزائر الخالدات، ويقال لها أيضًا جزائر السعادات، فى البحر المحيط فى أقصى بلاد المغرب، كان بها مقام جمع من الحكماء بنوا عليها ابتداء طول العمارات، قال أبو الريحان الخوارزمى: هى ستّ جزائر واغلة فى البحر المحيط، قريبات من مائتى فرسخ، وإنما سُمِّيت بجزائر السعادات؛ لأنّ غياطها أصناف الفواكه والطيب من غير غرس وعمارة، وأرضها تحمل الزرع مكان العُشب، وأصناف الرياحين العطرة بدل للشوك. آثار البلاد ٢٩.

بحر الهند

وهو البحر الحبشى، وهو بحر الصين والهند والسند والزَّنج والبصرة والأُبُلّة وفارس، وكما زعموا وعمان والبحرين والشحر واليمن وأَيْلَة والقُلْزُم.

وليس فى المعمور أعظم منه، طوله من المشرق إلى المغرب ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعَرْضه فى موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وقد اختلف فى ذلك، وهذا أصحّ.

وهذا البحر وإن كان واحدا، فهو ستة أبحر متخرقة بعضها إلى بعض، والأدِلاَّء يعرفون فصل ما بينها؛ لأن لكل بحر لونا وريحا وسمكا ونسيما ليس للآخر.

فمنها: بحر لاروى، وعليه بلاد صَيمُور وسوبارة وتانة وسَنْدان وكنباية، وغيرها من بلاد الهند.

ثم بحر هَرْكند، ثم بحر كلاَّبار، وهو بحر كَلّه والجزائر، ثم بحر كَنْدُرنج، ثم بحر الصَّنْف الذى يضاف إليه العود، ثم بحر الصين وهو بحر صَنْغَى، لا يُحَدُّ ما وراءه.

وفى هذه البحار جزائر لا تحصى، وأمم لا تكتب عدا، وأكثر غذائهم النارجيل، وبين بحر لاروى وهَرْكند جزائر المملكة التى ذكرناها قبل هذا، وأموالها الوَدَع.

وذكر أن ورق النارجيل يطرح على البحر نحو ضفّته فيتراكب عليه حيوان ثم يؤخذ ويُلقى فى الهواء فتحرقه السَّموم ويكون وَدَعا فيملأ فى ذلك بيوت الأموال.

وذكر بطليموس أن مراقى بحر هركند، وهى جزائر هذه المملكة ألف وتسعمائة جزيرة عامرة سوى الغامرة.

وبجزائر هذه المملكة يكون العنبر الجيد، وربما انتهى منها القطعة بقدر البيت، وسنذكر أين يكون العنبر وأصله عند ذكر البحر الأخضر، وفيه ـ إن شاء الله.

وفى جزائر بحر الصنف مملكة المَهَراج، ولا يستطيع أن يطوف بجزائره بأسرع المراكب فى سنين كثيرة.

وفى جزائره أنواع من الطيب والأفاويه، وليس لأحد بالهند من ذلك مالَهُ. وجزيرة الملك المهراج التى هى قراره - مفرطة الكبر متصلة العمارة، كثيرة الخصب، ذكر بعض التجار الذين دخلوها، الموثوق بنقلهم أن الدِّيكة إذا رقَّت بما فى الأشجار، تجاوبت لمائة فرسخ؛ لاتصال عمارتها وانتظام مساكنها، لا مفازة فيها ولا خراب، وأن المسافر يسافر فى أقطار تلك الجزيرة بلا زاد، ويحُل على الطعام وخصب العيش حيث أراد.

ومتصل جزائره بجبال شوامخ فى أعنان السماء تظهر منها بالليل نار حمراء تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق، وربما سمع منها صوت مهول مفظع خارق للعادة ينذر بموت ملكهم وتليها الجزيرة التى يسمع منها على دوام الأيام أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهى، وأنواع الرقص والتصفيق يفهم ويميز بعض ذلك عن بعض.

ويزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة[١].

وفى جزيرة المهراج هذه جزيرة من أربعمائة فرسخ، والله أعلم.

* فأما بحر الصين، فإن من عجائبه أن فيه نوعًا من السراطين، يخرج منها كالذراع والشبر، فإذا بان عن الماء وصار إلى البر عاد حجرًا، وانقلب عن الحيوانية، وهو يدخل فى أكحال العين.

* وليس فى ممالك السند والهند من بعد المسلمين مملكة مثل البَلَّهْرَى، وهم تطول أعمارهم، بخلاف المعلوم من غيرهم، ويقولون بِسُنَّة العدل.

وتليه مملكة الطَّاقَى، ولهم جمال، والتجار يتنافسون فى شراء نسائهم، (ثم يلى هذا الملك مملكة دَهْرَم. وهذه سمةٌ لملكهم).

وهو ذو مملكة عظيمة، وهو يحارب البَلَّهْرَى، ويقال إن عدد الغسالين والصناع بعسكره خمسة عشر ألفًا، وماله الودع.

---

(١) مروج الذهب ١/ ١٥٨.

وفى بلادهم من الذهب والفضة ومعادنها مالا يحصى كثرة.

وفى بلده الحيوان المعروف بالبشان، وهو الكركدن، وقد يكون بالهند، إلا أن الذى هنا أجلد، وقرنه أنقى، والفيل يرهبه، وهو أشد خلق الله عز وجل، وهو دون الفيل فى الخلق، وهم يأكلون لحمه كلحوم الجواميس، فى صورتها صور جميع الحيوان، فأحكم ما يكون سوادًا فى بياض، وربما كان بياضًا فى سواد، وهو قليل تصنع منه المناطق بالألف.

وأكثر ملوك الهند لا يرون حبس الريح فى الجوف، وكذلك حكماؤها[١] لا يستحيون فى إظهارها فى كل أحوالها، ويزعمون أن حبسها أصل الأذى، ويرون أن الجشاء والسعال أقبح منها، ويزعمون أن صوت الضرطة دفعها، والمذهب لريحها، وقد ذكر ذلك فى القصيدة المعروفة بذات الحُلَلِ: [من الرجز]

قَدْ قالَ ذو العلم الفصيح الهندى
مقالة أفصح فيها عندى
لا تَحْبِسِ الضّرْطة إذَا حَضَرَتْ
وَخَلِّها وافتحْ لها ما استَفْتَحَتْ
فإنَّ ذا[٢] الدَّاير فى إِمْسَاكِها
والرّوح والراحة فى فِكَاكِها
والقُبْحُ فى السُّعَالِ والمُخَاطِ
والشُّؤْمُ فى العُطَاسِ لا الضُّراطِ
أمَّا الجُشَاءُ ففُساءٌ صَاعِدُ
ونَتْنُهُ على الفُساءِ زائدُ[٣]

ومن مذاهبهم أن ما ينالهم من النعيم فى المستقبل مُؤَجَّلاً هو بقدر ما تُعَذِّبُ به أنفسهم فى هذه الدار مُعجلاً.

---

(١) للمزيد من ذلك راجع المسعودى ١/ ١٧٩ فى بعض عوائد الهند والصين.
(٢) فى المسعودى (أدوا).
(٣) أبيات الرجز فى المروج ١/ ١٧٩.

قال[١] : ولقد رأيت منهم رجلاً ببلاد صيمور، وبها من المسلمين نحو من عشرة آلاف، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وهو يطوف فى أسواقهم ومعه جماعة من أهله، وقد ظهرت له الناس، وقد وضع على رأسه الجمر والكبريت، فيسير وهامته تحترق، وروائح دماغه تَتَضَوَّع، فلما دنا من النار أخذ خنجرًا، فوضعه على فؤاده، فشقه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده، فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ودفعها إلى بعض إخوانه تهاونًا بالموت، ولذة بالنقلة ثم هوى بنفسه فى النار.

زعموا أن جزيرة الصنف بينها وبين قمار التى يجلب منها العود القمارى مسيرة شهر، وبين قمار ونيومة ـ وهى الجزيرة التى يكون بها العود الهندى ـ خمسة أيام.

وذكروا أن شجرة العود الطيب تكون بقدر شجر الرمان، إلا أن ورقها مثل ورق الريحان، فما كان منها بين الحجارة فهو العود الطيب يكون رطبًا، وسائره يكون أجناسًا عشرة، كل جنس لا يشبه الآخر، فمنه ما يكون ورقه مثل ورق الكمثرى والخوخ، وذلك فى جبل الصنف وتساير فى جبل الصنف هذا، إذا جئت فى البحر بالريح الطيبة نحو خمسة عشر يومًا، وأكثر شجرها عود، ومنه عامة ما يخرج إلى البلاد، واللّك فيه كثير أيضًا.

ومن حيوان هذا الجبل الفيل والكركدن.

ويخرج من هذا ـ بحر الهند ـ خليج يتصل بأرض الحبشة والزنج، يسمى البربرى، طوله خمسمائة ميل، وعرضه خمسمائة ميل، وليس فى البحار أطول من هذا الخليج، وموجه أعمى لا ينكسر، ولا يظهر منه زبد ككسر أمواج سائر البحار، يرتفع موجه ارتفاع الجبال الشواهق، ثم ينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، وفيه يكون السمك المعروف بالأوال، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع، بالذراع العمرى، وهو ذراع أهل ذلك البحر، وربما ظهر منه طرف كالشراع العظيم، وينفخ الصعداء بالماء، فيذهب الماء فى الجو أكثر من علو سهم، ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه، وهو قد فغر فاه فتهوى إلى فيه جريًا.

---

(٤) النقل هنا عن المسعودى.

فإذا بغت هذه السمكة، بعث الله لها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلتصق بأصل ذنبها، فلا يكون لها منها خلاص، فتخترق البحار، وتضرب بنفسها حتى تموت وتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم.

وكذلك التمساح آفته من دويبة فى ساحل بحر النيل[١]، وهو أن التمساح لا دبر له، وما يأكل يتكون فى بطنه دودًا، فإذا أذاه ذلك خرج إلى البر، فاستلقى على قفاه فاغرًا فاه، فينقضُّ إليه طير الماء من أنواع كثيرة، فتأكل ما يظهر فى جوفه، قد اعتادت ذلك منه، وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل، فتثب إلى حلقه، وتلج جوفه، ثم تخرق جوفه وتخرج، وربما قتل نفسه قبل أن تنقر جوفه، وهى دويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عُرْسٍ[٢] ذات قوائم شتى ومخالب.

وبين بحر هركند ولاروى من هذه البحار التى ذكرنا ـ جزائر نحو ألف، وبين كل جزيرة الفرسخ ونحوه، تملكها امرأة، كذلك كانوا على قديم الزمان، وهذه الجزائر تعرف بالديجبات، ولا تحصى جيوشها لكثرتهم.

وآخر هذه الجزائر جزيرة سَرَنْدِيب[٣]، وتتصل بهذه الجزائر جزائر مختلفة لا تحصى جيوشها.

وهذه البحار المذكورة كلها تذيب الحديد، وتمحق مسامير السفن، فلا تزال تندق، وإنما يتخذ أهلها سفنهم من الساج، محيطة بليف النارجيل بدلاً من المسامير.

وبجزيرة سرنديب هيكل عظيم من ذهب يفرطون فى مبلغ زينته وقيمة الجوهر الذى عليه، وإليه تجتمع أهلها فيتدارسون سير آبائهم وقصص ملوكهم، ويقال إن جزيرة سرنديب ثمانون فرسخًا فى مثلها.

---

(١) النصّ عن المسعودى ١/١٠٨.

(٢) ابن عُرْس: دويّبة كالفأرة تفتك بالدَّجاج ونحوها جمع بنات عرس.

(٣) سرنديب: جزيرة الهند فى بحرهم المسمّى هركند، وهى جزيرة كبيرة مشهورة وهى ثمانون فرسخًا فى ثمانين فرسخًا، وبهذه الجزيرة نزل آدم حين أُهْبط من الجنة ويذكر البراهمة أنَّ على هذا الجبل أثر قدم آدم عليه السلام مغموس فى الحجر طوله سبعون ذراعًا. انظر: الروض المعطار ٣١٠ والمسالك والممالك لابن خرداذبة ٦٤ ومختصر البلدان ١٠.

(ح) وبسرنديب جبل منيف ذاهب فى السماء، يراه من فى البحر على مسيرة الأيام، وهو الذى ذكر أنه أهبط عليه آدم عليه السلام - وقد ذكرت البراهمة أن عليه قدم آدم مغموسة فى الجبل خمسين ذراعًا. وعلى هذا الجبل تلألأ نور يشبه البرق أبدًا. وعلى هذا الجبل وحوله أنواع الياقوت الأحمر والأصفر والأكحل، والأحمر أشرفها وأنفسها، وذلك أنه إذا بقى عليه النار، ازداد حمرة وحسنًا، وإن كانت عليه نكتة شديدة الحمرة، ونفخت عليه النار، انبسطت فى الحجر تلك الحمرة فحسنته ولونته.

قالوا: إن مبارد الحديد لا تؤثر فى ألوان الياقوت، وقد زعم أرسطاطاليس أن من تقلد حجرًا أو تختم به من هذه الأصناف الثلاثة التى ذكرنا، من الياقوت، وكان فى بلد قد وقع فيه الطاعون منع منه أن يصيبه ما أصاب أهل البلد.

وقال (ح): إن سرنديب ليس فى مملكة هذه المرأة كما قال (س)، وإنما هى لملك البهل، وهو يشرب الخمر، تحمل إليه من بلاد العرب فيشربها، وليس فى ملوك الهند من يشربها غيره، وأنه يشربها ويحللها لأهل مملكته.

. . . ومماليك هذه المملكة تسمى بران، وهى تدعى البرانية، وهى شديدة المملكة، وإن ملك البهل فى جيشه وعظيم مملكته يعجز عنها، وبلادها وبية، من سكنها من غير أهلها فكان آجالهم تنفق فيها.

ولفِيَلتهم من العِظَم ما ليس فى سائر الممالك.

وملوك الهند يشترون كل ذراع يزيد على خمسة أذرع فى ارتفاع الفيل بألف دينار إلى سبعة أذرع، وبحساب ذلك فيما نقص عن ذراع. ولا يوجد عندهم ما يزيد على سبعة أذرع إلا فِيَلة عند البرانية، إلى عشرة أذرع، وليس فى فيلة ملوك الهند أجرأ على القتال من فيلة الصيلمان - ملك من ملوكهم - وإنما يختبرون جرأتها بأن يوقدوا لها نارًا عظيمة، ثم يحملونها عليها، فما اجترأ عليها منها، فإنه جرئ، وما حام عنها أو جبن عن اقتحامها، فإنه يصلح لنقل المتاع وحمل الأثقال.

ويمتد من البحر خليج آخر ينتهى إلى القلزم، وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام، وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن.

وطوله ألف وأربعمائة ميل، وما ذكرنا من البلاد على شرقيه وعلى غربيه صعيد

مصر وما والاه، وأرض البجاة وما اتصل بها، ثم بلاد الأحابيش والسودان، إلى أن يتصل بأقاصى أرض الزنج، وهناك بلاد سفالة أرضهم.

وقد كان بعض ملك من ملوك اليمن حفر بين القلزم وبين البحر الرومى حفيرًا، ليصل بينهما، فلم يتأت له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم، والله ـ عز وجل ـ قد جعل بينهما حاجزًا، كما قال فى كتابه العزيز(١).

والنهر الذى حفر ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح. على ميل من مدينة القلزم، عليه قنطرة عظيمة يجتازها حاجّ مصر(٢).

فلما لم يتأت له هذا، احتفر خليجًا آخر من بحر الروم مما يلى تَنّيس ودمياط، ويعرف هذا الخليج بالزبر والخبية، فاستمر الماء فى هذا الخليج من بحر الروم إلى موضع يعرف بِنَعْنعَان(٣)، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى هذه القرية، وتدخل من بحر القلزم إلى آخر ذنب التمساح، فيقرب حمل ما فى كل بحر إلى الآخر، ثم ارتدم ذلك على طول الدهر، وآثار الحفر فى هذا الموضع بينة.

وقد هَمَّ الرشيد أن يصل ما بين هذين البحرين من أعلى مصب النيل من نحو بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر، فلم يتأت له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلى بلاد الفرما نحو بلاد تَنّيس، فقال له يحيى بن خالد: إن تم هذا اختطف الروم الناس من المسجد الحرام ومكة، فامتنع من ذلك.

وقد أراد عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ محاولة هذا عند تولّيه أمر مصر، فمنعه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه.

ويتشعب من هذا البحر خليج ثالث، وهو بحر فارس، وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرضه فى الأصل خمسمائة ميل، وينتهى إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة.

وخشبات البصرة سمى الموضع بذلك، لأنها علامات من خشب منصوبة فى

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة النمل، آية ٦١ ﴿أَمَّن جَعَلَ الأرضَ قراراً وجعلَ خِلالَها أنهارًا وجعلَ لها رَوَاسِي وجعلَ بين البحرين حاجزًا أإله مع الله بل أَكْثَرُهم لا يعلمون﴾.

(٢) فى الأصل: حاج نيل مصر.

(٣) فى الأصل: بقيعان.

البحر للمراكب إلى عمان، وهذا أوَّلُ حَدّ فارس، وهذا الخليج مثلث الشكل، تنتهى زاويته بلاد أبلّة، وعليه مما يلى الشرق ساحل فارس، وساحل سيراف، وساحل كرمان، وبلاد مكران، وهى أرض الخوارج، وهذه كلها أرض نخل[١]، ثم ساحل الهند وفيه مصب مهران، وهو نهر السند، ثم يتصل إلى أرض الصين ساحل واحد عامر، ويقابل ما ذكرنا مما يلى الغرب جزائر قطر، وشط بنى جذيمة، وبلاد عمان، وهى تقابل بلاد كرمان، ثم أرض الشحر والأحقاف وحضرموت.

وأهل الشحر ناس من قضاعة، ويدعى من سكن هذه البلاد من العرب المهرة، وهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف[٢].

وعندهم أجود العنبر المدور الأزرق النادر، ولهم نجب يركبونها على الساحل، فإذا أحست بالعنبر بركت عليه، وقد ريضت لذلك واعتادته، وبهذا الساحل يكون الكندر، ومنه يحمل.

وأجود العنبر بجزائر الزنج، وهو شئ يتكون فى قعور البحار فيكون كأنواع الفطر والكمأة، وربما بلغ منها شيئًا الحوت المعروف بالأوال، فيقتله فيطفو، وله ناس يرصدونه من الزنج، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، ويشقون عن بطنه فيخرجون العنبر منها، ويعرف ذلك العنبر العطارون بالعراق وبالهند، وبساحل بحر الأندلس عنبر جيد بموضع يقال له شنترين وشَذُونَة[٣].

وفى هذا الخليج جزائر كثيرة مثل جزيرة خارج، وفيها مغاص اللؤلؤ، وهو المعروف بالخاركى، وجزيرة أوال فيها بنو قعن وخلائق كثيرة من العرب.

وفى هذا البحر الجبال المعروفة بكُسَيْر وعُوَيْر وثالث ليس فيه خَيْر، وهى جبال سود ذاهبة فى الهواء، لا نبات لها ولا حيوان منها، يحيط بها موج من البحر متلاطم تجزع منه النفوس، ولابد للمراكب من الدخول فى وسطها، والاجتياز عليها، فتخطئ وتصيب. وهى فى طريق من قطع من عمان إلى سيراف، وبين

(١) فى الأصل: نجد، وهو تحريف.

(٢) تعرف هذه الظاهرة بالكشكشة.

(٣) فى الأصل: شَنترة وبشأونة.

هذا الخليج وخليج القلزم المذكور من المسافة فى البر ألف وخمسمائة ميل، وهذه المسافة داخلة فى البحر من أكثر جهاتها وهذه البحار كلها واحد: بحر الصين والهند وفارس واليمن، وتختلف فى ارتجاجها وتتضاد، فأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة إلى أن تصير إلى برج الحوت، وبحر الهند بالضد، فهما شبيهان بطبيعة المدتين اللتين يهيجان فى وقتهما، فأما بحر فارس فإنه يركب سائر السنة.

وليس فيما ذكرنا من خلجان هذا البحر أنتن ريحًا ولا أقل خيرًا فى بطنه وظهره من بحر القلزم، وهو على يمين بحر الهند ولا أوحش منه، ولا أكبر جبالاً، والمراكب لا تسير فيه إلا نهارًا، فإذا جن الليل أرست فى مواضع معروفة كالمراحل.

وهو حد بحر الهند والسند الذى فى قعره اللؤلؤ والعنبر، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب والفضة.

ومن معادنه الأبنوس والخيزران والعود، وأشجار الكافور والقرنفل والصندل، وأنواع الطيب.

ومغاص اللؤلؤ من بلاد خارك قطر وعمان وسرنديب وغيرها من هذه البحار خاصة، وغيره من البحار لا لؤلؤ فيه.

والغاصة لا يتناولون شيئًا من اللحمان إلا السمك، ولابد من شق أصول آذانهم لخروج النفس؛ لأنهم يحملون على أنوفهم الذبل، وهو ظهور السلاحف، ويجعلون فى آذانهم قطنًا فيه دهن، يعصرون من ذلك الدهن فى قعر البحر فيضيء ضياءًا نيرًا، ويطلون سوقهم وأيديهم بالسواد خوفًا من بلع دواب البحر لهم، فتنفر من السواد، ويتصايحون صياح الكلاب فى قعر البحر فينفرها أيضًا، وربما خرق الصوت البحر فيسمع.

والغوص إنما يكون من أول نيسان إلى آخر أيلول.

* * *

البحر الأخضر

فأما البحر الرومى، وهو بحر الشام ومصر والأندلس، فإنه خليج بحر أقيانس، طوله خمسة آلاف ميل، وقال السرخسى عن الكندى: ستة آلاف، وعرضه مختلف فيه ثمانمائة ميل وعشرة أميال.

وقيل اثنا عشر ميلاً، وهو ما بين ساحل سبتة وطنجة وساحل الأندلس، وهو الموضع المعروف بالزقاق، وسنذكر فى أخبار مصر إن شاء الله ـ القنطرة التى كانت بين هذين الساحلين، وما ركبه من ماء هذا البحر.

وعلى المدِّ الذى يخرج من هذا الخليج من بحر أقيانس منار النحاس الذى بناه هرقل ـ الملك الجبار ـ عليه الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها: لا طريق ورائى، ولا مسلك فى ذلك البحر، ولا تجرى فيه جارية، ولا حيوان فيه، ولا تدرك له غاية، ولا يحاط بمقداره وهو بحر الظلمات، والأخضر، والمحيط.

وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس اسمه خشخاش، وكان من فتيان قرطبة، فى جماعة من أحداثها، فركبوا مراكب استعدُّوها ودخلوا هذا البحر، وغابوا فترة، ثم أتى بغنائم واسعة وأخبار مشهورة. وإنما يركب من هذا البحر مما يلى المغرب والشمال، فذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية الجزيرة العظمى التى فى أقصى الشمال، وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان، تسمى الخالدات، وفيه بقرب جزيرة برطانية إحدى عشرة جزيرة، وجزيرة تسمى غديرة تقابل الأندلس، قسمت الخليج المعروف بالزقاق، ثم لا يعرف أحد ما بعده.

* * *

بحر الروم

وهذا الخليج هو بحر الروم وطرطوس والمصيصة وأنطاكية واللاذقية، وأطرابلس، وصور، وغير ذلك من سواحل الشام ومصر والإسكندرية.

وفى هذا البحر جزائر كثيرة نحو: جزيرة قبرس، يحيط بها البحر مائتى ميل، وجزيرة إقريطش يحيط بها البحر ثمانمائة ميل، وجزيرة صقلية يحيط بها البحر خمسمائة ميل، وجزيرة سردانية يحيط بها البحر ثلاثمائة ميل، وغيرها.

ومن بحر إفريقية وصقلية يخرج المرجان، وهذا المضيق الذى قدمنا ذكره، وهو الخليج الذى عليه طنجة متصل ببلاد المغرب وإفريقية والسوس وأطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرمادة إلى بلاد الإسكندرية، إلى تنّيس ودمياط وساحل الشام، ثم ساحل الروم إلى بلاد رومة، إلى أن يصل إلى ساحل الأندلس راجعًا إلى الخليج الضيق الذى بدأنا بذكره.

ويخرج من هذا خليج إلى ناحية الشمال قرب رومة، يكون طوله خمسمائة ميل يسمى أدريس، وهو الذى تعرفه الروم بماء ريجينه، ويخرج منه خليج آخر إلى أرض نربونة، يكون طوله مائتى ميل.

* * *

بحر نيطش

وبحر نيطش يمر على بلاد لاذقة[1] إلى القسطنطينية أيضًا، وطوله ألف ومائة ميل، وعرضه ثلاثمائة ميل، وهذا البحر بحر نيطش، وهو بحر أمم من الترك والبرغر والروس وغيرهم، وهو يمتد من الشمال من ناحية المدينة التى تدعى لاذقة ـ ثلاثمائة ميل، وهى من وراء القسطنطينية، ويتصل هذا البحر من بعض جهاته ببحر الخزر المذكور من خلج وأنهار عظام هناك، ولذلك غلط بعض مصنفى

(١) فى الأصل (اللاذقية).

الكتب فزعموا أن بحر نيطش وبحيرة مانيطش وبحر الخزر هو واحد.

وأما بحر مانيطش فمنه ينفجر خليج القسطنطينية الذى يصب إلى بحر الروم، وهو البحر الشامى، وطول هذا الخليج ثلاثمائة وستون ميلاً، وعليه من الجانب الغربى القسطنطينية، وينعطف أيضًا عليه من جهة الشمال، ثم يتصل ببلاد رومة والأندلس وغيرهم.

وعرض هذا الخليج من موضع انبعاثه عشرة أميال، وقيل ستة أميال وعليه هناك مدينة تسمى مسنّاة، ثم يضيق الخليج عندها، ويضيق عند القسطنطينية فيرجع إلى أربعة أميال.

وفى بحر مانيطش يصب النهر العظيم المعروف بطنائس، ومبدؤه من الشمال، وعليه بعض ولد يافث، يكون مقدار جريانه على الأرض ثلاثمائة فرسخ عمائر متصلة، وهو نهر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش والعقاقير، ويشق هذا النهر بحر مانيطش حتى يصب إلى بحر نيطش.

قال (د): إن مانيطش بحيرة فى الشمال، وهو بحر ضخم، وإن كانت تسمى بحيرة، طولها من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل، وعرضها مائة ميل، ويخرج منها عند القسطنطينية خليج يجرى كهيئة النهر، ويصب فى بحر الشام، وعرضه عند القسطنطينية ثلاثة أميال.

البحر الأعظم هو نيطش، والبحيرة هى مانيطش.

***

بحر باب الأبواب

فأما بحر باب الأبواب، وهو بحر الخزر والجبل[1] والدَّيلم وجرجان وطبرستان، وأنواع من الترك فينتهى من إحدى جهاته نحو بلاد الخوارزم من بلاد خراسان، ويعرف أيضًا بالبحر الخراسانى وطوله نحو ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل، وهو مُدوَّر الشكل إلى الطول، وهذا هو بحر الأعاجم، معمور من جميع جهاته.

(١) انظر: المسالك والممالك للإصطخرى ١٢٨.

وهذا البحر كثير التنانير، وكذلك بحر الشام.

وقد اختلف الناس فى التنّين، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلى الجو فتلحق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار وهشيم الأرض والنبات ثم ذهبت فى الجو صعداء، فيتوهم الناس أنها حيات سوداء، لسواد السحاب وذهاب الضوء، وترادف الرياح.

ومنهم من رأى انها دواب تكون فى قعر البحر، فتعظم وترعى دواب البحر فيبعث الله عليها ملائكة وسحبًا فتخرجها منه، وهى على صورة الحية السوداء، لها بريق ولمعان، لا يمر ذنبه بشئ إلا أتى عليه من بناء أو شجر أو جبال، وربما تنفَّس فأحرق الأشجار الكثيرة، فتلقيه السحب فى بلاد يأجوج ومأجوج يروى عن ابن عباس. وقال قوم أنها حيَّة البرِّ تلقيها السيول فى البحر، فتعظم وتطول أعمارها، فيبقى عمر الواحد خمسمائة عام.

والفرس تزعم ان له رؤوسًا سبعة وتسميه الأجدهاق. وهذا من الأخبار التى رواها حشوية أصحاب الحديث[1] أن قبة فى وسط البحر الأخضر على أربعة أركان من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، ينحدر من كل ركن من هذه الأركان نهر ينقسم إلى جهات أربع فى ذلك البحر غير مخالط ولا ممايع حتى ينتهى إلى سواحل البر، أحدها النيل والثانى سيحان والثالث جيحان، والرابع الفرات. ومنها أن الملك الموكَّل بالبحر يضع عقبه فى أقاصى بحر الصين، فيفور البحر ويكون المدُّ، ثم يشيل عقبه فيرجع الماء إلى مركزه.

وإن كان كل ما ذكرنا عنه ممكنًا، فإنه من طريق الأفراد، ولم يجئ مجئ التواتر الموجب للعلم والعمل، فإذا صحَّت هذه الآثار، وجب التسليم والانقياد. وسيأتى ذكر بناء الباب إن شاء الله.

وعلى هذا البحر مما يلى الباب والأبواب[2] الموضع المسمى باغة[3]، وهى

---

(١) انظر فى هذا مروج الذهب ١/ ١٢٤ـ١٢٦ فى حديث المسعودى عن التنّين وآراء الناس فيه، ورأينا أنه حديث خراقة.

(٢) راجع: الروض المعطار ٧٧.

(٣) الروض المعطار ٧٨ـ٧٩.

النَّفَّاطة، من هنا يحمل النفط الأبيض، وهناك آطام وهى عيون النيران - تظهر من الأرض، وترى فى الليل على مسافات، كأطمة صقلية، وأطمة وادى برهوت من بلاد الشحر وحضرموت، وأطمة أشك بين بلاد فارس والأهواز، ترى بالليل من مسيرة أربعين فرسخًا، والأطمة العظيمة التى فى مملكة المهراج - ملك جزائر الزابج - والمهراج سمة لكل مَنْ ملكها، يلحق لهب هذه الأطمة بأعنان السماء؛ لذهابها فى الجو، ويُسْمَع منها كالذى يُسْمَعُ من أصوات الرعد والصواعق، وربما ظهر منها صوت عجيب مفزع، يسمع من البلاد النائية، فينذر بموت بعض ملوكهم، وربما كان أخفض من ذلك، ينذر بموت بعض رؤسائهم، قد عرفوا ذلك بطول التجارب والعادات على قديم الزمان، وإن ذلك غير مختلف من التنبيه.

فهذه البحار الخمسة[1]: البحر الأعظم بحر أقيانس، والبحر الحبشى، والبحر الرومى، والبحر الخزرى، وبحر مانيطش فيها إلا أنه صغير عنها، وليس شئ من هذه البحار يتصل بالبحر الحبشى، وأما سائرها فمتصلة، وهى من بحر واحد، إلا أن بحر الخزر قد اختلف فيه، هل يتصل ببحر أقيانس أَوْ لاَ، والصحيح عندنا أنه لا يتصل بشئ من هذه البحار.

قال: وقد زعموا أن خليج القسطنطينية الآخذ من مانيطش متصل ببحرٍ أيضًا، وذلك لا يصح.

وحدُّ بحر فارس مما يلى المشرق من فوهة دجلة العوراء، وينتهى آخره إلى جزيرة يقال لها تيزمكران، وهى حَدُّ أول السند.

وحدُّ بحر فارس من الغرب من فوهة دجلة العوراء إلى ان ينتهى إلى غب عدن، وفى شرقيه من المدن بلاد فارس ومكران وكرمان، وفى غربيه بلاد العرب، وهى: البحرين وعمان ومسقط وسقطرة، إلى أن يبلغ غب عدن، وهى آخر جزيرة العرب، وهناك الموضع الذى يقال له الدوارع، وهو طريق فى البحر يؤخذ منه إلى بحر جدة، ومما يلى من البحر الفارسى شاطئ الفرات يؤخذ فيه حب اللؤلؤ القطرى الجيد.

وحدُّ بحر الهند مما يلى المشرق جزيرة تيزمكران وآخر بلاد الصين، وحده مما

(١) فى الأصل: الستة.

يلى المغرب غب عدن، وآخره بلاد الزنج.

فإذا قطع الراكب البحر هنا من غبّ مدينة عدن، فإن أول أرض يصل إليها جزيرة يقال لها بربر، وفيها جنس من الزنج يتصلون ببلاد السودان.

وفى تلك الناحية العربية بلاد الزنج والزابج، وأمم كثيرة كلهم يمطرون فى الصيف، ما خلا أعلى بلادهم التى بعدت من البحر كبلاد التّبت وكابل وغيرها.

ولم يحد لنا شمال هذين البحرين، ولا جنوبهما، ولا من سكن تلك الناحيتين، ومن أراد الصين والهند من ركاب بحر الهند، فإنما يميل إلى شرقيه ويدور عليه حتى يصير فى غربيه؛ لأنهم إذا قطعوه موسّطه يبقون فى ظلمات لا تنفرج إلا أقل من ستّ ساعات فى كل يوم.

وأما بحر الشام، وهو البحر الرومى، فإنه لا تجرى فيه جارية، ولا يُسْتَطَاعُ ركوبه منذ تسير الشمس فى أول العقرب إلى ان تصل إلى الحوت، وذلك أربعة أشهر؛ لأن الشمس تتباعد وتحدث فيه الرياح والعواصف والأهوية المهلكة، وبخاصة الناحية الشمالية منه.

* * *

ذكر علة المد والجزر(١)

فأما عِلَّةُ المَدِّ والجزر فمختلف فيها، فقد قيل: علة ذلك القمر على ما بَيَّن أبو معشر.

وقال قوم: هما الأبخرة التى تتولد فى باطن الأرض، فإنها إذا كثفت حينئذ ماء هذا البحر، فلا يزال على ذلك حتى تنقص موداها، فيتراجع الماء حينئذ إلى قعور البحار، فكان الجزر، فهذا يدل عليه كونه فى كل أوان، وفى غيبة القمر وطلوعه.

وقال آخرون: ان هيجان البحر كهيجان بعض الطبائع بالإنسان ثم تسكن.

(١) مروج الذهب ١/ ١١٣.

وقال آخرون: إن الهواءَ المطلَّ على البحر يستحيل دائمًا، فإذا استحالَ عَظُمَ ماء البحر، ثم يعاقب ذلك استحالة ماء البحر، فيتنفس ويعود البحر إلى ما كان عليه، وإن الماء يستحيل هواء والهواء يستحيل ماء.

وقال الشرعيُّون: كل حال لا يعلم له فى الطبيعة مجرى، فهو فعل إلهى لا يدخله قياس ولا يدرك بحس.

قال (س)[1]: وقد زعم قوم من نواتية البحر الفارسىَ أن المدَّ والجزر لا يكون فيه إلا مرتين فى العام، فإذا كان الصيف كان الماء فى مشارق البحر بالصين وما والاه، وفى الشتاء بالضِّدّ.

قال (س)[2]: ورأيت بمدينة كنباية من أرض الهند، وهى مملكة البَلَّهْرَى، وكانت على خليج من البحر أعرض من النيل، فيجزر الماء فى هذا الخليج حتى يبدو الرمل وقعر الخليج، ويبقى فيه اليسير من الماء. فرأيت الكلب على هذا الرمل الذى نضب ماؤه وصار كالصحراء، وقد أقبل المدُّ وأحس به الكلب، فأقبل يشتد ليفوت الماء، فلحق الماء بشدّة دفعت الكلب ففرقته.

وأمَّا علَّةُ ما لا يظهر فيه مَدٌّ ولا جَزْرٌ من البحار، فهى التى تبعد عن مدار القمر ومسافته بعدًا كبيرًا، وقيل إنها التى يكون الغالب على أرضها التخلخل فينفذ الماء منها إلى غيرها من البحار، وتنفس الرياح الكائنة فى أرضها. وسنورد من أخبار هذه البحار مع ذكر اسمها وممالكها ما فيه شفاء إن شاء الله عز وجل - والله أعلم.

* * *

(١) مروج الذهب ١/ ١١٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ١١٧.

ذكر البحر المحيط وعجائبه
وجمل من عجائب سائر البحار المتقدّم ذكرها
سواء ما ذكرناه من ذلك مستخرجًا من كتاب « عجائب البلدان »

زعموا أن فى البحر الأخضر عرش إبليس، تشبَّه بالبارى سبحانه وتقدَّست قدرته، حوله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام وسائر أصناف الجن.

فمنهم من لا يفارقه من حُجَّابه وخُدَّامه، ومنهم من يتصرف بأمره فى فتنة الناس وكيدهم وتضليلهم.

وله جزيرة اتخذها سجنًا لمن خالف أمره من الجنّ، وفى تلك الجزيرة هيكل سليمان بن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفيه جسده، وهو قصير عجيب البناء واسع الفناء.

وفى هذا البحر جزائر لا تزال على مرّ الزمان تقذف نارًا تعلو مائة ذراع وأكثر، وفيه سمك طول السمكة مسيرة الأيام المختلفة، وهى مختلفة الأشكال، مشوَّهَةُ الخلق، وفيه مدائن تطفو على الماء آهلة بغير الإنس.

وفى هذا البحر الأصنام التى عملها أبرهة ذو المنار قائمة على الماء:

أحدها: أصفر يومئ بيده كأنه يخاطب من ركب ذلك البحر يأمره بالرجوع.

والثانى: أخضر رافع يديه باسط لهما كأنه يريد إلى أين تذهب.

والثالث: أسود يومئ بإصبعه إلى البحر: من جاز هذا المكان غرق، مكتوب على صدره بالمُسْنَد[1]: هذا ما صنع أبرهة ذو المنار الحِمْيَرى لسيدته الشمس، تقربا إليها.

ويختلف عمق هذا البحر، فمنه ما لا يلحق له قعر، ولا يُعرف له مقدار غوره، ومنه ما يكون عمقه سبعة آلاف باع أو أكثر.

(١) فى الأصل (بالسند).

* وأما البحر الأسود الزفتى، وهو متّصل به، وهو شديد النّتن، وليس فيه غير قلعة الفضّة، يقال إنها معمولة، وقيل إنها خِلْقة، ومن هذا البحر يخرج بحر الصين، وأوله بحر فارس، وقد تقدّم ذكره، وفيه اثنا عشر ألف جزيرة، وفيه الدّرْدور[1]: موضع يدور فيه الماء، فإذا وقع فيه مركب لم يزل يدور فيه حتى يُتلف.

وفيه كُسَير وعُوَير، وقد تقدم ذكرهما. وفيه عجائب كثيرة من الحيوان، وفيه سمك طول السمكة منها مائتا ذراع وأكثر وأقل.

وفيه جزائر تُنبت الذّهب، وفيه مغاوص اللؤلؤ الجيد.

وفى هذا البحر قصر من البلّور منيف رفيع على قلعة تُنِيرُ برجًا داخلها لا تطفأ، وأراد النزول به الإسكندر، فمنعه بهرام ـ فيلسوف الهند ـ وعرّفه أنه من نزل به وقع بقلبه السبات، وظهر قوم قصار زُعْرٌ لباسهم ورق الشجر، فسأل الإسكندر بهرام عن صبرهم على المقام هناك، قال: عندهم شجرة إذا أكلوا منها زال عنهم ذلك.

وبُعْدُ هذا البحر لا يُدرك قعره، ولايضبط غوره، تقطعه المراكب بالريح الطيبة فى شهرين، وليس فى جميع البحار الخارجة من البحر المحيط أكبر منه ولا أشد حولا.

وفى عرضه بلاد واق واق[2]، وهن جوار تحمل بها شجر مُعلقة بشعورها، ولها ثدى وفروج كفروج النساء، وأبدان حسان، ولا يزلن يصحن واق واق، فإذا قطعت عن الأشجار التى تحملها أقامت يوما وبعض يوم آخر ثم تهلك، وربما نكحهن الناس فى أطيب رائحة، وألذ مباضعة.

---

(١) الدردور: موضع فى بحر فارس مِمَّا يلى شَطّ البحر حيث جبلا كُسَير وعُوَير وهو موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانًا دائمًا من غير فتور ولا سكون فإذا سقط إليه مركب أو غيره فلا يزال يدور حتى يتلف، وهو يضيق على مقربة من جبل كُسَير وعُوَير، تَسْلُكه السفن الصغار ولا تسلكه الكبار. الروض المعطار ٢٣٤.

(٢) الواق واق: أرض الواق واق متَّصلة بأرض سفالة، وفيها مدينتان حقيرتان، وساكنها قليل لضيق عيشها وتكدُّر رزقها، وبينهما قرية كبيرة تُسَمَّى دغرغة، وهم سودان قباح الوجوه، مشوهو الخلق وكلامهم نوع من الصفير، وهم عراة لا يستترون بشىء. الروض المعطار ٦٠٢.

وبلاد الواق واق لا يسكنها بشر، إنما يسقط إليها أهل المراكب فى الندرة، وهى أكثر الأرض طيبا، وبها ثمر وفواكه لا تعرف فى غيرها، لا يعلم ما هى ألذ مأكولا وأطيب مشمومًا.

وتليهم أمَّةٌ بجزيرة على شبيه النساء، سبط الشعور، نواهد الصدور، يقال لهن بنات الماء[1]، لهن قهقهة وضحكة وكلام لا يُفهم.

وقد أولد بعض البحريين منهن واحدة غلاما، وهو مُستوثق بها، ثم ظن بعد ولادتها أنها ستألف ابنها ولا تفارقه، فأرسلها من وثاقها فتغفَّلته وتروَّت فى البحر، وذهبت سابحة، ثم ظهرت له بعد يوم وألقت له صدفا فيه دُرٌّ نفيس، ثم ولت ذاهبة، فكان ذلك الغلام يُعرف بابن البحرِيَّة.

وفى هذا البحر أسماك طيَّارة، تطير ليلا فترتعى فى البرارى، فإذا أزف طلوع الشمس عادت إلى البحر، وفيه سمكة خضراء شهباء، من أكل منها، اعتصم من الطعام أياما كثيرة، وتجزَّأ بها عنه، فلم يَرِدْهُ ولم يجد لفقده مساءة.

وفيه سمكة ربما نبتت على ظهرها الحشيش والصدف، وربما أرسى عليها أصحاب المراكب، فيظنون أنها جزيرة، وإذا رفعت إحدى جناحيها كانت مثل الشراع العظيم، وإذا رفعت رأسها من الماء كان كالجبل الضخم، وإن نفخ الماء من فيه كان كالصومعة الجليلة، وإذا سكن البحر جذب السمك بذنبه ثم فغر فاه فغاصت فيه كأنما غاصت فى بئر، ويقال له القيدور، وأهل المراكب يحذرونه على سفنهم ثم يضربون بالنواقيص طول ليلتهم، وهذه السمكة أيضا تكون فى بحر هركند.

وفى بحر هَرْكَنْد حيات عظام تخرج إلى البر فتبتلع الفيلة، وتكتف الصخور فى البر فتكسر عظامها فى أجوافها، ويُسمع لذلك صوت هائل، وقليل ما تظهر، وربما احتال بعض الملوك لها - أعنى ملوك الهند والزنج - فيصيدونها ويطبخونها ويستخرجون دهنها، فيدهنون به، فتزيد فى قوتهم ونشاطهم وهيبتهم، ويستعملون من جلودها فَرْشًا.

وهى جلود موشاة ملمَّعة ألين من الحرير إذا جلس عليها صاحب السُّلِّ أمن السل أن يصيبه أبدا.

(١) انظر: آثار البلاد ٣٣ وأخبار الزمان ١٦-١٧ والروض المعطار ٦٠٢.

وزعم صاحب كتاب العجائب أن بحر هركند يليه بحر يقال له ذانجد، وبينهما ألف وسبعمائة جزيرة.

قال: وفى هذه الجزائر يكون العنبر الرفيع الدّسم، تكون القطعة منه مثل البيت.

وفى كتاب الطيب الذى ألفه إبراهيم بن الهنيرى، أن أحمد بن حفص العطار قال: كنت جالسا فى مجلس أبى إسحاق وهو يُصفِّى عنبرا قد أذابه وأخرج ما كان فيه من الحشيش الذى حلّقه مناقير الطير، فسألنى فقلت: هذه مناقير الطير الذى تأكل العنبر إذا راثته دوابّهُ.

فضحك أبو إسحاق وقال: هذا قول تقوله العامة، ما خلق الله دابة تروث العنبر، وما العنبر إلا شيء يكون فى قعر البحر.

ولقد عنى الرشيد بالمسألة عن العنبر وأصله، وأمر حماد الزبيرى بالمسألة عنه، فكتب إليه أن جماعة من عدن أعلموه أنه يخرج من عيون فى قعر البحر، تقتلعه الرياح بالأمواج الصعبة فيطفو على الماء، ويقذفه الموج بالساحل، كما أن بأرض هيت عيون تسيل بالقار، وبأرض الروم عين الزفت الرومى.

قال: وآخر هذه الجزائر سرنديب، وقد تقدم ذكر ما فيها.

قال: وهذا البحر ربما أظلته السحاب ثلاثين يوما لا تَصْحَى ولا يسكن وابلها، فلا يظهر فيه حيوان، ويلوذ بقعر البحر.

قال: ويخرج من هذا البحر إلى بحر الصنف الذى فى جزائره مملكة المهراج، وهناك يكون العود النفيس، وهى جزائر لا يُحصى ما فيها من العجائب، ولا يُحاط بها لكثرتها. وفيها يكون جميع أفاويه الطيب.

ويقال إن فى هذا البحر قصر أبيض يسير على الماء، ويتراءى لأهل المراكب فيستبشرون به إذا هم أبصروه، ويكون لهم دليل السلام.

وفى هذا البحر جزيرة قرطايل[١] التى يُسمع فيها فى الليل والنهار المعازف والطبول، ويقال إن فيها الدَّجَّال، وقد مضى ذكرها.

---

(١) برطايل: جزيرة فى بحر الصين الذى فى جزائره مملكة المهراج، قيل إنه يُسمع بها فى الليل والنهار الضرب والطبول، ويقال إن فيها الدَّجال، وفيها أشجار القرنفل. الروض المعطار ٩٠.

وفيها أشجار القرنفل، وتشتريه التجار من قوم لا يرونهم، إنما يضعونه أكواما على الساحل، فتأخذه التجار، وتترك هناك العِوض.

وقيل إن التجار يتركون البضائع على الساحل، ويعودون إلى مراكبهم، فإذا أصبح من غد ذلك اليوم جاءوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوما من القرنفل، فإن رضيته أخذه وترك البضاعة، وإلا أخذ بضاعته وترك القرنفل، وإن أخذهما معا لم تقدر مراكبهم على السير حتى يردوا القرنفل، وربما طلب أحدهم الزيادة فيترك البضاعة والقرنفل، فيزاد فيه.

وشجر القرنفل على نهر هناك يعرف بنهر القرنفل لم يدخل إليه قطُّ أحد، ولم يذكر أنه رأى شجره.

وقد ذكر بعضهم أن الجنّ يبيعونه من التجار، وذكر بعضهم أنه دخل الجزيرة وأمعن فيها، فرأى قوما فى زى النساء مُرْد بغير لحاء، وذوى شعور مرسلة، فغابوا عنه، وأن التجار أقاموا بعد ذلك مُدَّةً يخرجون إلى ساحل البحر فلا يجدون شيئا من القرنفل، فعلموا أن ذلك من أجل من نظر إليهم، ثم عادوا بعد ذلك بسنين إلى ما كانوا عليه.

ويقال إنه إذا كان رطبا، كان حلو المطعم، يأكلون منه فلا يمرضون ولا يهرمون.

وليس لهذا البحر حد يعرف، ورأسه يخرج من الظلمة الشمالية ويمر على بلاد الواق واق.

وفى هذا البحر ـ بحر الصنف ـ جزيرة فيها مساكن ظاهرة وقباب بيض لائحة، كلما هم بالوصول إليها أحد وقرب منها تباعدت عنه فلا يزال كذلك حتى ييئس وينصرف عنها، يقال لها جزيرة الصَّريف[1]، وهم يرون فيها شخوصا وشجرا وعمارة ودواب، ولا يُعلم أحد وصل إليها.

وفيها البَرَّاقة[2]، وهى مدينة لطيفة من حجر أبيض برَّاق، يُسمع بها صياح

---

(١) الروض المعطار ٩١.

(٢) البراقة: مدينة فى جزيرة الصريف فى بحر الصنف، حيث مملكة المهراج، وهى مدينة لطيفة =

وصوصوة، ولا يُرى بها ساكن، ولما نزل بها البحريون فأخذوا من مائها وجدوه حلوا زلالا، فيه روائح الكافور.

وبعرض بحر الصنف هذه الجبال التى تتوقد ليلا ونهارا، يُسمع منها مثل صوت الرعد القاصف والأصوات الهائلة التى تدل على هلاك ملكهم، وقد مضى ذكرها.

وبعد بحر الصنف بحر الصين، وهو بحر خبيث وبارد، ريحه من قعره كغليان الماء على مجامر[1] النار، ويخبر الثقات من ركابه أنه بحر مسكون، له أهل فى باطن الماء، وأنهم يرونهم إذا هاج البحر ليلا كهيئة الزنج، ويطلعون إلى المراكب.

وفى بحر الصين سمكة مثل الحرَّاقة يرمى بها الموج إلى الساحل، فإذا جزر الماء بقيت على الطين، ولا تزال تضطرب حتى تنسلخ فى اضطرابها من إهابها، فيكون لها جناحان تستقل بهما فتطير.

وفى هذا البحر يكون اللخيم - سمكة تلتقم الناس - وربما مات الرجل من ركاب البحر، فيُرْمى به فى البحر، فلا ينحط إلا وهو فى قاع اللخيم، كأنه كان له مرصدا.

وفى هذا البحر يُرى وجه عظيم على صورة الإنسان إلا أنه مفرط الكبر مُستدير يشبه لونه لون القمر يسد ثنية بين جبلين.

وفى البحر الرومى بإزاء مدينة بقمولية - وهى القسطنطينية الأولى - كنيسة فى جوف البحر، ينحسر البحر عنها يوما فى السنة، فيحجُّون إليها ذلك اليوم، ويقيمون عليها ويتقربون ويهدون إليها، فإذا كان العصر أخذ الماء فى الزيادة، وتبادر الناس بالانصراف؛ فلا يزال كذلك حتى يغمرها الماء فلا يظهر منها شىء، وتبقى كذلك إلى رأس السنة.

وذكر بطليموس أن فى البحر الأخضر سبعة وعشرين ألف جزيرة عامرة وغامرة، منها جزيرة فيها أمة من بقايا النسناس، ولهم شجر يقال له اللوف،

= من حجر أبيض برّاق، يُسْمَع فيها صياح وضوضاء، ولا يُرَى بها ساكن، وربما نزل بها البحريون، وأخذوا من مائها فوجدوه زلالاً حلوًا فيه روائح الكافور. الروض المعطار ٩١.

(١) فى الأصل (جماجم) وهو تحريف.

يأكلون ثمره، ويلتحفون بورقه.

ومنها جزيرة المرجان فى ضحضاح ماء بين الملوحة والعذوبة الذى يتجهز اليوم به إلى البلاد فى بحر الأندلس خاصة، وينبت فى قعر البحر القريب منه مثل الشجر، فينزل إليه الغوّاصون ويشدون فيه الحبال ثم يقتلعونه، وهو أنفس وأنفق شىء فى الهند والصين.

ومن جزائر البحر الأخضر جزيرة فى وسطها كالهرم العظيم من حجر أسود براق لا يُدرى ما داخله، وحوله مَوْتى، وعظام كثيرة، ورمم بالية.

وقد كان بعض الملوك سار إليها، فلما نزل إليها وقع على أصحابه النعاس وخدر الأجساد وضعف النفوس، فلم يقتدروا على الحراك، فتبادر ذو الشدة منهم إلى المراكب، وهلك أكثرهم هناك.

* وفى هذا البحر جزيرة فيها أمم رءوسهم كرءوس الكلاب العظام، بادية أنيابهم، يخرج من أفواهم مثل لهب النار، ولما قر بهم ذو القرنين، خرجوا إليه فحاربوه وحاربهم حتى تخلص منهم.

* وفيه جزيرة بيضاء واسعة كثيرة الأشجار والأنهار، فيها قوم شُقر، وجوههم فى صدورهم، للواحد منهم فرجان - فرج امرأة وفرج رجل - يتكلمون بمثل كلام الطير، وطعامهم نبت يشبه الفطر والكمأة.

* وفيها جزيرة التنّين كان بها تنين قد نال أهلها بكل مكروه، فلما دخلها الإسكندر، استغاثوا به، وذكروا له أن التنين أتلف مواشيهم حتى جعلوا له ثورين كل يوم ضريبة ينصبونهما فى موضعه، فيخرج فيبتلع الثورين، ثم يعود إلى مكانه.

قال: أرونى موضعه، فنصبوا له الثورين، وأقبل كأنه السحابة السوداء، وعيناه كالبرق اللامع، والنار تلهب من فيه، فابتلع الثورين وعاد إلى موضعه. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلخا وحشى جلودهما زفتا وكبريتا وكلسا وزرنيخا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليب حديد كثيرة، وجعلها فى ذلك المكان، وخرج التنّين على عادته فالتقمهما وانصرف، فانضربت تلك الأخلاط فى جوفه، فلما أحس بثقلها ذهب ليلقيها، فتشبثت تلك الكلاليب فى حلقه، فخرج وفغر فاه يستروح.

فأمر الإسكندر بقطع الحديد، فَحُميت وحُملت على ألواح من حديد، وقُذفت في حلقه فمات، فكان ذلك فتحا عظيما لأهل تلك الجزيرة. فألطفوا الإسكندر، وحملوا إليه من طرائف ما عندهم، فكان من ذلك دابة فى خلق الأرنب شعره أصفر يبرق كما يبرق الحديد أو الذهب، وفى رأسه قرن واحد يسمونه نفواجًا، وهوام الأرض إذا رأته، والأسد والوحش كلها، والطير هربت منه.

* وبهذا البحر جزيرة تظهر ستة أشهر وتغيب ستة أشهر بمن فيها، وهى جزيرة مدوّرة.

وبه جزيرة ملكان، وهى دابة عظيمة بحرية قد استوطنت تلك الجزيرة وعرفت بها، ولهذه الدابة رءوس كثيرة ووجوه مختلفة.

وقيل إنها مركب لبعض ملوك البحر، لأن لها جناحين إذا أقامتهما وجمعت بينهما، صار كأنه رَقٌّ عظيم منكس يظل من الشمس.

وقد ذكرتها الأوائل، وهى مثل الجبل العظيم الضخم.

* ومنها جزيرة صيدُون، وهى مسيرة شهر فى مثله.

وصيدون هذا ملك. وكانت فيها عجائب كثيرة ومصانع رفيعة وأنهار وأشجار. وكان صيدون ساحرًا، وكانت الجن تطوف به وتعمل له العجائب، وكان له فى وسط الجزيرة مجلس من ذهب على عمد من رفيع الجوهر يشرف على الجزيرة، فدل بعض الجن سليمان عليه فغزاه وخرَّب الجزيرة وقتله، وقتل أكثر أهلها؛ لأنهم كانوا يعبدونه، وأسر منهم خلقا فآمنوا. وأسر ابنه صيدون، ولم يكن على وجه الأرض أجمل منها وجها، ولا أكمل جمالا وظرفا، واصطفاها لنفسه وتزوجها.

فكانت تديم البكاء لمفارقتها أباها وأنس مملكته. فقال لها سليمان: مالى أن أراك كئيبة، وأنا خير لك من أبيك، ومُلكى أجل من مُلكه. قالت: أجل، ولكن إذا ذكرت كونى مع أبى، وأنسى به، هاج لى ذلك حُزنا ووجدا، فلو أمرت الشياطين أن يُصوروا لى صورته؛ لأنى إذا رأيتها سَلَوْتُ عنه.

فأمر الشياطين فعملوا لها صورة أبيها فى مجلس مثل المجلس الذى كان فيه، وكان المتولى لذلك شيطانا يصحب أباها، وهو الذى أشار عليها بذلك.

فكان ذلك المجلس والصورة فى مقاصيرها التى صنع لها سليمان، وقد غرس لها فيه بدائع الأشجار، وفجَّر فيها الأنهار فى فناء ذهب وفضة مُطوَّقة بأصناف الجوهر. فعمدت إلى الصورة فألبستها أصناف الحرير من الثياب المنسوجة بالذهب، وجعلت على رأسه إكليلا من الجوهر النفيس، وألبسته تاجا منظوما بالجوهر الفاخر الملون، وجعلت حوله مساند الديباج المُذهب، ونثرت عليه سحيق المسك، وأوقدت بين يديه دخن العنبر وضروب الطيب. وفرشت بحذائه على بعد منه أصناف الأفاويه والرياحين. فكانت تدخل إليه بكرة وعشية فتسجد له مع جميع وصائفها وخدمها كما كانت تصنع لأبيها.

وكان قد دخل فى هذا الصنم شيطان يخاطبها بلسان أبيها فيقول: قد أحسنت فيما فعلت، وما فقدت بك شيئا.

فاتصل أمرها بآصف بن بَرْخيا، وكان كاتب سليمان ومن أهله، وهو الذى كان عنده علم من الكتاب، وهو الذى أحضر عرش بلقيس، وكان عَلِم موضع المرأة من قلب سليمان وحُبَّه لها، فلم يَدْر كيف يتوصل إلى تعريفه بما أحدثت عنده، إلى أن اتجه له وجه ذلك.

فقال: يا نَبِىَّ الله إنى قد كبرت، ولا آمن الموت، وقد أردت أن أقوم مقاما أذكر فيه الأنبياء وأثنى عليهم، فتأمر بإحضار الناس ووجوه بنى إسرائيل، فيجلسون فى مراتبهم.

فأجابه سليمان إلى ذلك، فقام آصف بن برخيا على المنبر، فخطب فحمد الله وأثنى عليه واستغفره، وأقبل يذكر الأنبياء نبيا نبيا، ويثنى عليهم فى صغرهم وكبرهم ومُدَّة أيامهم، إلى أن بلغ إلى داود، فأثنى عليه واستغفر له، ثم ذكر سليمان فأثنى عليه فى صغره خاصة، ولم يذكره فى كبره، ولا ذكر شيئا من أيامه بخير، ولا بشَرّ. فاستحفظ ذلك سليمان، فاستدعاه حاليا ووقَّفه على ذلك، فقال: ذكرتُ ما علمتُ. فلما ألح عليه قال له: وبم استحققت أن أثنى عليك فى أيامك، وغيرُ الله يُعبدُ فى دارك منذ أربعين يوما، وما هذا جزاء نعمته عليك ولا شكر تمليكه لك.

قال: فارتاع سليمان لذلك وقام فعاقب المرأة، وكسر الصنم، فهرب الشيطان

فظفر به بعد ذلك وسجنه.

وفتن لذلك سليمان، وأخذت الجن خاتَمه وخرج من ملكه، وكان يطوف فى بنى إسرائيل فينكرونه. فردَّ الله عزَّ وجلَّ مُلْكه وخاتمه، وذلك بعد أربعين يوما، وهى عدة الأيام التى سجدت المرأة فيها للصنم، ثم إن المرأة تابت وصَحَّ إسلامها، وكان ولد سليمان عليه السلام منها، وذكر المؤرخون أن اسمها جرادة.

* ومنها جزيرة الزود، وهم خلق ذوو أجنحة وشعور وخراطيم يمشون على رجل واحدة كما يمشى الناس، وعلى أربع كالبهائم، ويطيرون فى الهواء مع الطير.

* ومنها جزيرة القابس، وهى دابة عظيمة مُلَمْلَمَة مثل الكرة، تصيح صياحا شديدا، ولا يُدرى من أين يخرج صياحها، ولا يُعرف ما هو، ولا ما غذاؤه.

* ومنها جزيرة مَرَّ بها قوم وقد هاج البحر وعظم، فنظروا فإذا شيخ أبيض الرأس واللحية، وعليه ثيابٌ خضر، مستلق على الماء وهو يقول: سبحان من دبَّر الأمور، وعلم ما فى ضمائر الصدور، وألجم بقدرته البُحُور، وستروا بين الشمال والشرق حتى تنتهوا إلى جبل الطروق وأوسطه، فاسْلُكوا تنجوا بحول الله وتَسْلَموا.

فركبوا السَّمْتَ الذى حَدَّ لهم حتى انتهوا إلى جزيرة يقال لها: سَنْدَروسة[١]، فيها أمة طوال الوجوه، ومعهم قضبان الذهب المخلوقة، يعتمدون عليها ويحاربون بها، على رءوسهم الذهب، وثيابهم منسوجة بالذهب، وطعاهم الموز والفطر. فأقاموا عندهم شهرا، وأخذوا من قضبان الذهب التى عندهم ما استطاعوا حمله، ثم ساروا على السمت فخلصوا.

وكان الذى أرشدهم الخضر ـ عليه السلام ـ وتلك الجزيرة مكان قراره، وهى وسط البحر الأعظم.

* وهناك جزيرة الفيروج[٢]، بها صنم بزجاج أخضر، يجرى من عينيه دمع لا يزال يسير على مر الأيام، وزعموا أنه باك على قومه الذين كانوا يعبدونه، فغزاهم

(١) الروض المعطار ٣٢٧.

(٢) الروض المعطار ٤٤٤.

بعض الملوك، واستباحهم وقتلهم، وأراد كسر الصنم، فكانوا إذا ضربوه بشىء، لم يؤثر فيه، وعاد الضرب على ضاربه، فتركوه، وإذا دخلت الريح فى أذنيه صفَّر تصفيرا عجيبا.

* وفى البحر الأخضر جزيرة تُرى على بُعْد، فإذا قرب منها القاصد، غابت عنه، وإذا رجع الموضع الذى رآها منه ونظر إليها، رآها بادية بيِّنة.

وقيل إن فيها شجرة تطلع بطلوع الشمس، فلا تزال تطلع إلى نصف النهار ثم تعود إلى الانحطاط حتى تغيب الشمس.

ويقول البحريون: إن فى ذلك البحر سمكة صغيرة يقال لها: النشاكل، إذا حملها الإنسان معه أبصر تلك الجزيرة ودخلها، وهذا شىء عجيب طريف.

* وفيه جزيرة طاوران، وطاوران اسم ملكهم، وله أربعة آلاف امرأة، ومن لم يكن منهم مثل ذلك، فليس بملك. ويتفاخرون بكثرة الأموال والأولاد، وعندهم أشجار إذا أكلوا منها، قووا على الباءة قوة عجيبة.

* وفى مملكة هذا الملك الجزيرة السيارة، والبحريون مجتمعون على تثبيتها، ومنهم من يزعم أنه رآها مرارا كثيرة، لا يشكُّون فيها.

وهى جزيرة فيها جبال وشجرة وعمارة، فإذا هبت الريح من المغرب، صارت إلى المشرق، وإذا هبت الريح من المشرق صارت إلى المغرب، هذا دأبها.

ويذكرون أن حجارتها هفَّافة خفيفة جدا، تكون زِنَة الحجر الضخم الذى يُقدر مثله بقنطار، عشرة أرطال وأقل، ويحمل الإنسان القطعة الكبيرة من جبالها على عاتقه.

* وفى تخوم بحر الصين جزيرة النساء[1]، لا يسكنها إلا النساء، وهن يلقحن من الريح، ويلدن النساء. وقيل إنهن يلقحن من شجر عندهن يأكلن منه.

ويذكر أن الذهب عندهن عروق مثل الخيزران، وأنه وقع إليهن رجل، فهممن بقتله، فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة، فأدارته الأمواج حتى أتته به بعض بلاد الصين، فوصل إلى ملك الصين، وعرَّفه حال الجزيرة، فجهز إليها بعض

(١) انظر: آثار البلاد ٣٣ والروض المعطار ٣٧٠.

المراكب، فأقاموا معه يطوفون فى البحر ثلاثة أعوام يطلبونها، فلم يقعوا لها على أثر.

وفى خبر ذى القرنين أنه وقع إلى جزيرة بيضاء ممرَّعة خصبة، ذات أنهار وأشجار، وفيها أمة على خلق الناس فى الانتصاب، رءوسهم رءوس السباع، فلما دنا أهل المراكب منهم غابوا عنهم. وفى وسط الجزيرة نهر شديد البياض، عليه شجرة عظيمة، فيها من كل ثمرة طيبة المطعم، ورقها كالحلل المنتشرة حسنا ولينا، والشجرة تطلع بطلوع الشمس، فتتباهى بطلوعها إلى وقت الزوال، ثم لا تزال تنقص حتى تغيب بمغيب الشمس، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وورقها أطيب ريحا من المسك. فحمل من ثمرها وورقها إلى الإسكندر، فضرب حاملو ذلك، ووقعت عليهم آثار السياط، ولا يرون من يضربهم، وصيح بهم: ردوا ما أخذتم من هذه الشجرة، ولا تقرضوها فتهلكوا، فأمروا ذلك وركبوا مركبهم ذاهبين.

ودخل الإسكندر جزيرة العبادة، فوجدها قفارا لا تنبت شيئا غير الحشيش، وفيها غدران ماء، ووجدوا قوما قد نهكتهم العبادة، وصاروا كالحمم سودا، فوقف بهم فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال، ما عيشتكم فى فلاتكم هذه؟ قالوا: ما يأتينا من رزق ربنا من أسماك البحر، وأصول النبت، وشرب ماء الغدران. قال: أفلا أنقلكم إلى موضع أخصب من هذا؟ فقالوا: وما نصنع به؟ إن عندنا فى جزيرتنا هذه ما نغنى عن جميع العالم. وانطلقوا إلى بلاد تتلألأ بأنواع الجواهر واليواقيت فوق ما تتوهمه النفوس، ويجرى على الأفكار، وأخرجوه من ذلك إلى أرض عريضة وبساتين عجيبة، فيها من أصناف الثمار والفواكه ما لا يوجد مثله فى بلد من البلدان، وقالوا له: أتصل أنت إلى مثل هذا؟ قال: لا والله. قالوا: هذا بين أيدينا، وفى تمليك الله عز وجل لنا، ما نلتفت إلى شىء منه، وإنا لنؤثر الحشيش على هذه الفواكه. فذهب من كان مع الإسكندر ليأخذ من ذلك الجوهر، فمنعهم وودع أهل الجزيرة وانصرف إلى مراكبه ممتلئا عجبا فيهم.

* * *

ذكر الأخبار عن انتقال البحار

ذكر صاحب المنطق أن موضع البر قد يكون بحرا، وموضع البحر قد يكون برا. قال: وليس مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة، ولا اليابسة أبدا يابسة. قال: وللمواضع شباب وهرم وحياة كما فى الحيوان[١].

قال (س): وقد كان البحر فيما سلف فى الموضع المعروف بالنجف، وهو بالحيرة. وكانت ترسى هناك سفن الهند والصين، تردُ على ملوك الحيرة. فصار بين الحيرة وبين البحر الآن مسيرة أيام كثيرة، ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا[٢].

ولما أقبل خالد بن الوليد، فى سلطان أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بعد فتح اليمامة وقتل كذَّابها يريد الحيرة، تحصَّن منه أهلها فى الحصن الأبيض، وفيه كان إياس بن قبيصة، وقصر القادسية، وقصر بنى نفيلة، وقصر بنى مازن. قال: وهذه قصور الحيرة.

قال: وهى فى وقتنا هذا سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، خراب وبين هذه القصور وقصر القادسية ثلاثة أميال.

وسمِّيت القادسية؛ لأن الأعاجم جعلوا قساء من قادس خراسان، وقادس يومئذ أسفل منها اليوم، مما يلى عين الشمال.

وذكر الحكماء أن رستم لما أراد العبور، أمر بسكر العتيق بجبال قادس، فباتوا ليلتهم يسكرونه بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقا، فاستتم بعد ما ارتفع النهار من الغد. وذلك عند عبوره للقاء سعد بن أبى وقاص.

فنزل خالد بالنجف، وبعث إليهم أن ابعثوا رجلا من عقلائكم. فبعثوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الغسانى.

---

(١) مروج الذهب ١/ ٩٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ١٠٢.

وبُقَيْلَة: هو الذى بنى القصر الأبيض، ودُعى بُقيلة؛ لأنه خرج يوما وعليه ثياب خضر، فقال قومه: ما هذا إلا بقيلة.

وعبد المسيح هو الذى أتى سطيحا يسأله عن رؤيا الموبذان، وارتجاج الإيوان، وما كان من ملك بنى ساسان، فأتى عبد المسيح خالدًا ـ وله يومئذ ثلاثمائة وخمسون سنة ـ وأحب أن يُريه من نفسه ما يعرف به عقله.

قال له خالد: من أين أقْصى أثرك؟

قال: من صُلب أبى.

قال: فمن أين جئت؟

قال: من بطن أمى.

قال: فعلى ما أين ويحك؟

قال: على الأرض.

قال: أتعقل؟

قال: أى والله، وأقيد.

قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل واحد.

قال: اللهم اخزهم من أهل بلدة، فما يزيدوننا إلا غما، أسأله عن شىء، فيجيبنى عن غيره.

قال: لا والله ما أجبتك إلا عن سؤالك، فسل عما بدا لك.

قال: أعرب أنتم أم نبط؟

قال: نبط استعربنا، وعرب استنبطنا.

قال: فحرب أم سلم؟

قال: بل سلم.

قال فما هذه الحصون؟

قال: بنيناها للسفيه نمنعه، حتى يأتى الحكيم فينهاه.

قال: كم من سنة أتت عليك؟

قال: خمسون وثلاثمائة.

قال: فما أدركت؟

قال: أدركت سُفن البحر ترقى إلينا من هذه النجف بمتاع الهند والصين، وأمواج البحر تضرب ما تحتك، ورأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مكتلها، فتضعه على رأسها، لا تتزود إلا رغيفا، فلا تزال فى قرى عامرة، وعمائر متصلة، وأشجار مثمرة، ومياه عذبة غَدِقة حتى تَرِد الشام، وتراها اليوم قد أصبحت فيافًا، كذلك دأب الله فى البلاد والعباد.

قال: فوجم خالد لما سمعه، وعرف من هو، وكان مشهورا فى العرب بصحة العقل وطول العمر.

قال: ومعه سُم ساعة يقلبه فى يديه.

فقال له خالد: ما هذا معك؟

قال: سمّ ساعة، فإن يك عندك ما يُسرُّ به ويوافق أهل بلدى، قبلته، وحمدت الله عليه، وإن يكن الأخرى، لم أكن أول من ساق إلى بلده ذلا، فآكل السم وأستريح.

فقال له خالد: هاتِه، وأخذه ووضعه فى راحتيه، ثم قال: بسم الله وبالله بسم الله رب الأرض وربِّ السماء، وهو السميع العليم، ثم استرطه، فلحقته غشية، ثم سرى عنه وأفاق كأنما نشط من عقال. فانصرف العبادى إلى قومه، والعِبَاديون[1] هم النسطورِية، من النصارى، فأخبرهم بما رأى وقال: يا قوم صالحوه، فإن القوم مصنوع لهم، وأمْرُهم مُقبل، وأمر بنى ساسان مدبر، وسيكون لهذه الأمة شأن، ثم تحدث بها هنات وهنات، فصالحوه وقال عبد المسيح: [من الوافر]

أَبَعْدَ المُنْذرين أرَى سَوَامًا تُرَوَّح بالخَوَرْنَقِ والسَّديرِ

(١) المشارقة من النصارى أضيفوا إلى نسطورس لأنهم اتبعوه، وقالوا بقوله، وكانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تُدعى بالعباد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الإضافة إلى نسطورس، ويكرهون أن يقال لهم النسطورية. مروج الذهب ١/ ٣٣٧.

فَصِرْنا بَعْدَ هَلْكِ أبى قُبَيْسٍ كَمِثْلِ الشَّاةِ فى اليوم المَطِيرِ
تَقَسَّمْنَا القبائلَ من مَعَد عَلانيــةً كأَيْسَـار الجَـزُورِ
كـذلك الدَّهْرُ دَوْلَتُه سِجَــالٌ فيومٌ من مساةٍ أو سُرورِ

ونحو هذا ما حدث فى الجانب الآخر الشرقى ببغداد، من المواضع المعروفة برقة الشمَّاسية، وما نقل إليها من الجانب الغربى من الضياع التى كانت بين قُطْرَبَّل ومدينة السلام، فإن ذلك عدد من ضياع قطربّل.

وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقى ممن يملك رقة الشماسية بحضرة الوزير على بن عيسى[1]، وما أجاب فى ذلك.

قال: وذكر جماعة أن السنة التى بعث فيها رسول الله ﷺ إلى كسرى، وذلك سنة سبع، زاد الفرات والدجلة زيادة لم يُر مثلها، واتسعت بثوق عظيمة، حملت السُّكور والمسنيات وطلب الماء الوِهاد، وجهد أبرويز أن يرد مسنياتها، ويقيم شاذَرْوَاناتِها، فغلبه الماء، وطَما على العمارات، فغرق الكور والسطوح، وشُغلت الأعاجم بحرب العرب.

فلما ولى معاوية، ولَّى عبد الله بن دَرَّاج مولاه خراج العراق، فغلب الماء المسنيّات والسكور، واستخرج له من الأرض ما بلغت غلته خمسة عشر ألف ألف.

واستخرج الحجَّاج أيام الوليد من البطيحة نحو خمسين فرسخا فى مثلها.

* * *

---

(١) هو على بن عيسى بن داود الجرّاح، استوزره المقتدر، ثم خلع عليه سنه إحدى وثلاثمائة، وقبض عليه سنة أربع وثلاثمائة.

ذكر الأنهار والعيون

اختلف الناس فى الأنهار، فقالوا: إنها فى الأرض كالعروق فى البدن.

وقال آخرون: حق الماء أن يكون على سطح، فلما اختلفت الأرض، فكان منها العالى والهابط، انحاز الماء إلى أعماق الأرض، فلما انحصرت المياه فى الأعماق، طلبت التنفس لضغط الأرض من أسفل، فتنبثق حينئذ عيونا وأنهارا.

* **فأما النيل**[١]، فإن مبعثه من تحت جبل القمر، وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتى عشرة عينا، فيجتمع فى بحيرتين كالبطائح.

قال: وهاتان البحيرتان هنا فى البلاد المحترقة الجنوبية التى لا يكون فيها نبات ولا حيوان، ثم يتشعب من كل بطيحة ثلاثة أنهار تجتمع مع جميعها إلى بطيحة فى الإقليم الأول، فيخرج من هذه البطيحة نيل مصر، ثم ينبعث بين جبال ورمل، ثم يخترق أرض السودان مما يلى بلاد الزنج، ويطيف بأرض النوبة، فيتشعب منه خليج يصب إلى بحر الزنج، وهو بحر جزيرة قَنْبَلو ـ وسنذكرها إن شاء الله. فيخرق البحر أكثر من ميل عذبا حلوا، يتكدر إبّان زيادة النيل، وفيه السُّوسْمار، وهو التمساح الكائن فى نيل مصر، ويُسمى الوَرَل أيضًا.

وذُكر أن النيل يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ، ويقال ألف، بين عامر وغامر.

وقال غيره: إن مسافة جريانه من لدن منبعه إلى مُصَبِّه فى البحر خمسة آلاف وتسعمائة وثلاثون ميلا.

ويقال إنه يجرى فى الخراب غير العمران مسيرة أربعة أشهر، فى بلاد المسلمين مسيرة شهر، وفى بلاد السودان مسيرة شهرين.

قال الجاحظ: وكل نهر فى الأرض مخالف للنيل، وهو مستقبل الشمال، قال الشاعر: [من الرجز]

---

(١) انظر: صورة الأرض لابن حوقل ١٣٨ـ١٤١ ومختصر البلدان ٥٩ـ٦٤.

مصر ومصر شأنها عجيب

وماؤها يجرى به الجنـوب[1]

وبالنيل السمك الرعّاد، من صاد منها سمكة، لم تزل يده ترعد، مادام فى شبكته أو شصّه.

* وجبل آمد يراه أهله، من انتضى سيفه ثم أولجه فيه، وقبض على قائمه بجميع يديه، اضطرب السيف فى يديه، وارتعد هو، ولو كان أشد الناس بأسًا، وإذا أحدً بحجارة ذلك الجبل سكين أو سيف، وحمل عليه الحديد، لم يؤثر فيه، ويجذب الإبر والمسال أشد جذب من جبال المغناطيس، ولا يبطل الثوم عمله كما يبطل المغناطيس، بل تبقى تلك القوة فى ذلك الحديد على مر الأيام، وحجر الجبل نفسه لا يجذب الحديد، فإن أحد عليه سيف أو سكين، جذب الحديد، وهذه عدة أعاجيب.

* وإلى بلاد أسوان من صعيد مصر، تصعد المراكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار، يجرى النيل فى وسطها، وهذا الموقع فارزٌ بين سفن الحبشة فى النيل، وسفن المسلمين فيقطع النيل الصعيد، ثم يمر بالفسطاط، ثم بأرض الفيوم، ثم يمر هابطًا، فينقسم خلجانًا إلى أرض تنِّيس دمياط والإسكندرية، كل يصب إلى البحر الرومى، وقد أحدث بحيرات فى هذا الموضع.

(د): إذا انتهى إلى دمياط، يصب فى بحيرة كبيرة فيها جزائر، منها تنّيس[2]. فماء تنّيس وجزائر تلك البحيرة، عذب إذا هبَّت الجنوب، وهم عند ذلك يطرقون بها إلى مصانع صنعوها لذلك، فإذا هبَّت الشمال مَلُحَ ماء البحيرة.

وقد كان النيل إذ بنى الإسكندر هذه المدينة يتصل بأسواقها، ويمر فى سككها،

(١) الرجز بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٢) وبأرض مصر بحيرة يفيض فيها ماء النيل، تتصل ببحر الروم، تعرف ببحيرة تنّيس (المنزلة الآن)، إذا امتد النيل فى الصيف عَذُب ماؤها، وإذا نقص فى الشتاء إلى أوان الحرّ، غلب ماء البحر عليها، فملح ماؤها، وفيها مدن مثل الجزائر، تطيف البحيرة بها، فلا طريق إليها إلا فى السفن. انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤١ وصورة الأرض ١٤٦.

وقد بلطت مجاريها بالمرمر، ثم صار الآن النيل منهم على نحو يوم، وصار شربهم من الآبار، وهذا مما قدمناه.

قال (د): والنيل يتشعَّب دون الفسطاط شعبتين، فتصير شعبة إلى الرشيد بقرب الإسكندرية، وتصير شعبة أخرى إلى دمياط.

فأما خليج النيل الذى يتشعَّب إلى بحر الزنج، (فهو فارز بين بلاد الزنج وبين أقاصى بلاد) أصناف الأحابيش، ولولا هذا الخليج ومفاوز ورمال تليه، لم يكن للحبشة مقام فى بلادها مع الزنج لكثرة الزنج وبطشها.

* **وأما نهر بلخ** الذى يسمى جَيْحُون ـ وهو جيحان ـ وقد جعلها اثنين، وهو صحيح.

قال: وجيحان منبعه من بلاد الروم، ويجتاز بين المصيصة وكفر بيا، ويصب فى بحر الشام، ولم يزد على هذا.

وقد ذكر (س) نحو هذا فى جيحون، ووافقه أحمد على ذلك، فقال: هما نهران، وذكره عند الجيهانى، قال: منبعث نهر جيحون من بلاد التبت، يقبل من الشرق مع الصبا، فيمر ببلاد وخان، ويسمى هناك وخاب، ثم يصير إلى أعلى حدود بلخ مما يلى المشرق، ثم ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب إلى أن يصير إلى الترمذ، ثم يقبل منها إلى زم، ثم إلى خوارزم، فيمر بمدينتها، فإذا جاوزها، تشعبت منه أنهار وخلجان ذات اليمين وذات الشمال، فصارت منه بطائح وآجام ومروج، أسفل من مدينة خوارزم بنحو أربعة فراسخ، ثم يمر مستقبل الشمال بين الجرجانية ـ أسفل من المدينة بأربعة وعشرين فرسخًا ـ وبين دور المزداخكان من الشاطئ الشرقى، وبه يدعى السمك هو وابك. فإذا انحدر من هذه المواضع تشعب ذات اليسار إلى ورغدة، وهى المسماة بساكرة، وهى أسفل من الجرجانية بأربعة فراسخ، فتصير منه هناك بطائح تسمى الخلجان، وهو الموضع الذى يصاد فيه السمك المجلوب من خوارزم إلى النواحى، ويجرى بقية النهر إلى البحيرة المذكورة.

قال الجيهانى: ودور هذه البحيرة نحو مائة فرسخ، ومسافتها نحو أربعين يومًا فى مثلها.

(ج): وماؤها ملح، وليس لها مغيض ظاهر، ويقع فيها نهر جيحون، ونهر الشاس، وأنهار غيرهما كثيرة، فلا يعذب ماؤها، ولا يزيد فيها، ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون بينها وبين بحر الخزر خرق يتصل بمائها، وبين البحرين نحو عشرين مرحلة على السمت.

وأضيق أعبار جيحون على رباط بلخ عرضه نحو ميلين هذا كله من التنبيه.

فأما نهر بلخ الذى يسمى جَيْحُون(١) ـ وهو نهر المصيصة ـ فإنه يجرى من أعين، فيمر ببلاد الترمذ واسفرائين من بلاد خراسان، حتى يأتى بلاد خوارزم، فيفترق فى مواضع هناك، ويمضى باقيه فيصب فى بحيرة الجرجانية أسفل خوارزم.

وليس فى العمران بحيرة أعظم منها؛ لأن طولها مسيرة شهر فى نحو ذلك من العرض، ودورها أربعمائة فرسخ، وإليها يصب نهر فرغانة والشاش، وعليها مدينة للترك، يقال لها الجديدة، فيها المسلمون. والسفن تجرى فى هذه البحيرة.

* وقد زعم قوم من أهل الخبرة أن مبتدأ نهر جيحون يستمر خارجًا إلى بلخ، ثم يصب فى البحر، وهو يصب فى ساحل المصيصة من البحر الرومى، ومقدار جريه على الأرض مائة وخمسون فرسخًا، وقيل أربعمائة.

وقد زعم قوم أنه يصب فى مهران السند، (وذكر الجاحظ أن مهران السند) من نيل مصر، واستدل بوجود التمساح فيه. ذكر ذلك فى كتاب الأمصار.

ونهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة فى أعلى بلاد السند من أرض فتح من مملكة بوروة.

* **الفرات**: مبتدؤه من بلاد قَالَى قَلاَ من ثغور أرمينية من جبل هناك يُدعى أفردخش على نحو يوم من قَالَى قلا، ثم يجرى فى بلاد الرُّوم، إلى أن يأتى ملطية، وإذا توسّط بلاد الروم تجلّبت إليه مياه كثيرة وأنهار، ثم ينتهى إلى جسر مَنْبج، ثم إلى بالس، ويمرُّ بصِفّين فى موقع حرب أهل العراق وأهل الشَّام، وينتهى إلى الرقّة والرَّحْبة وهيت الأنبار. وتأخذُ منه هناك أنهار، مثل نهر عيسى

(١) الروض المعطار ١١٥ وآثار البلاد ٥٢٥.

الذى ينتهى إلى مدينة السَّلام، فيصبُّ فى دجلة وغيرها. ثم يأخذ الفرات إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والجامعين والنرس والطفوف، إلى البحيرة التى بين البصرة وواسط.

(د): وهو يقبل من الشمال فيكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو خمسمائة فرسخ، وقيل ستمائة فرسخ. وقد كان الفرات ينتهى إلى بلاد الحيرة ونهرها بين إلى هذا الوقت، فيعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم، وهى وقعة القادسية، فيصب فى البحر الحبشى، وكان البحر يومئذ فى الموضع المعروف بالنجف، وقد تقدم ذكر هذا.

ويقع فى الفرات فى أرض الجزيرة نهر الخابور بموضع يسمى قرقيسيا. وبالبطائح تجتمع هذه المياه، وهى ثلاثون فرسخًا فى ثلاثين، حد منها جزيرة العرب وحد أرض ميسان، وحد دجلة بغداد وحد مصب الفرات والنهروان.

وهذه البطائح هى مزارعهم وأشجارهم، وقد أخرجت من هذه البطائح أنهار، منها: نهر مرة، وهذا النهر منسوب إلى مرة بن أبى عثمان مولى عبد الله بن أبى بكر، وهو عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، كتبت عائشة بالوصاة به إلى زياد، فأقطعه ذلك النهر، وفيض البصرة يقع فى نهر الأبلّة، حتى يخرج إلى دجلة العوراء، ثم يقع فى بحر الهند، وفيض البصرة هو نهرها الذى البصرة عليه.

* **وأما الدجلة** فإنها تخرج من الإقليم الخامس من بلاد آمد من ديار بكر، موضع يُعْرَف بحصن ذى القرنين، وتصبُّ إليه أنهار سَرْيَط وساتيدما، الخارجة من بلاد أَرزن ومَيَّافارقين، وتمر بالموصل، ويصب فيها نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية، والتقاؤه بدجلة من بلاد قَرْدَى، وقال: تلك من بلاد الموصل، وهذه الديار ديار بنى حمدان وفيها يقول الشاعر: [من الطويل]

بِقَرْدَى وبازَبْدَى مصيفٌ ومَرْبَع ... وعَذْبٌ يحـاكى السَّلسبيل بَرُود
وبَغْدَادُ ما بغدادُ ، أمَّا تُرَابُها ... فَجَمْرٌ وأمَّـا حَرُّهـا فَشَدِيدُ[1]

وليس هذا نهر الخابور الذى يجرى من مدينة رأس العين ويصب فى الفرات.

---

(١) مروج الذهب ١/ ١٠٤.

ثم تمر دجلة فيصب فيها أسفل من الموصل نهر الزَّاب بين الموصل وجرد والحديثة على فراسخ من الحديثة من الجانب الشرقى، فهذا الزاب الأكبر والأصغر الواردان من بلاد أرمينية وآذَرْبيجان، ثم تنتهى إلى تكريت وسامرا وبغداد، فيصب فيها نهر عيسى وغيره التى ذكرنا أنها تتشعب من الفرات. ثم تخرج دجلة من بغداد فتصب فيها أنهار كثيرة مثل النهر المعروف بنهر بين ونهر رُوان، مما يلى جرجرايا والسّيب ونيل النعمانية، وإذا خرجت الدجلة عن مدينة واسط، تفرقت أنهار آخذة إلى بطيحة البصرة مثل سردود وسايس والمصب الذى ينتهى إلى القَطْر، وفيه تجرى أكثر سفن البصرة من بغداد وواسط، ومقدار جريان دجلة ثلاثمائة فرسخ، وقيل أربعمائة.

وقال أحمد بن عمر: أما دجلة التى تُدعى اليوم بالعوراء، فإنها كانت قبل الإسلام تستقيم من عند المذار، وهى اليوم منقطعة فتمر ما بين المذار وعَبْدَسَى من كور دَسْت مَيْسان حتى تخرج عند الخيزُرَانة فوق فم الصلح، بحضرة واسط، فتمر حتى تأتى المدائن، فكانت سفن البحر تجرى من بلاد الهند فتدخل فى دجلة البصرة حتى تأتى المدائن، فتمر حتى تخرج فوق فم الصلح، فتصير إلى دجلة بغداد، فتأتى المدائن. ثم إنها خرقت الأرض حتى مرَّت بين يدى واسط حتى صبت ماءها فى هذه البطائح، والبطائح يومئذ أرض تُزرع متصلة بأرض العرب، ومن قبائلها يَشْكُر وباهلة، وبنو عبس، متصلة بناحية مَيْسَان وأرضها، فغلب الماء على ما كان من تلك الأرضين منخفضًا، فتلك المواضع معروفة بالبطائح تسمى سرطغان وطستخان، قد يُرى أثرها فى الأرض - أعنى أرض البطائح - تحت الماء عند ركود الماء وصفائه، فيُعلم أنها كانت أرضين.

وصارت البطائح الأولى وما والاها صحارى ومفاوز، ويصيب المارة فيها فى الصيف سموم شديدة. فلم يبق اليوم من دجلة العوراء إلا من المذار إلى بحر الهند، وذلك مقدار ثلاثين فرسخا. وهى دجلة البصرة وإليها ينتهى مَدُّ البحر وجزره.

وكان كسرى أبرويز قد سكر دجلة عند الخيزرانة، وإنه أراد أن يعيد الماء إلى دجلة العوراء وأنفق عليها مالاً عظيما، فأعياه ذلك وجرت فى موضعها الذى هى

اليوم فيه بين يدى واسط.

ورام بعد ذلك خالد بن عبد الله أن يسكرها، وأنفق الأموال فى ذلك، فصفت دجلة ذلك البنيان وخرقته، وآثار ذلك البناء تُرَى إذا قلّ الماء فى دجلة من آجرّ وصاروج، وربما عطبت فيه السفن المارة.

* **وأما سيحان**، فهو فى الثغر الشامى، وهو نهر أذنة، ومخرجه من نحو ثلاثة أميال من مدينة ملطية، ويجرى فى بلاد الروم، وليس عليه للمسلمين إلا مدينة أذنة، بين طَرْسوس والمصيصة، ويصب فى البحر الرومى من الثغر الشامى.

* * *

ومن أنهار الأرض المشهورة

* **نهر كَنْك**: ببلاد الهند، ونهر مِهْران وهو نهر السند، ويخرج من جبال شقنان، ويقال إنه يخرج من جبل يخرج منه بعض أنهار جَيْحُون، وتمدُّه أنهار كثيرة، وعيون غزيرة، فيقطع أرض الهند والسند، ويظهر على نوافره بناحية الملتان، ثم يمر على المنصورة، حتى يقع فى البحر، شرقى الدّيبل.

وهو نهر كبير عذب يقال إن فيه تماسيح كتماسيح النيل، وهو مثله فى الكبر وجريُه بالأمطار الصيفية، وينتشر على وجه الأرض، ثم ينضب فيزرع عليه حسب ما يزرع بأرض مصر.

* **نهر الرَّس**: وهو نهر أرمينية، يمر برستاق بناحية الفرس وشرقيه، ثم يمر بديبل وبأَرّان، فيقع فيه من جبال أرمينية وجبال أرّان أنهار، ثم يمر بورَثْان إلى مرويح، فإذا جاوزها انصب فى بحر طبرستان.

* **النهروان**: وإن منبعثه من جبال أرمينية، ويمر بباب صلوى، ويسمى هناك ثامَرًّا، ويستمد من القراطيل، فإذا صار بباب كسرى، يسمى النهروان، وينصب فى دجلة أسفل جبُّل.

* **نهر الخابور**: منبعثه من رأس العين من أعلى أرض الجزيرة، ويمتد من الهرباس، وهو نهر ينصب فى الفرات بموضع يسمى قرقيسيا.

* **نهر بَرَدى**: نهر دمشق: فينبعث من جبالها، فيجتازها فيسقيها ويسقى غوطة دمشق، وينصب فى بحيرة دمشق.

* **نهر قَوَيق**: نهر حلب، ينبعث من قرية تُدعى سُنياب، على سبعة أميال من دابق، ثم يمر إلى حلب ثمانية عشر ميلا، ثم يفيض فى الأجمة.

* * *

(ومن الأنهار المنصبة فى جيحون)

* **وَخْشَاب**: وهو أعظمها، يُقبل من أعلى بلاد الترك، فيصير إلى بلاد فامر، ثم إلى بلاد الراست، ثم إلى بلاد الكميذ، ثم يمر بين الجبلين، فيما بين حدود الواسجرد ورستاق من أرض الخُتَّل، فيستقبل جريه بلاد الخُتَّل ذات يمينه، وبلاد الواسجرد ذات يساره، ثم يجرى حتى إذا صار فى أرض الخُتَّل، صب فى جيحون بموضع يعرف بميلة فوق مدينة الترمذ.

* **ونهر وخّاب**: يكشف بلاد الخُتَّل من الشق الآخر، وهو الذى يخرج من بلاد التبّت، وهو أصل جيحون على ما قدّمناه، وفى أعلى هذا النهر موضع يخرج منه الذهب قطع صغار مثل رءوس الإبر.

* * *

ذكر بعض الأنهار الخارجة من صحراء المغرب

من جبل درن، وهذا الجبل معترض فى الصحراء، وهو فاصل بين الصحراء والساحل، ومنه يتفجر كل نهر هناك، وهم يختلفون فى تسمية هذا الجبل، فأهل فاس وسِجِلْمَاسة يسمونه درن، والمصامدة ونول يُسَمُّونه يشكوا، وهوارة تسميه أوراس، فما ينفجر منه نهر نفيس، ووادى أغمات، ونهر موقوا، وهو يقع فى وادى وانسقين، وهو يجرى إلى بلاد برغواطة.

ومنها وادى وارزين، وهو يقع فى وانسقين، ومنها وادى أقديم، وهو وادى

سلا، ويخرج من هذا الجبل فى القبلة إلى الصحراء نهر درعة، وهو نهر عظيم، ينصب فى بحر نول فى البحر المحيط، ومن هذا الجبل ينبعث وادى غريس، وهو نهر سجلماسة الذى يعرف بوادى زيز، وينصب فى هذا الوادى عدة أودية تنبعث كلها من ذلك الجبل، واجتماعها كلها فى موضع يقال له فاكنسا، وهذا الوادى يقع فى البحر وراء درعة بعد مسافة بعيدة.

* * *

ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس

نهر قرطبة، ويعرف بنهر بيطى، مخرجه من ناحية ريمية، وبين منبعثه إلى موقعه فى البحر بغربى إشبيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال. ويقع فيه سنجيل، وهو ينبعث من الثلج فى فحص ألبيرة. وتقع فيه عيون لوشة، وتقع فيه عين وادى سوس ومخرجه من جبال باعة، ويقع فيه الوادى الأحمر، ومخرجه من جبال النشكة. وبأقل جَدْول من هذا النهر يستحيل ماء نهر قرطبة وتعلوه حمرة وكدرة. وينصب فيه بلون وأنهار كثيرة: نهر ترميد: ومخرجه بقرب من مخرج نهر قرطبة من ناحية كَشْكَه، وجريه إلى الشرق وانصبابه فى البحر الشامى، ونهر تضغطه الجبال بموضع يعرف بِرْقوط، على ثمانية عشر ميلا من مرسيه، ولولا هذا الجبل لغرق السيل مرسية.

ونهر آنة، ومنبعثه بين شمال الأندلس وشرقها فيما بين الجبل المسمى البويرة، وبين مدينة روقول. وهى فوق مدينة ريمية. ومصبه فى البحر المحيط بأشكونية، ومسافة طوله ثلاثمائة وعشرون ميلا، ونهر آنة هذا يغيض بين لابردة وبطليوس، فيجرى متواريا حتى يبدو بموضع يُعرف بفجّ العروس من فحص الفجّ. ثم يغيض فيخرج بقرية من قرى قلعة رباح، يقال لها آنة لكثرة صنوبره.

ومصبّه فى البحر المحيط بين مدينة قلموية ومدينة برتقال. ومسافة جريه تسعمائة ميل وثمانون ميلا، وتقع فيه نحو عشرة أنهار.

ونهر أبره، يخرج من عين يقال لها: قونت أبير، وهى فوق أرض القلاع، ومجراه من الجوف إلى القبلة، ومصبه فى البحر الشامى بناحية طرطوشة، ومسافة

جريه مائتا ميل وأربعة أميال، وهو مخصوص بالحوت المعروف بالطرنجة، وهو حوت عظيم، وليس له إلا شوكة واحدة.

وتقع فيه عدة أنهار.

نهر جِلَق: وهو يقع فى نهر أبرة، ومخرجه من جبال الشّيرطابنين.

* * *

ومن أنهار بلاد الإفرنجة وجليقة المشهورة

* نهر مينية، مخرجه من جبال ألتبه، ويشق بلاد جلّيقية من شرق إلى غرب، ويقع فى البحر المحيط بناحية حائط جليقية، وعدد أمياله ثلاثمائة ميل وثلاثة أميال.

* نهر رووية ـ وهو بلدغاليش، ومخرجه من فحص بلدغاليش.

ونهر آخر يعرف بقرنيش، وهو الذى تدعوه الصقالبة وادى رين. وعليه حضورهم عند خروجهم من بلدهم، وعليه مدينة الإفرنج العظمى التى تُدعى مغنج.

وعلى هذا النهر جسر ممدود من مراكب، قد ختم بعضها إلى بعض، وسُمرت بمسامير الخشب، وعقد بعضها إلى بعض، والأرحال منصوبة عليها، فإذا كثر ماء النهر ارتفعت بارتفاعه، وانخفضت بانخفاضه، وهى تطحن مستسرّ، وجزء منه يصب فى البحر المتوسط وجزء فى البحر المحيط، ومسافة جريه مائتان وخمسون.

ومن الأنهار العظام نهر بدوينة ـ والله أعلم بغيبه وأحكم.

* * *

ابتداء الممالك

مملكة الهند

وهى عند جميع ملوك الكفار بإجماع منهم مملكة الحكْمة. والحكمة من الهند بدؤها. وزعموا أنهم أول من ضمَّ المملكة ونصب لها ملكًا.

فأولهم: البَرْهَمن الأكبر، وهو الذى أظهر المملكة والحكمة وابتدعها، وصنع السيوف وآلات الحرب، وشيَّد الهياكل، ورصَّعها بالجواهر، وصوَّر الأفلاك والبروج والكواكب، وجعل ذلك كتابة قريبة إلى العقول، وأثبته فى الأفهام، وأشار إلى المبدأ الأول المُعطِى لسائر الموجودات وجودها، وذلك الكتاب كتاب السند هند، أى دهر الدهور، ومنه تفرعت الكتب: كتاب المَجِسْطى، والأرجَبْهَد، وغيرهما.

وكان اعتقاد البرهمن أن الخالق نور لا كالأنوار التى نراها بالأعين لأنه نور عليم سميع بصير.

وتزعم الروم وغيرها أنهم إنما يعبدون أسماء لا يعرفون معناها، وهو أول من تكلم فى أوج الشمس، وأنه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة، وأنه إذا انتقل الأوج إلى البروج الجنوبية، انتقلت العمارة، فصار العامر غامرًا، والغامر عامرًا.

وقد زعموا أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يُفنى العالم، وينشأ عالم آخر، وذلك مُدَّة قطع الكواكب الثابتة أوج الشمس. وإذا أنشأ الله عالمًا آخر، ألهمهم إلى المنافع والمضار، وما يعمرون به الأرض.

وهذا مذكور فى كتاب السند هند.

* وقد كان البرهمن جمع سبعة من حكمائهم، فقالوا: تعالوا ننظر من العالم، ما سِره؟ ومن أين أقبلنا، وإلى أين نمرّ؟ وهل إخراجنا من عدم إلى وجود حكمة؟ أم ضد ذلك؟ وهل خالقنا ومخترعنا يجتلب منفعة أم هل يدفع بفنائنا مَضَرَّة؟ وما وجه إبلائه إيانا وإفنائه لنا بعد إيجادنا؟

فقال الحكيم الأول: أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على

حقيقة الإدراك فظفر بالبغية، واستراح بالثقة؟

وقال الحكيم الثانى: لو تناهت حكمة الخالق فى حد العقول، لكان ذلك نقصا فى حكمته، وكان الغرض من غير مدرك، والتقصير مانعا من الإدراك.

وقال الحكيم الثالث: الواجب أن نبتدأ بمعرفة أنفسنا التى هى أقرب الأشياء إلينا قبل أن نتفرغ إلى علم ما بَعُد عنا.

وقال الحكيم الرابع: لقد ساء موقع من وقع موقعا احتاج فيه إلى معرفة نفسه.

وقال الحكيم الخامس: من هاهنا وجب الاتصال بالعلماء المُمدّين بالحكمة.

وقال الحكيم السادس: يجب على المرء المحب لنفسه أن لا يغفل عن ذلك، لاسيما إذا كان المقام فى هذه الدار ممتنعا.

وقال الحكيم السابع: ما أدرى ما تقولون، غير أنى خرجت إلى الدنيا مضطرا وعشت فيها حائرا، وأخرج منها كارها.

واختلف الهند ممن خلف وسلف فى آراء هؤلاء السبعة وأقوالهم وتنازعوا فى مذاهبهم، فافترقوا على سبعين فرقة. منهم من يثبت الخالق والرسل - عليهم الصلاة من الله والسلام - ومنهم النّافى للرسل. ومنهم النّافى لكل ذلك[1].

وقد زعموا أن البرهمن هو آدم، والأكثر منهم على أنه ملك الهند.

والهند تزعم أن آدم سابع سبعة من الآدميين، وأن كل آدمى منهم كان مدة ولده ونسله سبع آلاف سنة.

ولا يجعلون للدهر ابتداء ولا انتهاء. ويقول: إن الله أول لا ابتداء له، ودائم لا نفاد له ولا غاية، يخلق عالما بعد عالم، وجيلا بعد جيل، وينشئ أمة بعد أمة، فكما لا تعقل أوليته ولا غايته، فكذلك لا يحيط عباده بمعرفة حكمته ولطف قدرته.

والهند تزعم أنهم يدركون بالرُّقى والوهم ما أرادوا به، وأنهم يحلُّون ويعتقدون بزعمهم[2].

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٧٠ ونزهة المشتاق ١/ ٩٦و٩٨.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٧٠.

وكان مُلك البرهمن ثلاثمائة سنة وستين سنة، وولده يُعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، والهند تعظمهم، وهم على مر السنين لا يغتذون بشيء من الحيوان، ولا يشربون الخمر ولا الأنبذة، وفى رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر متقلدين بها كحمائل السيوف فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

* **ثم ملك بعده الباهيود ابنه،** فسلك مسلك أبيه. وفى أيامه عُملت النَّرد مثالا للمكاسب، وإنها لا تزال بالكيس. وملك مائة سنة، وقد قيل إن أردشير وضع النرد وجعلها اثنى عشر شكلا عدد الشهور، والكلاب ثلاثين عدد أيام الشهر، والفُصَّيْن مثالا للقدَر وتقلبه.

* **ثم ملك دينام ـ وقيل اسمه دبشلم ـ** وهو واضع كتاب كليلة ودمنة، وكان ملكه مائة وعشرين سنة.

* **ثم ملك بَلْهيت،** وصُنعت فى أيامه الشطرنج، بيّن فيه الظَّفَر الذى يناله الحازم، والنكبة التى تلحق الجاهل.

وللهند فى الشطرنج سر يسرُّونه فى تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، ويجعلونه متصلا بالأجسام السمائية. ولم تزل كل طائفة تستعمل عليها فنون المُلَح والنوادر المضحكة المُدهشة.

ويزعمون أن ذلك مما يبعث على لعبها، وانصباب الموادّ، وصحيح الأفكار وهو بمنزلة الارتجاز للمقاتل، والحد للمُغَنى، وقال بعض الشعراء: [سريع]

نوادر الشطرنج فى وقتنا ... أحرُّ من ملتهب الجمر
كم من ضعيف اللَّعْب كانت له ... عونا على مُسْتحسن القمرِ[(١)]

وذكر بعض أهل النظر من الإسلاميين أن واضع الشطرنج كان عَدْليا مستطيعا فيما يفعل، وأن واضع النرد كان مُجْبرا.

فبيّن باللعب بها أنه لا استطاعة له، بل تصرّفه فى أمره على حسب ما يوجبه القدر. ولذلك قال الشاعر الكاتب المعروف بكشاجم: [بسيط]

لا خيرَ فى النرد، لا يغنى ممارسها ... فضلُ الذكاء إذا ما كان محروما

---

(١) البيتان بلا نسبة فى محاضرات الأدباء ٢/ ٧٢٧.

تزيلُ أفعـــال فَصَّيْهـا بحكمهما ضِدَّين فى الأمر ميمـونًا ومشؤوما
فمـــا تكـــادُ ترى أخا أَدَبٍ يفوته القَمْرُ إلا كـــان مظلوما

وقال أبو نواس: [طويل]

ومأمـــورة بالأمر تأتى بغيـره ولم تَتَّبع فى ذاك غيًا ولا رُشـدا
إذا قُلْتُ لم تفعل وليست مطيعة وأفعل ما قالت فصرتُ لها عَبْـدا

وقال اليعفيلى: لم تَلْتهِ الملوك والسادة وأهل المروَّة والشرف بشىء أحسن من الشطرنج، وإنها حكمة وأدب وتدبير ونظر، ولم تضعها الحكماء لتكون لعبا ولا لهوا ولا هزلا. وإنما وضعتها للبيان، يتبين بها صحة النظر فى ابتداء الأمور وعواقبها. ولا يكون إقدام المقدم إلا بعد رؤية، ولا تأخير المتأخر إلا بعد هزم.

وقد لعب بها التابعون ورخص فيها. وحدثنا سليمان بن داود عن ابن معاوية الضَّرير عن الزبير بن عدى قال: رأيت الشعبى يلعب بالشطرنج وإلى جانبه قطيفة، فإذا مر جماعة أدخل رأسه فيها، وكان يجيز شهادة اللاعب بها ما لم يكن قمارا، ولم يؤخر بسببها صلاة.

وكان الرشيد حبس موسى بن جعفر بن محمد فى دار السندى بن شاهك، فربما خرج عليهم من الموضع الذى هو فيه فيراهم يلعبون بها فيقومون عنها، فيقول لهم، ارجعوا فإنه أحسن ما تشاغل به الناس ما لم يكن فيه قمار.

وملك بلهيت ثمانين سنة، ثم ملك كورث، وهو الذى عُمل له الكتاب الأعظم فى الأدواء والعِلل وعلاجها، وشكلت الحشائش وصُوِّرت.

وبعد ملكه تخربت أحزاب الهند، وتفرقت آراؤها ومملكتها:

فتملك أرض السند ملك، وأرض القَنَوج ملك ـ وهو بروزة سمة لهم ولا بحر لهم ـ وأرض القَشْمير ملك، والمانكير ملك ـ وهى الحوزة الكبرى ـ فسُمى البَلَّهرى[1]، فصارت سمة لمن طرأ من الملوك فى هذه الحوزة إلى وقتنا هذا.

(١) تفسير بلَّهرا: ملك الملوك، وهذا الاسم يتوارثه الملوك المستأخذة عن الملوك الماضية، وكذلك سائر الملوك بالهند إذا صار الملك لملك منهم تسمَّى باسم الملك الذى كان قبله، وأسماؤهم متوارثة بينهم لا ينتقلون عنها،وقد صار ذلك بينهم سيرة ينتهجونها. نزهة المشتاق ١/ ١٨٣ـ١٨٤.

وبلاد البلَّهرى يقال لها الكمكم، ومنها يجلب الساج وبها يكون. . . وهى مملكة واسعة، وقد ذكرنا أن من حوله من الملوك يصلون إليه.

وينضاف إلى مملكة الهند مُلك الزَّابج، وهى ملكة المَهْراج ـ ملك الجزائر، وهذه المملكة فرق ما بين الهند والصين.

ومعنى المَهْراج عندهم: ملك الملوك[١].

قال: وليس له مملكة غير الجزائر، وليس فى ملوك الهند أكثر خيرا منه، ولا أقوى دخلا، ويقال إن دخل قمار الدّيوك[٢] خاصة يبلغ كل يوم فى مملكته خمسين منّاً من ذهب، ويكون بطوران من جزائره كافور ومعدنه جزيرة رامنا.

* ومن كبار ملوكهم ملك قمار والبرانية ملكة الجزائر. وملك قمار قليل المملكة، تكون فى مملكته مسيرة أربعة أشهر، ويركب له خمسون ألفا، إلا أنه أحسن الملوك مكافأة، يكافئ على الجزء بمائة جزء، وهو أشبههم سيرة بالمسلمين.

ومنهم ملك يقال له الفارطى[٣]، وملك يقال له الصَّيلمان[٤]، وينتهى جنده إلى سبعين ألفا، إلا أن فِيَلَته قليلة، وهى أجزأ فيلة الهند.

ومنهم ملك يقال له نجابة، وهو شريف فيهم، وهم السَّلوقيون، ولايتزوجون إلا فيهم لشرفهم.

والكلاب السَّلوقية[٥] إنما وقعت من بلادهم، فأما الصندل الأحمر، إنما يكون فى بلاد نجابة.

ويليه ملك يقال له الجُرْز[٦]، العدل فى مملكته مستفيض، ولو أن رجلا نشر ذهبا ولؤلؤاً يمينا وشمالا فى سبل مملكته وطرقات جهاته، لما رزأ أحد منهم شيئا.

والعرب تدخل إلى بلاده بالتجارات كثيرا، فإن سألوه عند انصرافهم خفراً، قال

---

(١) البلدان ٧٢.

(٢) الأعلاق النفيسة ١٣٨ .

(٣) فى الأعلاق النفيسة ١٣٣ العارطى بالعين المهملة.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٤ .

(٥) الأعلاق النفيسة ١٣٥ .

(٦) الأعلاق النفيسة ١٣٥ .

لهم: إن حدث بأموالكم حادث، فارجعوا بذلك علىَّ، فأنا الضامن، له ثقة بأمن بلاده، وانتشار العدل فى رعيته. وهو شجاع وذو مكيدة فى الحرب، وإن لم يقاوم جيشه، حبس كبراءهم.

وملك يقال له دَهْرَم.

قال الجَيْهانى: إنى سمعت من أثق به يقول: ربما خرج فى معسكره بثلاثمائة ألف فصاعدا. ومن بلاده يُجلب العود الهندى، وليس من شجر بلاده، إنما هو يقع هناك من بلاد ملك يقال له القامَرُوب، وليس لأحد عود هندى إلا لملك القامروب، وهو ملك قليل الجيش، ومملكته تصل ببلاد الصين، وهؤلاء الملوك كلهم مُخَرَّمو الآذان.

قال (ح): وأهل مملكته يُسمونه ملك الحولا، وله فى مملكته مدينة يقال لها هذكيرة، سوقها نحو من فرسخ، وبلاده تشرع على بحر الأغياب.

وهو بحر خبيث ـ ومن مدائن مملكته: مياسر وسمندر وهركر.

ويُعمل بمياسر حصر من الخيزُران، لا يشاركهم فيها أحد. والذى يجلب إلى بلادهم الشنك، وهو أنفق شىء فى بلادهم، والودع وهو النون الذى يُتَّخَذ منه الأبواق، فإنهم يتخذون منه الحُلى لنسائهم، ويخترقونهم بدلا من الذهب والفضة، وهم يتبايعون بالودع ويسمونه الكنج.

وهو أعز عندهم من الذهب، وربما اشتريت جارية بالودع وأخرى بالذهب، فتفخر التى اشتريت بالودع وتقول: أنا اشتريت بالكنج.

وملك يقال له الطرسول، وهم بيضُ الألوان، يلبسون القُمُص السمولية، ولهم شعور يُدلونها، وهم بلد واسع المملكة.

ويليه ملك يقال له المُوجَه، والمسك عندهم كثير، ومدينتهم حصينة جدا.

وملك يقال له المابُد، وبلاده متصلة ببلاد الصين، ويقال إن هؤلاء الثلاثة: الطرسول والمُوجَه والمابُد، يقاتلون ملوك الصين. فأول بلادهم على البحر متصلة ببلاد الصين مسيرة سنتين، وملوكهم يلبسون الحلىّ والجواهر الفاخرة والأسورة والقلائد والوشائح مثل النساء.

قال: وبين البَلَّهَرى ونجابة ملك يقال له الطاقى ـ هذه عبارة سمته ـ وهو ضيِّق المملكة، كثير المال، عامر البلاد، وأهل مملكته لهم بياض وجمال ليس يشركهم فى ذلك غيرهم.

وملك سرنديب والصوليان ـ غير الصيلان التى تقدم ذكرها ـ يسكن ملكها مدينة بيحور، يحيط بها سوران، وله أربعة أبواب: باب من جهة الجنوب يقال له باب البلادج، والبلادج عندهم الصِّهريج الذى يجتمع فيه الماء من المطر، وباب يعرف بباب هوسته، وهذا الباب الذى يخرج منه النصارى بصلبانهم فى معايشهم.

والثالث يقال له: باب العشور، وهو الذى يعشر فيه أمتعة التجار.

وفيها أديان شتى من المسلمين واليهودية والنصارى والمجوسية والثنوية وأقربهم من الملك رئيس الثنوية، فإنه بنى له بجانب قصره دارا وأنزله فيها، وسيوفهم وحرابهم وجميع ما يصنعون من حديدهم لا يقاربه شىء فى المضاء والحِدَّة.

أخبرنى العُذرى قال: حدّثنى ابن الحسن البخارى التاجر أنه قدم على ملك سرنديب، وهو صاحب مطية، وأدخل عليه مع أصحاب المطايا.

قال: ورأينا فى يده ياقوتتين حمراوين تتَّقدان كالجمرتين، زنة كل واحدة منهما خمسون مثقالا، وهو يلعب بهما من يد إلى يد.

وأخبرنا الملك أنه مما يتوارثه ملوك ذلك البلد فى قديم الدهر، وأنه لا يوجد مثلهما فى جميع بلاد الدنيا. ورأينا فى عنقه سلك جوهر فيه ثلاثون حبَّة مثل بيض الحجل، زنة كل حبة منها عشرة مثاقيل كأنها قد خرطت خرطا مع تصدع بياضها وجودة فريدها، إلا أن فى بعضها حبتين متصلتين غير منفصلتين.

قال: وأمر الملك فوزنت بين يديه ونحن شهود.

والهند مُتَّصلون بخراسان مما يلى الجبال، والسند متصلة بأرض التُّبت، والهند فى سياستهم وعقولهم[1] بخلاف سائر السودان من الزنج والأحابيش وغيرهم.

وقد ذكر جالينوس: فى الأسود عشر خصال لا توجد فى غيره: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغِلَظ الشفتين، وتحديد الأسنان، ونَتْن

(١) فى البلدان ٤٣٦ «أهل الهند أهل غفلة وشجاعة ولين».

الجلد، وسواد الخلق، وتشقق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرَب ـ وكثرة طربه لفساد دماغه وضعف عقله، ولحمو موضعه ومنشئه جذبت الرطوبات إلى أعلاه وأهدلت شفتيه، وقصرت أنفه وعظمت، وأشالت رأسه، فخالف بذلك مزاج دماغه عن الاعتدال، فلم تقدر النفس على إظهار فعلها فيه كاملا، وقد كان طاوس لا يأكل ذبيح الزنج ويقول، هو مشوهً الخلق.

وكان أبو العباس الراضى بالله ابن المقتدر لا يتناول شيئا من يد الأسود.

* والهند لا تُملِّك الملك حتى يبلغ أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا فى برهة من الدهر معروفة؛ لأن فى نظر العوام إليها دائما عندها خرقا لهيبتها واستخفافا لحقها، ورئاستهم وسياستهم صحيحة. وهم يمنعون من شرب المسكر، ويعيبون شاربه، وإذا صح عندهم ذلك من ملك من ملوكهم استحق عندهم الخلع.

قال الجيهانى: ولا يشربه من ملوكهم إلا ملك البهل[١]، وهو صاحب جزيرة سرنديب، فإنه يحمل إليه من بلاد العرب، وأشدهم فيه ملك قمار[٢]، فإنه يعاقب فى السكر والزنا بالقتل، والزنا عند سائر ملوكهم مباح إلا فى المحصنين، وملك قمار أشدهم غَيرة.

قال الكندى: قال أبو عبد الله، وقد رأيت تجار الهند لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره، ويعافون الخل لذلك فيحمِّضون ماء الأرز ويستعملونه[٣].

والملك مقصور فى أهل البيت، وكذلك القضاء والوزراء وسائر المراتب لا تُغَيَّر ولا تُبَدَّل.

ومن اعتقاد الهند وأحكامهم قالوا: إن أصل كتب الهند وسنَّتهم من قمار[٤]، وحكمهم أن من ذبح بقرة ذُبح بها[٥]، وعبَّاد قمار لا يقربون المسلمين، ويقولون

---

(١) فى الأصل «المهل» وانظر: الأعلاق النفيسة ١٣٢.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٨٣ والبلدان ٧١.

(٣) الأعلاق النفيسة ١٣٢-١٣٣.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٣.

(٥) نزهة المشتاق ١/ ٨٣ والأعلاق النفيسة ١٣٩.

لهم: إنكم أنجاس لأنكم تأكلون لحوم البقر.

وذكر بعض من لابسهم من المسلمين أنه سمع رجلا من كبار عبّادهم يقول: كشامرشون، قال: ففهمتُه عنه، ومعناه بالهندية: يا من ليس كمثله شيء. قال: فعجبت من ذلك، قلت له: أتعرف ما تقول؟ قال: واعجباه وتعرفون أنتم ما تقولون؟ قلت له: فلم تعبدون الأصنام من دونه؟ قال: هذه قبلتنا يا جاهل.

ومن عقوبة ملك قمار على شرب الخمر، أن تُحمى مائة حلقة من حديد بالنار، ثم توضع على بدن الرجل، فربما أتلفت نفسه. ومن رأوه من المسلمين يشرب فهو عندهم خسيس لا يعتنون به، ويقولون: هذا رجل ليس له قدر فى بلاده.

وأصل العُباد فى بلد قمار، ويقولون إن فيها مائة ألف عابد، وهم أصحاب تسبيح، ومعهم سبح لا تفارقهم.

ولملك قمار ثمانون قاضيا، ولو ورد عليهم ولد الملك لأنصفوا فيه وأقعدوه مقعد الخصم، ووجهوا عليه صريح الحكم[1].

وأهل قمار ليس عندهم صنم، وإنما يتقربون إلى شىء يسمونه اللنج من حجارة، يكون فى ارتفاع قامة الإنسان فى صورة إحليل الرجل، وظهر لهم بجبل قمار فى شجر عود الطيب، وهو جبل عريض طويل على صورة هذا اللنج الذى من حجارة، فعمل عليه سقف من ذهب وعبدوه أيضا، ولفراش ملك قمار أربعة آلاف امرأة.

ومن عجيب حكم المهراج فى بلاد قَنْصور، وهم قوم يتحالفون بالنار إذا خاصم الرجل لصاحبه فى دَيْن أو زنى بمحصنة أو سرقة، يأمر السلطان فتؤخذ قطعة حديد قدر رطل أو أكثر فيحمسونه بالنار، ثم يعمدون إلى ورق هناك يشبه ورق الغار فى الغلظ والمتانة، وتوضع منها سبع ورقات فى كفه، ثم تؤخذ تلك الحديدة بالكُلاّب فتوضع على تلك الأوراق، فيمر بها ذاهبا وراجعا مقدار ما يخطر الماشى مائة خطوة، فإن احترقت يده والورق جميعا، ألزم الذنب، فإن كان عليه القتل قُتل، وإن كان عليه الغُرم أُغرم، وإن لم يكن له مال كان عبدا للسلطان

(١) الأعلاق النفيسة ١٣٣.

يبيعه، وإن لم تحرقه النار، قيل للمُدَّعى: إنك مبطل[1].

وحكم آخر: يغلى الماء فى قدر يحبس يوما إلى الليل، حتى يصير لو قطرت منه قطرة فى يد إنسان لأحرقته، ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال للمدعى عليه: أدخل يدك فتناول الخاتم الذى هو فى هذا الماء، فيدخل يده فيه فيتناوله، وإن كان بريئا أخرج يده سالمة، وإن كان مقارفا للذنب، نضجت يده.

وليس فى بلاد الصين من هذه الأحكام شىء، ولهم بدائع من الملاهى لا توجد عند غيرهم.

ومن طريف أخبارهم أن ملكا من ملوك قمار ولى هذا الصقع الذى يضاف إليه العود القمارى وهو شاطئ بحر وجبال لا جزيرة له، وهم يجتنبون كثيرا من القاذورات مثل الزناء وغيره[2]، ويتشبهون كثيراً من خلق الإسلام، وهذه المملكة موازية لمملكة المهراج صاحب الجزائر، وبين موضع ملك صاحب قمار والبحر مسيرة يوم ـ فتُذُوكر عنده يوما عظم مملكة المهراج وجلالها.

فقال لوزيره: فى نفسى شهوة أحب بلوغها، وكان حدثا متسرعا.

فقال: ما هى؟

فقال: كنت أحب أن أرى رأس المهراج بين يدى. فعلم الوزير أن الحسد أثار ذلك الفكر فى نفسه، فأنكر الوزير ما سمع منه وقال: إنه لم يتقدم منا ومنهم خلاف ولا تُرَّة ولا رأى فريق منا ومنهم سوءا من الآخر، وينبغى أن لا يعيد الملك هذا القول، ولا يأخذ فيه مع أحد.

وبين موضع مملكة المهراج ومملكة قمار نحو عشرة أيام فى البحر.

فلم يسمع فيه، وأذاع ذلك فى قُواده حتى اتصل بصاحب المهراج، وكان جزلا محنَّكًا.

فأمر بإعداد ألف مركب بآلتها وتجهيزها بأكمل السلاح وأهل العناء والنجدة بما تحمله كل مركب فيها، وأشاع أنه يريد التنزُّه فى جزائر مملكته، وكتب إلى ملوك

(١) الأعلاق النفيسة ١٣٩.

(٢) البلدان ٧٢.

الجزائر بما عزم عليه من زيارتهم، وأمر بتلقّيه محتفلين ليرهب من والاه.

فلما استتمت أموره، دخل المراكب فعمد إلى قمار واتصل بدار مملكة صاحبها، وله نهر يصب فى البحر، فصيّر فيه رجاله فأتوه على حال غرّة وأحدقوا به، فاحتوى على مملكته، وأمر مناديا أن ينادى بالأمان فى الناس، وقعد على سرير المملكة، وقد أخذ صاحب السرير أسيرا.

فأحضره وأحضر وزيره وقرَّرَه على تَمَنّيته، فلم يجد جوابا.

فقال له المهراج: أما إنك لو تمنيت مع ما تمنيته من إباحة أرضى وملكها، لاستعملت ذلك فيك، لكنك تمنيت شيئا بعينه فأنا فاعله بك، لتكون عظة لمن بعدك. وضرب عنقه وجعله فى طست بين يديه، وقال للوزير: جُزيت من وزير خيرًا، فانظر من يصلح للملك بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه، وانصرف راجعا إلى بلاده من غير أن يمُدَّ هو أو أحد من أصحابه يده إلى شىء مما كان فى بلاده، وحمل الرأس معه.

فلما قعد فى مملكته وعلى سريره على غدير لَبِن الذهب، وضع الرأس بين يديه فى طست، ودعا وجوه أهل مملكته وأخبرهم خبره.

ثم أمر بالرأس فغُسل وطُيب، ووَجَّه به إلى الملك القائم بمدينة قمار، وكتب إليه: إنما حملنا على ما فعلنا بصاحبك بغيُه علينا، وقد بلغنا منه ما أردنا ورأينا رد رأسه إليك إذ لا درك لنا فى حبسه، والسلام.

واتصل الخبر بالملوك، فعظم المهراج فى أعينهم، وصارت بعد ذلك ملوك قمار تقوم بوجوهها كل صباح نحو بلاد الزَّابج، فتسجد تعظيما للمهراج.

قال (س): وأعظم ملوك الهند الآن البلَّهَرى، وأكثر ملوك الهند تتوجه فى صلاتها نحوه، وبين دار مملكة البلهرى والبحر ثمانون فرسخا سندية ـ الفرسخ من ثمانية أميال.

ومن مدن الهند المشهورة قامهل، وهى أول حدود الهند إلى موضعها إلى صيمور، وهى مدينة كبيرة أيضا، وكنبايه وسوباره وأساول وجداول وسندان والجندور والسندروز. فمن كنبايه إلى صيمور بلد البلهرى، ويعرف الملك باسم الناحية. والغالب على هذا البلد الكُفر، وفيهم مسلمون، لا يلى عليهم فى زماننا

من قبل بلهرى إلا مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك فى كثير من البلدان التى فى أطراف المسلمين، فيغلب عليها ملك الكفر كالخزر واللاّن وغيرهم، لا يقبل المسلمون هناك معنى حكم الكافر، ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون، وإن قلُّوا.

وزىُّ المسلمين هناك واحد فى اللِّبسة وإرسال الشعور.

وبين المنصورة وقامهل ثمانى مراحل، وبين قامهل وكنباية أربع مراحل، وكنباية على نحو فرسخ من البحر، وبين سوباره وسندان نحو خمس مراحل، وهى أيضا على نصف فرسخ من البحر، وبين سندان وصيمور خمس مراحل، وبين صيمور وسرنديب خمس عشرة مرحلة.

* وأعظم أنهارهم نهر مهران، وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب، ونهر سندروذ، وهو يصب فى مهران بين بسمد والمُلتان، ونهر جندور، وهو نهر كبير من أعذب المياه، وهو فى نواحى المنصورة.

وزعموا أيضًا أن الهند اسم نهر هناك، وبه سُميت الهند.

* * *

ذكر ملوك الصين[1] والترك

من ولد عامور بن سويل بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ مدينة الملك بالصين هى أنمو، بينها وبين ساحل البحر الحبشى ـ بحر الصين ـ مسيرة ثلاثة أشهر.

قال (ح): إن مدينة الصين العظمى التى ينزل ملوكها تسمى خمدان، وحوالى هذه المدينة مائة وعشرون قرية، فى كل قرية ألف رجل مترتبة لحراستها.

والمدينة مقسومة نصفين: نصف يكون فيه أهل بيت الملك وخاصّته وعماله، ونصف يكون فيه عامتهم وأشرافهم.

وللملك ثلاثمائة وستون مدينة، يُحْمل إليه كل يوم من كل مدينة خراجها للباسه، ولكل جارية من جواريه. وفى قصر الملك بخمدان ثلاثمائة وثمانون كوسًا منكسة، فإذا كان قبيل المغرب مع غروب الشمس قرع بها قرعة واحدة، فيتبادر الناس للانصراف إلى منازلهم، فلا يبقى أحد خارجًا عن داره، حتى يخترق عسكر الملك السّكك والطرق بسيوف منتضلة، فمن وجدوه خارجًا عن داره ضرب عنقه كائنًا من كان، واحتزّ رأسه وألقى فى موضع قد أعدّ لذلك وكتب على ظهر المقتول: من رأى هذا فلا يتعدى أمر الملك.

قال: وسكك هذه المدينة مظللة بخشب السّاج، وتكنس فى كل يوم ثلاث مرات. ودورهم واسعة مُبَخّرة المجالس كثيرة التماثيل. وللملك أربعمائة ألف مرتزق، وهو لا يكاد يبرز لأحد ولا يراه أحد إلاّ وزيره أو حاجبه أو رسول ملك يرد إليه، أو وجوه أصحابه يصلون إليه فى كل أسبوع. فإن تعذّر ذلك أكثر من هذه المدّة، ضجّوا وسألوا الوصول إليه كى لا يكون قد مات وأخفى ذلك عنهم، وإذا أراد الملك أن يركب ضرب بجرس فيدخل الناس منازلهم ويخلون الطريق.

وإنما سميت الصين، لأن أول من نزلها صائن بن عامور بن سويل بن يافث فأثار معادن الذهب، وعمل الحكم ودقائق الصناعات، وملكهم مائتى سنة.

فلمّا هلك جعلوا جسده فى تمثال ذهب، وأجلس على سرير من ذهب مرصع

(١) البلدان ٦٩ـ٧٣ وآثار البلاد ٥٣ـ٥٥.

بالجواهر، وبنوا له هيكلاً يكون فيه فيسجدون له. واتخذ لهم بعض ملوكهم سياسة شرعية وفرائض عقلية، وجعلها رباطًا ورتب لهم قصصًا وحدودًا ومستحلات للمناكح، وصلوات تقربهم إلى معبودهم، إنما لا سجود فيها، وأمرهم بقرابين للهياكل ودفن، واتخذه أيضًا للكواكب.

فهم باقون على ذلك، إلا أنه دخل فيهم اعتقاد المانية والدهرية والثنوية فتناظروا واختلفوا فى الاعتقاد، وأصلهم فى شرعهم لا يختلف.

ولهم مدينة عظيمة مما يلى مغرب الشمس، يقال لها مدو تتصل ببلاد من الأتراك، والحرب بينهم سجائل، وملة الصين تدعى الشمينة.

ولهم أفخاد وقبائل كقبائل العرب، يرفع الرجل منهم نسبه إلى خمسين أبًا، وأكثرهم يعد إلى عامور. ولا يتزوج منهم فخذ إلا فى فخذ آخر ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية.

ولم تزل أمور الصين مستقيمة الأحوال إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه ظهر فيهم رجل من غير بيت المملكة يسمى يانشو، فاجتمع إليه أهل الذعارة والشر، فافتتح مدينة خانقوا، وهى من كبار مدائنها، وفيها أخاليط الناس من كل ملة فاستباحها بما فيها، وكان مذهبه الإفساد، لأنه لم يكن من بيت المملكة فيطمع فيها. فانتهى من قتل فيها مائتا ألف، وإنما حصى ذلك لأن ملوك الصين تحصى من فى مملكتها من الأمم وتتعاهد ذلك وتضمّه فى دواوين لها، وعلى ذلك قوم مرتبون لا يشتغلون بسواه.

ولم يزل أمره ظاهرًا حتى استولى على دار المملكة بعد أن هزم الملك مرارًا. ونجا الملك إلى مدينه خانقوا - وهى مدينة استباحها يانشو القائم على الملك أولا - فالتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالاً نحوًا من سنة، ثم فُقد يانشو، ويقال إنه أحرق، ثم رجع الملك إلى دار مملكته.

وهم يسمونه بغبور، وتفسير ذلك ابن السماء، أى إنما أنزل من السماء فولينا، والعرب تسميه المغبون، مكانٍ تسمية أولئك ببغور، وربما تقارب اللفظان، أى المغبون فى دينه.

وتغلب رأس كل ناحيه من بلاد الصين على ناحيته كتغلب ملوك الطوائف حين

قتل الإسكندر دارا ملك الفرس، وكنحو ما نحن بسبيله. فر حتى ملك الصين منهم بالطاعة، وأغار كل فريق منهم على من يليه فعُدم انتظام ملكهم إلى الآن.

ومن سيرهم أن المرأة إذا لم تكن محصنةً، وأرادات الفجور دفعت رقعة إلى الملك فجاء لها وما ذهبت إليه، فيبعث إليها حلقا من نحاس فجعلها فى عنقها، ولبست المصبغات، وعملت ما شاءت علانية فإذا ولدت الذكور حظوا، واستعملهم الملك فى داره وأعماله، وإن كانت التى ولدت أنثى كانت على رسم أمها.

ومن سننهم أن يورثوا الإناث أكثر من الذكور، ومن سننهم أن لهم عند حلول الشمس الحمل عيدًا معظمًا عندهم، يأكلون فيه ويشربون سبعة أيام.

وجزيرة كُلّه، يُقال لها المَنْصفُ، وهى بين أرض الصين وأرض العرب ـ وتكسيرها ثمانون فرسخًا، ولكنها مجتمع الأمتعة والتجار من الصينيين والمسلمين، وإليها يتجهز من عُمان فى وقتنا هذا فتجلب منها أصناف الطيب كله، والرصاص القلعى، والأبنوس والبقم، وغير ذلك وقد كانت لهم سياسات وعدل وحكمة.

ومن طريف أخبارهم أن رجلاً من قريش من ولد هبّار بن الأسود، خرج من البصرة، إذ كان من خبر صاحب الزَّنج ما كان، وصار بسيراف، ثم لم يزل يخترق أرض ممالك الهند، إلى أن انتهى إلى بلاد الصين، فصار بمدينة خانفو[1] وبينها وبين البحر مسيرة الأيام اليسيرة، ثم وعته همَّته إلى حضور مجلس الملك فلم يزل حتى وصل إليه، بعد أن أعلم الملك أنه من أهل بيت النبوة، فأمر بإحضاره والبحث عن قوله ونسبه، فلما تحقق أمر ذلك أوصله إلى نفسه، فقال للترجمان: سله عن منزلة الملوك عندهم فلم يدر ما يجيب فى ذلك. فقال الملك: إنا نجد الملوك خمسة: .

فرأس الملك وأوسعها ملكًا، الملك الذى يملك العراق، وما والاها لأنه فى وسط الدنيا، والملوك محدقة به. ونجد اسمه عندنا ملك الملوك.

وبعده ملكنا، ونجد اسمه ملك الناس لأنه لا أحد أسوس للرعية. منا، ولا

---

(١) خانقوا مدينة عظيمة فى الصين على نهر عظيم أكبر من دجلة أو نحوها يصبُّ إلى بحر الصين، وبهذه المدينة خلائق من المسلمين النصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أهل الصين. الروض المعطار ٢١٠.

أطوع للملوك من رعيتنا، فنحن ملوك الناس.

ثم ملك السّباع وهو ملك الترك الذى يلينا، وهم سباع الإنس.

ثم ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة، وبعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأن ليس فى الأرض أتم[١] خلقًا من رجاله، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم.

ثم قالوا للترجمان: قل له أتعرف صاحبك إن رأيته؟ يعنى النبى ﷺ. قال: فقلت كيف لى برؤيته. قال فأمر بسفط فأخرج ووضع بين يديه،وتناول منه دَرْجًا، فأرانى صورة عامة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فلما رأيتهم حركت شفتى بالصلاة عليهم، فقال للترجمان سله عن تحريك شفتيه، فأخبرته. فرأيت نوحًا فى السفينة ينجو بمن معه، وعيسى على حماره والحواريون معه. قال: وفوق كل صورة كتابة طويلة بأخبارهم، وأعمالهم، وبلادهم، وأسمائهم، ثم كذلك سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قال: حتى رأيت صورة نبينا محمد ﷺ على جمل وأصحابه محدقون به وفى أرجلهم نعال عربية، وفى أوساطهم حبال الليف، قد علقوا المساويك منها. قال فبكيت، فسألنى عن بكائى، فقلت إنى ذكرت أمر نبينا محمد ﷺ بهذه الصورة ثم سألنى عن عمر الدنيا فأخبرته بما أتى فى ذلك، فضحك ضحكا كثيرًا إنكارًا لذلك. ثم قال: من قال هذا؟ فقلت: نبينا محمد ﷺ فقال ما أظن نبيكم قال هذا، وأمر له بجائزة وحمله على البريد إلى خانفو وكتب إلى صاحبها بالوصية به، والثمار كلها موجودة بالصين إلا النخل وهم من أحذق خلق الله كفًا وصناعة، ومما أعانهم على ذلك أن الملك إذا أوتى بمعجز من الصناعات، والرقوم والنقوش وضعه على باب دار مملكته حولاً كاملاً، فإن ذكر أحد فيه عيبا وصل وحُرِم الصانع، وإلا أجزلت صلة الصانع، وإن رجلاً منهم صور سنبلة عليها عصفور فى ثوب لا يشك أنها سنبلة عليها عصفور وبقى التوب مدة حتى اجتاز به رجل أحدب فعابها فأدخل للملك وحضر صانعها فسئل عن العيب، فقال المتعارف أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وهذه منتصبة، فَصُدِّق، ولم يثب الصانع بشيء، وقصدهم فى هذا وشبهه الرياضة.

---

(١) فى الأصل (لهم).

* **فأما التُّرْكُ:** فهم من ولد عامور أيضا، ومعظم مملكتهم من الصين وبلاد خراسان وأشدهم شوكة الطغزغز[١] وهم أصحاب مدينة كوشان وما والاها، وملكهم أقرحان، ومذاهبهم مذاهب المانية، وممالكهم كثيرة: الشاش، وفرغانة، والختل وهم سكان الختلان وروسان والصغد - وهم بين بخارى وسمرقند وأهل بيت المملكة منهم بفرغانه وفيهم كان الملك وهو[٢] خاقان الخواقين وكان يجمع ملكهم فلما مات انتشرت مملكتهم وتسمّى بهذا الاسم فريق ببلاد التبت وكان ممن ينقاد إلى خاقان فلما انحل عقد نظامهم تسمى بذلك تشبيها به. قال (س) فى السفر الثانى: وقد زعم قوم أن الترك من ولد طوج بن أميزيرون وهذا غلط لأن أمزيرون قد ولى على الترك الولاة، كما ولى على الروم وغيرها وأخذ قوم من ولد عامور يسره المشرق على سَمْت الشمال فصاروا عدة ممالك: الديلم، والجيل[٣]، والطيلسان، والبرقار، والبتر، والخزر، وكشك، وأهل جبال الكبخ، وسائر تلك الأمم، وانتشرت هناك إلى بحر مانيطش ونيطش، وبحر الخزرالى البرغر، وما اتصل بهم من الأمم.

وجبل الكبخ خاصة يحتوى على اثنتين وسبعين أمة، لكل أمة ملك ولغة، وهو جبل شنيع، طوله مسيرة شهرين أو أكثر وهو من أخشن الجبال وفيه أمة لا يعرف بعضهم بعضًا لخشونته وكثرة غياضه وأشجاره وعظم صخوره، وتسلسل مياهه، وله أنهار وشعاب وأودية.

ومدينه الباب والأبواب على شعب من شعابه، وهذا البناءُ بناه كسرى أنوشروان، وجعله حاجزًا بين بلاده وهذه الأمة لما كان من إفسادهم، فجعل هذا السور[٤] فى وسط البحر على مقدار ميل مارًا فى البحر، بناه بالصخر والحديد والرصاص المفرغ على أزقاق البقر المنفوخة.

فكلما ارتفع البناء نزلت تلك الأزقاق إلى أن استقرت فى قعر البحر وقد ارتفع السور فغاصت الرجال، حينئذ بالخناجر على تلك الأزقاق فنقبتها وتمكن السور

(١) فى الأصل (البرغز).

(٢) فى الأصل (وهى).

(٣) فى الأصل (والختل).

(٤) فى الأصل (الصور).

على الأرض فى قعر البحر، وهو باق إلى الآن فى وقتنا هذا، ثم مدَّ السور فى البحر ما بين جبل الكبخ والبحر مارًا فى أعالى الأرض ومنخفضاتها نحو أربعين فرسخًا إلى أن انتهى ذلك إلى قلعة يقال لها طَبَرسْتان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور بابًا من حديد وأسكن من داخله أمة تراعيه وتحرس ما يليه، وجعل لكل أمة ملكًا، حول هذا السور أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، ولم يبنه أنوشروان إلا عن استيلاء عليهم، وحينئذ أذعنت له ملوك الآفاق وهادَنَتْهُ وراسلته.

وصاحب الباب والأبواب الآن مسلم اسمه محمد بن يزيد من ولد بهرام واسمه محمد هذا ومن ولى بِمَوْضِعِه شروان شاه، ومملكته نحو من شهر وإنما أسلم أهلها من يوم دخلها مسلمة بن عبد الملك وقد غلب محمد هذا على كثير من مماليك الكبخ.

ويلى ملك هذا المعروف بشروان ملك طبرستان وهو لرجل مسلم من الأنصار.

ويلى الباب والأبواب مملكة الخزر وكان موضع مملكتهم مدينة يقال لها سَمَنْدَر[١] وهى على ثمانية أيام من الباب وملكهم الآن بمدينه آتل، وبينها وبين الأول سبعة أيام وفيها من كل ملة وإنما انتقل ملكهم إليها لأن سَمَنْدَر افتتحت فى أول الاسلام ثم رجعت إليهم، ودين الخزر اليهودية، تهوَّد ملكهم زمن الرشيد فبقوا على ذلك وكان سبب ذلك إكراه ملك الروم من كان فى ملكه من اليهود على النصرانية، فتهارب قوم من اليهود إلى بلاد الخزر فتهودوا، وأكثر جيوش الخزر مسلمون، وهم ناقلة من الخوارزم لجدب وقع فى بلادهم، صدر الإسلام أجلاهم إلى الخزر، وظهر منهم فى الحرب بأس وشدة، فأقاموا على الإكرام والإحسان وإظهار الاسلام، ووزير الملك منهم، وإذا كانت للملك حروب مع المسلمين وقف المسلمون من جنده حرزة لا يقاتلون، وصومعة المسلمين فى جامعهم الأعظم تشرق على دار الملك.

وتتصل بهذه المملكة مملكة البرغر وملكها الآن مسلم أسلم بعد العشرة وثلاثمائه برؤيا رآها وذلك أيام المقتدر[٢]، وكان هذا الملك يغزو بلاد القسطنطينية

(١) فى الأصل (سمندو).

(٢) مروج الذهب ١/ ١٨٧.

فى نحو خمسين ألف فارس ويشن الغارات إلى بلاد رومة، والجلالقة والإفرنجة، ومنه إلى القسطنطينية نحو من شهرين، وهم أمة شدادا لا تطاق، والفارس منهم يقاتل أمة من الروم ولا يمتنعون منهم إلا بالجدران والليل عند البرغر فى نهاية القصر سائر السنة ويزعم أحدهم أنه لا يقدر أن يطبخ قدره حتى يصبح.

ويتصل بهؤلاء الروس، وهم أجناس كثيرة، وهم أهل جزائر ومراكب وقوة على البحر وتصرّف كثير فيه، متصلون ببحر نيطش المتقدم ذكره، وهذه أمة مجوسية، وهى تطرأ إلى الأندلس فى المائتين من السنين، ويتصل إليه من خليج بحر أقيانس وليس بالخليج الذى عليه منار النحاس، وهو خليج يتصل ببحر مانيطش ونيطش.

وممن يتصل بمملكة الباب والأبواب **خيزان** وهم شر الناس عليهم وملكهم الآن مسلم ليس فيهم مسلم غيره، وأهل بيته يعرف بسليفان[1] سمة لمن وَلِىَ هذه المملكة، وبينهم وبين الباب والأبواب أمة من المسلمين عرب على نحو من ثلاثة أيام من مدينة الباب وهم هناك بأنهار وأشجار وغياض، وهى أمة طرأت من بوادى العرب منذ افتتح ذلك الصقع فبقيت على أعرابيتها ولغاتها، وتلى مملكة خيزان مملكة يقال لها زيكران[2]، وتفسير ذلك عمال الزرد لأنهم صناع بالزّرد والسيوف، وغير ذلك من الآلات وبلدهم بلد خشن قد امتنعوا بخشونته، عن من جاورهم.

ويليه **ملك السرير**[3] **ويدعى فيلان شاه** وهو من بلد بهرام جوبين ويدين بالنصرانية، وكان يزدجرد وهو آخر ملوك ساسان حين ولى هذا الصقع، قدم سرير الذهب، وخزائنه، وأمواله، مع رجل من ولد بهرام جوبين، وأمره أن يسير بها إلى هذه المملكة ويحرزها هناك إلى وقت موافاته، فمضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك فى خلافة عثمان رضى الله عنه، فبقى الرجل على حاله.

ويلى هذه المملكة **اللاّن**[4] وهى مملكة واسعة يركب لها ثلاثون ألف فارس،

---

(١) فى الأصل (يعرفوا بسيفلان).

(٢) فى الأصل (زيركان).

(٣) الأعلاق النفيسة ١٣٧.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٣٨.

وبين ملك اللاَّن وبين صاحب السرير مصاهرة، وبين مملكة اللاَّن وجبل الكبخ قلعة عظيمه، وقنطرة على وادٍ عظيم بنتها الفرس الأولى لتمنعهم عن جبل الكبخ، ولا طريق لهم إليه إلا عليها وهذه القلعة على صخرة صماء لا وصول إليها إلا بإذن وفى أعلاها عين ثرّة، وهى إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة، قد ذكرتها الفرس فى أشعارها، ولو أن رجلاً واحدًا فى هذه القلعة منع سائر ملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع، وكان مسلمة قد أسكنها قوم من المسلمين فهم فيها الآن.

ويلى مملكة اللاَّن أُمَّة يقال لها **كَشَك**(١) وهم بين جبل الكبخ وبحر الروم، وهى منقادة إلى دين المجوسية ومعنى هذا الاسم التيه، والصلف وليس فى الأمم أنقى أبشارًا، ولا أصفى ألوانًا ولا أصبح نساءً ولا أقوم قدودًا، ولا أرق أخصارًا، ولا أعدل أكفالاً من هذه الأمة. ونساؤُهم مع ذلك موصوفات بلذّة الخلوات، ولباسهن الصقلاطون والدِّيباج، وعندهم أنواع من الثياب تصنع من العنّب منها ما هو أرقُّ من الدبيقى، وأبقى على الكدّ، يبَاع الثوبُ منه بعشرة دنانير، واللاَّن ظاهرة على هذه الأمة، إلا أنهم يمتنعون بقلاع لهم وحصونٍ منيعة.

ويليه أمَّةٌ يقال لها **السَّبَع بُلْدَان** وتليهم أمة عظيمة بينها وبين بلاد كَشْك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر الروم يقال لهذه الأمة إرَم(٢)، ذات خلق عجيب وأراؤها جاهلية وتأتيهم فى كل سنة من هذا النهر سمكة عظيمة فيتناولون منها، ثم تعود فى ذلك الوقت عامًا ثانيًا اللحم الذى أخذوه، يعرفون ذلك لا يشكُّون فيه.

ويتصل بهذه الأمة على البحر آجامٌ وغياض ومواضع ممتنعة، فيها نوع من القُرود منتصبة القامات على قُدود الناس، مستديرات الوجوه كَصُوَرِ الناسِ، ذات شعور، وربما وقع فى النادر القرد منها إذا احتيل لاصطياده، فيُهادَى به الملوكُ فيكون فى نهاية الفهم، وتعلَّمها الملوك القيام على رأسها بالمذابّ، ولا يأكل الملك طعامًا حتى يقدّمه إليه لما فى القرود من الخاصية بمعرفة السُّموم فيلقى إليه من

(١) مروج الذهب ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) هى إترم ذات العماد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم. انظر: مروج الذهب ١/ ٢٠١.

الطعام شىء فإن أكلَهُ أكَلَ المَلِكُ.

ويجانسها فى الفهم قرود اليمن، وهى ببلاد مأرب صنعاء وكَحْلان.

وكحلان: قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد يَعْفَر ملك اليمن فى هذا الوقت مُحْتَجب عن الناس إلا عن خواصّه وهم بقيةٌ من ملوك حِمْير وحوله من الجنود نحو خمسين ألفًا. وكانت له مع القرامطة بعد عام مائتين حروبٌ معروفة، وهذا من خواصّ البلدان. قال (س) والعَرْبَدُ[1] هو نوع كالحيَّات بأرض اليمامة لا يوجد فى غيرها، وقد جهَّز حُنَين بن إسحاق[2] أن يجلب إلى سُرَّ مَنْ رأى[3] إلى المتوكل حين كَلَّفَهُ مثل هذا من الأعاجيب، وذلك أنه إذا خرج عن اليمامة إلى موضع معروف المسافة عُزِل من الوعاء، وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيّات والعقارب وسائر الهوام، كانتفاع أهل سجستان بالقنافِذ، وفى عهد أهل سِجسْتان فى القديم، ألاَّ يُقْتَل قُنْفُذ ببلادهم، ذلك أن بلدهم كثير الرمال، بناه ذو القرنين فى مطافه، وهو كثير الأفاعى والحيّات، ولولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك، وقد جلب حُنَيْن إلى المتوكل اثنين من النِسْنَاس إلى سائر المُسْتَغْرَبات، ولم يقدر على العَرْبد.

ويتصل بهذه المملكة ممالك شتى لأمم مختلفة، ولولا هذا السور بالباب، والأبواب لكانت هذه الأمم تخترق بلاد بَرْذَعة والبيْلَقَان وآذرْبيجان وقَزْوين، وهمدان، والدَّيْنَوَر، ونهاوَنْد وغيرها، ولوصلت الكوفةَ والبصرة، لا سيمّا مع ضعف الإسلام الآن.

---

(١) العرِبَدُ: كقَرْشَبْ، وتكسر الباء: الشديد من كل شىء، والذَّكَرُ من الأفاعى، وحَيَّةٌ تنفخ ولا تؤذى، أو حية حمراء خبيثة. القاموس (عربد) ٣/ ١٨٢.

(٢) حُنَين بن إسحاق: طبيب ومترجم، يُنسب إلى العُبَّاد، وهم قوم من النصارى انفردوا على الناس فى قصور ابتنوها لأنفسهم بظاهر الحيرة، وتسموا بالعبادين نسبة إلى عباد الله. نصرانى نسطورى تتلمذ على يحى بن ماسويه، وترجم عن اليونانية إلى السريانية والعربية. اتَّصل بالخليفة المتوكل وخدمه بالطب الذى ألَّف فيه كتبا ومقالات كثيرة لخَّص حَنين كتب بقراط وجالينوس وأوضح معانيها ومن كتبه المترجمة فى الفل نة «تيماوس» و«القوانين» لأفلاطون و«المقاولات» و«الطبيعيات» و«الأخلاق الكبرى» و«المعادن» لأرسطو، كما ترجم الإنجيل إلى العربية». الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٧٤٣.

(٣) سُرَّ مَنْ رأى: هى المدينة التى بناها المعتصم بالعراق سنة عشرين ومائتين نزلها بأتراكه. ومعنى هذا الاسم: سُرور من رأى. معجم ما استعجم ٣/ ٢٤.

ذكر ملوك السُّريانيين

تنازع الناس فيهم، فقيل إنهم نبط وقيل إخوان النبط، وكان ملكهم مِمَّا يلى السند والهند، وأما النبط وهم مُلوكُ بابل فقد زعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت عنهم الملك كما أخذت الروم عن اليونانيين، وأول ملوك النبط نَمْرود، وهم الذين شيَّدوا البُنْيَان، ومدَّنوا المدن، وكَوَّروا الكور وشقوا الأنهار، ورتّبوا الجيوش، وجَزَّأوا الألوية والأعلام، ورتبوا العلامات فى أقسام الجيش على ألوان توافق كل قسم، وصَوَّرَوا فيها من الصور ما يجانسه، مثل أن يجعلوا فى الميمنة والميسرة صور الطير، لأنها أجنحة الجيوش، وفى القلب صورة الأسد والفيل، وما عظم وأرهب من الحيوان وثقلت وطأته، وفى الكُمَناء صور الحيّات وما خفى من الهوام وتغلغلوا فى ألوانها إلى ما علا من الاجسام السمائية، وكانت مملكة الموصل ونينوى للنبط أيضًا، ونينوى من قردى وبازيدى وبينهما وبين الموصل نهر دجلة، وإلى أهل نينوى، بُعِث يُونسُ - عليه السلام - وهى الآن خرابٌ فيها قرى ومزارع، وآثارها بَيِّنة، وفيها أصنام من حجارةٍ مكْتُوبَة على وجهها، وهناك عَيْنٌ تُعْرَف بعين يونس، ويَأْوى إلى المسجد النُّسَّاك، وأوَّلُ من بنى هذه، المدينة مَلكٌ عظيم يقال له نينوس، وملكُهُ من شاطئ دجلة إلى أرمينية إلى بلاد آذربيجان إلى حد الجزيرة، والجودى إلى بلاد الزَّوْزان، والنبط سريانيون، وإنَّما بانَ النبط عنهم فى أحرفٍ يسيرة وكان مَلك الموصل مُمَارِيًا ومحاربًا لملك نينوى، ثم غلب ملك الموصل على نينوى، ورجعت هذه الممالك إلى ملوك فارس حتى أتى الله بالإسلام.

ومن بلاد الصُّغْد الذى ذكرناه بين بُخَارى وسَمَرْقَنْد يُؤْتَى بالنوشادر وهى جبال من نحو مائة فرسخ فيها نيران، وقد يُسْلَكُ عليها من جبال خراسان إلى بلاد الصين وذلك إذا نزل الثلج، وخمدَ ذلك اللهب، ولا يُسْلَكُ على ظهرٍ، وهناك قومٌ يرغَّب إليهم فى الأجرة ويحملون الأمتعة على ظهورهم فتوصل إلى الصين من خراسان فى أربعين يومًا، ومسافة ما بينهما أربعة أشهر فى غامر وعامرٍ، يركب فى القوافل فى خفارة أنواع من الأتراك. وخُراسان تتصل بالسّند والهند مما يلى

المنصورة والمُولْتَان.

فأما **التُّبَّت**: فمملكة متميزة عن مملكة الصين وصاحبها حِمْيَرى وهو من بيت المملكة فيهم، وبواديهم أتراك لا يقام لهم، ولا تحصى عجائب أنواع ثمار التُّبَّت ولا زهره، ولا أنهاره، وهو بلد تَقْوى فيه طبيعة الدم على الحيوان فلا يزال الإنسان بها ضاحكًا فرحًا مَسْرورًا لا يعرض لهم حزنٌ، وذلك عامٌّ فى الشيوخ والكهول والشبان، وفى أهله رقَّةُ طَبْعٍ وأريحية تبعث على استعمال المُعَاقرة.

وإذا مات المَيِّتُ فيهم، لا يكاد يَدْخُل أَهْله كبيرَ حُزْنٍ.

وهذا البلد سمى بمن ثَبَتَ فيه من رجال حِمْيَر لثبوتهم، وقد افتخر بذلك دِعْبِل[1] فقال فى مفاخرة الكُمَيْت: [من الوافر]

وَهُمْ كَتَبُوا الكتَابَ بِبَابِ مَرْو ... وَبَاب الصِّين كَـانوا الكاتبينا

وهم سَمُّوا السِّهَام بِسَمَرْ قَنْد ... وهَمْ غَرَسُـوا هَنَـاكَ التُّبَّعينَـا[2]

وإنَّما رتب حمير هناك بعض التَّبَابعة، وهم يُسَمُّون مَلِكَهم الآن تُبَّعًا.

وأفضل المسك من التُّبَّت، ولا يكون إلا بها وبالصين، وإنما فُضِّل التبت لأن ظِبَاءَهُ ترعى سُنْبُلَ الطيب، وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيشَ.

وأيضا فإنَّ أهل الصين يخرجون المسك ويدخله الغشُّ، وأهل التُّبت يتركونه مَحْضًا، ولا فرق بين غزلاننا وغزلان المسك فى الصورة، وإنما تُبَايِنُها بِنَابَيْن لها أَبْيَضَين كأنياب الفيل، كُلّ نابٍ منها نحو الشبر.

وأطيب المسك ما نضج فى نوافجها فتفزعُ حينئذ إلى الأحجار الحادَّة فتحتك بها مُلْتذَّةً فيسيل على تلك الأحجار، فيودَعُ نوافج عندهم قد اتّخذوها من غِزْلانٍ اصْطادوها.

والنفَاجَةُ[3]: اسم فارسىِ معناه السُّرَّة.

---

(١) هو دِعْبِل بن عَلِىّ بن رُزَين بن سليمان، خُزَاعِىّ، يكنى أبا علىّ، كُوفِىٌّ شاعِرٌ مُبرَّزٌ من شعراء الدولة الهاشمية. سمط اللآلى ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) البيتان من الوافر لدِعْبِل بن على الخُزَاعى فى مروج الذهب ١/ ١٦٢.

(٣) نافجة المِسْك: أعجمية مُعَرَّبة. المعرب للجواليقى ٣٤١.

وهى وِعَاؤه الذى يجتمعُ فيه فى اللسان (نفج)، وعن الألفاظ الفارسية المعرَّبة لأدى شير: معناه سُرَّةُ غزال المِسْك.

فأما ما يُصْطَادُ من الظباء فتقطع نوافجها عنها فإنه يكُونُ فيه سُهُوكة[١] فتبقى زمانا حتى تزول عنها تلك الرائحة، وإنما ذلك كالثمر إذا لم ينضج.

* * *

ذكر بلاد السند [٢]

ومن ملوك السند قَشْمير، ومملكته نحوٌ من ستين ألفًا، بين مدينةٍ وقرية، وهى قد أحاط بها جبالٌ شوامخُ، لا يتسلّق منها الوحشُ ولا شىء من الدوابّ ولا يُوصَلُ إلى مملكته إلا على موضعٍ واحدٍ، وهو يُغْلَقُ على جميعها بابًا واحدًا، وذلك أحد عجائب الدنيا وهو مشهور معروف ومملكةً بورة التى قدمنا ذكرها. وهو ملك القَنُّوج[٣]، مملكته نحو مائة وعشرين فرسخًا سنديةً، الفرسخ منها من ثمانية أميال، وله جيوش أربعة، كل جيش من أربعمائة ألف.

وعلى مهابّ الرياح الأربع يحارب بالشمال صاحب المُلْتَان وبالجنوب البَلّهرى، وبالغربى والشرقى من يليه أيضًا، ولهذا المَلكُ أَلْفَا فيل مقاتلةٍ، وإذا كان الفيل ممارسًا شجاعًا وراكبُه كذلك وكان فى خرطومه القَرْطَلُ، وهو نوعٌ من السيوف شَنِيعُ المنظر، وكان خرطومه مُغَشًّى بالزرَد، وعليه تجافيف من القرن والحديد وقد أحاطت به، ومن خلفه خمسمائة راجلٍ أنجادٍ كَرَّ على خمسة آلاف فارس، وقام بهم ودخل وخرجَ، وجالَ عليهم.

قال: ورأيتُ لصاحب المنصورة فيلَين عَظيمين كانا موصوفين عند أهل الهند والسِّند، لهم أخبار عجيبة وكانت لهما فى فلِّ الجيوش سوابق، وتقدّم، وكان أحدهم يسمّى حَيْدَرَة، ومات بعض سُوَّاسِه فبقى لاَ يطعم ولا يَشْرَب، يُبْدى الحنينَ ويُظْهِرُ الأنينَ، وتسيل دموعه لا يتماسَك. وخرج ذاتَ يومٍ من داره وهىِ دَارُ الفِيلَةِ وهو يقدّم ثمانين فيلاً، فاستقبل امرأةً فلما رأته غشى عليها فسقطت

---

(١) السَّهُوك: الرّيح السَّاهكة الكريهة. المعجم الوسيط (سهك) ١/ ٤٦١.

(٢) انظر المسالك والممالك للأصطخرى ١٠٢ ـ ١٠٧.

(٣) فى الأصل «القنج».

وانكشفت ثيابُها فاعترض فى الطريق مانعًا لِمَا وراءَهُ من الفِيَلة، وجَعَلَ يُومئُ إليها ويُشير لها بخَرْطُومه بالقيام ويُلاَطفها ويجمع عليها ثيابها حتى قامَتْ وخلَّى سبيلَ الفيَلة. وقال: إن السِّند مما يلى الإسلام ثم الهند ولغتهم غير لغة الهند، وصاحب المُلّتان الذى ذكرناه من ولد سامة بن لؤى، وهذا ذو جيوش ومَنَعَة وهو ثغرٌ من ثغور المسلمين الكبار، وأكثر أمواله من الصَّنم المعروف بالمُلّتان، يقصده الهند والسِّند من أقصى بلادهم، وينذر إليه الهند أنواع الجواهر والطِّيب ويجمع إليه الألوف ويُحَملُ إليه من العود القمارِىّ الذى يؤثّرُ فيه الختم، كما يؤثر فى الشمع يبلغ المَنُّ منه مائتى دينار، وهو إذا عجز عن غارة مَنْ نَاوَأَهُ منهم هدَّدَه بكسر الصنم فيكُفّ عنه فكان دُخُولى المُلْتان، والملك أبو اللهاب منبّه بن أسدٍ القُرَشى.

* * *

حدُّ بلاد السند

حدها من شرقها مُكْرَان وطوران، والبدهة وشىء من بلاد الهند وبحر فارس فى شرقىّ ذلك كُلّه، وحَدُّها فى غربيها كرمان، ومفازة سجستان وأعمالُها وفى الشمال منها بلاد الهند، وفى الجنوب مفازة ما بين مُكْرَان والقُفص، ومن وَرَائها بحرُ فارس وإنَّما وصلها بحر فارس بشرقى هذه البلاد وهو محيط بشرقيها وجنوبها من وراء هذه المفازة من أجل أن البحرَ يمتدُّ من صَيْمور على الشرق إلى تيزمُكْرَان، ثم ينعطف على هذه المفازة إلى أن يتقوس على بلاد كرمان[1] وفارس. وَسُمِّيت المنصورة باسم منصور بن جمهور، عامل بنى أمية، وأصحابها الآن من ولد هَبَّار بن الأسود[2] وبها من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه خلقٌ كثير، ومَمْلكَتُه تُصَاقب مملكة المُلْتان، ومسافة ما بينهما، أعنى مواضع مملكتها. خمسة وسبعون فرسخًا سندية. وللمنصورة من القرى ثلاثمائة ألف قرية، وهو محارب للسّند وله فِيَلةٌ كثيرة، قال: وتجرى الأنهار فى العالم من الجنوب إلى الشمال إلا

(١) فى الأصل «مكران».

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ١٠٣.

النيل، ومِهْرَان السند، وأنهار بساحل بحر الأرزن فإنها تجرى بالضد من الشمال إلى الجنوب.

* * *

ملوك الفرس الأول وأنسابهم (١)

أجمع الناس على أنَّ الفُرْسَ الأُولى من ولد سام بن نوح إلاَّ ما سنذكره من زَعْم بعضهم، ولا نلتفتُ إليه، واختلفوا فى رفع نسبهم إلى سام، فالذى عليه الجمهور أنهم من ولد أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، ومنهم من قال إنهم من ولد فارس بن سام بن نوح، وفارس أخو نبيط أبو النبط، وقيل هم من ولد بوّان بن إيران بن ياسور(٢) بن سام بن نوح، وبوّان هو الذى يُنْسَبُ إليه شِعْبُ بوّان من بلاد فارس، وهو أحد المواضع المشهورة فى العالم بالحُسْنِ، ومنهم من يقول إن أبا الفرس إيران بن أفريدون، ويعرفون إيران فيقولون إيرج. ومَنْ لم يقل إنهم من ولد فارس يقول سُمُّوا فُرسًا بالفُرُوسيّة.

وفى ذلك يقول خطاب بن المعلى الفارسىّ: [من الخفيف]

وبِنَا سُمِّى الفوارسُ فرسا ... نًا ومِنَّا مناجبُ الفتيان

والأول أصحّ، إنهم من ولد أميم بن لاوذ بن إرم بن سام، وقد قال قوم إنهم من ولد جابر بن يافث. وزعم آخرون أنهم من ولد أفريدون المَلِك كما أجمعوا أن أول ملوكهم جَيُومَرْث، فمنهم من زعم، وهم الأَقَلّون عَدَدًا ـ أنه ينبوع النسل ويقول إنه نَباتٌ من نبات الأرض وهو الدحْناس، وكذلك زوجته. ومنهم من زعم أنه آدم ويقول إنه جيومرث كلْسَا أى: ملك الطير.

وقال الأكثرون: إنه أَوَّلُ من حَلَّ فارس ونزل أصطخر، وهو أَوَّلُ مَنْ مَلَكَ ووضعَ التاجَ على رأسه، ولهم فى التاج أسرارٌ يذكرونَها، وذكروا أنه جَيُومَرْث وهو أوَّلُ من أمر بالسكوت على الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها فيأخذ البدَنُ مما يَرِدُ

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٥٤ ـ ١٥٧.

(٢) فى الأصل (سابور).

عليه وتسكن النفس عند ذلك، فيأخذ كل عضو من الأعضاء تدبيرًا بما فيه صلاحه من أَخْذِ صَفْوِ الطعام، وأن الإنسان متى شُغِل عن طعامه بضرب من الضروب انصرف قِسْطٌ من التدبير، وجزء من التقدير إلى ذلك، ووقع الاشتراك، فأضرّ ذلك بالنفس الحيوانيةَ والقوى الإنسانية، وإذا كان ذلك أَدَّى إلى مفارقة النفس الناطقة لهذا الجسد المُرِّى، ولهم فى ذلك أسرارٌ لِطَافٌ، ثم ملك بعده أُوشَهَنْج ملك الأقاليم السبعة، وهم يزعمون أنه مهلائيل، ثم ملك بعده طَهْمُورث بن ويجهان بن جواد بن أوشَهَنْج.

والفرس تزعم أن طهْمُورث هو نوح عليه السلام[1]، وفى ملك طهمورث منهم، ظهرَ رَجُلٌ يُقَال له يوخاسف، أحدث مذاهب الصابئة، وهو مبنى على الأفلاك والاجسام العُلْوِيّة، وإن ذلك هو المدبّر، والُمَدَبّر هو الله - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، قال: وديارُ هؤلاء الصابئة ومواضعهم فى ناحية واسط، والبصرة من أرض العراق.

ثم ملك أخو طهمورث جِم بن ويجهان، وفى أيامه أحدث النيروز وادّعى الألوهية ويزعمون أنه طالع إلى الفلك وملك ثلاثمائة سنة وستين سنة.

ثم ملك بعده بيوراسب وهو الذى ادعى النبوة فكان ذا نواميس ومُلك. ويزعمون أنه الضَّحَّاك الحِمْيَرِىّ، وأسره أفريدون، وغَلَّهُ وقَيَّدَهُ فى جبال دُنْبَا وَنْد - وقد تقدّم شىءٌ من خبره - عند ذكر نوح عليه السلام.

ثم ملك بعده أفريدون وكانت دار مملكته بابل، وهى على شاطئ نهر من أنْهَار الفُرات بأرض العراق وهو نهر النَّرْس، وإليه تُضَافُ الثياب النرسية، وهذه المدينة خرابٌ، وإذا أشرف الإنسان عليها تَبِينُ منها آثارٌ عظيمة، وذهب الناس إلى أن فيها هَارُوتَ وَمَارُوت، وفيهَا جُبٌّ يُعْرفُ بِجُب دَانيال، الذى تقصِدُه النصارى واليهود فى أعيادهم.

ومَلَكَ أفريدون وقسَّم الأرض بين ولده، ولم يزل الأمر فى ولده إلى أن ولى فَراسياب[2] وهو من ولده، إلا أنه من التُّرك فلذلك غلط من غلط من أصحاب

---

(١) مروج الذهب١/ ٢٣٠.

(٢) فى الأصل «فرياب».

التواريخ فزعم أنه تركى (ط): هو من التُّرْك وتَملَّك الفُرْسَ بعد هلاك مَنُوشهر الملك فكثر فساده، فى مملكة فارس إلى أن ظهر زاب بن طهماسف، فطرد فَراسياب من مملكة أرض فارس حتى ردَّه إلى الترك بعد حروب يطول ذكرها، واتّخذ العجمُ ذلك اليوم عيدًا، وأحسن زاب السّيورة، ووضع الخراج وبنى مدينة الزاب بالسّواد، وهو المستخرج نهرها، وهو أول من اتخذ ألوان الطبخ، وأصناف الأطعمة.

ولم تزل الحرب بين ملوك الفرس وفراسياب بعد ذلك سجالاً إلى أن قتله كيخسرو القائم بالملك بعد جده كيْقاوس وكان مظفرًا، وهو القائم، وإنّ الشياطين سُخِّرت له بعد سليمان عليه السلام، وكان فى زمنه وإنه كان يأكل ويشرب، ولا يُحْدِث، وأعطاه الله عزّ وجلّ قوةً يرتفع بها إلى السحاب حتى حدثته نفسه إنه يطيقَ الصعود إلى السماء، ويُطالعُ ما فيها، فسلَبَهُ اللهُ جميع ذلك، ومزّق مُلْكَهُ، وأسره أَبْرَهَهَ، ذو الأذعار ملك اليمن واستباح ملكه، وكان كيقاوس قد غزا بلاد اليمن واستباح ذو الأذعار عسكرَهُ وحبَسَه فى بئرٍ وأطبق عليه. فخرج رستم من سِجسْتان مع مَنْ وثق به من الناس حتى أتى بلاد اليمن فاستخرج كَيقاوس من البئر، فملكه كيقاوس من بلاد سجستان، فلم تزل بيد رستم دَهْرًا طويلاً.

ثم لم يزل الأمر فى ولد أفريدون[1]. . ويُدْعى نهر جَيْحُون وهو نهر بلخ ـ كَالف، وكذلك يُسَمِّيه أهل خُرَاسان. ولهراسف وهو الذى أخرج بخت نصّر من مَرْزُبانه إلى أهل الشام، فكان من أمر بيت المقدس ـ ما قد تقدّم ذكره ـ وكثير من الناس يجعلون بخت نصّر مَلكًا برأسه وإنما كان مَرْزُبَانًا وقد أَرَّخ يطليموس كتابه المجسطى مُنذ عهد بخت نصّر مرزبان المغرب، ونسبه يأتى بعد.

ثم ملكَ بعدَهُ ابنه يَسْتاسف، وفى زمانه ظهر زرادشت على ما تقدّم فى خبر إرْميا عليه السلام، وكان ملكه تسعين سنة، ثم لم يزل الملك فيهم إلى داراميوس، وهو دارا بن دارا الذى قتله الإسكندر وهو دارا بن دارا بن بَهْمَن بن إسفنديار بن

(١) فى الأصل «أفريك» وهو تحريف.

وهنا سقط من الأصل، وفى مروج الذهب للمسعودى ١/ ٢٣٤ وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ، وكانت دار مملكتهم، وكان يُدْعَى نهر بَلْخ، وهو جَيْحُون».

يستاسف بن لهراسف كلهم ملوك[١].

وقد تقدّم من خبرهم ما يتمّم هنا إن شاء الله تعالى.

كان بَهْمَن أحسن الناس سيرة وهو الذى بعث بخت نصرّ إلى بنى إسرائيل لما بلغه أنَّ بناحية المغرب بأرض الشام قوْمًا أَحْدَثُوا دينًا وأمرَهُ بقَتْلهِم وَسَبْى ذَرَاريهم، ففعل ذلك ونفاهم عن بيت المقدس وفرقهم فى البلاد. وقيل إنَّ بخت نصّر هو ابن بدمين رجل من أهل كورة أرمنت من كور مصر، وكان بدمين من أهل العلم بالنجوم، فنظر فى علمه فرأى أنه يخرج من صلبه رجلٌ يخرّب مصر، فأعطاه الله عز وجل عهدًا أنه لا ينكح امرأة أبدًا فخرج إلى فارس، فمرَّ بقرية منها وكان لصاحب تلك القرية ابنة بها لَممُمٌ فوصف له المصرىّ ليداويها، فأدخله عليها فجرَت بينهما أسبابٌ إلى أن حملت منه ببخت نصّر فجرى خراب الدنيا على يديه. ومَلك بهمن بن إسفنديار، وخلَّف ابنه دارا، وأمه حَاملٌ به على ما تقدّم، وكان ملكه أربعة عشر سنة، وقيل إنّ أُمَّه كان اسمها حمانا، وقيل غير ذلك فملّكوا حنانا شكرًا لإحسان أبيها. مع كمال عقلها، وقال من زعم أنها أم دَارَا ملكت بمكان حملها، ودَارَا هذا هو الأكبر، وهو الذى ابتنى دَارَا بجرد، فولد له ولَدٌ وسُمِّى باسمه، حبًا له وإعجابًا به ثم هلك وكان ملكهُ اثنتى عشرة سنة، ثم ملك دارا الأصغر وكان فظًا غليظًا فقتله الإسكندر بخذلان فارس له. وتزوّج الإسكندر ابنته دوشك ابنة دارا، وكان ملكه أربع عشرة سنة ونذكرُ نسبَ ذى القرنين وخبره عند انقضاء نسب فارس إن شاء الله تعالى، وقد زعم مؤرخو العجم أن الذى ملك بعد دارا الأكبر من الفرس شخشار وكانت له جيوش عظيمة لم يسمع لملك مثلها.

ثم ملك بعده أريشخشار، وفى زمانه جدَّد عُزَيْر كتاب التوراة قالوا وفى زمانه بنى فهنايس مقدّم اليهود أسوار بيت المقدس، ورجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس، وفى زمانه كان بقراط الفيلسوف، وسقراط وسغريط، وحينئذ عظم ذكرهم، وملك أربعين سنة، ثم ملك بعده دار ترطر، وفى زمانه كانت حروب آخر طرفها فى جزيرة صقلية، وفى زمانه كان أفلاطون، وملك سبع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أرشخشا ولوقش، وفى زمانه كان أرسطاطاليس الفيلسوف ومات

(١) المقدمة ٢/ ١٥٧.

أفلاطون وكانت ولايته ستًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده دارا الذى غلبه الإسكندر وكانت له معارك قُتل فيها من الفرس خلقٌ كثيرٌ، وبقى يقسم ما وجد فى عسكره ثلاثين يومًا، ثم علم أنه جريح لما به، فعنى باتّباعه، فى ستة آلاف من أهل عسكره حتى ألقاه فى بعض المنازل طفيًا من تلك الجراحات، فلم يلبث أن هلك وأظهر الإسكندرُ الحزنَ عليه ودفنه فى مقابر الملوك، وكانت ولايته ستَّ سنين، وكتب الإسكندر إلى معلمه أرسطاطاليس يشاوره فى قَتْلِ من بقى من الفرس فكتب إليه: لا تفعل ولكن وَلِّ كُلَّ رئيسٍ منهم ناحيةً فإنهم يتنافسون الرياسة فلا يجمعهم مُلْكٌ أبدًا[١]، فلما قدم أرْدَشِير واجتمعوا عليه بعد الجهد العظيم، قال: إن كلمة فرَّقت الفُرْسَ أربعمائة سنة لَمُومةٌ، يعنى كلمة أرسطاطاليس فكان بين الفرس الأولى، والثانية خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة وهى مُدَّة ملوك الطوائف.

وذكر (ق) غير ذلك. ولغه الفرس الأولى الفهلوية[٢] وهى من اللغات الدَّارسة التى لم يبق لها مترجم.

* * *

الفرس الثانى

أولهم أَرْدشير[٣] بن بابك بن ساسان بن نهاوند بن دارا بن ساسان ابن بهن - الذى تقدم ذكره - وهو من ولد إيرج بن أفريدون، وقد زعم قوم أنهم من ولد ويرك، وويرك هو إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأنه تزوج امرأة من الفرس الأولى يقال لها كودك، فولدت له منوشهر الملك، وكثر ولده، فملكوا المماليك ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية، والعرب العاربة وهذا لا ينقاد إليه كثير من الفرس - وفيما ذكرناه يقول إسحاق بن يزيد العَدَوى، وكان من العرب من قريش: [طويل]

(١) المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٥٣.

(٢) فى الأصل: «الفلهوية» وهو تحريف.

(٣) انظر: المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٦٩ والبلدان ٤٠٥.

إذَا فخرتْ قحطــانُ يومًا بسُـؤْدُد أَتى فَخْرُنَا أَعْلَى عليهــا وَأَسْـوَدَا
مَلَكْنَاهُم طُرًا[١] بإسْحَــاقَ عَمِّنَا وَصَارُوا لَنَا عوْنًا على[٢] الدهر أعْبُدا
فَإِنْ كَــانَ مِنْهُم تُبَّـعٌ وَابن تُبَّع فَأمْلاَكُهم، كَــانُـوا لأَمْلاَكِنَــا يَدا[٣]

وفى ذلك يقول جرير بن الخطفى[٤]: [طويل]

وأَبْنَاءُ إسْحَــاقَ اللُّيوثُ إذَا ارْتَدُوا حَمَـائِلَ سَيْفٍ لابسين السَّنَـوْرَا
وإِذَا افْتَخَرُوا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهمو وَكِسْرى وعَـدُّوا الهُرْمزان وقَيْصَرَا[٥]

ولذلك يقول بشار بن برد[٦]: [متقارب]

نَمَتْنِى الكِـرَامُ بنـو فارسٍ قُرَيش وَقَوْمِى قَرَيْش العَجَمْ[٧]

وأُمُّ ساسان الأكبر، فإنها من سبايا بنى إسرائيل باتفاق منهم وهى ابنة شَابَال ولم يك الفرس الثانية إلا ولد أرْدشير بن بابك بن ساسان، وساسان هو الذى يرجعون إليه كرجوع المروانية إلى مروان بن الحكم.

وقد كان ملك الفرس يَحُجُّ البيتَ من ملوك الأعاجم، فكان ساسان هذا إذا طاف بالبيت زَمْزَم على بئر إسماعيل، وإنما سُمِّى زَمْزَم لزمزمته، وغيره من فارس،

(١) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦ «بَدْءًا».
(٢) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦ «رَغْمًا».
(٣) الأبيات لإسحاق بن سُوَيد العدوىّ (عدىّ قريش) فى مروج الذهب ١/ ٢٤٦.
السُّؤْدد: الرِّفعة والشَّرف والعلُوّ. رَغْمًا: أَذلَّة.
(٤) جرير بن عطية الخطفى اليربوعى (٢٨ـ١١٠هـ) أشعر أهل عصره، وُلِدَ ومات فى اليمامة، وعاش عمره يُنَاضل الشعراء ويُسَاجلهم فلم يَثْبُت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وهو من أغزل الناس شعرًا. الأعلام ٢/ ١١٩ وخزانة الأدب ١/ ٧٥ـ٧٧.
(٥) البيتان لجرير فى ديوانه ومروج الذهب ١/ ٢٤٦.
الحمائل: جمع حميلة، وهى علاقة السيف.
السَّنور: ثياب الحروب.
(٦) هو بَشَّار بن بُرْد بن يرجوخ بن أزدكر بن شردستان بن بهمن بن دارا، ويُكنى أبا معاذ، ومَحَلُّه فى الشعر مُتَقَدِّمٌ فى طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة، ورياستُه عليهم من غير اختلاف فى ذلك، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين العباسية والأموية. الأغانى ٣/ ٢٠.
(٧) البيت لبشار بن بُرْد فى الأغانى ٣/ ٢١ ومروج الذهب ١/ ٢٤٦ ورواية الأغانى هى:
نَمَتْ فى الكِرَام بنو عامرٍ فروعى وأصلى قريش العجم

وهذا يدل على ترادف الفعل منهم، وقال الشاعر: [سريع]

زَمْزَمَتِ الفُرْسُ على زَمْزَمِ وذاكَ فى سالِفها الأقْدَمِ[١]

وقد أهدى ساسان هذا غزالين من ذهب، وجواهر وسيوفًا إلى الكعبة وهى التى دُفِنَت بزمزمَ، وسنذكر ذلك فى خبر عبد المطلب وزمزم إن شاء الله. وكانت هذه الملوك من عهد أردشير تحتجب عن الندماء، فكان يكون بين الملك والطبقة الأولى عشرون ذراعًا، والستارة فى نصف هذه المسافة، وصاحب الستارة رجلٌ من أصحاب أولاد الأساورة ويقال لمن وَلِى ذلك منهم خُرَم باش، ومعناه كُنْ فَرِحًا، فإذا جلس الملك أمر خُرَم باش رجلاً فارتفع فى أعلى موضع فى دار الملك ونادى بصوت جهير ليسمع الحاضرون: يَا إنسانُ احفظ رأسك، فإنَّك تجالسُ الملك فتأخذ الندماء مراتبها خَافتةً أصواتها غير مشيرة بشىء من أعضائها.

وقد كانت الأوائلُ من بنى أمية لا تظهر للندماء، وكذلك الأوائل من بنى العباس، وكذلك الأوائل من بنى ساسان، وأرْد شير هو الذى فتح الحَضْر، وقيل إنه سَابُور وهو أثبت وبنى أرْد شير مدينة جور بفارس وكهمن أرْد شير، وهى فرات البصرة وبنى أستراباد وبنى كوخ ميسان وهى من كور دِجْلة، وبنى مدينة صور بالأهواز ومدينه أبلّة وغير ذلك ثم ملك بعده ابنه سابور، وكان أرْدشير، قد قتَل الأشكانيّة الذين كان منهم ملوك الطوائف بعد جدّه ساسان، إلاَّ جارية، وجدها أرْدشير فى دار المملكة فأعجبَتْهُ، فسألها عن نَسَبِها، فقالت: أنا خادم، فاستخلصها لنفسه، فحملت منه، فلما حمَلَتْ أعلمته أنها حُبْلَى، وعَرَّفته نسبَها فنفرَ طبعُه عنها، ودعا شيخًا مُسِنًا وسلَّمها إليه، وقال أَوْدِعْهَا بَطْنَ الأَرض، فأودعها سَرَبًا من الأرض ثم عمدَ إلى مَذَاكِرِه فقطعها، ووضعها فى حُقّ وختَم عليه، ورجع إلى الملك وقال: قد أودعتها بطن الأرض، ودفع إليه الحُقَّ، وقال إنَّ فيه وديعةً، ورغب إليه، ووصَّاه أن يتحفظ بها وأقامت الجاريةُ حتى وضعت غلامًا، وسمَّاهُ الشيخ شاه بورًا، ولد الملك.

ولم يكن لأرْد شير ولدٌ فرآه الشيخ يومًا حزينًا لذلك، وكان خَاصًا به فقال: مالك أيها الملك أراك حزينًا كئيبًا، قال لأنى كبرتُ وليس لى وَلَدٌ أُورِّثُهُ مُلْكى

(١) البيت فى مروج الذهب ١/ ٢٤٩ بلا نسبة.

وأجعله الخليفة بعدى، فيبقَى ذِكرِى. فقال الشيخُ: سَرَّكَ الله أيها الملك وعمّرك، لك عندى ولَدٌ، قال له: وكيف ذلك؟ قال له ادع بالحُقّ الذى استودعتك: فأمر بإحضاره، وفضّ خاتمه فإذا فيه مَذَاكِرُ الشيخ، وفيه كتاب: إنَّا لما أخذنا ابنة آشك الذى أمر الملك بقتلها، أَعْلَمَتْنَا أنها حاملٌ من الملك، فلم نستحلّ أن نبطل زرع الملك الطيّب، فأودعناها بطن الأرض كما أمرنا، وتبرَّأنا إليه من أنفسنا، لئلا يجد عائبٌ إلى عيبنا سبيلاً.

قال فَسُرَّ أرْد شير سُرورًا شديدًا وأمر الشيخ عند ذلك أن يجعله بين مائة غلام فى الهيئة، ثمّ يدخلهم عليه، ففعل فعرفه أَرْدَ شير من بينهم وَقَبلَتْهُ نفسه ثم أمرهم أن يلعبوا فى حجرة الإيوان بالصوالج، فدخلت الكرة الإيوان، فأحجم الغلمان عند دخولهم، وأقدم سابور من بينهم فدخل. فأمر أرْدشير يعقد التاج له.

(ط) وسابور: هو الذى افتتح الحَضْر من بلاد الموصل بخلاف ما قال.

(ق) وكان صاحب الحَضْر يسمى الضيزن بن معاوية، ويعرف باسم أُمَّة جَيْهَلة[١]، وكان من تنوخ من قضاعه وكان ملك الحَضْر قبل السَّاطِرُون، وهو ملك السريانييّن، قال أبو دُؤاد[٢]: [خفيف]

وأرى الموتَ قد تدلَّى من الـ ـحَضْر على رَبِّ أهلهِ السَّاطِرونِ

ولقد كان آمِنًا لِلدَّواهى ذا ثراءٍ وَجَوْهَرٍ مكْنُونِ[٣]

ويُقَال إنَّ السَّاطرون أبو نصو جدّ عمرو بن عدى بن نَصْر الذى كان ملوك الحِيرة من ولده. وكان الضيزن قد ملك الحيرة وما يليها إلى الشام وأقام سابور

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٧٠.

(٢) أبو دؤاد الإيادى: هو جارية بن الحجاج، وقيل حنظلة بن الشرقى، وقيل: هو جويرية بن الحجاج، أو حمران، من بنى حذاقة (أياد).
كان معاصرًا لقُباد ملك فارس. كان أبو دؤاد على خَيْل المنذر بن النعمان بن المنذر وهو أحد نُعَّات الخيل المجيدين. أمَّا الآخران فهما: طُفَيْل الغَنَوى، والنابغة الجعدى.
قال الأصمعى: كانت العرب لا تروى شعره، لأنَّ ألفاظه ليست نجدية.
مصادر ترجمته: الأصمعيات ٦٥ـ٦٦ والبيان والتبيين ١/ ٣٣٢ والكامل ١/ ٢٣١ ورسالة الغفران ٤٠١ و٥٦٧ ومعجم الشعراء لعفيف عبد الرحمن ٩٠ـ٩١.

(٣) البيتان لأبى دُؤاد الإيادى فى المقدمة لابن خلدون ٢/ ١٧٠.

على حصنه أربع سنين وقيل سنتين، قال الأعشى: [متقارب]

أقـام بها شاهبـور الجنو د حَوْلين يَضْرِب فيها القُدُم[١]

جمع قَدَم حتى تحركت ابْنَته النضيرة، فأخرجها إلى بعض الأرباض وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم، وكانت من أجمل الناس، فتعشّقت سَابور وتَعَشَّقها، فأرسلت إليه وقالت له: اكتب بدم جارية بكر زرقاء، على رِجْلِ حمامة وَرْقَاء مطوَّقة كتابة ذكرتها، وأَرْسِلْها فإنها تقع على حائط المدينة فيتداعى وكان طلسم المدينة.

(س): وقيل إنَّها قالت له: ائْتِ الثرثار[٢]، فانثر فيه تبنًا، ثم اتبعه فانظر أين يدخل التبن فأدخل الرجال فيه، فإن ذلك المكان يفضى إلى الحصن، ففعل ذلك سَابُور وفتح الحصن عَنْوَةً وأباد قُضَاعة، فقال فى ذلك بعض شعرائهم [وافر]

أَلَمْ يَأْتِيك[٣] وَالأَنْبَـاءُ تَنْمِى بِمَا لاَقَتْ سَرَاةُ بَنِى الْعَبِيـدِ

وَمَصْـرَعَ ضَيْزَنٍ وبَنِى أَبِيـه وَأَحْلاَسِ الكَتَائِبِ من تَزِيدِ

أتاهُم بالفُيُـــولِ مُجَلَّلات وبالأبطـالِ سابورُ الجُنُــود

فهدَّمَ مِنْ أَسَـاسِ الحِصْنِ صَخْرًا كَـأَنَّ ثِقَـالَهُ زُبُر الْحَـــدِيدِ[٤]

واحتمل النضيرة، فعرَّس بها بعين التمر فلم تَزَلْ ليلتها تتضور، وفرشها الحرير مَحْشُوًا بالقَزّ، فالتمس سابور ما كان يؤذيها فإذا ورقة آسٍ ملصّقة بين عكنتيها وكان يُنْظَر إلى مُخِّها من صفاء بشرتها، فقال لها: أىّ شىء كان يُغَذّيك أبوك؟ فقالت: بالزبد والمخّ وشهد فراخ النحل، وصفو الخمر، فقال: وأبيك لأنا أحدث بك عَهْدًا، فأمر رَجُلاً فركب فرسًا جَموحًا، ثم عَصب ذَوَائبها بِذَيْلِه ثم همزَ

(١) البيت للأعشى فى ديوانه ٣٣ والمقدمة لابن خلدون ٢/ ١٧١.

(٢) الثَّرْثار: ماءٌ معروفٌ قبل تَكْرِيت، وقال الهمذانى: الثَّرثار نَهْرٌ يَصُبُّ من الهرماس إلى دجلة. وقال أبو حنيفة: الثرثار بالجزيرة، والشاهد لذلك قول الشاعر:

أَقْفَر الحَضْرُ من نَضِيرةَ فَالمِرْ بَاعُ منها فجـانِبُ الثرثارِ

معجم ما استعجم ١/ ٣٠٥.

(٣) فى تاريخ الطبرى ٢/ ٤٦ (أَلَم يَحزُنْكَ).

(٤) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٢/ ٤٦ لعمرو بن إلَّة (ط/ دار الكتب العلمية) ١/ ٣٩٦.

الفرسَ فقطعها قطعًا، فقال الشاعر: [خفيف]

أقفر الحَضْرُ من نَضِيرةَ فَالمرْ باَعُ مِنْها بِجَـانِب الَثّرْثارِ[١]

وسابور هو الذى حاصرَ نصيبين حتّى أخذها، وكان فيها عُدَد كثيرة لقيصر ثم دخل أرض الروم، فافتتح من الشام مدائن، ثم انصرف إلى مملكته وفرّق ما كان معه من السَّبْيِ فى ثلاث مدائن: فى جُنْدَى سابور، وسَابُور التى بفارس، وتُسْتَر التى بالأهواز.

ذو الأكتاف:

خلفه أبوه[٢] أيضًا وأُمُّه حاملٌ به، فعقد له التاج فى بطن أمه.

قال (س): هو الذى بنَى له الإيوان، وهو بالجانب الشرقى من المدائن على دجلة.

ونزل الرشيد مَرَّةً على قربٍ منه، فسمع بعض الخدم يقولُ مِنْ وراء السُّرادِق: «هذا الذى بنى هذا البناء، أراد أن يصعد إلى السماء، فأمرَ الرَّشيد بعض الأساتيذ أن يضربه مائة عصًا، وقال لمن حَضَرَهُ: إنَّ المُلْكَ نسبة بين الملوك، هُم به إخوةٌ، وإنَّ الغَيْرَةَ بعثتنى على ضَرْبِه لصيانة المُلْكِ وما يُلحق للملوك.

وذُكِرَ أنَّ الرشيد بعث إلى (يَحْيَى بن خالد) وهو فى اعتقاله يُشَاوِرُه فى هَدْمِ الإيوان فبعث إليه: لا تَفْعَلْ.

فقال الرشيد لمن حضره: إنَّ المجوسية فى نفسه[٣]، والحسدَ عليها والمنعَ من إزالة آثارها، فشرع فى هدمه، فإذا به يَلْزَمُهُ فى هَدْمه مالٌ عظيم، لا تُضْبَطْ كثرتُهُ، فأمسكَ عن ذلك، وكتب إلى يحيى بن خالد يعلمهُ بذلك فأجابه أنْ ينفقَ على هَدْمِهِ ما بلغ من الأموال، ويحرّض على محو أثره، فتعجَّب الرشيد من تخالف كلامه فبعث إليه يسأله: ما معنى تخالف قوله؟ فقال: أمَّا الكلام الأول فإنى أردت به بقاء الذّكر لأمة الإسلام، وأن يكون من يَرِدْ فى الإسلام يرى مثل هذا الأثر العظيم، فيقولون: إنَّ أمة قَهَرَتْ قومًا هذا بُنْيَانُهم واحْتَوَتْ على مُلْكهِم

(١) البيت بلا نسبة فى معجم ما استعجم ١/ ٣٠٥ والروض المعطار ٢٠٥.

(٢) هو ذو الأكتاف.

(٣) النصُّ فى مروج الذهب ١/ ٢٦٩.

لأَمَّةٌ عَظِيمةُ الشدّة.

وأما قولى الثانى: فأخبرتُ أنه شرع فى هَدْمِ بعضه، فأردتُ نَفْيَ العجزِ عن أُمَّة محمَّد، وأن لا يقولَ قائلٌ: إن هذه أمة ضعيفة عجزت عن هَدْمِ ما بَنَتْهُ فارس.

فلما أُعْلِمَ بذلك الرشيد، قال: قَاتَلَهُ الله، فما سمعتُ له قَطُّ قَوْلاً إلا صَدَقَ فيه، وأعرضَ عن هَدْمه.

وسَابُور هذا بَنَى نيسابور، ومدينة بالسُّوس سماها فيروز سابور، وبنَى مدينةً بالسِّند، وأخرى بخراسان وقيل بسِجْستان.

ولَمَّا بنى أنو شروان سور الباب والأبواب على ما تقدّم، وَفَدَتْ عليه رُسُلُ الملوك بالهدايا، وكان فى جملتهم رسولُ قيصر، فنظر إلى الإيوان، وحسن بنائه، وإعجاز صَنْعَتِه ورأى بموضع منه اعوجاجًا فسأل عن معنى ذلك، فقيل له: إنَّ عجوزًا لها منزل فى جانب الاعوجاج وإن الملك أرادها على بيعه ورغَّبها فأبَتْ فلم يكرهها.

فقال الرُّومىُّ: الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء[1].

وزوَّجه خاقان ملك الترك بابنته فَاقُم وابنة أخيه، وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب، وكتب إليه ملك الصين: «من ملك الصين صاحب قصور الدرّ والجوهر الذى يجرى فى قصره نهران، يسقيان العود والكافور، الذى توجد رائحته على فرسخين والذى تحته ابنة ألف ملك وتخدمه بنات ألف ملك والذى فى مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنو شروان».

وأهدى إليه فارسًا على فرس من ذهب منضَّد بالجواهر، عينا الفارس، والفرس ياقوت أحمر، وقائم سيفه من زبرجد وثوب صِينى عَسْجَدى[2]، فيه صورة الملك الفارسى جالسًا فى إيوانه، وعليه[3] حلّته، وتاجه على رأسه، والخدم على رأسه بأيديهم المذابّ والصُّورة منسوجة بالذهب، وأرض الثوب لاَزَوَرْد، فى سفط من ذهب، تحمله جارية تغيب فى شعرها تتلألأ جمالاً.

(١) مروج الذهب ١/ ٢٧٤.

(٢) فى الأصل «عشرى» وهو تحريف.

(٣) فى الأصل «المصورة».

وكتب إليه ملك الهند: «من ملك الهند وعظيم المشرق، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية، وأهدى إليه ألف رطل من عودٍ هندى يذوب فى النار كالشمع ويختم عليه كما يختم على الشمع، وجامًا من الياقوت الأحمر فُسْحته شبر، مملوءًا دُرا، وعشرة أمْنَان كافور كالفستق وأكبر من ذلك وجارية طولها سبعة أذرع، كان بين أجفانها لمع البرق لها ضفائر تجرها، وفرشًا من جلود الحيات، ألين من الحرير وأحسن من الوشى.

وكان كتابه على لحاء الشجر المعروف بالكارى، مكتوب بالذهب الأحمر وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين، لحاؤه أرق من الورق الصينى ذو لونين عجيبين، لازَوَردِى، ورائحته عجيبة فكانت تكتب فيه ملوكهم.

وكتب إليه ملك التُّبَّت: من خاقان ملك التَّبَّت، ومشارق الأرض إلى أخيه المحمود السيرة، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة.

وأهدى إليه أنواعًا من العجائب، منها مائة جوشن نَبْتية، ومائة تجفاف، وأربعة آلاف مَنٍّ من المِسْك الخزائنى فى نوافجه.

ومما افتتح أنُوشروان بالشام: حَلَب، وقِنَّسْرين، وحِمْص، وأنطاكية وكانت فيها جنود قيصر. وسلُوقية: مدينة عظيمة، عجيبة البنيان فهى الآن خراب، وهذه كلها كانت للقياصرة.

وانتقل من الشام الرخام والأحجار، والفسيفساء إلى العراق فبنى ما استحسن وافتتح هرقلة، والاسكندرية، وبنى رومة بناحية المدائن على صورة أنطاكية، وصار نحوهم، وقتل اخْشُنْواز ملك الهياطلة بجدّه فيروز، وغلب على مملكته، وأدخل إليه من الهند كتاب (كَليلة ودِمْنة)، والخضاب الأسود المعروف بالهندىّ، وهو الذى يلمعُ سوادُه فيما يصلُ من الشَّعَر فيريه أسود، فلا يُنْصَلُ منه شىءٌ.

قال: رأيت من أنُوشروان خصلَتَيْن متباينتين:

جلس يومًا للناس فدخل رجل من خاصّة المَلِك فتعدَّى مرتبته فأمر أن يُحجبَ سنةً.

ثم رأيته يومًا ونحن عنده فى سرّ من تدبير المملكة، وخدَمُه خلفِ سرير مُلْكِهِ يتحدّثون فارتفعت أصواتهم، حتى شغلونا عن بعض ماكُنَّا فيه، فقلت له فى

ذلك، وسألته وأخبرته بتفاوت الحالتين، فقال لى: لا تَعْجَبْ فنحنُ ملوكٌ على رَعِيَّتِنا، وخَدَمُنَا مُلوكٌ علينا، ينالون مِنَّا فى خلواتنا، مالا حِيلةَ لنا فى التحرُّز معهم.

وولد رسول الله ﷺ لاثنتين وأربعين سنة من مُلْكه. (ط) ولما كانت الليلة التى وُلِدَ فيها رسولُ الله ﷺ، ارتجّ إيوانُ كِسْرَى فسقطت منه أربعة عشر شُرَّافةً، وخمدت نارُ فارس، ولم تَخْمُدْ من قبلِ ذلك بألف عام، وغاصَتْ بُحَيْرةُ سَاوَة ورأى الموبذان - وهو القائم بأمر الدين عندهم - إبلاً صِعَابًا، تقودُ خيلاً عرابًا، حتى قطعت دجلة، فأفزع ذلك كسرى[1]، وقص عليه الموبذان ما رأى فزادَهُ ذلك ذُعْرًا، فكتب أنُو شروان إلى النُّعْمَان بن المنذر وهو وَلاَّهُ أَمْرَ العرب أَنْ يوجِّه إليه رجلاً من مشاهِرِ العرب تسْألهُ عمَّا يريده، فبعث إليه عبد المسيح بنِ عمرو بن حسان بن بُقَيْلَة الغَسَّانى[2]، فلما قدِمَ عليه أخبره بِمَا رأى، فقال له: أيُّها الملك لا عِلْمَ لى بذلك ولكن جهِّزْ لى إلى خالٍ لى بالشام يقال له سطيح فقال: جَهِّزوه، قال: فأتاه وقد أشفَى على المَوْتِ، فسلَّم عليه وحَيَّاه، فلم يستطع سطيح جوابًا، فقال له عبد المسيح[3]:

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ اليَمَنْ ... يَا فَاضِلَ الخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ

أَتَاكَ شَيْخُ الحَىِّ مَنْ آلِ يَزَنْ ... أَبيَضُ فضْفَاضُ الرِّدَاءِ والبَدَنْ

رَسُولُ قَيْلِ العُجْمِ يَسْرِى لِلْوَسَنْ[4] ... لاَ يَرْهَبُ الْمَوْتَ وَلا صَرْفَ الزَّمَنْ[5]

فلما سمع سطيح قوله، رَفَع إليه رأسه فقال: عبد المسيح على جمل يسيح، جاء إلى سطيح، وقد أَشْفَى على الضريح، بعثَك ملكُ بنى ساسان، لارتجاج الإيوان، وخُمودِ النِّيران، ورُؤْيا الموبذان، رَأى إبلاً صِعَابًا، تَقودُ خَيْلاً عرابًا،

---

(1) المقدمة 2/ 177 ومروج الذهب 1/ 289.

(2) السيرة النبوية، لابن كثير 1/ 116.

(3) الأبيات لعبد المسيح بن عمرو بن حيَّان بن بُقَيْلة فى سيرة ابن كثير 1/ 216.

(4) الوَسَنُ: أوَّل النوم.

(5) رواية هذا الشطر سيرة ابن كثير 1/ 216:

* لا يَرْهَبُ الرَّعْدَ ولا ريب الزمنْ *

حتى اقتحمت فى الواد، وانتشرت فى البلاد، عبد المسيح إذا طهرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وغاض وادى السماوة، فليست الشام لسطيح شأمًا، وسَيَمْلك منهم ملوكٌ ومَلِكات على عدد الشُّرافات، وكل ما هو آتٍ آت، ثم قضى سطيح نَحْبَهُ وقدم عبد المسيح على كسرى، فأخبره فقال: إلى أن يملك منّا أربعة عشر ملِكًا تكون. ثم ملك بعد أنُو شروان ابنهُ هُرْمُز وأمه فاقُم ابنةَ خاقان، وكان متحاملاً على خواصّ الناس مائلاً إلى[1] عوامّهم وقتل فى مدة ملكه من خواص فارس ثلاثه عشر ألفًا مذكورين، وأزال أحكام الموبذان، فخدَمَ بذلك الشريعة، وأزال الرسوم، فغزاه الملوك وطمعوا فيه.

فغزاهُ عظيمٌ من التُّرْكِ فى أربعمائةِ ألف، فنَزل بلاد هَرَاة من أرض خراسان فَنَدبَ لِحَرْبه بَهْرَام بن جُوبِين بن الريان، ظفر بهرام بالتركى واستباحَ عسكره واستولَى على خزائنه، وأمواله، فأعجب بذلك هُرْمُز، وعظم بهرام جوبين فى عينه فحسده وزيره، وكان من الخزر، فجعل يعرّض بخيانته لهرمز، واستبداده بأكثر الأموال وأغراهُ به، فَعَصاهُ بهرام، وخلع يده عن طاعته، ثم احتال بدار ضرب عليها اسم أَبَرْويز بن هُرْمز.

ودَسَّ أناسًا من التجار وأنفقوها، فعلم بها هُرمز، فلم يشكَّ أنَّ ابنه ضربَها طلبًا للملك فهمَّ به، فهرب أَبَرْويز من أبيه لتغيُّره عليه، ولحق ببلاد آذَرِبيجان، وأرمينية والرَّان، والبَيْلَقان، فحَبَس هُرمُز خالَى ابنه بِسْطام وبِنْدَوَيْه، فأعملا الحيلة وخرجا من محبسهما وانضاف إليها بشرٌ، فدخلا على هُرْمُز، وسَمَلا عَيْنَيْه، فلما نَمَى ذلك إلى أبرويز رجع إلى أبيه، وأعلمه أنه لا ذنبَ له فيما اتَّهمه به وأنه هرب خوفًا، فصدقه أبوه، وعقد له التاج وسلّم الملك إليه ثم خرج أبرويز إلى بهرام جوبين، وقد مالَ مع بهرام، جموع الناس وقدم وتحته فرسه، المعروف بشبْدَاز وهو المصَورُ فى الجبل، ببلاد قَرْماسين من أعمال الدِّينَوَر من مَاهِ الكوفة، وعليه أبرويز، وغير ذلك من الصُّوَر.

وهذا الموضع أحد عجائب العالم لغرائب ما فيه من الصور، والعرب تذكر هذا الفَرَسَ فى أشعارِها، وكان أَبَرْويز ركبه يومًا فانقطع عنانه فأراد ضربَ عُنُقِ صاحب

(١) فى الأصل (على).

سُرُوجِه ولُجُمِه، لَمَّا لم يتعاهد عنانه فقال: أيها الملك ما بقى شيء يجتذب به ملك الإنسِ، وملكَ الخيل، فخلّى سبيلَهُ، ولمّا بلح هذا الفرس تحت أبرويز وقصّر، طلب للنعمان فى المعركة أن يَمُنّ عليه بفرسه النجوم، فأَبى ونجا عليه بنفسه، ونظر حسَّان بن حنظلة الطائى إلى أبرويز، قد خَانَتْهُ الرِّجال، وأشرف على الهلاك فأعطاه فرسهُ المعروف بالضُّبَيْب، وقال له: أيها الملك انجُ على فرسى، فإنَّ حياتك للناس خيرٌ من حياتى فنجا عليه، وكافأ حسّان، وعرف له صنيعه، فأشار على أَبَرْويز أبوه، أن يلحق بقيصر ويَسْتنجده، على ما دَهَمهم من بَهْرَام جُوبين، فخرج أبرويز، وخَلَّف خاليْه وخنقا هُرْمُز، فقتلاه، ثم لحقا به فأعلماه، فعظم ذلك على أبَرْويز، وقال لهم: ما حملكما على هذا؟

فقالا: لم نأْمَنْ أن يدخل بهرام إلى أبيك فى مغيبك فيضع تاج المُلْكِ على رأسه، ويصير الفرمدان، وتفسيره أمير الأمراء، والروم تسمَّى هذه المرتبه، الدُّمستُق، ويكتب أبوكَ إلى قيصر: إن ابنى وجماعة. انضافوا إليه، وثبوا عَلَيَّ وسَمَلُوا عَيْنَيَّ فاحملهم إلىَّ. فلمَّا بلغ بهرام خبر هرمز وقتله، أسرع إلى المدائن فاحتوى على الملك ونزل أَبَرْويز الرّها، وكاتَب قيصر مُوريق، وبعث بكتابه مع خاله بسطام، وجماعة من خاصّته يسأله النُّصْرَة وأَنْ يشترط عليه ما شاء، وأهدى إليه أبرويز مائة غلام من أبناء الترك فى غاية الحسن، فى آذانهم القرط بالدرّ والياقوت ومائدة عنبر فُسْحَتُها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من الذهب مفصّلة بأنواع الجوهر، والقائمة الأولى ساعدُ أسد وكفّه، والثانية ساق وَعل وظلْفه، والثالثة كَفُّ عقاب بمخلبه، وجام جَزَع يَمَانى فسحته شبر مملوءٌ ياقوتًا أحمر، وسفط من ذهب فيه مائة دُرَّة، وَزْنُ كُلّ دُرَّة مثقال أرفع ما يكون، فبعث إليه قيصر مائة ألف فارس، وهدايا وزوَّجه ابنته مارية، وحملها إليه فاشترط عليه أن ينزل عن الشَّام، ومصر، وما تغلَّب عليه أَنُوشروان من بلاد القياصرة.

وكانت ملوك الفرس تتزوَّج إلى سائر من جاورها، ولاتزِّوجُها ثم صار أَبَرْوِيز إلى بلاد آذَرْبَيْجَان، فاجتمع إليه هناك من كان بها من العساكر فالتقيا ببهرام فتوجّهت على بهرام فصار إلى نحو بلاد خراسان وكانت لملوك التُّرك، فاحتوى أبرويز على المملكة وأقر لجنود قيصر بالأموال والمراكب والكساء، وحمل إلى

قيصر ألفَىْ ألف دينار، وقرن ذلك بهدايا كثيرة، من آلات الذهب والفضّة، ووفّى له بما شرَط عليه، واحتال أَبَرْويز فى قتل بهرام بأرض الترك، فقُتِل غيلةً، فسيق برأسه فنصب على باب أَبَرْوِيز.

(ط) ولم يزل أبرويز يُصَانِعُ أُخْتَ خاقان، ويبذلُ لها نفيس الهدايا، حتى دسَّت إلى بهرام من قتله، وكانت لبهرام أختٌ يقال لها كُرْدِيّةَ كانت فى الشجاعة والفروسية مثل أخيها، وكان لهم عدد وجَلَدٌ، فكاتبها أَبَرْوِيز فى قتل خاله بِسْطَامٍ، وكان مَرْزبان الدَّيْلَم بخراسان، على أن يتزوَّجها، فقتلته، وقتل أَبَرْويز خالَه الآخر بأبيه وتزوّج كُرْدية، وكان وزير أبَرْوِيز، والغالِب عليه حكيم من حكماء الفرس، يقال له بُزُرْجُمِهْر، وكان أَبَرْويز لَمَّا تخلى عن ملكه باشتغاله بحرب بَهْرَام وذلك ثلاث عشرة سنة.

اتّهم بزرجمهر بالميل إلى مذاهب اليونانية، وهو مذهب مَانى فأمر بِحَبْسِهِ، وكتب إلى أَبَرْويز: كان من ثمرة علمك ونتيجة عقلك، مَاصِرْتَ به أَهْلاً للقتلِ، وموضعًا للعقوبة، فكتب إليه بزرجمهر أمَّا إذا كان معى الجد، فقد كنت انتفعُ بثمرةِ عقلى، والآن إذ لاجدّ أنتفعُ بثمرةِ صَبْرِى، وإن فقدتُ كثيرًا من الخير، فقد استرحتُ من كثير من الشرّ، ثم لم يزلْ يغرى به حتّى قتله، وبزرجمهر أكثر الفرس مواعظًا وحكمًا.

وفى ملك أبرويز، كانت وقعة ذى قار[1] بين بكر بن وائل والهامَرْز صاحب أَبَرْويز لأربعين سنةً من مولد النبىّ ﷺ وقال رسول الله ﷺ: «هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ انتصفَ فيه العربُ من العَجَمِ وَبِى نُصِرُوا» وفى رواية أخرى إنها كانت بعد بَدْرٍ بأَشْهُر وكان على مربط أبرويز خمسونَ ألف دابّة وألف فيل، منها ما ارتفاعه من الأرض اثنتا عشرة ذراعًا.

وأكثر ما يكون ارتفاع الفيل، من الثمانية إلى العشرة، قال: وقد يكون بأرض الزنج، ما هو أعلى سمكًا من اثنتى عشرة ذراعًا وقد يحمل الناس من أنيابها مَا زِنَةُ النَّابِ مائتا مَنٍّ، والمَنُّ رطلان بالبغدادى.

---

(١) يوم ذى قار: هو يَوْمٌ لبنى شَيْبان، وكان أَبَرْوِيز أغزاهم جيشًا فظفرت بنو شيبان، وهو أوَّلُ يومٍ انتصرت فيه العرب من العجم. اللسان (قور) ١١/ ٣٤٤.

وخرج أَبَرْويز فى بعض أعياد وقد صفّت له الجيوش والعدد والسلاح والمراكب، وألف فيلٍ فى حملة ذلك، وقد أحدقت به مائة ألف فارس دون الرّجالة، فلمَّا أبصرته الفيلة سجدت له، فما رفعت رءوسها، وبسطت خراطيمها حتى رفعت بالمحاجن، وراَطنَها الفَيَّالُون بالهندية فأعجب أبرويز لذلك وقال ليتهَا لم تكن هندية، وكانت فارسية، انظروا إلى أدبها من بين سائر الدوابّ. وكانت مدّة أبرويز ثمانيًا وثلاثون سنةً، وقام ابنه واسمه قُباذ ـ القابض عليه، وهو المعروف بشيرَوَيْه. قال (ط) وتفسير أَبَرْويز: المُظَفَّر. قال (ط): ولم يزل أَبَرْويز ملطَّفًا بموريق، إلى أن قتله الروم وأبادوا ذُرّيته، خلا ابنًا له صَغيرًا هرب به أَبَرْويز، فحافظ أَبَرْويز موريق فى ولده، وغزا الروم هرقل، فهزم قوّاد أَبَرْويز وقتل رجاله، وتحصَّن أَبَرْويز بالمدَائن، وقيلٍ فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**الم غُلِبَت الرُّومُ فى أدْنى الأَرْضِ**﴾[1] إنَّها أَبَرْويز، ملك فارس وهرقل ثم هزم الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ ملكهم بالإسلام، قال (ط): وفى آخر سنةٍ من مُلْكه هاجر رسول الله ﷺ.

ولما بلغ يزدجرد، وقعة القادسية، وقتل رستم، عَلِم أن مدّتهم قد انصرمت، فصار إلى حلوان، ثم تحوّل إلى إصبهان، وقال للموبذ: قد ظهر هؤلاء القوم، فلا يَلْقُوا لنا جَمْعًا إلاَّ فَلُّوه ولا ينزلون بمعقلٍ إلاَّ افتتحوه، فما الرأىُ؟ قال: رأيى أن تنزل إِصطخر، وتضمَّ إليك خزائنك وتوجّه منها الجنود، ففعل ومضَى إلى إصطخر، فلم يزل أبو موسى وعثمان بن أبى العاص يغزونه فيها، فلم يقدروا على فتحها فقدم ابن عامر سنة تسع وعشرين ولم يكن بكور فارس شىءٌ إلاَّ وقد فتحه المسلمون حاشا إصطخر، وقتلوا عامل ابن عامر فرجع إليهم ابنُ عامر فهرب يزدجرد إلى كرمان، وأتبعه ابن عامر مجاشع بن مسعود السلمى، فنزل مجاشع بن مسعود قرية من دَرَابجرد فقالوا له: إنَّ لنا عيدًا الليلة، فَإنْ رأيت أن تخلّى لنا القرية، قال: نعم فنزل منها خارجا بالفسطاط والأخبية فلما كان فى آخر الليل، أصاب أهل القرية رجفة فهلكوا عن آخرهم فينبش قوم منازلهم مِمَّن كان بينهم من العجم فأصابوا ألفى ألف وسبعمائة ألف، فأتوا بها مجاشعًا، وانصرف مجاشع إلى ابن عامر وقد فاته يزدجرد، وقد عرض فى جيشه ما عرض.

---

(١) سورة الروم: ١و ٢.

ومضى يزدجرد إلى سجستان، ثم توجّه إلى خراسان، فلمّا قرب من مرو خرج إلى ماهويَه بن مافناه بن فيد مَرْزُبَان مرو، وترجَّل وصارَ بين يديه ماشيًا، وقال له الموبذ: أيها الملك لو أمرت ما هويَه بن مافناه فيد أن يركب، فأمره فركب فلمّا دخلوا مرو فأقاموا أيامًا.

قال خرزاذ مهر ليزدجرد: لو أذنت لى أيُّها الملك لرجعت إلى فارس، فأذن له، فقال خرزاذ مهر لماهويْه: يا أهل خراسان إنكم قَتَلةُ الملوك، قتلتم فيروز، فاكتبوا لى كتابًا بأنّى قدمت بالملك بلاد مرو سالمًا، ومعه ابنه فيروز وثقله وحشمه، فكتب علَى ماهويَه كتابًا، ورجع منصرفًا إلى فارس، فلما صار إلى فارس اعتقد من عبد الله بن عامر ذمَّة، فلمَّا سار ابن عامر إلى خراسان رجع خرداذ مهر إلى مَرْوَ، فأقام مع الأساورة الذين كانوا معه مع يزدجرد.

واستمدَّ نيزك طرخان صاحب التُّرك وخرج من مرو، فنزل وزْق وهى على تسع فراسخ من مرو، فأقبل نيزك، فلمَّا قرب من وزق ركب يزدجرد لينظرَ إلى عددهم، فتَلقّاهم، فلما تراءَيَا نزلَ نيزك حتى دنا من يَزْدَجرد، فقبَّل رِجْلَهُ، ثم ركِبَ فسايره حتى أتى منزله وأمر نيزك بمنزل، وبعث إليه، ما يصلح به، وكسا الأتراك الديباج ومناطق الذهب، وأقام نيزك شهرًا، وكتب إلى يزدجرد يخطب إليه ابنته، فغضب يزدجرد وكتب إليه: إنما أنت من عبيدى، فما جرَّأك أن تخطبَ إلىَّ؛ وأمر يزدجرد بمحاسبة ما هويَه، وسأله الأموالَ فخافه، فأتى نيزك فقال: إنَّ هذا أتى مغلوبًا مَغْلولاً فنصَرتهُ فخُطِبت إليه، فبلغ من جهله ما علمت، وقد أمر بمحاسبتى وطلبنى بالمال، فخرج نيزك فنزل الجبانة محاربًا، فسار إليه يزدجرد ومعه ما هويْه، فقاتلهم فأثخن فيهم، فخاف ما هَوَيْه أن يهزمهم فتحوّل إليه فى أساورة مرو، فتفرّق عن يزدجرد أساورته فقاتلهم وصبر بعقدته، ثم رأى أن يتحوَّل ويرجع إلى مرو.

وكان ماهويه قد خلف ابنه بمرو، وقال له: إن رجعَ يزدجرد منهزمًا فامنعه، فأتى يزدجرد وقد أغلقوا أبوابها ومع يزدجرد زادَوَيْه فناداَهم زادَوَيْه: افتحوا، وأشرف ابن ماهويه فنادى: افتحوا للْمَلك، فأهوى إلى منطقته، فشدّها، أى لا تفتحوا، ففطن زادويه وقال: لعنكمَ الله يا قَتَلَةَ المُلُوكِ، وترك يزدجرد ومضى،

فرجع يزدجرد وحده، فأتى وزق، فنزل عن دابّته ومشَى حتَى دخل بيت طحَّان على شاطىء المرغاب، فمكث ليلتين ويومًا فخفى عن الناس خبره، فلمَّا رآه الطحان عظّمه وقال: من أنت؟ أَجِنِّى أنت أم إِنْسِىٌّ؟

قال: إنسى، فهل عندك طعام؟

قال: نعم، فأتاه بطعام، فقال: إنى مزمزم، فجئنى بما أزمزم به.

فأتى الطحان رجلاً من الأَسَاوِرَة، فسأله ما يزمزم به، فقال: عندى ضيف لا أعرفه؛ ولا أعرف مَسْأَلَتَه، سألنى ما يزمزم به.

فأدخله الأسوارى على ما هويه، فأخبره، فقال ما هَوَيْه: صِفْهُ؟

فوصفَهُ، فقال ماهَوَيْه هذا يزدجرد، انطلقوا فاخنقوه حتى تقتلوه.

قال الموبذ: ليس لك أن تقتله، لأنَّ الملك والدين مقرونان لا قِوامَ لأحدهما إلاّ بالآخر، وإنَّك إنْ قَتَلْتَهُ انتهكْتَ الحُرْمَةَ التى ليس لك بعدها شىء، فأعان القوم الموبذ، فَصدَّقوه، فشتمهم ماهَوَيْه، وقال للأساورة: مَنْ تكلَّم؟ فاقْتُلُوه، فكفّوا.

ومضى قومٌ مع الطحّان، فقتل يزدجرد، وأعطى ماهَوَيْه نيزك مالاً عظيمًا، فرجع إلى بلاده.

واخْتَلَفُوا فى قَتْلِ يَزْدَجَرد وكيفيّته، وكيف قُتِل، فقال قوم: دخلوا عليه وهو نائم فكرهوا قتله، فقالوا للطحّان: اقْتُلْهُ، فشدخَ رأسَه بحجرٍ، فرجعوا إلى ما هَوَيْه ومعهم الطحَّان، فأمر ما هَوَيْه بقَتْلِه وقال لا ينبغى لقاتل الملوك أن يَحْيَا بعدَهُ.

وقال قومٌ: نذرَ يزدجرد برسل ما هَوَيْه قبل أن يدخلوا عليه، فهرب ونزلَ الماء، وعليه ثيابه، فضربوا الطحّان وقالوا: دلّنا عليه فقال: ها هنا خَلَّفته، وخرجوا يطوفون فى طلبه، فرآه رجلٌ يجول فى الماء وعليه الدِّيباج، فأخذَهُ فقال له: خلّ عنى، وغمّ علىّ، وأعطيكَ خاتَمِى ومنطقتى، فقال: أعطنى أربعة دراهم، قال: الذى أعطيتك أعظم من الآلاف، قال إنما أريد أربعة دراهم.

فضحك يزدجرد وقال: لقد قيل لى إنك ستحتاج إلى أربعة دراهم فلا تجدها، فهجموا عليه، فقال لهم يَزْدَجَرد: لا تقتلونى، فإنّه من احتوى على قَتْلِ الملوك

عاقبَهُ الله فى الدنيا بالحَرْب، وفى الآخرة بالنار، فاحملونى إلى ملك العرب، فإنهم لا يستحيون قتلى، فأصالحه عليكم فتأمنون، فأبوا وأعطوا الطحّان وترًا، فدنا منه وكأنه يكلمه ورمى بالوتر فى عنقه، فخنقه حتى مات، وأخذوا ثيابه، فصرُّوها فى جراب وختموا الجراب، وقتله الطحَّان، وألقوا يَزْدَجَرْد فى الماء وانصرفوا، وقال قوم: إن يزدجرد لما أتى إلى منزل الطحّان فقتله الطحّان، فأخذ ما كان عنده، فأخذ وأبه، فأنكر أن يكون رآه، فضربوه، فأقرّ لهم بقَتْله، وأخرجَ متاعَهُ، فقتلوه به وأهل بيته معه، وأخرج الأسقف يزدجرد من النهر وصَيَّرَهُ فى تابوت، وحمله إلى إصطخر أول سنة إحدى وثلاثين.

وكان قتله فى وزق وهى على سبعة فراسخ من مرو

(س) فملوك الفرس الأُولَى سبعة عشر ملكا، منهم امرأةٌ واحدة، والأخرى اثنان وثلاثون مَلِكًا، ملك منهم امرأتان.

* * *

الإسكندر

هو ابن فيلقيوش، وقال قوم ابن قيلقوس، قوطىّ.

(ط) ان مطريوس بن هرمس بن هردس بن ميطون بن ليطى بن يونان بن يافث من ولد الأصفر بن أليفز بن عيصو بن إسحاق عليه السلام.

ويقال إنَّ ذا القرنين[1] هو هرمس، ويقال: هو ذبين بن قيطون بن روميّ بن لمطى بن كشلوخين بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ وورومى بن لمطى

(١) ذو القرنين: لقبٌ أُطْلِق على كثيرين، كالمنذر الأكبر، وتُبَّع الأقرن: مَلك اليمن، ورد ذكره فى القرآن (سورة الكهف: ٨٣). ويرادُ به: الإسكندر المقدونى، وسُمِّى كذلك، لأنه مَلَكَ فارس والروم، أو لعظم سَطْوته. والقرنان كناية عن السلطان.

أو يراد به: قورش: أحد ملوك فارس المصلحين، وصل فى فتوحه إلى بلخ، فكان ذلك بمثابة وصوله إلى نهاية الشرق، وفى جبال القوقاز بنى سدًا، ليحولَ دون تَسَرُّب القبائل الهمجية التى كانت فى السهول الشمالية، والتى سمَّاها القرآن: يأجوج ومأجوج. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٤٧.

هو أبو الروم.

وقال الزبير: حدَّثنى من يسوق الحديث عن العجم أنَّه رجل من أهل مصر اسمه الريَّان بن موريد اليونانى، وقال: هو رجل من أهل أينة ـ قرية من كور مصر الغربية، وقال أيضا: وهى متصلة بالإسكندرية، وقيل: بل هو رجل من حِمْيَر، قال تُبَّع: [كامل]

قد كان ذو القرنين جَدِّىَ مُسْلِمًا ... مَلِكٌ تَدِينُ له المُلوكُ وتحشـد

بَلَغَ المَشَـارِقَ والمَغَـارِبَ يَبْتَغِى ... أَسْبَابَ عِلْمٍ مِنْ حكيمٍ مُرْشِدِ(١)

وقال من أبى ذلك: إنما قال تبّع: (قد كان ذا القرنين قبلى مسلما).

ويروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سمع رجلاً ينادى آخر: ياذا القرنين، فقال: اللهم غَفْرًا أما رضيتم أن تتسمّوا بالأنبياء حتى تسمَّيتُم بالملائكة؟

ومن أغرب ما ورد فى ذلك أنه إنما سُمِّى ذا القرنين، أنه كان عبدًا صالحًا بعثه الله ـ عز وجل ـ إلى قومه، فضربوه على قرنه، فمات فأحياه الله ثم بعثه مرّة أخرى إلى قومه، فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين.

ومن غريب ما قيل فى نسبه ما قال (ط) وذلك أنه ذكر أنه ولد دارا الأكبر، أبو دارا الذى غلبه على ملكه الإسكندر، وذلك أن دارا كان تزوج بنت ملك الزنج هلابا، فلما حملت إليه استخبث ريحها فأمر أن يحتال لذلك، فغسلت بماء السندروس، وقد علقت منه فلهذا قيل الإسكندر.

قال القوطى: وكان له مع دارا ثلاث ملاحم، هلك فيها من الفرس أكثر من عشرة آلاف، وكان عدد الفرس فى أول التقائها ستمائة ألف مقاتل، وعدد عسكر الإسكندر أربعة آلاف فارس وثلاثون ألف رجل، وكان أخذه لدارا وهو جريح فلم يبق عنده إلا يسيرًا حتى هلك، فأظهر الإسكندر الحزن عليه وأمر بدفنه كما دفن الملوك.

قال (ط): وثب على دارا رجال من أصحابه فقتلوه، وتقرَّبوا برأسه إلى الإسكندر، فقتلهم، وقال: هذا جزاء من اجترم على ملكه.

---

(١) البيتان لتُبَّع الحميرى، وسبق تخريجهما.

ولما مات الإسكندر قال الحكيم: ما كنت أحسبُ أن قاتل داراَ يموت وتوفى الإسكندر بناحية السواد فى موضع يقال له شَهَرْزُور بعد أن غزا الهند حتى انتهى إلى البحر المحيط، فهال ذلك ملوك المغرب فوفدت عليه رسلها بالانقياد والطاعة.

وعلى عهد الإسكندر، كانت دولة النساء[1] ومملكتهم الخالية من الرجال وزعموا أن أتين منهن ملكاتهن وفدتا على الإسكندر يطلبن منه النسل، فجامعهن بما يجوز من النكاح.

وكان من خبرهن أن أمرين خرجا من سبطيه، مدينة بأقصى الجوف فاجتلا ببلاد فيروجيه، فأغار على من جاورهما، فنصبوا لهما الكمائن حتى قتلوهما ومن معهما من الجنود، فاستأصلوهم، فلما انفرد النساء هناك اجتمعن على من بقى معهن من الرجال فقتلنه ثم جيشن وخرجن على الذين قتلن رجالهن، فأخذن بثأرهن منهم وعُدْنَ يمينًا وشمالا، وعظم أمرهن، وهابهن من يليهن من الأمم، فكن يعاهدن الرجال الذين وراء النهر منهن، ويعبرونه اليهم، فتحملن منهم، فإذا ولدن ذكراً قتلنه، وإذا ولدن أنثى خرقن مواضع ثدييها لئلا تضرَّبها فى حمل السلاح، فملكن على هذا الحال مائة سنة، حتى قتلهن هرقل الملك الظاهر الإغريقى صاحب صنم قادس بالأندلس.

وفى شمال الأرض على البحر المحيط مملكة النساء باقية إلى اليوم على ما يأتى ذكره بعد هذا ـ إن شاء الله تعالى.

وقال القوطى: سمة بعض خدمه بأرض بابل.

قال (ط): فحُمِل إلى الإسكندرية فى تابوت من ذهب، وكانت مملكته اثنتى عشرة سنة (ط) أربع عشرة سنة، وقيل: ثلاث عشرة سنة عاش منها بعد قتل دارا خمس سنين.

القوطى، قال (ط): ويزعمون أن قتل دارا كان فى السنة الثالثة من ملكه، فقد عاش على هذا بعده عشر سنين، وكان عمره ستًا وثلاثين سنة باتفاق، وقيل أنه قتله بعد سبع سنين من ملكه، وعاش بعد ذلك خمس سنين.

---

(١) انظر فى ذلك: آثار البلاد ٣٣ ونزهة المشتاق ٢/ ٦١١ـ٦١٣.

قال (ط): وعرض الإسكندر جنده بعد أن تغلّب على مماليك الفرس، فوجدهم ألف ألف وأربعمائة ألف مقاتل.

قال (ط): ودخل الإسكندر الظلمات مما يلى القطب الشمالى ويحد الشمس فى الجنوب فى أربعمائة رجل من أصحابه، يطلب عين الحياة، فسار فيه ثمانية عشر يومًا، وبنى اثنتى عشرة مدينة، سماها كلها إسكندرية، منها: هراة، ومدينة مرو، ومدينه سمرقند، ومدينة باصبهان يقال لها حى، بنيت على مثال الجنة.

وقيل إنه تزوج بنت دَارَا.

ولما مات الإسكندر، عُرض الملك بعده على ابنه، فأبى، واختار النسك والعبادة.

قال (ط): واجتمع بالإسكندر ملك الروم، وكان قبله مفترقًا، وافترق به ملك فارس، وكان قبل مجتمعًا، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك اليونانية

فاستوسق بالإسكندر ملك اليونانيين بالشام ومصر، وهى مقدونية، وإليها ينسب الإسكندر المقدونى، ونواحى المغرب من الأندلس، وغيرها.

وكانت دار مملكتهم الإسكندرية، فولّى بعده خليفته بَطْليمُوس بن لاوى، وهذا الاسم يخص ملوك الإسكندرية من اليونانيين[1] وكان ملكه أربعين سنة.

وهو أول من اقتنى البُزاة ولعب بها، واللَّذارقة وهم مُلُوك الأندلس، وغيرهم أول من لعب بالشواهين.

وملك بعده بطليموس بن هيفلوس ثمانى وثلاثين سنة، وهو الذى بنى مدينة أنطاكية، وهى أحد عجائب العالم، مسافة سورها اثنى عشر ميلاً، وعدد شرافاتها أربعة وعشرون ألفًا، وأبراجها مائة وسبعة وثلاثون برجًا، وأسكن كل برج بِطْريقًا

(١) مروج الذهب ١/ ٣١٣.

برجاله وخيله، فمرابط الخيل فى أسفله، وأعلاه طبقات يسكنها الرِّجال، كل بُرْج منها كالحصن، عليه أبواب الحديد، وأنبط فيها عيونًا، وأجرى المياه فى شوارعها، وماؤها يستحجر فى مجاريه فلا يؤثر فيه الحديد، ولا يُغَيِّره ولا يكسّره، وهذا الماء يحدث فى الأجواف الرياح القولنجية.

وقد أراد الرشيد سُكْنَى أنطاكية، فقيل له ما ذكرناه من ترادف الصدأ على سلاحها، وذهاب ريح الطِّيب بها، فامتنعَ عن سكناها وهو الذى أطلق اليهود المأسورين بمصر، وهو الذى انتخب سبعين مترجمًا، فترجموا التوراة من العبرانى إلى الإغريقى، وفى أيامه كانت الحرب بين أهل رَومة وقرطاجنة، وهى الحرب التى قيل لها حرب إفريقية، وبُنِيَتْ مدينة قرطاجنة قبل روما باثنتين وسبعين سنة وكانت ولاَيته أربعين سنة.

ثم ملك بعده بَطْليمُوس أقريطش ستًا وعشرين سنة وكانت له حروب مع صاحب أنطاكية وصاحبها الإسكندروس، وهو الذى قتل من اليهود نحو ستين ألفًا. وفى زمانه قام الرومانيون وهدموا مدينة قرطاجنة.

ثم ملك بطليموس، صاحب علم عِلَل الفلك والنجوم، وواضع كتاب المجسطى[١] أربعًا وعشرين سنة.

وفى زمانه ظهرت جزيرة البركان فى البحر بصقلية، ثم ملك بَطْليموس (مُحِبّ الأم)، صحب الأمراء بلاء نظرة أى مزكّية المجن خمسًا وثلاثين سنة، وهو الذى عليه أنيسول.

(١) المجسطى: مرجع فلكى عام، أثره كبير فى تقدُّم الفلك عند العرب وفى أوربا فى القرون الوسطى، كتبه عالم الأسكندرية بطليموس فى القرن الثانى، وترجم إلى العربية أكثر من مرَّة باعتباره موسوعة فلكية مزوَّدة بالبراهين. يشتمل على ١٢ مقالة، بها وصف السماء ومدارات النجوم، والتقويم الشمسى، وحركات الشمس والقمر والكواكب، وحساباتها والخسوف والكسوف ومواقع النجوم.

وفى المجسطى أضاف بطليموس أدلَّة جديدة على كروية الأرض، وتفسيرات لعدم انتظام حركات أفراد المجموعة الشمسية فى مساراتها واختلاف أحجامها الظاهرية. كان أول المهتمين من العرب بتفسير المجسطى يحيى بن خالد البرمكى ظهرت على منواله مؤلفات عربية، مثل: المجسطى لأبى الوفاء البوزجانى والقانون المسعودى لأبى الريحان البيرونى. الموسوعة العربية الميسرة ١٦٤٨/٢.

ثم ملك بعد بَطْليموس أَقْرِيطش، وهو الذى غلب فى زمانه الرومانيون على الأندلس.

ثم ملك بعده يَطْليموس شوطان، وفى زمانه أقبل بروطَى الرومانى إلى الأندلس، فقتل من الجلالقة نحو خمسين ألفًا، وهرب بعضهم فلالاً وكانت ولايته[١].

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانى، وفى زمانه كان أوفالوس الشاعر الذى مات عشقًا، وملك عشرة أعوام، ثم أفضى الأمر إلى قلابطرة[٢] ابنة بَطْليموس، وهى آخر ملوك اليونانيين وكان يشاركها فى ملكها زوجها أنطونيوس.

وكانت هذه الملكة حكيمة متفلسفة، مقرّبة للعلماء، ولها كتبٌ مُصَنَّفة فى الطبّ وغير ذلك من الحكمة، معروفة عند أهل العلم بذلك وبذهاب مُلكها ذهبت علوم اليونانيين، وانمحت آثارها إلاّ النبذ ممّا بقى فى أيدى حكمائهم، وسار إليها الثانى من ملوك الروم وهو أغشطش، وهو أَوَّلُ مَنْ سُمِّى قيصر، لِمَا سنذكره، وكانت له حروبٌ بالشام ومصر، ومصارعُ مع هذه الملكة إلى أن قُتِل زوجها بمنزلهم مصر، فلم يكن لقلابطرة فى دفع قيصر عن مصر حيلة وكان مذهب قيصر أخذها لعلْمه بحكْمَتها، وأنها بقيَّة من حكماء اليونانيين ليأخذ منها ما شاء، ثم يعذّبها ويقتلها، فراسلها خادعًا لها، وعلمتْ مُراده نفسها، وطلبت الحيّة التى تكون بين الحجاز والشام وهى حَيَّةٌ شِبْرِيَّة وتُدْعى أيضا الفتْريّة، ذات رأسين تكون فى جوف الرّمل، فإذا أحست بالإنسان أو غيره من الحيوان، وثبَتْ من موضعها أذْرُعًا كثيرة، فضربته بإحدى رأْسيهما فى أىّ موضعٍ لحقَتْهُ منه، فيعدم من ساعته الحياة ويُعلّقه ضرها لحينه، فاحْتُمِل لها منها حَيَّةٌ، فلما علمت باليوم الذى يدخل فيه أغشطش قصر مُلْكِها، جلستَ على سرير ملكها ووضعت تاجَها على رأسها، وتزيَّنَتْ بأحسن الزينة ونَظرت وسط مجلسها بأنواع الرياحين والفواكه والطِّيب وأكثرت مما بمصر من عجيب الرَّياحين، وعهدت جميع ما احتاجت إليه من أمرها، وفرّقت الحشم من حولها، ودعت بعض جواريها مِمَّن اختارت الموت قبلها،

(١) كذا بياض فى الأصل.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣١٦.

لتختبرَ أَمْرَ الحيّة، فأَدْنَتْ يدها من فمّ القارورة التى كانت فيها الحيّة فتَفَلت على يدِها، فجمدت مكانها وعدمت الحياة من فورها ثم أدْنَت الملكةَ منها يَدَها، ففارقت الحياة لحينها وهى على هيئتها، وانسلّت الحيّةَ، فاستترت بالرياحين. فدخل قيصر فنظر إليها، فلم يشك أنها تنطق، فدنا منها، فتبّين أنها ميّتة، أعجب بتلك الرياحين، فأمَرَّ يده على كُلٍّ نوع منها وهو متأسِّفٌ على ما فاته من الملكة، فبينا هو كذلك إذ قفزت عليه تلك الحيّة، فتَفَلَتْ عليه من سُمِّها، فيبس شقُّه الأيمن من ساعته، وذهبت عينه وسَمْعُه، فعجب من فعلها بنفسها، ثم من احتيالها عليه، وقال فى ذلك شعرًا بالرومية مأثور عندهم، وأقام بعد ذلك يومًا فهَلكَ، ولولا ما كانت أفرغت من سُمِّها على الجارية والملكة لهلَك أغشطش من ساعته وكان السبب الذى أهاج الحرب بينهما، أن قواد قيصر وقواد بَطْلِيموس كانوا يقترعون كُلَّ عام، من يخرج منهم إلى الغرب، ومن يخرج منهم إلى الشرق، فخرجت فى بعض الأعوام قرعة قيصر إلى الغرب فغزا الأندلس، فوجد أهلها قد تحصَّنوا فى معاقلهم، فلم يظفر منهم بشىء ورجع مُخْفقًا، وخرج فى ذلك قائد اليونانيين يتناول إلى ناحية المشرق فسَبَى سَبْيًا كثيرًا وفتح الحصون، وأقبل بنحوٍ من ثلاثين أسيرًا من أمراء الشرق، فنفس ذلك قيصر وحسده ووقعت الحرب بينهم، فكانت الغلبة لقيصر.

فجميع الملوك اليونانية أربعة عشر ملكًا ومُدَّتُهم ثلاثمائة سنة لما قدمناه فى نسب الإسكندر ـ ثم غلب هذا الاسم على بنى عيصوا لَمَّا وَلُّوا ملكهم وقيل إنَّ الروم اسم الأصفر بن المسقر بن عيصو، والأصفر لقبٌ له، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك الروم

إنما سمى أغشطش قيصر، لأنَّ أُمَّه ماتت وهى حامل به فشُقَّ بطنُها عنه ومعنى قيصر: بُقر.

وكان هذا الملك يفتخر أَنَّ النساء لم تَلِدْهُ، وكذلك كان ولده يفتخرون بذلك فجرى عليهم هذا الاسم.

وحقيقة هذه اللفظة بالأعجمية: جَشْر، لأنَّ المشقوق يقولون له جاشر، وقد زعم أنه سُمِّي جيشر، لأنه ولد بشعر تام، يبلغ عينيه واسم الشعر بالأعجميّة الفصيحة: جشارية، فحُرِّف فقيل: قيصر وكان ملكه ستًا وخمسين سنة، ولاثنتين وأربعين سنة خَلَتْ من مُلْكِه وُلِدَ المسيحُ، هذا الصحيح، وقد قيل غيره على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ورأيت فى مدينه أنطاكية فى بعض كنائسها أنه كان بين ملك الإسكندر ومولد المسيح ـ عليه السلام ـ ثلاثمائة وتسع وستون سنة ثم ملك بعده طباريوس، فكانت مُدَّة مُلْكه اثنتين وعشرين سنة ولثلاث سنين بقيت منه رفع المسيح، ثم اختلفت بعد مُلْكه الرُّوم وتحزَّبت فأقاموا على ذلك اختلاف الكلمة والتنازع فى المملكة، مائتى سنة وثمانى وتسعون سنة، وهم فى ذلك لا يعرفون غير عبادة الأصنام.

ثم مَلَّكوا على أنفسهم بعد تلك المرة ملكًا يقال له غايوس فملك أربع عشرة سنة، وهو قاتل بطرس الحوارى، وبولس المذكورَيْن فى سورة يس، وقد ذكرنا خبرهما، وكان بطرس قد سار إلى مدينة رومة، داعيًا إلى الله عزَّ وجَلَّ وإلى الإيمان بالمسيح، ولم يزل غابوس قاتلاً للنصارى، وأتباع المسيح، وكان أكفر مِمَّن مضى قبله، وأجمع لخلال الشر وفى زمانه تفرق أصحاب عيسى الاثنا عشر فى البلاد وتلاميذه الاثنان وسبعون، وقبور الاثنى عشر مشهورة فى الآفاق، وأكثر القول أن الذين ذُكِرُوا فى سورة يس منهم.

ثم أفضى المُلْك بعد مَلِكٍ ثان منهم إلى بشسيان، وهو أبو طيطش، فبعث ابنه

طيطش، إلى حرب بنى إسرائيل بالشام، فكانت لهم حروب عظيمة، انتهى القتل فيها من بنى إسرائيل إلى ثلاثمائة ألف وتفرقت بنو إسرائيل فى البلاد، وخرب طيطش بيت المقدس وحرثه بالبقر ومحا أثره وعفا رَسْمُه. (ط) غضبًا للمسيح، فكان أول بنائه إلى خرابه ألف سنة وستون سنة. (س) وعاقب الله الروم، من يوم تخريبهم لبيت المقدس، بأنه جعلهم يُسْبَى كل يوم منهم سَبْىٌ، إلىَ من أطاق لبلادهم من الأمم.

فلا يومٌ من الأيام العالم إلا والسَّبْىُ فيهم، قل ذلك أو كثر، وفعل ذلك بيت المقدس لتمام أربعين سنة من رفع عيسى - عليه السلام - وبشبشيان هو الذى تغلب على مدينة رومة، ودخل أشطيش على رُخّ واحد. وهلك ملك الرومانيين على أيديهما، وانقادت لهم جميع البلاد، وكانت ولايه بشبشيان عشرة أعوام.

ثم ملك بعده ابنه طيطش، فكان أحكم ملوك أهل المجوسية، وأعلمهم باللسان الإغريقى وأكثرهم تفننا فى العلوم، وكان ملتزمًا بخلال الخير، وخلال المكارم، وكان اليوم الذى لا يفك فيه أسيرًا، أو يغنى فقيرًا، أو يغيث ملهوفًا، لا يراه من ملكه، ولا يؤرخه وكانت ولايته عامين، فعظم على الناس فقده.

ثم ملك بعده أخوه دومطيانس، فكانت دولته جامعة لكل شر، ونفى يحيى الحوارى، إلى بعض الجزائر. ثم ملك بعده قيصر أنطونيش قومى، فأصلح ما أفسده الذى قبله، وأمر بإخراج يحيى الحوارى، من الجزيرة، وصرف النظر إلى كورهم، وكان الذى قبله أتقاهم.

وأوصى بعده إلى وطريان، وكان أندلسيا، وقيصر وطريان الأندلسى، وكان مظفرًا، دك أجناسًا كثيرة، وعبر الفرات.

وغلب على كور كثيرة، وفى سنة ثلاث عشرة، من دولتين، كَوَّركور إرمينيه وكور مورقة، وكور الكوفة، وولّى بطشة[1].

وولى بعده قيصر أنِطونيش، وهو الملقب بالرحيم لما كان عليه من حسن السيرة والرأفة بجميع المسلمين، وأسقط المغارم عن جميع أهل مملكته، وفى زمانه عَظُم

---

(١) كذا بالأصل.

أمر جَالِينُوس الطبيب[1]، بمدينة رومة، ومولده فى برغنة، وولى أنطونيش اثنتى عشرة سنة.

وولى بعده ثلاثة ملوك منهم نحو خمسين عامًا، ثم كان أنطونيش الأصغر وفى زمانه كان تنعش المترجم وبرجوس الأسقف فى بيت المقدس، وظهرت على يديه عجائب، وكان إذ ذاك أوريان العالم، وولّى أنطونيش الأصغر سبع سنين.

ثم ولّى قيصر مقرن أربعة أعوام، وكان فاسدًا مفسدًا ثم قيصر الإسكندر وكانت أمُّه نصرانيةً، وهو الذى قتل مَلكَ الفرس، وولّى ثلاثة أعوام، ثم قيصر فيلبس، وزعم بعضهم، أنه أوّل من تَنَصَّردين ملوك الرومانيين وفى السنة الثانية من ولايته تمَّ لرومة ألف سنة، فعيَّد عيدًا عظيمًا على ملك النصرانية، وَوُلّى سبعة أعوام، وأفضَى الأمر بعده إلى عدد ملوك منهم إلى دقيانوس فملك ستين سنة، وكان ممعنًا فى قتل النصرانية، ومنه هرب أصحاب الكهف، وهم أصحاب الرقيم، وقال جماعة أصحاب الكهف غير أصحاب الرقيم وكلا موضعيهم ببلاد الروم.

وذكر أحمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله، إلى بلاد الروم، أنه أشرف على أصحاب الرقيم بحارمى فى بلاد الروم، ولم تزل الأمم كذلك وهى عبدة الأوثان إلا ما ذكَر بعضهم عن فيلبس إلى أن تولّى الأمر قسطنطين المنتصر المؤمن بعيسى.

فعدد ملوك الروم إلى قسطنطين تسعة وأربعون ملكًا، ومُدَّةُ ملكهم أربعمائة سنة وسبع وثلاثون سنة، وبنيت مدينة رومة قبل ملكهم بأربعمائة سنة.

---

(١) جالينوس: (١٣٠ـ٢٠٠) طبيب وكاتب يونانى، ولد فى برجامون، وعمل جراحًا لمدرسة المصارعين بها بعد أن أتَمَّ دراسته فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى والإسكندرية، ثم أقام بروما حيث ذاع صيته، فاختاره مرقص أوريليوس طبيبًا لبلاطه. ويُنْسَب إلى جالينوس خمسمائة مؤلف، أغلبها فى الطبّ والفلسفة وبقى من مؤلفاته الطبية ثلاثة وثمانون على الأقل. وقد أضاف إلى ما سبق من معارف طبية باكتشافاته التى توصَّل إليها بالتجريب وبتشريح أجسام الحيوان. وظل جالينوس حتى القرن ١٦ مرجعًا مُسَلَّمًا به، فضعفت روح البحث، مِمَّا أعاق تقدُّم الطبّ.

ولأعماله فى التشريح والفسيولوجيا أهمية خاصة، فبيَّن أنَّ الشرايين تحمل الدم لا الهواء، وأضاف الكثير إلى المعرفة بالمخ والأعصاب والحبل الشوكى والنبض. الموسوعة العربية الميسَّرة ٥٩٧/١.

والذى ذكرناه قبل هذا أصحّ، وهو الذى أمضى أنيايولش الحوارىّ بالأندلس ومدينة ماردة وأشبيلية وقرمُونة فى ذلك العصر، وهو الذى يحكى عنه فى الإنجيل، أنه ملك أكثر الأرض، وخضعت له ملوكها، لخضوعها، للإسكندر، وهو الذى أقبل على الأندلس فسلَّمها. وأخذ جُلَّ خيارها، فقطع أيديهم وأرجلهم، وهو الذى بلّط نهر رومة بالصفر فأرخت منه الأعاجم، وملك قسطنطين بن هلافى، فدخل دين النصرانية، وخرج من رومة لسنة خلت من مُلْكه، وهو أوّلُ ملكٍ خرج منهم عن رومة وكان ذلك الخوف لخوفٍ داخَلَه من بعض آل ساسان فبنى القسطنطينيةَ، وسماها باسمه، ولسبع من ملكه خرجت أمه هلافى إلى الشام، فبنيت البِيَع والكنائس وطلبت الخشبة التى صلب عليها عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ بزعمهم، وعذبت عليها اليهود حتى خبرّها شيخ منهم عنها أنها فى سباطةٍ هناك فاستخرجتها، وحلَّتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيدًا عظيمًا، وذلكً عيد الصَّليب وذلك لأربع عشرة ليلة من أيلول.

وفى هذا اليوم تُفْتَحُ الخلجان للنيل ببلاد مصر، واستخرجت هلانى الكنوز والأموال من بلاد مصر والشام، وذخائر الملوك فصرفتها، إلى بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية، فكل كنيسة بالشام ومصر، وبلاد الروم، فمن بنائها، وهى التى بنت كنيسة حِمْص تحملها أربعة أركان، وهى إحدى عجائب العالم، وليس للروم فى حروبهم كفاء، وأحرف هلانى خمسة فالأول الهاء وهى بحساب الجُمل خمسة، وهو إلى آخره مائة. ولسبع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين، اجتمع ثلاثمائةَ وثمانيةً عشر ألفًا وأقاموا دِينَ النصرانية، وهذا أوّل الاجتماعات الستة التى تذكرها الروم، وهو أعظمها.

وكان أوّل دخول قسطنطين فى النصرانية لرؤيا رآها، وذلك أنَّ مَلك برجان كان مظفرًا عليه، فرأى فى منامه أنه يرفع الصلبان عليه فى زمانه فيظفر به، ففعل ذلك وصحَّت رؤياه، وقيل إنه إنما تنصّر لأنه كان ظهر به جذام فأبرأه منه أسقف رومة بالدعاء دون دواء بعد أن أعياه علاجه فلم يقدر أن يظهر النصرانية برومة، فبنى القسطنطينية على حساب ما بَيَّنَّاه، فى كتاب الممالك، وفى زمن قسطنطين هذا كان أريش الخارجى، وفى زمانه كان اجتماع الأساقفة، على لعن أريش، وملك

نيّفًا وثلاثين سنة وقيل خمسًا وعشرين سنة.

وملك بعد قسطنطين الأكبر لليانش، فرجع إلى عبادة الأوثان وكان يريد الاحتيال، فى قطع دين النصرانية، إلا أنه كان لا يجاهر بذلك لأن أمرها قد قوى، وأمر بإخراج أَهْلِ دين النصرانية من الديوان، وغزا بلاد الفرس فى ملك سابور بن أرد شير، فجعل لأوثانه نَذْرًا إن جاء ظافرًا أن يقتل النصارى، وأتاه سَهْمٌ غَربٌ[1] فذبحه، ثم رجع أمرهم إلى النصرانية، والملك منهم فى هذا البيت.

ثم ملك بعده لليانش بنتنيان، وفى زمانه قدمت القوط على أنفسهم أدريمز أخاه، فاستمر قيصر لسنين، ورغب فى طاعته فأيده، حتى ظفر بأخيه فرغب حين ذلك فى دين النصرانية، فبعث إليه قيصر قومًا يعلمونه النصرانية على نارحة أريش، وهو كان مذهب بنتنيان، ثم ظهرت أنقلش إثر ذلك على القوط وضيَّقوا عليهم، حتى أخرجوهم عن بلدهم، فاستغاثوا قيصر فتوسَّع لهم فى بلد طرَّاخية فسكنوها، على الطوع منهم، فلما أفرط عمال قيصر عليهم، باللوازم أشهروا نفاقهم، فغزاهم قيصر فقتلوه، وكانت ولايته...[2].

ثم ملك بعد قيصر طدوش الأندلسى، وكان من أهل الفضل والنقاء فنصره الله وأعانه على الرومانيين بالريح فهزم فى قليل من أصحابه عددًا عظيمًا منهم وفى ذلك قال شاعرهم:

مَنْ ذا يُحَـارِبُه والرِّيحُ تَنْصُرُهُ

هكذا ذكروا فى كتبهم، وغزا القوط فقتلهم، قتل منهم عددًا كثيرًا، وضيق على الرومانيين حتى أتاه اللُّذَرِيق ملكهم خاضعًا نازعًا عَّما كان عليه فقبل خضوعه فتوسّع لهم، وانصرف عن حربهم، ومات طدوش بقسطنطينية، إلى ستة عشر يومًا، من وصوله إليها.

وكانت مملكة طدوش، أحد عشر عامًا، وبعد عشرين عامًا غلب أَدْريق على رومة، وهى بعد ثغر من ثغور قيصر، وانتهبتها ثلاثة أيام ثم خرج عنها. وقلَّد فى مملكته قيصر أنورش، وعليه طدوش الأصغر وهو الذى ملك بعد أنورش على

(١) السَّهْمُ الغَرْبُ: هو الذى لا يُعْرَف راميه.

(٢) كذا فى الأصل.

أنطاكية، فخرج عنها أدْريق إلى غالش وأوّل من ملك من القوط بالأندلس حدريفش، وكانت داره ماردة، فحشد القوطُ من أخبرهم بماردة، وأقبل لمحاربة قرطبة، فلمّا التحمت الحرب، قتل ولده، وذهب أكثر رجاله.

ثم ملّك القوط بعده، ركديد، وكانت داره طليطلة، وركديد هو الذى رجع عَنْ خارجيّة القوط إلى جماعة النصرانية، وقال المؤرخون من العلماء: لم يزل الأمر فى أهل بيت قسطنطين بن هلانى إلى أن ولى أمرهم بندقوس ويقال بنداسيس الأكبر، ولم يكن من أهل بيت المملكة، وفى زمانه استيقظ أهل الكهف وكان من الأشبان، وقال الواقدىّ وابن خرداذية: هم ناقلة من إصبهان.

ومن هؤلاء اللّذارقة ملوك الأندلس، وكان الملك منهم يترساسيس الأصغر، وفى زمانه افترقت مذاهب النصارى، فتفرّق النصارى النسطورية[1] على مذهب نسطارس وهم المشارقة من النصارى، وهو الذى تكلّم فى اتحاد اللاّهوت القديم بالنّاسوت المُحدَث، واليعاقبة بمصر وأنطاكَية والشام وتكريت، والملكية وهم بقسطنطينية والروم.

ويعقوب كان من أهل أنطاكية برذعىّ يصنع البراذع.

ثم اختلفت ملوكهم فى اعتقاد هذه المذاهب، بعد ذلك ولم يزالوا يتوارثون الملك إلى أن أفضى الملك إلى هِرْقل، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبى ﷺ وهو الذى ضرب الدنانير الهِرْقلية، وإليه انتهت الهرقلية، وملك خمس عشرة سنة، وهو هرقل بن يوسطين[2]، وكان أبوه ملكًا أيضًا، وفى كتاب السّير أيضًا، أن رسول الله ﷺ هاجر وملك الروم قيصر بن فوق، وبقى هرقل حياة رسول الله ﷺ وخلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما.

---

(١) النسطورية: بدعة ظهرت فى القرن الخامس، قال بها نسطوريوس بطريك القسطنطينية حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله، وقد عارضه كيرلس الإسكندرى، وانعقد بهذه المشكلة ثلاثة مجامع دينية متلاحقة: مجمع أفسوس ٤٣١، ومجمع خلقيدونة ٤٥٠ ومجمع القسطنطينية ٥٥٣، وقررت كلها أنّ للمسيح طبيعتين: إلاهية، وإنسانية، متّحدتين فى أقنوم واحد، وقوام إلاهى واحد. الموسوعة العربية الميسّرة ٢/ ١٨٣٢.

(٢) فى الأصل (بوسطين) وهو تحريف.

ثم ملك بعده موريق، وقيل إنَّ هِرقل بقى إلى آخر أيام عمر، على ما ذكرناه وقيل إنه هرقل آخر، ولاشك أنّ المملكة كانت فى هرقل إذ استفتحت الشام هذا أو غيره فبقى إلى أيام عمر، فكان موريق، زمان عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم ملك بعده ابنه جبرون بن وافاوى، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، فلما كان من أمر مَسْلَمة ما كان، اضطربت مملكة الروم، وانحرفت، وَوُلِّيهم من غير أهل بيت المملكة.

ولم تزل كذلك إلى أن وليهم قسطنطين بن أليون، وهو من ملوكهم الأخيرة المختلف فى نسبهم، وذلك أيام المنصور. ثم ابنه أليون، أيام المهدى والهادى.

ثم قسطنطين أليون وأمه كانت مُشاركة له لِصِغَرِه، وسُمِلت عيناه فبقى ملكًا بعض أيام الرشيد.

ثم نقْفُور بن إستبراق، باقى زمان الرشيد وغزاه، فكانت بينهما حروبٌ، وانقاد له ثم نقض وكُتِم عن الرشيد ذلك لِعلَّةٍ كانت به، فلما استقلّ دخل شاعر عليه فقال: [كامل]

نقضَ الذى أعطاكَـهُ نقْفُورُ ... وعَلَيْـه دائرةُ البوارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أميـر المؤمنيـنَ فإنه ... فَتْحٌ أَتَاكَ بِه الإلَهُ كَبِيـرُ
فَلَقَدْ تَبَاشَرَت الرَّعيَّة إذ أتى ... بالغَـدْرِ منه وَافِـدٌ وبَشِيرُ[1]

وفى ذلك يقول أبو العتاهية: [وافر]

أَلاَ نَادَت هِرَقْلَة بِالْخَرَابِ ... منَ المَلِكِ المُوَفَّقِ للِصَّـوَابِ
أَميرَ المُؤْمنِينَ ظَفِرْتَ فَاسْلَمْ ... وأَبْشِر بالغَنيمـة والإِيَابِ[2]

وانقاد نِقْفُورُ بعد ذلك، وكان استفتاح الرشيد، بهرقلة، سنة تسعين ومائة بعد حصار وقصَّةٍ طويلة. قال أبو العباس: أخبرنى شبل الترجمان، قال: كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة، فلما افتتحها، رأيت حجرًا منصوبًا، مكتوبًا عليه باليونانية، فجعلت أُتَرْجِمُه وأمير المؤمنين ينظر إِلَىَّ، وأنا لا أعلم فإذا تاريخه زائد

(١) الأبيات فى مروج الذهب ١/٣٤٣ بلا نسبة.

(٢) البيتان لأبى العتاهية فى ديوانه ومروج الذهب ١/٣٤٨.

على ألفى سنة من ذلك اليوم، وهو (بسم الله الرحمن الرحيم): يا ابن آدم غافص الفرصة عند إمكانها، وكَلِ الأمورَ إلى وَلِيِّهَا، ولا يحملك إفراط السرور على المَأْثَمِ، ولا تَحْمِلْ على نفسك هَمَّ يَوْمٍ لم يَأْتِ، فإنه إن يك من أجلك يَأْتِ الله فيه برزقك، ولا تكن مغروراً بجمع المال، فكم قد رأينا جامعًا لِبَعْلِ خليلته وُمُقَتِّرًا على نفسه، تَوْفيراً لغيره. وكانت للرشيد بعد هذا مع نقفور أخبار كثيرة.

ثم ملك بعده ابنه استبراق، ثم ابنه نقفور، إلى أن تغلّب على الملك قسطنطين زمان المأمون ثم توفيل زمان المعتصم، وهو الذى فتح زَبطرة وفى مملكة فتح المعتصم عمورية، وكان الملك فى ذريته إلى أن تغلب بسيل الصقلى ولم يكن من أهل بيت المملكة وذلك زمان المهتدى والمعتمد. قال (س) وبقى الأمر فى ولده إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[1]. وقال المؤلف لهذا الكتاب: كان آخرهم قسطنطين بن أليون بن لاوى بن بسيل. ولى بعده ابنه صغيراً فغلب عليه رومانوس بطريق البحر وزوجه ابنته وبقى الروم كذلك أيام المقتدر، والقاهر، والراضى، والمتقى، فلما كانت سنه اثنتين وخمسين توفى رومانوس المتغلب على ملك الروم.

وكان نقفور الدمستق فى حين موته غائبًا بالجيوش التى أخرجه رومانوس بها فتغلب على أكثرها، ففى خروجه إلى القسطنطينية ملكته الروم أمرهم وتزوج امرأة رورمانوس، ولم يبلغ إلينا من أى بيت هو، وكانت ولايته لسبع بقين من رجب من العام المذكور، وفى شعبان تغلبوا على طرسوس وما والاها، وأخليت ثغور الشام إلا ممن رضى بالجزية أن يؤديها من المسلمين وعمرت طرسوس وما والاها بالروم.

فلما كانت سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة زحف ابن نوح صاحب خراسان بعساكر جرارة، إلى أرض طرسوس، وأوقع بالروم، وهزمهم، وجاوز الدرب إلى أرض الشام إلى القسطنطينية، فلقى المشركين بجيوشهم وعليهم ابن الشمشكى، وتوخوا أن يلتقوا بالمسلمين يوم غمام، لما رجوه من الظفر عليهم فكان خلاف ما أملوه، فصاروا من الضرب والطعن، والمجالدة بالسيوف إلى المعانقة، والمقابضة

(١) مروج الذهب ١/ ٣٥٠.

بالأيدى والتقابض بالشعور. فما حجز بينهم إلا الليل وثبت المسلمون فى مصافهم وماتوا على ظهور دوابهم وناجزوهم بجدّ وحد وعزم وحزم، فإذا الأرض قد غصّت بجيفتهم ولا أثرَ لمن بقى منهم ولا عَيْنَ، قد تفرقوا فى جنح الليل، وافتتح ابن نوح قلاعًا كثيرة مما كان تغلب عليها الطاغية منها قرعش، وبلولة، وغيرهما.

وفى سنة ثمان وخمسين تغلّب العدو على أنطاكية، وخيّر أهلها بين المقام على أداء الجزية أو الخروج إلى أرض الشام فرضى بالجزية خلق كثير ولما جاء البشير إلى نقفور بذلك، عاقبه وغمه ذلك، لأنه كان يرى فى علم الحدثان أن الذى تفتح أنطاكية على يديه يهلك سريعًا، فقتله الله سنة تسع وخمسين فقتل فى قصره وعلى سرير ملكه، عملت فى قتله امرأته التى كانت قبله لرومانوس على يدى قائده ابن الشمشكى فقتلوه ليلاً.

وكان سبب ذلك أن ابنها من رومانوس واسمه بسيل لما أدرك أراد نقفور أن يخصيه ويلزمه الكنيسة العظمى، ليتفرد بالملك ويخرج عقب رومانوس منه.

فلما علمت عزمه على ذلك، سعت فى قتله، فتم لها ذلك وولى الأمر ابن الشمشكى ودانت له النصرانية.

ثم ملك بعده بسيل بن رومانوس، وهو الملك الملقب بالرحيم، فكان ملكه أربعًا وأربعين سنة، وكان أكره الناس لإراقة الدماء، وزعموا أنه ممن لا يرى إراقة دماء الحيوان ولا أكله.

ثم ملك بعده أخوه قسطنطين يسيرًا، ثم رومانوس بن باسيلى أربع سنين ثم أخته بودرة ابنة باسيلى أربع عشرة سنة ثم اختها دونه سبع سنين ثم سالخونة إحدى عشرة سنة، ثم ميمانوس، ثم ذو قرش، وهو باق إلى اليوم ـ وهو سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

* * *

(فصل)

وكان صاحب صقلية وإفريقية قبل ظهور الإسلام يدعى جُرجير، وصاحب الأندلس لُذَريق، وكان من الأشبان.

وأهل الأندلس يقولون إنَّ لُذَريق كان من الجلالقة. وأرض السودان من أرض الحبشة إلى آخر بلاد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علىّ من أرض المغرب وهى بلاد تِلِمْسان وتَاهَرْت.

وزعموا أن بلاد السودان مسيرة سبع سنين، وأن أرض مصر كلها جزء واحد من ستين جزءًا منها، ويتصل بالسُّوس الأقصى، وبينه وبين السوس الأدنى عشرون يومًا رمال ومفاوز، فيها المدينةَ المعروفة (بمدينة النحاس) وقباب الرصاص التى سار إليها موسى بن نُصَير فى مُدَّة الوليد بن عبد الملك، وما رأى فيها من العجائب وفيها قوم من الأشبان عمروا تلك الديار، والوصول إليها ممتنع بل لا سبيل إليه ـ والله أعلم.

* * *

ذكر ممالك السودان

صار ولد كُوش بن كنعان نحو المغرب حتّى قطعوا نيل مصر، ثمَّ افترقوا فصارت منهم طائفة إلى المشرق وطائفة إلى المغرب، فمن المشرق النوبة والبُجَاة والزَّنج والحبشة، ومن المغرب الزّغاوة والمفافوا، ومركة، وكَوْكَوْ، وغانة، وغيرهم من أنواع الأحابيش. والزنج أصناف: منهم مكير، وبَرْبَر، وهم غير البَرْبَر[1] والمشكر، وغيرهم وبحر السودان الزنج والأحابيش وغيرهم، وهم عن يمين الهند، وقطعت الزنج دون الأحابيش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذى يصب إلى بحر الزنج، فسكنت فى ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم دار مملكة وسمة

(١) يقصد البربر الذين فى بلاد المغرب.

ملكهم وفليمى وهو ملك ملوك سائر الزنوج، ومعناه ابن الربّ تعالَى الرَّبُّ عن قولهم عُلُوًا كبيرًا، ومعناه أنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عندهم أو حاد عن الحق قَتَلُوه وحرموا عَقِبَهُ المُلك.

ويزعمون أنه إذا فعل مَلك فقد بطل أن يكون ابن الربّ الذى هو ملك السماء والأرض. ويركب وَفليمى فى ثلاثمائة ألف فارس، دوابّهم البقر، وليس فى أرضهم خَيْلٌ ولا بِغَال ولا حمير ولا إبل ولا يعرفون شيئًا منها.

والزنجُ أطيبُ الأمم أفواهًا لرطوبة أفواههم وكثرة الرّيق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلابد له أن يجرّب. ومن أرضهم يُحْمَلُ الذَّبْلُ[1] من ظهور سلاحفهم، وفى بلادهم تكون الزرافة وهى من الدوابّ التى تألف وتتودّد إليها، ومنها تحمل وتهدى إلى الملوك وعندهم جلود النمور الحمر، وهى لباسهم، وبلادهم أكثر بلاد الله فِيَلَة إلا أنها وحشية لا تنقاد، ولا يستعملونها، وهم يقتلونها بشجر يطرحونه فى مشارِبها يسكرها فتقع ولا مفاصل لها، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحِراب فيقتلونها لأخذ أنيابها، فمن أرضهم تجهّز أنياب الفيلة إلى الآفاق، وأكثر ما يتجهّزُ به إلى عُمان وإلى سائر البلدان وأكثر ما يستعمل العاج بأرض الصين لأنهم يتخذون من الأعمدة فيها يدخلون على ملوكهم ولا يدخل عليهم أحدٌ من جيشهم وقوّادهم بحديد ويستعملونه أيضًا فى دخن بيوت أصنامهم وأبخرة هياكلهم، وأهل الصين لا يتَّخذون الفيلة فى الحروب كاتخاذ الهند، ويتطيَّرون بذلك لخبر كان لهم فى قديم الزمان فى بعض حروبهم ويستعمل من أنيابها كثير البلاد بلاد الهند ـ الشطرنج والنرد.

وصور الشطرنج عندهم لايصرفها اللاعب فيها إلا قائما لكبرها ولاستعمال الفيلة فى سائر مواضعها من الممالك لحاجتهم إليهم لا يقتلونها.

قال: ولعب أهل الهند بالنرد والشطرنج قمار، وإذا أُنْفِذَ ما مع اللاعب، لعب على قطع أعضاء جِسمه إِصْبَعًا إِصْبَعا، حتى ربَّما أتى على الزند والذراع.

ولهم دهن أحمر مُرَكَّب يغلى ويُغْمَس فيه مَوْضِعُ القَطْعِ فيمسك الدم ويدمل

(١) الذَّبْلُ: جِلْدُ السّلحفاة البرية أو البحرية، يتَّخذ منه السّوار والأقساط المعجم الوسيط (زبل) ٣٠٩/١.

لحينه، ويعود صاحب القطع إلى لعبه ولا يكترِثُ، ويُعَمَّرُ الفيلُ بأرض الزنج نحواً من أربعمائة عام، ولا ينتهى عمره فى سائر مواضعه إلى هذا.

وحدّثنى غير واحد عن أبى ذَرٍّ عن ابن أحمد بن محمود شختكين، صاحب غزنة وما والاها من البلاد أنه أصاب فى تصيده... [١].

... [٢] أوسع مملكة من الآخر وأهله أصفى ألوانًا وأحسن زيًا، ومُلُوكهم يزعمون أنهم من حِمْيَر، قاله المسعودى فى أخبار مصر: وَسِمَةُ ملوكهم... [٣] وهم نصارى يعقوبية ويقرءون الإنجيل بلسان الروم الملكانيَّة، وهم لا يطئون فى الحيضة، ويغتسلون من الجنابة، وملوكهم يتخذون الخيل العتاق، وركوب عوامّهم البراذين، ولهم النخل والكرم والذرة والحنطة والموز، والأترج عندهم كثير.

وغربى بلادهم يسقيها النيل وهناك غِيَاضٌ كثيرة، وحوالى هذه معادن الذهب والفضة.

وتسير من دُنْقُله فى شعاب وجبال حتى تنتهى إلى سوبة، وهى آخر بلادهم وهى مدينة كبيرة على شاطئ النيل. والزَّرافات فى بلاد النوبة كثيرة ويتخذون من جلودها النعل يلبسونها فلا تكاد تنقطع إلا فى الدهر الطويل وبين بلادهم وأسوان قِرَدة صِغَارٌ فى مقدار الهِرَّة، يُسَمُّونها النسناس، والإبل فى بلادهم صغيرة الخَلْقِ قصيرة القوائم، والنَّمِرُ عندهم عظيمة الخلق بخلاف ما عهد منهم، وهو يتكاتبون فى ورق الموز.

وقيل إن فى بلادهم نهر عيسى نوبة وبه سُمُّوا. وقال الأكثرون إنهم من ولد نوب بن قوطى بن مِصْر بن نيصر بن حام، وجميع من سكن على النيل مُحَارِبٌ للمسلمين إلاَّ القِبْط والنُّوبة. وقال يزيد بن أبى حبيب: إن النوبة ليس بينهم وبين المسلمين عَهْدٌ ولا ميثاق، وإنما هو أمانٌ لبعضهم من بعض على أن يؤدُّوا كذا وكذا رأسًا.

وذكر بعض المصريين أنه قرأ فى بعض الدواوين بالفسطاط قبل أن تحرق

---

(١) كذا بالأصل بياض.

(٢) كذا بالأصل بياض.

(٣) كذا بالأصل بياض.

عهودهم على ما يؤدونه الآن. وبَدْء اتصال مَمْلكتهم بأرض أسوان مَوْضع يعْرَف بَحَرِيس ولما افتتحت مصر أمر عمرو أن تُغْزَى بلاد النوبة فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة فأبى عمرو بن العاص من مصالحتهم حتى صُرِف عن مصر وَوَلِيها عبد الله بن أبى السَّرح سنة إحدى وثلاثين فقاتلوه قِتَالاً شديدًا فأُصيبت عين معاوية بن حُديج وعين أبى شَمِر بن أَبْرَهَة، وأعين جماعة من المسلمين فحينئذ سموا رُمَاة الحَدَق[1]. وقال الشاعر: [من الرجز]

لم تر عينى مثـل يوم دُنْقُلَهْ   والخَيْلُ تَعْدُو بالدُّرُوع مُثْقَلَهْ[2]

ومنهم تعلم الرمى أهل الحجاز واليمن، فصالحهم عبد الله بن أبى سَرْح على رءوس من السَّبْى معلومة مِمَّا يَسْبيه هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرها من الممالك المجاورة له، وعدد ذلك ثلاثمائة وخمسة وستون رأسًا وإنما أرادوا عدد أيام السنة، وهى جارية إلى الآن.

وللأمير بمصر عددٌ ولعامله بأسوان عددٌ، وللحاكم بها عدد، يبلغ نحو الثمانين رأسًا.

بلد أسوان[3]: أهله العرب من قَحْطَان وربيعة ومُضَر وقُرَيش ناقلة من الحجاز. وهو بلدٌ خصيب، كثير النخل، تُوضَعُ النواةُ فى تربته فتنبت نخله تثمر لسنتين تمرًا.

وبلاد البصرة وغيرها لا تغرس النخل فيها إلا فى الفَسِيل، وما يخرج من النواة فليس يثمر، ولأهل أسوان فى بلاد مريس من أرض النوبة ضياع كثيرة ابتاعوها منهم فى زمن بنى أمية يُؤَدُّون خراجها إلى ملك النوبة.

وقال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسود ذا مشافر.

ومن النوبة النساء المعروفات بالمقوّرات، لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهنّ ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهنّ بقدر ما يحتاج الوَطْء، وهن أطيبُ النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل فى شقّ ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم، أخبرنى بذلك جماعة

(١) فتوح مصر ٢١٥.

(٢) بلا نسبة فى فتوح مصر ٢١٥.

(٣) انظر فى ذلك: موسوعة تاريخ مصر ١/ ٤٩١.

من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكّة أنهن رأين ذلك وشاهدنه.

ومملكة الزغاوة[١]: تحاذى مملكة النوبة على ضفَّة النيل الثانية. وأما البُجَاة[٢] فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعّبوا فرقا وملكوا عليهم ملوكا وتتصل سراياهم على النجب ببلاد النوبة فيُغيرون ويسبون، وبين بلادهم وبلاد النوبة جبال منيعة جدًا، وقد كانت النوبة أشدّ منهم، إلى أن ساكَن البُجَاة جماعة من المسلمين لمعادن الذهب الذى عندهم، واستوطنها خَلقٌ من العرب من رَبيعة وتَزَوّجوا من البُجَاة، فاشتدت شوكتهم بهم.

وصاحب المعادن فى وقتنا هذا من المسلمين أبو مروان بِشْر بن إسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها.

وببلاد البجاة تتصل معدن الزمرد، وهو موضع يعرف بالخَرْبة، مفاوز وجبال تحميه البجاة، وهو متَّصل بالصعيد الأعلى من أعلى مدينه قفط، وإن البجاة تؤدى الخفارات من يرد لحفر الزمرّد.

وبين موضع معدنه والنّيل أكثر من عشرين مرحلة وبين هذا الموضع والعمران مسيرة سبعة أيام، وهى مدينة قفط، والخراب عليها أكثر من العمارة.

والجبلُ الذى فيه هذه المعادن الذى يوجد فيها الزمرد متصل بجبل المقطم الذى على مصر. ولا يعرف معدن الزمرّد سواه إلا ببلاد البَلَّهَرى من أرض الهند، ولا يلحق بهذا، والهندىّ يعرف بالمكىّ لأنه يحمل إلى عَدَن ويُؤْتَى به مكّة فاشتهر بهذا الاسم.

والزمرّد الذى يُقْلَع من الخربة يتنوّع أربعة أنواع، فأعلاها الذى يُعرف بالمر وهو كثير المائية تُشْبِه خضرته بأخضر ما يكون من السلق لا يميل إلى شىء من السواد.

واللون الثانى البحرى وهو نوع ورق الآس، وإنّما غلب عليه هذا الاسم، لأن ملوك البحر من الهند والسند والصين ترغب فيه.

والنوع الثالث يعرف بالمغربى لأن ملوك الغرب من الإفرنجة والأندلس والجلالقة

---

(١) نزهة المشتاق ١/ ١١٠-١١١.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٦٤.

والبَشْكَنْش والصقالبة والرُّوس يتنافسون فيه.

والنوع الرابع يسمى بالأصمّ، وهو أدناها وأقلها ثمنًا، لقلة مائه وخضرته ولكدرته وأكبر محارة الزمرّد الخالص إذا رأته الحيّات سالت أحداقُها وإن المَلْسوعَ إذا سُقى منه وزن دَانَق أو دَانَقين أمِنَ على نفسه وقد كانت ملوك اليونانيين أرباب الحكمة تفضله على سائر الأحجار طرًا.

وأهل العلم يقولون إن شعاعه النورى، وخضرته تقوى بزيادة القمر وامتلائه.

والبجاة جنس من الحبش، ولهم قلاع كثيره، واسم مدينة ملكهم هجر وهم أصحاب إبل، ولهم حراب يحاربون بها على إبلهم، وهم عبدة أوثان ولهم صنم من حجارة فى صورة الصَّبى يسجدون له، وأحكامهم أحكام التوراة.

ولم يكن للبجاة عَهْدٌ أو صُلْحٌ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الجبهات[1]، ويزعم بعض الشيوخ أنه قرأ فى كتاب ابن الجبهات فإذا فيه ثلاثمائة بِكْر كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجّارًا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلمًا ولا ذميًا وإن قتلوا فلا عَهْدَ لهم ولا يُؤوا عبدًا لمسلمين، وأن يردّوا أُبَّاقَهُم. واسم بلاد البجاة بغلال، وأول ممالك البجاة من حَدّ أسوان ومدينتهم يقال لها هجر. وأما الحبشة فاسم دار مملكتهم كعبر، وسمة ملكهم النجاشى وفيها كان الذى آمن برسول الله ﷺ وهم من ولد حبش بن كوش بن حام.

وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة تتصل بالبحر الحبشى، ومن مدائنهم المشهورة مدينة علوة[2]، وساحل الحبشة مقابل لبلاد اليمن وهم على شاطئ البحر الغربى، وأقرب عرض البحر هناك ثلاثة أيام، وهو على ساحل زَبيد من أرض اليمن.

ومن هذا المكان عبرت الحبشة البحر إلى اليمن فى أيام ذى نواس[3]، وهو

(١) فتوح مصر ١٨٩.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٣٢-٣٣.

(٣) ذو نواس: أحد ملوك حِمْيَر فى القرن (٦م). اعتنق اليهودية واضطهد المسيحيين (٥٢٣)، ظل يحارب جنود أبرهة الذين أتوا لنصرة إخوانهم المسيحيين عامين، ثم آثر وضعَ نهاية لحياته كيلا يقع فى أيدى أعدائه، فنزل بجواره إلى البحر وأغرق نفسه. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٤٧.

صاحب الأخدود وبين هذين الساحلين جزيرة العقل فيها يعرف بماء العقل يستقى منها أهل المراكب ويفعل فى القرائح فعلاً عظيمًا.

وذكرت الفلاسفة خواص هذا الماء وتأثيره، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة وله فيها رجال مرتَّبون. وفى هذا البحر مما يلى بلاد عدن جزيرة سُقُطْرَة وإليها يضاف الصَّبر، لا يوجد فى غيرها.

وقد كتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر يوصيه بهذه الجزيرة وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها لئلا يغلبوا عليها فى سائر الأمصار، مراعاة للصبر ففعل الإسكندر ذلك. فليس فى الدنيا - والله أعلم - موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم، لم يداخلهم فيها رومىّ ولا غيره إلا أهل الجزيرة، وهم نصارى. ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة من خواص النبات.

وبلاد الحبشة واسعة جدًا يتجهّز إليهم التجار بالأمتعة من مصر واليمن وما يجاورها من بلاد الزَّيْلَع وباضِع وسواكن ودَهْلَك، وفى هذه المدائن والجزائر المسلمون والمساجد والحكّام ومراكب صاحب زَبيد وعلائقه من ساحل اليمن تختلف إلى ساحل الحبشة وإلى بلاد النوبة، وبينهم وبين الحبشة مُهَادنة.

ومن بلاد الحبشة إلى بلاد النوبة مسيرة شهر. وللحبشة حذق ومعرفة يتباينون بها من سائر قبائل السُّودان، وهم أجمل السُّودان، ولهم القناء والكحل والشعور المسترسلة، وليس فيهم من ذفَر السودان شىء، وأكثرهم نصارى وهم يكْوُون جباههم، ومنهم من يكوى وجهه وعفنونه.

وفى أقاصى بلاد الحبشة قوم يمشون على أربع كالدواب، لا تطول أعمارهم ومخاطبات الحبشة وجميع ما عندهم من الكتب فى فنون العلم إنما هو فى ورق الموز، أخبرنى من رأى تواريخها مما نفذ إلى بلاد الإسلام منها: ببقائها وقلة تغيّرها.

وأما غير هؤلاء من الحبشة المقدمين مثل الزَّغَاوة والكوكو وغيرهم فلهم ممالك هناك قد أُتِىَ على ذكرها فى غير هذا الكتاب.

* * *

ذكر البربر

وأما البربر فإنّ ديارهم كانت فلسطين من بلاد الشام، وكان ملكهم جالوت، وهذا[١] الاسم سِمَةٌ لسائر[٢] ملوكهم، إلى قَتْل داود جالوتَ، فساروا إلى بلاد المغرب إلى موضع بالونيّة ومَرَاقِيَة[٣]، وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشربُ من ماء السماء ولا ينالها النيل، فانتشرت هنالك فنزلت منهم زُناتةُ ومُغيلةَ وضريسة الجبالَ من تلك الديار، ونزلت لَواتة[٤] أرض برقة وهى بالرومية أَنْطَابُلُس[٥][٦]، ونزلت هَوَّارةُ بلاد أطرابلس المغرب وهى مدينة إياس ونزلت نفوسة مدينة صبرة.

وكانت هذه الديار للإفرنجه فَاجْتَلَتها[٧] البربر عنها إلى جزائر صقلية وغيرها وتفرقت البرابر فى بلاد إفريقية، وطنجه، إلى أقاصى بلاد المغرب، وانتهى إلى موضع يعرف بقبورية[٨]، على أكثر من ألفى ميل من بلاد القيروان، ثم تراجعت الإفرنج إلى ديارهم، ومدنهم، وعمائرهم على موادعة وصلح من البربر واختارت البربر سكنى[٩] الجبال، والأودية، والرمال، وأطراف البرارى والقفار وصارت

---

(١) فى الأصل «وهبه» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل «بسائر» وهو تحريف.

(٣) فى الأصل «باتونية» وهو تحريف.

وفى البلدان لليعقوبى ٣٣٩: «كورة لوبية وكورة مَرَاقية، وهاتان الكورتان على ساحل البحر المالح، ينزل أدانى قراها قومٌ من بنى مُدْلج من كنانة، وينزل أكثرها قومٌ من البربر، وبها قرى وحصون».

(٤) لُوَاتة: من البربر من أهل بَرْقة، وهى قريةٌ من البَرْبر، كان لها عهد. فتوح البلدان ٣١٦.

(٥) فى الأصل «أنطالَيْس» وهو تحريف.

(٦) أَنْطَابُلُس: مدينة من بلاد بَرْقة، بين مصر وإفريقية، ومعناه بالرومية خمس مدن، ويروى عن عمرو بن العاص أنه قال: فتحت مصر عَنْوَة من غير عهدٍ ولا عَقْد، إلاّ أهل أَنْطَابُلُس، فإنّ لهم عَهْدًا يُوفَى لهم به». انظر: معجم ما استعجم ١/ ٢٠٠ ومعجم البلدان (برقة) ١/ ٣٦٢ و(أنطابلس) ١/ ٣١٥ والروض المعطار ٣٢ و ٩١.

(٧) فى الأصل (فاحتلتها).

(٨) فى الأصل (قبوسة).

(٩) فى الأصل (سكن).

المدائن رومية حتى افتتحها المسلمون.

والبربر قبائل كثيرة وشعوب جَمّة[١]: هوارة، وزناتة، وضريسة، ونفَزة، وكُتَامة، ولُواتَة، وغمَّارة، ومَصْمُودة، ومزناتة، وصَدينة ويَصْدَران، وزَرْيجين، وصَنْهَاجة، ومجكسة، وواكلان، وغيرهم. وقد اختُلف فى نسبهم، فزعم بعضهم أنهم من ولد كنعان بن حام، وقيل إنهم أَوْزَاعٌ من اليمن تفرَّقوا عندما كان من سيل العَرم ما كان، وقيل إن أبرهة ذا المنار تَخَلَّفهم[٢] بالمغرب، ومنم من رأى أنهم من قيس عيلان، والله أعلم بحقيقة ذلك، قال الكِنْدىُّ: إنهم من ولد بَرْبَر بن قيس عيلان، وقال قوم إنهم من ولد نيْصَر، وقال آخرون: من ولد نَبِيط بن حام، فلما نزل إخواتهم بمصر خرج بربر بن نبيط إلى ناحية المغرب فسكنوها وراء عمل مصر، وهُوَ ما وراء برقة إلى البحر الأخضر إلى منقطع الرمل مُتَّصلين بالسودان وقال آخرون إنهم من ولد لخم وجذام[٣].

وكانت منازلهم فلسطين فأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وانتشروا فى البلاد.

* * *

(١) قال ابن خلدون فى المقدمة ٦/١٠٩ والبربر قبائل كثيرة، وشعوب جمَّة: وهى هَوَّارة وزناتة وضريسة وقَفيلة ورفجومة ونُفزَة وكُتامة ولُوَاتة وغَمَّارة ومَضمُورة وصَدينة ويَزْدران وورنجين وصنهاجة ومَجَبكسة وواركلان وغيرهم».

(٢) فى الأصل (خَلَّفهم).

(٣) أجمل ابن خلدون الآراء فى خروج البربر فقال: «قال ابن الكلبى: اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام، فقيل داود بالوَحْيِ، قيل: يا داود أَخْرِج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض. وقيل: يوشع بن نون. وقيل: أفريقُش. وقيل بعض الملوك التبابعة.

وعند البكرى: أنَّ بنى إسرائيل أخرجوهم عند قَتْل جالوت.

وللمسعودى والبكرى: أنهم فَرُّوا بعد موت جالوت إلى المغرب، وأرادوا مصر، فأجلتهم القبط، فسكنوا برقة وإفريقية والمغرب». المقدمة ٦/١٠٩.

ذكر الواحات

وبلاد الواحات بين مصر، والاسكندرية، وصعيد مصر، وأرض الحبشة من النوبة وغيرهم، وصاحبها سنة ثلاثمائة واثنتين وثلاثين، رجل اسمه عبد الملك بن مروان، رجل من لواتة، مرواني المذهب[1]، ويركب في ألواف من الناس خيلاً ونُجبًا، وبينه وبين عمائر الحبش ستة أيام[2]، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفتقر إلى سواه.

وهذه الأرض أرض خصبة راخية، ولها عيون حامضة الطعم، تستعمل كما يستعمل الخل، وعيون مختلفة الطعوم: المر، والقابض، والحريف والملح ولكل نوع منها منفعةٌ وخاصية[3].

* * *

ذكر الصقالب

الصقالبة من ولد مازان[4] بن يافث، ومساكنهم من الشمال إلى أن يتصل بالمغرب. قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي: «بلاد الصقالبة متصلة من البحر الشامي إلى البحر المحيط إلى الشمال، فتغلب قبائل الجوف على بعضها وسكنوا حتى الآن فيما بينهم».

وهم أجناس كثيرة مختلفة، وقد كانوا فيما سلف يجمعهم ملك سمتة ماخا، وكان من جنس منهم يدعى وَلْيَنْبَابَا[5]، وهذا الجنسُ مُعَظَّمٌ فيهم. ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم، وتخرَّبت أجناسهم، وملك كل جنس منهم ملك.

(1) الروض المعطار ٦٠٠.

(2) مروج الذهب ١/ ٣٤٧.

(3) انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٩٠ والروض المعطار ٦٠٠ والاستبصار ١٤٧.

(4) في مروج الذهب ١/ ٣٥١ «ماربن يافث».

(5) في الأصل «ولينانا».

وملوكهم الآن أربعة: ملك البلغارين[١]، وبويصلا، وملك براغة، وبويمة، وكراكوا[٢]، ومَشَقة[٣]، ملوك الجَوف وناقور فى آخر المغرب، وجاور بلد ناقور فى المغرب سكنُون وبعض مَرْمَان.

وبلده رخيص الأسعار، كثيرة الخيل، ومنها يخرج إلى غيرها.

ولهم سلاح شاك من الدروع، والبيضات، والسيوف، فمن برع إلى ما يليه عشرة أميال، إلى الجسر خمسون ميلاً، وهو جسر خشب فى طوله ميل. ومن الجسر إلى حصن ناقون نحو أربعين ميلاً، ويسمى عزّان[٤]، وترجمته الحصن الكبير. وفى قَبْل عزّان حصن مبنى فى بحيرة عذبة الماء، وكذلك تبنى الصقالبة أكثر حصونهم، تعمد إلى المروج الكثيرة المياة والآجام، فتخط فيه خطًا مستديرًا أو مربعًا قدر ما تريد من شكل المحصن، وسعة ساحته وتحفر حواليه، وتردم بالتراب المحفور، وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابى حتى يبلغ السور إلى الغاية التى تريد، ويذرع باب من أى شق شاء ويختلف إليه على جسر منخشب.

ومن حصن عزّان إلى البحر المحيط أحد عشر ميلاً.

ولا تنفذ العساكر فى بلاد ناقور إلاّ بالجهد الشديد، لأن بلده كله متمرج وآجام، وحَمْأة، فأما بلد بَويصلا[٥] فطوله من مدينة فراغة إلى مدينة كراكوا مسيرة ثلاث جمعات، وهو مجاوز فى الطول لبلاد الأتراك، ومدينة فراغة مبنية على نهر هناك بالحجر والجير، وهى أكثر البلاد متاجر، تأتيها من مدينة كراكوا الروس، والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الأتراك المسلمون واليهود، والترك بالمتاجر أيضا، والمناقل المرقطيه فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الآبار.

وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف، وأزكاها معيشة، يباع القمح عندهم بقنشار ما يكفى به المرء أشهرًا، ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابة، ويباع عندهم

---

(١) مروج الذهب ١/ ٣٥١.

(٢) الروض المعطار ٨٦.

(٣) الروض المعطار ٥٦٠.

(٤) فى الأعلاق النفيسة ١٤ «غراد».

(٥) الروض المعطار ٨٦.

عشر دجاجات بقنشار.

وبمدينة براغة[١] تصنع السروج، واللجم، والدرق المستعملة، والمتخذة فى بلادهم ويصنع فى بلاد بُوَيْمه مُنَيْدلات خِفَافٌ مُهَلْهَلَة النسج على هيئة الشبكة لا تصلح لشىء، ثمنها عندهم فى كل زمان عشرة مناديل بقنشار، بها يتبايعون ويتعاملون، يملكون منها الأوعية، وهى عندهم مال، وأثمن الأشياء، ويبتاع بها الحنطة، والدقيق، والخلّ، والذهب والفضة، وجميع الأشياء.

ومن العجيب أن أهل بُوَيْمةَ سُمر، سُود الشعور، والشُّقْرَةُ فيهم قليلةٌ.

والطريق من مازَى يتفرع إلى بلاد بُوَيْصلا، ومنه إلى حصن قَلَيوى عشرة أميال ومنه إلى نوب غراد[٢]، ميلان، وهو حصن مبنى بالحجارة، والصَّاروج، وهو على نهر مداوة أيضًا، وفيه يقع نهر بودة، ومن حصن نوب غراد إلى ملاحة اليهود وهى على نهر مداوة أيضًا ثلاثين ميلاً، ومنها إلى حصن نورجين، وهى على مداوة ومنه إلى طرف الشعراء خمسة وعشرون ميلاً، ومن أولها إلى آخرها أربعون ميلاً فى جبال وأوعار، ومنها جسر من خشب على حمأة نحو الميلين من آخر الشعراء يدخل مدينة براغة.

فأما بلد مَشْقُه[٣] فهو أوسع بلادهم، وهو كثير الطعام واللحم العسل والحرث، وجبايته المثاقيل المرقطية، وهى أرزاق رجاله فى كل شهر، كل واحد عدد معروف منها، وله ثلاثة آلاف ذراع، وهم أجناد تعدل المائة منهم عشر مائة من غيرهم.

---

(١) براغة: مدينة مجاورة لبلاد الأتراك، مبنية على نهرٍ هناك بالحجر والجيار، وهى تصغُر عن المدن، وتكبر عن القُرى، وبها سوق تجمع المرافق السفرية والحضرية، فى أعلاها قلعة كبيرة حصينة، وبها عينُ ماء معينة، يخترق ماؤها بسيط بطحائها، وهى أكثر البلاد متاجرة، تأتيها من مدينة كراكو الروسية والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الترك والإسلام واليهود بالمتاجر أيضًا، والمثاقيل البرقطية، يحملون من عندهم الدقيق والقصدير وضروب الأوبار، وهى أطيب بلاد أهل الجوف وأزكاها معيشةً يباعُ عندهم من القمح بقنشار ما يكتفى به المرء شهورًا، ويبلغ عندهم بقنشار من الشعير علف أربعين ليلة لدابته، ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار. الروض المعطار ٨٦.

(٢) انظر: ابن يعقوب ٢٥.

(٣) مَشْقُه: مدينة للصقالبة من أعمال براغة، وتلى بلاد الأتراك. الروض المعطار: ٥٦٠.

ويعطى الرجال[١] الملابس، والخيل، والسلاح، وجميع ما يحتاجون إليه وإذا ولد لأحدهم ولد أمر بإجراء الرزق عليه ساعة يولد ذكرًا له كان أو أنثى فإذا بلغ إن كان ذكرًا زوَّجه، ودفع عنه النحْلة والد الجارية. وإن كانت انثى أنكحها ودفع النحْلة إلى أبيها.

والنحلة عند الصقالبة عظيمة، ومذهبهم فيها كمذهب البربر.

وإذا ولد للمرء بنتان أو ثلاث، فهن سبب غنائه[٢]، وإن ولد له ولدان فهو سبب فقره.

ويجاور مَشْقُه فى الشرق الرّوس، وفى الجوف بَروس، وسُكنى بَرُوس على البحر المحيط. ولهم لسان على حِدَة، لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم، وهم مشهورون فى شجاعتهم، إذا أتاهمً جيش لا يتوارَى أحدهم حتى يلحقَ به صاحبه، إنما يخرج لا يَلْوى على أحد، فيضرب بسيفه حتى يموت.

ويعبر عليهم الروس فى المراكب من المغرب.

وفى الغرب من الروس مدينة النساء[٣] ولها بسائط ومماليك ومن يحملن من عبيدهم، فإذا وضعت المرأة ذكرًا قَتَلَتْهُ، ويَرْكَبْنَ الخيل، ويُبَاشِرْنَ الحرب ولَهُنَّ بأسٌ وبسالَةٌ.

قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى: «وخبر هذه المدينة حَقٌّ، أخبرنى بذلك هَوَّتَه ملك الروم»[٤].

وفى الغرب من هذه المدينة قبيلة من الصقالبة يقال لها أُمَّة، أو بَابَهْ، وهى فى

---

(١) فى الروض المعطار ٥٦٠ «الرَّجَّالة».

(٢) الروض المعطار ٥٦٠.

(٣) مدينة النساء: مدينة كبيرة واسعة الرقعة فى جزيرة بحر المغرب.

قال الطرطوشي: أهلها نساءٌ، لا حكم للرجال عليهنَّ، يركبن الخيول، ويباشرن الحرب بأنفسهنَّ ولهنَّ بأسٌ شديدٌ عند اللقاء، ولهن مماليك، يختلف كل مملوك الليل لى سيِّدته، ويكون معها طوال الليل،، ويقوم بالسَّحَر، ويخرج مستترًا عند انبلاج الفجر، فإذا وضعت إحداهُنَّ ذكرًا قتلته فى الحال وإذا وضعت أنثى تركتها. وقال الطرطوشى: مدينة النساء يقينٌ لاشَكَّ فيها. آثار البلاد ٦٠٧.

(٤) وذكر ذلك القزوينى فى آثار البلاد ٦٠٧.

غياضٍ من بلاد مَشْقُه، مما يلى المغرب، وبعض الجوف، ولهم مدينة عظيمة على البحر المحيط لها اثنا عشر بابًا، ولها مرسى، وهم يستعملون له شطورًا حرلا وهم يحاربون مَشْقُه، وشوكتهم شديدة، وليس لهم مَلِكٌ ولا ينقادون لأحد، وإنما الحكام فيهم أشياخهم، فأما ملك البلقارين فقال إبراهيم بن يعقوب: «لم أدخل بلده، ولكنى رأيت رَسُلَه بمدينه ماذى بَرْغ حين وفدوا على هَوَّته الملك يلبسون ملابس ضيقة، ويتمنْطقون بأحزمة طوال قد ركب عليها ترامس الذهب والفضّة. وملكهم عظيمُ القَدْرِ يضع على رأسه التاج، وله الكتاب والأزِمّة، وأصحاب الخطط، وأمرٌ ونَهْىٌ على نظم وترتيب كالمعهود للملوك والأكابر».

ولهم معرفةٌ بالألسن، ويترجمون الإنجيل باللّسان الصقلى، وهم نصارى، قال إبراهيم بن يعقوب: «وإنَّما تَنَصَّر مَلِك بلقارين لما أغار على بلاد الروم حين حاصر مدينة القسطنطينية، حتى دَارَاهُ مَلِكُها، وأرضاه بجزيل العطايا وكان ممَّا استرضاه به أن زوَّجه ابنته، فحَمَلَتْهُ على التَنَصُّرِ» قال المؤلف[١]: «فيدلُّ قولَ إبراهيم أَنَّ تَنَصُّرَه كان بعد ثلاثمائة من الهجرة» وقال غيره: «إنما تنصَّر منهم من تنصَّر على عهد بَسِيلُوس الملك، وبقوا على نصرانيتهم إلى اليوم» قال إبراهيم: «والقسطنطينية من بلقارين فى القبلة وتجاورهم أيضا فى الشرق والجوف البجاناكية[٢]، وفى الغرب منها بحيرة بناجية، وهو خليج يخرج من البحر الشامى بين الأرض الكبيرة والقسطنطينية، فيحيط بالأرض الكبيرة سواحل رومة، وسواحل لنقبرديّه، وينقطع بالفرلانه، فتصير هذه المواضع كلها جزيرة، واحدة قد أحاط بها البحر الشامى من القبلة، وذراع بناجية من جهة المشرق، والجوف، وبقى منها فتح من جهه المغرب.

ويسكن حَافَّتَىْ هذا الخليج من مخرجه فى المشرق من البحر الشامى الصقالبة، ففى الشرق منهم البلقارين، وفى الغرب غيرهم من الصقالبة، وهؤلاء الذين يسكنون فى الغرب منه أشدّ بأسًا.

وأهل تلك الناحية يستأمنونهم ويتَّقون شدَّتهم، وبلادهم جبال شامخة وَعِرَةَ المسالك.

---

(١) هو أبو عبيد البكرى.

(٢) الأعلاق النفيسة ١٤٣.

وبالجملة فإنَّ الصقالب ذَوُوا صَوْلَةٍ وبَطْشٍ، ولولا اختلافهم بكثرة تفرُّعِ أعراقهم وتفرق أفخاذهم، ما قامت لهم فِى الشدَّة أمة من الأمم.

وسكنوا من البلدان أجزلها رِيعًا، وأكثرها أقواتًا[١]، وهم يجتهدون فى الفلاحة وطلب الأرزاق، ويفوقون فى ذلك جميع أمم الجوف، وتختلف بتجارتهم فى البر والبحر إلى الروس والقسطنطينية.

وجُلُّ قبائل الجوف يتكلمون بالصقلبيّة، لاختلاطهم بهم، منهم قبائل الطرشكين والأنقلّيين، والبُجَاناكية، والروس والخزر.

وليس يكون الجوع فى بلدان الجوف كلها من القحط وتوالى الجدب، إنما يكون من كثرة الغيث وتوالى الجُمَّةِ، ولا يكون المَحْلُ عندهم مُهلكًا، لأنه لا يتّقيه من أصابه، لرطوبة بلادهم، وشدة بردها[٢]، وهم يزرَعُون فى فصلين من العام فى القيظ والربيع، ويرفعون رَفْعَتَيْن، وأكثر زرعهم الدُّخن، والبرد فيهم سليم وإن تفاقم، والحر مهلك.

وهم لا يقدرون على السفر إلى بلاد لنقيردية لحرِّها، لأن الحَّر يطغى عندهم فيهلكون، والسلامة عندهم إنما تكون فيما يكون فيه المزاج جامدًا، فإذا انذابَ وفارَ ذوى الجسدُ، جاءَهُ الموتُ من قِبَلِ ذلك، وتَعُمُّهم عِلَّتان لا يكاد أحدهم يسلم من أحدهما، وهما ريحان: الحُمْرةُ والنَّواصِير.

وهم يجتنبون أكل الفراريج، فإنها تصرَعُهم بزعمهم، وتُقَوِّى عليهم ريح الحُمْرة، ويأكلون لحوم البقر، والإِوَز فيلائمهم. وهم يلبسون الثياب الواسعة إلا أنَّ أَرْدَانَ أكمامهم ضيّقة.

ويحجُب ملوكُهم نساءهم، ولهن غيرة شديدة عليهم، ويكون للرجل منهم

---

(١) راجع: آثار البلاد ٦١٤.

(٢) قال ابن رَسْته: «وفى بلادهم يستحكم البردُ ويشتد حتى يحفر الرجل منهم مثل السَّرَب تحت الأرض، ثم يجعل له سقفًا من خشبٍ مثل الكنيسة ثم يلقى عليه التراب، ويدخله الرجلُ بعياله، ويجىء بحطبٍ، وحجر قليل ثم يضرب فيه النار حتى يحمى ويحمَرَّ، فإذا صار إلى غايته، رشَّى عليه الماء حتى ينشر فى ذلك البخار، فيدفأ البيت، فيلقون ثيابهم، ولا يزالون فى ذلك البيت إلى أيام الربيع». الأعلاق النفيسة ١٤٤.

عشرون زوجة فصاعداً[١].

وأكثر أشجار شعابهم التفاح، والإجَّاص، والفَرْسَك، وفيها طائر غريب يعلوه خضرة، يَحْكي كُلَّ ما يسمعه من أصوات النَّاس والدواب، وقد يوجَدُ فيصيدونه فيسمى بالصَّقلبية شَبك، وفيها دجاجة بريدية تسمى أيضًا بالصقلبية تَتْرا، وهى طيّبة اللحم وتسمع أصواتها من أعالى الشجر على فرسخ، وأكثرها صنفان، سودٌ ومُرَشَّاة أجمل من الطواويس ولهم ضروب من المزاهر والمزامير، ولهم مزمارٌ طوله أكثر من ذراعين، ومزهر عليه من الأوتار ثمانية أوتار، وباطِنُه مسطّح لا مُقَبَّب[٢] وأشربتهم، وأنبذَتُهم العسل.

قال (س)[٣]: والصقالب أجناس كثيرة، فمن أجناسهم أصْطُرَانه، ودُولابَه ونامْجين، وهذا الجنس أشجعهم وأفرسهم، وجنس يقال له سَرْبين، وهو عندهم مهيب، وجنس يقال له مُزَاوة وخَيْرَواتين، وصاصين، وخشيايين، ومن هذه الأجناس ما هو ينقاد إلى دين النصرانية، على مذهب اليعقوبية منهم ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية. وجنس الملك من هؤلاء، والجنس الذى ذكرنا أنه يدعى سربين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم، ويحرقون دوابّهم، ولهم أفعال مثل أفعال الهند،وهم يتصلون بالشرق، ويبتعدون من الغرب، وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت، ويزعمون أن سرورهم وأطرابهم لرحمة ربّه إيَّاه. ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين، وإذا زعمت واحدة منهن أنها مُحِبَّةٌ له، عَلَّقت حبلاً وارتقت إليه على كرسى، فتشتدُّ به فى عنقها، ثم يُجْذَبُ الكرسى من تحتها فتبقى معلقة تضطرب حتى تموت، ثم تحرق وتُلْحَق بزوجها[٤].

ونساؤهم إذا نكحن لم يَفْخَرْن، إلا أن البكر إذا أحبت رجلاً صارت إليه،

(١) حكى القزوينى فى آثار البلاد ٥٥٦ «أنَّ بناتهم الأبكار يخرجن مكشوفات الرءوس، ويراهُنَّ كل أحد، فمن رَغِبَ فى واحدة منهنَّ ألقى على رأسها خماراً، فصارت زوجةً له، فلا يمنعه عنها أحدٌ، فيُزَوَّجُ عشرين أو أكثر، ولهذا عددهم كثير لا يُحْصَى».

(٢) الأعلاق النفيسة ١٤٤.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٢.

(٤) الأعلاق النفيسة ١٤٣ـ١٤٤.

وأقامت عنده شهوتها، فإذا تزوجها الزوج فوجدها عذراء قال لها: «لو كان فيك خيرًا لرغب فيك الرجال، ولاخترتِ لنفسك من يأخذ عُذْرَتك» فيرسلها ويبرأ منها.

وبلاد الصقالبة أشد بردًا، وأقوى ما يكون ذلك عندهم إذا أقمرت الليالى وأَصْحَتِ الأيام، فحينئذ يشتدّ البرد، ويقوى الجهر، فتتحجر الأرض، وتحسن الأشربة كلها، وتقرمدت البئر والبيض حتى تأتى كالحجارة وإذا استنثر الناس على لحاهم صفائح الجمر يكون كالزجاج، فيكسره حتى يُصطلى أو يدخل كُنًا. وإذا كان الليل مظلمًا، والنهار مغيِّمًا، فحينئذ ينجلى الضريب، ويَفْتُر البرد، وفى هذا الوقت تنكسر السفن ويهلك من فيها، لأنه يواجهها من جليد أنهار هذه البلاد قطع كالجبال الرواسى، وربما ظفر من تلك القطعة الشاب والجَلِد من الرجال فيسلم عليها.

وليس لهم حمّامات، وإنما يتخذون بيوتًا من خشب، يُسَدَّ خَصَاصه بشىء يتكون على أشجارهم يشبه الطُّحْلُب، يسمونه عُجّ، وهو مَقَامُ الزفت لسفنهم ويبنون كَانُونًا من حجارة فى إحدى زواياه، ويفتحون فى أعلاه رَوْزَنَة[1] تلقَاءه لخروج دَخَّانه، فإذا سخن سَدُّوا تلك الرَّوْزَنة، وأغلقوا باب البيت، وفيه غاصب الماء وصبُّوا من ذلك الماء على الكانون المُحتَمى، وترتفع الخزْتَةُ، ويكون بيد كل واحد منهم ضِغْثٌ من حشيش يحرِّك به الهواء ويجذبه إلى نفسه فتنفخ مسامهم، ويخرج فضولُ أجسامهم فتجرى منهم السُّمول[2]، ولا يكون على أحدهم أثرُ جَرَبٍ ولا قرحا، وهم يسمون هذا البيت الأطباء.

وملوكهم يسافرون بالعَجَل العظام الجارية العالية على أربعة أفلاك وقوائم فى زواياها أربعة أعمدة وثيقة، وعلق منها هودج بسلاسل حصينة وكُسِى بالدِّيباج، فلا يتقلقل الجالس فيه تَقَلْقُل العجلة، يعدونه للمرضى والجرحى.

والصقالبة تحارب الروم، والإفرنج والنوكبرد، وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سِجَالٌ.

---

(١) الرَّوْزَنَة: الكوة غير النافذة. المعجم الوسيط(رزن) ١/ ٣٤٣.

(٢) فى الأصل (السيول).

ذكر الإفرنجة

الإفرنجة من ولد يافث هم والجلالقة، والصقالبة، والنوكبرد، والأشبان والترك، والخزر، وبُرْجَان(١)، واللاَّن(٢)، ويأجوج ومأجوج.

والإفرنجة تدينُ النصرانية برأى الملكية منهم. ودار مملكتهم الآن بُوَيرة(٣) وهى مدينة عظيمة، ولهم من المدائن نحو من خمسين ومائة مدينة.

وقد كانت مملكتهم قبل ظهور الإسلام بإفريقية، وجزيرة صقلية، وجزيرة إقريطش(٤)، وهى للمسلمين الآن.

وأول ملوكهم فَلَوْذِية، وهو أَوَّلُ من تَنَصَّر وكان مجوسيًا، نصَّرته امرأته واسمها غَرْطَلَة، ومَلِكهم الآن سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة لُذْرِيق بن قارله(٥)، وهذان اسمان يتكرران فى ملوكهم.

* * *

ذكر الجلالقة(٦)

وهم حربٌ للإفرنج، إلا أنَّ الجلالقة أشدّ منهم بأسًا، وهم أشدّ على الأندلس من جميع الأمم.

ورأيهم رأىُ الملكية أيضًا، ومن ملوكهم ألفونس، ثم أردون(٧)، ثم رُدْمير الذى

---

(١) فى الأصل (فرحان) والتصويب عن الروض المعطار ٥٠.

(٢) الروض المعطار ٥٠.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٢.

(٤) جزيرة إقريطش: هى جزيرة فى البحر الشامى، وهى جزيرة عامرة كثيرة الخصب، وبها مدنٌ عامرة، ودورها خمسة عشر يومًا، وبينها وبين ساحل البحر يومٌ وليلة، وطولها مائة واثنان وسبعون ميلاً فى عرض خمسين ميلاً. الروض المعطار ٥١.

(٥) مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٦) راجع: مروج الذهب ١/ ٣٥٥.

(٧) فى الأصل «أردوى» وهو تحريف.

كان زمن عبد الرحمن بن محمد[١]، ولما قتل عبد الرحمن وزيره أحمد بن إسحاق، وهو من ولد أخيه، لأمر استحق عليه بالشريعة القتل، عصى أخوه أمية ابن إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن، وكان صاحب شنترين، وصار فى حَيِّزردمير يُدْخِلُه على عَورَات المسلمين فخرج أمية متصيِّدًا، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعه من الدخول وكاتب عبد الرحمن ولحق أمية بررذمير واستوزره ورَفعه.

وغزا عبد الرحمن بعض سَمُّورة، دار مملكة الجلالقة، وسنذكرها مع الأمصار، إن شاء الله، وكان عبد الرحمن فى مائة ألف وأزيد، فكان التقاؤُه مع ردمير فى شوّال سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة أيام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم تابوا بعد أن حوصروا، فقتلوا من المسلمين نحو خمسين[٢] ألفًا.

وقيل إن الذى منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين أُمَيَّة، وحذَّرَه الكمين ورغَّبَهُ فى انتهاب ما فى العسكر من العُدَدِ، والأموال، والخزائن ولولا ذلك لأتى على المسلمين ثم إن أُمَيَّة استأمن عبد الرحمن أحسن قبول.

وقد كانت لعبد الرحمن بعد هذه النوبة وقائع كثيرة فى الجلالقة، قتل منهم فيها أضعاف المسلمين، وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ، وتليهم أمة عظيمة يقال لها وشكش.

* * *

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضى بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل، أبو المُطرِّف المروانىّ الأموى، أوَّل مَنْ تلقَّب بالخلافة من رجال الدولة الأموية فى الأندلس.

ولد وتُوُفّى بقرطبة (٢٧٧ـ٣٥٠هـ) وبُويع بعد وفاه جَدِّه سنة ٣٠٠هـ وبايعه الناس بالخلافة سنة ٣١٦هـ، وتلقَّب الناصر لدين الله.

حكم ٥٠ سنة وستة شهور. الأعلام ٣/ ٣٣٤.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٥٦.

ذكر النوكبرد [1]

بلادهم متصلة بالمغرب، واسم ملوكهم فى سائر الأمصار «أداكيس»، ومدينتهم العظمى ودار مملكتهم «تشت»، ويخرقها نهر عظيم يقال له سانيط، وهو أحد أنهار العالم الموصوفة بالكِبَر والعجائب.

وكان من جاورهم من المسلمين من بلاد المسلمين وغيرهم غلبوهم على مدن كثيرة، مثل مدينة ثاره، ومدينة سيدنيه، وغيرها من مدنهم الكبار وسكنها المسلمون مدة من الزمان، ثم غلب النَّوْكُبَرْد عليها، فهى بأيديهم الآن. ولهم جزائر كثيرة، وهم ذوو بأس وشدة.

* * *

[ذكر الأكراد][2]

فأما الكرد فقد تنازع الناس فيهم، فمنهم من رأى أنهم من ربيعة، ومنهم من رأى أنهم من مُضَر، من ولد كرد بن مُرّ بن صَعْصَعَة بن هوازن انفردوا فى قديم الزمان لوقائع كانت بينهم وبين غسان، وانضافوا إلى الجبال وجاوروا مَنْ هناك مِنَ الأعاجم، فحالفوا على لسانهم، وصارت لغتهم أعجمية[3].

ومن الناس من أَلْحَقَهُم بأبناء سليمان بن داود، حين سُلِبَ مُلْكُه، ووقع الشيطان المعروف بالجَسَد على إمائه المنافقات، لأنّ الله عز وجل قصَم منه المؤمنات، فلما رَدَّ الله ـ عز وجل ـ على سليمان ملْكَهُ أخرج الإماء الحوامل من الشيطان، فقال أَكْرِدْهُنَّ فى الجبال، فوضَعْنَ هناك وتناسلوا فذلك بَدْء الأكراد.

ومنهم من رأى أن الضَّحَّاك ذا الأفواه المُقَدَّم ذكره، كان يقتل كل يوم رجلين،

---

(١) النوكبرد: من ولد يافث بن نوح. مروج الذهب ١/ ٣٥٧.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٥٤.

يطْعِمُ أدمغتَهما للحيَّتَيْن اللتين كانتا فى كتفيه على ما تقدم ذِكْرُه، فكان وزيره يذبَحُ رجلاً وكبشا كل يوم، ويخلط أدمغتهما، ويستحيى رجلاً ويطرد من يخلص منهما إلى الجبال، فهم الأكراد.

(ق) يزعمون أن الأكراد فضل طعام بيوراسف، لأنه كان يذبح كل يوم إنسانين، ويتخذ من لحومهما طعامه، وكان وزيره يدعى أرمائيل فكان يذبح واحدًا ويستحيى واحدًا يبعث به إلى جبال فارس، فتوالدوا هناك.

(س) ومن أجناس الأكراد[1]: الشوهجان، والماجردان، والمادنجان، والمزدنكان، والبارسان، والمستكان، وغيرهم، وهم بأرض الدينور وهَمْذَان، وبلاد أذربيجان، وبلاد الشام، وبأرض الموصل إلى جبل الجودى وهؤلاء نصارى على رأى اليعْقُوبية، ومن الكرد خوارج على رأى البراءة من عثمان وعلىّ. رضى الله عنهم.

وموضع الكرد الذى فيه أولهم ما بين أرض يَهْوَه من أرض الشام، وما بين جزيرة العرب وقد ذكره أبو نصر الجيهانى وغيره.

* * *

ذكر ملوك اليمن

(س): تنازع الناس فى اليمن، بم سمى؟ فقيل لأنه عن يمين الكعبة، والشام لأنه عن شمالها، والحجاز لأنه حاجز بينهما والعراق بمصَبِّ الأنهار إليه الدجلة والفرات وغيرهما، مأخوذ من عَرَاقى الدلو[2] وعَرَاقى القِربَة وقيل سمى اليمن لِيُمْنِهِ، والشام لِشُؤْمِهِ[3]، وقيل سمى شامًا، لشامات فى أرضه بيض وسود، وذلكَ فى الترابِ والبقاع، وهذا قول الكلبى.

وقال الشرقى: سُمِّى بسام بن نوح لأنه أول من نزله، فلما نزلته العرب تطايرت

---

(١) مروج الذهب ١/ ٤٣٦.

(٢) فى الأصل «عرق» وهو تحريف.

(٣) وهذا رأى قطرب النحوى، نقله عنه المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٣٨٧.

من أن تقول سام[١]، والسام هو الموت، فقال شام وقد اختلف الناس فى أنساب اليمن، وهم يثبتون لا يختلفون أنهم من قحطان بن غابر بن شالخ[٢] بن أرفخشد بن سام بن نوح. (س) شالخ بن قيلان بن أرفخشد[٣] بن سام بن نوح، على ما تقدّم ذكره[٤].

قال (س) وهذا ينقله الباقى عن الماضى، وقد زعم الهيثم أن قحطان هو جدهم وتأول قول النبى ﷺ للأنصار «ارمُوا يا بَنِى إسماعيل»[٥] أنه نسبهم إليه من جهة الأمهات وما نَالَهم من الولادات.

والكلبى وشرقى بن قطامى يذهبان إلى أنه قحطان بن الهميسع بن نابت، وهو نابت بن إسماعيل، وولد قحطان يأبى هذا.

(س) وأول من ملك من ملوك اليمن سبأ بن يشجب[٦]، واسمه عبد شمس وسمى سبأ لسبيه سَبْيًا. وسئل رسول الله ﷺ عن سبأ هذا رجل هو أو امرأة، أو مكان؟ فقال: رَجُلٌ ولَدَ عشرة[٧] فشاءم أربعة لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وتيامَنَ ستةٌ: حِمْيَر، والأزد، ومَذْحج وكِنْدَة، والأشعريون، وأنْمَار، وهم بجيلة وخثعم» فملك سبأ أربعمائة وثمانين سنة، ثم ملك ولده حِمْيَر، وكان أشجع الناس وأجملهم، وهو أوّل من وضع التاج من ملوك اليمن، وملكَ خمسين سنة، ثم ملك بعده أخوه كَهْلاَن بن سبأ، ثم عاد المُلْكُ إلى وَلَدِ حِمْيَر فلم يزلْ فيهم، فملَك بعد كَهْلاَن الحارث الرائش بن مالك بن أفريقش بن صيفى بن يشجب[٨]، ثم توالت مملكتهم على ما ذكرنا إلى أن انتهت إلى ذى نواس[٩]

(١) فى التيجان ٣٥ «سام»: تفسيره بالعربية «سما».

(٢) معنى شالخ بالعربى ذو كيل. التيجان ٣٥.

(٣) تفسير أرفخشذ بالعربى: مصباح مُضىء، وأرفخشذ باللسان السريانى واسمه بالعبرانى: أرفخشاذ». التيجان ٣٥.

(٤) مروج الذهب ١/ ٣٨٩.

(٥) الحديث فى الفتح الكبير ١/ ١٧٥ ذكره عن البخارى وأحمد فى المسند.

(٦) التيجان ٥٨ ومروج الذهب ١/ ٣٩١.

(٧) التيجان ٥٨ وأخبار عبيد بن شرية ٤١٣.

(٨) مروج الذهب ١/ ٣٩٢.

(٩) التيجان ٣١٢.

فجازت إليه الحبشه بساحل زبِيد من أرض الغمر.

وصاحبهم أرْيَاط عظيم من عظمائهم، وكان فى عهد ملك الحبشة، إليه: إذا دَخَلْتَ اليمن فاقْتل ثُلُث رِجَالها، وخَرِّب ثُلُثَ بلدها وابْعَثْ بِثُلث نسائها»[١].

فلما تلاحن الحبشة قام أرياط[٢] فى جنده خطيبا، فقال: «يا معشر الحبشة قد علمتم أنكم لترجعوا إلى بلادكم أبداً، هذا البحر بين أيديكم إن دخلتموه غرقتم وإن سلكتم البر هلكتم، وليس لكم إلاّ الصبر حتى تموتوا أو تظفروا بعدوِّكم»[٣] فجمع ذو نواس جمعًا كثيراً ثم سار إليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة للحبشة، فظفر أرياط فقتل أصحاب ذى نواس وانهزموا فى كل وجه، فلما خشى ذو نواس أن يؤسر ركض فرسه فى البحر، فكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن فقتل ثلث رجالها، وبعث ثلث السبى إلى ملك الحبشة وخرّب ثلثها، وهدم حصونها وكانت تلك الحصون بنتها الشياطين فى عهد بلقيس[٤] واسمها يلمقه[٥]. وكان مما خُرِّب منها: بَيْنُون[٦]، وغمدان[٧]،

(١) الأغانى ١٧ / ٣٠٤.

(٢) التيجان ٣١٣.

(٣) الأغانى ١٧ / ٣٠٥.

(٤) هى بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، من بني يغفر بن سكسك، من حمير: ملكة سبأ، يمانية من أهل مأرب، أُشير إليها فى القرآن، ولم يُسَمِّها.
وُلِّيت بعد أبيها فى مأرب، وطمع بها ذو الأذعار (عمرو بن أبرهة) صاحب غمدان، فزحف إليها، فانهزمت، واستسلمت، لكنها أصابت منه غرة فى سُكْرٍ فقتلته، وولّيت أمر اليمن كُلّه، وظهر سليمان بن داود النّبى الحكيم بتدمر، ودخل مدينة سبأ، فاستقبلته بلقيس، وتزوَّجها، وأقامت معه سبع سنين، وقصة عرشها قصَّها القرآن، وتوفّيت، فدفنها بتَدْمُر، وانكشف تابوتها فى عهد الوليد بن عبد الملك،ورفع غطاء التابوت، فإذا هى غَضَّة لم يتغَيَّر جسْمُها، فأمر الوليد بَتْرك التابوت فى مكانه، وأنْ يُبْنى عليه بالصخر. الأعلام ١ / ٧٤ والتيجان ١٦١-١٧٣ وتاريخ الخميس ١ / ٢٤٩.

(٥) فى الأغانى ١٧ / ٣٠٥ «بَلْقمة»، وفى الأصل «بلغة» وهو تحريف.

(٦) بَيْنون: موضعٌ باليمن فى شرقى بلاد عَنْس، مقابلة لكُراع حَرَّة كَوْمان، وهى من أعاجيب اليمن، سُمِّيت ببينون بن مِينَاف بن شُرَحبيل بن ينكف بن عبد شمس معجم ما استعجم ١ / ٢٧٠ وفى الإكليل ٨ / ١٨٣ «أنه اسم حِصْنٍ عظيم كان باليمن قرب صنعاء، يقالُ إنه من بناء سليمان، والصحيح أنه من بناء التبابعة، وله ذكرٌ فى أخبار حمير وأشعارهم».

(٧) غمدان: قصبته صنعاء، قال أبو الصلت يمدح ابن ذى يزن: =

وسلحين[١]، وحصون لم يُرَ مثلها.

فقال الحميرى أبياتًا يذكر ما دخل على حِميَر من الذُلِّ: [من البسيط]

لا تبكين أسفًا فى أثر من ماتا ... بدمعها لن تَرُدَّ العينُ ما فَاتَا

أبعد سَلْحِين لا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ ... وبَعْدَ بَيْنُونَ يبنى الناسُ أبياتا[٢]

وكان على الحبشة أرياط بن أصخم، فبقى والى اليمن عشرين سنة، إلى أن وثب عليه أبرهة الأشرم، أبو يكسوم، وهو من الحبشة، وكان له كالوزير.

قال أبو الفرج: [«فلما ظفر أرياط، أخذ الأموال وأظهر العطايا فى قومه، أهل الشرق والغَنَاء، فغضب له الحبشة من ترك أهل الفقر، وأذَلّهم وأجَاعَهم، وأتعبهم فى العمل، وكلفهم ما لا يطيقون، وشكى بعضهم إلى بعض، قال لهم عند ذلك أبرهة: «لو أن رجلاً غضب لكم لأسلمتموه حتى يذبحَ كما تذبحُ الشاة؟ قال: لا والمسيح، ما كُنَّا لنسلّمه أبدًا». فواثقوه بالإنجيل لا يسلموه حتى يموتوا عن آخرهم[٣]. فنادى مناديه فيهم فخرجوا معه بالسلاح التى كانوا يعلمون بها ويهدمون البُدْنَ من المعاول والكرازين[٤] والمَسَاحى ثم صفوا صفًا بالمعاول، وصفا آخر بالمساحى بإزائه. وأخبر أرياط بما صنع أبرهة، فركب فى الملوك ومن تبعه من أشياعهم، فلبسوا السلاح، وجاءوا بالأَفْيِلة حتى إذا دنا بعضهم من بعض برز أبرهة، فنادى بأعلى صوته: «يا معشر الحبشة، الله ربنا، والإنجيل كتابُنا، وعيسى نَبِيُّنا والنّجاشى مَلِكُنا، علام يقتلُ بعضُنَا بعضا؟ هذا رجلٌ وأنا رَجُلٌ، فخلُّوا بيننَا وبَيْنَه، فإن قتلنى كان الملك وإن قتلته عملت فيكم بالإنصاف ما بَقِيتُ»[٥].

= فاشربْ هنيئًا عليك التاج مرتفقًا ... فى رأس غمدان دارًا منك محلالا

معجم ما استعجم ٣/ ٢٥٦-٢٥٧ والإكليل ٨/ ١٤٧.

(١) سَلْحِين: على وزن فَعْلِين. موضعٌ باليمن، وهو قصر سبأ بمأرب. معجم ما استعجم ٣/ ٥٦.

(٢) البيتان لذى جدن الحميرى فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٧ والأغانى ١٧/ ٣٠٦ وسيرة ابن هشام ١/ ٣٢.

(٣) الأغانى ١٧/ ٣٠٦.

(٤) الكرازين: جمع كرزن، وهى الفأس الكبيرة.

(٥) عبارة الأغانى ١٧/ ٣٠٧ «فإنْ قتلنى عادَ الملك إلى ما كان عليه من أثرة الأغنياء وهلاك الفقراء، وإنْ قتلته سَلِمتُم وعملت فيكم بالإنصاف بينكم ما بقيتُ».

فقال الملوك: «قد أنصفكَ يا أَرْيَاط»، وكان أرياط قد عُرِف بالشجاعة والنظر وكان جميلاً، وكان أبرهةُ قصيرًا دَميمًا، منكر الفؤاد، فاستحيا أرياط من الملوك أن يَجْبُنَ فبرز بين الصفّين، ومشى كُلٌّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، فحمل أرياط على أبرهة فضربه ضربه وقع منها حاجبيه، وعامّة أنفه، فعمد أبرهة إلى عمامته فشد بها وجهه وسكن الدَّم، وأخذ عودًا وجعله فى فيه، وقال: «أيها الملك أنا شاةٌ فاصنع ما بدا لك فقد أبصرتُ أمرى»، ففرح أرياط، فلما رأى أبرهة أرياط قد انكسر عنه وهو ينظرُ يمينا وشمالاً لأن تراه ملوك الحبشه، شدَّ عليه، وكان أبرهة قد أبطن فى فخذه خنجرًا كأنه خَافِية نَسْر[١]، فطعنه طعْنَةً من فرج الدرع أَثْبَته[٢] وخرَّ على قفاه، وقعد أبرهة على صدره فأجهز عليه، فسُمِّى أبرهة الأشرم[٣] من ذلك اليوم، من تلك الضربة التى شرمت وجهه، وملك اليمنَ أبرهةُ.

فلما بلغ ذلك النجاشى، حلَف بالمسيح أن يجزّ ناصيته، ويريق دمه، ويطأ تُرْبَتَهُ، يعنى أرض اليمن، فبلغ ذلك أبرهة، فجزَّ ناصيته وجعلها فى حُقّ، وجعل من دمه فى قارورة، وجعل من تراب اليمن فى تراب، وضم ذلك فى هدايا كثيرة وألطاف جّمة، وكتب إليه يعترف بالعبودية، ورغب إليه أن يبرّ قسمه بما بعث إليه، فيجز ناصيته بيده، ويريق دمه، ويطأ تربته، فصفح عنه النجاشى[٤] وكان ذلك فى زمان قباذ ملك الفرس.

وسار أبرهة إلى مكة لخراب الكعبة لأربعين سنة خلت من ملك أنو شروان وبعثت معه ثقيف بأبى رغال ليدلّه على أَسْهَلِ الطُّرُق، فقُتِل أبو رغال فى طريقه ذلك فى موضع يقال له المُغْمَس بين الطائف ومكة، فلم يزل قبره يرجم إلى يوم القيامة قال جرير: [من الوافر]

إِذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فَارجُمُوهُ كَما تَرْمُونَ قَبْرَ أَبِى رِغَـالِ[٥]

(١) الخَوافى: ريشات من الجناح إذا ضَمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيت.

(٢) أى جعلَه لا يقدر على الحراك.

(٣) راجع: تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٩.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٣٩ ومروج الذهب ٣٩٤.

(٥) البيت لجرير فى ديوانه ٢/ ٥٤٧ ومروج الذهب ١/ ٣٩٥.

وقد قيل فى أبى رغال إنَّ ثقيفًا قتلَتْهُ قَتْلَةً شنيعة، ولذلك سمى قسيًا، وذلك أن صالحًا النبى ﷺ بعثَهُ مصدِّقًا، فأساء السيرة وخالف أمره، ولذلك يقول: [من الوافر]

نُفُوا عن أرضهم عدنان طُرًا وكانوا للقبائل قاهِرِينَا
وَهُمْ قَتَلُوا الرَّئِيسَ أَبَا رغالٍ بمكةَ إِذْ يَسُوق بها الوَضِينَا[1]

وفى طريق العراق إلى مكة، بين الثعلبية[2] والهبير، قبرٌ ترجمه المارّة كما يرجم قبر أبى رغال، يعرف بقبر العَبَّادى[3] وله حديث طويل.

وكان قدوم أصحاب الفيل لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين للإسكندر، فأهلك الله أبرهة، فكان مُلْكُه إلى أن رجع من الحرم، وسقطت أنامله وتقطعت أوصاله ثلاثًا وعشرين سنة.

ثم ملك ابنه مَسْرُوق بن أبرهة، فزاد على الناس فى الأذى والمكروه.

قال أبو الفرج: «وأمُّه رَيْحَانة امرأة ذى يَزَن بن سيف بن ذى يزن»[4].

قال أبو الفرج[5]: «ولما طال البلاء على أهل اليمن مشوا إلى سيف بن ذى يزن الحِمْيَرى، فقالوا له: نجد خبرًا عند سَطِيح: أنَّ هذا البلاء يُفْرَجُ على يدى رجل من أهل بيت ذى يَزَن، وقد رجونا أن تُدْرِكَ بثأرنا، فأنعم لهم بالخروج، فخرج إلى قيْصَر ملك الروم وكلّمة أن ينصرهُ على الحبشة، فأبى وقال: هم على دِينى، وأنتم على دين يهود، فخرج من عنده مُؤْيسًا من نَصْرَته، وسار إلى كسرى فانتهى إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، فدخل عليه، فأخبره بما لقى قومه من الحبشة، فقال له: أقم فإن لى من كسرى إذْنًا فى كلِّ سنة، وقد حان ذلك.

فخرج وأخرج معه سيفُ بن ذى يَزَن، فأدخله على كسرى، فشكا إليه الحبشة،

---

(١) البيتان لأمية بن أبى الصلت الثقفى فى ديوانه ٨٦ ومروج الذهب ٣٩٥، وفيه (بنخلة) مكان (بمكة).

(٢) فى الأصل (التغلبية) والتصحيح عن المسعودى ١/ ٣٩٥.

(٣) مروج الذهب ١/ ٣٩٥.

(٤) الأغانى ١٧/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٥) الأغانى ١٧/ ٣٠٩ وتاريخ الطبرى ١/ ٤٤٥.

فقال: غلبونا[١] على بلادنا واستعبَدَنا السُّودَانُ، فقال له كسرى: بلادُك بعيدة ولا أُرْسِلُ معك جيشا فى غير منفعة، فأيّسُوه من النصر، وأمرَ له بعشرة آلاف وكساه كساء، فلما خرج بها من باب كسرى نشرها بين العبيد والخدام، فبلغ ذلك كسرى فأمر بصرفه إليه وقال: ما حملَك أنْ تصنعَ بجائزة الملك ما صنعت؟ فقال سيف: جبالُ أرضى ذهبٌ وفضّة، وإنما جئت إلى الملك ليمنعنى من الضَّيمِ ولم آتهِ ليعطنى الدراهمَ، ولو أردتُ المالَ كان ذلك عندى كثيرًا، فقالَ كسرى: أنظرُ فى أمرك. قال المسعودى: «فشاغلَ عنه»[٢] قال المؤلف «شُغِلَ عنه بحرب الرُّوم وغيرها إلى أَنْ هَلَكَ سَيْف».

فأتى معدى كرب بن سَيَف يَسْتَنْجِزُ منه عِدَتَهُ لأبيه، هذا قول أبى الحسن المسعودى[٣]، والجمهور على خلافه من أنَّ سيفَ بن ذى يزن هو الذى أباد الحبشة وتملّك اليمن، فوجه معه كسرى وَهْرِز الدَّيْلمى، وكان راميًا شجاعًا، مع ما كان فى بلاده من أهل السجون.

وقال «إنْ مَلَكُوا فَلَنَا، وإن فتحوا فَلَنَا» فحملوا فى السفن فى دجلة ومعهم خيولهم وعُدَدِهم، حتى نزلوا أبُلَّة البصرة، ولا بصرةَ ولا كوفة إذ ذاك لأنها إسلامية فركبوا من هناك البحر إلى ساحل حضرموت، فنزلوا موضعًا يقال له مَنُوف، فأمر وَهرِز بتحريق السفن لِئَلاَّ يؤملون المفرّ، وفى ذلك يقول رجل من حضرموت: [رجز]

أصبح فى منشوب ألف من الجُنَنْ
من رَهْطَ ساسان ورهط مِهْرَسَنْ
لِيُخْرِجُوا السُّودَانَ من أرض اليَمَنْ
ولَّهم قَصْدُ السَّبِيل ذو يَزَنْ[٤]

(١) فى الأغانى ١٧/ ٣٠٩ «غُلِبْنا».
(٢) إلى هنا نَصُّ الأغانى ١٧/ ٣٠٩.
(٣) مروج الذهب ١/ ٣٩٦.
(٤) أبيات الرجز بلا نسبة فى الأغانى ١٧/ ٣١٠ ومروج الذهب ١/ ٣٩٦.

قال أبو الفرج[١]: وقال وهرز لسيف: ما عندك فقد جئنا بلادك؟ فقال: ما شئتَ من قوسٍ ورَجُلٍ عَرَبِيٍّ، ثم اجعل رِجْلِي مع رِجْلك حتى نظفرَ جميعًا أو نموتَ جميعًا، فقال: أنصفتَ.

وجعلَ سيف يستجيشُ اليمامةَ، ونمىَ خبرهم إلى مسروق بن أبرهة، فأتاهم بمائة ألف من الحبشة وأَوْباشِ اليمن، فتصافّ الناسُ ومسروق على فيلٍ عظيم، ثم نزل عنه إلى فرس استصغاراً لهم، ثم نزل عنه وركب حماراً، فقال وَهْرِز: ذهب مُلْكه تنقَّل من كبير إلى صغير.

وكان بين عينيه ياقوتة حمراء مُعَلَّقَةٌ من تاجه تَتَّقِدُ كالنار، فرماه وَهْرِز ورمى القوم.

قال أبو الفرج: «وتَرَ وَهرِز قوسه، وكان لا يوترها أحدٌ غيره، ثم نزع منها أبدًا، فظل السهم يهوى حتى صَكَّ الياقوتة التى كانت معلّقة بين عينى مسروق فتغلغلت النُّشابَةُ فى رأسه حتى خرجت من قفاه»[٢].

قال أبو الحسن: «قال وهرز: قدْ رميتُه، فإن كان أصحابه يجتمعون إليه، ولا يتفرقون عنه فهو حيٌّ، وإن كان يجتمعون إليه ويتفرَّقون عنه فهو ميّت فقال: احملوا عليهم واصدقوهم القتال، ففعلوا فانكشفت الحبشة فقتل منهم نحو ثلاثين ألفًا، ورفع رأس مسروق ورأس خواصه على أطراف الرماح، وألبس وَهرزْ معدى كرب تاجًا بعثه معه أنوشروان، وكان أنو شروان قد شرط على معدى كرب تاجًا، فبعثه إليه مع شروط، منها «أن يتزوّج فيهم الفرسُ ولا يتزوّج اليمن فى الفرس».

قال أبو الفرج: فلما قُتِلَ مسروق أقبل وهرز يريد صنعاء، وكان التقاؤهم خارجها، وكان اسم صنعاء قبل الحبش أزَال[٣]، وكانت الحبشة لمَّا بنتها وأحكمتها قالت العرب صنْعًا، فَسُمِّيت صنعاء.

---

(١) الأغانى ١٧/ ٣١٠.

(٢) الأغانى ١٧/ ٣١٠.

(٣) أزال: اسم مدينة صنعاء، وأزَال: هو والد صنعاء بن أزال بن يقطن بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ. وكان أوَّل من بناها، ثم سُمِّيت باسم ابنه لأنه ملكها بعده، فغلب اسمُه عليها. معجم ما استعجم ١/ ١٩٩ـ٢٠٠.

فلما دنا وهرز من باب المدينة قال: لا تُدْخلوا رايتى منكوسة أبدًا، اهدموا الباب. ودخل برايته قائمة، فقال سيف: ذهب ملك حمير إلى آخر الدهر لا يرجع إليهم أبدًا، فكان مدة ملك الأحابش اثنين وسبعين سنة، وكان هذا الفتح لخمس وأربعين عامًا من ملك أنو شروان.

وفى نصر فارس اليمن على الحبشة يقول بعض أولاد فارس:

نَحْنُ خُضْنَا البِحَار حتى فككنا ... حمْيَرًا من بليَّة السُّودَان

فَقَتَلْنَا مَسْروقًا إذْ تاهَ عُجْبًا ... إذْ تداعَتْ قَبَائِلُ الحُبْشَان

وفَلَّقْنَا ياقوتةً بَيْنَ عَيْنَيْه ... بِنُشَابَةِ الفَتى السَّاسَانِى[1]

وأقبلت وفود العرب تهنىء معدى كرب وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وأسدُ بن عبد العزّى، وأبو الصلت الثقفى، فدخلوا عليه وهو فى أعلى قصره المعروف بغمدان بمدينه صنعاء، وعلى عينيه وشماله الملوك وأبناؤهم فتكلمت الخطباء وكان أولهم عبد المطلب، فأحسن، فقال معدى كرب: مَنِ المتكلمُ؟ فقيل: عبد المطلب بن هاشم، فقال: ابن أختنا؟ قال: نعم فأدناه، وقرّبه، وقال: مَرْحبًا وأَهْلاً، وناقة ورَحْلاً، ومُسْتَنَاخًا سَهْلاً، وملكًا رِبَحْلاً[2]، يعطى عطاء جزلاً[3]. ثم قال: «قد سمعت مقالتكم، وعرفت قرابتكم، وقبلت وسيلتكم، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا طعنتم» ثم أنشده أبو الصلت، وقيل أبو زمعة جد أمية: [من البسيط]

لِيَطْلُبِ الْوِتْرَ أَمْثَالَ ابْنَ ذِى يَزَنٍ ... لَجَّجَ فى البحر للأعداء أَحْوَالاَ

أَرْسَلْتَ أُسْدًا على سُودِ الكِلاَب فَقَدْ ... أمْسَى شَرِيدَهُمو فى الأَرض أغلالاً

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... فى رأس غُمْدَان دَارًا منك مِحْلاَلا[4]

---

(١) الأبيات لبعض أولاد فارس فى مروج الذهب ١/ ٣٩٨.

(٢) الرِّبَحْل: العظيم الشأن.

(٣) التيجان ٣١٩.

(٤) الأبيات لأبى زمعة جَدّ أميَّة بن أبى الصَّلْت الثقفى فى مروج الذهب ١/ ٣٩٩ ولأبى الصَّلْت أبى أميَّة بن الصَّلت الثقفى فى تاريخ الطبرى ١/ ٤٤٩ والتيجان ٣١٧ والديباج لأبى عبيدة ١٠٧ والشعر والشعراء ١/ ٤٦١ وسيرة ابن هشام ١/ ٥٨-٥٩.

قال أبو الفرج[١]: «وإنما قال أبو الصَّلْت (اشْرَبْ هَنِيئًا) لأنه كان أَبَى ألاَّ يشربَ خمرًا، ولا يمس امرأة ولا طيبًا، حتى يدرك أثاره من الحبشة، فجعلت له حُلَّتان واسعتان، فَاتَّزَرَ بواحدة، وارْتَدى الأخرى، وتطيَّب، وجلس على رأس غُمْدَان يشرب، وبرَّت قسمُه، وخرج بعد ذلك يتصيّد فقتله الحبشة».

ولمعدى كرب مع عبد المطلب كلامٌ كثير فى أمر النَّبِىِّ ﷺ حين بَشَّره به معدى كرب، وخبره عَمَّا يكون من أمره.

وكان مُلْكُ معدى كرب إلى أن قتلته الحبشة أربع سنين، وهو آخر من ملك من اليمن من قحطان، فعددُ مُلوكهم... مَلِكًا، ومدة ملكهم... سنة وقيل أقل من ذلك[٢].

فلما قتل معدى كرب، بعث أنو شروان، وَهْرِز فى أربعة آلاف فارس لإصلاح أمر اليمن، وأن لايُبْقِ بها أحدًا من بقايا الحبشة، فلم يترك بها أحدًا من السُّودان، وبقى وَهْرِز بصنعاء إلى أن هَلَكَ، ثم تداولت اليمن عُمَّالَ الأكاسرة إلى أن أتى الله بالإسلام.

فهؤلاء ملوك اليمن من العرب، والحبشة، والفرس، وكان أكثر نزولهم ملوك حمير من اليمن ظَفَار، وعلى باب ظَفَار مكتوب بالقلم الأول على حجر أسود [خفيف]

يوم شيدت ظفار قيل لمن أَنِسْـ ـتِ قالت: لحمير الأخيار
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إِنَّ ملكى للأَحْبُشِ الأشرارِ
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إِنَّ ملكى لفارس الأحرار
ثم سيلت من بعد ذلك فقالت إن ملكى لحمير سَحَّار
وَقَليلاً ما يلبث القوم فيها غير تَشْيِيدها لجفاف البوار
من أسود يلتهم البحر فيها تشعلُ النارَ فى أعالى الجدارِ[٣]

---

(١) الأغانى ١٧/ ٣١٢.

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب ١/ ٤٠٠ «فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكًا، ملكوا ثلاث آلاف سنة ومائة وتسعين سنة».

(٣) الأبيات بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٤٠٣.

وعند أهل اليمن أن ديارهم تَتَغَلَّب عليها الأحابيش آخر الزمان، من بعد هنات وإنات وكرائن وأحداث.

وحَدُّ اليمن فى العرض مما يلى مكة، بطيحة الملك إلى عدن، وهى آخر عمله ست عشرة مرحلة، والطول من حكا وحكَم إلى مفاوز حضرموت وعُمَان عشرون مرحلة، والمرحلة ستة فراسخ.

* * *

ذكر ملوك الحيرة

أقام جَذِيمةُ مَلِكا أزمان ملوك الطوائف[١] خمسًا وتسعين سنة، وفى ملك الساسانية ثلاثا وعشرين سنة، وكان سكنه بالمضيق[٢] بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا[٣] وكان يُكَنَّى بأبى مالك، وفيه يقول سُوَيْد بن أبى كاهل[٤]: [من الرمل]

إِنْ أَذُقْ حَتْفى فَقَبْلى ذَاقَهُ طَسْمُ عَادٍ وجديسُ ذو الشَّنَعْ

وأبو مـالك المَلِك[٥] الَّذى قَتَلَتْهُ بنـتُ عمرٍو بِالْخِـدَعْ[٦]

يعنى الزباء بنت عمرو[٧]، من بنى السميدع بن هَوْبَر، وكان ملكًا على مشارق

(١) فى الأصل «الطائف» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل «بالصين» وهو تحريف والتصحيح عن المسعودى ٢/ ٩٦.

(٣) فى الأصل «قرطيسيا».

وقرقيسيا: كَورة من كور ديار ربيعة بين الحيرة والشام. معجم ما استعجم ٣/ ٣٨.

(٤) هو سُوَيد بن أبى كاهل اليَشْكرى. عَدَّه ابن سَلاَّم من شعراء الطبقة السادسة من الجاهليين، كنيته أبو سعد، شاعر مخضرم، قرنه ابن سلاَّم بعنترة.

ترجمته فى: المؤتلف والمختلف ٢٧٣ والشعر والشعراء ٤٢١و٤٢٢ وطبقات ابن سَلاَّم ١٥٢ - ١٥٣ والمفضليات ٤٠ والإصابة ٣/ ١٧٢ والبُرْصان ٣٢ و ١٤٢.

(٥) فى مروج الذهب ٢/ ٩٦ (القَيْل) مكان الملك، والقَيْلُ: المَلِكُ بلغة ضمير.

(٦) البيتان لسُوَيد بن أبى كاهل اليشكرى فى مروج الذهب ٢/ ٩٦ (ط/ دار الكتب العلمية).

(٧) هى الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسّان بن أذينة بن السَّمَيْدَع: الملكة المشهورة فى العصر الجاهلى، صاحبة تدمر، وملكة الشام والجزيرة.

ترجمتها فى: معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام ٩٩-١٠٠ والحور العين ٣٥٧ والأغانى ١٥/ ٣١٠.

الشام من قِبَل قيصر، قال: وكان على الحيرة ثم ملكته بعد أبيها.

وأما تزويجه لأخته من عَدِىّ بن نصر بن ربيعة بن مالك بن خثعم بن نمارة بن لخم، ويقال عمرو بن عدى بن نصر بن السَّاطرون بن أسطرون ملوك الحضر ثم النصرانيّين.

صح من السفرالثانى، فإن أخته رَقَاش تعشَّقَتْهُ فقالت له: «يَا عَدِىُّ إذا سقيتَ القوم فامزجْ لهم وصَرِّح لهم، فإذا انتشى فاخطبنى إليه» ففعل ذلك وزوَّجه وأشْهَدَ عليه وانصرف الغلام، فقال له: عَرِّس بأهلك، ففعل فلما أصبح غدا جَذِيمةُ وهو مُضمَّخ بالخُلوق، فقال له جَذِيمة: ما هذه الآثار يا عَدِىّ؟ قال: آثار عروسٍ، قال: وأىّ عُرْس؟

قال عُرْسُ رَقَاشٍ، فأخرّ جَذِيمةُ وَأكَبَّ على الأَرْضِ ورفع عدىٌّ جَرَاميزَهُ وأسرعَ الفرار، وجَدَّ جَذِيمةُ على طلبه فلم يقع له على أثرٍ ولا خبر، وقيل إنه ظفر به فقتله. وبعث جذيمة إلى رقاشٍ فقال لها: [خفيف]

خبِّرينى رَقَاشُ لا تكْـذبينى ... أَبحرٍّ زَنَيْتِ أَمْ بِهَجِيـنِ؟
أَمْ بِعَبْدٍ؟ فأنْتِ أَهْلٌ لعبـدٍ ... أَمْ بِدُونٍ؟ فأنت أَهْلٌ لِدُونِ[1]

قال فكتبت إليه رقاشُ: [خفيف]

أَنْتَ زَوَّجتَنى وَمَا كنتُ أَدْرِى ... وأَتَـانى النِّسَــاءُ لِلتَّـزْيِيـن
ذَاكَ مِنْ شُرْبِكَ المدامة صِرْفًا ... وتَمادِيكَ فى الصِّبا والُمجُـون[2]

فنقلها جذيمة إليه، وحَصَّنها فى قصره، فاشتملت على حَمْل وأتت بولدٍ سُمِّى عَمْرًا، فأعُجِبَ به جذيمةُ، وأُلْقِيت عليه منه مَحَبَّةٌ[3].

وهو القائل وقد خرج مع خاله جذيمة فى سنة قد أَكْمَأَت، وبَسط له فى رَوْضَة وعمرو فى غِلْمةٍ يجتنونَ الكَمأَة، فكانوا إذا أصابوا كَمْأَةً طيِّبة أكلوها، وإذا أصابها عمرو أقبل يسعى بها إلى خاله وهو يرتجز:

(١) البيتان لجذيمة فى مروج الذهب ٢/ ٩٨.
(٢) البيتان لرقاش أخت جذيمة فى مروج الذهب ٢/ ٩٨.
(٣) أى كَثُرَ بها الكَمأ، وهو نوع من الفِطْر.

هـذا جَنَـاى وخيارُه فيه

إذ كُلُّ جان يَدُهُ إلى فِيه[١]

ثم إنَّ الجِنَّ استطارَتْهُ، فضرب له جذيمة فى الآفاق زمانًا فلم يسمع له خبرًا إلى أن وجده نديماه: مَلك، وعَقِيل ابنا فالج.

ثم كان من قتل الزبّاء لجذيمة ما قد تكرّر نقله، وكَثُر ذكره، وهى التى قالت له وقد كَشَفَتْ عن كَعْبها، وقد عقدت شَعرها باسْتها: أَشَوَارُ عَرُوس تَرَى يا جذيمة؟ فقال جذيمة: لاَ والله، بَلْ أَرَى شَعَارَ أمة كَعْكًا، غير ذات حفير، قالت أمَا والله ما ذاك لعدم مُوَاسٍ ولاَ لِقِلَّة أُوَاسٍ، ولكنَّ شيمةُ مَا أُنَاس»[٢].

ثم كان الأمر فيهم بعد عمرو بن عدى بن نْصر لا يَعْدُوا ذُرِّيَّته، وعمرو هو أوّل من نزل الحيرة، واتخذها دار مملكته، وقال شيبان عن قتاده «ذكر لنا أنَّ تُبَّعًا كان رَجُلاً من حِمْيَر، صار بالجنود حتى حَيَّر الحِيَرةَ، ثم أتى سَمَرْقَنْد فهدمها.

والحيرة أرض باردة فى الشتاء، وهى مُفْرِطَةُ الحَرِّ فى الصَّيْفِ، حتى إنهم لينزعون ستوربَيوتهم مَخَافةً من إحراق الشمسِ لها، ولا يشربون الماء إلا بالسكنجين والجلاب ممزوج به، لأنَّ الماءَ لا يبلغ أعماق أبدانهم صِرْفًا.

وبنو عمرو بن عدى بن نَصْر هُمْ النَّصْرِيّة، ولم يزل المُلْكُ فى ذريَّة ابن عدِىّ إلى النعمان بن المنذر، وهو آخر ملوكهم، وهو الذى قتله كسرى، وكان النعمان لما أراد إتيان كسرى بعد هربه من بنى شيبان، أوْدَعَ سلاحه وعياله عند هانئ بن مسعود، فلما أتى كسرى النعمان بعث إلى حُرْقَة بنت النعمان وكانت إذا خرجَت إلى بَيْعتها يُفْرَشُ لها طريقها بالحرير والدّيباج فلما هلك النعمان بكَّهَا الزمان.

وقدم سعد بن أبى وقاص القادسية أميرًا عليها وقد هزم الفرس، وقتل رستم فأتته حُرْقة بنت النعمان فى إماءٍ من نسائها، وعليهن المسوح والمقطعات السود مترهّبات يطلبن صلته، فلما وقفنَ بين يديه قال: أَيَّتكن حُرْقَة؟ قالت: ها أَنَا ذِه،

(١) الرجز لعمرو بن عَدِىّ فى مجمع الأمثال ١/ ٣٢٣ ومروج الذهب ٢/ ٩٨ وخزانة الأدب ٧/ ١٥٢.

(٢) الديباج لأبى عُبيدة ١١٠.

قال: أنت حرقة؟ قالت: نعم، فما تذكارك[١] فى استفهامى؟ إن الدُّنْيَا دارُ دُوَل وزوَال، لا تدومُ على حال، ولا تبقى على أحد، تَنْتَقل بأهلها انتقالا، وتعقبهم بعد حال حالاً، كُنَّا ملوك هذا المصْر يُجْبَى إلينا خراجُه. فلما أدبر الأمر، صاح بنا صائحُ الدَّهر، فصدَعَ عصانا وشتَّت مَلأنا، وكذلك الدهرُ يا سعدُ، ليس من قوم كانوا فى حبرة إلاّ والدهرُ يعضُّهم عبْرة، ثم أنشدت [من الطويل]

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاس والأَمْرُ أَمْرُنَا ... إِذَا نَحْنُ فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

فَأُفٍ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعيمُهَا ... تقلَّبُ تَارَاتٍ بنا وتصرفُ[٢]

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها، فلما أرادت فراقه قالت: لا نزع الله من عبدٍ صالح نعمة إلا جعلَك سَبَبَ رَدِّها إليه.

وروى أن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله دخل على حرقة بنت النعمان بن المنذر بالحيرة فى بَيْعتها، وهى فى نسوة راهبات، قال: فما رأيت مثل وجُوهِهِنَّ نسوةً، فقال لها: كيف رأيت غمرات المُلْك يا حُرْقة؟ قالت: هذا خيرٌ ممَّا كُنَّا فيه، إنَّا نجدُ فى الكتب أنه ليس من بَيْت يمتلىءُ حبرةً إلا امتلأ عَبْرةً، وأنَّ الدهر لم يأت قط على قوم بيوم يُحِبُّونه إلا أتى بيوم يكرهُونه، وأنّ على أبواب السلطان كأشباه الحذرِ من الفتنِ، وأن أحدًا لم يُصِبْ منهم شيئًا إلا أصابوا من دينه مِثْلَيه[٣] قال: فقلت كيف صبرك؟ قال: فأقبلَتْ عَلَيَّ بوجهها ثم قالت يا سبحان الله، تسألنى عن الصبرِ، ماميَّز أحدٌ بين الصَّبْرِ والجَزَعِ إلا أضاف بينهما التفاوت فى حالتيهما، أما الصبرُ فحسنُ العلانية محمودُ العاقبة، وأما الجَزَعُ فغيرُ مُعَوَّضٍ عِوَضًا مع إثمه، ولو كان رجلاً فى صورتهما لكان الصبر أولاهما بالغلبة فى حسن صُورَته، وكرمِ طبيعته فى عاجلة من الدنيا، وآجلة من الثواب، وكفى ما وعدنا الله أَنْ أَلْهَمَنَاهُ، قال: قلت: إنَّا لم نزلْ نسمعُ أنَّ الجَزعَ للنساء، فلا يجزعَنَّ رجلٌ بعدَك فى مصيبة فقد كَرُمَ صَبْرُك، قالت: أما سمعت الشاعر وهو يقول: [من البسيط]

(١) فى الأصل (تكرارك).

(٢) البيتان لحرقة بنت النعمان بن المنذر فى مروج الذهب ٢/ ١١٢.

(٣) فى الأصل (مثيله).

واصْبِرْ عَلَى القَدَرِ المَجْلُوبِ وَارْضَ بِهِ ... وإنْ أَتَاكَ بِمَا لا تَشْتَهى القَدَرُ
فمَا صفَا لامْرِئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ به ... إلاَّ سَيَتْبَعُ يَوْمًا صَفْوَهُ كدرُ

ولم يزل عمران[1] الحيرة يتناقص مُذْبُنيت الكوفةُ إلى أيام المعتضد بالله فإنه استولى الخرابُ عليها، وكان فيها ديارات كثيرة، ورهبان لحقوا بغيرها من البلاد لاستيلاء الخراب عليها، وأقفرت من الأنين فى هذا الوقت إلا الصَّدَى واليومُ، وأهل الدِّراية، بما يحدث يزعمون أن سيعود العمران[2]، وقد كان جماعة من خلفاء بنى العباس قبل أنْ ينزلوها، لِطيبِ هَوائها، وصفاء جوهرها، وقُرْبِ الخَوَرْنَقِ والنَّجَفِ منها.

وكان مُدَّة هذه الحيرة من أوَّلِ عمران الحيرة وبَدْوِه إلى وقت بناء الكوفة ٥٠٠ سنة وبضعًا وثلاثين.

فأما ملوك غسَّان بالشام، فقد أوتى على ذكرهم. (ق): وكانت ديار ممالكهم اليرموك والجولان من غوطة دمشق، ومنهم من نزل الأردن.

وأما ملوك الشام، قبل سَيْل العَرِم، فإنها كانت ببلاد مأرب قبل سيل العرم من أرض البلقاء، وعدد من مَلَكَ الشام من غسّان أحد عشر ملكا والله عزّ وجل أعلم.

* * *

ذكر ما خُصت به جزيرة العرب

من ذلك اللؤلؤ الجَيِّد القطْرِى، يكون بناحية الشحر، لا يوجد مثله، وقد وجد فى جزيرة (. . . . . .)[3] لؤلؤة لا يعلم أنه وُجد فى مغاصّ اللؤلؤ مثلها فى كبرها وصفائها واستواء خلقها، وأجزائها، وتُسمَّى اليوم عند الملوك باليتيمة لانفرادها عن النظائر.

---

(١) النصّ فى مروج الذهب ٢/١١٣ـ١١٤.

(٢) عبارة مروج الذهب «أنَّ سعدها سيعودُ بالعمران».

(٣) كذا بالأصل بياض، وإزاؤه كلمة (سهو).

والزَبَرْجَدُ وهو يوجد فى جزيرة بين العَوْنِيد والحَوْرا، وتسمى تلك الجزيرة زبَرْجَدَة، والعقيقُ يكون ببلاد العرب مُدَوَّمة، وأجودُه الصِّينى، والجَزْع أجودُه اليَمَانى، ويُؤْتى به أيضًا من الصِّين، وليس مثله.

والشَّبُّ لا يعدلُ باليمانى منه شىءٌ، وهو من عجائب العالم، لأنه ماء يسيل على جبلٍ فيجمدُ قبل أن يصل إلى سَفْحه، فيكون منه هذا الشبّ اليمانى[1] الكهرباء البحرية من بلاد اليمن حجارة المِسَنّ[2] من بلاد الحجاز أكثر ما تكون بناحية خيبر بقرب منه مدينة النبى ﷺ وفرش حمامات مكة منه. اللُّوبان لا يكون إلا باليمن فى بلاد الشحر وحضرموت، ومنها يُتَجَهَّزُ به إلى بلاد الهند والصين، وإلى خراسان، وإلى جميع الأقطار وأشجارها مثل أشجار التوت إلا أنها لا تورق، بل تحمل أغصانها كلها، الكُنْدُر، واللك أيضًا يكون فى الشحر وحمله كذلك كحمل اللوبان ولُكٌّ الهند، والصمغ العربى: وهو من شجر الطلح، والمُقْلُ: لا يكون إلا باليمن ومن هناك يحمل إلى جميع البلاد.

والسنان شجر الحمر وهو التمر الهندى، وهو فى أرض اليمن من حضرموت وغيرها ومن هناك يتجهَّزُ به فى الآفاق.

واللُّكُّ لا يكون إلا فى بلاد اليمن، يحمل إلى مصر فى عِيَدانه، ويُحْمَلُ منه إلى سائر البلاد، والصَّبِرُ يكون فى بلاد اليمن، وأجودُه صبر سقطرى[3] والقاقلتان، والقسطَل الحلو، والوَرْس، هذه كلها من بلاد اليمن، ومنها تحملُ إلى أقطار البلاد والخيار شَنْبَر يكون ببلاد اليمن.

شجرُ البانِ كثير بالحجاز من هناك يُجْلَبُ إلى الآفاق.

سكر العُشر باليمامة، وهو أجوده، يتخذ من نواره، وهو نبات حسن كأنما نُقِش نَقْشًا، والسَّنا الحرمى بمكة، ومن هناك يُجْلَب إلى الآفاق.

ومما خصت به الحِراتُ التى تصنعُ بصنعاء من القطن، لا يقدر فى غيرها على اتّخاذ مثلها، ومنها تحملُ إلى البلاد، وكذلك الأردية، والعمائم العدنيّة، والثياب

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤٧ ـ ١٤٨ (ط/ دار إحياء التراث).

(٢) معادن الجوهر ٢٠٢.

(٣) صفة جزيرة العرب ٥٢.

السحولية، والأُدم الطائفى لا يصنع فى قطر من الأقطار مثله.

والبقر المُتَلَمِّعة وهى فى مِخْلاَف بنى مجيد، يباع النعل من جلودها بدنانير فيها تلميعٌ من بياض وصُفْرة كأحسن الوشى.

وصنعاء[1] لا تمطر حزيران وتموز وآب وبعض أيلول، ولا يمطرون إلا بعض الزوال فى أغلب الأمر، يلقى الرجلُ الرجلَ فى نصف النهار والسماء مصحية ليس فيها طخوية فيقول: أَعجِل قبل أن تصيبنا السماء، لأنهم قد علموا أنه لابُدَّ من المطر فى ذلك الوقت. وذكر إسحاق بن العباس بن محمد الهاشمى عن أبيه أنه تصيَّد فأصابَهُ المطرُ، فمالَ إلى أَحْوِية أعراب فمكث عندهم يومَهُ ولَيْلَته والغيثُ سحم لا ينجم، فلما أصبح قال: لقد أنزلَ الله البارحة خيرًا كثيرًا، فقام رَبُّ المنزل إلى كساء نشج بين أربعة خشبات، كما يفعل أهل البوادى، فلمسه بيده فقال: ما أنزل الله البارحة خيرًا، ثم ليلة أخرى كذلك، ثم أخرى كذلك، فلما كان فى اليوم الثالث قال: قد أنزل الله الليلة خيرًا كثيرًا، فسأله عن ذلك، فأتاه بكفّ من البذور قد تناولها من فوق ذلك الكساء فقال: إن حَبَّ البقل والعشب إنما ينزل من السماء فينبتُها الله عزَّ وجل كيف يشاء.

* * *

(١) صنعاء: أمّ اليمن وقُطْبُهُا، لأنها فى الوسط منها، وكان اسمها فى الجاهلية أزال، ويسمِّيها أهل الشام: القصبة. وتقول العرب: لابُدَّ من صنعا وإنْ طال السفر. وهى أقدم مدن الأرض، لأن سام بن نوح الذى أسسها. صفة جزيرة العرب ٥٥.

وفى تحفة النظار لابن بطوطة ٢٦٧: صنعاء قاعدة بلاد اليمن الأولى، مدينة كبيرة، حسنة العمارة، بناؤها بالآجر والجصّ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء، طيِّبة الماء.

ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة، إنَّما ينزل فى أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان. فالمسافرون يسافرون عند الزوال؛ لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم، لأن أمطارها وابلة متدفقة. والمدينة مفروشة كلها، فإذا نزل المطر، غسل جميع أزقتها وأنقاها.

ذكر مدن اليمن المشهورة

المشهورة من مدن اليمن، والغريب من مساكنه، الطريق من صنعاء إلى ذِمَار[1] وهما مرحلتان يخرج على طريق فَلْشٍ، وهو جبل هناك إلى قرية جَدران، وعلى هذا الطريق وادٍ له ذكر فى كتاب الله عز وجل معروف، وأكثر أشجاره الأثل والطلح.

وفى هذا الناحية صنمٌ كان يعبد قبل ظهور الإسلام، ودون ذمار مساجد لأصحاب النبى ﷺ منها مسجد مُعَاذ بن جبل[2]، وأهل اليمن يُعَظّمونه ويأتُونَه.

ولها طريق آخر من صنعاء على قرى متصلة وأشجار وبساتين غير منفصلة وهواء معتدل إلى قرية تدعى خولان، وهى منزل سيدهم، وهى بادرة الهواء حسنة البناء، فيها حمامات وحوانيت وفواكه، ثم تدخل منها بين جبلين، وأنهار، وأرض خصبة، وقرى لِقَيْس، فتفضى إلى ذِمار، وذمار مدينة كبيره إلا أنها دون صنعاء، وهى من أعمالها، ولها سورٌ محكم البناء وهى كلها قصورٌ مضيئة الأبواب، كثيرة البساتين والمزارع والقرار والدّساكير رخيصة الأسعار، كثيرة الخيرات، دَرَاهِمهُم بجانية ودنانيرهم مُطَرَّقة، ومياههم عيون جارية، وآبارهم قريبة الأرشية ولمعاذ بن جبل - رضى الله عنه - فيها مساجد وآثار كثيرة، والله أعلم.

الطريق من ذمار إلى زَبيد[3]:

تخرج فى قرى متصله حتى تأتى مدينه بسام وهى المنزل مدينة طيِّبة بها بيوت

---

(١) ذِمار: بكسر أوَّله ويُفتح، مَبْنِىٌّ على الكسر، قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء، وقيل ذَمار: اسم لصنعاء. وذَمار: من مدن اليمن النجدية، وساكنها من حِمْيَرَ. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٨٧ وصفة جزيرة العرب ٥٥.

(٢) ويُسَمَّى مسجد الجَنَد. راجع: صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٣) زَبيد: اسم وادٍ به مدينة يقال لها الخصيب، وهى التى تُسَمّى اليوم زَبِيد، وهى مشهورة باليمن، محدثة فى أيام المأمون، وبإزائها ساحل غَلافقة وساحل المندب. مراصد الاطلاع ٢/ ٦٥٨.

ووصفها ابن بطوطة فى رحلته ٢٦٤ فقال: زَبِيد: مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء =

منقورة فى صخرة صماء ثلاثمائة ذراع فى مثلها، ثم إلى وادٍ يقال له الرَّبيح، أشجاره الدوس، ثم تسيرُ فى صعود وهبوط حتى تأتى واديًا يقال له عَلاّن، تقطعه حتى تصير إلى مدينة الجَنَد[١]: كبيرة خصيبة كثيرة الخيرات. بها جامعٌ بناه معاذ بن جبل[٢] ـ رحمه الله ـ وهو الذى يذكر أن ناقته بَرَكَتْ إلى موضعه، فقال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة فأمر ببناء المسجد فى ذلك الموضع، ثم بركت فى صنعاء أيضا فبنى المسجد بها، وأهل الجَنَد شيعة كلهم.

ومن الجَنَد يجلبُ إلى مكة وغيرها ملاحف القطن المنسوبة إلى سُحُول وهو وادٍ بقرب الجَنَد، ومن الجَنَد تسيرُ فى صحارى فيها أشجار الجوز، والنبق حتى تنتهى إلى معافر، وهى مدينة صبر.

وصبر: جبل فيه ألف قُبَّة، والمُرْتَقى إليه مسيرة شهر، وفى أعلاه الأنهار والطواحين، وعرض هذا الجبلِ أربعة وعشرون فرسخًا، ثم تسير فى صحارى ورمال حتى تنتهى إلى زَبيد، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زَبيد، ولا أغنى أهلاً، ولا أكثر خيرًا، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، زِنَةُ دينارهم أربعة دراهم، ودراهمهم اثنا عشر ما فى الدينار.

الطريق من زَبيد إلى مَهْرة[٣]:

من زبيد إلى عدن عشر مراحل على الساحل فى بريّه، لا عِمَارة فيها، لا يركبها إلاَّ الصيَّادون والسَّابلة، لها منازل وآبار، ثم إلى خولان ثم إلى مَهْرَة.

الطريق من ذِمَار إلى منكث:

من ذمار إلى وَالان، مدينة صغيرة، بنيانُها جيّد، صخر لا سور لها، وبها

= أربعون فرسخًا، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهى بَرِّية لا شَطِّية، إحدى قواعد بلاد اليمن، مدينة كبيرة، كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين، أملح بلاد اليمن وأجملها.

(١) الجَنَد: أوَّل مدن اليمن النجدية، من أرض السَّكاسك، ومسجده من المساجد الشريفة، كان اختطَّه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ. صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٢) انظر صفة جزيرة العرب ٥٤.

(٣) مَهْرَة: مخلافٌ ينسَبُ إليه مهرة، وهم قبيلة من قضاعة، بينه وبين عُمَان نحو شهر، وكذلك بينه وبين حضرموت. مراصد الاطلاع ٣/١٣٣٩.

جامع، وبين ذَمار وبينها أربعة فراسخ فمن شاء نزلها ومن شاء طواها.

الطريق من صنعاء إلى حَضْرموت:

من صنعاء فى أرض مستوية وهى الرحبة، وهى التى ذكرها الله عزَّ وجَلَّ فقال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾[١] تسير فى هذه الصحراء إلى قرية يقال لها عُقاب، كثيرة الأنهار والبساتين منها يُحمل العنب إلى صَنْعَاء ثم إلى عَقَبة تُعْرَفُ بنفيل فى شعاب وأوديةٍ إلى وادٍ فيه نخل يُعْرَفُ بالعراقيد، ثم تسير فى شُعَّبٍ إلى قرية يقال لها الضياع، فيها نخل، وهى لمرادٍ، ثم تخرج فتمر على وسط السّد الذى كان فى الجاهلية وهو بين جبلين وهما يسميان الماديين، ثم يمر بموضع كان يقسم عليه ماء هذا السَّدّ فى الجاهلية ثم إلى صحراء ورمال وهى التى تسمى جَنَّة اليُسْرَى، وهى التى قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[٢] الآية، ثم تمرُّ حتى تنتهى إلى مأرب[٣] وفيه معدن الملح[٤] الذى أقطعهُ النبى ﷺ أبيض بن حمَّال المازنىّ، فجعله أبيض صدقة للمساكين، فعوَّضه النبى ﷺ حائطًا يعرف بالجَدَران[٥] على باب مَأْرب لا يخلو من ثمرة صيفًا ولا شتاءً وربيعًا وخريفًا، لأن النبى ﷺ دعا له بالبركة، وهى مدينة لسبأ وبها عرشُ بَلْقيس، وكان العرشُ مبنيًا على أساطين حجارة وعَلاَءُ كُلِّ أسطوانة منها فوق الأرض عشرون ذراعًا، فاحتمل العرش، وبقيت الأسطوانةُ على حالها. ويقال إنَّ تحت الأرض من تلك الأساطين مثل ما فوقها، وغِلَظُ كل أسطوانة منها لا يحضُنُه أربعة نفر، وفيها سوق ومسجد والمنزلُ بها.

ثم يخرج منها ويقطع عرضَ الوادى، فيدخل جنةَ اليُمْنَى التى ذكرها الله عز وجل فيها من الأشجار إلا الأَثْل والأراك، وتبذَرُ فيها الذرة، ثم إلى سُوَيْقَة يقال لها نمرة يباعُ فيها الملح والذرة فى صحارى ورمال، إلى ما يقال لها سِنجار وهو

(١) سورة الكهف: ٤٥.

(٢) سورة سبأ: ١٥.

(٣) مأرب: هو بلاد الأَزْد باليمن، وقيل: هو اسم قَصْر كان لهم. مراصد الاطلاع ١٢١٨/٣ ومعجم ما استعجم (مأرب) ٤/ ٥٢.

(٤) من هنا النقل عن معجم ما استعجم ٤/ ٥٢ و١١٢ و١٢٠.

(٥) انظر: معجم ما استعجم (بتحقيقنا) ٤/ ١٢٠.

وادى النخل، ثم تسيرُ فى صحارى ورمال، إلى ما يقال لها سنجار وهو وادى النخل، ثم تسيرُ فى رمال ومواضع مَخُوفة، يقطع فيها بنو الحارث بن كعب، حتى تنتهى إلى مدينة شَبْوَة[١]، وهى أول مدائن حضرموت ينباع فيها حِمْلُ ثمر بدرهم.

ثم تسير فى قرى متصل حتى يأتى البحريمة، وهى أكثر مدائن حضرموت خيرًا وفيها بساتين ومياههم سيحٌ، ثم تسير ثلاث مراحل فى رمال يسكنها قوم من مَهَرة، وإليهم تنسب الإبل المهرية، حتى تصل إلى مدينة يقال لها الأشقاء، وهى من مدائن الشحر، حَدُّ عُمَان، وهى على ساحل البحر ثم إلى موضعٍ يقال له رُسُوب، وهو جبل الأحقاف[٢]، وهو متصل بأرض الأحقاف، وهو بلد واسع، غلبت عليه الرمال بِسَوافى الرياح، فعفا أثَرُه، وهو الذى ذكره الله عزَّ وجَلَّ.

والبحر يضرب بسفح هذا الجبل، ويركبُ منه إلى البحر إلى جزيرتين ينزلهما قوم من مَهْرَة بأغنامهم، طولها وعرضها اثنا عشر فرسخا، الواحدة: سقطيرة والأخرى: المضيرة، فيها مغاصّ اللؤلؤ ومياه عذبة، ثم يركب منها إلى البحر إلى سوق على ساحل البحر يقال لهَ طيرى، ثم يركب منها إلى البحر إلى مَسْقَط وهو مجتمع المراكب التى تخرج من صُحَار[٣]، وصُحَار: سوق عمان.

* * *

(١) شَبْوة: مدينة باليمن تلقاء حضرموت، ما بين بَيْحان وحضرموت وقال بِشْر بن أبى خازم:

ألاَ ظَعَنَ الخليطُ غداة رِيعوا بِشَبْـوَةَ والمَطِىُّ بنا خُضُــوعُ

معجم ما استعجم ٣/ ٦٣.

(٢) الأحقاف: منازل عاد، رمال مستطيلة بِشِحْرِ عُمَان.

قال الهمدانى: الأحقاف بحضرموت. معجم ما استعجم ١/ ١١٠-١١١.

(٣) صُحَار: بضَمِّ أوَّله، وبالرَّاء المهملة فى آخره، فى بلاد بنى تميم باليمامة أو ما يليها، قال المخبَّل:

أعَرَفْتَ من سَلْمَى رُسُومَ دِيَارِ بالشَّطِّ بين مُخَفَّـقٍ فَصُحَـارِ؟

معجم ما استعجم ٣/ ١٠٣.

ذكر مدينة ظفار[1]

وهى قصبة اليمن، وقاعدة ملوك حمير، ولم يزل اليمن فى الدولتين من أرفع الولايات فى جلالتها، وأنها منازل العرب العاربة، ودار الملوك العظام من التَّبابعة، والأَقْيَال، والهَيَاطِلة، والعَبَاهلة، وأنها أشرف البلدان سُوقًا وثيابًا، من القصب والسُّعَيْدى، والوشى والمَعْمَر والبُرُود والحيدل[2] والأَرْدية العَدَنية، والصَّنْعَانية، والعنبر، والجزع والعقيق، والرَّقيق، والنُّجُب[3]، والإبل المهرية، والخيل العراب والنِّضار، وغير ذلك من أصناف الأمتعة والتجارات.

*** الطريق من عُمان إلى ناحية اليمن:**

من عمان إلى مسقط على الساحل، ثم منه إلى سُقْطرى[4]، وبه الصَّبِرُ السُّقُطْرى الذى لا يُعْدَلُ به، والحَضَض، ثم من هذه الجزيرة إلى موضع يقال له مَعْتُب: به مغاص اللؤلؤ والغوَّاصُون عليه أُجَرَاء لليهود والنّصارى، أُجْرَةُ الغَوَّاص من قراط إلى نصف درهم يغوصون من بكرة إلى نصف النهار، ثم يأخذون فى شق الصدف إلى آخر ذلك النهار وعملهم فى الأصداف إنما هو على طعامهم من السَّوِيق والتمر والسمن وغير ذلك وإذا أراد الغَوَّاصُ أن يغوصَ، عَمَدَ إلى آلة ذات شعبتين قد اتخذت من القرون، دقيقه جدًا تَعُمُّ المنخرَيْن، فيمنع الماء منهما ويُشَدُّ فى إحدى رجليه صخرة منقورة، فيها مقدار عشرين منًا، ثم يُشَدُّ معها وعَاءٌ قد اتخذت من شماريخ النخل يسمى الرَّجِيس يُحْمَلُ فيه ما وصل إليه من الصَّدَف، فإذا ملأَهُ حَرَّك الحَبْلَ فيجذبونَهُ.

وحَدَّث أبو الحسن البُخَارِىّ، أنَّ رجلاً عُمَانيًا قَدِم مكة بلؤلؤتين، لَمْ يُرَ مثلُهما

---

(١) انظر: الروض المعطار ٤٠٣ـ٤٠٤.

(٢) فى الأصل (والجند).

(٣) فى الأصل (والبخت).

(٤) سُقْطَرى: جزيرة معروفة، طولها ثمانون فرسخًا، وبها أجودُ الصَّبِر، وبها من جميع قبائل مَهْرَة، وبها نَخْلٌ كثيرٌ، ويسقطُ إليها العنبر. وإذا قِيلَ لِمَهْرِىٍّ: يا سُقْطَرِىّ، غَضِبَ، لأنَّ السُّقْطرِيُّون: الروم، دخلوا فى نَسَبِ الغَمْرِ من مَهْرَة. معجم ما استعجم (سُقْطَرى) ٣/ ٣٠ـ٣١.

فباعهما فى سوق ابن يزيد بألفى دينار ذهبًا من رجل سَمَرْقَنْدىّ، وخرج من مكة من يومه ذلك فلما كان بعد عدة أيام أقبل من عند صاحب عُمَان رجلٌ يطلب الذى باع اللؤلؤتين، ويذكرُ أنَّهما سُرِقَتَا من قصره، فطلبَ المشترى فعُمِّيَ أثره، وخفى خبرُهُ، ووصل بهما إلى مدينة دمشق، فأهدى إحداهما إلى صاحبها وصاحبها المَدْيُونى، فأعطاه بها عشرة آلاف دينار ثم سار إلى سمرقند فأهدى الثانية إلى صاحبها، فكافأه عليها بخمسة عشر ألف دينار، فهاتان اللؤلؤتان من مَغَاوِص عُمَان وما والاها من المواضع.

* * *

ذكر بلاد عُمَان

وهى ثمانون فرسخًا بما والاها البحر منها سهول ورمال، وما تباعدَ عنه حزونٌ وجبال، ولها عِدَّة مُدُن، منها مدينه عُمَان على ساحل البحر، حصينةٌ، ومن الجانب الآخر جَبل فيه مياهٌ مالحة[1]، قد أجريت إلى المدينة، وهى كثيرة النخل، والبساتين وضروب الفواكه وطعامهم الحنطة، والشعير، والأرز، والجاموس.

وكان الذى أجرى الماء من الجبل إلى المدينة، رجلٌ مَجُوسِيٌّ يقال له أبو الفرج، كان له من المال الصامت ثمانمائة كيلجة، دنانير ذهبا، كُل كيلجة فيها تسعة ومائة مَنٍّ ومنها مدينة صُحَار، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر مقدارها فرسخ فى فرسخ ومياهها من الآبار.

ومدينه تَزُون، وهى أعظمُ منها، وهى فى الجبل، ومدينه ضُخَم، وهى أيضًا فى الجبل ماؤُها من العيون، بها نخلٌ كثير، وقصب السكر، وبها أشجار يقال لها طُلُوق، تشبه شجر المُقْلِ، تُقطع منها عروق، ثم تُوضَعُ فى الماء فيسيل منها شراب يسكر من ساعته، وعامَّتهم أصحابُ شُعُورٍ جَمَّة.

ومن عمان يُتجر، وبها قُتِل عيسى بن جعفر الهاشمى[2]، وخَرَاجُ عملِ عُمَان

(١) فى الأصل (سائحة).

(٢) هو عيسى بن جعفر بن المنصور العبّاسىّ، قائد من أمراء بنى العبَّاس وهو أخو زُبَيْدَةَ، وابنُ =

على المقاطعة ثمانون ألف دينار، وفى الأمثال: من تعذَّر عليه الرزق فعليه بعُمَان وقد أهدى صاحب عمان إلى الكعبة بعد العشرين والأربعمائة محاريب مُنْبَت زنة المحراب أزيدُ من القنطار، وقناديل مُنْبت فى نهاية الإحكام، وسُمِّرت المحاريب فى جوف الكعبة ممَّا يُقَابل بابها، وذلك إِثْر أخْذِ أمير مكَّة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحَسَنى[1] بِحُلِى الكعبة من المحاريب وغيرها.

***

ذكر البحرين وأعمالها

وهى بلاد واسعة، شرقيها ساحل البحر، وغربيها متصل باليمامة[2]، وشمالها متصل بالبصرة وجنوبها مُتّصل ببلاد عُمَان، وهى بلاد سهلة كثيرة الأنهار من العيون، عَذْبة الماء، يُنْبطون الماء على القامَة والقامَتين، والحِنَّاء، والقطن على شطوط أنهارها بمنزله السَّوْسَن، وهى كثيرة النخل والفواكه، ولهم ثمرٌ يسمى المانجو إذا نُبِذَ وشُرِبَ اصفرَّت الثيابُ من عَرَقه. وبساتينها على نحو ميل منها، ولا يأتونها إلا غدواً ورَوَاحًا لإفراط حَرِّ الرمضاء وإنَّ حوافر الدوابّ تسقُط فيها إذا احتدمت، وهى مخصوصة بِعِظَم الطِّحَال، ولذلك قال بعض الشعراء: [من الطويل]

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طِحَالُهُ ... ويُغْبَطْ بما فى بَطْنِه وهو جَائع[3]

= عمٍّ هارون الرَّشيد، بعثه الرشيد عاملاً على عُمَان فى ستَّة آلاف مُقَاتل، فلم يكد يستقرّ فيها حتى سيَّر إليه إمام الأزد (الوارث الخروصى) جيشًا قاتَلَهُ، فانهزم عيسى، فَأُسِرَ وسُجِن فى صُحَار، ثم تَسَوَّر عليه بعضهم السجن فقتلوه فيه. الأعلام ٥/ ١٠٢.

(١) هو الحسن بن جعفر بن محمد الموسوى الحَسَنىّ الطالبى القرشى، أبو الفتوح: شريفٌ من الأمراء، وَلِى مكة سنة ٣٨٤ هـ للعبيديين أصحاب مصر، ثم خلعَ طاعتهم وادَّعَى الخلافةَ، وخطبَ لنفسه، وحدَثَت أمورٌ اضطرته إلى الرجوع عن ذلك، وطالت مُدَّةُ إمارته فكانت ٤٣ عامًا، وتوفى بمكة سنة ٤٣٠هـ.

والموسوىّ: نسبة إلى موسى الكاظم. الأعلام ٢/ ١٨٦.

(٢) انظر: الروض المعطار ٨٥ وآثار البلاد ٧٨.

(٣) البيت بلا نسبة فى آثار البلاد ٧٨ وفيه (ويَعْظُمُ فيها بطنُه وهو جائِع) والروض المطعار ٨٢ والمسالك والممالك لابن خرداذبة ١٧١ وفيه (ويُحْسَدُ) مكان (ويُغْبَط).

ولها سبعُ مدنٍ وعلى ساحلها، منها القَطِيف[١]، والزرَّادة[٢]، والعقيد، وأوال[٣]: وهى جزيرة بينها وبين الساحل مَجْرَى يومٍ، وهى كثيرة النخل، والموز والأُتْرجّ، والأشجار، والأنهار.

ومما يلى أَوَال جبل فى البحر أسود يسمى الحازم، يقيم به الغَوّاصون الأشهر وأوَال جزيرة طويلة، مسيرة ستة عشر يومًا، وكانت هذه الجزيرة حَبْسًا لكسْرى، وأكثر أهلها من أهل اليمامة، وإليها لجأ مَنْ أَفْلَتَ من أهل هَجَر عند مِحْنَتهم مع القرمطىّ ـ لعنه الله ـ وإليها فَرَّ منه أهل اليمامة والبحرين وبينها وبين هَجَر اثنا عشرَ فرسخًا فى البر وعشرة فراسخ فى البحر وهى متباعدة عن الساحل إلى ناحية اليمامة، دَبَلة والأحساء وحوارين، وبين الساحل مسيرة يوم ويومين.

وبلاد البحرين مُنْهَالَةُ الكُثْبَانِ، جارية الرمال حتى يَسْكُروه بسَعْفِ النخل، وربما غلب عليهم فى منازلهم، فإذا أَعْيَاهم حملوا النقوض، وتحولوا.

وفى البحر جزائر على مسيرة يوم، ويومين، وثلاثة، وفيها آثار وخرائب، وبها جزيرة خارك، وهى على أربعة فراسخ من حنّابا فى البحر، وليس بها الآن من البناء إلاّ صومعة راهب، وبها جَزَرٌ عظيم يُقْطع بالقَدُوم لِغِلَظِه.

ومِيرَةُ البحرين تُجْلَبُ إليها من فارس، ويجلب إلى فارس منها التمر والدّبس وفى القطيف من بلاد البحرين قام القرمطىّ[٤] بدعوته، وهناك دعا الناس إلى علمه وكان ابتداء آية القرامطة أنَّ رجلاً قدم من سواد الكوفة من ناحية خوزستان فأقام بموضع يعرف بالنَّهْرَين، فيظهر عند القطيف، ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة وكان يبتاعُ كُلَّ ليلة من بقَّال أرطال من تمر من عَمَلِ يَده، فيفطر عليه، وكان إذا قعد إليه إنسان ذَاكرَهُ أَمرَ الدِّين، وزهَّدَهُ فى الدنيا، ورغَّبه فى الآخرة وأعْلَمَهُ أن

---

(١) القَطِيف: على بناء فَعِيل، إحدى مدينتى البحرين، والأخرى هَجَر. معجم ما استعجم ٤/ ٣٢١ـ٣٢٢.

(٢) فى الأصل (الورَّادة).

(٣) فى معجم ما استعجم ١/ ١٩٢ «أوَال: يفتح أوله وباللاَّم على مثال فَعَالِ: قريةٌ بالبحرين، وقيل جزيرة، فإن كانت قرية، فهى من قرى السِّيف، يدلُّ على ذلك قول ابن مقبل:

عَمَدَ الحُدَاةُ بها لعارضِ قَرْيَةٍ   وكأنَّها سُفُنٌ بِسِيفِ أَوَالِ

(٤) انظر: الروض المعطار ٢٨٦.

المفروض على الناس خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك، وأعلمهم أنه يدعو إلى إمامٍ عادلٍ من أهل بيت الرسول ﷺ فلم يزل على ذلك تقصده الجماعة بعد الجماعة، الفوج من الناس بعدالفوج، فيخبرهم بما تعلَّق فى قلوبهم، وإنَّما غلب عليه القرمطىُّ لأنه اعْتَلَّ عند ذلك البقَّال الذى كان يبتاعُ له الأرطالَ من التمر، فكان فى القرية رَجُلٌ يحمل الناس على أثوار له يقال له ذو العينينِ، وكَلَّم البقال كَرْيُونه[1] فى حمل العليل إلى منزله، فحمله على أثواره، وأقام عنده يُمَرِّضه حتى بَرَأ، فلما خاف على نفسه ـ على حسب ما نُورِدُ ـ وصارَ إلى الشام، تسمَّى باسم كَرْيُونه الذى كان عنده، فخفَّفه الناس، فقيل له قرمط، فلذلك عُرِفوا بالقَرَامِطة.

فلم يزل على ما كان عليه بالنهرين إلى أن جاءه أكثر أهل تلك الناحية وما والاها، اتَّخذ منهم اثنى عشر نقيبًا أمَرَهُم أن يدعوا الناس إلى دينه، وقال أنتم كحوارِىّ عيسى فاشتغل أكثرهم أهل ذلك الصُّقْعِ من أعمالهم بما رُسِمَ لهم به من الصلوات الخمسين.

وكانت للهيضم[2] فى تلك الناحية ضياعٌ أنكر تقصير الأكره فى عماريتها وسأل عن ذلك فأخبر بشأن الرجل وبما شغلهم من الصلاة عن أعمالهم، فوجّه الهيضم فى طلبه فأتى به فسأله عن أمره، فأخبر بمذهبه فعزَمَ على قتله، ثم أمر بحبسه فى بيت من بيوت داره، ووضع المفتاح تحت وسادة وتشاغل بالشراب، وكانت جارية من جواريه سمعت بيمينه لِقَتْله، فرقّت له، فلما نام الهيضم أخذت المفتاح، ففتحت عنه القفل، وأرسلته ثم سَدّت الباب كما كان، وجعلت المفتاح تحت الوسادة.

فلما أصبح الهيضمُ أخذ المفتاح ففتح الباب، فلم يجد أحدًا، فشاع أمر القرمطى وازداد أهلُ تلك النَّاحية فتنة، وزعموا أنه رُفِع وظهر فى مكان آخر ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم، وزعم أن أحدًا لا يقدر عليه بسوء، فعظم ذلك فى أعينهم، فخاف على نفسه فخرج إلى الشام، وتسمى كرميته[3] على ما

(١) فى تاريخ الطبرى «كرميته».

(٢) الروض المعطار ٢٨٦.

(٣) الروض المعطار ٢٨٦.

قدمناه وقال أحمد بن أبى الطاهر، كان ابتداء أمر القرامطة أنَّ رجلاً كان يعرف بيحيى بن المعلّى، صدر من ناحية الكوفة إلى القطيف، فنزل على رجل يعرف بعليّ ابن المعلّى بن حمدان وكان يترفَّض، وأظهر يحيى أنه رسول المهدى المنتظر وذلك سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذكر أنه خرج يتبع شيعته فى البلاد ويدعوهم إلى المسارعة إلى أمره، وأنَّ خروجَه قد قرب، وأظهر فى ذلك كتابًا زعم أنه من المهدى، فجمع على بن المعلّى من علم أنه يترفّض أنه من أهل القطيف، وأقْرَأهم ذلك الكتاب فأجابُوه، وأَرْسَل إلى من يترفَّض من قرى البحرين فأجابوه، وكانوا نحوًا من الثمانمائة.

وكان ممَّن أجابه أبو سعيد الجنابى من جزيرة جنابا[١]، كان يبيع الطعام بالزَّرادة، ويحسب لهم حسابهم، ولا يعرف من كتاب الله ولا سُنَّة رسول الله ولا من العلوم شيئًا وكان قبيحا قميئًا، ثم غاب يحيى مرة ورجع ومعه كتاب من المهدى إلى شيعته، يذكر فيه «قد عرَّفنى رسولى مسارعتكم إلى أمرى، فإذا وصلكم كتابى هذا فَلْيَدْفع كُلُّ رجلٍ منكم ستة دنانير، وثلثى دينار».

فسارعوا إلى ذلك، فأخذَها، وغاب مُدَّة، ورجع ومعه كتاب آخر يذكر فيه: أن رَسولى قد عرَّفنى مسارعتكم، ووصل إلىَّ المال، والذى يجب عليكم فى أموالكم الخمس لأنها غنائم والله عز وجل قد قال فى القرآن: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّما غَنمْتُم مِنْ شَىْء فَأنَّ لله خُمُسَهُ ولِلرَّسُول**﴾[٢] الآية، فدفعوا إليه الخمس من أموالهم ثم غاب مدة طويلة، ورجع ومعه كتاب آخر يذكر فيه: أنى قد عَزَمْتُ على الخروج، فادفعوا لصاحبى ما يستعين به على قتال الفُسَّاق، وأَمَرَهُم يحيى بالخروج من أموالهم، فأخذوا فى بيع عقارهم فباعوا ما يساوى ألف دينار بمائة دينار.

وكان بالزَّرَادَة رجلٌ يعرف بإبراهيم الصائغ، وكان داعية لهم، وجَّهُوه غَيْرَ مَا مَرَّة، إلى فارس والأهواز إلى دُعَاء الناس، قال ابن أبى الطاهر: فجاءنى يومًا وقال لى: اعلم أنَّ هؤلاء القوم على ضلال، كنت أمشى مع أبى سعيد الجَنَّانى وقد قدم عليه رَجُلٌ من أهل جَنَابا يقال له: يحيى بن على فأكلنا عنده، فلما فرغ قام.

(١) الروض المعطار ١٧٦.

(٢) سورة الأنفال: ٤١.

فأخرجَ امرأته ثم أدخلها مع يحيى فى بيته، ثم قال لها: إنْ أَرَادَكِ الوَلَىُّ فلا تمنعيه نفسك، فإنه أحق بك منّى.

قال أبو على غريب بن سعد فى تاريخه: ذكر محمد بن داود بن الجراح: أن قُرْمُط رجلٌ من سواد الكوفة كان يحمل غُلاةَ السواد على أثوار له يسمى حمدان ويلقب بالقرمطى[1].

قال: وذكر أن القرامطة[2] جاءوا بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يقال لها نَصْرَانة أنَّه داعية المسيح وأنه المهدى وهو الكلمة، وهو محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وقد ذكر أن المسيح تصوّر له فى جسم الإنسان، وقال له إنّك الداعية، وإنّك الحُجّة، وإنك روح القُدُس، وإنك يحيى بن زكريا، وأنَّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأثبت فى الأذان: وأشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ فى كل ركعة بسورة الاستفتاح وهى من السور المُنَزَّلة بزعمهم على أحمد

---

(١) حمدان القرمطى، كان رأس الطريقة القرمطية، ولقبه «قرميط» أى: أحمر العينين، داعيا إسماعيليًا. الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٧٣.

(٢) القرامطة: أصحاب دعوة انتشرت فى بعض البلاد الإسلامية ٩٠١م بزعامة أحد الإسماعيليين، زعزعت العالم الإسلامى، ثم انتهى أمرها حينما اصطدمت بالحملات الصليبية. وانتشرت هذه الدعوة فى اليمن حينما بعث ميمون القدّاح الكوفى أحد دعاة ولده: وعُبَيْد الله المهدى جَدّ الفاطميين - باثنين من الدعاة إلى اليمن (٩٠٤م) هما: على بن الفضل الحميرى اليمنى الأصل، ومنصور بن حسن الكوفى، للدعوة له، ونجح عَلِىّ بن الفضل نجاحًا كبيرًا، واستولى (٩٠٦) على ذِمَار وصنعاء، وتغلَّب على جيوش الإمام الهادى، وقامت فى اليمن فتَنٌ وحروب كثيرة، واستباح على بن الفضل كثيرًا من الحرمات، وذكر بعض مؤرخى اليمن أنه ادَّعى النبوة، وكان يذكر فى أذان الصلاة، ولم تهدأ الحالة إلاَّ فى عام ٩١٥ عندما مات مسمومًا بيد أحد الأشراف عندما دُعى لحجامته. فوضع له السُّمَّ فى المبضع، وبموته انتهى أمر دولة القرامطة فى اليمن. أمَّا زميله: منصور بن حسن، فقد تغلَّب على جزءٍ من بلاد اليمن، وجعل مركز دعوته فى (مسور).

وبالرغم من أنَّ دعوة القرامطة لم تعمر إلاَّ وقتًا قصيرًا فى اليمن، فقد ظلت مبادئها مستمرَّة فى بعض أنحائها إلى عصر قريب، ويعرف أتباعها باسم المكارمة أو الباطنية. الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٧٣.

ابن محمد وهى:

الحمد لله بكلمته المستحمد إلى أوليائه، اتقونِ يا أولى الألباب، أنا الذى لا أسْأل، وأَنَا العلِيمُ الحكيم، فى كلام كبير بوعد ووعيدٍ.

ومن شرائعه أَنَّ يوم الاثنين ويوم الجمعة لا يُعْمَل فيه عَمَلٌ، وأنَّ الصوم يومان فى يوم المهرجان، ويوم النيروز، وأن النَّبِيذَ حرامٌ، وأن الخل حلال، وأن الغُسْلَ من الجنابة بوضوء الصلاة، ولا يؤكل كل ذى ناب من السباع ولا كل ذى مخلب.

قال أبو على غريب: وقيام القرامطة كان سنة سبع وثمانين ومائتين وفى يوم الجمعة سنة تسعين ومائتين قتل يحيى بن ركومة القرمطى الملقَّب بالمسيح، قتله المغربيُّون على باب دمشق، وكان يركَبُ جملاً لم يركب قط غيره وكان يأمر أصحابه ألاَّ يقاتلوا حتى ينبعث الجمل من قبل نفسه، وإنهم إنِ فعلوا ذلك لم يُهْزَموا.

وزعموا: أنه كان إذا أشار بيده إلى ناحية من تلك النواحى، والتى فيها محاربوه انهزمت تلك الناحية واستبْقُوا بذلك الأعراب.

وكان يتعمَّمُ عمامة أعرابية، ويلبس ثيابًا واسعةً.

وكان القرمطىّ صاحب الشام يكتب إلى أجناده وعُمَّاله:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن محمد بن عبد الله المهدىّ[1] المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله، الحاكم بحكم الله، الذابّ عن حَرَمِ الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، ومُذِلّ الفارقين المارِقين، وخليفة رَبِّ العالمين، وحَاصِر الظالمين، وقامعِ المعتدين وسراجِ المستبصرين، وضياء المستضيئين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين كثيرًا: إلى فلان: سلام عليكم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أنْ تُصَلّى على محمد حبيبى رسول الله، أمَّا بعد، ثم يختم إن شاء الله: سبحانك اللهم وبحمدك، وتحيتهم فيها سَلاَمٌ، وأخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على جَدّى رسول الله عليه وسلم، قال عبد الله بن أبى الطاهر: ورد فى سنة سبع وثمانين ومائتين بدخول أبى سعيد القرمطىّ هَجَر، وذك بعد أربع سنين، وصلوا

(١) الروض المعطار ٢٨٦.

إلى قوم هلكًا جُوعًا وهَزْلاً، وبعد أن كان الوَبَاءُ قد نزل بهم فمات منهم خلقٌ كثيرٌ، وقتل منهم القرمطيُّ ثلاثمائة ألف، وطرحهم أحياء فى النار، ونجا منهم خلق كثير إلى جزيرة أُوَالٍ.

قال: وبلغنى أنه لم يبق من أهل هَجَر يومئذ إلاَّ عشرون رجلاً، فسار جماعة من أصحاب الجنابِىّ إلى حِصْنٍ يقال له الفَلَج[1] بينه وبين هجر ستة أيام، وبين هذا الحصن وبين مكة سبعة أيام.

وقال قتادة: إن أصحاب الرَّسِّ الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه كانوا أهل فَلَج[2].

* * *

الطريق من البحرين إلى عُمَان

فأما الطريق من البحرين إلى عمان فقد كان فى البر ثم ركبه الرمل فالطريق بينهما اليوم فى البحر بين جبلين يسميان كُسَيْر وعُوَيْر[3] وهو موضع كبير كثير ما تعطب فيه السفن حتى ينتهى إلى موضع من البحر يسمى: دَرْدُور[4] إلى موضع يقال له حرثان من ساحل عمان.

يخرج من مكة نحواً من عشرين يومًا إلى طريق معتدل الهواء، بَرّىّ ذِى رَمْلٍ وحصًى، يُنْبَطُ فيه كله المياه بأدنى شىء، وبالبحث عليه باليد ومراحل الناس فى المنازل التى بها الغنم والبقر حتى يفضى إلى مدينه نجران[5] وهى من بلاد هَمْدَان

(١) مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٤١.

(٢) إلى هنا النقل فى الروض المعطار ٢٨٦.

(٣) كُسَيْر وعُوَير: جبلان عظيمان مُشْرِفان على أقصى بحر عُمَان، صَعْب المسلك، وعن المقصد صعب المنجَى، وكذلك يقولون: كُسَيْرٌ وعُوَيْرٌ وثالث ليس فيه خيرٌ. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٦٦ ومعجم ما استعجم ٤/ ١٩ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/ ٦٢.

(٤) دَرْدور: موضع فى سواحل بحر عمان، مضيق بين جبلين، تسلُكه الصغار من السُّفُن. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٢٢.

(٥) نجران ومن مخاليف اليمن من ناحية مكة، وبها كان خبر الأخدُود، وإليها تُنْسَبُ كعبة نجران =

بين قرى ومدائن وعمائر وماء.

وطريق آخر يعرف بطريق تهامة، وأكثره وبَاءٌ يخرج من مكة فتسير أربعة فراسخ فى أرض ذات حِصًى.

وعن يمين الساحل جبال مُتَّصِلَةٌ حتى تأتى منزلة ذات نخل وسائره، ويحيط بهذه المنزلة نجيلٌ أسود كالَحلقَة، ترتحل مُغَربا ذلك الجبل وتُفْضِى إلى أرضٍ ذاتَ حصىً وغور ونجد، ثم تفضى إلى أرض شجرها الدّوم وكلؤُها الإذْخِر، وماؤها حفائر قريبة المتناول، وبها المنزل، ثم يسير إلى بريّة مثل الأول حصًى وجبال وأودية نحو ثلاثة فراسخ إلى يَلَمْلَم[1] وهى قرية من قرى مكة وهى مُهَلُّ أهل اليمن، ماؤها آبار وعيون، فمن نعت أحد منهما فى برية ومكة شجَرُها الأراك وكَلَؤُها الإذْخِر وفيها سَوَائِمُ المال ورُعَاتُه فى الغالب إلى مدينة السدّين، وهى مدينه عظيمة فيها أسواقٌ ومسجدٌ جامعٌ على ساحل البحر، وسورُها فى البحر، وأكثر بنائها من الخشب، فلا يستعمل فيها وقود بل يُسخّن الماء خارجًا منها ويغتسَلُ به داخلها.

وسَقْيُها ومشارِبُهم من ماء السماء، وهى من عَمَل مكة، وفيها مزارع وأكثر زروعهم الذرة والسمسم، والمِيرَةُ تُجْلَبُ إليها من غَزَّةَ وجَرَدَة، وغَزَّةَ منها على مسيرة عشرة أيام، وجَرَدَة[2] من ثغور الحبشة.

وهى على مسيرة خمسة عشر يومًا، ومن أراد منها طعامًا ركب البحر إلى جَرَدَة وهى من تهامه، ومن أراد أن يركب البريّة إلى صنعاء فإنه يسيرُ من السدَّين على قرى لبنى كِنَانَة نحو سِتَّة فراسخ، وفى تلك الناحية مدينة جلى: وهى مدينة كانت من عمل ابن المغيرة الذى حارب الحاجّ أيام الموسم، واقتلع الذهب من باب البيت وقد كانت هذه المدينة فيما سلف من عمل مكة، وأقام فيها سنة اثنتى عشرة

= وكانت ربيعة بها أساقفة مقيمون، منهم: السَّيد والعاقب اللذان جاءا إلى النبىّ ﷺ فى أصحابهما ودعاهما إلى المباهَلة، وبَقُوا بها إلى أنْ أجلاهم عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه منها. مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٥٩.

(١) يَلَمْلم ويقال أَلَمْلَم: موضعٌ على ليلتين من مكّة، وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجدٌ لمعاذ بن جبل. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢٥ ومعجم ما استعجم ١/ ١٧٣.

(٢) جَرَدَة، من نواحى اليمامة. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢٥.

وأربعمائة رجلٌ من بنى جذام، وخالف صاحب اليمن، ودعا إلى نفسه، فحشد إليه أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحَسَنى صاحب مكة قبائل العرب فحاربه وأخذها، وجلب الجذامى معه، وتملّك جَلَى ثم ردّها إلى صاحب صنعاء وهى مدينة ضَخْمَةٌ رملية، بناؤها من الخشب والحشيش، ذات قرى ومساكن ودَسَاكر، وماؤُهم من الآبار والأمطار.

* * *

ذكر اليمامة

هى منازل الأمير وهى منازل الحِجْر وبنى حنيفة وبعض مُضَر، وهى من حِجْر على يوم وليلة، وبها بنو سحيم وبنو تمامة، وبنو عامر، وبنو عجل والعروض[١] من وادى اليمامة، من أعلاها لأسفلها قرى ينزلها بنو حنيفة وأسفلها الكوش: قرية ينزلها بنوعَدِىّ بن حنيفة.

* * *

الطريق من البصرة إلى كاظمة[٢]

الطريق من البصرة إلى كاظمة مرحلتين، ومنها إلى القرعى ثلاث مراحل، ونفر إلى طغفة مرحلة، وكذلك إلى الصماوة، ثم خمس مراحل إلى جُبّ التراب وثلاث مراحل إلى سنيحَدَة، ثم إلى الترتال، ثم إلى سليخة اليمامة فذلك خمس عشرة مرحلة.

---

(١) قال ابن الكلبى: بلاد اليمامة والبحرين وما والاها العروض،وفيها: نجد وَغَور لِقربها من البحر، وانخفاض مواضع منها ومسايل أودية، والعروض يجمع ذلك كله. مراصد الاطلاع ٢/ ٩٣٥.

(٢) كاظمة: معجمة الظاء: جَوٌّ على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة، وماؤها شروب. معجم البلدان (كاظمة) ومراصد الاطلاع ٣/ ١١٤٣.

واسم اليمامة جوّ، وسُمِّيت بالمرأة اليمامة، وحَدِيثها معروف[١]، وقيل غير ذلك.

ذكر أن طَسْمًا نزل الجَوْفَ مع من اتَّبعه من بَنيه وقومه، واسمها يومئذ جوّ وإنما سماها اليمامة تُبَّع الآخر، حين خرج بجيش عظيم، فعطش الجيش، وعدموا الماء فحفر كل واحد منهم قبرهُ من شِدَّة العطش، فمرت بهم يَمَامَةُ فقال لهم: اتَّبِعُوها فإنها إنما ترد الماء فاتَّبعُوها، فأصابوا نهراً وهو الفرات فشربوا وسقوا واستقوا.

* * *

الطريق من البصرة إلى مكة

من البصرة إلى السحبشانية ثمانية أميال، إلى الحفيرة عشرة أميال، إلى الرحيل ثمانية وعشرين ميلاً، إلى السنجاك ستة وعشرين ميلاً، إلى الدوحة ثلاثة وثلاثون ميلاً إلى حَفْرِ أبى موسى ستة وعشرون ميلاً، إلى ناوية اثنان وثلاثون ميلاً، إلى السرعة ثلاثة وعشرون ميلاً، إلى السمية تسعة وعشرون ميلاً، إلى النباح ثلاثة وعشرون ميلاً إلى العوسجة[٢] سبعة وعشرون ميلاً، إلى القريتين اثنين وعشرين ميلاً إلى حَويلة اثنان وثلاثون ميلاً، إلى بلجة خمسة وثلاثون ميلاً إلى وجرة[٣] أربعون ميلاً، إلى أَوْطَاس أربعة وعشرون ميلاً إلى السكّة ومن السكّة إلى مَدَان ثلاثة أميال، ومن وَجْرَة إلى ذات عِرْق[٤]: وهى ميقاتُ أهل العراق سبعة وعشرون ميلاً، ومسجد رسول الله ﷺ دون ذات عرق بميلين ونصف، وهو ميقات أهل العراق، والمسجد الذى فى ذات عرق الكبير الذى فيه البئر مسجد النبى ﷺ.

---

(١) معجم ما استعجم ١/٢٩٧ و٢/٤٧.

(٢) عَوْسجة: واحدة العوسج، فى بلاد باهلة، من معادن الفِضَّة، ويقال لها عَوْسجة. مراصد الاطلاع ٢/٩٧١.

(٣) وَجْرَة: منزل من طريق مكة من البصرة، بينه وبين البصرة أربعون ميلا، ليس بينهما منزل، فهو قُرب للوحش. مراصد الاطلاع ٣/١٤٢٦ ومعجم ما استعجم ٤/٢٠٢.

(٤) ذات عِرْقٍ: مُهَلّ أهل العراق، وهو الحَدُّ بين تهامة ونجد. مراصد الاطلاع ٢/٩٣٢.

ذكر البيت الحرام وبنائه والمشهور من أخباره

ولى البيت بعد إبراهيم إسماعيل، ثم وَلِيَ بعده نابت بن إسماعيل. هكذا قال ابن إسحاق[١]، وقال ابن الزبير وابن الكلبى: نابت بن إسماعيل وأُمُّه جُرْهُمِيَّة، فَوَلِيَه ما شاء الله، ثم مات نابت، فَوَلِيَهُ جَدُّه مُضَاض بن عمرو بن غالب الجُرْهُمى، وفى ذلك يقول مُضَاض بن عمرو بن الحارث: [من الطويل]

وَكُنَّا وُلاة البَيْت مِنْ بَعْـدِ نَابِت يَطُوفُ بذاك البيتِ والخيرُ ظَاهِرُ[٢]

وجُرْهُم وقطورى يومئذ أهل مكة وهم اخوان، ورئيس قطورى السَّمَيْدَع.

ورئيس جرهم مُضَاض، ومنزل جُرْهُم أعلى مكة: قعيقعان[٣] فما جازه، ومنزل قطورى أسفل مكة بأجياد، فكان السَّمَيْدَع يُعَشِّر من دخل مكة من أسفلها، ومُضَاض يُعَشِّر من دخلها من أعلاها.

ثم إنهما بغى بعضهما على بعض وتنافَسَا المُلْكِ ثَمَّ، ومَعَ مُضَاض بنو إسماعيل وإليه وِلاَيَةُ البيت دون السَّمَيْدَع، فخرج مُضَاض فى كتيبة من قعيقعان سائرًا إلى السميدع، فسمى قعيقعان بقعقعة السلاح، وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال، فقيل إنه مَا سُمِّى أجياد إلا لخروج الخيل الجياد مع السميدع[٤] منه، فالتقوا بفاضح فاقتتلوا قتالاً شديدًا فقتل السميدع وفضحت قطورى فقيل ما سمى فاضحًا إلا لذلك[٥].

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح فسارعوا حتى نزلوا المطابخ بأعلى مكة وهو شِعْبُ بنى عامر فاصطلحوا هناك، وسلَّموا الأمر إلى مضاض فنحر لهم

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/١٠٨ وسيرة ابن هشام ١/١٠٢.

(٢) البيت لِمَضَاض بن عمرو فى أخبار مكة للأزرقى ١/١٢٢، وروايته:

فكُنَّا وَلاَة البيت من بعـد نابت نَمَشِّى بهذا البيت والخيرُ ظاهر

(٣) قعيقعان: اسمُ جبل بمكة، قيل إنما سُمِّى بذلك، لأن قطوراء وجرهم لَمَّا تحارب قَعْقَعَت الأسلحة فيه. معجم البلدان ٤/٤٣١.

(٤) أخبار مكة للأزرقى ١/١٠٩ وسيرة ابن هشام ١/١٠٣.

(٥) أخبار مكة للأزرقى ١/١١٠ وسيرة ابن هشام ١/١٠٤.

وأطعمهم. وقيل ما سُمِّيت المطابخ إلا لذلك[١].

وبعض أهل العلم يزعم إنما سميت المطابخ لأن طعام تُبَّع كان يطبخ بها، وكذلك قالوا فى أجياد أنه كان موضعَ جِيادِه.

فبقيتْ جُرْهُم وُلاَةَ البيت نحو ثلاثمائة سنة ثم إنهم بغوا بمكة، واستحلوا محارمها، وظلموا من دخلَها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها، ولم يتناهوا حتى جعل الرجل إذا لم يجد مكانًا يَزْنى فيه دخل الكعبة فزنا فيها.

فزعموا أن أسافًا ونائلة فجرا فى جوف الكعبة[٢] فمسخا حجرين وهو إساف بن سهيل، ونائله بنت ذئب[٣]، وتفرق أولاد عمرو بن عامر من اليمن، فانخدع منهم بنو حارثة بن عمرو فأوطنوا تهامة، فسميت خزاعة، وبعث الله على خزاعة الرعاف والنمل فأفناهم، واجتمعت خزاعة ليخلوا مَنْ بقى بمكة، ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة، وهو يحيى بن حارثة بن عمرو بن عامر، وأمه فُهَيْرة بنت عمرو ابن الحارث بن مُضَاض الأكبر. فلما أحس عمرو بن الحارث بن مُضَاض وهو رئيس جُرهم بخزاعة الهزيمة. خرج يعْدُو إلى الكعبة وجحدَ الرُّكْنَ يلتمس التوبة وهو يقول فى ذلك: [من الرجز]

لاَهُمَّ إنَّ جُـرْهُمًا عِبَـادُك

النَّاس طَرْفٌ وَهُمُو تلادُك

وَهُمُو قَدِيمًا عَمَّروا بِلادَك

فلم تُقْبَل توبته فألقى غَزَالَى الكعبة، وجحد الركن فى زمزم، ثم دفَنَها، وخرج فى من بَقى من جرهم إلى أرضٍ من أرض جُهَيْنَة فَجَأَهُم سَيْلٌ، فذهب بهم فقال أميَّة بن أبى الصلت:

وجُرْهم دَهَّمُوا تهامة فى الدْ ... دَهر فَسَالَتْ بِجرهم إضَـمُ[٤]

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/ ١١٠ وسيرة ابن هشام ١/ ١٠٤.

(٢) عبارة الأزرقى فى تاريخ مكة ١/ ١١٤ «قال بعض أهل العلم: إنه لم يفجر بها فى البيت، وإنّما قبَّلها».

(٣) فى الأصل «ذؤيب» والتصحيح عن أخبار مكة للأزرقى ١/ ١١٤.

(٤) البيت لأمية بن أبى الصَّلت فى مروج الذهب ٢/ ٥٥، وفيه (دَمِنُوا) مكان (دهموا) و(بجمعهم) مكان (بجرهم).

وكان ماء زمزم قد نضبت لما أحرقت جرهم بمكة حتى انتحى مكان البئر ودرَس، فأتى مُضَاض بن عمرو وبعض ولده فى ليلة مظلمة، فحفر فى موضع زمزم، ودفن فيه وأعمق، ودفن هناك غَزَالَى الكعبة، وحجر الركن وأسيافًا قلعية، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن.

وروى الزبير عن رجاله، عن ابن شهاب أنه قال: لم يَبْقَ من جُرْهُم غير حَى فى مكانٍ من كنانة، وهم قليل وآخرون فى حكَم بن الهَوْنِ.

فَوَلِىَ البيت عمرو بن ربيعة.

وقال ابن قُصَى: بل وَلِيَهُ عمرو بن الحارث بن عمرو، وأخذ بنى غسان بن سليم من بنى مَلكان بن قُصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهم كلهم من خزاعة وهو الذى يقول: [من الطويل]

ونحن وَلِينَا البَيْتَ من بعد جُرْهُم ... ولنمنعْـهُ مِنْ كل باغٍ وَمُلْحِـدِ

وقال أيضًا:

وإذ حَرَامٌ طَيْرُهُ وَوَحْشُـهُ ... وَنَحْنُ وُلاَتُه فلا تَغْشَهُ

وابنُ مُضَاضٍ قائم يَهُشُّهُ ... يَأْخُذُ مَا يُهْـدَى لَهُ يَقُشُّـه[1]

وقد كان بنو إسماعيل، فاعتزلوا حرب جرهم، وخُزاعة، فجاءوا خزاعة وسَأَلُوهُم السُّكْنَى معهم فأَذِنُوا لهم.

وقال عَمْرَو بن لُحَىّ: مَنْ وَجَدَ منكم جُرْهُمِيًا قد قارب الحَرَمَ، فدمُه هَدَرٌ فَرَعَتْ إبلٌ لمضَاضَ بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو بن قَنَونى تريد مكَّةَ، فخرجَ فى تبعها، فوجَدها قَدْ دَخَلَتْ مكَّهَ، فمضى على الجبال من نواحيها، حتى صار على أبى قُبَيْس يَنْتَظِرُ الإِبلَ فى وادى مكة، فأبصرها تُنْحَر وتُؤْكَل، ولا سبيل له إليها وخاف إن هبط إلى الوادى أَنْ يُقْتَلَ فولى منصرفًا ثم أنشأ يقول[2]: [من الطويل]

---

(١) الأبيات لعمرو بن الحارث بن عمرو العشبانى فى أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٤.

(٢) الأبيات لمُضَاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى ـ وقيل غيره، وقد ذكرها الأزرقى فى تاريخ مكة ١/٩٧ و١٢١ (ط/الباز) ولعمرو بن الحارث بن مضاض فى سيرة ابن هشام ١/١٠٦ ولرجل من جرهم فى أخبار مكة للفاكهى ٤/١٤٣. وانظر: شفاء الغرام ١/ ٣٧٥.

كَأَنْ لَمْ يكُنْ بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أَنِيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمكَّةَ سَامِرُ[١]
نعم[٢] نحن كنَّا أهلها فأزالَنا ... صُرُوفُ اللَّيالى والجدود العوائر
وكُنَّا لإسْمَاعِيلَ صِهْرًا وَجِيرةً ... ولم تَدُرْ علينا الدَّوَائرُ
وَصَاهَرْنَا مِنْ أكرمِ النَّاس وَالِدًا ... فَأَبْنَاؤُه منَّا ونحن الأَصَاهِرُ
وأخْرَجَنَا منها المليكُ بقدرةٍ ... كذلك يَا لَلنَّاس تَجْرِى المقادرُ
وأَبْدَلَنَا ولِى بَهَا دَارُ غُرْبَةٍ ... بها الذِّئبُ يَعْوى والعدو المُحَاصِرُ
أقولُ إذَا نَامَ الخَلِيُّ ولم أَنَمْ ... إذ العرشُ لا يَبْعُد سَلِيمٌ وعامِرُ[٣]
وَبُدِّلْتُ منها أَوْجُهًا لا أُحِبُّها ... قبائل منها حمير وتحاسرُ
وصونا أحاديثا وكنا بِغبْطةٍ ... بذلك عَضَّتْنَا السنونُ الغوابرُ
فسَحَّتْ دموعُ العين تَبْكى لبلدةٍ ... بها حَرَمٌ آمنٌ وفيها المشاعِرُ[٤]
فبطنُ مِنَى أَمْسَى كَأَنْ لم يكُنْ به ... مُضَاضٌ وَمِنْ حَىٍّ عَدِىِّ بن غَادرُ
فهل فرحٌ آتٍ بمِنًى وجوده ... وهَلْ فَزَعٌ يُنْجِيكَ مما تُحَاذِرُ

قال الزُّبَيْرُ: [من البسيط]

يا أيُّها الناسُ سِيروا إنَّ قَصْرَكمُوا ... أَنْ تُصْبِحُوا ذات يوم لا تَسِيرُونَا
كُنَّا أُنَاسًا كما كنتمُوا دهرًا ... فأنتم وكَمَا كُنَّا تكُونُونَا
حُثُّوا المطِىَّ وأَرْخُوا مِنْ أَزِمَّتها ... قبلَ المَمَاتِ وأَقْضُوا مَا تقضّونَا
وأَحْكِمُوا أمرَ دُنْيَاكم فإنَّكمُ ... كَمَا يَمُوت الأُلى أَنْتُم تَمُوتُونَا
قد مالَ دهرٌ علينا ثم أَهْلَكَنا ... بالبغى فيه فَقَدْ صِرنَا أَفَانِينَا
كُنَّا زَمانًا مُلوكَ النَّاس قَبْلَكمُ ... وفى بلادٍ حَرَامٍ كَانَ يأوِينا[٥]

---

(١) الحَجُون بفتح الحاء: على فرسخ وثلث من مكة.
(٢) فى سيرة ابن هشام ١/١٠٦ وأخبار مكة للأزرقى ١/١٢١ «تكبى».
(٣) عامر: جبل من جبال مكة.
(٤) المشاعر: أماكن العبارة.
(٥) الأبيات لعمرو بن مضاض الجرهمى فى أخبار مكة للأزرقى ١/١٢٢، والثلاثة الأبيات الأول له فى سيرة ابن هشام ١٠٧١١.

فغيَّر عمرو بن لُحَيّ دِينَهُ ودِينَ إبراهيمَ، وَبدَّلَهُ، وحَثَّ العربَ على عبادة التماثيل كما بيَّنَّا فيما سلف من هذا الكتاب وفى هذا يقول رَجُلٌ من جُرْهُمَ كان على الحنفية:

يَا عَمْرو لا تَظْلِمْ بمكـة ... إنَّهــا بَلَـدٌ حَــرَامُ

سَائِلْ بِعَــادٍ أيْنَ هُمْ ... وكَـذا يُخْتَـرَمُ الأَنَـامُ

وبَنِى العَمَـالِيق الذيـ ... ـن لهم بها كَانَ السَّوَامُ(١)

ولما أكثر عمرو بن لُحَيّ من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلَب على العرب عبادتها وانمحت الحنيفيةُ منهم إلاَّ لُمَعًا، قال شحنةُ بن خَلَف الجُرْهُمِىُّ: [من البسيط].

يا عمرو إنَّك قـد أَحْدَثْتَ آلِهـة ... شتَّى بمكّةَ حَـوْلَ البَيْتِ أَنْصَـابَا

وكـانَ للبيتِ رَبٌّ وَاحِـدٌ أبدًا ... فَقَـدْ جعَلْتَ له فى الناس أَرْبَابَا

لَتَعْرِفَـنَّ بأنَّ الله فى مَهَـلٍ ... سَيَصْطَفِى دُونكُم للبيت حُجَّابَا(٢)

وعُمِّر ابن لُحَيّ ثلاثمائة سنة وخمسًا وأربعين سنة، وكان له من الولد وولد الولد ألف.

ثم وليت البيت غبيشان من خزاعة دون بنى بكر بن عبد مناه، وكان الذى وَلِيه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى، وقريش إذ ذاك حلول وصِرَمٌ، وبيوتٌ متفرّقة فى قومهم من بنى كاغد، واستمرت ولاية خزاعة البيت كابرًا عن كابر حتى كان آخرهم خليل بن حبشية بن كعب بن عمرو الخزاعىّ، وكانت ابنته زوجة قُصَىّ ابن كلاب.

* * *

(١) الأبيات لرجل من جُرْهم فى أخبار مكة للأزرقى ١/ ١٢٣ـ١٢٤ ومروج الذهب ٢/ ٦١.

(٢) الأبيات لشحنة بن خلف الجرهمى فى مروج الذهب ٢/ ٦١.

ذكر انهدام البيت

بعد إبراهيم عليه السلام كان العمالقةُ وغيرهم إياه، وانهدم البيت بعد بناء إبراهيم له، بَنَتْهُ العمالقةُ، ثم انهدم، فبَنَتْهُ جُرْهُم، ثم انهدم فبناه قُصَيّ بن كلاب، أو هَدمَهُ هو، وبناه بناءً لم يَبْنِ أحدٌ ممن بَنَاهُ مِثْلَهُ قال الزبير: وجعل قُصَيٌّ يَبْنى الكعبةَ ويقول: [من البسيط]

أَبْنى ونَبْنى وَيَبْنى، اللهُ يَرْفَعُها ابْنى ونَبْنى ويَبْنى اللهُ أَرْفَعَها

بنيناها وبناؤها وحجابها بيد الله وليس بالعبدِ

وقال: فبناها وسقَّفَها بخشبِ الدُّوم الجيّد، وبجريد النخل، بناها على خمس وعشرين ذراعًا.

قالوا: ومما رَجَتْ به قريشٌ أَنَّ اللهَ قد رضى عَمَّا كانوا أجمعوا عليه من هَدْمِ الكعبة: أَنَّ حَيَّةً كانت فى بئر الكعبة التى يطرح فيها ما كان يُهْدَى إليها فتخرج كُلَّ يَوْمٍ تشرفُ على جَدَارِ الكعبة، فلا يدنو منها أَحَدٌ إلا احْزَأَلَّت(١) وكَشَّت،وفَغَرتْ فَاهَا، فكان مِمَّا يَهابُون، فبينما تُشْرِفُ على جدارِ الكعبة كما كانت تفعل إذا بعث الله إليها طائراً فاخْتَطَفهَا وذهبَ بها، وفى ذلك يقول الزُّبير(٢): [من الوافر]

عَجِبْتُ لدى تصَوَّتَتِ العُقَابُ إلى الثعبان وهى لها اضطراب

وقد كانت يكون لها كَشِيشٌ وأَحْيَانًا يكون لها وثَابُ

فَلَّما أَنْ خَشِينا الرجْزَ جَاءَت عقابٌ لها من الجوّ انْصبَابُ

فَضمَّتها إليها ثم خلّت لنا البنيان ليس له حجابُ

فقمنا خاشعين إلى بناء لنا منه القواعد والترابُ

غداه نُرَفِّعُ التأسِيسَ منه وليس على مُسَوِّينا ثِيابُ(٣)

---

(١) احْزَأَلَّت: أى رفعت ذنبها، وكَشَّت: أى: صوَّتَتْ.

(٢) الأبيات للزُّبير بن عبد المطلب فى سيرة ابن هشام ١/١٨٣.

(٣) أى: مُسَوّى البنيان. وهو فى معنى الحديث الصحيح فى نقلانهم الحجارة إلى الكعبة أنهم =

وقد حَشَدَتْ هناك بَنُو عَـدِيّ ... ومُرَّةَ قَـدْ تَقدَّمهـا كِلاَبُ
أَعَزَّ بهـا المليـكُ بَنِى لُؤَىّ ... فليس لأصلهم منهـا ذهاب
وبَوَّأَكَ الإلَهُ لِذَاكَ مَجْـدًا[١] ... وَعِنْـدَ اللهِ يُلْتَمَسُ الثوابُ

* * *

ذكر حرق الكعبة[٢]

فلمَّا احترقت الكعبة، واحترق الركن الأسود، حتى شدَّهُ ابن الزبير بالفضّة على حسب ما نُورِده بعد ذلك إن شاء الله تعالى.. ضَعُفت جدران الكعبة حتى إنَّ الحمام يقع عليها فتنتثرُ حجارتها، وهى مجرَّدة متوهِّية من كل جانب ففزعَ لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعًا، والحُصين بن نُمَيْر مُقِيمٌ يُحَاصِرُها فأرسلَ إليهم ابن الزبير رجالاً من أهل مكَّة، من قريش وغيرهم، منهم: عبد الله بن خالد بن أُسَيْد إلى الحُصين يكلِّمونه، وعظَّموا عليه ما أصاب الكعبة، وقالوا: إنكم رميتمونا بالنفط، فأنكروا ذلك، وقالوا وقد تُوُفِّى يزيد بن معاوية فعلى من تقاتل[٣]؟ ارجع إلى الشام حتى تنظرَ هل يجتمع الناس على صاحبك، يعنون: معاوية بن يزيد، فلم يزالُوا به حتى لان لهم وخرج إلى الشام، وكان خروجهُ من مكة لخمسِ ليالٍ خَلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين.

* * *

= كانوا ينقلونها عراة، ويرون ذلك دِينا، وأنه من باب التشمير والجدّ فى الطاعة. انظر للمزيد: سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(١) فى سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣ «فَبَوَّأنا المليكُ بذاك عِزًا».

(٢) انظر: تاريخ مكة للأزرقى ١/ ٢١٨ـ٢٢١.

(٣) تاريخ مكة للأزرقى ١/ ٢٢٤.

ذكر هدم الحجاج الكعبة

ودخل الحجَّاجُ مكة فكتب إليه عبد الملك بن مروان: إنَّ ابن الزبير كان قد زاد في بيت الله عزَّ وجَلَّ ما ليس فيه، فكتب إليه الحجَّاجُ يستأذنُه فى أن يردَّه على ما كان عليه، فأمره بذلك، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مما يلى الحِجْر، وبناها على أساس قريش، وستر الباب الذى فى ظهرها، وترك سائرها لم يُحَرِّكْ منه شيئًا. وكتبنا ما هدم، فكل شىء منها اليوم: بناء الزبير إلا الجدار الذى فى الحِجْر فإنه بناه الحجَّاج.

والمُرتَقَى إلى الباب الشرقى الذى يدخل منه اليوم: أربع أذرع وشبر والدرجة التى فى جوف الكعبة اليوم، والبابان الموازيان عليهما من عمل الحجّاج أيضا، وذكر بنيان عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

* * *

درج المسجد الحرام والذى فى جوفه

قال ابن جريج من كتاب الأزرقى: «ولم يكن على المسجد الحرام، والذى فى جوفه الكعبة جَدَارَاتٌ محيطةٌ، إنما كانت الدُّورُ محدقةً به من كل جانب، غير أنَّ بين الدور أبوابًا يُدْخَلُ منها من جميع نواحيه، فضاق على الناس، فاشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دُورًا فهدمها، وأَبَى بعضُهم أن يأخذ الثمن وتمنَّع من البيع، فوضعت أثمانُها فى خزانة الكعبة، وهدمها حتى أخذُوها بعد ذلك، ثم أحاط عليها جدارًا قصيرًا، وقال لهم: إنما نَزَلْتُم على الكعبة فهو فناؤُها ولم تنزل عليكم.

ثم كثر الناس فى زمن عثمان بن عفان فوسع المسجد فاشترى دورًا من قوم وأبى آخرون أن يبيعوا فهدم عليهم، فصاحوا به، فقال إنَّما جَرَّأكم عَلَيَّ حُلْمِى عنكم»[1].

---

(١) تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤٥٠.

ذكر زيادة ابن الزبير فى المسجد

وزاد ابن الزبير أيضًا فى المسجد واشترى دورًا من الناس، وأدخلها فى المسجد، وسقف المسجد ولم يكن له سقف، إنما كان محدقًا بجدار قصير، وكانوا يجلسون إليه بالغداة والعشى يبتغون الأفياء، فإذا قلص الظلُّ قامت المجالس.

ثم رفع عبد الملك جدارات الكعبه وسقَّفَه بالسَّاج.

ثم أحكم الوليد بن عبد الملك عمد المسجد، ونقل إليه أساطين الرخام وسقَّفه بالسَّاج المزخرف، وجعل على رءوس الأساطين الذهب وجعل للمسجد شرفات(١).

* * *

ذرع المسجد والكعبة والحِجْر

ذَرْعُ المسجد طولاً من باب بنى جُمح إلى باب بنى هاشم. الذى عند العَلَم الأخضر، ويقابل دار العباس بن عبد المطلب.

وذَرْعُ وجهها من الركن الأسود إلى الشامى، ومن الركن الأسود إلى اليمانى إلى الغربى، ومن الشامى إلى الغَرْبى، وغلظ جدرانها فتكسر جميعًا وطول الحجر الأسود فى الجدار ذراع وشبر، وعرضه كذا إصبعًا.

* * *

ذكر أبواب المسجد الحرام وأساطينها

وهى ثلاثة وعشرون بابًا فيها ثلاث وأربعون طاقة، من ذلك فى الصف الذى يلى المسعَى وهو أكثر من خمسة أبواب:

الباب الكبير: الذى يقال له باب شَيْبَة وهو بابَ عبد شمس بن عبد مناف،

(١) تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤٥٣.

وبهم كان يُعْرَف فى الجاهلية والإسلام عند أهل مكة، هو ثلاث طاقات على أسطوانتين وما بين جدارنه أربع وعشرون ذراعًا.

والباب الثانى: هو باب القوارير: طاقة واحدة، وعرضه سبع أذرع وارتفاعه عشر.

والباب الثالث: وهو بابُ النَّبى ﷺ كان يخرج منه ويدخل إلى منزله الذى فى زقاق العطَّارين ويقال له الآن مسجد خديجة.

والباب الرابع: وهو باب العبّاس بن عبد المطلب: ثلاث طاقات على أسطوانتين وما بين جدارى الباب إحدى وعشرون ذراعًا.

والباب الخامس: وهو باب بنى هاشم وهو مستقبل الوادى وهو ثلاث طاقات على أسطوانتين، وما بين جدرانه إحدى وعشرون ذراعًا ومنها الشق الذى يلى الوادى، وهو الشقُّ اليمانى سبعة أبواب.

صفة الحِجْر: كنصف دائرة مفروش الصحن بالرخام، وهو من الركن الشامى إلى الركن الغربى، وله بابٌ مما يلى الركن الشامى، وبابٌ مما يلى الركن الغربى، وعرضه من جدار الكعبة التى تحت الميزاب إلى جدار الحِجْر سبعة عشر ذراعًا وثمانى أصابع، وذَرْعُ ما بين بَابَيْه عشرون، وعرضه وتَدْوِيره من داخله ثمانية وثلاثون، ومن خارج أربعون، وارتفاع جداره ذراع واحدة وعرضه ذراعان إلا إصبعين.

❊ ❊ ❊

ذكر مقام إبراهيم عليه السلام

المقام مربع مستطيل له ثمانية وجوه، فذرع رُكْنه أربعة عشر إصبعًا[١] فى مثلها، وعرض طوله إحدى وعشرين إصبعا، وهو مطوق بالذهب، وأثر القدم فى أحد وجوهه الطوال.

قال الأزرقى: وكان السيول تدخل المسجد الحرام من الباب المنسوب إلى بنى شيبة قبل أن يردم عمر بن الخطاب الرَّدْم الأعلى[٢]، وكان يقال لهذا الباب باب السَّيْل.

* * *

(١) قال الفاكهى فى تاريخ مكة ١/ ٤٨١ ذرعُ المقام مُرَبَّعٌ، سعة أعلاه أربعة عشر إصبعًا فى أربعة عشر إصبعًا، ومن أسفله مثل ذلك، وفى طرفيه من أعلاه وأسفله كان فيما مضى من الزمن طوقان، طوق من ذهب، وبين الطوقين من حجر المقام بارز لا ذهبَ عليه. طوله من نواحيه كلها تسع أصابع وعرضه عشر أصابع، وذلك قبل أن يُجْعَلَ عليه الذهب الذى كان عليه من عمل أمير المؤمنين جعفر المتوكّل على الله.
وعرض حجر المقام من نواحيه إحدى وعشرون إصبعًا، ووسطه مربّع والقدمان داخلان فى الحجر سبعَ أصابِع، ودخولهما منحرفتان، وبين القدمين من الحجر إصبعان، ووسطه قد استدقّ من التمسّح به فيما مضى».
وانظر أيضًا: تاريخ مكة للأزرقى ٢/ ٤١٠.

(٢) عن حبيب بن الأشرس قال: كان سَيْلُ أُمِّ نهشل قبل أن يعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ الرَّوْمَ بمكة، فاحتمل المقامَ من مكانه، فلم يُدْرَ أين موضعه، فلمَّا قَدِم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ مكة، سأل: مَنْ يعلم موضعه؟ فقام المُطَّلب بن أبى وداعة السَّهْمِى فقال: أنا يا أمير المؤمنين، قد كنتُ قَدَرْتُه وذرعته بمقاط ـ وتخوّفت هذا عليه ـ من الحجر إليه، ومن الرُّكن إليه، ومن وجه الكعبة، قال: ائت به، فجاء به فوضعه فى موضعه هذا، وعمل الرَّدم. أخبار مكة للفاكهى ١/ ٤٥٦ وللأزرقى ٢/ ٤٠٧.

ذكر الملتزم والحَطِيم وزمزم

غور زمزم ستون ذراعًا وهو شرقى الكعبة، وفى قعرها ثلاثون عينًا قال رسول الله ﷺ: «مَاءُ زَمزمَ لما شُربَ لَهُ»[1].

وقال ايضًا: «ماء زمزم لنا شَرَفٌ».

وأمّا الحَطِيم: فهو بين الكعبة وزمزم والمقام.

قال الأزرقى: ما بين حجرة زمزم إلى جدار الحوض الذى قدام السقاية: سقاية العباس بن عبد المطلب وهى إلى القبة، إحدى وعشرون ذراعًا ونصف وذرع بطن الحوض اثنى عشر ذراعًا ونصف إصبع.

وروى أن على بن أبى طالب حَدَّثَ بحديث زمزم فقال[2]: قال عبد المطلب إنى نائم فى الحِجر، إذ أتانى آت فقال: احفرْ طَيْبَة. قلت: ومَا طيْبة؟ قال: ذهب عنّى فلما كان من الغد رجعت إلى موضعى، فقال احفر مَضْنُونَة، قلت وما المضْنُونةُ؟

قال: ثم ذهب عنّى، فلمّا كان من الغد رجعت إلى مضجعى، فنمتُ، فجاءنى فقال احفر برّة، قال: قلت: وما بَرَّة؟ قال ثم ذهب عنّى، فلما كان من الغد رجعتُ إلى مضجعى فنمتُ، فجاءنى، فقال: احفر زمزم، قال: فقلت: وما زمزم؟

قال: لن تَنْزِفَ أَبَدًا، ولا تُزَم، تَسْقِى الحجيجَ الأعظم، وهى بين الفَرْث والدم عند نُقْرَةِ الغُراب الأَعْصَم[3] عند قرية النَّمْلِ، قال: فلما تَبَيَّن له شأنها ودُلَّ على موضعها، فقالوا: يا عبد الله إنها بئر إسماعيل، إنَّ لنا فيه حقًا فأشْرِكْنَا معك فيها،

(١) رواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٥٧ و٣٧٢ والأزرقى ٢/ ٤٢٦ والعقيلى ٢/ ٣٠٣ وابن عدىّ ٤/ ١٤٥٥ والبيهقى ٥/ ١٤٨ وذكره السيوطى فى الدرّ المنثور ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١ والفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٧.

(٢) الحديث ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ١٥ـ١٧ وابن هشام فى السِّيرة ١/ ١٥٨ بمعناه مختصراً وسيرة ابن كثير ١/ ١٦٨.

(٣) الأعْصَم من الغربان: الذى فى جناحيه بياض. وقيل غير ذلك. انظر: الروض الأنف ٢/ ١١٤ وفى المعجم الوسيط (عصم) ٢/ ٦١١ «الأعصم غراب أحمر المنقار والرِّجلين».

قال ما أنا بفاعلٍ، إنَّ هذا الأمر خُصِصْتُ به دونكم فقالوا إنا غيرُ تاركيك، نخاصِمُك فيها، قال: فاجْعَلُوا بيني وبينكم من شئتم فقالوا: كَاهنة بني سَعْد بن هَذيم، قالوا: نَعَمْ، وكانت بأشراف الشام فركب عبد المطلب ومعه أشرافُ بني أُمَيَّة، وبني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ، والأرضُ إذ ذاك مفاوز.

قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق في تلك المفاوز بين الحجاز والشام وفَنِي ماءُ عبد المطلب وأصحابه وظَمِئُوا حتى أيقنوا الهَلَكَةَ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فضَنُّوا عنهم، وأَبَوْا من سَقْيِهم وقالوا إِنَّا بمفَازةٍ ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبد المطلب ما صنعَ القوم، قال لأصحابه: ماذا ترونَ؟ قالوا: ما رأينَا إلا تَبَعٌ لرأيك فَمُرْنَا بأمْرك، قال فإنِّي أرى أن يحفر كل رجل منكم حُفْرة لنفسه، لما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفنه أصحابه ووَارُوه، حتى يكون آخركم رجلاً، فضيعةُ رَجُلٍ واحد منكم أيسر من ضَيْعَة رَكْبٍ جميعا. قالوا: نعْم ما أشرت به.

فقام كُلٌّ واحد منهم وحفر حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا ثم إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه ما إقَامَتُنا هكذا للموت، ألا نضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا مخرجًا؟ فعسى الله أن يرزقنا ماء وارتحلوا وقبائل قريش تنظرُ إليهم ما هم فاعلون، حتى إذا تقدم عبد المطلب إلى راحلته فلمَّا انبعثت به انفجر من تحْت خُفِّها عَيْنُ ماءِ عَذْبة، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحَابُه، ثم نزل فشرب وشربوا واسْتَقُوا ثم ملئوا أسْقِيَتَهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هَلُمُّوا[1] إلى فقد سقانا الله فاشربوا واستَقوا، فجاءوا وشربوا واستقوا، وقالوا: قد والله قضى لك علينا والله لا نُخَاصِمُك في زمزم أبدًا، ارجع إلى سِقَايتك راشدًا فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلُّوا بَيْنَه وبين زمزم.

* * *

---

(١) في تاريخ مكة للفاكهي «هَلُمَّ إلى الماء».

ذكر المنبر الذى اتخذه معاوية

وقد كان من مضى يخطبون الناسَ يوم الجمعة بمكة على أرجلهم قيامًا حتى اتخذ معاوية منبرًا صغيرًا على ثلاث درجات[1] قدم به من الشام سنة حَجَّ، ثم صنع الخلفاء بعدَهُ أعوادًا أُحْكِمَتْ صناعتُه مفصّلاً قطعًا فكان فى خزانة المسجد فإذا كان عيدٌ أوجمعة أخرج المنبر أعوادًا متفرّقة، ونصب ما بين باب البيت والركن الشامى فيما يقابل المقام وأُسْنِدَ إلى جدار البيت، فيصعد الإمامُ يخطبُ عليه وكذلك إذا ورد على صاحب مكة كتاب من الخليفة نُصبَ وقرئ عليه الكتابُ فلما كان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة تكسَّر ذلك المنبر إلى المسجد المحرام وكان سبب كسره أن صاحب مصر المُلقَّب: بالحاكم الحسن بن نزار بن معد أرسل إلى صاحب مكة: أبى الفتوح الحسين بن جعفر الحَسَنى.

قال القاضى الموسوى وهو يومئذ قاضى مكة وما والاها: بكتاب فيه شتم بعض الصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ وبعض أزواجه ـ ﷺ ـ وأمر بقراءته على الناس، فلما فشا ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة والمنتجعين، وغيرهم من البلاد من قبائل العرب المجاورة: هذيل ورواحة وغيرهم رجعوا إلى المسجد غَضبًا لله ولَنَبيِّه ولأصحابه رضى الله عنهم. فلما بلغ ذلك القاضى تثاقل عن الخروج، وتبطَّأ، وطال انتظار الناس له حتى قال قائل قد صعد المنبر، فرماه الناس بالحجارة، وزحفوا إليه فلم يجدوه عليه فتكسر المنبر وصار رضاضًا، وكان يومًا عظيمًا، ومشهدًا مهينًا ولم يقدم أحد بعد ذلك أن يتعلّق بذلك المذهب.

* * *

(١) تاريخ مكة للفاكهى ٣/ ٦٠ـ٦١.

ذكر الصفا والمروة

ذرعُ ما بين الركن إلى الصفا: مائتان واثنان وستون وثمانية عشر إصبعا[١] وذَرْعِ مَا بين المقام إلى الصفا مائة واثنا عشر ونصف، ومن وسط الصفا، إلى عَلَم المَسْعَى الذى فى حَدِّ منارة المسجد مائة واثنان وأربعون ذراعًا، وذرع ما بين العَلَم الذى فى حَدّ المنارة إلى العَلَم الأخضر الذى على باب المسجد وهو المَسْعَى مائة واثنى عشر ذراعًا.

وعلى الصفا اثنا عشر درجة من حجارة وعلم المسعى الذى فى حَدِّ المنارة: بناء ارتفاعه أربع، عليه أسطوانه طولها ثلاثة أذرع، ونصف، ملتبسة، وفوقها لوح رخام طوله: ذراع وثمانية عشر إصبعًا فى عرض ذراع، مكتوب عليها بالذهب وفوقه طاق ساج.

وطول العلم الأخضر الذى على باب المسجد، عشر أذرع، وأربعة عشر إصبعا منها إسطوانة بيضاء طولها ست أذرع، وفوقها إسطوانة طولها: ذراعان وعشرون إصبعًا، وفوقها لوحٌ طوله ذراع وثمانية عشر إصبعًا.

والصفا من أصل جبل أبى قيس، والمروة فى أصل قعيقعان.

وهذه الدرجات المذكورة: مَرَاق فى سنديهما، ويرقى منهما الطَّائفُ للدعاء والحَجُونُ: الجبل المشرف على مسجد الجن بأعلى مكة، على يمينه المصعد إلى مِنًى، وهو أيضا مشرف على سقف الحدَّادين.

* * *

(١) تاريخ مكة للفاكهى ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

ذكر القبلة[١]

قبلة أهل الكوفه وبغداد: الركن الذى بين الباب والحِجْر، وهو إلى الباب أقرب قليلاً.

وقبله أهل الجزيرة عن يمين هذا الركن مما يلى الحِجْرَ منحرفًا إلى الحِجْر.

وقبلة أهل الشام ميزاب الكعبة.

وقبلة أهل اليمامة الركن الذى فيه الحَجَرُ الأسود.

وقبلة أهل البصرة بابُ البيت.

وقبلة أهل جُدَّة وما حولها من: أسوان، والصعيد، وما وراء البحر مِمَّا بين الركن الغربى واليمانى.

* * *

ذكر أرزاق السَّدَنة والحَجَبَةِ فى المسجد الحرام

ثمن الزيت لِسَرْجها أربعة آلاف دينار وثلاثمائة دينار كل عام[٢]، والنفقه لطيب الكعبة ثلاثة آلاف دينار وستمائة دينار وسبعون دينارًا، وما يُحمَل للمجاورين بها من العين خمسة الآف وثلاثمائه، ومن الوَرِق إحدى وعشرون ألفًا.

* * *

---

(١) عن ابن عبَّاس: البيت قِبْلَةٌ، وقِبْلَةُ هذا البيت والركن والمقام وذاك الوجه.

وعن عطاء بن أبى رباح: البيت كله قبلة، وأفضله مَيامِنُه. تاريخ مكة للفاكهى ١/ ١٨٥.

(٢) أخبار مكة للفاكهى ٢/ ٥٠ـ٥٢.

ذكر شِعَاب مكة وسائر مناسكها

مقابر أهل مكة الإسلامية التى يتدافنون فيها منذ قام الإسلام خمس عشرة مقبرة فأولها وأفضلها التى بأعلى مكة، وهى المقبرة التى جاء فيها الخبر عن رسول الله ﷺ قال: نعم المقبرة مقبرة أهل مكة[١]، وهى التى فى الشّعب الذى يقال له شعْب عمرو، ويقال: أن ليس بمكه شِعْبٌ يستقبل الكعبة بأجمعه وكليته إلا هذا الشِّعب، وأهل مكة يؤثرون التدافن فيه على سائر المقابر.

شِعْبُ الجودى: سمى بذلك، لأن نافع بن الجودى، مولى نافع بن عبدالله.. الخزاعى نزله وكان أول من بنى فيه، فسمى به.

شِعْبُ بنى عبد المطلب: وفيه ولد رسول الله ﷺ وموضع مولده معروف إلى اليوم، قد بنى فيه مسجد وجد فيه موضع، وجعلت عليه مكة.

شِعْبُ أجياد[٢]: وهو غربى جبل أبى قبيس.

روى عن النبى ﷺ أنه قال: «بِئْسَ الشِّعْبُ أَجْيَادُ، تخرج منه الدابّة»[٣].

شِعْبُ ناضح، شِعْبُ الصَّفا وهو الذى يقال له شِعْبُ الشباب؛ سمى بذلك، لأن قريشًا كانت إذا أرادت أن تشتد خرجت إليه.

ولمعاوية فيه حائط يسمى بحائط الصفا، وذلك الحائط اليوم قد ذهب كذا وكذا بالفتح والضم، هو الفلق الذى فى الجبل على المحصب، وهو الموضع الذى تركت فيه ناقة رسول الله ﷺ قبل الفتح، وهو القصوى فقالوا: حَلَّت القَصْوَى فقال: مَا حَلَّت القَصْوَى، وما هو لها بحول، ولكن حَبَسَها حَابِسُ الفيل»[٤].

---

(١) رواه عبد الرزاق فى المصنف ٣/ ٥٧٩ وأحمد فى المسند ١/ ٣٦٧ والأزرقى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٠٩ والفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٥٠ وذكره الهيثمى فى المجمع ٣/ ٣٩٧.

(٢) أجياد: موضع من بطحاء مكة، من منازل قريش البطاح. معجم ما استعجم (أجياد) ١/ ١٠٧.

(٣) النهاية ١/ ٣٢٤.

(٤) ذكر ابن الأثير فى حديث الحديبية «ولكن حَبَسَها حابِسُ الفيل» وهو فيل أبرهة الحبشى الذى جاء يقصد خراب مكة، فحبس الله الفيل، فلم يدخل الحرم، وردَّ رأسه راجعًا من حيث جاء. يعنى أنَّ الله حَبَس ناقةَ النَّبىِّ ﷺ لَمَّا وصل الحديبية، فلم تتقدَّم، ولم تدْخل الحرم، لأنه أراد أن يدخلَ مكة بالمسلمين». النهاية (حبس) ١/ ٣٢٩.

وكذا بالضم فى طريق التَّنْعِيم، فى عقبة بنى شافع.

منىً من المسجد الحرام إلى الجمرة الثانية أربعة أميال، ومن جَمْرَة العقبة وهى أول الجمر وهى مما يلى مكة إلى الجمرة الوسطى أربعمائة ذراع، وسبع وثمانون ذراعًا، واثنى عشر إصبعًا، ومن الجمرة التى تلى مسجد منىً وهى آخرها إلى وسط أبواب مسجد منىً ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع، فأما الجمرة الوسطى فليس بينها وبين التى تلى منىً إلا مسافة يسيرة جدًا.

وعرض منىً من مؤخرة المسجد الذى يلى الجبل بحذائه ألف ذراع، وطولها من جمرة العقيق إلى وادى مُحَسَّر سبعمائة ذراع، ووادى محسّر خمسمائة ذراع وخمس وأربعون، ومن مسجد مِنًى قوس إلى الثعالب: ألف وخمسمائة وثلاثون.

وعرض ماذُمَّ من الجبل إلى الجبل، وعرض الطريق الأعظم إلى العقبة الدرجة وعرض شِعْبِ عَلِيٍّ وهو جبال جَمْرَةِ العقبة اثنان وعشرون.

واسم الجبل الذى مسجد الخَيْفِ بأصله، وهو مسجدُ بَنِى صالح، واسم الجبل الذى يُواجهه القابل عليه، وذرْعُ مسجد المزدلفة تسعة وخمسون ذراعًا وشبرًا فى مثلها وذرع ما بين مسجد المزدلفة، ومسجد عرفة ثلاثة أميال وثلاثة آلاف وتسعة عشر ذراعًا.

ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل، والله أعلم.

* * *

ذكر جبال مكة

جبل أبى قُبَيْس: هو الجبل الذى يُشرِفُ على الصفا إلى السويداء إلى الخندمة وكان يسمى فى الجاهلية الأمين.

قال الزُّبير بن بكّار: وإنما سُمِّى الأمين، لأن الركن كان مستودعًا فيه من الطوفان، فلما بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام البيت ناداهما أن الركن فى موضع كذا وكذا[١].

---

(١) انظر: تاريخ مكة للفاكهى ٤/ ٤٧.

وسُمِّى أبو قبيس؛ لأن أول من نهض للبناء فيه رجل من مذحج، ويقال من إياد يقال له أبو قبيس.

ويقال: لأن الركن اقتبس منه.

وفى هذا الجبل موضع يقال له: الجد والميزاب، وهما موضعان يسكبان الماء إذا كان المطر يصب أحدهما على الآخر لأن الأعلى منها الجد، والميزاب هو الأسفل، وعلى رأسه حجارة مشرفه يقال لها: الكبش[1].

الجبل الأحمر: وكان يسمى فى الجاهلية الأعرف، وهو الجبلُ المشْرِفُ وجمعه على قُعَيْقِعَان على دُورِ عبد الله بن الزبير، وكان رجلاً من قريش يهدى نبلا، فقالت له امرأته: لم تبرى هذا النبل؟ قال بلغنى أن محمدًا يريد أن يغزو مكة، فلئن جاء لأخدمنك خادمًا من بعض نساء يثرب وكانت قد أسلمت سرًا، فقالت: والله لكأنى بك قد جئت تطلب مخبأ تحتمى فيه لو قد رأيت خيل محمد.

فلما دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح أقبل إليها وقال: ويحك هل من مخبأ؟ فقالت له: أين الخادم؟ فقال: دَعِى عنك وجعل يقول [رجز]

إنَّكِ لو أَبْصَرْتِ يَوْمَ الخندمَـهْ
إذ فرَّ صَفْوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ
وضربوا بالسيف لها المسْلِمَـهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِـدٍ وجُمْجُمَـهْ
طوى فلا تسمع إلاَّ غَمْغَمَــهْ
لهم نَحِيبٌ خلفنا وهَمْهَمَهْ
لَمْ تنطقى فى اللوم أدْنَى كَلِمَهْ[2]

الجبل الأبيض: هو الجبل المشرف على حق أبى لهب، وهو مشرف على شِعْبِ أبى زياد، وشِعْب ابن عامر، والأعرج: مولى لأبى بكر رضى الله عنه، كان بنى

(١) انظر: تاريخ مكة للفاكهى ٤/ ٤٨.

(٢) الرجز لحماس بن قيس الدئلى. انظر البداية والنهاية ٧/ ٧٤ ومعجم البلدان ١/ ١٠٣ وتاريخ مكة للفاكهى ٤/ ١٣٦.

فيه فَنُسِب إليه وشعب أبى عامر كُلُّه يقال له الطابخ الحَزْوَرَة، كانت بفناء دار أمّ هانئ بنت أبى طالب التى كانت عند الخيَّاطين، فدخلت فى المسجد الحرام وكانت فى أصل المنارة التى إلى الخيمة.

والحَزْوَرَةُ: موضع سوق مسجد الجنّ، يقال: إنه موضع الخَطِّ الذى خطه رسول الله ﷺ لابن مسعود ليلة استمع إليه الجنُّ وهو يسمى مسجد البيعة، حيث إنَّ الجِنَّ بايعوا رسول الله ﷺ فيه.

جبل حراء: وهو الذى كان يتحنَّثُ فيه رسول الله ﷺ قبل الوحى وفيه نزل عليه جبريل أوَّل ما أوحى إليه وفيه بشَّره بالنبوَّة، وبينه وبين مكه ميل ونصف، وهو جبل منفرد على طريق حنين من مكة وهو منيف صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد فى صفاء ملسا والموضع الذى فيه جبريل عليه السلام فى أعلاه من مؤخره.

جبل ثبير: وهو أعلى جبالها، وأعظمها يكون ارتفاعه علو ميل ونصف قال امرؤ القيس: [من الطويل]

كأن ثَبِيرًا فى عَرَانِينَ ودْقِهِ كَبِيرَ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ[1]

وهو من ناحية المتصلة بمنًى.

وهذان الجبلان - ثبير وحِرَاء - ما بين المشرق والشمال، وكذلك حُنَيْنٍ من هذين الجبلين، ما بين المشرق والشمال، ومن مكه إلى حُنَيْن: اثنا عشر ميلاً قال الزُّبَيْر: أَوَّلُ ما نصَب أعلام الحرم: عَدْنان بن أُد[2] لما خاف أن يُدْرَس الحرمُ فأعلامُ

(١) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ١٥٨ وتاريخ مكة للفاكهى ٤/ ١٦٠ وشرح المعلقات السَّبع للزوزنى ٥٤ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٧٢ وورد هذا البيت من رواية الأصمعى بلفظ:

* كأن أبانًا فى أفانين وَدْقه *

وهكذا جاءت الرواية فى الديوان ١٥٨ ومعجم البلدان لياقوت ١/ ٢٦، وفى تاريخ مكة للفاكهى (وَبْله) مكان (وَدْقه).

عَرَانين: جمع عِرْنين وهو الأنف، استعاره لأوائل المطر، لأنَّ الأنوفَ تتقدَّم الوجوه، والوَبْلُ: جمع وابل، وهو المطر الغزير القَطْرِ. والبجاد: كساءٌ مَخطَّط.

ومُزَمَّل: أى مُلَفَّف، أراد أنْ يُشبِّه ثبيرًا فى أوائل المطر بسيِّد أُناس قد تلفَّف بكساء مخطط.

(٢) تاريخ مكة للفاكهى ٢/ ٢٧٦ وشفاء الغرام ١/ ٥٥.

كذلك ذكر الفاكهى فى تاريخ مكة ٢/ ٢٧٩ أنَّ إبراهيم عليه السَّلام هو أوَّل من نَصَب الأنصاب للحرم، أشار له جبريل إلى موضعها.

الحرم محيطةٌ بمكة، قد نصبت فى البقاع والتلال والغيطان، والقيعان.

فحدُّ الحرمِ من ناحية التَّنعيم على طريق يثرب إلى مَمَرِّ الظهران خمس، ومن طريق جُدَّةُ إلى عشر، ومن طريق اليمن ستة، ومن طريق الطائف سبع ومن طريق العراق كذلك.

* * *

رتبة قيام رمضان

قال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَة: أَوَّل من أدار الصفوف حول الكعبة عند قيام رمضان خالد بن عبد الله القَسْرى[1]، وكان الناس يقومونَ فى أعلى المسجد، فلما وَلَّى عبد الملك[2] خالدًا مكةً، وحضر لهم رمضان أمر خالد الأئمة أن يتقدَّموا ويُصَلّوا خلف المقام وأدار الصفوف حول الكعبة.

وكان عطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وغيرهم من العلماء يحضرون ذلك فلا ينكرون، ولا تكاد تنقضى صلاتهم حتى مطلع الفجر وعلى جبل أبى قُبَيْس رتبة ترقب طلوعه للمتسَحّرين فإذا أبانَ لهم نادوا: أَمْسِكوا رَحِمكُم الله».

* * *

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد العرى (٦٦-١٢٦هـ) من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يمانى الأصل من أهل دمشق، ولى مكة سنة ٨٩هـ للوليد بن عبد الملك، ثم وَلاَّه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ فأقام بالكوفة وطالت مُدَّته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ هـ، ووَلّى مكانه يوسف بن عمر الثقفى، وأمره أن يحاسبه، فسجنَه يوسف وعذَّبه بالحيرة، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرْمى بالزندقة، وللفرزدق هجاءٌ فيه. الأعلام٢/ ٢٩٧.

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس، ولد سنه ست وعشرين وبويع بعهد من أبيه فى خلافة ابن الزبير فلم تصحّ خلافته، وبقى متغلبًا على مصر والشام، ثم غلب على العراق وما والاها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصَحت خلافته من يومئذ، واستوثق له الأمر، وهو أول من كتب فى صدور الطوامير ﴿قل هو الله أحد﴾. تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٠٠-٢٠٧.

ذكر دخول القرامطة لعنهم الله مكة بالسيف وقتل الحاجّ منها

وقال إبراهيم بن فارس، وأبو بكر محمد بن على بن القاسم فى تاريخه، وغيرهما: إن أبا الطاهر سليمان بن الحسن[١] ـ لعنه الله ـ صاحب البَحْرَين لما دخل مكة بالسَّيف وهو فى تسعمائة رَجُلٍ، وذلك يوم الاثنين لسبعٍ خَلَوْنَ من ذى الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

وقتل فى المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة من الرجال والنساء، وهم مشتغلون متعلّقون بأستار الكعبة، ورَدَم بهم زمزم، وفرش المسجد، وما يليه وقلع الحجر الأسود، وأخذَ أستارَ الكعبة، وهَتَك حرمتها[٢].

قال محمد بن على الذهبىّ: وحَضَرْتُه يوم قُلِع ـ يوم الاثنين بعد العصر الأربع عشرة خلت من ذى الحجة من العام المؤرخ ـ قلعه بيد جعفر بن أبى علاج البنّاء المكّى بأمر القُرْمطىّ ـ لعنه الله ـ وحمل الحجر إلى بلاده.

قال أصحاب التواريخ: فرمَى الله القرمطىَّ[٣] فى جسده، وطال عذابه وتقطَّعت

(١) تأتى ترجمته بعد.

(٢) فوات الوفيات ١/ ١٧٥.

(٣) هو سليمان بن الحسن بن بهرام الجَنَابى الهَجَرى، أبو طاهر القرمطى، ملك البحرين وزعيم القرامطة، خارجىٌّ، طاغية جبار، قال الذهبى فى وصفه «عدوّ الله، الأعرابى الزّنديق»، نسبته إلى جنابة من بلاد فارس، وكان أبوه قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، وثب سنة ٣١١هـ على البصرة، فنهبها وسبى نساءها وكتب إلى المقتدر يطلب ضمّها إليه هى والأهواز، فلم يُجِبْه المقتدر، فأغار على الكوفة سنة ٣١٢هـ، فأقام ستة أيام، حمل ما استطاع رجاله أن يحملوه من أموال وثياب وغيرها، وضَجَّ الناس خوفًا من شَرِّه، فاهتم الخليفة لأمره، فسير لقتاله جيشًا كبيرًا، فشتّته القرمطى، واستولى على الرحبة وربض الرقة، ودعا إلى «المهدى» وأغار على مكة يوم التروية سنة ٣١٧هـ، والناس محرمون، فاقتلع الحجر الأسود وأرسله إلى هَجَر، ونهب أموال الحجاج، وقتل كثيرين منهم.

قيل: بلغ قتلاه فى مكة ثلاثين ألفًا، وعرّى البيت الحرام، وأخذ بابه، وردم زمزم بالقتلى، وعاد إلى هَجَر، فألّهه بعض أصحابه، وقال قوم: إنه المسيح، ومات كهلاً بالجدرى فى هجر.

الأعلام ٣/ ١٢٣ وانظر: الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧ و٤٥ و٤٩ و٥٣ و٥٦ و٦٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٥ وفوات الوفيات ١/ ١٧٥.

أوصاله[1] وأراه الله عز وجل فى نفسه عِبْرةً، وأُعِيدَ الحجرُ فى مكانه يوم النحر رَدَّه بيده حسن بن المزوق البنَّاء، فكانت بين غيبته من يوم قلعه إلى يوم رَدِّه اثنتان وعشرين سنة إلا أربعة أيام وكان مكانه فارغًا يدخل المسلمون أيديهم فيه إلى أن ألقى الله فى قلوب الكفرة رهبةً.

قال: «وأخبرنى أبو العباس قال: لما حضرت سنة خمس عشرة وأربعمائة الحفرَ بين الحَجُون والأَوْضَام، فأثيرت هناك جماجم وعظام كثيرة، فلمَّا رأوا ذلك أعادوا ما نُبش من التُّراب منها.

* * *

ذكر كسر الحجر

قال: وشهدت ثلاث عشر وأربعمائة كَسْر الحجر الأسود، وذلك أنه لما كان ثالث يوم النحر وهو اليوم الذى يتعجّل فيه الحاج من منى إلى مكة والناس فى صلاة العصر، فأتى رجل من غمار الناس كان ممّن ورد فى قافلة مصر زعموا أنه من مدينة مروعة، فانتهز الفرصة باشتغال الناس فى صلاتهم، فقصد الحجر بيده دبوس من حديد، فضربه ضربات أبان بها من وسطه ثلاث شظايا، ثم ولّى ذاهبًا يريد باب الصفا، فبادره الناس فقتل مكانه، وقتل لأجله من حاجّ أهل المغرب فى شعاب مكة وأطرافها أزيد من خمسمائة رجل، ثم ردت تلك الفلق إلى موضعها وشدت باللّجين.

ومن عجائب مكة: أن الحمام وجميع الطير يهوى فى طيرانه، فإذا قارب أن يحاذى إلى الكعبة أخذ يمينا وشمالا، ولا يعلوها ألبتَّة، ولا ينزل على جدورها، إلا أن يكون مريضًا، والطير ينزل على سائر جدور المسجد، وفيه زمزم وغيرها، والله أعلم.

* * *

(١) الأعلام ٣/ ١٢٣.

ذكر المواضع التى اعتمر منها النبى ﷺ

الجِعِرَّانة[١] وبركة أم جعفر: ومنها اعتمر رسول الله ﷺ مُنْصَرَفه من هوازن، ثم قسَّم غنائم هوازن بعد عمرته بأوطاس[٢]، وعمرة أخرى بنجد مما يلى طريق مكة.

* * *

ذكر ما بين مكة والمدينة من مساجد رسول الله ﷺ

بين مكة والمدينة مسجدان بذى الحُلَيْفَة: المسجد الكبير الذى يحرم الناس[٣] منه والآخر: مسجد المُعرَّس[٤]: على ميلين من العُلَيَّا له فى سفح الجبل وعلى تسعة أميال من السيَّالة مسجد يقال له مسجد عِرْق الطِّيب[٥]، فيه كانت مشاورة النبى ﷺ فى قتال أهل بدر وعلى ثلاثة أميال من الروحاء مسجد فى سند الجبل[٦] يقال له: مسجد المنصرف[٧] وفى أوّل الدُّوبية مسجد، وقبل أن تأتى العَرْجَ مسجد.

---

(١) الجِعِرَّانة: بكسر الجيم والعين وتشديد الراء المهملة، هكذا يقول العراقيون، والحجازيون يخففون فيقولون: الجِعْرَانة بتسكين العين وتخفيف الراء، وهى ماء بين الطائف ومكة، وهى إلى مكة أدنى، وبها قسَّم رسول الله ﷺ غنائم حنين ومنها أحرمَ بعمرته فى وِجْهَته تلك، روى أبو داود من طريق أبى مزاحم، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أُسَيْد عن مِخْرش الكعبى، قال: دخل رسول الله ﷺ الجعرانة، فجاء إلى المسجد، فركع ما شاء الله، ثم أحرم، ثم استوى على راحلته فاستقبل بطن مقرِف حتى لقى طريق مكة، فأصبح بالجعرانة كبائت. معجم ما استعجم ٢/ ٢٨.

(٢) أَوْطاس: وادٍ فى ديار هوازن. معجم ما استعجم ١/ ١٩٦.

(٣) ويعرف اليومَ ببئر عَلِىّ. انظر تفصيلاً: وفاء الوفا ٣/ ١٠١٨ ـ ١٠١٩.

(٤) وفاء الوفا ٣/ ١٠٠٥.

(٥) ويعرف بعرق الظبية، انظر: وفاء الوفا ٣/ ١٠٠٩.

(٦) وفاء الوفا ٣/ ١٠١٠.

(٧) فى الأصل (المخضوب) وهو تحريف، والتصحيح عن وفاء الوفا ٣/ ١٠١١.

قال السمهودى: مسجد المنصرف، ويعرف اليوم بمسجد الغزالة، وهو آخر وادى الروحاء مع طرف الجبل، على يسارك وأنت ذاهب إلى مكة).

وفى أوّل القرية مسجد يُعْرَف بمسجد الأَثاية[١]، وعلى أربعة أميال من العَرْج مسجد وعلى ميل من طلوب[٢] مسجد، وعلى خمسة أميال من الأبواء[٣] مسجد، وقبل المُشْكَل خيمتا أمّ مَعْبد، ومن قَدِيد إلى عين أبى ربيع وهو خُلَيْص ثمانية أميال وهى عين ثرَّةٌ عليها نَخْلٌ كثير وشجر، وفيها مسجدٌ والعَقَبة قبل خُلَيْص ثلاثة أميال، وعندها مسجد[٤] ومن خُلَيْص[٥] إلى أَمَج[٦] ثلاثة أميال، وله مساجد غير ما ذكرنا.

* * *

مساجد النبى ﷺ بناحية المدينة وما يليها

مسجد النور، ومسجد العدوة، ومسجد الفضيخ، مسجد عثمان بن عفان، مسجد رباح، مسجد العسكر، مسجد بلال فى سفح الجبل، مسجد رومان، مسجد الفتح، مسجد الخندق، مسجد الجمعة، مسجد العجوز، مسجد القبلتين، مسجد بنى زريق، مسجد بنى ساعدة، وهو مسجد السفينة، مسجد بنى كعب.

* * *

---

(١) وفاء الوفاء ٣/ ١٠١٢.

(٢) طَلُوب: بئر غليظة الماء بعد العرج بأحد عشر ميلا. وفاء الوفا ٣/ ١٠١٤.

(٣) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَة ممَّا يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل: حَيَلٌ عن يمين آره، ويمين المُصْعِد إلى مكة من المدينة. وبالأبواء قبر آمنه أمّ النبى ﷺ. مراصد الاطلاع ١/ ١٩ وانظر: وفاء الوفا ٣/ ١٠١٦.

(٤) يعنى مسجد عَقَبة هَرْشى. وفاء الوفا ٣/ ١٠١٧.

(٥) خليص: عين غزيرة كثيرة الماء، وعليها نخل كثير، وبركة، ومشارع، ومسجد لرسول الله (ﷺ). وفاء الوفا ٣/ ١٠١٩.

(٦) أَمَج: بفتحتين والجيم: بلدين أعراض المدينة. مراصد الاطلاع ١/ ١١٤ وفى معجم ما استعجم ١/ ١٧٦ أَمَج: قرية جامعة بها سوق، وهى كثيرة المزارع والنخل، وهى على ساية، وساية: وادٍ عظيم، وأَهْلُ أَمَج: خُزَاعة.

ذكر مدينة رسول الله ﷺ

أسماء المدينة[١]: طَيْبَة، وطَابَة، والمجبورة، والمَوْهُوبة، والعَذْرَاء، والمُحَبَّة، والمَحْبُوبة، والقاصِمَة، وحاجزةَ.

وسمّاها الله عز وجل المدينة، وكذلك كان رسول الله كما قال: إِنَّ الله حَبَّب إلينا المدينة كحبِّ مكة أو أشد»[٢].

وقال: «على أنقابِ المدينة ملائكةٌ يَحْرُسونها من الطاعون»[٣].

وقال: «والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يَعْلمون»[٤].

وروى زبيد بن أسيد الساعدى قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ. فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنى قد رأيت موضعًا للسيوف أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى، وقام معه حتى جاء فنظر إليه، وقال: هذا سوقكم قد طرف بِرِجْلِه. وقال: لا يُنتقص ولا يضرب عليه خَرَاجٌ»[٥].

جبال المدينة: جبل أُحُد[٦]، وجبل عرايات ، وجبل حنيش، وجبل عَيْر[٧]،

---

(١) ذكر السمهودى أربعة وتسعين اسمًا من أسماء المدينة. وفاء الوفا ١/ ٨ـ٢٧.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ٤/ ٩٩ رقم ١٨٨٨ ومسلم رقم ١٣٧٦ بلفظ «اللَّهُمَّ حَبِّب إلينا المدينة كَحُبِّنَا مكة أو أشد» ومالك فى الموطأ٢/ ٨٩٠ـ٨٩١ وأخبار مكة للأزرقى ٢/ ١٥٣ و١٥٤و ١٥٦.

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى. انظر للمزيد من التخريج فى: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة ١٦٦ـ١٦٧.

(٤) ذكره ابن الأثير فى جامع الأصول، حديث ٦٩١٧ فى فضائل المدينة، ولفظه «ليأتينَّ على الناس زمانٌ يدعو الرجلُ قريبه وابن عَمِّه هَلُمَّ إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون. . . إلخ»، وبنحوه روى الإمام أحمد فى المسند ٣/ ٣٤١ـ٣٤٢ وراجع/ الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة ١٩٦ـ١٩٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه (تجارات) ٤٠.

(٦) وفاء الوفا ٤/ ١١٢٣.

(٧) وفاء الوفا ٤/ ١٢٦٩.

وجبل سَلْع[١]، وجبل بحت، وجبل المرعى، وجبل القَدُوم[٢]، وجبل الأصفر، وأحد محيطة بها كلها.

* * *

ذكر مسجد رسول الله ﷺ الذى قبره كرمه الله فيه

روى أبو داود عن ابن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعُمُده الخشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا، لكنه تخرّب فى خلافته فبناه على حاله فزاد فيه.

وتخرّب فى خلافه عمر فبناه كذلك وزاد فيه، تخرّب فى خلافة عثمان بن عفان فزاد فيه زيادة كبيرة، وبناه بالحجارة المنقوشة والفضة، وجعل عُمُدَه من حجارة منقوشة، وسَقّفه بالساج قال عبد الله بن مسلم: ثم وَسَّعه المهدى سنة ستين ومائة، وزاد فيه المأمون زيادة كثيرة ووسّعه.

قال: وقرأت على موضع زيادة المأمون: أمر عبد الله عبيد الله بعمارة مسجد رسول الله ﷺ سنة اثنتين ومائتين، ويطلب ثواب الله فإن الله عنده حُسْنُ الثواب، وكان الله سميعًا بصيرًا.

أمر عبد الله عبيد الله بتقوى الله ومراقبته، وصلة الرحم والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وتعظيم ما صغر الجبابرة من حقوق الله وأحيا لما أماتوا من العدل، وتصغير ما عظّموا من العدوان، والجور، وأن يطَاع من أطاع الله ويُعْصَى من عصى الله، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله وأمر بالسوية بينهم فى فيئهم، ووضع الأخماس مواضعها.

قال غيره: وفى سنة عشر وثلاثمائة أمر المقتدر فَرُكبت أبواب الساج على مسجد رسول الله ﷺ.

قال ابن شَيْبَة، قال أبو غسَّان: ذرع عرض مسجد رسول الله ﷺ من مُقَدمه

(١) وفاء الوفا ٤/ ١٢٣٥.

(٢) وفاء الوفا ٤/ ١٢٨٧.

من الشرق إلى الغرب مائة ذراع وثلاثون ذراعًا، وطول المسجد من ناحية اليمن: مائتان وأربعون ذراعًا، وخالص طول رحبته من اليمن إلى الشام مائة وخمسون ذراعًا، وفيه من الأساطين مائتان وستة وتسعين، وإلى حظير القبر منها ثلاثة أذرع، ومن شَرْقِىّ المنبر منها أربعة أذرع، وعن غربيّه أربعة أذرع.

وعدد أبواب المسجد عشرون: فى الشرق ثمانية، وفى الغرب ثمانية، وفى الشرق الشامىّ أربعة أبواب.

وهذه الأبواب سوى خُوخة آل عمر التى تحت المقصورة، وسوى الخوخة التى فى غربى المقصورة.

وارتفاع منبر النبى ﷺ ذراعان ونصف، وعرض الرخامة التى حول المنبر ثمانية وعشر بين ستة أساطين قدام المنبر، منها أسطوانتين.

وذرع ما بين القبر والمنبر من مقام النبى ﷺ الذى كان يصلى فيه حتى توفى رسول الله ﷺ أربعه عشر ذراعًا وشبرًا وذرع ما بين مُصَلاَّهُ الأول والأسطوانة المعروفة بأسطوانة التوبة، تسعة عشر، وذَرْعُ ما بين جداد القبلة اليوم إلى أسطوانة التوبة عشرون وفى صحن المسجد بيت هى خزانة المسجد وأمام البيت أسطوانة قد رسمت فى أعلاها بلاط لمعرفة أوقات الظهر والعصر فى جميع أيام العام.

ومما يلى مُؤَخَّر المسجد حائطٌ فيه نخلٌ كثير، وهو الحائط الذى كان لأبى طلحة الأنصارى المعروف بيرحاء.

فأما حَدُّ المسجد على عهد رسول الله ﷺ كان سالكًا قال: جدار المسجد الشرقى يمنى القناديل التى فوق الخوخة المواجهة للمنبر، ومنتهى ذلك إذا كنت واقفًا عند القبر ثلاث أساطين عن يسارك إلى ناحية القبر، وهو آخر المسجد الأول، هو العضادة السفلى من الباب الذى يقال له: باب عثمان.

فأما الجدار القبلى فإن حده معلوم بالمنبر والروضة.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد مَدَّ موضع المقصورة، ثم قد مَدَّ عثمان موضعه الذى هو فيه الآن، فلم يقدم بعد إلا ما أزيد فيه يمينا وشمالاً، وصلى الله على أكرم الأنبياء وخيرة الأصفياء، وخاتم الأتقياء الذى اختاره الله من أهل

الأرض والسماء، محمد بن عبد الله، النبى الأمى الهاشمى المدنىّ المكّى، وعلى آله، وأزواجه، وذرّيته إلى يوم الدين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وسلام الله على سائر الصالحين.

* * *

ذكر نزول اليهود يثرب[١] وما حولها ومن معهم من العرب قبل الأوس والخزرج

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جماعة من العماليق تُسمَّى جاسمًا[٢] نزلوا الحجاز وكان يملكهم بقيما، ويقال الأرقم[٣]، كذلك.

رُوِى عن عُرْوَة بن الزبير وغيره، فسكنوا مكّة والمدينة والحجاز كله وعتوا عُتَوًا كبيرًا، فلما أظهر الله عزّ وجَلَّ موسى على فرعون، وأهلكه وجنوده، وطئ الشام وأهله، وأقام بها وبعث بعثًا من بنى إسرائيل إلى الحجاز، وأمرهم ألاّ يَسْتَبْقوا منهم أحدًا، فوجدوا الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه وأصابوا ابنًا له شابًا من أحسن الناس صورة فلم يقتلوه وقالوا نَسْتَحْيِيه حتى نقدم به على رسول الله ﷺ، يعنون موسى فيرى فيه رَأْيَه فأقبلوا، وقبض الله عز وجل موسى قبل قدوم الجيش، ولما سمع بقدومهم بنو إسرائيل خرجوا إليهم وتلقوهم وسألوهم، فأخبروهم بأمر الصبِى وقالوا لهم: قد خالفتم وعَصَيْتُم أمْرَ نَبِيكم، ومنعوهم دخول بلدهم وحالوا بينهم وبين الشام[٤].

---

(١) قال المؤلف فى كتابه معجم ما استعجم ٤/ ٢١٨ «يثرب: مدينة النبى - ﷺ - سُمِّيت بيثرب بن قانية من بنى إرَم بن سام بن نوح، لأنه أوّل من نزلها، وقال النبى (ﷺ): تُسَمُّونها يثرب، ألاَ وَهِيَ طَيْبَة، كأنه كَرِه أنْ تُسمَّى يَثْرِب، لما كان من لفظ التَّثريب».
وكان أهل يثرب جماعة من اليهود، وكان فيهم الشرف والثروة على بطن اليهود كُلِّها وقد بادوا فلم يَبْق منهم أحَدٌ يُعْرَف، وكانت يثرب أمّ قرى المدينة، وهى ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف، وما بين المال الذى يُقال له البرنى إلى زبالة، وكان لهم خمسة عشر أطمًا».

(٢) فى الأصل «راسما» والتصحيح من المقدمة ٢/ ٢٨٦.

(٣) فى الأصل «الأرقم بن أبى الأرقم».

(٤) انظر تفصيل ذلك فى المقدمة ٢/ ٢٨٧.

وكانت الحجاز إذ ذاك أكثر بلاد الله شَجَرًا، وأظهرها ماءًا[١] فكان أوّل من سكن الحجاز اليهود.

ونزل جمهورُهم بمكان يقال له يثرب مجتمع السيول: سيل بطحان والعقيق وسيل قتباه مما يلى زغابه.

قال محمد بن كعب القرظى[٢]: وخرجت بنو قريظة وإخوانهم. بنو عمرو بن الخزرج بن الصّريح، وبنو النضير بن النحام بن الخزرج بن الصَّريح، وهم كلهم من ولد هارون بن عمران فتبعوا آثار هؤلاء، فنزلوا بالعالية على وادِيين يقال لهما: مُذَيْنِب ومَهْزُور[٣].

نزلت بنو النضير على مُذَيْنِب، واتخذوا عليها الأموال، واتخذوا هنا كالأطام والمنازل، ونزل بعض قبائل العرب عليهم.

فذكر توبة بن الحسن بن السائب عن أبى لُبَابَة عن أبيه عن جَدّه قال: كان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بنى إسرائيل، وكان قد نزلها عليهم أجناس من العرب، فكانوا معهم، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج عليهم وقال الشاعر: [من الطويل]

ولو نطقت يومًا قباء لخبرت ... بأنا نزلنا قبل عادٍ وتُبَّع

وآطامنا عاديّةٌ مُشْمَخِرَةٌ ... تلوح فتَنْعَى من يُعَادى ويمنع[٤]

وإنما سميت قباء بالبئر الذى فى دار توبة بن حسين بن السائب بن أبى لبابَة يقال لها قباء، ومن آطامهم: أطم فى المال الذى يقال لها خنافة.

وكان رجل منهم أعدى على رجل فقطع يده فقال لهم المقطوع أعطونى خنافة عَقْلاً بيدى، فأبوا، وحفر الذى قطعوه كُوّةً فى جدار من جدر خنافة وأخرج يده من وراء الجدار وقال: اقطعوا

(١) ذكر ذلك ابن خلدون عن المسعودى. انظر المقدمة ٢/ ٢٨٦.

(٢) وفاء الوفا ١/ ١٦١.

(٣) معجم ما استعجم ٤/ ١٢٧.

(٤) البيتان لشاعر بنى نعيف فى المقدمة ٢/ ٢٨٦ وبلا نسبة فى وفاء الوفا ٢/ ١٦٢-١٦٣.

الآن قـد طـابت لنا خنـافهْ
طَابَتْ فلا جُوعٌ ولا مَخَافهْ[١]

ولهم من الأُطْمِ[٢] الذى عند مَشْرَبه ـ مارِيةَ أُمّ إبراهيم ابن النَّبىّ ﷺ.

فأما نزول الأوس والخزرج المدينة فكان على ما تَقَدَّم ذكره عند سَيْلِ العَرِمِ فلما نزلوا يثرب ورأوا الآطام والأموال والعدد والقوة لليهود فتعاهدوا وتعاقدوا، وتحالفوا، واشتركوا، فلم يزالوا على ذلك زمانا طويلا ثم إن الأوس والخزرج صارت لهما ثروة كبيرة من المال والعدد فأمنوا جانبهم وعلى أمرهم، فخافتهم يهود على ديارهم وأموالهم، فقطعوا الحلفة بينهم.

وكانت اليهودُ أَعَدَّ وأكثر، وكانت العددَ والشدَّة فى الكامنين: قريظة والنضير، وإياهما عَنَى قيس بن الخطيم[٣] بشعره حيث قال: [بسيط].

كنـا إذا رامنـا قوم بمظلمـة ... شدت لنا الكاهنات الخيل واعتَرَمُوا
نَسُوا الرُّهُـونَ وآسَـوْنا بأنفسهم ... بنو الصَّرِيح فقد عَفُّـوا وقـد كَرُمُوا[٤]

فلما قطعت اليهود حلف الأوس والخزرج بَقُوا معهم حتى حكم فيهم مالك بن العجلان أخو سالم بن عوف بن الخزرج وسُوِّدت الحيّان فبعث إلى من بالشام من قومه يخبرهم باستذلال اليهود لهم وغلبتهم عليهم، وكان رسوله الرفق بن زيد

---

(١) بلا نسبة فى وفاء الوفا ١/ ١٦٤.

(٢) الأُطْمُ مثل الأُجْمِ، يُخَفَّف ويُثَقَّل، والجمع آطام، وهى حصونٌ لأهل المدينة». الصحاح (أطم) ٥/ ١٨٦٢.

(٣) هو قيس بن الخطيم بن عَدِى بن عمرو بن مِسواد بن ظَفَر، وظَفَر هو كعب بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر، وهو ماء السَّماء بن حارثة بن الغِطْرِيف من الأزد، عدَّه ابن سلام من شعراء القرى العربية، وكنيته أبو يزيد، واسم الخطيم ثابت.
وقد قُتِل أبوه وهو صغير كما قُتِل جَدَّه قبيل ذلك، عاش قيس فى الجاهلية وأدرك الإسلام ولكنه لَم يُسْلم، وقُتِلَ قبل الهجرة، قتله الخزرج.
انظر: ديوانه ـ تحقيق ناصر الدين الأسد، والمؤتلف والمختلف ١٥٩ وطبقات فحول الشعراء ٢٢٨ وسمط اللآلى ٢/ ٧٩٧ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢/ ٥٢ وخزانة الأدب من ٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩ ومعجم الشعراء لعفيف عبد الرحمن ٢٢٨.

(٤) البيتان لقيس بن الخطيم فى وفاء الوفا ١/ ١٧٨.

ابن امرئ القيس أحد بنى سالم بن عوف وكان قبيحا ذميمًا شاعرًا بليغًا فقال فى خروجه إلى الشام: [من الكامل]

أقسمت لم أطعم للمروق قطرة حتى يكش للجـــار رحيلُ

حتى أنها فى معشر مـالى لهم حل ومـــالهم لنا مبذولُ

أرض بها تدعى قبائل سالم ويجيب فيها مـالك وسلولُ

قوم أولو عزٍّ غريـب عزهم إنّ الغريبَ وإنْ أجيرَ ذَلولُ[1]

ومضى الرفق حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسان يقال له: أبو جَبيلَة[2] أحد بنى جُشَم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام، فعجب من شعره وبلاغته مع قُبحه ودَمَامَتِه وقال «عَسَلٌ طيِّب فى وعاءٍ خبيث»[3].

فقال الرفق: أيها الملك إنما المرءُ بأصْغَرَيْه قلبُه ولسانه، قال صدقت فلم يرجئ أبو جبيلة نصرهم، وخرج فى جمع كثير لا يعرج على شىء، وأظهر أنه يريد اليمن، وعاهد الله عزَّ وجَلَّ: لا يرجع إلى دياره أو يخرج من يثرب يهود ويُذللهُم للأوس والخزرج.

فلما قدم يثرب لقيه الأوس والخزرج، فأعلموه أن القوم وإن عرفوا ما يريد تحصَّنوا فى آطامهم، فلم يقدر حملهم، ولكن تدعوهم للقائك، ونلطف بهم حتى يأمنوا ويطمئنوا إليك فتستمكن منهم، فتصنع لهم طعامًا، وأرسل إلى وجوههم، ورؤسائهم، فلم يبق منهم أحدًا إلا أتى إليه، وجعل الرجل منهم يأتى بخاصته وحشمه رجاء أن يحبهم الملك، وقد كان بنى لهم بناءً وجعل فيه قومًا، وأمرهم أن يقتلوا من دخل عليهم، فلما فعل ذلك عَزّت الأوسُ والخزرج وغلبت على ديارهم، وتفرَّقت الأوس والخزرج فى عالية المدينة فلم يبق من يعود إلا أقلهم، وممن أقام على الهُونِ ورضى بالصَّغَار.

قال داود بن سمكين الأنصارى: كانت يثرب فى الجاهلية تدعى: (غَلَبَت) غَلَبت اليهود عليها العماليق، وغَلَبَت الأوس والخزرج عليها اليهود، وغلب

(١) الأبيات للرفق بن زيد بن امرئ القيس فى المقدمة لابن خلدون ٢/ ٢٨٩.

(٢) المقدمة ٢/ ٢٨٩.

(٣) وفاء الوفا ١/ ١٧٩.

المهاجرون عليها الأوس والخزرج، وغلبت الأعاجم عليها المهاجرون وكانت الآطام حصون المدينةوزينتها.

روى أن النبى ﷺ نهى الأنصار أن يهدموها.

وذكر أن فى المدينة فى حِمى أُمّ خالد: قبرٌ عليه مكتوب أنا أسودُ بن سواده، رسول رسول الله عيسى ابن مريم إلى أهل هذه القرية.

وذكر عثمان بن عبد الله أنه وجد قبرًا فى الحِمَى عليه مكتوبٌ فقرأه رجل من أهل اليمن، فإذا فيه: أنا عبد الله رَسُول رَسُولِ الله سليمان بن داود إلى أهل يثرب.

* * *

ذكر العقيق

قال هشام بن عروة: العقيق: من قصر المرَّاجِل فصاعدًا إلى النَّقِيع، وما سفل من ذلك فهو زغابة[1].

وقال غيره: العقيق: من العرصة إلى النَّقيع، والعرصة ما بين محجة بَيْن إلى مَحَجَّة الشام[2].

وذكر أن تُبَّعًا مَرَّ بهذا الموضع لَمَّا قَدِم المدينة، فقال هذا عقيق الأرض فَسُمِّى العقيق[3].

وروى عن عامر بن سعد بن أبى وقاص قال: ركب رسول الله ﷺ يومًا إلى العقيق ثم رجع فقال «يا عائشه جئنا من هذا العقيق فما أَلْيَنَ مَوْطئَه، وأعذب ماءه، قالت يا رسول الله أفلا ننتقل إليه؟ قال: وكيف ذلك وقد ابْتَنَى الناسُ»[4].

---

(١) وفاء الوفا ٣/ ١٠٣٩.

(٢) وفاء الوفا ٣/ ١٠٣٩.

(٣) وفاء الوفا ٣/ ١٠٤٢.

(٤) الحديث ذكره السمهودى فى وفاء الوفا ١٠٣٨/٣. وانظر تفصيلا: الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة رقم ٣٥٣ صـ٦٢٨.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «أَحْصِبُوا هذا المسجد ـ يعنى مسجد رسول الله ـ ﷺ من هذا الوادى المبارك»[١] يعنى العقيق وفى الطريق من المدينة إلى بيت المقدس، قصر مُعَاذ، وهو خالٍ وفيه حمام وعين عذبة.

يذكر أن سليمان بن عبد الملك بناه، ومنه إلى مؤتة التى قُبِرَ فيها جعفر بن أبى طالب وعليه مسجدكبير، وبقربه قبر عبد الله بن رَوَاحةَ، وعليه محاريب مبنية للصلاة، وبقربه قبر زَيْد بن حارثة.

وهذه القرية قريبة من جبل الشورى، وبين جبل الشورى وأيلة مرحلة وهذه الجبال فصل ما بين أرض الحجاز وأرض الشام، وهى جبال منيفة وفيها قرى عامرة كثيرة، ووعارٌ غزيرة على الجادّة.

* * *

الطريق من مدينة النبى عليه السلام إلى مصر

على الجادة، من المدينة إلى ذى خشب، إلى السويداء[٢]، إلى المروة[٣] إلى سقى يزيد، إلى بدا يعقوب، إلى ضباء، إلى الثبك والصَّلى، إلى عَيْنُونه، إلى مَدْيَن، إلى أشراف البَعْلِ، إلى وادى الغراب، إلى حَقْل، إلى المدينة أنملَة، إلى بطن نجد، إلى قبر أبى حِمير وهو القباب إلى القلزم، إلى جُبِّ عَمِيرة[٤]، إلى مصر[٥].

---

(١) وفاء الوفا ٣/١٠٣٨.

(٢) السُّويداء: موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام. مراصد الاطلاع ٢/٧٥٨.

(٣) المسالك والممالك للأصطخرى ٢٨.

(٤) جُبّ عَمِيرة: قريب من القاهرة يبرز إليه الحاج والعساكر. مراصد الاطلاع ١/ ٣١٠.

(٥) فى نزهة المشتاق ١/ ٣٤٥ـ٣٤٦، الطريق من مصر إلى المدينة: تخرج من مصر إلى الجُبِّ، إلى البويب، ثم إلى منزل ابن صدقة، ثم إلى عجرود، ثم إلى الدوينة ثم إلى الكرسى، ثم إلى الحفر، ثم إلى منزل، ثم إلى أَيْلَة، ثم إلى حَقْل، ثم إلى مَدْيَن ثم إلى الأعراء، ثم إلى منزل، ثم إلى القلاية، ثم إلى شعب، ثم إلى البيضاء ثم إلى وادى القرى، ثم إلى الرحبية، ثم إلى ذى المروة، ثم إلى مرّ، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذى خشب، ثم إلى المدينة يثرب.
وطريق آخر من مصر إلى المدينة على ساحل البحر القلزمى: من مصر إلى عين شمس، إلى=

وضباء: مرسى للسفن وفيه آبار عذبة[١]، وشجر المقل فيه كثير وبين ضباء ومدْين جبَالَ شامخة متكاثرة، وبقرب مَدْيَن البئر التى استسقى منها موسى عليه السلام قد بنى عليها بيت من صخر فيه قناديل معلّقة، وبها كهف يسمى كهف شعيب[٢]، وهو الذى كان يُؤْوى إليه غنمه فيما ذكروا.

وفى الجبل الذى بين ضباء وهور الكهف بيوت منقورة فى صخر، قد حفر فى البيوت قبور، وفى تلك القبور عظامٌ نخرة كأمثال عظام الإبل كبرًا مقدار كل بيت عشرون ذراعًا ونحوها ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها[٣] حتى يضع يده على أنفه أو يمسك بأنفه من شدة النَّتْنِ.

يقال: أنه لما أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة دخلوا فيها فَهَلَكُوا وبقرب هذه البيوت وما يليها تلال تراب عظيمة، قيل: إنها كانت مواضع عامرة فخسف بها[٤].

ومع يهود مَدْيَن كتاب يزعمون أنَّ النبى ﷺ كتبه لهم وهم يظهرونه للناس حتى الآن، وهو فى قطعة من أديم قد اسودَّت لطول الزمان إلاَّ أن خطها بَيِّن وفى آخرها، وكتب على بن أبى طالب غيره، وقيل إنه بخط معاوية بن أبى سفيان.

وتستمر من مدين فى جبال شاهقة حتى تفضى إلى جبل شامخ فى يمين الطريق فيه كوة وهى نُدْرَةٌ فى الصحراء لا يصلُ إليها واصلٌ، ولا يرقى راقٍ، ويزعم أعراب تلك الناحية أنه كان بيتًا لساحرةٍ كانت تأوى إليه.

فلا تزال تسير، والجبال عن يمينك، والبحر عن يسارك حتى تفضى إلى فرجة كالباب تسير إلى أيلة[٥]، وهى قرية كبيرة فيها أسواق ومساجد وكثير من الحصون.

= قرية المطرية، ثم إلى بركة الجبّ، وهو غدير يفرغ فيه خليج القاهرة إلى جبّ عجرود، ثم إلى جُبّ العجوز إلى القلزم، ثم إلى بطن مغيرة، ثم إلى بطن مغيرة، وهو مرسى عليه بركة ماء، ثم إلى جون فاران، ثم إلى مزيد، ثم إلى تيران، وهو مكان خبيث تعطب فيه المراكب عند الهول.. ثم إلى جبيلات، ثم إلى جبل الطور، ثم إلى الأيْلة، إلى الحقل، إلى مَدْين، إلى الحوراء، إلى الجار، إلى قديد، إلى عسفان إلى بطن مرّ، إلى مكة».

(١) فى الروض المعطار «آبار عنبة متكائدة».

(٢) الروض المعطار ٥٢٦.

(٣) فى الروض المعطار ٣٣٣ «لا يدخل الداخل فيها حتى يضع يده على فمه».

(٤) الروض المعطار ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٥) أَيْلَة: فى طريق مكة، حاطها الله، من مصر، وهى أوّل حَدّ الحجاز، وهى مدينة جليلة القدر =

وروى أبو حميد الساعدى فى خبر غزوة تبوك أن صاحب أيلة[1] أهدى للنبى ﷺ بغله بيضاء وكساءً وبردًا، وكتب لهم بأمانهم، ثم تسير من أيلة فتلقى العقبة التى لا يصعد فيها راكب لصعوبتها، ولا يقطع إلا فى طول اليوم لطولها، ثم مرحلتين فى فحص التِّيه[2]، الذى تاه فيه بنو إسرائيل حتى توافى ساحل البحر مواضع يقال له بحر فاران هو الذى غرق فيه فرعون ومن هنا إلى القلزم مرحلة، وإنما نسب هذا البحر إلى فاران وهى مدينة من مدائن العماليق[3] على تلٍّ بين جبلين، وفيه ثقوب كثيرة لا تحصى، مملوءة أمواتا، وفى سفح أحدهما بيعة للنصارى وحِصْنٌ عليه سورة من حجارة وشُرُفات وأبواب من حديد، داخله عَيْنُ ماءٍ عذبٍ، وعلى العين دائرةٌ من نحاس[4] لِئَلاَّ يسقط فيه أحدٌ، وقد أجرى ماؤها فىً قنى رَصَّاص إلى حولها من الكُرُوم والأشجار.

ويقال إن على هذه العين شجر العُلّيق الذى آنس موسى عنده النار.

وعلى خطوات من هذا البئر أوّل العقبة التى يصعد منها إلى رأس طور سيناء وهى ستة آلاف وستمائة وستون مرقاة، قد نُحِتَتْ درجات فى الصخر، فإذا قطعت تلك المراقى، سِرْتَ إلى مُسْتَوٍ من الأرض فيه أشجار وماءً عذب وهناك كنيسة على اسم إيلياء النبى ﷺ.

وهناك مغارة يزعمون أن إيليا استخفى فيها من أذقيل الملك، ثم تسير فى الارتقاء حتى تنتهى إلى قبة الجبل.

وهناك كنيسة متقنة البناء تُنْسَبُ إلى موسى عليه السلام بأساطين رخام وحيطانها مزخرفة بالفسيفساء، وأبوابها ملبسة بالصّفر وسقفها من خشب الصنوبر، وأعلاها أطباق رصاص قد أحكمت غاية الإحكام، وليس فيها إلا سَادِنٌ واحد يَقُمُّها،

= على ساحل البحر المالح، بها يجتمع حاجّ مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، وسُمِّيت بأَيْلَةَ بنت مَدْيَن قالوا: وهى القرية التى كانت حاضرة البحر المذكورة فى القرآن. الروض المعطار ٧٠ ونزهة المشتاق ١/ ٣٥.

(١) وهو يوحنا بن رؤبة. انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥ والروض المعطار ٧٠.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ٣٤٧.

(٣) الروض المعطار ٤٣٣.

(٤) فى الروض المعطار ٣٩٨ «درا بزين».

ويقيم بها ويخدمها[١] ويسرج قناديلها، وقد اتخذ هذا الراهب لنفسه بيتًا صغيرًا خارجًا عن الكنيسة يأوى إليه، وينام فيه ولا يمكن أحد أن ينام فى الكنيسة التى بُنيت بالمكان الذى كلَّم الله عزَّ وجَلَّ فيه موسى تكليمًا، ويزعمون أنه كان فى السالف حول دير الغور هذا، وحول دير رومة ستة عشر ألف قُلاَّية للرهبان المتعبدين، وليس بهذه القُلاَّيات أحدٌ إلا سبعين راهبًا[٢].

وعلى مقربة من القلزم جزيرة فى البحر المالح يقال لها: البُعُوق فيها قبر مالك ابن الحارث النخعى الأشتر.

وللقلزم جسر على البحر المالح علق يسلك عليه الحاجّ فى البر إلى مكة وذكر سيف بن عمر قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار يستميرهم ويستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام، فَولاَّه قسمتها.

وجاءَهُ كتاب عمرو بن العاص من مصر جوابَ كتابه: أن البحر الشامى حفر لبعث رسول الله ﷺ حفرًا يصبُّ فى بحر العرب فيربط الروم والقبط، فإن أردت أن يكون سِعرُ الطعام بالمدينة كسِعْرِه بمصر حفرتُ لهم نهرًا وبنيت لهم قناطر، فكتب إليه عمر: أن افعل ذلَكَ وعجّل فقال له أهل مصر بدأ خراجك وافرًا وأميرُك راضٍ، وإن أتم هذا انكسر الخراج، فكتب بذلك عمرو إلى عمر، فجاوبه أن افعل ذلكَ وعجِّل لخراب خراج مصر[٣] إلى عُمْرَان المدينة وصلاحُها صَلاحٌ.

فعاجله عمرو وهو القلزم، فكان سعر المدينة كسعرهم، ولم يزد بذلك مصر إلا صلاحًا.

والتّيه[٤] مقدار أربعين فرسخا، وقيل إنه تسع فراسخ فى مثلها وأوَّل حَدِّه ما

---

(١) فى الروض المعطار ٣٩٨ « ويجمرّها».

(٢) إلى هنا ينتهى النقل فى الروض المعطار ٣٩٨ عن المسالك.

(٣) فتوح مصر ١٩١-١٩٢.

(٤) التِّيه: هو الموضع الذى ضَلَّ فيه موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل، بين أَيْلَة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة، أربعون فرسخًا فى أربعين فرسخًا، لما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة، حبسهم الله تعالى فى هذا التِّيه أربعين سنة، لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيت، ولا بدَّلوا ثوبًا، كانوا يسيرون فى طول نهارهم فإذا انتهى النهار نزلوا بالموضع الذى رحلوا عنه. =

بين قبر أبي خير وبطن نجد، وفيه مات موسى وهارون عليهما السلام.

وبطن نجد: قرية ليس فيها نخل ولا شجرة يسكنها نفر من الناس.

ويقال له أيضًا بطن نخل السوافي تسفى على الناس فيه ترابًا رقيقًا كأنما نُخل بِمُنْخُلٍ.

* * *

كَمُلَ بحمد الله، وعَوْنه، ولُطْفه، ومَنِّه،

وجُودِه، وفَضْلِه، وتوفيقه، وحوله، وقوته، وكرمه، وحسن توفيقه

ذلك يوم السبت المبارك الحادى والعشرين من شهر شعبان المكرم

من شهور سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. أحسن الله عاقبتها

بحمد وآله وصحبه وسلم، وصلاة الله وسلامه

الأتمان الأكملان على سيدنا محمد

* * *

وكتبه فى غرة رمضان ١٤٢١هـ

راجى عَفو ربه

جمال طلبة

بالمدينة المنورة

* * *

= وطول فحص التّيه فى قول نحو من ستة أيام، وفى فحص التِّيه مات موسى وهارون عليها السلام. آثار البلاد ١٧٤ والروض المعطار ١٤٧.

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحة





المسالك والممالك

تأليف

أبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري

المتوفى ٤٨٧ هـ

حققه ووضع فهارسه

الدكتور جمال طلبة

الجزء الثاني

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3948-7



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر بلاد العراق والمشهور من مدنها

حده ما بين الخزر إلى السواد[١]، فسواد الكوفة: كَسْكَر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية، وسوادُ البصرة: الأهواز وفارس ودهشنان، وهذه كلها من العراق.

وإنما سُمِّى العراقُ مأخوذ من عَرَاقى[٢] الدلو وعراق القربة، والكوفة والبصرة تسمى بالعراقين.

فطول أرض السواد من حد أرض أَثُور[٣] - وهى الموصل - من قرية تسمّى العَلْث[٤] من طسُّوج بُزُرْجَسَابُور، وقرية تعرف بجَرْبَا[٥] من طسُّوج مَسْكن بينهما عرض دجلة إلى آخر الكورة، وهو الموضع المعروف بَبهْمَن أَرْدَشير[٦]، وهى من فرات البصرة حتى تبلغ جزيرة منها متصلةً بالبحر تعرف بَميَان رُوذان، يكون ذلك بالفراسخ مائة وخمسة وعشرين فرسخًا.

وعرضُه من عقبة حُلْوان إلى العُذَيب مما يلى البادية، وذلك بالفراسخ ثمانون فرسخًا.

---

(١) السَّواد: قلب العراق، اثنتا عشرة كورة، كل كورة إستان وطساسيجه ستون طسَّوجًا.
الإستان: إحازة، والطسوج: ناحية.
المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٨ والأعلاق النفيسة ١٠٧.

(٢) انظر: الروض المعطار ٤١٠.

(٣) معجم البلدان (أثور) ١ / ٨٢-٨٣.

(٤) العَلْث: قرية على دجلة بين عُكبرا وسامراء. وذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية: أن العَلْث: قرية موقوفة على العلويين، وهى فى أوَّل العراق فى شرقى دجلة. معجم البلدان (العَلْث) ٣ / ٣٤٩.

(٥) جَرْبا: مقصور، والعامة تلفظ به مُمَالاً، بُلَيدةٌ فى أقصى رُجَيل بين بغداد وتكريت، مقابل الحظيرة، تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتُحمل إلى سائر البلاد. معجم البلدان ٢ / ١٣٢.

(٦) بَهْمَن أردشير: كورة واسعة بين واسط والبصرة، منها ميسان والمَذَار، وتسمى فرات البصرة، والبصرة منها تُعَدُّ. قال حمزة الأصبهانى: بَهْمَنشير: تعريب بَهْمَن أردشير، وكانت مدينة مبنية على عِبْر دجلة العوراء فى شرقيها تجاه الأبلة خرِبت، ودرس أثرُها وبقى اسمُها. معجم البلدان (بهمن أردشير) ١ / ٤٠٦.

وقال أبو عبيدة: إنَّ حَدَّ السواد الذى مسح عثمان بن حُنَيْف[١] وهو من لدن تخوم الموصل مادًا إلى ساحل البحر من بلاد عبادان من شرقى دجلة طولاً، وعرضه من منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية مما يلى العُذَيب من أرض العرب.

وعن الشَّعْبى أَنَّ عمر بن الخطاب بعث عثمان بن حُنَيف، فمسح السواد فوجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب[٢]، يعنى موضعَ الغلّة منه[٣].

وأما على تكسير الذرع الذى ذكرناه من الطول والعرض فإنه مائتا ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف جريب، يوضعُ منها بالتخمين آكام وآجام وسباخ وطرق وصحارٍ وأنهار، ومواضع المدن والقرى الثلث، ويبقى بعد ذلك مائة ألف ألف وخمسة وسبعون ألف ألف جريب، يزاح منها النصف لما فيها من النخيل والكرم والشجر، ويعمَّر النصف وذلك خمسة وسبعون ألف ألف جريب، فيكون قيمة ما يلزم كل جريب من الخراج على التخمين درهمين، وذلك أقل من العشر على أن يضرب ما يوجد فيها من الخراج بعضه ببعض مع خراج أهل الذّمة، ويبلغ ذلك ورقًا مائتى ألف ألف وخمسين ألف ألف درهم.

واختلف فيما وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه على كل جريب، فقيل: وضع عليه درهما واحدًا وقفيزًا، وقيل: إنه وضع على جريب الحنطة نصف

(١) عثمان بن حُنيف: بالمهملة والنون مصغّر ـ الأنصارى، شهد بدرًا، وقال الجمهور أول مشاهده أُحُد.

وروى ابن أبى شَيْبَة من طريق قتادة عن أبى مجلز قال: بعث عمرُ عثمان بن حُنيف على مساحة الأرض، يعنى بعد أن فُتحت الكوفة.

وفى البخارى: أن عمر قال له ولعمارة: أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيقه.

روى عنه ابن أخيه أبو أسامة بن سهل وطائفة، ومات فى خلافة معاوية.

ترجمته فى: الإصابة ٢/ ٤٥٩ ورقمها ٥٤٣٥.

(٢) الجَرِيب: المزرعة، ومكيال قدر أربعة أقفزة، وجمعه أَجْرِبَةٌ وجُرْبان. المعجم الوسيط (جرب) ١/ ١١٤.

وقدَّره محمد ضياء الدين الريِّس فى كتابه «الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية» ص ٣٠٠ بـ: ١٣٦٦ مترًا مربعًا.

(٣) انظر: الخراج لقدامة بن جعفر ٢٢١، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ٢٧.

قفيز، وعلى جريب الشعير أربعة أقفزة، وعلى جريب الكرم والتمر أربعة.

وختم على خمسمائة ألف إنسان للجزية على الطبقات، فجبى عمر السواد من الورق مائة ألف ألف درهم.

وجباه عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف درهم، وجباه الحجاج لظلمه وعسفه ثمانية عشر ألف ألف ليس فيها مائة ألف ألف، (وأسفلهم ألفى) ألف، فحصل له ستة عشر ألف ألف[1].

ومنع أهل السواد من ذبح البقر ليكثر الحرث والزرع، فقال الشاعر فى ذلك: [من متقارب]

شكونا إليه خراجَ السواد فحرَّم فينا لحوم البقر

وكان كما قال من قبلنا أُريها الشمس وترينى القمر[2]

قال عمرو بن بحر: قال أبو الحسن وأبو عبيدة: بُصِّرت البصرة سنة أربع عشرة، وكذلك قال غيره، وكُوِّفت الكوفة[3] سنة سبع عشرة.

والطسوج ترجمته الأقاليم، والإستاق ترجمته الأحواز، والسَّواد الاثنتا عشرة كورة.

قالوا: وارتحل سعد من المدائن بالناس حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة سبع عشرة، وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران.

وقيل إن عمر كتب إلى سعد: نَبِّئنى ما الذى غير ألوانَ العرب ولحومَهم؟

فكتب إليه: إنَّ العرب غيَّر ألوانها وُخومَة المدائن ودجلة.

فكتب إليه أنّ العرب لا يوافقها إلا ما يوافق إبلها من البلاد، فابعث سلمان وحذيفة ـ وكانا رائدى الجيش ـ فليرتادا منزلاً بريًّا بحريًا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر[4].

(1) الخراج لقدامة ٢٢١ وفتوح البلدان ٣٧٥.

(2) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٢٨ وفيه (فحرَّم جهلاً) مكان (فحرَّم فينا).

(3) فتوح البلدان ٣٨٧.

(4) انظر: فتوح البلدان ٣٨٨.

فبعث سعدٌ حذيفةَ وسلمان حتى أتيا الأنبار، فسار سلمان[١] فى غربى الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة[٢] فى شرقيه حتى أتى الكوفة.

فأتيا عليها وفيها ديارات ثلاث: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة وقصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة فنزلا وصليا وقال كل واحد منهما: اللهم رب السموات وما أظلّت، ورب الأرضين وما أقلّت ورب الرياح وما أذرت، ورب النجوم وما هوت، والبحار وما جرت، بارك لنا فى هذه الكوفة واجعلها منزل ثبات، ثم رجعا إلى سعد ـ رضى الله عنه ـ بالخبر.

واستقر أيضا بأهل البصرة منزلهم اليوم بعد ثلاث ترحيلات فى المحرَّم سنة سبع عشرة.

* * *

(١) سَلْمَان الفارسىّ: صحابى من مقدميهم كان يُسَمِّى نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان، قرأ كتب الفرس والروم واليهود وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه وباعوه فاشتراه رجلٌ من قريظة فجاء به إلى المدينة، وعلم سلمان بخبر الإسلام، فقصد النبىَّ ﷺ بقباء وسمع كلامه ولازمه أيامًا، وأبى أن يتحرَّر بالإسلام، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه، فأظهر إسلامه، وكان قوى الجسم، صحيح الرأى، عالمًا بالشرائع وغيرها، وهو الذى دَلَّ المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب، حتى اختلف عليه المهاجرون والأنصار، كلاهما يقول: سلمان منَّا، فقال رسول الله ﷺ سلمان منَّا أهل البيت، وجُعل أميرًا على المدائن، فأقام فيها إلى أن تُوفى.
وكان إذا خرج عطاؤه تصدَّق به، ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده، له فى كتب الحديث ستون حديثًا.
الأعلام ٣/ ١١٢ وانظر: طبقات ابن سعد ٤/ ٥٣ ـ٦٧ وحلية الأولياء ١/ ١٨٥ وصفة الصفوة ١/ ٢١٠ ومحاسن أصفهان ٢٣ والذريعة ١/ ٣٣٢ـ٣٣٣.

(٢) حُذَيفة بن اليمان، صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سرِّ النبىّ ﷺ فى المنافقين، لم يعلمهم أحدٌ غيره. ولمّا وُلّى عمر سأله: أفى عمالى أحد من المنافقين؟ قال: نعم، واحدٌ ولاّه عمر على المدائن بفارس، وتوفى فيها، له فى كتب الحديث مائتان وخمسة وعشرون حديثًا، توفى سنة ٣٦هـ.
الأعلام ٢/ ١٧١ والإصابة ١/ ٣١٧ وحلية الأولياء ١/ ٢٧٠ وصفة الصفوة ١/ ٢٤٩ وتهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩.

استئذان عمر ـ رضى الله عنه ـ فى البنيان

ثم إنَّ القوم استأذنوا عمرَ ـ رضى الله عنه ـ فى بنيان القصب فقال: العسكر أجدُّ لحربكم وأذكى لكم، وما أُحِبُّ أن أخالفكم. وما القصب؟ قالوا: العنقر إذا روى أخصب فصار قصبًا.

قال: فشأنكم، فابتنى أهلُ المصرين بالقصب، ثم إنَّ الحريق وقع بالكوفة والبصرة، وكان أشدهما حريقًا الكوفة، احترق فيها ثمانون عريشا ولم يبق فيها قصبة.

فبعث سعد إلى عمر منهم نفرا يستأذنونه فى البناء باللَّبِن ويخبرونه عن الحريق فأذن لهم وقال: ولا يزيدنَّ أحدُكم على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا فى البنيان وألزموا السنَّة تلزمكم الدولة.

وعهد عمر إلى الناس وتقدم إلى الوفد أن لا يرفعوا بنيانًا فوق القدر.

قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد.

فكان على تنزّل الكوفة أبو الهياج[1] بن مالك، وعلى تنزّل البصرة أبو الجرباء عاصم بن الدلف[2].

وكتب عمر أن يكون الطريق أربعين ذراعًا وما بين ذلك عشرين، والأزقَّة سبع أذرع وليس دون ذلك شىء، والقطائع ستين ذراعًا.

فاجتمع أهل الرأى فى التقدير، حتى إذا أجمعوا على شىء قسم أبو الهياج عليه. فأول شىء خطّه بالكوفة المسجد، فوضع فى موضع التّمارين من السوق.

ثم قام رجل فى وسطه رامٍ شديد النزع، فرمى عن يمينه وعن يساره وبين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبنى وراء موقع السهام، وترك المسجد فى مربّعة غلوتين فى غلوتين، وبنى فى مقدمته ظلّة من مائتى ذراع على أساطين من رخام،

(١) هو أبو الهياج الأسدى عمرو بن مالك بن جنادة فتوح البلدان ٣٨٨.
(٢) فتوح البلدان ٣٨٨.

وكانت للأكاسرة أسماؤها كأسمية الكنائس الرومية.

قال أبو عبيدة: لما بلغ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنَّ سعدًا وأصحابه قد بنوا بالمدَرِ، قال: قد كنت أكره لكم ذلك، فأمّا إذ فعلتم فعرّضوا الحيطان، وأطيلوا السمك وقاربوا الخشب.

وقصر سنداد بظهر الكوفة وهو الذى ذكره الأسود بن يعفر[١].

قال اليعقوبى: أهل الكوفة على قِلة أموالهم أَهْلُ تَحَمُّلٍ وتستُّرٍ وكفافٍ وعفافٍ، ليس فى أهل البلدان أشدّ عفافًا منهم، ولا أشدّ تحملا.

وهى طَيِّبةُ الهواء عذبةُ المياه، وهى دار العرب ومادّة الإسلام، وهى معدنُ العلم، وفقهاؤُها الفقهاءُ الذين عليهم المُعْتَمَد، وهم أهل العلم بالعربية وفصيح اللغة؛ لأنَّ أهلها عرب كلُّهم لم يخالطهم الأنباط ولا الفرس ولا الخزر ولا السند ولا الهند، ولا تناكحوا فيهم[٢].

ومن رواتهم ساروا إلى أهل البصرة وغيرها؛ لأن أهل الحيرة كانوا أَوَّل من دون الشعر وكتبه فى أيام آل المنذر اللَّخْميِّين ملوكها، وكانت شعراء الجاهلية تَفِدُ عليهم مثل الأعشى والنابغة وعَبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلّزة والمتلمس وطرفة وغيرهم.

---

(١) الأسود بن يَعْفُر، وقيل يُعْفُر بضم الياء، ابن عبد القيس بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم النهشلى، أعشى بنى نَهْشَل، جمع شعره جايار مع ديوان الأعشين. وكان سيِّدًا جوادًا، له أخبار فى الجود.

ترجمته فى: شعراء النصرانية ٤٧٥ـ٤٨٥ ومنتهى الطلب ١/ ٨١ والمؤتلف والمختلف ١٨ والشعر والشعراء ١/ ١٧٦.

* وقال فى قصر سنداد:

ماذا أُؤَمِّلُ بعدَ آل محرِّق ... تركوا مَنَازلهم وبَعْدَ إيادِ

أَهْلَ الخَوَرْنَقِ والسدير وبارق ... والقصر ذى الشرفات من سندادِ

وانظر أيضا: معجم ما استعجم (أنقرة) ١/ ١٨٨ (بتحقيقنا) والمفضليات ١/ ١٧ وكتاب الاختيارين للأخفش ٥٦٢ وصفة جزيرة العرب ١٧١ وديوانه ٢٩٦ والحماسة البصرية ٢/ ٤١٢ والروض المعطار ١٢١ ومعجم البلدان (أنقرة) ١/ ٣٢٣ والأغانى ١٣/ ٢٠ والعين ١/ ٢٠٧ ومنتهى الطلب ١/ ٨١ والمعجم الكبير ـ حرف الهمزة ١/ ٥٦٤.

(٢) مختصر البلدان ١٥٤ ـ ١٥٧.

وكان آل المنذر يأمرون كتابهم من أهل الحيرة أن يكتبوا أشعارهم، فأخذها الناس عنهم.

وَخُصَّت الكوفة بصنعة الَوشْيِ الرفيع الذى يبلغ ثمنه ما لا يبلغُه ثوبٌ من ثياب الدنيا؛ لجودةِ صنعته، والدقة والإتقان، وصحة تأليف عيونه.

وربما بلغ الثوبَ منه عشرةَ آلاف دينار، ولا يكون فيه ذهب ولا حجارة فأما ما يُبَاعُ بألف دينار فمن لبسِ العوام.

وخُصَّت بالأَدْهانِ الجيدة مالم يخصّ به بلدٌ لا سيما دهن البنفسج، ودهن الخيرى، ودهن البانَ الخالص الذى يقال له دهن الغالية، وهو الدهن الذى لا أفاويه فيه.

* * *

الأنبار

بينها وبين مدينة السلام اثنا عشر فرسخًا، وسميت ذات العيون(1).

* * *

واسط(2)

سميت واسط بموضعٍ بقرب منها كان يقال له واسط القصب، فلما بُنيت سُمِّيت به، وقيل: لتوسطِها بين المِصرين: البصرة والكوفة؛ لأن منها إلى الكوفة والبصرة خمسين فرسخًا.

---

(1) الأنبار سُمِّيت بهذا الاسم تشبيها لها ببيت التاجر الذى ينضد فيه متاعه، وقيل الأنبار بالفارسية الأهراء، لأن أهراء الملك كانت فيها ومنها كان يرزق رجاله، وفيها بويع بالخلافة لأبى جعفر المنصور، يوم مات السفاح أخوه. انظر الروض المعطار ٣٦ وفتوح البلدان ٢٤٦.

(2) سأل الحجاجُ ابنَ القِرِّيَّة فى وصف واسط: أخبرنى عن واسط؟ قال: جَنَّة بين حَمَاة وكَنَّة تحسدانها، ودجلة والفرات يتباريان عليها. مختصر كتاب البلدان ص٩٠.

وقيل إنَّ الحجاج رأى راهبًا قد أقبل على أتان له وعبر دجلة، فلما كان بموضع واسط تفاجّت الأتان وبالت، فنزل الراهب فاحتفر موضع ذلك البول وحمله حتى رماه فى دجلة، وذلك بعين الحجّاج، فقال: عَلَيَّ بالراهب، فلما أتاه قال: ما حملَك على ما صَنَعْتَ؟ قال: إنَّا نجد فى كتبنا أنه يُبْنَى فى هذا الموضع مسجدٌ يُعْبَدُ اللهُ فيه ما دام فى الأرض أحد، فاختطَّ الحجَّاجُ مدينة واسط، وبنى المسجد فى ذلك الموضع، فهى على حافتى الدجلة.

وخراج واسط ثلاثة وثلاثون ألف درهم.

ومن الكوفة إلى بغداد ثلاثون فرسخا، ومن الأنبار إلى بغداد ثلاثون فرسخا، ومن المدائن إلى بغداد ثمانية عشر فرسخًا.

* * *

المدائن

والمدائن مدينة عظيمة على حافتى دجلة: بَهُرَسير[1]، وهى المدينة الدنيا، وهى على أحد جانبيها مما يلى الشرق، وقصر كسرى وهو الإيوان، وهى المدينة القصوى، وهو القصر الأبيض الذى أخبَر به النبى ﷺ وبه كان مقام الأكاسرة.

وتلقاء مقعد الملك من سقف الإيوان حلقة من ذهب كان يعلق التاج فيها بسلسلة من ذهب، وحِذَاء الإيوان شجر السدر، ومن الجانب الآخر بيت النار.

* * *

(١) بَهُرَسير: من نواحى سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بَهُرَسير الرُّومَغان وقال حمزة: بُهْرَسير: إحدى المدائن السَّبع التى سُمِّيت بها المدائن، وهى مُعَرَّبة من دِه أرشير. وقال فى موضع آخر: معربَّة من بِه أردشير كأنَّ معناه خير مدينة أردشير، وهى فى غربى دجلة.
وقد خُرِّبت مدائن كسرى، ولم يبق ما فيه عمارة غيرها، وهى تجاه الإيوان لأن الإيوان فى شرقى دجلة، وهى فى غربيه، والشعر فى ذكرها كثير. معجم البلدان (بهرسير) ١/ ٤٠٥.

الأهواز[1]

فأما الأهواز فإن من أقام بها حولا ثم تفقَّد عقله فإنه يجد فيه نُقْصَانًا بيِّنًا.

والأهواز تقلّب كل من ينزلها من الأشراف إلى طبائع أهلها، ولا يُوجد بها أحدٌ له وجنة حمراء، والحُمَّى بها دائمةٌ.

وكان صاحب الأهواز الهرمزان، وفتحها وما يليها حرقوص بن زهير السعدى[2] وكانت له صحبة بعث به عتبة بن غزوان من البصرة بأمر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

* * *

ذكر البصرة

واختطت البصرة فى موضعها اليوم على اختلاف الناس فى وقت ذلك كما تقدم فى ذكر الكوفة، فبنوا بالقصب ومكثوا كذلك يسيرًا حتى أذن لهم عمر فى البناء باللَّبِن.

وأول ما بنى بالبصرة سبع دساكر منها الخريبة اثنتان، والزابوقة واحدة، وفى بنى سليم اثنتان، وفى الأزد اثنتان، وبُنى مسجدها بالقصب، ثم بناه ابن عمر باللّبن لعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ثم بناه زياد بالآجرّ لمعاوية ـ رضى الله

---

(١) انظر: الروض المعطار ٦٢.

(٢) حُرْقوص بن زهير السعدى، الملقب بذى الخويصرة: صحابىٌّ من بنى تميم. خاصم الزبير فأمر النبىُّ ﷺ باستيفاء حقِّه منه وأمره عمر بن الخطاب بقتال «الهرمزان» فاستولى على سوق الأهواز ونزل بها. ثم شهد صفّين مع علِىّ، وبعد الحكَمين صار من أشدِّ الخوارج على علِىّ، فقتل فيمن قُتِل بالنهروان سنة ٣٧هـ. وفى سيرته اضطراب.

وإياه عنَى أحد شعراء الخوارج، بقوله من أبيات رواها المبرد:

وأسأل الله بَيْعَ النفس مُحْتَسِبًا ... حتى أُلاَقى فى الفردوسِ حُرْقوصا

الأعلام ٢/ ١٧٣ والاستيعاب ١/ ٣٢٠ والكامل للمبرد ٥٩٥.

عنه ـ وبنى جنبتيه وأتمه عبد الله بن زياد[١].

ويذكر أن المسجد الحرام أكبر من مسجد البصرة ببضع عشرة ذراعًا.

وكُسِّرت البصرة أيام خالد بن عبد الله القسرى[٢]، فوجد طولها فرسخين فى مثلها، والكوفة مثل ثلثى البصرة.

وأوّل مولود ولد فيها عبد الرحمن بن أبى بكرة[٣]، فنحر يومئذ جزورا، فأطعم أهلها وكانوا نحو ثلاثمائة.

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم ولا يشاركهم فيها وهى: النخل والشاء والحمام الهدّى.

فأما النخل فهم أعلم قوم به وأحذقهم بتربيته وإصلاحه، وإصلاح عللها وأدوائها وأعرفهم بأحوالها من حين تغرس إلى أن تكمل وتستوى، وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وجزره وخزنه وهى تجاراتهم العظمى وغلتهم الكبرى.

وفى البصرة من أنواع النخل ما ليس فى بلد من بلاد الدنيا.

وأما الشاء: فإنها عندهم: العبديّة المنسوبة إلى عبد القيس.

وذكروا أن رجلاً من وفد عبد القيس يقال له عبادة بن عمرو الشنى قال للنبى ﷺ عند وفادتهم عليه ودعائه لهم: يا رسول الله إنّى رجلٌ أحبُّ الشاء، فدفع إليه رسول الله ﷺ فحلا فعيلاً جليلاً من المعز وقبض بيده على أصل أذن ذلك الفحل حتى استدارت أصابعه فصار فى أذنه كالسِّمة[٤]، فقدم به عبادة بلاده،

(١) الروض المعطار ١٠٦.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى، من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يمانى الأصل، من أهل دمشق، ولى مكة سنة ٨٩هـ، للوليد بن عبد الملك، ثم ولاّه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ، فأقام بالكوفة. وطالت مدّته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسف وعذّبه بالحيرة، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرْمَى بالزندقة، وللفرزدق هجاء فيه. الأعلام ٢/ ٢٩٧ والأغانى ١٩/ ٥٣ـ٦٤ وتاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٥.

(٣) عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى: من أعيان التابعين، استخلفه زياد (أمير البصرة) على بعض أعمالها، وتوفى فيها سنة ٩٦ هـ الأعلام ٣/ ٣٠٢ والإصابة ـ الترجمة ٦٦٧٢ ومختصر كتاب البلدان ١٧٣.

(٤) راجع: الروض المعطار ١٠٧.

فأطرقه شياهه، فجاءت بالشاء العبديّة حملها أهل البصرة من البحرين.

فهم يذكرون أنَّ ما من شاة موصوفة كريمة منها إلا وفى أصل أذنها حلقة كالسمة، فإذا وجدوها كذلك رغبوا فيها وغالوا فيها حتى تبلغ الشاة منها خمسين دينارًا، وإذا كانت فى التَّيْسِ مثل ذلك تُنُوفِسَ فيه وبلغ عدة دنانير.

قال: وأخبرنى يحيى بن الفضيل أنه رأى تيسًا بالبصرة عظيمًا قد حملت عليه مزادة ماء، وهى التى تسميها العامة الراوية التى تحملها البغال، فبلغ بها منزل صاحبه فاشْتُرِى بأربعمائة دينار.

وللشاء عندهم أنسابٌ معروفة، ويستشهد على ذلك العدول فى الصحف فتقول: شاة بنى فلان أمها الفلانة شاة آل فلان، وأبوها تيس آل فلان وجدّتها الفلانة، ويوصف مقدار ما تحلب من اللبن بالغداة والعشى.

فأما الحمام فإن الأمر بالبصرة فيه جَلَلٌ وتجاوز الحدّ، وبلغت الحمام عندهم فى الهداة أن جاءت من أقاصى بلاد الروم، ومن مصر إلى البصرة، وتنافسوا فى اقتنائها ولهجوا به حتى بلغ ثمن الطائر منها سبعمائة دينار، وهذا ما حضرتُه ورأيته وشهدته.

وقيل إنه بلغ بالبصرة ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار، وكانت تباع البيضَةُ من الطائر المشهور بعشرين دينارًا.

وعندهم دفاتر بأنساب الحَمام كأنساب العرب!

وكان الحمام عندهم مُتَّجرًا من التجارات لا يرون بذلك بأسًا.

❊ ❊ ❊

ذكر بغداد [١]

قال أحمد: بعث المنصور رجالاً سنة خمسٍ وأربعين ومائة يطلبون له موضعًا يبنى فيه مدينة، فطلبوا فلم يرضوا له موضعًا حتى جاء فنزل على البئر الذى بالصراة، فقال: هذا موضعٌ أرضاهُ، تأتيه المِيرةُ من الفرات ودجلة والصَّرَاة[٢].

قال: ووجَّه المنصور[٣] فى حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، وكان فيمن أحضر: الحجّاج بن أرطأة[٤] وأبو حنيفة فكان أول من ابتدئ بنيانها فى سنة خمس وأربعين ومائة.

ثم قسم الأرض أربعة أقسام وقلّد القيام بكل ربع رجلا من قواده، ورجلاً من مواليه ورجلا من المهندسين.

قال أحمد بن أبى الطاهر: وحدثنى أبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن أبى سهل بن يشجب عن جده قال: لما أراد المنصور بناء بغداد أمرنى أن آخذ الطالع، فنظرنا فى طالعها فكان المشترى فى القوس، فأخبرته بما تدل عليه النجوم من طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها، ثم قلت: يا أمير المؤمنين وخلة أخرى نجدها فيها على ما تدل عليه النجوم: لا يموت فيها خليفة، فرأيته يبتسم، وقال: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولذلك قال بعض شعرائهم وقد مدح المنصور وهنَّأه حلول قصر مدينة السلام: [من الخفيف]

إنَّ خير القصور قصر السلام   إذا به حَـلَّ سَائِسُ الإسـلامِ

(١) انظر: الروض المعطار ١٠٧.

(٢) الصَّرَاةُ: نهران ببغداد، الصراة الكبرى والصراة الصغرى.
قال ياقوت: ولا أعرف أنا إلاَّ واحدة، وهو نهرٌ يأخذ من نهر عيس من عند بلدة يُقال لها المُحَوَّل بينها وبين بغداد فرسخ. معجم البلدان (الصَّراة) ٣/ ١٨٣.

(٣) الأعلاق النفيسة ١٠٨.

(٤) هو حجَّاج بن أرطأة بن ثور النخعى: قاض من أهل الكوفة كان من رواة الحديث وحفاظه، استُفتى وهو ابن ست عشرة سنة. وولى قضاء البصرة. توفى بخراسان، أو بالرى. وكان تيّاها معجبًا. الأعلام ٢/ ١٦٨.

منـزلٌ لا يزالُ من حَـلَّ فيـه ... آمنا من حـوادثِ الأيَّامِ[١]

واسمها الأول عند الناس الزَّوْرَاء، وكان سفيان[٢] يكره أن يقال مدينة السلام، وسميت مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادى السلام، فلما كان فراغ المنصور من بنائها ونقل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الأموال سنة ست وأربعين ومائة، وكان استتمامه لجميع أمر المدينة سنة تسع وأربعين[٣].

قال أحمد: قال الهيثم بن عدى عن أبى عياش: لما جلس المنصور فى قصره بباب الذهب أذن لرسل الملوك فدخلوا عليه، فقال لرسول ملك الروم: هل ترى عيبا؟ قال: نعم عيوبا ثلاثة، قال: ما هى؟ قال: النفس خضراء فلا خضرة عندك، والحياة فى الماء ولا ماء عندك، وعدوُّك مُغَالطُك ومُطلع على سرِّك، قال: أما الماء فحَسْبى منه ما بلغ الشَّفَة، وأما الخُضْرَةُ فَلِلجدّ خُلقت لا لِلَّعب، وأما السوق فما أبالى عَلِمَ سرِّى رعيَّتى أو ولدى وخاصَّتى، فأمسكَ الرُّومى عن الكلام.

ثم تعقَّب أبو جعفر الرأى، فرأى أن القول ما قال، فاتخذ العباسية وأجرى الماء فى القناة من دجلة وأخرج السوق عن المدينة.

وعن الربيع قال: لما نقل أبو جعفر السوق عن المدينة وجلس فى قصره بالخلد فنظر إلى التجار من البزَّازة والصيرفى والقصاب وطبقات السوقة تمثل بهذين البيتين: [من الوافر]

كمـا قال الحمـار لسهم رام ... لقد جُمّعت من شتَّى لأمْرِ
جَمَعْتَ حديدةً وجَمَعْتَ نَصْلاً ... ومن عقـب البعير وريش نَسْرِ[٤]

(١) البيتان بلا نسبة فى الروض المعطار ١١٠.

(٢) هو سُفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى، أبو محمد (١٠٧ـ١٩٨هـ) مُحَدِّث الحرم المكى، من الموالى، ولد بالكوفة، وسكن مكّة، وتوفّى بها، وكان حافظًا ثقة، واسعَ العلم كبير القدر، قال الشافعى: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، وكان أعور، وحجّ سبعين سنة، له «الجامع» فى الحديث، وكتاب فى «التفسير».
الأعلام ٣/ ١٠٥ وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٢ وصفة الصفوة ٢/ ١٣٠ ووفيات الأعيان ١/ ٢١٠ وميزان الاعتدال ١/ ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧/ ٢٧٠. وانظر: تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٧٨.

(٤) الروض المعطار ١١٢.

ثم قال: يا ربيع إن هذه العامة تجمعها الكلمة وترأسها السفلة، فلا أرينَّك مُعْرِضا عنها، فإن إصلاحها يسير، وإصلاحها بعد فساد عسير فاجمعها بالرهبة واملأ قلوبها بالهيبة، وما استطعت من الرفق بها وإحسان إليها فافعل.

* * *

ذكر خواص أرض فارس [١]

منها كورة سابور برستاق يعرف بالعردحان: بئر بين جبلين يخرج منها دخان فيتعالى كثيرا ولا يمكن أحد أن يقربها، فإذا طار عليها طائر سقط فيها ويرى احتراقه قبل أن يغيب فيها.

وفى بعض كورأرجان فى نواحى صاهك بئر لا قعرلها، وبناحية كان فيروز بالقرية المعروفة بالورجان: كهف بين جبال شاهقة فيه جزر على قدر العضاة الكبيرة يقطر فيه من أعلى ذلك الكهف ماء.

وزعم قوم أن له طلسما، فإن دخل ذلك الكهف رجل أحد أخرج من الماء ما يكفيهم[٢]، وكان بالفارسية المعدن.

وبناحية دار ابن بهرام ماء عذب حسن القوام واللون بنهر الحسين يشرب منه ويسقى الأرض، فاذا غمست فيها الثياب خضّرها.

وبكورة أرد شير شيراز عين ماء يشرب لتشفية الجوف كما يشرب الدواء فإن شرب منه قدحا أقام له مجلسًا، وإن زاد فلكل قدح مجلس.

وبقرب برقويه تلال رماد كالجبال العظام يكون فى صعود التل وهبوطه الميل أكثر، وزعم قوم أنها نار نمرود، وهو خطأ؛ لأن نمرود كنعانى ومساكنهم بابل.

ومثل هذه الجبال من الرماد وأعظم منها على نهر الزاب الكبير الجائى من نواحى أرمينية وبلد مراش.

---

(١) كور فارس خمس كور: أصطخر وسابور وأَرْدَشير خُرَّة ودرابجرد وأرجان وفشا، وهى مائة وخمسة وخمسون فرسخًا فى مائة وخمسين فرسخًا. المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥١.

(٢) انظر: مختصر كتاب البلدان ١٨٦١.

وبناحية إصطخر تفاح يكون بعض التفاحة الواحدة صادق الحلاوة، وبعضها حاز الحموضة.

وبناحية كورا تين أخضر كالسلق، وفي داخله كعين النرجس سواءً.

ومِمَّا يحمل من فارس ماء الورد الذى بكورا وجور، يجلب إلى بلاد الهند والصين ومصر والمغرب واليمن وسائر البلاد، وليس يعدل به ماء ورد فى الآفاق.

ومن فارس ترتفع أنواع الثياب إلى أقطار البلاد، وبها ثياب الوشى التى ليس بسائر الآفاق كهيئتها إذا كان مُذَهَّبًا.

وبقرية من قرى دارا بجرد الموميا التى تحمل إلى الآفاق، وهو ملك السلطان يوجد فى غار فى جبل قد وكّل به من يحفظه، وهو مغلق الباب والمدخل مختوم عليه بعلامات كثيرة لمن يحضره عند فتحه يفتح فى كل سنة فى وقت معروف، وهو الموميا الصحيح وما عداه فمزوّر، وهذا الموضع لا يفتحه إلا العدول وثقات السلطان من الحكام وأصحاب البرد والمعدّلين ويرضخ للذين حضروا بالشىء منه.

وبناحية دارا بجرد جبال من الملح الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ومن جميع الألوان، وهو صلب تنحت منه الموائد والعظام، والآنية المستظرفة وتحمل إلى سائر البلدان.

وبفارس هذه كل شىء من الذهب والفضة والحديد والصفر والكبريت والنفط والزئبق وغيرذلك.

* * *

ذكر بابل[١]

وكانت بابل من استعظامها واستشناع أمرها لا تكاد تجعل من عمل الآدميين، وهى المذكورة فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾[٢].

وكانت مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الفناء، جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبهاء المنصب، وكانت سهلة بطحاء، ديمومة فيحاء مربعة، لها فى كل تربيع حصنان عظيمان، وسائر ذلك من سورها لا يكاد سامع خبرها يصدق بصره لكثرة ارتفاعه وفرط إتقانه، وكان خمسين ذراعًا عرضًا فى ارتفاع مائتى ذراع فى دور أربعة وستين ميلاً، مبنيًا بالآجر المُرَصَّص، وقد خَنْدَق حوله خندق يجرى فيه الفرات، وفيه مائةُ باب من نحاس، وسعة السور فى أعلاه كسعته فى أسفله، وقد بنى فى أعلاه مساكن للمقاتلة والحراس متصلة فى جميع دوره.

وقد زعموا أن أقدم بناءٍ بُنِىَ بعد الطوفان، وأنَّ منها تفرَّق ولد نوح عليه السلام، وأن الذى هدمها كسرى الأول وهو الذى سمّى ملك الفرس لما تغلَّب على أرض بابل.

والجزيرة ما بين دجلة والموصل[٣].

* * *

(١) انظر فى (بابل): الروض المعطار ٧٣ ومراصد الاطلاع ١/ ١٤٥ ومعجم البلدان (بابل).

(٢) سورة البقرة آية ١٠٢.

(٣) الروض المعطار ١٣٤.

ذكر خراسان (١)

وخراسان تشتمل على كور عظام وأعمال جسام، وكانت خراسان تسمى فى القديم: بلد إشيرية، سميت بآشور بن سام بن نوح، وهو أول من اعتمر ذلك الصقع بعد الطوفان.

وحَدُّها الذى يحيط بها: من شرقها سجستان وبلد الهند الذى ضمَّها إلى سجستان وما يتصل بها من ظهر الغور كله إلى الهند، وخطتا ديار الخليج فى حدود كابل ووخان على ظهر الختل كله وغير ذلك من ناحية بلد الهند، وغربها مفازة الغزية،ونواحى جرجان، وشمالها ما وراء النهر وشىء من بلاد الترك يسير على ظهر الختل، وجنوبها مفازة فارس وقومس إلى نواحى جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والرى وما يتصل بها.

فجعلناه كله إقليمًا واحدًا وضمنا الختل إلى ما وراء النهر، وهى أقرب إلى بخارا منها إلى خراسان.

وكور خراسان وأعمالها التى يتفرق فيها الحكام وأصحاب البرد نيف وثلاثون عملاً.

* * *

(١) انظر فى ذلك: الروض المعطار ١١٤ـ١١٥ ومعجم البلدان (خراسان).

ذكر ما وراء النهر

من خراسان: من ذلك القواذيان[١]، والصغانيان[٢]، والتِّرمْذ[٣]، وكش ونسف وبخارا[٤]، وإصطخر، وسَمَرْقَند[٥]، وخُجَنْد، وأُشْرُوشنه[٦]، والشاش[٧]، وفرغانة[٨]، وبابات، وكلساوان[٩] وما والاها واتصل بها.

فأما بلخ[١٠]، وطخارستان، والباميان[١١]، وخوارزم[١٢] وما ذكرنا أنه يتصل بها فهى مما دون النهر.

---

(١) قُوَاديان: مدينة وولاية على جيحون فوق التِّرْمذ، بينها وبين الخُتَّل، مجاورة للصغانيان. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٠.

(٢) صَغَانِيان: ولاية عظيمة واسعة بما وراء النهار، أعمالُها مُتَّصلة بترمذ فيها جبال وسهول. والعجم يقولون: جغانيان. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٤٢.

(٣) التِّرمِذ: مدينة من أمهات المدن المشهورة، راكبة على جيحون من شرقيّه متَّصِلة العمل بالصغانيان، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر ولهم شرب من الصغانيان لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم. مراصد الاطلاع ١/ ٢٥٩.

(٤) بُخَارى: مدينة قديمة نَزِهة البساتين، وبينها وبين سمرقند سبعة أيام، واسمها أبو محلب، وهى على أرض مستوية. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٩.

(٥) سَمَرْقَنْد: قصبة الصّغد، وهى مدينة عظيمة يقال إن لها اثنى عشر بابا، بين كل بابين فرسخ، وهى من حديد، وداخلها مدينة أخرى لها أربعة أبواب، وفيها نهر ماء يجرى فى رصاص، لأن وجه النهر رصاص كله، وقيل إنه من بناء ذى القرنين بما وراء النهر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٣٦.

(٦) أُشْرُوسنة: بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسَمَرْقَنْد، بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخًا. وقال الأصطخرى: هو اسم الإقليم، وليس بها مدينة ولا مكان بهذا الاسم. مراصد الاطلاع ١/ ٨١.

(٧) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٤.

(٨) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٢٩.

(٩) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٠.

(١٠) بَلْخ: مدينة مشهورة بخراسان، من أجلّها وأشهرها ذكرا وأكثرها خيرًا وبينها وبين ترمِذ اثنا عشر فرسخًا. مراصد الاطلاع ١/ ٢١٧.

(١١) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ١/ ١٥٧.

(١٢) خوارزم: اسم لناحية كبيرة عظيمة قصبتها الجرجانية، أهلُها يسمونها كُركانْج وهى ولاية =

وفيما وراء النهر من معادن الذهب والفضة والزئبق مالا يقاربه معدن فى سائر البلاد كثيرة، وليس فى الأقطار مثل نشادر عندهم. وبصقلية نشادر لا يعدل به ولا يدانيه.

وإليهم يصل مسك التُبَّت ومن عندهم يرفع، وهو يفوق كل مسك طيبا ويدنى عليه ثمنًا، ويرفع من الصغانيان من السمّور والسنجاب وسائر الأوبار ما لا يرفع من سائر البلاد.

وما وراء النهر أخصب الأقاليم والصلاح على أهله غالب، والخير فيهم فاش، ولهم الغناء والثروة والوفر والجدة وليس بينهم فى شىء من ذلك تنافس ولا يتحرفون به تحرف أهل زمانهم فمن همته دنيا ينالها ولذة يبلغها، بل يصرفونها إلى قرى الأضياف، ومواساة الناس، وسبل الجهاد، وعمارة الطرق، والمنازل، وتعاهُد المراحل والمناهل.

والصخرة فى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾[1] هى صخرة شَرْوَان والبحر بحر جيلان، والقرية قرية باجروان، والغلام من جيلان، ومجمع البحرين فارس والروم[2]، قاله قتادة وعن ابن عباس عن أبى إفريقية.

وخرق الخضر السفينة فى بحر رادس والملك الجلندا ابن الجلندا، وقتل الغلام بطنبدة، وهى التى تسمى المحمدية، وأقام الحائط ببرقة، ومن ذلك الموضع فارق موسى.

ومن عجائب أرمينية[3] وادٍ لا يقدر أحد أن ينظر إليه ولا يشرف عليه ولايدرك ما فيه، وإذا وضعت القدر على شفيره غلت ونضج ما فيها.

وبأرمينية ماء حامض يعرف بالحمض، إذا أخذ ورفع فى إناء عذب وشرب.

وشروان المذكور فيها الصخره فى قصر أرمينية.

= متّصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة والقصور فى صحاريها وأكثر ضياعها مدن ذات أسواق، وهى على جيحون، قيل ثمانون فرسخًا فى مثلها، وكلهم معتزلة. مراصد الاطلاع ١/ ٤٨٧.

(١) فى قصة موسى قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٥٠].

(٢) مختصر كتاب البلدان ٢٦٤.

(٣) انظر فى عجائب أرمينية: مختصر كتاب البلدان ٢٧٠.

ذكر كرمان [١]

وحدّ كرمان فى الشرق أرض مكران ومفازة بين مكران والبحر من وراء القلوص، وفى الغرب أرض فارس، وفى الشمال مفازة خراسان وسجستان، وفى الجنوب بحر فارس، ولها من حدود الشيرجان دخلة وهى فى حد فارس مثل الكم.

والغالب على أهلها نحافة الجسم والسُّمرة لغلبة الحرّ.

* * *

حدّ بلاد البارز

فأما حد بلاد البارز فإنها سبعة أجبال فى نهاية الامتناع والخصب، وقربها من جَيْرُفت[٢] على خمسه فراسخ موضع يسمى ميزان، فمنه يحمل الثلج والفواكه إلى جيرفت وفيه الكروم وأشجار جميع الفواكه خلا النخل.

* * *

(١) ذكر الحميرى فى الروض المعطار ٤٩١ أن أرض كرمان مُتَّصِلَةٌ بأرض فارس وبأرض مكران، قالوا: وهى خمسون فرسخًا فى مثلها.

(٢) جَيْرُفت: بفتح أوله وفتح الرّاء المهملة، بعدها فاء وتاء معجمتين باثنتين من فوقها، موضع معروف من بلاد فارس، وهناك اختلفت كلمة الخوارج وقاتل بعضهم بعضًا. معجم ما استعجم ٤٩/٢.

ذكر البجاناكية[١]

وأما البجاناكية فالطريق إلى بلادهم من الجرجانية تسير اثنى عشر فرسخا إلى جبل يقال له جبل خوارزم، وعلى رأسه منارة وفى سفحه مساكن قوم من الجرجانية لهم بها مزارع.

وهم قوم سيَّارة يتبعون مواقع القطر والكلأ، وطول أرضهم مسيرة ثلاثين يوما فى مثلها، ومنهم فى الشمال بلاد جفجاخ ويقال قفجاق، وفى الجنوب بلاد الخزر، وفى المشرق بلاد الغزية، وفى المغرب بلاد الصقلب،

وهذه الأمم جميعها دون البجاناكية ويغزونهم، ولهم ثروة ودواب وسوائم وآثاث من ذهب وفضة وسلاح، ولهم مناطق محلات وأعلام وبوقات بدل الطبول وبلاد البجاناكية سهول محلها لا جبل فيها ولا معقل لهم فيلجئون إليه.

وحدث جماعة ممَّن أسر بالقسطنطينية من المسلمين أن البجاناكية كانوا على دين المجوسية، فوقع عندهم بعد أربعمائة من الهجرة أسير من المسلمين فقيه عالم عرض على طائفة منهم الإسلام، فأسلموا وصحّت نياتهم، وانتشرت دعوة الإسلام فيهم، وأنكر ذلك عليهم سائرهم ممن لم يسلم آل أمرهم إلى الحرب فنصر الله المسلمين عليهم وكانوا فى نحو اثنى عشر ألفا والكفار فى أضعاف عددهم فقتلوهم وأسلم باقيهم، فجميعهم اليوم مسلمون، وعندهم العلماء والفقهاء والقراء، وهم يسمون اليوم من وقع اليهم ممن استرق صاحب القسطنطينية أو غيرهم الخوالص، ويخيرونهم فى البقاء عندهم على أن يغنوه كأحدهم ويتزوج عندهم من شاء منهم.

* * *

---

(١) البجناك: قوم من التُّرك فى الإقليم السادس فى شماليه قرب صقلية.
وهم قومٌ طوال اللِّحى أولو أسْبِلَة طويلة، عندهم كثرة وقوة ومَنَعَة، لا يؤدون الخراج إلى أحدٍ أصلاً، ويغير بعضُهم على بعض كالسِّباع ويفترشون نساءهم بمرأى الناس لا يستقبحون ذلك كالبهائم، ومأكولهم الدخن وبلادهم مسيرة اثنى عشر يومًا. آثار البلاد ٥٨٠.

ذكر الخزر[1]

وتسير من بلاد البجاناكية إلى بلاد الخزر عشرة أيام فى مشاجر ومفاوز على غير طرق مسلوكة إلى بلاد الخزر، وهى بلاد عريضة ويتصل بها من إحدى جنباتها جبل عظيم يمد إلى بلاد تفليس، وتفليس أول حد أرمينية وأغنامهم تضع فى العام مرتين.

والخزر اسم الإقليم، ومدينتهم العظمى قطعتان على الشرقى والغربى من نهر إثل وهو نهر يخرج إليهم من الروس ويفيض فى بحر الخزر، وهاتان المدينتان تسمى إحداهما بارغيش، والأخرى حثلغ، والغربية أكبرهما.

ويحيط بالمدينتين سور واحد ولهما أربعة أبواب، ولهم حمامات وأسواق ومساجد وأئمة ومؤذنون.

وجملة الخزر مسلمون ونصارى، ومنهم عبدة الأوثان، وأقل الفرق منهم اليهود، وملكهم على دين اليهودية[2]، ومسكنه فى قصر على البعد من النهر.

وإنما كان سبب تَهَوُّدِ ملك الخزر، وكان مجوسيا - أنه تنصّر فرأى فساد ما هو عليه، فأخذ فيما غمه من ذلك مع بعض مرازبته فقال له: أيها الملك: إن اصحاب الكتب ثلاث طوائف، فأرسل إليهم واستخبر أمرهم واتبع صاحب الحق منهم، فأرسل إلى النصارى فى أسقف، وكان عنده رجل من اليهود ذو جدال فناظره، فقال له: ما تقول فى موسى بن عمران والتوراة المنزلة عليه؟ قال له: موسى نَبِيٌّ والتوراة حق. فقال اليهودى للملك: أيها الملك قد أقر بحقيقة ما أنا عليه، فسله عما يعتقد. فسأله الملك فقال له: أقول إن المسيح عيسى ابن مريم هو الكلمة، وإنه المبين عن الله عز وجل بالسرائر، فقال اليهودى لملك الخزر: إنه يدعى دعوى لا أعلمها وهو مقر بما عندى، فلم يكن للأسقف كبير حجة.

---

(١) انظر فى ذلك: المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٠٩ والأصطخرى ١٢٨ - ١٣٢ ومختصر كتاب البلدان ٢٦٣.

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ١٢٩.

وأرسل إلى المسلمين فأرسلوا إليه رجلا عالما عاقلاً عارفا بالجدل، فدسَّ اليهودى عليه من سمَّه فى طريقه فمات، فاستمال اليهودى الملك إلى مِلَّته فتهوَّد.
ولا يكون مقامهم فى المدن إلا فى الشتاء، وفى سائر العام يكونون فى المزارع والبساتين، ولهم فواكه ونَعَمٌ كثيرة.

وللخزر جمال فائق وحسن ظاهر، والذى يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا.

وليس لملكهم من طاعتهم إلا الدعوة، ومدار أمرهم على إيران شاه وهو الذى يقود جيوشهم ويملك طاعتهم، وإذا خرجوا فى وجهه خرجوا بأسلحة كاملة ودروع حصينة وجواشن محكمة وأعلام رفيعة، ولا يخرج أحد من أهل عسكرهم إلا ومعه عدة أوتاد طول كل وتد ذراعان، فإذا نزلوا غرز كل واحد منهم بحياله تلك الأوتاد وشدوا إليها الأترسة فيصير حول العسكر فى ساعة واحدة جدار من التراس.

والغالب على قوتهم الأرز والسمك، ولبساهم القواطن والأقبية.

ولسان الخزر غَيْرُ لسان الترك والفرس وهى لغة لا تشاركها لغة من لغات الأمم.

وللملك سبعة حُكَّامٍ من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان، وهم ينتهون فى مشتبهات أمورهم إلى عظيمهم المسمى خاقان خزر وهو أجل عندهم قَدْرًا من الملك.

* * *

ذكر برداس [1]

وأما بلاد برداس فهى ما بين الخزر وبلكار، بينها وبين بلاد الخزر مسيرة خمسة عشر يومًا، وهم حرب لبلكار والبجاناكية ودينهم شبيه بدين الغزية، ولهم أرض واسعة سهلة ومتاجر كثيرة، وأرضهم مسيرة نصف شهر فى مثلها، وينتهى عددهم نحو عشرة آلاف فارس.

(١) انظر: الروض المعطار ٢١٩ ومراصد الاطلاع ١/ ١٨٤ وفيه (برطاس).

وأكثر أشجارهم الخلنج، وأكثر أموالهم العسل والوبر من الدلق، ولهم سوائم كثيرة من البقر والغنم، ومزارع واسعة.

وطائفة منهم يحرقون موتاهم، وأخرى تدفنها، وإذا أدركت الجارية عندهم ولم يكن لأبيها عليها حكم تختار لنفسها من شاءت من الرجال.

* * *

ذكر بلكار(١)

وبلاد بلكار متاخمة لبلاد برداس، وبين بلاد بلكار وبلاد برداس مسيرة ثلاثة أيام، ومنازلهم على شاطئ نهر إثل، وهم بين برداس والصقلب.

وهم قليلو العدد نحو خمسمائة أهل بيت وملكهم يسمى المس، وهو ينتحل الإسلام، والخزر تتاجرهم، وتبايعهم وكذلك الروس.

* * *

ذكر بلاد المجغرية

وهم بين بلاد الباجاناكية وبين بلاد أسكل من البلكارية، والمجغرية عبدة أوثان وسمة ملكهم كندة، وهم قوم ذوو قباب وخيام يتبعون مواقع القطر ومواضع العشب.

وعرض بلادهم مائة فرسخ فى مثلها، وحَدٌّ من بلادهم يتصل ببلاد الروم، وفى آخر حدهم مما يلى المفازة جبل ينزله قوم يقال لهم أبين، ولهم كراع ومواشٍ ومزارع.

وأسفل من هذا الجبل على ساحل البحر قوم يقال لهم أوغونة وهم نصارى، ومتاخمون لبلاد الإسلام المنسوبة إلى بلاد تفليس، وهو أول حد أرمينية، ويمتد هذا الجبل إلى أن يصير إلى أرض الباب والأبواب ويتصل ببلاد الخزر.

(١) وهم البلغار، انظر: الأصطخرى ١٣٦.

بلاد السرير[1]

تسير من بلاد الخزر اثنى عشر يومًا فى الصحراء حتى تنتهى إلى جبل شامخ، فتصعده وتسير فيه ثلاثة أيام حتى تنتهى قلعة ملك السرير وهى على رأس جبل ويحيط به سور.

وللملك سرير من ذهب كان لملوك الفرس.

ولملكهم عشرون ألف شعب بها أصناف من الناس يعبدون رأسًا يابسًا.

وعلى يسار قلعة ملك السرير طريق يسلكه السالك فى جبال ومروج حتى يصل بعد ثلاثة أيام إلى بلاد ملك اللاَّن، وهم نصارى، وعامة أهل مملكته يعبدون الأصنام.

* * *

ذكر برجان[2]

فأما بُرْجَان فهم بعدُ ولد يونان بن يافث وهم على المجوسية، ومملكتهم واسعة، وهم يحاربون الروم والصقلب والخزر والترك، وأشدُّهم عليهم الروم لقربهم منهم، وإنما بين القسطنطينية وحَدّ بلد برجان خمسة عشر يومًا.

ومملكة بُرْجَان[3] عشرون يوما فى ثلاثين يومًا، وهم لا يركبون الدواب إلا عند الحروب، وإذا صالحهم الروم أدوا إلى الروم الخراج: جوارى وغلمانا من سبى الصقلب.

---

(١) الأعلاق النفيسة ١٤٧ والروض المعطار ٣١٤.

(٢) انظر فى ذلك: آثار البلاد ٦١٢.

(٣) بُرْجان: بلاد غائطة فى جهة الشمال ينتهى قصر النهار فيها إلى أربع ساعات والليل إلى عشرين ساعة وبالعكس.

أهلها على المِلّة المجوسية والجاهلية، يحاربون الصقالبة، وهم مثل الإفرنج فى كثير من أمورهم، ولهم حذق بالصناعات ومراكب البحر. آثار البلاد ٦١٢.

ومن سنتهم إذا مات لهم مَيِّت يجعلوه فى ناووس عميق وينزلونه فيه وينزلون معه امرأتَه وخَدَمَهُ، فيبقون هناك حتى يموتوا، ومنهم من يُحْرَقُ مع الميِّت.

* * *

ذكر سد يأجوج ومأجوج(١)

فأمَّا سَد يأجوج ومأجوج فإن بينه وبين آخر حدود بلاد الخزر مسيرة شهر أو أزيد.

وذكر قتادة قال: قال رجل للنبى ﷺ إنى رأيت السدّ، قال: كيف رأيته؟ قال: كأنه حبرة. قال: فقد رأيته(٢).

وقال وهب بن مُنَبِّه: إن ذا القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين، وهو فى منقطع أرض الترك مما يلى الشمال، فذرع ما بينهما فوجد مائة فرسخ، فحفر له أسًا حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخًا، وجعل حشوه الصخور، وطينه النحاس يذاب ويُصَبُّ عليه، ثم علاه على الأرض بزُبر الحديد والنحاس المذاب، وجعل خلال ذلك المدة من نحاس أصفر، فصار كأنه برد محبر من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد.

وذكر ابن عفير: أن معاوية بن أبى سفيان أرسل خمسة وعشرين رجلا إلى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو، وكتب إلى ملك الخزر أن يجوزوهم إلى من خلفه وأهدى إليهم هدايا، ففعل ذلك حتى انتهوا إلى الجبلين فرأوا بينهما مثل البصيص، وهو بريق الصفر فى الحديد، وسمعوا جلبة من داخل السد ورأوا أدراجا يرقى إلى أعلاه، فصعد فيه رجل منهم، فلما بلغ وسطه تحير فسقط ومات، فانصرفوا بقطعة مسحاة وجدوها عند السد، فأرسل معاوية إلى رجل خبير عالم فسأله، فقال يرسل ملك جنده إلى السد فيهلك واحد منهم ويأتون بحديدة

---

(١) انظر: آثار البلاد ٥٩٦-٥٩٩ والروض المعطار ٣٠٨-١١١ ومعجم البلدان (سدّ يأجوج ومأجوج)، وراجع: تفسير القرطبى ١١/ ٢٢ والثعلبى ٣٦٥.

(٢) الأثر فى: تفسير القرطبى ١١/ ٢٢ وتفسير الثعلبى ٣٦٥ والروض المعطار ٣٠٩.

فيجمعهم على مائدة فيها طعام، فوافى العالم وهم على تلك المائدة قد جمعهم عليها معاوية وخلطهم بغيرهم فقال: هؤلاء هم، فعجب معاوية من ذلك.

وقال ابن خرداذبة[١]: حدثنى سَلاَّم الترجمان، وكان هو الذى يترجم كتب الترك التى كانت ترد على الواثق، قال: ولما رأى الواثق فى المنام كأن السد الذى بناه ذو القرنين مفتوح، وَجَّهنى وضم إِلَىَّ خمسين رجلاً، وقال لى: عَايِنْهُ وجئنى بخبره، ووصلنى بخمسة آلاف دينار وعشرة آلاف درهم، وأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأعطانى مائتى بغل أحمل عليها الزاد والماء، وكتب إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس فى إنفاذنا، فشخصنا إليه من «سُرَّ من رأى»، فكتب إسحاق إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللاَّن، وكتب ملك اللاَّن إلى فيلان شاه وهو ملك ما يلى الباب والأبواب من خارج، وكتب فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر، فوجَّه معنا ملك الخزر خمسة أَدِلاَّء، وسرنا من عنده خمسة وعشرين يوما حتى انتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تحملنا شيئًا نشمه ونحجب به نتن ريحها عند دخولها، فسرنا نحو عشرة أيام حتى أفضينا إلى مدن خراب، فسألنا عنها، فأخبرنا أن يأجوج ومأجوج خرَّبوها، فسرنا فيها سبعة وعشرين يومًا، ثم أفضينا إلى حصن يقرب من الجبل الذى هو أحد الصَّدَفَيْنِ، تتصل به حصون فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية، مسلمون يقرءون القرآن، ولهم مساجد، فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فجعلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين؟ فنقول: نعم. فيقولون: شيخ هو أم شاب؟ فقلنا: شاب. فعجبوا أيضًا فقالوا: أين تكون؟ قلنا: بالعراق فى مدينة يقال لها سُرَّ مَنْ رَأى[٢]. فيقولون: ما سمعنا بهذا قط.

ثم سرنا إلى جبل أملس يكاد البصر ينبو عنه، وإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعًا، فإذا عضادتان مبنيتان مما يلى الجبل من جَنَبَتَى الوادى عرض

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤١.

(٢) سُرَّ مَنْ رأى: هى المدينة التى بناها المعتصم بالعراق سنة عشرين ومائتين، ونزلها بأتراكه. معجم ما استعجم ٣/ ٢٤.

كل عضادة خمس وعشرون ذراعًا فى سمك خمسين ذراعًا وعتبة الباب السفلى عشر أذرع فى بسط مائة ذراع سوى ما تحت العتبتين، والظاهر منها خمس أذرع، وهذه الذراع بذراع السواد، وإذا دَرْوَنْد حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعًا، قد ركب على كل واحدة من العضادتين مقدار عشر أذرع، وفوق الدروند بناء بلبن الحديد فى النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مدى البصر، وفوقه شرف حديد، فى طرف كل شرفة قرنان تنثنى كل واحدة منهما على الأخرى.

وللباب مصراعان معلقان عرض كل مصراع خمسون ذراعًا فى ثخن خمس أذرع وقائمتاها فى دوارة على قدر الدروند[1]، وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع فى غلظ باع فى استدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعًا، وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف.

وله اثنتا عشرة دَنْدانكة[2]، كل دندانكة منها كرستج هاون أعظم ما يكون من الهواوين، معلق فى سلسلة طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق[3].

ومع هذا الباب حصنان عظيمان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مثلها بينهما عين عَذبة، وفى أحد الحصنين بقية من آلة البنيان التى بنى بها السد من قدور الحديد، ومغارف الحديد. والديدكانات، وعلى كل ديدكان أربعة قدور مثل قدور الصابون، وهناك بقايا من لبن الحديد قد التصق بعضها ببعض من الصدأ، واللبنة ذراع ونصف فى سمك شبر.

قال: ورئيس تلك الحصون يركب فى كل جمعة فى عشرة فوارس، مع كل فارس مرزبة حديد فيها خمسة أمنان فيضربون القفل بتلك المرازب ثلاث مرات، يسمع من وراء الباب الصوت، فيعلمون أن هنالك حفظة، ويعلم هؤلاء أن أولئك

(١) الدروند: العتبة العليا.

(٢) الدنداكة: كل شىء شبيه بالأسنان مثل أسنان المنشار.

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٦٥ـ١٦٦.

لم يحدثوا شيئًا فى الباب، فإذا ضرب أصحاب الحصن القفل وضعوا آذانهم فيسمعون دويًا.

وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير عشرة فراسخ فى مثلها تكسير مائة فرسخ.

قال: وسألت من هناك: هل رأوا أحدًا من يأجوج ومأجوج، فذكروا أنهم رأوا مرة عددًا منهم فوق الشرف فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل منهم فى رأى العين شبرًا ونصف قال: فلما انصرفنا أخذنا الأدلاء وأخرجونا إلى ناحية خراسان حتى وصلنا إلى ناحية سمرقند، وقد كان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا.

ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر[1]، قال سلام: فوصلنى بمائة ألف درهم ووصل كل رجل معى بخمسمائة درهم وأجْرى علينا حتى وصلنا إلى الرَّى فوصلنا إلى سُرَّ من رأى لثمانية وعشرين شهرًا من يوم خرجنا منها.

قال ابن خرداذبة[2]: فحدثنى سَلاَّم الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه علىَّ من كتاب كان كتبه إلى الواثق، وكتبناه نحن منه فوجدته موافقًا لما حدثنى به.

وفى بعض الأخبار أن الرجل الواحد من يأجوج ومأجوج لا يموت حتى يولد له ألف ولد.

وقد أتينا على ما أردنا ذكرَهُ من المَمَالِك المُصَاقِبة لخراسان وما والاها من الأمم درجة بعد درجة وحالا بعد حال، على حَسب اتصالها وبعض المسافات المشهورة.

* * *

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعى، بالولاء (١٨٢-٢٣٠هـ) أبو العباس أمير خراسان، ومن أشهر الولاة فى العصر العباسى. أصله من «باذغيس» بخراسان. وكان جده الأعلى «زريق» من موالى طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة الطلحات، ولى إمرة الشام، ثم مصر ثم الدينور، ثم ولاّه المأمون خراسان، وكان كثير الاعتماد عليه. الأعلام ٤/ ٩٣-٩٤ والمحبر ٣٧٦ ووفيات الأعيان ١/ ٢٦٠ وتاريخ بغداد ٩/ ٤٨٣.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤٥.

العواصم

فلنرجع إلى ذكر المدن والكور بالعواصم وقنسرين المتصلة بأرض الجزيرة وقد ذكرنا أنها كانت من أرض الجزيرة حتى جَنَّدها يزيد بن معاوية فى تجنيد الشام، ثم نصل ذلك بذكر بلاد الشام إن شاء الله تعالى.

فمن مدنها: قنسرين وحلب ومَنْبج[١] ودلوك[٢] ورعبان[٣] وقورس وتيزين ومعرة النصرين، ونصرين جبل مطل عليها، ومعرة النعمان[٤] وكَفْر طاب[٥] والحربية وخناصره، ونقابلس ورصافة هشام والجرثومية على جبل آكام والأسكندرية وأنطاكية وبطنان حبيب.

وهى كلها مدائن جليلة، فأما معرة النعمان فسميت بذلك لأن الجبل المطل عليها سمى النعمان، وللمدينة سبعة أبواب، وعلى ميل منها دير سمعان وفيه قبر عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ:

ويذكر أن قبر شيث بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب إليه منها.

وداخل مدينة المعرة قبر يوشع بن نون، وله يوم جعل فى كل عام يقصد إليه من الأقطار.

وظهر بالمعرة بعد أربعمائة وثلاثين من الهجرة رجل أعمى يكنى أبا العلاء وهو أحمد بن سليمان بن عبد الله المعرى، وكان لغويا شاعرًا بليغا فصيحًا تضرب إليه آباط الابل من الآفاق، ويزعمون أنه منتحل لمذهب البراهمة مُصِرٌّ على اعتقادهم، وفى أشعاره وأسجاعه ما يدخل القلب منه بعض الريب.

(١) قنيج: من جُند قِنّسرين، وهو اسم أعجميّ تكلمت به العرب معجم ما استعجم ٤/ ١٢٠.

(٢) دَلُوك: بلد من الثغور المتصلة ببلاد الروم وراء الفرات. معجم ما استعجم ٢/ ١٧٤.

(٣) رَعْبَان: على مثال فَعْلان، موضعٌ من عمل مَنْبِج من الثغور الجزرية. معجم ما استعجم ٢/ ٢٥٤.

(٤) معرة النعمان: بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون، ينسب إليها أبو العلاء المصرى الضرير المشهور بالذكاء. آثار البلاد ٢٧٢.

(٥) كَفَرْ طاب: من كفور الشام المشهورة. آثار البلاد ٢٤٨ ومعجم ما استعجم ٤/ ٢٢.

وبين قنسرين والعواصم، وبلاد الشام، وهى كلها منضافة إلى الشام: بلد الخولان والعواء وبترة بنى أسد والبثنية وجبل حوران وقرى بنى هلال وسائر حوران من بلد بنى مالك، وبصرى وإقليمها والقرية وإقليمها والسويداء وإقليمها وأذرعات وإقليمها، وسمسكين وإقليمها، وذرع وإقليمها وبصرى، وهو الموضع الذى فيه قبر اليسع عليه السلام.

وهذه البلاد كلها التى سميناها بنيانها بحجارة، وسقوفها حجارة، والأبواب التى تردف على بيوتها ودورها، وطاقتها كلها حجارة، وكلها صحارى.

وعلى الجملة: فلا يحيط بوصف البلاد والمدن وغير ذلك من الأمور إلا الله تعالى.

وإنما ذكرنا ما ظهر لنا شهرته، وتكرر سماعه، وما لم نذكره أكثر.

* * *

ذكر الشام

وإنما سميت الشام، لأنها على شمال الكعبة[١]، وقيل لشامات فى أرضها سود وبيض، وقيل سميت بسام بن نوح لأنه أول من نزلها فتطيّرت العرب لما سكنتها من أن تقول سام فقالت شام، وقيل إن أوّل من سكنها من الخلفاء سماها بهذا الاسم، وإنها سرور لمن رآها.

وقسمت الأوائل الشام خمسة أقسام[٢]:

الشام الأول: فلسطين، وأول حدود فلسطين من طريق مصر أَمَج، ثم يليها غزة، ثم الرملة رملة فلسطين.

والشام الثانية: مدينتها العظمى الطبرية، والغور واليرموك وبيسان فيما بين فلسطين والأردن.

والشام الثالثة: الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها أطرابلس.

(١) مختصر البلدان ٨٩.

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ٤٣.

والشام الرابعة: أرض حمص.

والشام الخامسة: قنسرين ومدينتها العظمى حلب، وساحلها أنطاكية مدينة عظيمة على ساحل البحر، وقالوا: كل شىء عند العرب من قبل الشام فهو أنطاكية.

ويقال: ليس فى أرض الإسلام، ولا أرض الروم مثلها، والنصارى يدعونها مدينة الله، ومدينة الملك، وأم المدائن، لأنها أول بلد أظهر فيه دين النصرانية، وبها كرسى بطرس، ويسمى سمعون وسمعان، وهو خليفة يشوع الناصرى المرأس على تلاميذه الاثنى عشر والسبعين وغيرهم.

وفى داخلها البساتين والمزارع، ويقال إنها مدينة حبيب النجَّار.

ومن ثغور الشام الخامسة: المصيصة وطرسوس ونهر جيحان.

ومن مدن الشام حِمْص[1]، يقال إنها مدينة حبيب النجار وهى من قصور الشام.

ويقال إن أول من ابتدع الحساب فى سالف الأزمان أهل حمص، لأنهم كانوا تجارًا يحتاجون إلى الحساب فى أرباحهم.

ولا يدخل مدينة حمص حَيَّةٌ ولا عقرب، وليس لها سور، وفى وسطها حصن مستدير، وأكثر حمص اليوم خراب.

وعن قتادة أنه نزل حمص خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ.

وعن جرير بن عثمان أن حمص نزلها من بنى سُليم ممن صحب النبى ﷺ أربعمائة، ومدينة حماة، وتَدْمُر[2] مدينة أَوَّلية.

وجبل لبنان بقربه، ذكر الهيثم بن عدى أنَّه وجد فى جبل لبنان غارًا وهو فى

(١) قال الأصطخرى فى المسالك والممالك ٤٦ «حِمْص: من أَصَحِّ بلدان الشام تربةً، فى أهلها جمال مفرط، وليس بها عقارب ولا حيّات، ولها مياه وأشجار وزروع كثيرة».

(٢) تَدْمُر: من مدن الشام بالبريّة، أَوَّلية، يقال إنَّ الجِنَّ بَنَتْها لسليمان عليه السَّلام. وكانت الزباء الملكة تصيف بتدمر وتربع بالنجار، وسمِّيت بتدمر بنت حسَّان بن أذينة، وهى بَنَتْها وفيها قبرها، وإنما سكنها سليمان بعدها. الروض المعطار ١٣١ ومعجم ما استعجم (تدمر) ١/ ٢٧٦ (بتحقيقنا).

زمن الوليد بن عبد الملك فدخل، فإذا فيه رجل مُسَجًّى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس بن سبأ، خدمت عيصو بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الديان الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلا، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه، ويعلم أنه صائر إليهم لا محاله فلا يتوب، والذى بعد الموت من حساب الديَّان الأعظم، ورَدِّ حقوق المظلومين يومئذ أعظم وأقطع حقًا. أقول لقد حضرت غارى، هذا أغدو وأروح إليه، أبكى على نفسى، وقد علمت أن الأجلاف الحفاه سينزلوننى عن سريرى هذا، ويتمولّونه، ويخرجوننى من غارى، وهم يؤمنون بربوبية الديان الأعظم، وذلك حين يتغيَّر الزمان، ويتأمر الصبيان ويكثر الحدثان، فمن أدرك ذلك الزمان عاش قليلاً ومات ذليلا.

وفى لبنان البرباريس، وهناك أطيب ما يكون.

* * *

ذكر دمشق

ومن مدنها دمشق، وقيل إنها إرم ذات العماد، وقيل: هى كانت دار نوح عليه السلام فيما ذكروا. والله أعلم.

وقال قتادة فى قوله عز وجل: ﴿والتِّين والزيتون﴾[1]: التين الجبل الذى عليه دمشق، والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس[2]، وقيل: التين مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وقال الضحَّاك: التين والزيتون مسجدان بالشام[3].

وقال مجاهد وعكرمة: التين والزيتون هما المأكولان[4].

(١) سورة التِّين آية (١).
(٢) الدر المنثور ٨/ ٥٥٤.
(٣) الدر المنثور ٨/ ٥٥٥.
(٤) الدر المنثور ٨/ ٥٥٦.

وقيل: التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا.

ومسجدها جليل فيه غرائب من الأعمال يطول وصفها، بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين، وهو داخل المدينة مفروش بالرخام الأبيض مختم بالأزرق، وحيطانه منجدة بالفسيفساء، وسقفه لاخشب فيه، وهو مُذَهَّبٌ كله، وله ثلاثة مناور: المنار الواحد فى مؤخر المسجد مُذَهَّبٌ كله من أعلاه إلى أسفله ذهبا وفسيفساء[١].

ولها كور جليلة منها جودان، والسمه ومدنها بصرى وأذرعات والبلقاء وذمار وعمان وجبال وشراط ومأرب وتنوفة والغور وبعلبك وبيروت وهى قرية الأوزاعى، وأطرابلس ووجه الحجر وأجنادين واليرموك ومرج الصفر والجابية ومرج راهط.

* * *

ذكر مدن فلسطين[٢]

سُمِّيت فلسطين لأن أوّل من نزلها فلستين بن كيسوحين يقطن بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وهى مدينة بيت المقدس بينها وبين الرملة[٣] ثمانية عشر ميلا صحارى ووهادًا، ويقال إن الرَّمْلَة أربعة آلاف ضيعة.

وبيت المقدس كان دارَ مُلْكٍ لسليمان عليه السلام وولد سليمان بعده.

---

(١) انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤٥.

(٢) من هنا تبدأ نسخة القدس.

(٣) الرَّملة: تعتبر مدينة الرَّملة المَمَرّ أو الجسر الذى يصل يافا ـ الساحل بالقدس ـ الجبل، وبالغور، شرقى الأردن، كما تصل شمال السهل الساحلى، بجنوبه.

اختطَّها المسلمون العرب، رغم وجود اللّد بجواره، لأن اللُّدَّ بلدة رومية فى سُكَّانها وعاداتها، ولموقع الرملة الحربى الخطير كانت هى وجوارها ميدانًا للمعارك التى حدثت بين الدول العربية التى ظهرت فى الشام ومصر.

وكانت عاصمة فلسطين إلى أن احتلها الفرنجة سنة ١٠٩٩ وقيل سُمِّيت الرَّملة لكثرة الرَّمل بها، وقيل: اسم امرأة «رملة» وجدها سليمان بن عبد الملك فى بيت من الشَّعر، وهو يرتاد الأمكنة، فأكرمها، فسمَّاها باسمها. معجم بلدان فلسطين ٤١٧ـ٤١٨.

ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم عليه السلام[١] وقبره هناك مما يلى القبلة ثمانية عشر ميلا.

وبلد يهودا بن يعقوب بن فلسطين وفى وسطه بيت إيليا، وكان يُسَمَّى فى أوَّل كنعانيةٍ باسم كنعان بن حام.

وبلاد النبط ما بين يهودا وبلاد العرب.

ومن مدن فلسطين غزة[٢]، وشنشط ونابلس واللُّد[٣].

واللُّد: منزل جميل فيه ناس يعمرونه، وفيه تنزل الرفاق الواصلة من الشام إلى مصر والقافلة من مصر إلى الشام، وفيه كنيسة عظيمة محكمة البناء واسعة الفناء عليها للنصارى أوقاف كثيرة.

وفى لُد عجائب: قال رجل: قلت لأهل لُدّ: هذه بَنَتْهَا الشياطين.

قال: أنتم إذا جلَّ فى صُدوركم بنيانٌ أو عملٌ أضفتمُوه إلى الشياطين، لقد بُنِى هذا البنيان قبل مولد سليمان عليه السلام بمثل ما بيننا وبين سليمان.

وفى الخبر المروىّ «أنَّ المسيح عليه السَّلام يَقْتُلُ المسيحَ الدَّجال بباب لُدّ»[٤].

ومدينة نَابُلُس[٥] كثيرة اليهود، وهم سامرية، وهى بلد السامرية وكذلك

---

(١) انظر فى ذلك: معجم بلدان فلسطين ٣٥٥ـ٣٥٩.

(٢) انظر فى ذلك: معجم بلدان فلسطين ٥٦٧ـ٥٦٩.

(٣) اللُّد: بلدة رومية فى سكانها وعاداتها، وكانت اللُّد عاصمة جند فلسطين إلى أن بُنيت الرَّملة. معجم بلدان فلسطين ٦٣٨.

(٤) الخبر فى النهاية (لدد) ٤/ ٢٤٥ ومعجم ما استعجم (لد) ٤/ ٣٨ (بتحقيقنا).
والمسيح سُمِّى به عيسى لأنه كان لا يمسحُ ذا عاهةٍ إلا بَرِئَ وقيل: لأنه خرج من بطن أُمِّه ممسوحًا بالدُّهن، وقيل لأنه كان يمسح الأرض، أى يقطعها، وقيل: المسيح الصِّدِّيق.
وقيل هو بالعبرانية: مَشِيحا، فَعُرِّب.
وأمَّا الدَّجَّال فَسُمِّى مسيحًا؛ لأن عينه ممسوحة. وقيل لأنه يمسَحُ الأرض، أى يقطعها.
انظر: النهاية ٤/ ٣٢٦ـ٣٢٧ وراجع: سنن أبى داود ـ كتاب اللاحم (ح) ٤٣٢١ حـ٤/ ١١٥ وسنن الترمذى ٣٤ كتاب الفتن ـ باب ٦٢، (ح) ٢٢٤٤ جـ٤/ ٥١٥.

(٥) نَابُلُس: مدينة كنعانية من أقدم مدن العالم، فتحها العرب والمسلمون فى عهد أبى بكر الصدِّيق بقيادة عمرو بن العاص. =

سَمَرْقَنْد سامريَّة كُلُّهم، ويقال إنه بلغ عددهم فى هذين الموضعين نحو ثلاثة آلاف.

وفى الدرب الذى يدخل من الأردن إلى أرمينية غَريبةٌ، وذلك ماءٌ من أعلى جبلٍ، فإذا نزل فى أسفله صار حجارة وصفائح.

فإذا أُخِذَ منه فى إناءٍ صار مثل الدم ولم ينعقد.

وفى الجبل الذى ينبع منه الماء علمٌ عليه كتابة بالمسند «خلف دينك وادخل».

* * *

مدينة إيليا (١)

هى مدينة مُصِّرت فى مفازة من الأرض والجبال محيطة بها، والمدينة فى عربى المسجد.

وماء إيليا من الأمطار، ولداود عليه السلام بها حياض مُصَهْرجة فيها مياه الأمطار للشفاء، وخارجها بساتين ومزارع وأشجار وكرم وزيتون، وليس بها من شجر النخل إلا واحدة ويقال إنها المذكورة فى التنزيل فى شأن مريم، وهى منحنية، ويقال إنها غرست منذ زيادة على ألف سنة.

(٢) [والأرض المقدسة أربعون ميلاً فى مثلها، فأما البيتُ المقدَّسُ فإن أول من بناه وأرى موضعه يعقوب، وقيل داود على اختلاف من الناس، وكان من بناء داود عليه السلام له إلى وقت تخريب بخت نصر إياه وانقطاع دولة بنى إسرائيل

= عرفت نابلس منذ القدم بمياهها الجارية وزيتونها الوافر، وخيراتها الكثيرة حتى سُمِّيت دمشق الصغرى.

وتبعد مدينة نابلس عن القدس ٦٩ كيلو متر وعن عمان ١١٤ كيلو متر وعن البحر المتوسط ٤٢ كيلو متر.

ومن أشهر صناعاتها الصابون «والزيت والكنافة النابلسية وهى من أشهر الحلويات فى الوطن العربى. معجم بلدان فلسطين ٦٩٧-٦٩٨.

(١) راجع للمزيد: الروض المعطار ٦٨.

(٢) من هنا يبدأ الحميرى فى النقل عن البكرى صـ٦٨.

أربعمائة سنة أربع وخمسون سنه، فلم يزل خرابا إلى أن بناه ملك من ملوك طوائف الفرس يقال له كوشك، ثم تغلبت ملوك غسان على الشام بتمليك ملوك الروم لهم ودخولهم فى نصرانيتهم إلى أن جاء الله بالإسلام، وملك الشام منهم جبلة بن الأيهم، ففتح الله الشام على المسلمين زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان أبو عبيدة قد كتب ألى بطارقة إيليا يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية فَالْتَوا عليه، فنزل عليهم وحاصرهم حصارًا شديدًا، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح على الجزية، فأجابهم إلى ذلك.

قالوا: فأرسل إلى خليفتك عمر فيكون هو الذى يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فإنا لا نرضى إلا به، فاستوثق منهم أبو عبيدة بالأيمان المغلظة إن قدم أمير المؤمنين فأعطاهم الأمان ليقبلوا ذلك منه][1]، وخاطب عمر ـ رضى الله عنه ـ بما دعوا إليه وباستيثاقه منهم، قال: ثم سار عمر.

فخرج إليه أبو الجعيد فصَالحه، وكتب لهم عمر كتابا أَمَّنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم وكنائسهم واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها[2].

فلما قبضوا كتاب الصلح فتحوا للمسلمين أبواب إيليا، فدخل عمر ـ رضى الله عنه ـ والمسلمون معه، وسخر عمر ـ رضى الله عنه ـ أنباط أهل فلسطين فى كنس بيت المقدس وكانت فيه مزبلة عظيمة.

وجاء عمر ومعه كعب فقال: يا أبا أسحاق أتعرف موضع الصخرة؟ فقال اذرع من الحائط الذى يلى وادى جهنم كذا وكذا ذراعًا ثم احضر فإنك تجدها.

قال: وهى يومئذ مزبلة، قال فحفروا فظهرت، فقال عمر لكعب: أين ترى أن نجعل قبلة المسجد؟ قال: اجعلها خلف الصخرة فتجمع القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد ﷺ. قال: يا أبا أسحاق: ضاهيت اليهود، خير المساجد مقدمها. قال: فبنى القبلة فى مقدم المسجد.

ثم بنى عبد الملك بن مروان مسجد بيت المقدس سنة سبعين وحمل إلى بنيانه خراج مصر لسبع سنين، وبنى القبة على الصخرة وجعل فى أعلى القبة ثمانية

(١) ما بين المعقوفين زيادة عن الروض المعطار ٦٨.

(٢) فتوح الشام ١/ ١٥١ـ١٥٥ والروض المعطار ٦٨.

آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب فى كل صفيحة سبعة مثاقيل ونصف من ذهب، وأفرغ على رءوس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبا وخارج القبة كلها صفائح الرصاص وعليها صفيحة(١).

وهى ثلاث قباب متجاورة: قبة الصخرة وقبة السلسلة التى كانت فى زمن داود عليه السلام، وفيها قال الشاعر: [من السريع]

مضى مع الوحى زمان العلى وارتفع الجـــود مع السلسلة

ويقال: إن الذى بنى قبة بيت المسجد وجددها سعيد بن عبد الملك بن مروان، وكان يعرف بسعيد الخير، وهو الذى حفر نهر سعيد بالفرات، وعليه قرى كثيرة.

وطول مسجد بيت المقدس بالذراع الملكى ويقال إنه ذراع سليمان عليه السلام - وهو ثلاثة أشبار - سبعمائة وخمس وخمسون ذراعًا وفيه من الخشب السقف.

وفيه خمسون بابًا منها باب محمد ﷺ، وفى المسجد سبعة محاريب منها محراب مريم، ومحراب يعقوب، ومحراب زكريا الذى بشرته فيه الملائكة.

وفيه كرسى سليمان الذى يدعو عليه، وفيه من الصهاريج أربعة وعشرون صهريجًا للماء، وفيه من سلاسل النحاس للقناديل: وفيه خمسة آلاف قنديل توقد فيه ليلة كل جمعة، وفى السلاسل ثلاثة وأربعون رطلا بالشامى، والرطل بالشامى أربعة أرطال وأربع أواق بالفلفلى.

* * *

(١) الروض المعطار ٦٩ وانظر: معجم بلدان فلسطين ٦٦٢.

فضائل بيت المقدس ثلاث

إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد إيليا»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص فى هذه الآية ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾[٢]. قال: هو سور بيت المقدس.

وعن عبد الله بن عمر[٣] قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لما فرغ سليمان بن داود من بنيان بيت المقدس سأل الله ثلاث خصال: سأل الله أيما عبد خرج من بيته لا يعمد إلا الصلاة فى هذا المسجد أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فنرجو أن الله قد أعطاه ذلك، وسأله حُكما يوافق حكمه فأعطاه ذلك، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه.

وعن كعب قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وشمالها ودعا عند موضع السلسلة وتصدق بما قل أو كثر استجيب دعاؤه وكشف عنه حزنه وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وعن أبى العالية ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[٤] قال: من بركتها أن كل ماء عذب إنما يخرج من أصل صخرة بيت المقدس يعنى عين سماميح.

والله إن مخرجها لمن تحت صخرة بيت المقدس وهى عين فى وسط البحرين.

وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن حريج وكانا عقبتين بدرقين، فقيل لهما:

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الصلاة فى مسجد مكة ١و٥٦ وكتاب الصيد ٢٦ والصوم ٦٧ ومسلم ـ كتاب الحج، حديث ٤١٥و٥١١ والترمذى فى جامعه كتاب الصلاة ١٢٦ والنسائى فى سننه، مساجد ١٠ وابن ماجه، كتاب الإقامة ١٩٦ والدارمى كتاب الصلاة ١٣٣ وأحمد فى المسند ٢/ ٢٢٤ و٢٧٨ و٥٠١ و٣/٢٤٧. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ٢/ ٢٣٤.

(٢) سورة الحديد آية ١٣.

(٣) الدر المنثور ٨/ ٥٦.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٧١.

أرأيتما ما يقول الناس فى هذه الصخرة؟ أشىء له أصل فنأخذ به أم شىء إنما يؤخذ من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما: سبحان الله فمن يشك فى أمرهما؟ إن الله تعالى لما استوى إلى السماء قال: بصخرة بيت المقدس هذا مقامى وموضع عرشى يوم القيامة ومحشر عبادى، وهذا موضع جنتى عن يمينها، وهذا موضع نارى عن يسارها، وأنا ديان الدين، ثم استوى العرش إلى عليين، وفيها أخبار كثيرة يطولُ وصفها.

وعبد الملك بن مروان هو الذى بنى القبة فى أعلى الصخرة، فأبرز الأموال ووكَّل على ذلك رجاء بن حَيْوة ويزيد بن سلام، وحشر لذلك الصناع وأمرهم أن يفرغوا عليها المال إفراغا دون أن ينفقوه إنفاقا. وتبقى من المال بعد بنائها مائة ألف، فأمر بها عبد الملك جائزة لهما فكتبا إليه: نحن أولى أن نزيده من حُلِيّ نسائِنا فضلاً عن أموالنا، فَصَرِّفها فيما شئْتَ، فكتب إليهما: تسبك وتفرغ على القبة، فما كان يقدر أحد إن يتأملها لما عليها من الذهب وكان لها خفاءان: خفاء من لبود وخفاء من أدم من فوقه تلبسها فى الشتاء والصيف، لتكنَّها من الأمطار والرياح والثلوج.

* * *

طول بيت المقدس

. . .[1] ذراعًا بذراع الملك وهو ست قبضات، وعرضه. . .، ويسرح فيه من القناديل. . .، وعدد أبوابه. . .، وعددها فيه من الآباط والعمد. . .، وعدد العمد التى فى داخل الصخرة. . وقناديلها. . من نحاس وعشرة من فضة كبار، وكل واحد عمل عند النبى ﷺ وفى وسط القبة حبل معلق فيه قنديل من فضة بعضها منظومة بالجوهر.

وهذه صفته[2]:

---

(١) كذا فراغ بالأصل.

(٢) فى صفة المسجد الأقصى نقلاً عن محمد محمد شرَّاب فى معجمه عن بلدان فلسطين: «يقع =

وبإيليا الكنيسة العظمى التى وسطها صِهْيَوْن(١)، وهى العتيقة، وهى التى يتعبد فيها داود، وفى وسطها قبر المسيح بزعمهم، فإذا كان يوم عيدهم ويوم السبت الكبير يخرج الناس من موضع القبر إلى الصخر، وحوالى السطح درابزين من أبنوس يشرفون منه على موضع القبر، وكلهم يتضرعون إلى الله عز وجل من

= المسجد الأقصى جنوبى جامع الصخرة وطوله ٨٠ مترًا وعرضه ٥٥ مترًا عدا ما أُضِيفَ إليه من الأبنية، وأول ما يقابلك فى هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأهُ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة ٦٣٤هـ، وجدد من بعده، وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهى إلى سبعة أبواب، كل باب يؤدى إلى كور من أكوار المسجد السبعة. وللمسجد عشرة أبواب، والبناء قائم على خمسة وأربعين عمودًا والغالب أن هذه الأعمدة قديمة نُقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهدًا من الحرم. وفوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، وفوق القناطر صفان من الطاقات، ويتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب. وعدَّة ما فى المسجد من السوارى أربعون، وهى ضخمة مربعة الشكل مبنيَّة بالحجارة. وبأقصى الباب من جهة الجنوب قبَّة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة. وهى مِمَّا رَمَّمه صلاح الدين (٥٨٤هـ) كما رَمَّ أكبر جناحى المسجد، والقُبَّة والجناح على الغالب إنما صُنِعا فى خلافة المهدى بعد تَهدُّم المسجد بفعل الزلازل، وهى كقبة الصخرة من خشبة مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهَّب من باطنها. ومجدِّد هذه الزينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨هـ)، وهناك آيات قرآنية كُتبت بالخطّ الكوفى على جانبى المحراب. والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر وهو من الخشب المرصَّع بالعاج وآبنوس، عُمِل فى عصر نور الدين زنكى، ويقابل المنبر دكّة المؤذنين، وهى على عمد من رخام.

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوارٍ فى غاية الإحكام، بناه الفاطميون ومن جهة الشرق جامع عمر، وهو معقود بالحجر والجير، سمّى بذلك لأنه بقيَّة من الجامع الذى بناه عمر رضى الله عنه حين الفتح. وإلى جانب هذا البناء إيوان كبيرٌ معقود يُسَمَّى مقام، وبه باب يُتَوصَّل منه إلى جامع عمر، وبجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يُسَمَّى محراب زكريا، وهو بجوار الباب الشرقى. وفى صحن المسجد الأقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سُوِّرت بالقُضُب الحديدية يقال لها الكأس، يأتيها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسَّماة ببرك سليمان، أهمها عين عطاب ووادى الآبار. معجم أسماء فلسطين ٦٦٨-٦٦٩.

(١) صهيَوْن: كنيسة فى أعلى مدينة بيت المقدس، جليلة حصينة فيها العلبة التى أكل فيها المسيح مع تلامذته. انظر: الروض المعطار ٣٧٠ ومراصد الاطلاع ٢/ ٩٥٨ - ٨٥٩ وفى معجم البلدان «صيهون» ٣/ ٣٢١.

وقت الأولى إلى المغرب، والإمام الذى يؤم بالناس فى المسجد الجامع قاعد مع الأمير، فهم على هذا حتى يروا نارًا. بيضاء تخرج من جوف القبر، فيفتح السلطان الباب عن القبر ويدخل وفى يده شمعة فيوقدها فى تلك النار فيرفعها إلى الإمام فيأتى الإمام بتلك الشمعة إلى المسجد الجامع فيشعل بها القناديل، فإذا تداولت تلك الشمعة ثلاث أيد اتّقدت كلها وصارت نارًا للعالمين.

ويكتب الأمير بخبر ذلك إلى السلطان ويعلمه أن النار نزلت فى وقت كذا وكذا من يوم كذا، فإذا نزلت تلك النار وقت الأولى من ذلك اليوم كان دليلا على أن السنة تكون خصيبة، وإذا تأخرت ونزلت وقت العصر دلت على أن السنة تكون قحطة. وهذه النار تنزل فى يوم فِصْحِهم.

قال المؤلف[1]: هكذا نقل بعض المؤرخين وهو أمر غير صحيح، وإنما كانت هذه حيلة وناموس عمل من نواميس أسقف بيت المقدس، فكان يعمد إلى خيط إبريسم رقيق طويل فيدخله من وراء الحائط إلى القبر، ويخرج من القبر إلى سرج الثريا وهو مدهون بالبلسان، وتشتعل النار فيه من وراء الحائط بغلافين قد اتخذهما لأصبعين من خشب نورى، وتسرى النار فى البلسان حتى يتقد منها السراج، ففضحه على بن إبراهيم الوزير أيام كونه هناك وكشف للناس وجه حيلته وضرب فى عنقه فبطلت النار من ذلك الوقت.

ويتصل بهذه الكنيسة كنيسة يقال لها كنيسة قسطيص، وبغربيها كنيسة يقال لها الحسمانية، وعلى فرسخ منها مما يلى قبلتها فى مستو من الأرض بيت لحم[2]، وبه ولد المسيح عليه السلام، وبه النخلة التى ساقطت على مريم رطبا جنيا، والسرى الذى جعله الله تحتها فشربت منه وتطهرت والمهد الذى جعلت فيه المسيح، وهو

(١) أبو عبيد البكرى.

(٢) بيت لحم: نسبة إلى «لخمو الكنعانى» وهى بالسريانية، بمعنى بيت الخير وسكنها الكنعانيون سنة ٢٠٠٠ ق.م، وتوالت عليها الأحداث، وكانت فى العصور القديمة قرية متواضعة تكتنفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث، وكانت خصبة الموقع تنتشر فيها حقول القمح.
وقد استمدت بيت لحم شهرتها العالمية الكبرى من مولد المسيح فيها وتقوم المدينة على جبل مرتفع قرابة (٧٨٠) متر عن سطح البحر، وتبعد عن القدس ١٠ كم، جنوبى مدينة القدس، وتبعد عن الخليل ٢٧ كم معجم بلدان فلسطين ١٩٩ـ٢٠٠.

حوض أبيض غسلته فيه، وهو قريب من العين.

وعلى فرسخ من مدينة الطبرية[١] قرية يقال لها المجدل[٢] فيها كنيسة مريم فيها السبعة المجانين الذين أبرأهم المسيح عليه السلام يقال لها الطابقان، وهناك بارك عيسى عليه السلام على خمسة أرغفة وسمكتين، وأطعم منها خمسة آلاف من أصحابه، وفضل منه اثنا عشر زنبيلاً.

ومنها على فرسخ مسجد الخضر[٣]، وتحته قناة ماء يجرى حتى ينصب فى البحيرة ومنها على أربعة فراسخ مسجد بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتحته الجُبّ الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام.

ومنها على فرسخين مدينة يقال لها بانياس، وهاهنا ينبع ماء نهر الأردن وعليه الأرحاء، ويذكرون أنها كانت تقف يوم السبت فلا تطحن، وكان انخسف نصفها، وتعلق الناس بالمسيح أن ترفع، فأبى ورفع رجله حتى انخسف نصف الأرحاء.

وفيها أحيا المسيح بنت أدران الملك بعد عشرة أيام، وعمل العجائب فى تلك المدينة.

* * *

(١) طبرية: مدينة تقع فى الشمال الشرقى من فلسطين، على شاطىء بحيرة طبرية الغربى، على بعد ٢٠ كم إلى الجنوب من مصب نهر الأردن فى بحيرة طبرية.

بُنيت عام (٢٢)م وسميت باسم «طيباريوس» الأمبراطور الرومانى، وفتحها شراحبيل بن حسنة سنة ١٣ـ هـ، وصارت عاصمة (جُنْد الأردن) وزاد من أهمية تلك المدينة أنها كانت تقع على طريق القوافل بين دمشق ومصر، وفى سنة ٣٠ هـ أرسل الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ مصحفًا إلى طبرية. ومن أشهر معالمها الحمّامات المعدنية على بعد ٢ كم إلى الجنوب من المدينة. معجم بلدان فلسطين ٤٩٨ـ٤٩٩.

(٢) المجدل: قرية فى قضاء طبرية. فى الشمال الشرقى من مدينة طبرية على ساحل بحيرة طبرية الغربى، على مسافة ٥ كم شمال مدينة طبرية.

عرفت فى العهد الرومانى «تاريشيا» وهى مدينة قديمة ذكرت فى الإنجيل باسم المجدل. وإليها تنسب مريم المجدلية، التى تذكر الأناجيل أنها كانت مع السيد المسيح وقت الصَّلب والدفن. معجم بلدان فلسطين ٦٤٤.

(٣) انظر: معجم بلدان فلسطين ٣٤٢.

ذكر بلاد الروم وجملة من أخبارهم

كانت رومة دار مملكتهم ونزلهم من ملوكهم تسعة وعشرون ملكا، ثم نزل نُقْمُودِيّة[١] منهم ملكان، ثم انتقلت مملكتهم إلى رومة فنزلها ملكان، ثم ملك بها قسطنطين الأكبر فانتقل إلى بزنطية وبنى عليها سورا وسماها القسطنطينية ولها نحو مائة باب، وطولها من الباب الشرقى إلى الباب الغربى ثمانية وعشرون ميلا، وقيل اثنا عشر فرسخًا فى مثلها، وفرسخهم ميل ونصف، ودور قصر الملك فرسخ يحيط به سور منيف وله ثلاثة أبواب.

وعلى مقربة منه كنيسة الملك، لها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة من فضة، وفى المقصورة التى يصلّى فيها الملك موضع أربع أذرع فى أربع أذرع مرصع بالدر والياقوت.. والأرقنا آلة من خشب مربعة على هيئة المعصرة يغشى بأدم وثيق، ثم تجعل فيه ستون أنبوبة قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب فوق الأدم لا يتبين منها إلا اليسير، وهى على مقادير مختلفة فى الطول ليست متساوية، وتوضع ثلاثة صلبان فوق الآلة: صليب فى طرفها، وصليب فى وسطها، وصليب على الطرف الثانى.

وفى جانب هذه الآلة المربعة ثقب يجعل فيه منفخ مثل كور الحدادين ورجلان ينافخان ذلك المنفخ لا يفتران، ويقوم الأستاذ فيحسب على تلك الأنابيب، وهذه الآلة من أجل ما عندهم، تسمع منها أصوات غريبة مطربة ومتحدثة وملوكهم لا يستغنون عنها فى أكثر أحوالهم وهى من الغريب المتعذر، والله أعلم.

وإذا أراد الملك الخروج إلى هذه الكنيسة العظمى فرش له فى طريقه من باب القصر إلى الكنيسة حصر، وفوق الحصر ضروب الرياحين الطيبة، وتزين حيطان دور المدينة يَمْنَةً ويَسْرَةً بالديباج وضروب ثياب الحرير.

ويخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم كلهم ديباج أبيض، ثم يخرج بعدهم عشرة آلاف خادم عليهم ديباج فى لون السماء فى أيديهم الطبرزينات الملبسة

(١) المسالك والممالك للأصطخرى ٩٣.

بالذهب، ثم يخرج بعدهم خمسة آلاف من فتيان الصقالبة أوساط عليهم ملاحم خراسانية بيض بأيديهم كلهم صلبان الذهب، ثم يخرج من بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم أقبية مُذَهَّبة، بأيديهم رماح وأترسة ملبسة بالذهب، ثم يخرج بعدهم مائة بطريق عليهم ثياب منسوجة بالذهب فى يد كل واحد منهم قضيب من ذهب، ثم يخرج مائة غلام عليهم ثيابة مشهرة مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته، ثم يخرج رجل بين يديه يقال له الرحوم يسكت الناس، ثم يخرج شيخ بيده طست وإبريق من ذهب مرصعان بالدر والياقوت ثم يخرج الملك ماشيا وعليه ثياب الأكسيمون، وهو ثياب من الإبريسم منسوجة بالجوهر كلها، وخُفُّهُ مُرَصَّع بالدرّ والياقوت، وفى يد الملك حقة من ذهب فيها تراب، فكلما خطا خطوة يقول له الوزير بلسانهم: من رموت نسابطر، تفسيره: اذكر الموت والبلى، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى، فيسير كذلك حتى ينتهى إلى باب الكنيسة فيقدم الرجل الطست والإبريق فيغسل الملك يده ويقول للوزير: إنى برىء من دماء الناس كلهم، والله لا يسألنى عن دمائهم وإنى قد جعلتها فى عنقك.

ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويقول له: دِنْ بالحق، ويأمر فيه أن يدار به على أسواق القسطنطينية ويقال له: دِنْ بالحق كما قال لك الملك.

ويلبس الملك الثياب التى يدخل بها الكنيسة، ويأمر بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة فينظرون إلى تلك الزينة فينادون: أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة، ويقولون ذلك ثلاث مرات.

ويساق خلف الملك ثلاثة من الخيل تقاد، ويقول بعضهم: إنها لا تكون إلاَّ شهباء، يقال إنها من نسل خيل كانت للإسكندر، توارثها ملوك اليونانيين ثم ملوك الروم لما غلبوا على المملكة، عليها سروج قرابيسها من الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر، وركبها وألبابها وما اتصل بها مرصّعة من الحجارة بمثل ذلك، وأجلتها من الديباج المرصع بالدر والياقوت، فيدخلونها الكنيسة ولها بها لجام معلق، وهم يقولون: إنّ دابَّة منها متى أخذت تلك اللجام فى فيها ظفروا ببلاد الإسلام، فتجىء الدابة منها فتشم اللجام ثم تقهقر ولا تقدم عليه.

ويقال إنها من نسل دواب كانت لأوقنطاب.

قال أبو سعيد الفارقى: رأيتهم يحملون بين يدى الملك سيوفًا عدة تنسب إلى الإسكندر طول كل سيف منها ثمانية أشبار وهى مرصعة كلها بنفيس الجوهر، فإذا انقضت نواميس شرعهم عاد الملك على الهيئة الأولى إلى قصره.

وباب الذهب منها فى الجانب الجنوبى ومنه يأخذ إلى رومية.

وفيها عجائب يكاد السامع أن لا يقبلها، وفيها من الذهب والجواهر فى أبوابها وأسرتها وجميع أمورها.

* * *

ذكر مدينة روما (١)

[ومدينة رومة فى سهل من الأرض تحيط بها الجبال على بعد، والمطل عليها منها جبل غودية بينه وبينها ستة أميال.

ودور مدينة رومة أربعون ميلا، وقطرها اثنا عشر ميلاً يشقها نهر يسمى تبيروس وينقسم قسمين، ثم يلتقيان آخرها.

وفى وسط مدينة رومة حصن يقال له منت أرقوط فى صخرة مرتفعة منيعة ولم يطق بهذا الحصن عدو قط.

وروِمة قد تغلب عليها مرات، وبين رومة والبحر الشامى اثنا عشر ميلا، وكذلك بينها وبين البحر الجوفى.

وأهل مدينة رومة أجبن خلق الله، ويدبر أمورهم برومة البابه، ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه، فلا يزال يقبِّل رجل البابه، ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام.

وكانت رومة القديمة تسمى رومى باكية أى عجوز، وكان النهر يعترضها، فبنى يوانش الأسقف خلف الوادى مدينة أخرى، فلذلك صار النهر يشقها، وفرش

(١) انظر فى ذلك: المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٠٤ والروض المعطار ٢٧٤ ـ٢٧٥.

النهر عين الصفر، وألصقه بالقصدير والرصاص، وألبست حيطانه بمثل ذلك.

وفى داخل مدينة رومة كنيسة شنتا باطر، وفيها صورة قار له من ذهب بلحيته وجميع هيئته، وهو فى خلق عبوس قد رفع عن الأرض فى خشبة مصلوبا، وفى وسط الكنيسة صورة أخرى لبعض ملوكهم من ذهب أيضًا.

ولهذه الكنيسة أربعة أبواب من فضة سبكًا واحدًا، كلها مسقفة بقراميد الصفر ملصقة بالقصدير، وحيطانها كلها نحاس أصفر رومى، وأعمدتها وأساطينها من بيت المقدس، وهى فى غاية من الحسن والجمال.

ويزار فى هذه الكنيسة مخلبان من مخالب العنقاء. وهم يسمونها الغريقة - طول كل مخلب اثنا عشر شبرا، وداخل هذه الكنيسة بيت بنى باسم بطرس وبولس الحواريَّين، وطول هذه الكنيسة ثلاثمائة ذراع وسمكها مائتا ذراع][1].

* * *

ذكر شىء من سِيَر الروم وأخبارهم ومذاهبهم

[وأهل رومة أجمعون يحلقون لحاهم كلها، ويحلقون أوساط هامهم، ويزعمون: أن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانيًا خالصًا، ويقول علماؤهم إن سبب ذلك: أن شمعون الصفا جاءهم والحواريون وهم قوم مساكين ليس بيد كل واحد منهم إلا عصا وجراب، قالوا: ونحن ملوك نلبس الديباج، ونقعد على كراسى الذهب، فدعونا إلى النصرانية فلم نجبهم، وأخذناهم وعذبناهم، وحلقنا رءوسهم ولحاهم، فلما ظهر لنا صدق قولهم حلقنا لحانا كفارة لما ركبنا من حلق لحاهم.

وإنما صار النصارى يُعَظِّمون يومَ الأحد؛ لأنَّهم يزعمون أَنَّ المسيح قام فى القبر ليلة الأحد، وارتفع إلى السماء ليلة الأحد بعد اجتماعه مع الحواريين.

وهم لا يرون الغسل من الجنابة، ولا وضوء عندهم للصلاة، وإنما عبادتهم النية، ولا يأخذون القربان حتى يقولوا: هذا لحمك ودمك، يريدون المسيح،

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى الروض المعطار فى مادة «رومية» ٢٧٥.

وليس بخمر وليس بخبز.

والسكر عندهم حرام، ولا يتكلم أحد إذا أخذ القربان حتى يغسل فمه، وإذا تقربوا قبَّل بعضهم بعضا وتعانقوا.

ولا يتزوج أحد منهم أكثر من امرأة واحدة، ولا يتسرَّى عليها، فإن زنت باعها، وإن زنى باعته، وليس لهم طلاق.

ويورثون النساء جزءين والذكور جزءًا، ومن سنتهم ألا يلبس الخفاف الحمر إلا ملك.

وهم يخففون فى الحكم على الشريف، ويثقلون على الوضيع حتى يبلغ به البيع ومن أحكامهم أن من زنى بأمة غيره فلا شىء عليه إذا زنى بها خارج الدار كأنه لم يأت بريبة، وإن زنى بها فى دار سيدها فعليه حد معروف، ومن أولد عندهم أمة، فولده زنيم، ولا يجوز لذلك الولد عندهم رتبة القسيسة، ولا يرث أباه إذا كان له ولد من حرة وولد الحرة يحيط بميراثه، وإن لم يكن له ولد غير ولد الأمة ورثه.

وهم يفطرون فى صومهم فى كل جمعة يومين، وهما يوم السبت ويوم الأحد، وأمر الصوم عندهم خفيف ليس بالشديد اللزوم، وإنما أصله عندهم الصوم الذى صامه المسيح بزعمهم استدفاعا لإبليس، وكان صومه أربعين يومًا كاملاً، موصولة بلياليها فى قولهم، وهم لا يصومون يومًا كاملاً ولا ليلة كاملة، ومن كان بين المسلمين منهم يؤخر الفطر حياء منهم، وهم فى موضع مملكتهم لا يصومون إلا نصف النهار أو نحوه.

والمواظب منهم للصلاة والجماعات من شهد الكنيسة يوم الأحد وليلته وأيام القرابين السبعة، ولو غاب عنها عمره كله ولم يطعن بذلك عليه طاعن ولا عابه بذلك عائب.

وليس يشتمل مصحف النصارى الذى هو ديوان فقههم وكنز علمهم، وعليه معولهم فى أحكامهم، واعتمادهم فى شرائعهم إلا على خمسمائة وسبع وخمسين مسألة، ومن هذه المسائل على قلتها مسائل موضوعة لا معنى لها، ولا حاجة بهم إلى تفسيرها، لم يقع فى سالف الزمان ولا يقع فى غابره.

وليست سنتهم مأخوذة من تنزيل ولا رواية عن نبىّ، وإنما جميعها عن ملوكهم، وإيمانهم الذى لا يعدونه بالله الذى لا يعبد غيره، ولا يدان إلاّ له، وإلا فخلع النصرانية، وبرىء من المعمودية، وطرح على المذبح حيضة يهودية وإلا فلعنه البطريق الأكبر والشمامسة والديوانيون وأصحاب الصوامع ومقربة القربان، وإلا فبرىء من الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين][1] خرجوا من بيوتهم حتى أقاموا دين النصرانية، وإلا فشق الناموس وطنح به لحم حمل، وأكله يوم الإثنين مدخل الصوم، وإلا فلقى الله بعمل إسحاق طهربا اليهودى. أكمل ثلث الديوان والحمد لله.

* * *

جزيرة قبرص[2]

سميت بذلك لمدينه هناك تسمى قبرو.

وجزيرة قبرس كانت معظمة فى القديم للوثن المسمى فانوس وهو على اسم ذو الزهرة وأهل قبرص موصوفون بالغناء والجدة، وبها معادن الصفر، وفى جزيرة قبرص اللادن ولا يجمع فى غيرها، والذى يجمع منه على الشجر خاصة يحمل إلى ملك القسطنطينية أفضله؛ لأنه يعادل الألنجوح القمارى طيبا، وسائر ما يجمع مما يسقط على وجه الأرض هو الذى يستعمله الناس.

* * *

(١) النقل هنا عن البكرى فى كتاب الروض المعطار ٢٧٦.

(٢) انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٥١ وصورة الأرض ١٨٤.

جزيرة إقريطش [1]

لها اثنا عشر ميلا، وقيل: دور إقريطش ثمانمائة ميل.

سميت برجل من المجوس يقال له قراطى، ويسمى أيضًا إقريطش البتر بلش وترجمته مائة مدينة، وكذلك كان بها مائة مدينة.

وباقريطش أول ما استنبطت صناعة الموسيقى.

وهى كثيرة المعز، وليس بها إبل ولا سبع ولا ثعلب ولا غيرهما من الدواب الدابة بالليل ولا فيها حية، وإذا دخلت فيها ماتت فى ذلك العام.. وهى كثيرة الكروم والأشجار، ومراسيها من ناحية الشرق: مرسى الفتوح وهو مرسى مشتى حسن لا نظير له فى موضع، ومراس كثيرة لا حاجة إلى ذكرها.

* * *

جزيرة صقلية [2]

وجزيرة صقلية سميت باسم شيقلوا أخى إيطال الذى به سميت إطالية.

وطولها من جبل بلرمة إلى جبل بحيشة؟ وعرضها من جبل بحيشة إلى جبل أليبو؟ عند مرسى على، ويذكر أنها مثلثة الشكل.

وقال بعضهم: لا أدرى جزيرة فى البحر أكثر منها بلادًا ولا عمارة أقطار، فالثلث الشرقى منها من مسينى إلى جزيرة الأديب مائتاميل، ومن جزيرة الأديب إلى طرابنش أربعمائة ميل وخمسون ميلاً [3]، وهو الوجه الجنوبى، والوجه الثالث من طرابنش إلى الحراش اثنان وخمسون ميلاً.

وهى كثيرة الزرع والضرع والفواكه.

(١) وهى الآن جزيرة كريت، انظر المسالك والممالك للاصطخرى ٥١ وصورة الأرض ١٨٤.

(٢) راجع: الروض المعطار ٣٦٧ وصورة الأرض ١٨٤.

(٣) المسالك والممالك للأصطخرى ٥١.

وبلرمة قاعدتها فى شمال الجزيرة على سبع ليال من المجاز.

وبجزيرة صقلية البركان العظيم الذى لا يعلم فى العالم أشنع منظرا منه ولا أغرب جبلاً، وهو فى جزيرتين شمالاً من هذه الجزيرة، وإذا هبت الريح الجوفية سمع له دوى هائل كالرعد القاصفى.

وكان قوفوريوس الفيلسوف قد شخص من مدينة صور إلى صقلية لينظر إلى البركان، ويعاين فعل الطبيعة هناك، ويخبر عنه وعن العاقبة بقول واضح، فمات بها وقبره معروف، وقبر جالينوس أيضًا هناك معلوم، وكان قد شخص من مدينة رومة يريد الشام ليلقى أصحاب عيسى عليه السلام.

وبصقلية مياه حامضة وبها معدن الكبريت الأصفر[١].

وبجزيرة صقلية آبار ثلاث عند قلعة مينا من إقليم سرقوسة يخرج منها فى وقت معلوم من السنة زيت النفط، وذلك فى شهر شباط وشهرين بعده.

وذكر بعض المؤرخين أن جزيرة صقلية كان يسكنها فى قديم الدهر أمة مهملة تأكل الناس، ويقال إنه كان فيها جنس من المسوخ بعين واحدة فى وسط جباههم يسمون حقلوفس.

ولم تزل صقلية على قديم الدهر كثيرة الفتن والحروب، وفى السنة التى بويع فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه صار قسطنطين بن هرقل فى ألفى مركب يريد بلاد المسلمين، فسلط الله تعالى عليهم عاصفا من الريح فأغرقهم فنجا بنفسه قسطنطين فلما أتى صقلية صنعوا له حمامًا ودخله وقتلوه فيه.

ولصقلية مدن كثيرة ونهران يطردان من عين واحدة يقال لأحدهما طوشرم وللآخر القارم.

وبصقلية جزيرتا البركان الواحدة كبيرة والأخرى صغيرة، وفى هاتين الجزيرتين تتقد النار أبدًا، فيرى فيهما لهب النار بالليل ودخانه بالنهار.

ومن العجائب أن النار فى إحدى الجزيرتين حديثة ولم تكن بها من قبل. وهاتان الجزيرتان ومايليهما تسمى جزائر أوليا، سميت باسم أوليس بل بكيو الذى ذكرت فلاسفة الجاهلية أنه كان أميرًا لتلك الجزائر، وكان يعلم أهلها بما يحدث فى

(١) الروض المعطار ٣٦٧.

الرياح لتجارب حفظها، فاتخذوه إلها، وبصقلية غرائب يطول ذكرها.

[وفى سنة اثنتى عشرة ومائتين فزع فيمة البطريق النصرانى قائد صاحب صقلية إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فقرب عليه أمر صقلية والظفر بها فولى زيادة الله أسد بن الفرات القاضى الفقيه على جيش إفريقية من قريش والعرب والبربر وغيرهم وأقره على القضاء مع القيادة.

وخرج أسد فى حفل عظيم وجمع كثير وعدة كاملة، وذلك فى شهر ربيع الأول من العام المذكور، وكان فصوله من مدينة سوسة فى سبعين مركبًا يوم السبت للنصف من شهر ربيع الآخر، ووصل إلى مرسى مازر يوم الثلاثاء بعده، وكانت طريقه من المرسى على قلعة بلوط، ثم على قرى الريش ثم صار إلى قلعة الدب، سميت بذلك لأنهم أصابوا فيها أنيسا، ثم إلى قرية الطواويس، وسميت بذلك لأنهم أصابوا فيها طاوسًا، ثم إلى معركة بلاطة، وهناك ظهر لهم جمع الروم فنازلهم فانهزم المشركون وأصيب لهم كراع وسلاح، ولذلك سميت معركة بلاطة، وهو اسم ملك النصارى، ثم رحل إلى حصون الروم وقراهم يغير ويسبى، وبث الثرايا فى جميع الجزيرة وكثرت المغانم عند المسلمين وصاروا فى رغد من العيش، وسارع الناس إلى إمدادهم من إفريقية والأندلس، وحاصر أسد مدينة سرقوسة، وقاتلهم برًا وبحرًا وأحرق مراكبها، وقتل جماعة من أهلها.

ومات أسد بن الفرات رحمه الله سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو محاصر لسرقوسته، ووقع الموتان على عسكر المسلمين][(١)].

وولوا على أنفسهم ابن الجوارى وأمدتهم مراكب من إفريقية فيها رجل يسمى عمروس، فخرج إليهم قسطنطين صاحب صقلية وهو نازل بلرمة فى عسكر جرار، فحفر لهم المسلمون حفرًا وغيبوها بالكلأ والعشب، ثم استطردوا لهم عند اللقاء حتى تساقطوا فى تلك الحفر، فكان ممن سقط منهم قسطنطين وابنه، فأسر قسطنطين وقد أثخن جراحًا، ففدى من المسلمين بفداء جزيل فأحمله أهله فمات بالحمة، فحملوه ودفنوه بمرس الطين، وبنوا على قبره الكنيسة التى بالمرسى.

وكان بعد ذلك فيها ولايات كثيرة، وحروب مع الروم يطول ذكرها.

---

(١) النقل هنا عن البكرى فى الروض المعطار ٣٦٦.

ذكر جزيرة مالطة[1]

ومن الجزائر المشهورة التى تلى صقلية جزيرة مالطة فى القبلة منها بينهما مجرى واحد، وفيها مراس منشأة للسفن، وأشجارها الصنوبر والعرعر والزيتون.

وطولها ثلاثون ميلاً، وفيها مدينة من بنيان الأول، وكان يسكنها الروم، وغزاها خلف الخادم مولى زيادة الله بن إبراهيم عند قيام أبى عبد الله محمد بن أحمد[2] ابن أخى زيادة الله على يد أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب، وهو الذى شقى فى أمرها.

وخلف هذا هو المعروف ببناء المساجد والقناطر والمراجل، فحاصرها ومات وهو محاصر لها، فكتبوا إلى أبى عبد الله بوفاته، فكتب أبو عبد الله إلى عامل جزيرة صقلية، وهو محمد بن خفاجة، أن يبعث إليهم داليا فبعث إليهم سوادة بن محمد، ففتحوا حصن مالطة وظفروا بملكها عمروس أسيرًا، فهدموا حصنها وغنموا وسبوا ما عجزوا عن حمله، وحمل لأحمد من كنائس مالطة ما بنى به قصره الذى بسوسة داخلاً فى البحر، والمسلك إليه على قنطرة، فبقيت بعد ذلك جزيرة مالطة خربة غير آهلة، وإنما كان يدخلها النشاؤون للسفن، فإن العود فيها أمكن أن يكون والصيادون للحوت لكثرته فى سواحلها والشائرون للعسل، فإنه أكثر شيء هناك.

فلما كان بعد الأربعين والأربعمائة من الهجرة عمرها المسلمون وبنوا مدينتها ثم عادت أتم مما كانت عليه، فغزاها الروم سنة خمس وأربعين وأربعمائة فى مراكب كثيرة وعدد فحاصروا المسلمين فى المدينة واشتد الحصار عليهم وطمعوا فيهم، فسألهم المسلمون الأمان فأبوا إلا على النساء والأموال، فأحصى المسلمون عدد المقاتلة من أنفسهم فوجدوهم نحو أربعمائة، ثم أحصوا عبيدهم فوجدوهم أكثر

---

(١) انظر: آثار البلاد ١٥٧ والروض المعطار ٥٢٠ وصورة الأرض ١٨٤.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد، هو المشهور بأبى الغرانيق توفى سنة ٢٦١. نهاية الأرب ٨١/٢٢.

عدداً منهم فجمعوهم وقالوا لهم: إنكم إن ناصحتمونا فى قتال عدونا وبلغتم من ذلك مبلغًا وانتهيتم حيث انتهينا فأنتم أحرار، نلحقكم بأنفسنا وننكحكم بناتنا ونشارككم فى أموالنا، وإن أنتم توانيتم وخذلتمونا لحقكم من السباء والرّق ما يلحقنا، وكنتم أشدّ حالاً منا، لأن أحدنا قد يفاديه حميمه، ويخلصه من الأسر وليه، ويتما لأعلى استنقاذه جماعته، فوعد العبيد من أنفسهم بأكثر مما ظنوا بهم، ووجدوهم إلى مناجزة عدوهم أسرع منهم.

فلما أصبح القوم من اليوم الثانى غاداهم الروم على عادتهم، وقد طمعوا فى ذلك اليوم فى التغلّب عليهم وأَسْرِهم، والمسلمون قد استعدّوا فى أكمل عُدَّة للقائهم، وأصبحوا على بصيرة فى مناجزتهم، واستنصروا الله عز وجل عليهم وزحفوا وثاروا نحوهم دعسًا بالرماح وضربًا بالسيوف غير هاربين ولا معرجين، واثقين بإحدى الحسنيين. من الظفر العاجل أو الفوز الآجل.

فأمدهم الله تعالى بالنصر وأفرغ عليهم الصبر، وقذف فى قلوب أعدائهم الزعر، فولوا منهزمين لا يلوون واستأصل القتل أكثرهم، واستولى المسلمون على مراكبهم فما أفلتهم منها غير واحد، ولحقوا عبيدهم بأحرارهم ووفوا لهم بميعادهم،

وهاب العدوّ بعد ذلك أمرهم، فلم يعترضْهُم أحدٌ منهم إلى حين.

* * *

ذكر جزيرة قوْصرة[1]

ويلى جزيرة مازر من صقلية جزيرة قوصرة، بينهما مجرى واحد.

والجزائر بتلك الناحية كثيرة.

* * *

---

(١) قَوْصَرَة: بالفتح ثم السكون والصاد مهملة، جزيرة فى بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية، خربت. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣.

ذكر مجدونية

فأما مجدونية[١] فهى قاعدة الروم الأغريقيين، ومنها أرسطاطاليس فيلسوف الروم وعالمها، وهو معلم الإسكندر الأكبر وله رسائل عجيبة.

وقد حددها الكندى عند ذكر ممالك صاحب القسطنطينية، وكانت مجدونية تسمى فى القديم ممارية مشتقة من اسم ملكها ماريش.

* * *

ذكر طراقية

فأما بلد طراقية فحدها من المشرق مدينة القسطنطينية، ومن ناحية الجوف يمتد إلى ناحية الأشبان، ومن ناحية القبلة معظم البحر، ومن ناحية المغرب يتصل ببلد مجدونية، ويتصل به بلد طشالية، وزعموا أن أهلها أول من عمل اللُّجُم للخيل، وأنهم ابتدعوا رياضة الخيل والبيطرة.

* * *

ذكر طشالية[٢]

أرض بين الروم والترك فيها عينان تجريان ويكون عنهما نهران، إن شربت الماشية من إحداهما اسودت ووضعت سودًا، والأخرى إن شربت منها الماشية وضعت أولادها بُلْقًا، وبطشالية استنبط ضرب الدنانير من الذهب.

* * *

(١) فى مراصد الإطلاع ٣/ ١٢٣٠ (مَجذُنّية).

(٢) انظر: الروض المعطار ٣٩٦.

ذكر بلاد الأنقلش[1]

وهم جنس من الأتراك نزلوا مصاقبين للصقالبة، وحد بلدهم فى الغرب بلد بويرة وبلد بويصلاد، وفى الجوف منهم الروس، وفى الشرق منهم البجناك وقفار لا تسكن هى بين بلد البجناك وبين بلد البلقارين من الصقالبة، وفى القبلة بعض بلاد البلقارين، ومسافة قفار لا تسكن.

* * *

ذكر الروس[2]

وأمَّا بلاد الروس فهم فى جزيرة حواليها بحيرة، وطول جزيرتهم مسيرة خمسة أيام وفيها مشاجر وغياض.

وملكهم يقال له خاقان روس، وهم فى نحو مائة ألف إنسان، وهم يغزون الصقالبة فى السفن، وبلكار تبع للروس وموافقون لهم.

وليس للروس مزارع ولا كسب إلا بسيوفهم، وقيل هم ثلاثة أصناف: صنف منهم ينزل ملكهم مدينة كويابة، وهى أقرب من بلقار، وهم أقرب الروس إلى بلقار، وصنف آخر يسمون الصلاوة، وصنف ثالث يسمون الأوثانية وملكهم مقيم بأوثان، والتجار إليهم لا يتجاوزون كويابة.

فأما أوثان فلم يخبر أحد أنه دخلها؛ لأنهم يقتلون كل من وصل إليهم من الغرباء والله أعلم.

* * *

(١) الروض المعطار ٣٠.

(٢) راجع: مروج الذهب ١/١٨٨ ـ ١٩٠.

ذكر جملة من القول فى الأمصار ومساحات الممالك

ذكر أن عمر لما استفتح البلاد من العراق والشام ومصر كتب إلى بعض حكماء العصر يسأله عن البلاد وتأثير أهويتها وتربتها فى سكانها، فكتب إليه: أما الشام فَتَحْتَ ركام وبحّ عُمام، تضفى الألوان، تُرْطبُ الأجسام وتبلد الأفهام.

وأما أرض مصر فهواؤها راكد وحَرُّها مُتَزَايد، تطول الأعمار، وتسوّدُ الأبشار، وتبلّد الفِطن، وتُذْكى الإِحَن.

وأما أرضُ اليمن فتُضْعِفُ الأجسام، وتهذب الأحلام، مغايضها خصبة وأطرافها جدبة.

وأما الحجاز: فهواؤه حرور، وليله بهور، يشجع القلوب وينحف الجسوم وفى أهله غدر، ولهم خب ومكر، ولديارهم فى آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمور تظهر، وأحوال تبهر.

وأما العراق: فقلب الأرض ومسلك النور وقرارة النظارة، ولأهله أعدل الألوان وأصفى الأذهان.

وأما الجبال: فتخشن الأجسام، وتبلد الأفهام وتميت الهمم، وتفسد الشيم.

وأما خراسان فتعظم الأبدان وتكبر الهام، وتلطف الأفهام، ولأهلها غوص وتفكير، ورأى وتدبير.

وذكر أن معاوية سأل عبد الله بن الكواء[١] فقال: أخبرنى عن أهل البصرة فقال: يقاتلون معًا ويدبرون شتّى.

قال: فأخبرنى عن أهل الكوفة فقال: أنظر الناس فى صغيرة وأوقعهم فى كبيرة.

قال: أخبرنى عن أهل المدينة، قال: أحرص الناس على فتنة وأعجزهم عنها.

قال فأخبرنى عن أهل مصر قال: لقمة لأكل.

(١) النص فى مختصر البلدان ١٢٨.

قال: فأخبرنى عن أهل الحيرة. قال: كناسة بين حديقتين.

قال: فأخبرنى عن أهل الموصل قال: قلادة وليدة فيها من كل خرز.

قال فأخبرنى عن الشام، قال: جنة أمير المؤمنين ولا أقول فيهم شيئًا.

قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق، ولا يحسبون للسماء ساكنا.

وروى أن عمرو بن العاص قال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها، وأهل العراق أطلب الناس لعلم وأعلمهم بخلافة، وأهل مصر أعقل الناس صغارًا واحمقهم كبارًا، وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق.

وقال سليمان بن موسى: إذا كان الرجل علمه حجازى، وسخاؤه عراقى، واستقامته شامية فقد كمل.

وقال بعض الحكماء: أهل الحجاز أهل لهو ومعازف ومداعبة وتأنيث، وأهل اليمن أهل غفلة وخفة ولين، وأهل العراق أهل فكرة وفطنه وغدر وخبث وحيل وكثرة كلام، وأهل الشام أهل غفلة وسلامة صدور وعون للظلمة، وأهل مصر أهل غفلة ولين وقلب فطن، وأهل خراسان أهل غفلة وحرص وبخل وشجاعة، وأهل الهند أهل حكمة وشجاعة وحسن سيرة ولين وأهل الصين أهل طيش وخفة وجبن.

وقال بكر بن وائل عن محمد بن سلم يرفعه: قسم الحظ عشرة أجزاء فتسعة فى الترك وجزء فى سائر الناس، وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة فى فارس وجزء فى سائر الناس، وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة فى الروم وجزء فى سائر الناس وقسم السخاء عشرة أجزاء فتسعة فى السودان وجزء فى سائر الناس، وقسم الشبق عشرة أجزاء، فتسعة فى الهند وجزء فى سائر الناس، وقسم الحسد عشرة أجزاء فتسعة فى العرب وجزء فى سائر الناس.

وقال أيضًا بعض الحكماء: لا ترى أمة أكمل من كوفية، ولا أظرف من مدنية ولا أبرع كمالاً من رومية، ولا أحسن من أندلسية، ولا أسحر بعينها من حبشية ولا أحسن قواما من سندية، ولا أنجب للولد من خوشية، ولا أعسر قفرًا من خزرية.

فلما أراد عمر النهوض إلى العراق سأل كعب الأحبار[١] عنها فقال: يا أمير المؤمنين، لما خلق الله الأشياء لحق كل شيء بشيء، فقال العقل: إنى لاحق بالعراق. فقال العلم وأنا معك. فقال المال: فإنى لاحق بالشام، فقالت الفتن، وأنا معك، قال الخصب: إنى لاحق بمصر. قال الذل: وأنا معك، قال الشقاء: إنى لاحق بالبوادى قالت الصحة: وأنا معك.

وقال الحجاج: لما تبوأت الأمور منازلها قالت الطاعة: أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك قال النفاق: وأنا أنزل العراق قالت النعمة: وأنا معك.

قالت الصحة: أنزل البادية. قالت الشقوة: وأنا معك.

وما خص به العراق[٢] مادّة الرافدين وهما دجلة والفرات، وكانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد؛ لتوسطه الأرض، ولأنه من إقليم بابل الذى سبقت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما تكون الحكمة من القلب وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام.

وقالوا: العراق لا جبلية ولا بحرية، ولا شتاء كشتاء أرمينية ولا صيف كصيف عدن، ولا صواعق كصواعق تهامة، ولا جرب كجرب اليمن، ولا طاعون كطواعين الشام، ولا طحال كطحال البحرين، ولا حمى كحمى خيبر، ولا زلازل كزلازل صبرة، ولا دمامل كدمامل الجزيرة، ولا جنون كجنون حمص، ولا هواء يختلف كهواء مصر التى لم يجعل الله عز وجل فى أرزاق أهلها وأقواتهم نصيبًا من الرحمة التى نشرها على عباده بالغيث الذى جعله عمارة لبلاده.

وقال ابن الزبير[٣]: ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم.

وقالت الحكماء: عمر الله البلدان بحب الأوطان.

وقال أبقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتسرع إلى غذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها.

---

(١) النص عن مروج الذهب ٢/ ٧٠.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٧١.

(٣) مروج الذهب ٢/ ٧١.

وزعم الفزارى: أن عمل أمير المؤمنين من أقصى خراسان - وهو مزغانه - إلى طنجة بالمغرب ثلاث آلاف فرسخ فى سبعمائة فرسخ، وعمل الصين فى المشرق واحد وثلاثون ألف فرسخ في أحد عشر ألف فرسخ، وعمل الهند فى المشرق أحد عشر ألف فرسخ فى سبعة آلاف فرسخ، وعمل تبّت خمسمائة فرسخ فى مائتين وثلاثين فرسخ، وعمل كابل شاه أربعمائة فرسخ فى ستين، وعمل الترك ألف فرسخ فى خمسمائة فرسخ، وعمل الخزر واللان سبعمائة فى خمسمائة، وعمل برجان ألف وخمسمائة فى سبعمائة، وعمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فى أربعة وعشرين، وعمل الأندلس ثلاثمائة فرسخ فى مائة فرسخ، وعمل رومة ثلاثة الآف فرسخ فى سبعمائة فرسخ، وعمل إدريس الفاطمى ألف ومائتا فرسخ فى مائة وعشرين فرسخًا، وعمل فارس لابن المنتصر أربعمائة فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل أنبية ألفان وخمسمائة فرسخ فى ستمائة فرسخ، وعمل غانه بلاد الذهب ألف فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل ورام مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل نخلة مائة وعشرون فرسخًا فى ستين فرسخًا وعمل واخ ستون فى أربعين، وعمل البجاة مائتا فرسخ فى ثمانين، وعمل النوبة ألف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة، وعمل الزنخ تسعة آلاف وستمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ، وعمل أسطوا لأحمد بن المنتصر أربعمائة فرسخ فى مائتين وخمسين فرسخًا، فذلك الطول اثنان وسبعون ألف فرسخ وأربعمائة فرسخ وثلاثون فرسخا، والعرض خمسة وعشرون ألفا ومائتان وخمسون فرسخًا.

***

ذكر أقسام إيرانشهر (١)

وهو يشتمل على بلدان مسمّاة يضم كل بلد عدة كور، فالبلاد: خراسان(٢) وكرمان وفارس والأهواز والجبل وسحيستان وأرمينية وآزربيجان والموصل والجزيرة والشام وسورستان وهى متوسطه لهذه البلاد.

(١) انظر: الأعلاق النفسية ١٠٣-١٠٥.

(٢) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٣٥٨.

فكور خراسان: الطبسان وقوهستان ونسيابور وهراة وبوشنج وباذ غيس وطوس ونسا وأبيورد وسرخس ومرو الروذ[١] والطالقان[٢] والفرياب[٣] والجوزان والترمذ ومن وراء النهر وبخارى وسمرقند وكش ونسف وأول بلاد الترك وشاش وفرغانة وأشروشنة وخوارزم مضمومة إلى خراسان.

وكوركرمان[٤]: أواس والسيرجان وبردسير وَيَمْ وجيرُفت وهرمز.

وكور فارس[٥]: سابور وإصطخر وأردشير خرة ودارا بجردَ وفسا وأرَجان وشيراز.

وكور الأهواز: سوق الأهواز، وجندى سابور ورامهرمز وسُرَّق وبيذق وتستتر والسوس.

وكور الجبل: ماسبذان ومهرجان وقذق وماه الكوفة، وهى الدينور، وماه البصرة، وهى: نهاوند وهمدان وقم ومما ينسب إلى الجبل من الكور وليس منه ولا من خراسان: الرى وقومس وأصبهان وشهر زور وصامغان وداراباذ وقزوين وأبهر وذنجان وطبرستان وجرجان ودنباوند.

وكورسجستان: زرنج وبُسْت والرُّخخ[٦].

وكور أرمينية: أران وجرذان ونشوى وخلاط ودبيل وسراج وجردبيل وياخس وأرجيش وسيسجان ومدينة الباب والأبواب وهى درجان وكور أذربيجان: أردبيل ومرنج وباجران وورثان والمراغة.

وكور الموصل: الموصل وتكريت وطيرهان والسن والحديثة والمرج وباجلى وباجرمى.

---

(١) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٣٦٩.

(٢) الطالقان: مدينة نحو مرو الروذ فى الكبر، ولها مياه جارية وبساتين قليلة، وبناؤها من الطين، وهى أصحّ هواء من مرو الروذ. صورة الأرض ٣٦٩.

(٣) الفرياب: مدينة من الجوزجان أصغر من الطالقان، إلاّ أنها أكثر بساتين من الطالقان، وبناؤها من طين، وبها مسجد جامع. صورة الأرض ٣٧٠.

(٤) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٢٦٨ـ٢٧٣.

(٥) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٢٣٤.

(٦) الأعلاق النفيسة ١٠٤.

وكور الجزيرة[١]: أرزن وميافارقين وآمد وسميساط ودارا ونصيبين ورأس عين وقرقسيا والرقة وسروج وحران والرها وقردى وبازبدى وبلد.

وهذه الكور قسمان: قسم يسمى ديار ربيعة وقسم يسمى ديار مضر؛ فأما ديار مضر منها فإن فى واسطتها الرقة ومنها البيضاء وحران والرها وسميساط وسروج، ومنها رأس كنعان وأنبية بنى تميم والمارجين والمدينتان وعين زَرْبَة وبازبدى وسلقرس.

وقد زعموا أن من أقام بالموصل حولاً فتفقّد عقله وجد فيه نقصانا وإن تفقد قوته وجد منه فضلاً.

ومن كورها: مدينة الحَضْر ونينوى وبادقل وحزة وأنفاس ودقوقا والبواريج وجا محال وقامر وبازبدى وأخشور، وهى كلها متقاربة المسافات فى الفراسخ من سبعة فراسخ إلى اثنى عشر فرسخا.

وكور الجزيرة التى تسمى الثغور: ملطية وزبطرة ومرعش والحدث وحصن منصور.

وكور الشام[٢] حلب وقنسرين وأنطاكية وشيزر وحماة وحمص وفامية وبعلبك والطبرية، وهى الأردن، والرملة، وهى فلسطين وإيلية.

وكور الشام التى تسمى الثغور الشامية: أذنه والمصيصة وطرسوس وعين زربة والهاشمية والكنيسة السوداء والعواصم وأنطاكية وتيراوقورش ومنبج ودلوك وعمان.

وكل ما ذكر من البلاد والكور يشتمل على قواعد جليلة وقرى شريفة لا يحيط بها إلا خالقها.

وجَنَّد عمر ـ رضى الله عنه ـ الشام أربعة أجناد متفرقة فى أيدى عماله وهم خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، وبقيت على هذا التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قِنَّسْرِين، وكانت فى أرض الجزيرة.

(١) انظر فى ذلك: صورة الأرض ١٨٧ـ١٨٩.

(٢) انظر للمزيد: صورة الأرض ١٥٨ـ١٦٢.

حكم الخراج فى البلاد المذكورة

وانتهى الخراج بجميع ما ينضاف إليه فى جميع الكور والبلاد بعد سنتين من خلافة الرشيد على ما ذكر ورفعه أبو الوزير بن هانى المروزى ألى يحيى بن خالد ابن برمك من الذهب والفضة على التحميل الفضة ذهبا صرفًا ثلاثة عشر درهمًا بدينار: أربعة وثلاثون ألف ألف دينار ومائة ألف دينار وأربعة ألاف وست مائة وستة وأربعون دينارًا، تكون أرطالاً: تجتمع مائة ألف وخمسة وخمسون ألف ألف ومائتان وستة وخمسون رطلا وتسع أواقٍ غير ربع أوقية.

وتكون قناطير: ثلاثة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار واثنان وخمسون رطلاً وتسع أواق غير ربع أوقية سوى حلل الأنبار واليمن وثياب الهند والسند والعود الهندى ورقيقة ونقز فضة خراسان ورقيقهما وثيابهما وإبريسم جرجان وطبرى طبرستان وأكسيةديناوند والرويان ورقيق جيلان ووشى أرمينية وعنبر اليمن وبسط أفريقية وفتياتها ووصائفها.

* * *

القول فى أخبار المغرب وذكر مصر ونيلها وملوكها وبرابيها وأهرامها والمشهور من بلاد المغرب وجمل من أخبارها

وصفها بعض الحكماء فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زُمُرُّدة خضراء وثلاثة أشهر سبيكةُ ذهبٍ حمراء، يريد أنها فى تموز وآب وأيلول يركَبُها الماء، فترى الدنيا بيضاء وضياءها على رواب وتلال كالكواكب قد أحاطت بها المياه فلا سبيل لبعض منهم إلى بعض إلاَّ فى الزوارق، ثم تكون فى تشرينين وكانون بعد نضب الماء عنها مزارع وتربة ندية ذات روائح طيبة تشبه ريح المسك، ثم تكون فى كانون الثانى وشباط وأزار قد اتصلت خضرتها واستوسقت نضرتها، فكانت زمردة خضراء، ثم فى نيسان وأيار وحزيران يدرك الزرع ويتورد العشب فتصير كسبيكة الذهب منظرًا ومنفعة.

والنيل إذا زاد غاضت الأنهار والعيون والآبار، وإذا غاض زادت، وزيادتها من غَيْضه، وَغَيْضُها من زيادته، وهذا عجيب[١]، وليس فى الدنيا نَهْرٌ يسمى بحرًا ويَمّاً غيره. قال الله تعالى ﴿**فَاقْذفيه فى اليَمِّ**﴾[٢]، وسَمَّتْهُ العربُ بَحرًا، وليس فى الدنيا نهر يزرعُ عليه ما يُزْرَعُ علىَ النيل، ولا نَهْر يُجْنَى منه إلا جزءٌ مِمَّا يُجْنَى من النيل.

وابتداؤه بالتَّنَفُّسِ فى بقية حُزَيْرَان، فإذا انتهت الزيادة ست عشرة ذراعًا ففى ذلك تمام خَرَاج السلطان وخصب الناس الكافى، وكان المرعى ناقصًا قاصرًا بالبهائم، فإذا بلغ سبع عشرة ذراعًا فذلك الخصب العام، والصلاحُ التَّام فإن زاد إلى ثمانى عشرة ذراعًا اسْتبْحَرَ من مصر الرُّبع وَأضرَّ بالضِّياع وأعقب الوباء بمصر، وقد بلغ تسع عشرة ذراعًا سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

قال عبد الملك بن حبيب: خروجُ النِّيل وجريته من أوَّل ما يبدأ إلى توقّفه ورجوعه سبعة وثمانون يومًا، أول ذلك لخمسٍ بقين من حزيران وهو بَؤونة.

وذكر أن الله تعالى جَعَل نيلَ مِصْرَ مُعَادلاً لأنهار الدُّنيا فى المادة ومياهها الجارية، فحين يبتدئ فى الزيادة تنْقصُ كلها، وحين يَبْتَدِئُ بالنُّقْصان تزيدُ بِحَارُها بِمَدِّه لَهَا كما نَقَصَتْ بَجَزْرِه منها.

ومساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنتى عشرة ذراعًا ثمانية وعشرون إصبعًا، وما زاد على الاثنى عشر مساحة الذراع أربعة وعشرون إصبعًا، وإذا انْصَرفَ الماء عن ثلاث عشرة ذراعًا إلى أربع عشرة استسْقَى الناسُ بمصر وكان الضَّررُ الشديد.

وهم يُسَمُّون هذين الذراعين مْنكَرًا ونكِيرًا، وفى خمس عشرة ذراعًا لا يُسْتَسْقَى وكان نقصًا من خراج السلطان والغلاَّت.

والمقياس الذى يعمل عليه فى وقتنا هذا هو الذى اتخذه أسامه بن زيد[٣] التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك[٤]، وهو أكبر المقاييس ذراعًا، وهذا

---

(١) صورة الأرض ١٣٩.

(٢) سورة طه آية ٣٩.

(٣) أسامة بن زيد التنوخى وضع مقياسًا بالجزيرة فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان واليًا على خراج مصر. فتوح مصر والمغرب ٣٦ و١٢٤.

(٤) سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيُّوب، (٥٤-٩٩هـ) الخليفة الأموى، وُلِدَ فى دمشق =

المقياس فى الجزيرة التى تدعى جزيرة الصناعة بين الفسطاط والجيزة، فيعبر من الفُسْطاط إلى الجزيرة على الجسر ومن الجزيرة إلى الجيزة على جسر آخر، والفسطاط على شرقى الجزيرة والجيزة وعلى غربيها.

والعمل عند ترادف الرياح وكبر الموج وكثرة الماء على مقياس آخر لأحمد بن طولون، وقد كان عمر بن عبد العزيز بن مروان لما ولى مصر اتخذ مقياسًا قصير الذراع بحلون[١]، وهى فوق الفسطاط، فكان العمل عليه حتى اتخذ أسامة بن زيد هذا، وكان العمل قبل الإسلام وصدر الإسلام بمقياس صنعه يوسف الصِّدِّيق عليه السلام لَمَّا بنى الأهرام لمعرفة زيادة النيل وكان بَمنْف، ولَمَّا يُبْنَ الفسطاط يَوْمَئذٍ، وكانت دَلُوكه الملكة[٢] وصنعت أيضًا مقياسًا آخر بالصعيد ببلاد أخميم.

والترع التى فى مصر أربع أُمَّهات: تُرْعَة ذَنَب التمساح وتُرْعة بَلْقينة وخليج سَرَدُوس وخليج ذات السَّاحل، وتُفتح هذه التُّرع فى عيد الصليب لأربع عشر من أيلول، وليلة الغُطاس بمصر لعشر يَمْضين من كانون الآخر، وهو أصفى ما يكون النيل، وحينئذ يتّخذ النَّبيذ السوارى بعد الغُطَّاس، ويختزن الماء أهل تنِّيس ودِمْياط سائر قرى البُحَيْرة.

ولليلة الغُطَّاس بمصر شَأْنٌ عظيم قال (س)[٣]: حضرتها سنة ثلاثين وثلاثمائة وأميرها الإخشيد محمد بن طُغْج[٤]، وهو فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة

= وولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ وكان بالرَّملة، فلم يَتخلَّف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفاعن المجرمين، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً فصيحًا، طموحًا إلى الفتح جَهَّز جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية وفى عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانت فى أيدى التُّرْك، وتوفىً فى دابق (من أرض قِنَّسْرين - بين حلب ومَعرة النعمان)، وكانت عاصمته دمشق، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلاَّ أيامًا.

الأعلام ٢/ ١٣٠ وانظر أيضًا: الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤ وتاريخ الطبرى ٨/ ١٢٦ وتاريخ اليعقوبى ٣/ ٣٦ وابن خلدون ٣/ ٧٤.

(١) فتوح مصر والمغرب ٣٦.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٩ وفتوح مصر ٣٦.

(٣) عن المسعودى فى مروج الذهب ٢/ ٣٥٧.

(٤) هو محمد بن طُغج بن جفّ، أبو بكر، المُلَقَّب بالإخشيد: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر =

الراكبة للنيل والنيل مُطيف بها، وقد أمر فأسرجَ من جانب الجزيرة وجانب الفُسْطاط ألْفَا مِشْعَل سوى ما أَسْرج أَهْلُ مصر من المشاعل والشمع ما لا يُحْصَى عَدَدُه.

وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف الآلاف من البشر، منهم فى الزوارق، ومنهم فى الدُّور الرَّاكبة للنيل ومنهم فى الشطوط، وقد أظهروا كُلَّ ما فى إمكانهم إظهاره من الملابس وآلات الذهب والفضّة والجواهر والملاهى والعزف والقُصف وأحضروا من المآكل والمشارب ما اختلفوا فيه، وهى أحسن ليلة تكون وأجلّها سرورًا، ويَغطُس أكثر الناس فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمانٌ من المرض ونُشْرَةٌ من الدَّاء.

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص[1]: «إنَّ أرْضَك وَاسِعَةٌ رفيعة، وقد أعطى الله أهلها جلدًا وقوة فى برٍّ وبحر، وعالجتها الفراعنة، وعملوا فيها عملاً محكمًا مع شدة عتوهم، فَاكْتُب إِلَيَّ بصفة أَرْضِ مِصرَ حتّى كَأنّى أنظرُ إليها والسلام».

فكتب إليه: إنَّ أَرْضَ مِصْرَ تُرْبَةٌ سوداء وشجرة خضراء بين جبل أَغْبَر ورَمْلٍ أعفَر، وَخطُّها مسيرةُ راكبٍ شهرًا، كأنما بين جَبَلها ورَمْلها بَطْنٌ أَقَبّ أو ظَهْرٌ أَخَبّ، فيها نهرٌ مُبَارَكٌ يَسيلُ بالذَّهَب على الزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر تَمدُّهُ عيونُ الأرض ويَنابيعها مأمورةٌ بذلك، حَتَّى إذا طفحت لججُهُ واعْلَوْلَى عُبَابُه كانت القرى مِمَّا أَحاط بها منه، لا يُوصَلُ من بعضها إلى بعض إلاَّ فى السفائن والمراكب، ثم لا يلبث إلاَّ قليلاً حتى تَنْقُصَ جِرْيَتَه وتَسْتَبين مُتُونُ

= والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بنى العباس. تركى الأصل، مستعرب، من أبناء المماليك. ولد ونشأ ببغداد، وظهرت كفايته، فتقلَّب فى الأعمال إلى أن ولى إمرة الديار المصرية واستقرَّ بها سنة ٣٢٣ هـ بعد حروب وفتن، وكانت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى وقائع، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص، وللإخشيد بقيَّة بلاد الشام، مضافًا إلى مصر، وتوفى بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ودفن فى بيت المقدس، وكانت عدة جيوشة أربعمائة ألف، وموكبه يُضاهى موكب الخلافة. وهو أستاذ كافور الإخشيدى. قال ابن تغرى بردى: تفسير «الإخشيد»: ملك الملوك.

الأعلام ٦/ ١٧٤ ووفيات الأعيان ٢/ ٤١ والكامل لابن الأثير ٨/ ١٥٠ والوافى بالوفيات ٣/ ١٧١ والمغرب فى حُلى المغرب ١/ ١٤٨-١٩٧.

(١) النَّص فى حضارة العرب ٢١١.

أَرْضه، ثُمَّ تَنْتَشِرُ فيها أُمَّةٌ محصورة قَدْ رُزِقُوا على أرضهم جَلَدًا وقُوَّةً، فأثَارُوا سَهْلَ الأَرْض ورَوَابيها، وبَذَرُوا فيها من الحبِّ مَا يَرْجُون به التمام من الشرب حتى تبدو طَوَالعُه وتظهرَ قنواته، يسقيه من تحته الثرى ومن فوقه النَّدا، فَيَنْتَفى ذُبَابُها وتدرَّ حلاَبُها، فَبَيْنَا هِى مَدَرَةٌ سَوْدَاء إذا هِى لُجَّةٌ زَرْقَاء ثم غَوْطَةٌ خضْرَاء ثُمَّ ديباجةً رَقْشَاء ثم فِضّة بيضاء، فتباركَ الله الفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، فالحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين على ما أنْعم به عليك منها، والسلام[1].

وذكر أن مصر مُصَوَّرة فى كتب الأوائل وسائر المدن مادة أيديها إليه تستطعمها وقال عمرو بن العاص[2]: وِلاَيةُ مِصْرَ تَعْدِلُ الخلافةَ، وجعلها الله متوسّطة للدنيا[3]، فهى من الإقليم الثالث والرابع، سالمة من حرّ الإقليم الأوّل والثانى ومن برد الإقليم السادس والسابع، فطاب هواؤها وضَعُف حَرُّها وخَفَّ بَرْدُها، فَسَلِم أهلها من مشاتى الجبَال ومَصَائف عُمان وَحَرِّ تِهَامة، وَدَماميلُ الجزيرة، وجَرَبُ اليَمَن، وَطَواعينُ الشّام وطحَالُ البَحْرَيْن وحُمَّى خَيْبَر، وأَمنُوا من غَارَات التُّرْك والعَرَب والدَّيْلَم وأمنوا قَحْطَ الأَمْطَار، فَفِى كُوَرِها طَرائف وَعَجَائبَ، فصعيدُها أرضٌ حِجَازِيَّةٌ تُنْبِتُ النخل والآراك والقطر والعشر، وأسفل أرضها شامِىٌّ ينبتُ ثمار الشام من الكرم والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه من البقول والرياحين، ويقعُ بها الثلج.

وأمر الرشيد فَصُوِّرت له مدائن الدنيا، فما استحسن منها غير عمل أسيوط، فإن مساحته ثلاثون ألف فدان فى دست واحد، لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع جوانبه يبذر فيها جميع الحبوب، فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه، من جانبه الغربى جبل أبيض على صورة الطيلسان، ويحيط به من جانبه الشرقى النيل كأنه جدول فضة، لا يسمع فيه الكلام من شدة أصناف أصوات الطير.

ومما ذُمَّت به مصر سوى ما ذكره الجاحظ أَنَّ أهل مصر أعقل الناس صغارًا وأحمقهم كبارًا.

---

(١) حضارة العرب ٢١١.

(٢) تحفه الناظرين لعبد الله الشرقاوى ١٣.

(٣) مختصر كتاب البلدان ٦١ وصورة الأرض ١٢٨.

وكان أبو دلامة دخل مصر فلما رجع إلى العراق لقيه الحسن بن هانئ فسأله عن صفة مصر فقال: ثلثها كلاب، وثلثها تراب، وثلثها دواب، قال وأين الناس؟

قال: في الثلث الأول.

وفي بعض الروايات أن الدجَّال يخرج من موضع يقال له قوس.

والحسد في أهل مصر كثير، والجهل عليهم غالب.

وقال علي بن الحسن العراقي: صلّى عَلَيّ بن أحمد بن أبي شيخمة العيد سنة اثنتين وثلاثمائة بجامع عمرو، ولم يكن يُصَلَّى فيه العيد قَبْلَ ذلك، فخطب خُطْبَةَ العيد في فتر نظرا، فكان ممَّا قال أو حَدَّثوا عنه: اتقوا الله حَقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتم مشركون. فقال شاعرهم: [من السريع]

وقام في العيـد لنا خـاطبٌ يُحَضِّضُ النَّاسَ على الكُفْرِ

فأمر أمير مصر بضربه، فكُلِّم فيه وتشفّع له حتى تركَهُ.

وأهلُ مصر يُشبْهُ بَعْضُهم بَعْضًا في الأبدان والأخلاق، وكذلك الصَّقَالبةُ يُشْبه بَعْضُهم بَعْضًا.

ومن العجائب بأرض مصر: في قرية منها يقال لها بدرسانة القرى كنيسة للروم[١] فيها بيت يصعد إليه الناس نيِّفًا وعشرين مِرْقَاةً، وَهُنَاك سَريرٌ عليه صَبيٌّ مَيِّتٌ، وتحت السرير صورةُ ثور عظيم من رُخَامٍ في جوفه بَاطيَةُ زجاج فيها أُنبوبةُ نحاس، توضع فيها مثل كتانٍ ويُصَبُّ عليه يَسيرٌ من الزَّيت ويُشْعَل، فلا يلبثُ أن تمتلئ البَاطيةُ وتفيضَ إلى جَوف الثور فيأخذُ قيِّمُ الكنيسة ذلك الزيت فيسرجُ به دائمًا لا ينقطعُ نَماؤهُ وزيادته، فإن أُزيلَ الصَّبيُّ الميت طُفِيَت تلك النَّارُ ولم يفضْ الزيتُ، وقد صار إلى هذا الموضع جماعة من الناس ونظروا إليه وفرَغوا البَاطيةَ ثم أَسْرَجُوها يسيرًا من الزيت ففاضت وبَدَا منها ما ذكرنا، ويذكرونَ أنَّ المرأة إذا اتَّهمَتْ نفسها بحمْل أخذت ذلك الصَّبيّ المَيِّت فجعلَتْهُ في حِجْرها، فإنْ كان بها حَمْلٌ تحرَكَّ جَنِينُها في بطنِها لحِينه، وإلاَّ لَمْ يتحرك.

وبساحل أبي علي بقرية بُوصير الكتَّان[٢] مسجد يسمى مسجد برمنت، فيه حجر

(١) مختصر كتاب البلدان ٢٣٣.

(٢) بُوصير: اسمٌ لأربع قرى بمصر، بُوصير قوريدس، بها قُتِلَ مَرْوان بن محمد، وبُوصير السدر:=

نابتٌ يبض يسيرًا من الماء يُوجَدُ عليه، فإذا شربت منه المرأةُ التى لا تحملُ أقل شىء حملتْ لا يشكُّونَ فى ذلك، ولا يَنْحدِرُ أحدٌ فى النيل من الصَّعيد ولا يَصْعَدُ أحدٌ من مصر إلاَّ أَهْدَى لهذا المسجد مِمَّا يحملُه من الطِّيب والشَّمْعِ وغير ذلك، وعلى بوصير نقب فى صخر بأعلى الجبل يجتمعُ إليه فى كل سنة فى يومٍ بعينه طيرٌ كثير لا يُحْصى كثرةً، فلا يزالُ الواحدُ بعد الواحد يُدْخِلُ رَأسَهُ فى ذلك النَّقب حتى تعلق واحد منهم وَلاَ يُمْكِنُه إِخْرَاجُ رَأسِه، فإذا كان ذلك انصرفَ الطيرُ كُله وتفرَّق، وإن الناس لم يزالوا يشاهدون ذلك.

وعلى شاطئ النيل بعمل مصر موضع يجتمع إليه فى يوم معلوم من السنة سمكٌ كثير يتعمَّد إليه أهل ذلك الموضع فيصيدونه بأيديهم، لا يمتنعُ عليهم ولا ينفرُ منهم، حتى إِنَّ الرَّجُلَ ليأخذُ منها الألفَ وأكثرَ، فإذا غابت الشمسُ من ذلك اليوم لم يقدروا منها على سمكةٍ واحدة.

وبصفح جبل من أَرْضِ مِصْرَ كَنِيسَةٌ فيها عينُ ماءٍ عذبٍ، مَتى مَسَّهُ جُنُبٌ أَوْحائِضٌ غَارَ من سَاعته، وأَنتن جميعُ ما قد حصلَ فى الحوض منه حتى يُغْرَفَ ماء الحوض ويُغسلَ ويُغْرَفَ مَا بَقى فى العين منه، فيعودَ فيجرى على عادته.

وقيل: نِعْمَ بلاد مصر، يُغْزى منها بدرهمين، ويُحَجُّ بدينارين، يريدون الحج فى بحر القلزم والغزو إلى الإسكندرية[١].

ولما أهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ عند كتاب رسول الله ﷺ إليه أهدى إليه ما أهدى من الثّياب والكراع والجاريتين القبطيتين، كان فى هديّته تلك عَسَلٌ، فقال رسول الله ﷺ: من أين هذا العسل؟ قيل من قريةٍ بمصر يقال لها بَنها. فقال: اللَّهُمَّ بارك فى بَنْها وَعَسلِها»، فعسلها إلى يومنا هذا أحلى عسل مصر وأكثره[٢].

= بُلَيْدَةٌ فى كور الجيزة، وبوصير دفدنو: من كورة الفيوم، وبُوصير بَنَا: من كورة السمنودية. مراصد الاطلاع ١/ ٢٣٠.

(١) فى تحفة الناظرين فيما ولى مصر من الولاة والسلاطين ١٤ قال أبو الربيع السائح: نِعم البلدُ مصر، يُحَجُّ منها بدينارين ويُغْزَى منها بدرهمين، يريد: الحج من بحر القلزم والغزو إلى الإسكندرية. وانظر: فتوح مصر ٢٣ وحسن المحاضرة ١/ ١٣.

(٢) فتوح مصر ٢٣ وحسن المحاضرة ١/ ١٣.

قيل: وصاهر إلى القبط ثلاثة من الأنبياء عليهم السلام: إبراهيم الخليل تسرَّر بهَاجر، ويوُسف عليه السلام تزوّج زليخا ابنة صاحب عين شمس، وهى التى نَصَّ الله تعالى حديثها معه، ومحمد ﷺ تَسَرَّر مارية القبطية[1].

* * *

الشيخ القبطى

وبلغ أحمد بن طولون[2] صاحب مصر فى سنة نيف وستين ومائتين أن رجلاً من الأقباط بأرض الصعيد. أعالى بلاد مصر - له ثلاثون ومائة سنة ممن عنى بالعلم من لدن حداثته، والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل، وأنه علاَّمة بالممالك والملوك وذو معرفه بهيئات الأفلاك والنجوم، وكان نقراسًا على مذهب اليَعْقُوبيّة، فبعث ابن طولون إليه قائدًا من قواده فحمله فى النيل مكرما، وكان الشيخ قد انفرد عن الناس فى بنيان قد اتخذه سكنا وسكن فى أعلاه، وقد رأى الولد الرابع عشر من ولَدِ ولَدِه.

فلما بلغ إلى أحمد أسكنه بعض مقاصيره ومَهد له، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب، فأبى الشيخ أنْ يتوطّأ شيئا من ذلك، وأنْ يتغذّى إلا بما حمل مع نفسه من كعك وسويق ونحوهما، وقال: هذه بنية قوامها ما ترون من الغذاء واللبس فإن أنتم سُمتمونى النقلة عن العادة كان ذلك سبب انحلال البنية، ثم أحضر ابن طولون أهل الدّراية، وصرف همّته إليه وأخلى له نفسه أياما وليالى يسمع كلامه، فممّا سأله عنه بحيرة تنِّيس ودمياط المتقدّم ذكرهما.

فقال: كان موضع البحيرة أرضًا لم يكن أرضٌ مثلها طيب تربة وذكاء رتع

---

(١) مختصر البلدان ٦٦.

(٢) أحمد بن طولون، أبو العباس (٢٢٠-٢٧٠هـ): الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركى مستعرب كان شجاعًا جوادًا حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه، موصوفًا بالشدَّة على خصومه، وكثرة الإثخان والفتك فيمن عصاه بنى الجامع المنسوب إليه فى القاهرة من أثاره قلعة يافا (بفلسطين). الأعلام ١/ ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١ وبدائع الزهور ١/ ٣٧ والكامل لابن الأثير ٧/ ١٣٦.

وكانت جنانًا مُتَّصلة ولم تكن بمصر كورة تشبهها وقيل ما يشبهها إلا الفيوم وحدها، وكانت أكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة.

ومعنى الفيوم ألف يوم[1] لأن أول من نزلها جارية من الروم اسمها ألف يوم.

وكان الماء منحدرًا إلى قرى موضع البحيرة صيفًا وشتاء يسقون منه متى شاءوا وفضلة الماء تصب فى البحر فى الموضع المعروف بالأشتوم.

وكان فيما بين العريش وقبرس طريقة مسلوكة فى اليبس، وبَيْنَها وبين قبرس اليوم مسيرٌ طويل فى البحر، فلما مَضى من ملك رُقْلطيانُس مائتان وإحدى وثلاثون سنة، وذلك قبل استفتاح مصر بمائة سنة، طغى الماء من البحر وزاد فأغرق القُرَى التى كانت فى موضع البحيرة، وآثارها كان منها فى البقاع باقية قد أحاط بها الماء.

والأكوام التى بتَنِّيس التى يُسَمُّونها بأبى الكوم إنما هى قبور أهل تلك القُرَى، وهى تِلاَلٌ مُنَضَّدةٌ بالناس من صغير وكبير وذكر وأنثى كالجبال.

قال: وعند هذه الزيادة التى ذكرتها من طغيان البحر، علا الماء على القنطرة التى كانت بين الأندلس وبين الموضع الذى يسمى الخضراء، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة، وهى قنطرة فاس وهى قنطرة مبنية بالحجارة تَمرُّ عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الأندلس، وماء البحر تحت تلك القنطرة خلجان وكان طولها نحو اثنى عشر ميلاً فى عرض واسع وسُمُوٍّ بَيِّنٍ، وربَّما بدت هذه القنطرة لأهل المراكب تحت الماء فعرفوها.

وسئل عن ممالیك الأحابيش التى على النيل فقال: لقد لقيت منهم سِتِّين ملكًا كُلُّ ملكٍ منهم ينازعُ من يليه. قال: ولاستحكام النارِية فى بلادهم تغَيَّرت الفضة

---

(١) فى المسالك والممالك للاصطخرى ٤٠ وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء دائمًا غير الفيوم، هذه مدينة وسطة، يقال إن يوسف النبى اتخذ لهم مجرى يدوم لهم فيه الماء، وقوّم بحجارة وسماه اللاهون».

وفى الموسوعة المصرية ١/ ٣٢٣ «الفيوم إقليم جغرافى متميزٌ له شخصيته الخاصة وطابعه الفريد، ففيه تلتقى الحياة النيلية المستقرة بالحياة الصحراواية البدوية. وقد جاء الاسم فى النصوص المتأخرة من العهد الفرعونى «بايوم» بمعنى البحيرة أو الماء، ثم ورد فى القبطية «فيوم» وفى العربية «الفيوم» بعد إدخال أداة التعريف.

ذهبًا لحرارة الشمس ويبسها، وقد يطبخُ الذهب المَغْرِبىّ بالملح والزَّاج والطوب فيرجع فضة خالصة بيضاء.

وَسُئِلَ عن منتهى النيل فى أعلاه فقال: البحيرةُ التى لا يُدْرَكُ قَعْرُها وطولُها وعَرْضُها وهى تحت الموضع المُسَمَّى بالفلك المستقيم من الأفلاك، وهى الأرض التى الليل والنهار فيها متساويان الدهر كله.

وسئل عن الأهرام[١] فقال: إنها قبور الملوك، كان الملك إذا مات وُضِع فى حوض من حجارة، ثم يطبق عليه ويبنى له هرمٌ على قدر ما يريدون ويوضع الحوض فى وسط الهرم، ويضعون باب الهرم تحت الحوض، ثم يحفر له طريق فى الأرض يعقدونه أزجًا.

فقيل له: كيف بنيت هذه الأهرام المملسة وكيف كانوا يصعدون إليها وعلى أى شىء كانوا يحملون هذه الحجارة التى لا يقدر أهل زماننا أن يزحزحوا منها حجرًا؟ فقال: كانوا يبنون الهرم مُدَرَّجًا ذا مَرَاقٍ، فإذا فرغوا منه نحتوه، ومع هذا كان لهم صَبْرٌ وجَلَدٌ ليس لمن بعدهم.

قيل له: فما بال هذا القلم الذى على الأهرام والبرابى لا يفهم؟ فقال تداول أهل مصر الأمم بعد الأمم فدرست كِتَابتُهم الأولى.

قيل: فمن كان أول من سكن مصر؟ قال: مِصْرُ بن بَيْصَرَ وبه سميت وهو ابن حام بن نوح.

وناظر هذا الشيخ القبطى بحضرة أحمد بن طولون جماعة من أهل الديانات[١] والنِّحل، فممَّا قال لليهود: أنتم تزعُمون أنَّ الله خلَق آدَمَ على صورته وأن البَارِئَ تعالى أَبْيضَ الرأس واللِّحْيَة، وأَنَّ الله تعالى قال: أَنَا النَّارُ المحْرِقة والحمى الآكلة، وفى تَورَاتِكُم أَنَّ بَنَاتِ لُوط سَقَيْنَهُ الخمر حتى سكر وَزَنَى بهنّ وَحَمْلَن منهَ وَولَدْنَ وأَنَّ مُوسى رَدَّ على الله الرِّسالةَ مرَّتين حتى اشْتَدَّ غَضَبُ الله، وأَنَّ هَارُون صَنَعَ العجَل الذى عَبَدَه بنو إسرائيل، وتقولون فى يوم عيد الكفور، وهو لعشر خَلَوْنَ من تشرين الأول: أن الربَّ الصغير - ويسمونه ميططرون - يقوم فى هذا اليوم

(١) انظر عن الأهرام: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة وآثارها ١/ ٢٠٥، ٣٩٧ - ٤٠٤ مادة (هرم). ومختصر كتاب البلدان ٦٨-٧٠.

ويقول: وَيْلى إِذًا خَرِبَتْ بَيْتى وأيتمتُ بنتى وينتفُ شعرهُ ـ تَعَالى الله عَمَّا يقول الظالمون علوا كبيرًا.

وأقام هذا القبطىُّ عند ابن طولون نحو سنة، فأجازه وأعطاه، فأبى قبول شىء من ذلك، ورَدَّهُ إلى بلده مكرمًا.

* * *

اللهون والفيوم

وحجر اللهون بالفيوم من عجائب الدنيا، واللهون[١] قرية من قرى الفيوم، وهذا الحجر شاذروان بين قبتين مدرج على ستين درجة فيه فوارات للماء، يدخل الماء منها إلى الفيوم بوزن بقدر ما يكفيها، وهو من أحكم البناء بالهندسة عمل وبالفلسفة أتقن وفى السعود نُصِب.

وذكر كثير من الناسِ أن يوسف عمله بالوحى ولم تزل الملوك من الأمم تقصد هذا الموضع وتتأمّله، لما قد نَمَى من أخباره وصار فى الخليقة من عجيب إتقانه.

وهو من البناء الذى يبقى على غابر الزمان ولا يتغيّر، ويقال إنه عمل من ثلاثة أشياء: الفضة والنحاس والزجاج، وفى أعلى الحجر بناءٌ مُتْقَن، وفى الضفة الغربية منه مسجد يقال له مسجد يوسف، وقد ذكرنا شيئًا من أمره عند ذكر النيل.

وليس على الأرض مثل أربع كور مصر ولا تحت السماء لهن نظير: كورة الفيوم وهى أفضلها، وكوره أتريب وكورة سمنود وكوره صا.

والفيوم فيها ثلاثمائة قرية وستون قرية على عدد أيام السنة لا تقصر أبدا عن الرى للحكمة فى شربها، فإذا نقص النيل سنة من السنين مارت كل قرية منها مصر يومًا، ولو ناسبوا أنهار الفيوم بأنهار البصرة ودمشق لكانت أنهار الفيوم أفضل وأكثر.

ولقد رام جماعة من أهل العقل والفضل والمعرفة إحصاء مرافقها وغلتها وخيرها وفوائدها، فأعجزهم ذلك ولم يدركوه.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٦٠.

وأنزل يوسف[١] الفيوم من كل كورة مصر أهل بيت، فكانت قرى الفيوم على عدد كور مصر، وصيَّر لكل قريةٍ من الماء ما يروى أرضها من غير زيادة ولا نقصان وصَيَّر لكل قريةٍ شربًا فى زمانٍ، لا ينالهم الماء إلاَّ فيه، وصيرَّ مطأطئًا لمرتفع ومرتفعا لمطاطئ، ولا بعض يأخذ دون حَقِّه ولا يزداد فوق قدْرِه، وإنما فعل ذلك لفرعون حين أراد اختبار علمه على ما قدَّمنا عند ذكره.

وكانت الفيوم قبل ذلك مغايض ماء النيل، وأمره فرعون بعمارة غامرها، وإحياء مُوَاتِها لبنته، فلما أظهرَ من الحكمة الوحية العجيبة فى ذلك ما أظهر ونظر إليه فرعون قال: هذا من ملكوت السماء.

وكانت أوَّل قرية عمَّرها بالفيوم قرية يقال لها شانة، وهى القرية التى كانت تنزلها ابنة فرعون، ومن ذلك الوقت حدثت الهندسة ولم يكن الناس يعرفون قبل ذلك[٢].

وقد ذكرنا لِمَ سُمِّيت الفيُّوم، وقال عبد الملك بن حبيب غير ذلك، قال: إنَّما سُمِّيت الفيوم لأنها تُؤَدى منها إلى السلطان كُلَّ يوم ألف دينار.

وخليج الفيوم يسقى أعلاها ووسطها وأسفلها بماءٍ واحد، ولا يعدم بها التمر الرطب شتاء ولا صيفًا.

وإذا كان يوم سَدِّ حَجَرِ اللَّهُون أتى أميرُ الناحية وعُدُولُ الناس وأهل الهندسة يشهدون سده، فلم يكن لمن يدعى نقصا من الماء عذر، ويحضر ذلك أمير الفيوم بالبنود والطبول ويكتب بالبشارات إلى مصر.

ويزرع أهل الفيوم فى العام مرتين، وذلك إذا حمل النيل أولا، وهى تشرب من ذراع اثنتى عشرة، وليس من أرض مصر موضع يشرب من هذا الذراع غير الفيوم؛ لأن سائر أرض مصر أنما تشرب من ست عشرة، وإذا زاد الماء على اثنتى عشرة قطع أهل الفيوم جريانه فسد لهم هناك عنده وضع يعرف بالشجرة، وهى شجرة جميز عظيمة، فيزرعون والماء بات فى سائر الأرض، فيكون الحصاد عند أهل الفيوم وجميع من على أرض النيل لم يتم حرثه، فإذا كان أول حصاد أهل

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٦٦ وموسوعة تاريخ مصر القديمة ١/ ٣٥٢.

(٢) من هنا النص عن فتوح مصر ٣٦ وانظر: حُسْن المحاضرة ١/ ٣٩.

مصر كان ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم، وحينئذ يسد حجر اللهون ويزرعون فى السقية الثانية القمح والشعير والأرز.

والفيومُ وسط بلاد مصر، ومصر وسط البلاد، ولا يُؤْتَى إليها من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة.

وذكر ابن عفير[١] وغيره أنَّ عمرو بن العاص لما فتح مصر أقام المسلمون بعد ذلك سنة لم يعلموا بالفَيُّوم ولا مكانها حتى بعث عمرو بن العاص قيس ابن الحارث إلى الصعيد فسار حتى أتى القيسيين فنزل بها وبه سميت، وأبطأ على عمرو خبره فقال ربيعة بن حبيش: أكفيك فركب فَرَسًا له أنثى فجاز عليها النيل من ناحية الشرقيه ومشى حتى انتهى إلى الفيوم، ثم أتى عمرًا بخبرها وخبر قيس.

ويقال إن عمرًا بعث جَرَائِد خيل إلى ما حول مصر فأخبرهم رَجُلٌ بأمر الفيوم فسار معه فى جريدة من الخيل عمرو بن ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى، فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئًا وهمُّوا بالانصراف، فلم يسيروا إلا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم.

* * *

فرس النيل[٢]

ومن عجائب النيل الفرسُ الذى يكون فيه، فإنه إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع علم أهل مصر أن النيل يخرج إلى ذلك الموضع بعينه غير مقصرٍ عنه ولا زائد عليه، وهى تَضُرُّ بالزرع ضررًا شديدا؛ لرعيها له، فإذا كثر ذلك منها طرح لها التُّرْمس فى المواضع التى خرج فيها فتأكله، ثم تعود إلى الماء فيربو فى أجوافها حتى تنشقّ فتطفو على الماء ميِّتة.

وهى على صورة الفرس إلاَّ أنَّ زَنَبَهُ وحافره بخلافه وجبهته أوسع، والموضع الذى يكون فيه هذا الفرس لا يكاد يُرَى فيه تمساح.

(١) هو سعيد بن كثير بن عفير، كان كثير العلم، من مؤرخى مصر.

(٢) مختصر البلدان ٦٢-٦٤.

ملوك مصر بعد الطوفان

وذكر جماعة من الشرعيين أن بَيْصَر بن حام[١] بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته سار نحو مصر فنزل موضعًا يقال له مَنْف، وكذلك يسمى إلى الآن، وكان عددهم ثلاثين فسُمِّيت بهم كما سميت مدينة ثمانين ببلاد الجزيزة والموصل، وقد تقدّم ذكرها.

وأوصَى بَيْصَر إلى الكبير من ولده وهو مصرايم فتملَّك من أسوان إلى العريش طولاً والعريش آخر أرض مصر والفرق بينها وبين الشام، ومن أيْلَة - وهى بتخوم الحجاز - إلى برقة عرضا، وهى آخر أرض مصر.

ويقال إنَّ هذا الحد جزء من ستين جزءًا من أرض السودان، وأرض السودان جزء من ستين جزءًا من معمورة الأرض.

وأوصى مصرايم[٢] إلى الأكبر من ولده وهو قفط، ومن ولده جميع القبط، وقد دخل فى أنسابهم غيرهم من ولد مصرايم.

ولم يزل الملك فيهم إلى أن ملك أمرهم النساء فدخلهم الهرم، فسار إليهم من الشام ملك من ملوك العماليق يقال له الوليد بن دومع فغلب على الملك فانقادوا إليه.

ثم ملك بعده الريَّان ابنه، وهو فرعون يوسف، ثم ملك بعده دارم بن الريان ثم كامس بن معدان العملاقى، ثم الوليد بن مصعب[٣]، وهو فرعون موسى وقد تنوزع فيه: فمنهم من رأى أنه من العماليق، وقال بعضهم هو من لخم من بلاد الشام، ومنهم من رأى أنه من الأقباط.

وقال المسعودى: سألت جماعة من أقباط مصر والصعيد عن معنى فرعون وتفسيره فلم أجد أحدًا يعرفه، والذى أراه - والله أعلم - أنه كان سمة لملوكهم

(١) مروج الذهب ١/ ٣٧١.

(٢) كان لمصراييم أولاد أربعة وهم: قبط وأشمون وأتريب وصا مروج الذهب ١/ ٣٧٢.

(٣) تحفة الناظرين ٢٦.

بتلك الأمصار.

فلما هلك غرقًا ومن معه، ملك أهل مصر ممن بقى فيها من الذرارى والنساء والعبيد والشيوخ والزَّمْنَى امرأة ذات حزم ورأى وأصالة وعلم يقال لها دلوكة لم ينسبها أحد[١].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: دلوكة ابنة ريَّان[٢].

فبنت على بلاد مصر حائطا يحيط بجميع البلاد، وجعلت عليه المحارس من الرجال متصلة أصواتهم، وأثر هذا الحائط باق إلى اليوم يعرف بحائط العجوز[٣] واتخذت البرابى بمصر وأحكمت آلات السحر، فجعلت فى البرابى صور من يدخل من كل ناحية ودوابهم إبلا كانت أو خيلا، وصوَّرت فيها من يردْ فى البحر من المراكب نحو المغرب والشام، وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية.

واتصالها بالمؤثرات العلوية، فكان إذا ورد عليهم جيش عورت الصور التى من ناحية الجيش وعلى هيئته، فيتعود ما فى ذلك الجيش وينقطع ناسُه وحيوانه وكذلك لِمَنْ وردَ فى البحر، فهابتها الملوك والأمم وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيّدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان فمنها صورٌ إذا صُوِّرت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالاً على حسبِ ما رسمت له وصنعت من أجله، والله أعلم بكيفية ذلك.

وعرض الهرم فى الطول والارتفاع أربعمائه ذراع[٤]، وهى خمسة أهرام الثلاثة منها فى الجانب الغربى من النيل وتُرَى من الفسطاط[٥]، وهى على مقدار واحد أوسطها مدرّج الأعلى والأخريان على زاوية قائمة، وهرمان منها بغربى الفسطاط.

(١) نسبها عثمان بن صالح أنها دلوكة ابنة زبًا. فتوح مصر ٤٨.

(٢) تحفة الناظرين ٤٣ وفتوح مصر ٤٨.

(٣) تحفة الناظرين ٤٥.

(٤) مختصر البلدان ٦٨.

(٥) فى المسالك والممالك للأصطخرى ٤٠، وبحذاء الفسطاط على نحو فرسخين منها أبنية عظيمة، أكبرها اثنان، ارتفاع كل واحد منهما أربعمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وطوله أربعمائة ذراع، وهو فى صورة العمارة مربع الأسفل، ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى يصير أعلاه نحو مبرك جمل، وملئت بنيانه بكتابة يونانية».

والخواص وأسرار الطبائع فى العالم موجود كثير.

لا يدفع أحد أنَّ فى الأرض مُدُنًا لا يدخلها عقربٌ ولا حيَّةٌ مثل حمص ومعرة وأنطاكية، وقد كانت أنطاكية إذا أخرج الإنسان يَدَهُ خارج السور وقع عليها البقُّ، فإذا جَذَبَها إلى الداخل لم يبق على يده منه شىء إلى أن كسر عمود من الرخام فى بعض المواضع فأصيب فى أعلاه حُقٌّ من نحاس فى داخله نحو كفّ من البقّ مصور فى نحاس، فما كان إلا على الفَوْرِ من ذلك حتى صار البَقُّ يَعُمُّ دُورَهم.

والله عزَّ وجَلَّ قد استأثر بعلم الأشياء، فأظهر لعباده ما شاء قال الله عز وجل: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شاء**﴾[١].

قال المسعودى[٢]: وأخبرنى غَيْر واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر عن ذى النون أبى الفيض الأخميمى الزاهد، وكان حكيما ممن امتحن كثيرًا من أخبار هذه البرابى، قال: رأيت فى بعضها كتابا تدبّرته فإذا هو: احذروا العبيد المعتقين والجند المتعبدين والنبط المستعربين.

قال: ورأيت فى أخرى كتابا تدبَّرته فإذا هو: المقدر يقدر، والقضاء يضحك.

وزعم أنه رأى فى أخرى كتابه فإذا هى: [من الوافر]

تدبّر بالنجومِ ولَسْتَ تَدْرِى ... ورَبُّ النَّجْمِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[٣]

وقد قيل إن أُمَّة من الأوَّل دَلَّتها أحكام النجوم أن طوفانا سيكون على الأرض، ولم يقطعوا عليه أهو نار أو ماء أو سَيْف، فخافت على دثور العلم وذهابه، فبنت بَرَابى فى حجارة ورسمت فيها العلوم وبرابى طين وقالت: إن كان الطوفان ماء بقيت الحجارة، فإن كان نارًا استحجر الطين وإن كان سيفا بقى النوعان وهذا على زعم من رأى أَنَّ بناءها قبل الطوفان.

وقال بعض من زعم أنَّ علّة هذه البرابى؟ ورأى أن ذلك كان بعد الطوفان الذى كانوا يرتقبونه ولم يعيِّنُوه.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٧٤ـ٣٧٥.

(٣) بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٣٧٥.

وقيل: إنه كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من ملك غَشِيهم.

وقيل: وَبَاءٌ عَمَّهم بتلال تنّيس ودمياط المتقدم ذكرها منهم، وما يوجد فى بلاد مصر وصعيدها من النواويس والكهوف المملوءة رِمَمًا والبرابى الموصوفة بِربْىَ الصَّعيد وبربْىَ أخميم وبربْى بلاد سَمَنّود.

ثم تعاقبت بعد دلوكة العجوز فى ملك مصر الفراعنة نحو ثلاثمائة سنة من ملك دلوكة إلى استيلاء بخت نصر[1] عليها، منهم: فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرب بَيْت المقدس إلى أن سار إليهم بخت نصر على ما قدَّمناه فخرَّب أرضها وقتل رجالها.

واستولى عليها بعد ذلك الروم، فتنصَّر أهلها، إلى أن ملك كسرى أنوشروان، فغلبهم وملكهم نحوا من عشر سنين.

ثم جرت بين الروم وفارس حروب تكافئوا فيها، فكان أهل مصر يؤدون عن بلادهم خراجين خراجا إلى الروم وخراجًا إلى فارس.

ثم ظهرت الروم على مصر والشام، فشملتها النصرانية، وجاء الله بالإسلام وصاحب مصر المقوقس وافتتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبنى الفسطاط، وهو قَصَبَةُ مصر.

كان المقوقس ينزل الأسكندرية فى بعض الفصول، وفى بعضها منف وفى بعضها قصر الشمع، وهو يعرف بهذا الإسلام إلى اليوم، وهو فى وسط الفسطاط.

* * *

(١) تحفة الناظرين ٤٥.

ذكر بعض عجائب مصر

وبمصر أخبار عجيبة من الدفائن وذخائر الملوك، فمنها ما ذكره يحيى بن بكير قال: جاء رجل إلى عبد العزيز بن مروان[1] وهو أمير مصر وقال له: بالقبّة الفلانية كنز عظيم يوصل إليه بأدنى حفر، أوّل علاماته أنواع من المرمر والرخام الأبيض يفضى إلى باب صفر، تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من ذهب له عينان ياقوتتان لا تعدلهما قيمة.

فأمر له عبد العزيز بنفقة آلاف من الدنانير وشرع فى الحفر، فظهرت الدلائل، فازداد عبد العزيز حرصا وأوسع له فى النفقة إلى أن فتحوا باب الصُّفْرِ وظهر رأس الديك، فبرقَ عند ظهوره لمعانٌ عظيم لشدّة نور الياقوتتين إلى أن ظهرت جناحاه وبدت براثنه، وظهر تحت عمود الذهب قناطر مُقَنْطرة وطاقات على أبواب معقدة ولاحت تحتها تماثيل وأشخاص من الذهب وأَجْرِنَةٌ من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتُها.

فأشرف عبد العزيز على الموضع حين ظهر فيه ما ظهر، وَجَدَّ فى العمل وجمع إليه الناس، فتسرع بعضهم فوضع قدمَه على دَرَج من النحاس ينتهى إلى ما هنالك، فلما استقرَّت قدماه على الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان، سيفٌ عن يمينه وسيفٌ عن شماله، فالتقيا عليه فجزَّياه قطعا وهوى جسمه سفلاً.

فلما مرت ببعض الدرج منه قطعة اهتز العمود وصَفَر الديك صفيرًا عجيبًا أسمعَ من كان بالبُعْدِ وحرّك جناحيه فظهرت من تحتها أصوات غير معهود مثلها وتهافت من كان هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها ممن يحفر ويعمل نحوًا من ألف رجل فهلكوا جميعًا.

---

(١) هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية، أبو الأصبغ: أمير مصر، وُلد فى المدينة، وولى مصر لأبيه استقلالاً سنة ٦٥هـ فسكن حلوان وأعجبته، فبنى فيها الدور والمساجدَ، وغرس بها كرمًا ونخيلاً، وتوفى بها، فنقل إلى الفسطاط. كان يقظًا عارفًا سياسة البلاد، شجاعًا جوادًا، وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز. الأعلام ٢٨/٤ وولاة مصر للكندى ٤٩ وتاريخ الطبرى ٥٣/٨.

فجزع عبد العزيز وقال: هذا رَدْمٌ عجيبُ الأمر ممنوعُ النَّيْل نعوذُ بالله منه، وأمرَ الناس فردُّوا التراب عليه وعلى من هلك فيه من القوم وصار الموضع قبرًا لهم.

وقد كان وقع إلى بعض من أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز[1] كتاب بعض الأقلام السالفة، فيه وصف كنز ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام وأخبر الإخشيد محمد بن طُغْج فأذن في حفره، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، فحفروا حفرة عظيمة إلى أن انتهوا إلى آزاج وأقباء وحجارة مجوفة وصخور منقورة فيها تماثيل قائمة مختلفة الصور منها: على صور الشيوخ والشبان والنساء والأطفال، أجسامها في نوع من الخشب ووجوهها ذهب وفضة وعيونها من أنواع الجواهر، وكثرت في أجوافها رِمَمٌ بالية وأجسام فانية، والتمثال على صورة من وضع جوفه على اختلاف أسنانهم وتباين صورهم، وعلى جانب كل تمثال نوع من الآنية كالبرانيّ من الزمرد والجواهر الغالية فيه بقية ما طلى به ذلك الميِّت من الطلاء، دَوَاءٌ مسحوق وأخلاط معمولةٌ لا رائحة لها فإذا وضعت في النار تَضَوَّعت منها أرياحٌ طيبة مختلفة لا تعرف في نوع من أنواع الطيب، وقد جعل بإزاء كل تمثال تمثال من المرمر والرخام على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل.

وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحَدٌ من أهل الملل، وزعم قومٌ من أهل الدراية أنَّ لذلك القلم مذ فقد من أرض مصر أربعة آلاف سنة.

وكان صلحاءُ مصر أعظمَ النَّاس عِلْمًا وأَجَلَّهم بالكهانة حذْقًا، وكان حكماء اليونانيين يصفونهم بذلك ويشهدون لهم بالتقدم فيه، فيقولون: أخبرنا حُكماءُ مصر بكذا واستفدنا منهم كذا[2]، وكانوا يزعمونَ أنَّ الكواكب هي التي تفيضُ عليهم العلوم وتخبرهم بالغيوب، وأنها هي التي علَّمتهم أسرار الطبائع ودلَّتهم على العلوم المكنونة، فعملوا الطلسمات المشهورة والنواميس الجليلة، وولدوا الولادات الناطقة والصور المتحركة وعجائبهم ظاهرة، وحكمتهم واضحة.

وكانت مصر خمسًا وثمانين كورة، فأسفل الأرض خمس وأربعون وبالصعيد أربعون، وكان في كل كورة رئيس من الكهنة وتحت يد كل واحد منهم عدد عظيم

(١) انظر في دفائن أرض مصر، مروج الذهب ١/ ٣٨٢.

(٢) تحفة الناظرين ١٨.

من السحرة وأهل الحكمة، وهؤلاء الرؤساء الذين عنى الله تعالى فى قصة فرعون لما أشار عليه أصحابه وقالوا له: ﴿وأَرْسِلْ فى المدائنِ حَاشِرِين يَأْتُوك بكل سَحَّارٍ عليم﴾[1].

وكان الذى يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبرة لكل كوكب سبع سنين، فإذا بلغ هذه المنزلة سمى ناظرًا، وكان يجلس مع الملك فى مرتبته، ويصدر الملك عن رأيه ولا يعصى له أمرًا.

وكان من رسمهم أن يدخل إلى الملك كل يوم فيجلس إلى جانبه ويدخل الكهنة وأصحاب الصناعات فيقفون حذاء الناظرين، وكل واحد من الكهنة منفرد بكوكبه يخدمه لا يتعداه إلى سواه، ويسمى عبد كوكب كذا، فيقول الناظر للكاهن: أين صاحبك؟ فيقول فى البرج الفلانىّ فى درجة كذا ودقيقة كذا. فإذا عرف مستقرّ الكواكب من جميع خدمتها قال للملك: ينبغى أن يصنع اليوم بنيان كذا، ويوجّه جيش إلى مكان كذا، ويأكل الملك فى وقت كذا، وجميع مايراه له صلاحًا فى دقيق أموره وجليلها.

والكاتب قائم يكتبُ جميع ما يقوله الناظرون مِمَّا يتَّفقون على إمضائه وتصريفِ فِعْلِه، ثم يلتَفُّون إلى أصحاب الصِّناعات فيقولون: انقش أنت صورة كذا وكَذا علَى حجر كذا، وصَوِّر أنت تمثالاً كذا، واغرسْ أنت كذا حتى يأتوا على جميع الأعمال، فيخرجون إلى دار الحكمة ويضعون أيديهم فى تلك الأعمال ويستعمل الملك جميع ما يقوله الناظرون ويؤرِّخَ ذلك اليوم فى الصحيفة وتطوى وتُودَع خزائنه.

فعلى هذا أجرت أمورهم، وكان الملك إذا حَزَنَهُ أمرٌ أو هَمَّ به هَمٌّ أَضْمَرَهُ جمعُهم خارج مَنْف، واصْطَفَّ لهم الناس فى الشوارع والطرقات ثم يمرُّون رُكبانًا يقدّم بعضهم بعضًا فيدخل كل واحد منهم بأعجوبه، فمنهم من يعلو وجهه نورٌ مثل نور الشمس ولا يقدرُ أحدٌ أن ينظر إليه، ومنهم من يدخل راكبًا أسدًا، ومنهم من يتوشّحُ بثعابين عظام، ومنهم من يكون عليه قُبَّةٌ من نور، فى صنوف من العجائب كثيرة، إلا أن كل واحد منهم إنما يصنع ما يدلُّ عليه كوكبه، فإذا دخلوا

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١١١ و١١٢.

على الملك قالوا: أرادنا الملك لكذا والصواب فيه كذا.

وروى ابن لَهِيعة قال: كان عدد السحرة[١] الذين حُشِرُوا لفرعون اثنى عشر رئيسا، تحت يد كل رئيس عشرون عَرِيفًا، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، وكان عدد السحرة مائَة ألف وأربعين ألفا ومائة واثنين وثلاثين، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك مصر من لدن عمارتها قبل الطوفان وبعده إلى استفتاح المسلمين لها وغريب أخبارهم

الّذى بنى الأهرام والبرابى واستوسقت له مملكة مصر وانقادت له الملوك سوريد ابن سهلون[٢]، وبنى الأهرام صيانة لجثثهم وأجسامهم، وبنى الأفرونيات وبنى البرابى[٣] حفظًا لعلومهم وآثارهم، وذلك لمّا أنذروا له بأمر الطوفان المهلك للعالم.

وكان سوريد قد أوتى من الحكمة والعلم ما لم يسبق إليه وكان يتعاهد من مصالح رعيته ما لم يتعاهد سواه، وكان ينفق على الضعفاء من بيت ماله.

واتخذ مرآة من أخلاط وأقامها على منار فى وسط قصره، وكان ينظر فيها جميع الأمم والممالك والأقاليم وما منها أخصب وما منها أجدب وينظر من قصد ناحيته وما يجرى للأمم من حروب أو غيرها، وتقدم إلى رأس الناظرين، وهم الكهّان، أن ينظر ما يحدث فى كلّ يوم ويجعله فى كتاب.

---

(١) فى فتوح مصر ٢٤: كان جمع السَّحرة مائتى ألف وأربعين ألفًا ومائتين واثنين وخمسين إنسانًا بالرؤساء والعرفاء.

وفى المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢: «يقال إن سحرة موسى الذين حشرهم فى يوم موسى من بوصير».

(٢) قال جماعة من أهل التاريخ: الذى بنى الأهرام سُوريد بن سلهوق بن شرباق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة حسن المحاضرة ١/ ٧٠.

(٣) البَرابى: جمع بِربى، وهى كلمة قبطية، قال ياقوت: وَأظُنُّه اسمًا لموضع العبادة، أو البناء المحكم، أو موضع السِّحر. معجم البلدان (البرابى) ١/ ٢٨٧.

وكان أكثر اهتمامه بعمل الأدوية والعقاقير المؤلّفة والصنعة والنواميس ودفع المضارّ بالطلسمات وكلّ ما كان فيه صلاح للناس.

وعمل صنمًا فى صورة امرأة جالسة فى حجرها صبىّ ترضعه، فمن أصابها علّة من النِّساء فى عضو من بدنها مسحت ذلك المكان من الصنم فزال عنها ما تجده، وكذلك إن قلّ لبنها أو أبطأت حيضتها مسّت فوق ركب الصنم، وإن كثر دمعها مسّت أسفل الركب فينقص، وإن أصاب ولدَها شىءٌ فعلت مثل ذلك بالصبى فيزول عنه، وإن عسرت ولادتها فمسحت رأس الصبى سهلت ولادتها، ولذلك البكر يسهل افتضاضها.

وإذا قربت الزانية من هذه الصورة ووضعت يدها عليها ارتعدت يدها ولا تزال كذلك حتّى تقلع عن فُجورها.

ولم تزل الصورة كذلك حتّى أزالها الطوفان، ويقال إنها وجدت بعد الطوفان وإنّهم عملوا بها بعد ذلك وعُبدت وصورتها موجودة فى جميع برابى مصر باسمها، وكان اسمها بلهوية.

وعمل لهم الصنم الذى يقال له بكرس من أخلاط يدفع الأسقام والعلل بمواضع تغسل منه وتشرب، وبخورات يتبخّر بها ويستنشق، وعمل عجائب كثيرة.

واستخرج زمن أبى سليمان عوف بن سليمان قاضى مصر كتابًا بالقبطية وجد فى قبر ميّت كان فيه، كُتب هذا الكتاب فى أول سنة من ملك دُقْلطيانس من كتاب نُسخ فى أول سنة من مُلك فليبس، وإنّ فليبس اسْتَنْسَخَهُ من صحيفة ذهب بالكتاب الأوّل ترجمهُ له أخوان من القبط ورِثا علم ذلك من أبيهما، وهو رجل من أهل مصر الأوائل لم ينج منها من الطوفان غيره، وكان سبب نجاته أنه أتى نوحًا عليه السلام فآمن به فلم يأته من بلده غيره، وهذا المترجَمُ من الكتاب الموجود:

باسم الباقى بعد الأشياء، إنّ الملك سوريد بن سهلون ملك مصر وأنّه رأى رُؤْيا هالته[1]، فأحضرنا وأمرنا أن ننظر ما تدلّ عليه الكواكب ممّا يحدث فى العالم، فأقمناها فى مراكزها فى وقت مسألته، فدلّت علَى آفة نازلة من السماء وحادثة من

(١) قصة الرؤيا فى حسن المحاضرة ١/ ٧١.

الأرض، فلمّا بان لنا ذلك أخبرناه به فقال: ما هو؟ فنظرنا فى خفى أمورها فوجدنا ماءً يحدث مفسدًا للأرض وأهلها وحيوانها وجميع ما فيها.

فلمّا تمّ التعبيرُ من ذلك أمرنَا ببناء الأفرونيات، وأعلامًا عظامًا تكون له ولأهل بيته قبورًا تحفظُ أجسامهم من الفساد ويبقى علمُهم صحيحًا، وكتب على حيطان الأفرونيات وسقوفها علم غوامض الأمور من دلائل النجوم وعللها وسرائر الطبائع وتكونها والنواميس العظام وعلمها والعقاقير وتأليفها والصنعة وحكمتها وغير ذلك مما ينفع ويضر ملخّصًا مفسرًا لمن عرف كتابنا ولغتنا.

وإنّ هذه الآفة محيطة بجميع أقطار العالم إلاّ اليسير، وذلك إذا نزل قلب الأسد أوّل دقيقة من السرطان وتكون الشمس والقمر فى أول دقيقة من رأس الحَمَل وأقرونس من الحَمَل فى درجة وثمان وعشرين دقيقة، وأرش فى الحوت فى تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق، وأفرود يطَى فى الحوت فى ثمان وعشرين درجة ودقائق، وهرمس فى الحوت فى سبع وعشرين درجة ودقائق، والجوزهر فى الميزان، فأوج القمر فى الأسد خمس درجات ودقائق.

فلمّا عرفناه ذلك قال: انظروا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر - بالعالم.

فأصبنا الكواكب تدلُّ فى وقت نظرِنا على أنَّ آفةً نازلة من السماء إلى الأرض وأنها ضد الأولى، وهى نارٌ محرقة لأقطار العالم فعرَّفْنَاهُ بذلك فقال: انظروا متى يكون هذا الكون، فوجدناه قد يكون عند نزول قَلْبِ الأَسَدِ آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأسد ويكون إيليس، وهى الشمس، معه فى دقيقة واحدة متصلة بقرونوس من تثليث الرامى، ويكون راوس فى الأسد وأرش معه فى دقيقة واحدة متصلة ويكون سلينى، وهو القمر، فى الدلو مُقَابلاً لإيليس والذنب معه، ويكون كسوفٌ مطبق، وتكون أفرود بطى فى بعدها الأبعد من وراء إيليس وهرمس فى بعده الأبعد أمامها مقيمين، أفرود يطى للاستقامة وهرمس للرجعة.

فقال الملك: هل من خبر آخر تُوقفُونا عليه بعد هذه الأمور العظام؟ قالوا: ننظر فى ذلك، فنظروا على عدد السنين وقالوا: وجدنا أنه إذا قطع قلب الأسد ثلثى أدواره، وهو آخر دقيقة من العقرب، لم يَبْقَ من حيوان الأرض متحرك إلاّ تلف، فإذا استتمّ أدواره تحللت عقد الفلك. قال لهم: فأىّ يوم تحلّل فيه عقد

الفلك؟ قالوا: اليوم الثانى من بدء حركة الفلك.

فعجب من ذلك، قال: وزعم آخرون أنَّ قلب الأسد إذا بلغ الدرجة الخامسة عشرة من الأسد كان طوفان نار يحرق العالم بأسره، فلا يبقى على الأرض حيوان وتبقى الأرض خرابًا، ويستأنف البارى تعالى ما أراد من الخلق، وهذا لم يصحّ لأن قلب الأسد كان يرصد سنَةَ أربع عشرة ومائتين فى ثلاث عشرة درجة وثلاثين دقيقة من الأسد، فيجب أن يكون اليوم، وهو إحدى وستّين فى آخر الدرجة السادسة عشرة منه.

وفى كتاب السند هند الذى عُمِلَ المجسطى منه وغيره أنّ دوران الشمس من أول مسيرتها من الحَمل إلى أن ينقضى مسيرتها آخر الأسد على ما حسبوه وأحاطوا علمًا به بزعمهم أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف ألف وعشرون ألف ألف دورة والدورة سنة.

وجمهورُ الناس من المتقدِّمين والمتأخرين يعتقدون أنّ العالم محدث مُنْتَقَض إلاَّ ما قاله أرسطاطاليس إنّ الطبيعة قديمة، وإنّ الزمان لا يبيدُ، وإنّه لا أَوَّلَ له ولا آخر، وهو قول أهل الهند، وقال نفر من الفلاسفة: العالَمُ مُحْدَثٌ إلاَّ أنّه لا يَبِيدُ لأنه حكمة، والحكيم لا يُفْسِدُ صَنْعَتَهُ.

ولمّا مات سُوريد بعد أن ملك مائة سنة وسبع سنين دفن فى الهرم الشرقى وملك بعده أخوه هرجيت ثلاثين سنة ودفن فى الهرم الغربى، وملك بعده ابنه مناوش خمس عشرة سنة ودفن فى الهرم المُلوّن بلونين من الحجارة، ولهذه القبور أبواب فى آزاج مبنية بالحجارة فى الأرض، طول كل أزج منها عشرون ذراعًا بذراعهم، له باب من حجر واحد يدور بلولب، فإذا أطبق عليه لا يعرف أنه باب، وصار كالبنيان لا يصل الذر إلى الوصول منه، وفى هذه الأهرام قبون من الذهب والفضة والكيمياء والحجارة من الزبرجد الرفيع والجواهر النفيسة ما لا يحتمله الوصف كثرة.

هذا آخر الكتاب الموجود فى القبر، وترجم هذا الكتاب يوم الأحد أول يوم من توت عند طلوع الشمس سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب وانتهى ما تضمنه من التواريخ من لدن أثبت بالخط الأول إلى هذا اليوم أربعة آلاف

وخمسمائة وعشرون وثلث الشمس.

ثمّ نظركم للطوفان إلى هذا اليوم، فوجد اثنين وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف، فعلم أنّ الكتاب كُتِبَ قبل الطوفان لما بين الجملتَيْن.

وكانت الرؤيا التى رآها الملك على ما أثبت فى المصاحف الموجودة بمَنْف فى خلافة عبد الملك[1] وكانت سبعة مصاحف مترجمة يذكر قيطون بن أمنايوس الكاهن يذكر فيها مبادئ الولادات والخلوق الأوَّلية، ويذكر الملوك والناظرين وما وضعوه من الحكم وعملوه من الطلسمات، وكانت بخطّ أركليوس الكاهن، فحملت إلى عبد الملك مع الحَبْر الّذى كان معها وانعفى أكثرها، ففسّرها له رجل يهودى من أهل الطوارى، فلم تكن بالخط الكاهنى الصورى بل كانت بالخطّ المعروف بالبرسطى، فبذلك قدر على استخراجها، فكشف لهم منها ما أراد وستر ما أراد، وقدر منها على علم كثير وعرف الخبر المشهور وكيف الوصول إليه وأصناف العلوم المقترنة به، وقد كان صدر المصحف الأول الجامع لهذه المصاحف.

باسم الرب المحيط بالأشياء:

أنا قيطون بن أمنايوس الكاهن، كان أبى من خدّام الهياكل النورية والمتكلّمين عندها بكلمة التوحيد والخضوع للآلهة المعطية للعلوم المظهرة وللأرواح الأشباحية لمن كان يتعبد لها ويقوم بقرابينها وبخورها، وكان إليه مع ذلك خدمة نواويس الملوك، وكان من رسم بهاتين الحالتين يومى إليه بالتعظيم ويفضل بالتزكية.

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى القرشى، أبو الوليد (٢٦-٨٦هـ): من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ فى المدينة، فقيهًا واسع العلم متعبِّدًا، ناسكًا وشهد يوم الدَّار مع أبيه. واستعمله معاوية على المدينة، وهو ابن ١٦ سنة وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (سنة ٦٥هـ) فضبط أمورها، وظهر بمظهر القوة، فكان جبارًا على معانديه، قوى الهيبة، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابنى الزُّبير فى حربهما مع الحجاج الثقفى.

ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات، وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام، وأوَّل من نقش بالعربية على الدراهم، ونقش خاتمه «آمنت بالله مخلصًا» توفى فى دمشق سنة ٨٦هـ.

ترجمته فى: الأعلام ٤/ ١٦٥ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٩٨ وتاريخ الطبرى ٨/ ٥٦ والأعلاق النفيسة ١٩٢.

فلمّا هلك هرمينيوس الملك حفر له فى ناووس المملكة أزجًا وصفحه بالمرمر الأزرق ملوحًا بالذهب اليأكلون، وحفر عند رأس الأزج موضعًا تقام فيه أسطوانة التاريخ فانتهى به الحفر إلى أوعية من رصاص مطبقة فيها مصاحف الكهنة وفيها جثّة أقوريس الكاهن الذى كان فى زمن أسادس، فأخذ أبى المصحف بحقّ كهانته وقيامه على الهياكل والنواويس، فوقف على ما فيها ولم يظهر شيئًا من علومها، فلمّا هلك أبى صارت المصاحف إلَىَّ، فنقلتها بترجمتى لتكون ذخيرة لولدى، وكان أوّل ما ترجمته من تلك المصاحف.

باسم النور الّذى كانت الأنوار كلّها منه وإليه تعود، مطهّر الحكماء ومؤيّدهم بالأشباحية العالية واسم الآلهة.

هذا ما نسخناه ووقفنا عليه من أسرار العلوم والذى قدرنا عليه من كتب ساداتنا للناظرين الهادين إلى طريق الحكمة، ووقفنا عليه من أسرار الخليقة ومفاتيح العلوم وأسرار الولادات.

ثم نرجع إلى ذكر الرُّؤْيا[1]، وكان فى جملة ما ترجم من هذه المصاحف أنّ سوريد رأى الكواكب المعروفة بالبابانية فى صور طيور بيض وكأنّها تخطف العالم وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكان الجبلان انطبقًا عليهم وكانت الكواكب النيّرة مظلمة كاسفة كلّها.

فلمّا أخبره الناظرون بما تقدّم عنهم أمر أن يختار موضعًا لبنيان الأعلام، فاختير موضع بقرب النيل فى الجانب الغربى وبنيت فيه مدينة مرقة أى مطلب الحكمة، وأمر الملك بجمع الناس والفعلة فجمع سبعة آلاف لقطع الحجارة وحملها ومثلهم لهندستها والنقش عليها، وأضعافهم للبناء، وعمل قضبان الحديد، واستخراج معادن الرصاص، فكانوا ينصبون البلاطة ويجعلون فى وسطها عمودًا من حديد قائمًا قد ضبط بالرصاص المسبوك، وتركب عليه بلاطة أخرى فى قدّها وهندستها مثقوبة الوسط بقدر دخول القضيب فيها، ويسبك الرصاص ويصبّ على البلاطتين معًا، حتّى بنى بها بنيانًا طوله مائة ذراع وخمسون ذراعًا بذراعهم ليكون ماء الطوفان مع حافته وهرم البنيان صاعدًا، وجعل رأسه عشرة أذرع فى مثلها،

(١) حسن المحاضرة ١/ ٧١.

وعرض كل حائط من تربيع الهرم مثل طوله مائة وخمسون ذراعًا.

ثمّ أحضرهم فقال: انظروا هل تفسد هذه الأعلام، فنظروها فوجدوها باقية لا تزول.

فقال: انظروا هل يفتح منها موضع، فنظروا فقالوا: نعم يفتح من الجانب الشمالى، فقال: حقّقوا النظر هل تعرفون الموضع بعينه، فعرِّفونى إلى متى يكون ذلك، فأخرجوا الموضع وذكروا أن ذلك يكون لأربعة آلاف دورة للشمس، فقال: انظروا العلّة التى يفتح من أجلها فقالوا: يفتح طلبًا لما فيه من مال.

فقال: هل ينفقون على ذلك شيئًا؟ قال: نعم، قال: هل تقفون على قدره؟ فعرفوه، فقال: اجعلوا فى الموضع الذى يصلون منه إلى داخل الهرم بقدر ما ينفقونه.

وحثّ الأمّة على الفراغ من الأهرام والأفرونيات، ففرغوا من ذلك فى ستين سنة، وعلى الأهرام مكتوب: بنينا هذه الأهرام فى ستّين سنة، فليهدمها من يريد ذلك فى ستّمائة سنة، فإنّ الهدم أهون من البناء.

وذكروا أنّه كانت لهم قراقل من خوص إذا ضربوا بها الحجارة قفزت من أنفسها وطارت، وأنّ ذلك لم يزل متعارفًا عندهم.

قال الوصيفى: وقال لى رجل قبطى يعرف بإبراهيم بن أبراس، وقد أجرينا شيئًا من هذا الذكر، أنّهم أصابوا فى بعض الكنائس فى موضع شبيه بالطاق سفط فيه سلة، ففتحت فوجدوا فيها قرقلة من خوص عجبوا منها ولم يدروا لها معنى، فطرحوها فى النار ليحرقوها، فكانت تثب من النار حتّى تبلغ سقف الكنيسة، فلمّا رأوا ذلك قطعوها بالسكين، ثّم عرفوا الحال فيها فندموا على إفسادها، قال الوصيفى: ولا أدرى أهى من قرافل الحجارة أم من غيرها إلاّ أنّ فى توثُّبها من النار عجبًا.

ولمّا فرغ المأمون من حرب أهل التيماء وأقام بمصر أراد هدم الأهرام، فعرّفه بعض شيوخ المصريين أنّ ذلك غير ممكن ولا يجمل بمثله أن يطلب شيئًا لا يبلغه[1].

فقال: لابدّ لى أن أعلم عِلْم ما فيها، ثمّ أمر أن يفتح من الجانب الشمالى لقلّة

---

(١) صورة الأرض ١٢٩، وحسن المحاضرة ١/ ٧٢.

دوام الشمس على من يتولّى ذلك.

فكانوا يوقدون النار عند الحجر، فإذا حَمى رشّ عليه خلّ رومى بالمنجنيق حتّى فتحت الثلمة التى يدخل منها إلى الهرم اليوم، فوجد بنيانه على ما ذكرنا من الحديد والرصاص، ووجد عرض الحائط عشرين ذراعًا.

فلمّا وصلوا إلى آخر الفتح وجدوا خلفه مطهرة من حجر أخضر فيها مال على حول الدنانير العراض، وزن كلّ مثقال منها سبعة وعشرون مثقالاً وثلثا مثقال بمثقالنا، فقال: زنوه، فوزنوا الجملة فوجدوا فيها مالاً عظيمًا معلومًا.

وكان المأمون رحمه الله فطنًا فقال: ارفعوا إلىّ ما أنفقتم على فتحه، ففعلوا فوجدوه موازنًا لما وجدوا من المال فتعجب من ذلك ومن معرفتهم بالموضع الذى يفتح منه على طول الزمان، وازداد يقينًا فى علم النجوم، فركب حتى دخله ونظر إلى البيت فوجد فيه صنمًا أخضر مادًا يده وهو قائم، ونظر إلى الزلاقة والبئر، فأمر بنزولهما، فنزلوا من واحدة إلى واحدة حتّى أفضوا إلى صنم أحمر وعيناه مجزعتان سوادًا فى بياض كأنّهما حدقتا إنسان، فهالهم أمره وقدّروا أن له حركة، فخرجوا وعرّفوه الحال وجرأه ذلك علىَ طلب مخاب كثيرة.

ووجد المأمون طول كلّ هرم من الهرمين الكبيرين أربعمائة ذراع[1] بالمالكى وكذلك عرض كلّ حائط من حيطانها، ويقال إنّه ليس على وجه الأرض أرفع بناء من هذين الهرمين وهما غربى وسيم، ولا فى العالم حجر موضوع على حجر أعلَى منهما، ويقال إن عمقهما فى الأرض مثل ارتفاعهما فوق الأرض، وذكر أن أبواب هذه الأهرام لا تفتح إلاّ بكلام وقرابين وبخورات، والصابئة تحجّ إليها من حرّان.

وفى مصحف هرقل ـ وكان تأريخه لستّمائة سنة من الطوفان ـ أنّ سوريد ملك مصر نظر فى النجوم، فرأى أنّ حادثة من السماء تكون مضرّة بالعالم، فأمر ببناء أعلام تكون نواويس لحفظ أجساد الملوك، وكتب على تلك الأعلام أسماءهم وتواريخهم وكثر فيها من فاخر الجوهر والصنعة وطرائف الحكمة، ومن التماثيل والذهب الملّون والتيجان الفاخرة مما يستدلّ به على عظم ملكهم، وجعل على ذلك طلسمات تمنع منها إلى أوقات معلومة تكون ذخيرة لهم.

(١) فى صفة الهرمين الكبيرين انظر: موسوعة تاريخ مصر ١/ ٢٠٥.

ووضع أساسها فى وقت السعادة وجعل فى كل أساس كلّ علم منها صنمًا وكتب فى صدورها رفع المضارّ والآفات عنها، وفى يد كلّ صنم منها كالبوق، وهو واضعه فى فيه، وفى وسط كل علم منها مسارات موجّهة إلى آزاج[1] ضيّقة المنافذ واسعة المداخل يجتذب الرياح إليها على مَرِّ الزمان، وتخرج فى وجه الداخل إليها، فإن لم يحسن دفعها أهلكته، ومنها ما ينطبق عليه بحكمة متقنة وأمر مبرم.

وقيل إنّه عمل تحت الأهرام أسرابًا تخرج منها إلى ناحية الفيوم وإلى ناحية المغرب على يوم ويومين منها، وأودعت عجائب كثيرة، وإنّ فى أسفلها مشارب للماء يفيض فيها إلى مصابٍّ تجرى إلى النيل.

وفى خبر آخر أنّه وكل بالأهرام روحانِيِّين[2]، فجعل فى الهرم الغربى روحانيًا فى صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، لها ذؤابتان، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنسان ضحكت إليه واستجرّته إلى نفسها، وقد ذكر ذلك من رآها وقصدها.

ووكل بالهرم القبلى روحانيًا فى صورة غلام أمرد عريان قد رؤى من خارجه مرة بعد مرة ثم تغيّب عنهم.

وفى الهرم الملّون صورة شيخ فى كفّه مجمرة كنائسية كأنه يتبخر وعليه ثياب الرهبان.

وكذلك وكَّل لجميع الأفرونيات، حتى إن أهل أخميم لاشك عند جماعتهم أنّ روحانى البربَى[3] الذى بها غلامٌ أسود أمرد معه عصا، ولا يستطيع أحد أن يدخل البربَى من بعد العصر إلى الصبح، ولم يكن أهل سمنّود يشكّون فى أنّ روحانى البِربَى[4] الذى فيها رجل طويل أدم صغير اللحية أشيب.

---

(١) الأزج: ضرب من الأبنية، والجمع آزاج وآزج. انظر الصحاح (أزج) ١/ ٢٩٨.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٧٩ وفتوح مصر ٤٨.

(٣) بربى إخميم: كان فيه صور الملوك الذين ملكوا مصر. قال صاحب مباهج الفكر: وهى مبنية بحجر المرمر، طول كل حجر خمسة أذرع فى سمك ذراعين وهى سبعة دهاليز، ويقال إن كُلَّ دهليز على اسم كوكب من الكواكب السبعة وجدرانها منقوشة بعلوم الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب، ويقال إنه كان بها جميع ما يحدث فى الزمان حتى ظهور رسول الله ﷺ وكان مُصَوَّرًا فيها راكبًا على ناقة. حسن المحاضرة ١/ ٦٥ـ٦٦.

(٤) بربى سمنّود: قال الكندى: رأيته وقد خزن فيه بعض العمال قُرْطًا فرأيت الجملَ إذا دنا منه =

وأما بِربَى قفط[١] فجارية سوداء معها صبى صغير أسود تحمله.

وأما بِربَى بوصير[٢] ففيها شيخ أبيض عليه زِىّ الرهبان وفى يده مصحف.

ولكل واحد من هؤلاء الروحانيين قربان وكلام يطيع به ويدلّ معه علَى علوم البِربَى وكنوزه.

ويقال إنّ ذا النون الأخميمى إنّما قدر علَى ما قدر من علوم البربى حتّى عمل الصنعة والجوهر وحمل إلى العراق فى ليلة وغير ذلك من العلم، لأنّه خدم راهبًا كان بأخميم يقال له ساس مدّة صباه، فعلّمه الخطّ ودلّه على القربان والبخور واسم الروحانى وأوصاه بأن يكتم ذلك، فلمّا علم ذو النون ما علم طيّن مبنى الحكماء بطين الحكمة الذى لا ينقلع إلاّ مع الحجر ويفسد بقلعه الخطّ المرموز به.

وفى بعض أخبار المصريين أنّ قومًا قصدوا الأهرام فى وقت المتوكّل[٣] وكان على مصر حينئذ ابن المدبّر[٤]، فنزلوا من الزلاقات والآبار وطلبوا أن يدخلوا من تلك المضايق التى تخرج الرياح منها وحملوا سرجهم فى أوانى زجاج، فأتتْهم رياح أخرجتهم وكسرت أوانيهم وأطفأت سرجهم، فأخذوا أحدهم فربطوا وسطه بالحبال وقالوا له: ادخلْ، فإن رأيت شيئًا تكرهه جررناك، ففعل ذلك[٥].

فلمّا دخل وأمعن وزاحم الرياح انطبق عليه ذلك المصب وجذبوه، فانقطعت

= بحملهِ وأراد أن يدخله سقط كل ودبيب من القُرْط، ولم يدخل منه شىءٌ إلى البِربْى، ثم ضرب عند الخمسين وثلاثمائة. حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(١) فتوح مصر ٤٨.

(٢) فتوح مصر ٤٨.

(٣) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل: خليفة عباسى، ولد ببغداد سنة ٢٠٦ هـ وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ، وكان جوادًا ممدحًا محبًا للعمران، من آثارة «المتوكلية» ببغداد، أمر بترك الجدل فى القرآن، وأنّ الذمّة بريئة ممَن يقول بخلقه أو غير خلقه، أقام بسامراء واغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه المنتصر سنة ٢٤٧هـ. الأعلام ٢/ ١٢٧ وتاريخ بغداد ٧/ ١٦٥.

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن عُبيد الله بن المدبر ـ أبو إسحاق ـ وزير من الكتاب المترسّلين الشعراء، من أهل بغداد، تولّى ولايات جليلة واستوزره المعتمد العباسى لَمّا خرج من سامراء يريد مصر سنة ٢٦٩، وتوفى ببغداد مُتَقَلِّدًا ديوان الضياع للمعتضد سنة ٢٧٩هـ. الأعلام ١/ ٦٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٤٣ وتاريخ الطبرى ١/ ٣٤١ وتاريخ ابن الأثير ٧/ ٦١.

(٥) حسن المحاضرة ١/ ٧٩.

حبالهم وبقى الرجل فى ذلك الشقّ لا يقفون له علَى خبر، فاغتمّوا لذلك وصعدوا هاربين حتّى خرجوا من الهرم وجلسوا عند باب الثلمة المفتوحة ينظرون فى أمر ذلك الرجل وأمرهم وما أقدمهم علىَ ما أقدموا عليه، فإنّهم لكذلك إذ انفرجت لهم فرجة من الأرض كالوهدة، فأثارت لهم ذلك الرجل عريانًا مُشوّه الخلق ميّت الدم جامد العينين، وهو يتكلّم بكلام عجيب لا يفقه، فلمّا فرغ من كلامه سقط ميّتًا، فازداد ولههم وتضاعف جزعهم واحتملوه إلَى منزله، فأخذهم الحرس وانطلقوا بهم مع الرجل الميّت إلى ابن المدبّر، فسألهم عن أمرهم فأخبروه، فعجب من ذلك وأمر أن يكتب ذلك الكلام على حسب ما لقنوه، فأقام يطلب من يفسّره إلى أن لقى رجلاً من أهل العلم الأقصَى يعرف شيئًا من ذلك اللسان، فإذا معناه: هذا جزاء من طلب ما ليس له وكشف عمّا يخباه فليعتبر من رآه، فمنع ابن المدبّر من تعرض للأهرام[1].

وفى خبر آخر أنّ جماعة وجدوا فى بعض البيوت والوسطَى زلاقة إلَى بئر، فنزلوها فوجدوا سربًا، فساروا فيه نصف يوم حتّى انتهوا إلى حفير عميق، وفى عدوته باب لطيف يتبيّنون منه شعاع الذهب والجوهر، ومن رأس الحفير ممّا يليهم إلى الباب المحاذى لهم عمود حديد قد ألبس محورًا من حديد يدور عليه ولا يستمسك، فاحتالوا فى وقوفه وذهاب حركته فلم يصلوا إلى ذلك، فربطوا أحدهم فى حبل وتعلّق به ليصل إلى الجانب الآخر، فدار به المحور فتحيّر وسقط ، فخرجوا هاربين لا يلوون.

ودخل نفر بعضَ الأسراب التى فى الهرم فانتهوا إلَى صنم أخضر فى صورة شيخ بين يديه أصنام صغار كأنّه يعلمهم، وساروا فوجدوا فوّارة تحت قبّة يقع فيها ماء من أعلَى تلك القبّة، فيكون له نشيش[2] شديد كأنّه طفى نار ويغوص فيها فلا يتبيّن.

فداروا فوجدوا بيتًا مسدودًا بحجر فيه دوىّ شديد لا يُدرى ما هو، ووجدوا عنده شبيهًا بالمطهرة الكبيرة فيها دنانير عليها صورة أسد من وجه وصورة طير من

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٧٩.

(٢) النشيش: صوت الماء وغيره إذا علا الصحاح (نشش) ٣/ ١٠٢.

وجه، فأخذ بعضهم منها شيئًا، فلم يقدر علَى حركة ولا كلام حتّى طرحها من يده.

وكلما فسد من هذه الأفرونيات وتهدّم وتغير مثل بربَى بوصير وبربى سمنّود وغيرهما من الهياكل يتركهم الاستقصاء فى أخذ الطالع وصحّته قبل وضع الأساس، وكذلك ما بقى منها فلقرب الطالع من الصحة لأن الّذين بنوا هذه البرابى كانوا علَى بعد من الملك ولم يكونوا بحضرته، فيتقنون النظر كما اتّفق فى عمل الأهرام، وهم لا يشكّون أنّهم لما هدموا بربَى سمنّود فحملوا حجارته إلى أشتوم دمياط ووهبوا بقيته لبنى الهندس أنّ اليوم الذى فرغ من هدم الحائط الغربى دخل حباسه الإسكندرية وخربها وكثرت الرمال حتّى انقطع البحر فى شهور الصيف وقلّ زكاء الزرع وكثر الفأر والجراد وأشياء من الفساد كثيرة.

ويتحّدث أهل سمنّود[١] عن هذا البربَى بعجائب كثيرة يطول شرحها، منها أنّ بعض من دخلها كتب علَى كتفه صورة من تلك الصور أعجبته، فانطبقت عينه حتّى أتاه من كتب على كتفه الصورة المحاذية لها فانفتحت عينه.

قال الوصيفى: وأخبرنى من أثق به أنه رأى فيها صورة شيطانيْن تحوط بهما سلسلة بكتابة، وهما يمسكان طرفيها وبينهما كتابة، فأخذ صورته، فكانت عنده إلى أن عرّفه بعض من رآها عنده أنّها حرز عظيم، وذكر أنّه لو جعل عليها لحمًا وجوع كلبًا أو شيئًا من السباع وخلاه عليه لم يقرب منه، قال: فعجبت منه وامتحنت ذلك فوجدته كما ذكر.

قال الوصيفى: وقد رأيت أنا فى بربَى أخميم[٢] صورة عقرب، فألصقت عليها شمعًا وكانت عندى، فلم أتركها فى موضع إلاّ انحاشت إليها العقارب، وإن كانت فى تابوت اجتمعت تحته وحوله حتّى كنت أتجافَى عن حملها، فطلبها بعض إخوانى ودفعتها إليه ورجعت إلى أخميم، فوجدت الصورة قد نقرت وأفسدت.

ومن المتعارف عند أهل أخميم[٣] أنّه كان فى البربَى صورة شيطان قائم على

---

(١) راجع: حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(٢) راجع: حسن المحاضرة ١/ ٦٦.

(٣) انظر: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة ١/ ٨٥.

رجل واحدة وله يد واحدة وقد رفعها الهواء، وفى جبهته وحواليه كتابة وله إحليل ظاهر ملصّق بحائط البِربَى، فكان من احتال علَى ذلك الإحْليل حتّى نقب عليه ونزعه من غير أن ينكسر ما دام عليه، وأنّ ابن أبى الغمر لمّا ولّى البلد أخبر بذلك فطلبه، فلم يوجد له غير صورة واحدة كانت قرب السقف، فاحتيل عليها حتَّى أخذ له الإحليل، فكان يستعمله ويخبر بصحته.

وكانت فيها صورة بومة إذا ألصق عليها الشمع وجعل فى موضع لم تقربه بومة.

وكانت فيها صورة شيطان يسوق كبشًا بحبل فى عنقه، فمن صوّره فى صفيحة رصاص وما حوله من الكتابة وحمله معه ومرّ على قطيع من الكباش اتّبعته.

وفى بربَى أخميم فى الباب الّذى يُدخل منه إلَى المصعد فى عقب الباب علَى يسار الداخل منه صورة رأس عظيم بلحية كبيرة وشعر كثير كأنّه رأس رومى بغير جسد، فذكروا أنّ الأوائل كانوا يبخرون ذلك الرأس ببخور لهم معروف، فكلّ مَن بخره وجد عنده دينارًا، فكان ذلك معونة لأهل المسكنة، قال الوصيفى: فتصفّحت موضع الرأس فوجدت آثار البخور والطيب بيّنة فيه وفى القبّة الداخلة الّتى ينزل منها إلى سطح البربىَ المعروفة بقبّة مسمطا سيسيم، ولها بخور وكلام، من تكلّم به وسأل عن كلّ أمر أخبر به من البئر بكلام يسمعه ويفهمه.

وفى بربَى قِفْط[١] صورة رجل جالس فى دائرة وحوله كتابة وعلَى جميع دور الدائرة شياطين قيام بأيديهم حراب، يرمون بها ذلك الرجل، والرجل رافع يده كأنّه يرميهم، فيقال إنّه من صوّر تلك الصورة فى صفيحة ذهب وحملها معه ودخل الحرب لم يضرّه ولا عمل فيه حديد ولا غيره، يعمل ذلك فى أوّل الهلال ويكون المشترى مسعودًا.

وحذاء هذه الدائرة من الجانب الآخر دائرة أخرى فيها رجل مكتوب علَى وجهه وحوله شياطين بأيديهم حراب يضربونه بها، وقد شكّوها فى جسمه، فيقال إنّ من صوّر مثلها فى صفيحة رصاص باسم عدوّ له وبخرها بشعر جمل فى آخر الشهر

(١) قِفْط: مدينة بالصعيد الأعلى، لها مزارع وبساتين كثيرة وفيها النخل والأترج والليمون. مراصد الاطلاع ٣/ ١١١٣.

وزمنها فى ناووس تحت رأس ميّت لحقه كلّ مكروه ولم يزل عدوّه فزعًا ميت القلب، فإن تُركت أكثر من ثلاث خِيفَ عليه الهلاك، فإذا أُخْرِجت وغسلت بماء بئر لا تراها الشمس وجعل ذلك الماء فى إناء مزجج أو فى قدر حديد وشربها الرجل وجرد نقش تلك الصفيحة زال عنه ما يجده.

وعلَى باب بِرْبَى أخميم طلسم: قطعة من حجر فى صورة القلنسوة الطويلة معقفة الرأس كأنها منقار، يقال إنّ تحتها مالاً عظيمًا، فجهد جماعة من الولاة أنفسهم فى قلعها أو كسرها فلم يصلوا إلى، وتكسّرت المعاول عليها ولم يَثلّم منها شىء.

وأخبرنى رجل بأخميم[١] أنّه رأى هناك صورة استحسنها، وهى صورة إنسان علَى رأسه طائر وإلَى جانبه كلب رابض وتحت رجليه كتابة، وأنّه صورها فى قرطاس كما رآها وحملها فى جيبه، فأقام ثلاثة أيَّام لم يجع ولم يأكل ولا اشتهى شيئًا من الطعام، ولم يدر السبب فى ذلك، ثم إنّه فكّر فى تلك الصورة فنحاها عنه فاشتهَى الطعام وأكل، فحدّث بذلك بعض الولاة فأخذها منه ورجع إلىَ البربى يطلبها، فأشكل عليه موضعها ولم يصل إليها إلى أن أخبرنى بذلك.

وحدّث رجل منهم أنّ رجلاً من أهل المشرق نزل عليهم وكان بصيرًا، فتذاكروا أمر البربَى فقال بعضهم: إنّى رأيت صورة إنسان عريانًا مؤتزرًا بمئزر وفى يده اليمنى فأس له رأسان وفيه قفّة معلّقة، فقال الشرقى: إنّ لهذه الصورة عملاً ينتفع به، فانسخه لى وما حوله من الكتابة، وليس يعمل بها إلاّ أن تفسد من البِربَى[٢].

قال: فصورّتها له فقال لى: أفسدها أخبرك بنفعها، فأطمعنى فى علم ذلك وأفسدتها وخدّشتها بمنقار كان معى حتّى انطمست وسألته عن العلم، فخلط علىّ وجرى ذكرها، ثمّ إنّى بعد مدّة تذاكرت خبرها مع قوم نزلوا عندنا، فتلهّف أحدهم عليها فسألته عن أمرها فقال إنّها إذا وضعت فى موضع فيه كنز تحرّك ذلك الموضع وارتفع منه كالغبار، فعلم أنّ فيه خبئًا، وهذه دلالة الكنوز فأغنّى إذ كنت أفسدتها.

---

(١) انظر: حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٦٦.

قال الوصيفى: وحدثنى من أثق به أنّهم أصابوا ببعض البرابى أشنانة زجاج أحمر مربّعة العمل موضوعة فى طاق وفيها ماء أصفر، فلم يدروا لم يصلح، فأهرقوه منها وأخذها أحدهم، فأقامت عنده مدة يستعملها، إلى أن رآها عنده رجل غريب نزل عليهم، فاستطرفه فسأله عنها، فأخبره بأمرها والماء الّذى كان فيها، فتلهّف ذلك الرجل علَى الماء وقال: لقد أضعتم علمًا كبيرًا وخيرًا كثيرًا، وقال: إنّكم لو حميتم الفضّة وغمستموها فى ذلك الماء لصارت ذهبًا أحمر يحتاج إلى أزواج كثيرة وأضعافًا كثيرة حتّى يصير ذهبًا حسنًا جيدًا، قال: فندمتُ علَى تفريطنا فى ذلك الماء، فلمّا رأى ندمى ضحك وقال: أتحبّ أن أُريك منها عجبًا؟ قلت: نعم، قال: زنها واعرف وزنها، ففعلت فوجدت فيها أربعة أرطال، فقال: املأها ماءً أو ما أحببتَ، فملأتها فقال لى: زِنْها الآن، فوزنتها فوجدت وزنها وهى ملئة مثل وزنها وهى فارغة أربعة أرطال، لا تزيد ولا تنقص، فعجبت من ذلك وشاع خبرها فاتّصل ببعض الولاة فوجّه إلىّ وأخذها.

* * *

ذكر أوّل من ولى مصر من الملوك

أوّل من ولى مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم زمن أنوش[1] بوصيّة آدم عليه السلام نقراوش الجبّار بن مصريم، ويقال مصرام بن براكيل بن راذيل بن غرناب بن آدم عليه السلام خرج إليها فى خمسة وثمانين من ولد أبيه غرناب، وله حمل من طشهرة ابنة هرم، فولدت له ولدًا سمّاه مصرم باسم أبيه، ومعنى نقراوش الملك على ولد أبيه، وهو لقب واسمه قرناش، وهو أوّل من اتّخذ المصانع وعمل الطلسمات وأقام الأساطين وَرَمزَ عليها التواريخ وبنىَ المدائن، وهو الّذى حفر النيل وكان قبل ينقطع ويستنقع وعمل للتماسيح فى آخر بلاد النوبة صنمين علىَ شرقىّ النيل وغربيّه ورمز فيها رموزًا امتنعت التماسيح أن تنحدر فيه.

وكانت كتابتهم بقلم الخلقطير، وهو قلم آدم عليه السلام، وكان كاهنًا عالمًا

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٠.

لربى من الجنّ من ولد الأسمور يقال له نكور، وكان قد وقع إليه بعض العلوم الّتى كان درابيل المَلكَ علّمها لآدم، وعمل عجائب كثيرة منها صورة طير على أسطوانة عالية يصفرّ كلّ يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها تصفيرًا مختلفًا يستدلّون به علَى ما يكون من الحوادث فيتأهّبون لها، وعمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة، إذا نظر إليها السارق لم يقدر على الانحياز عنهما حتّى يسلك بينهما فينطبقان عليه.

وعمل فى مدينة برسان أصنامًا موجّهة إلى نواح مختلفة، إذا قصد عليهم قاصد لسوء أرسلن عليه نارًا أحرقته.

وملكهم مائتى سنة وثلاثين سنة، فلمّا مات أقاموا يبكون عليه ويطوفون به علَى أعناقهم ثلاثين سنة.

ثمّ ملكهم بعده ابنه نقراوش[1]، وكان عابدًا لزحل، وحارب أمّة من الجنّ حتّى أدخلها فى طاعته بالعزائم الشداد، فبنى فى صحراء الغرب مدائن معلّقات علَى أساطين تحيط بها مشبكات من الذهب، وجعل فيها خزائن الحكمة، ولها أبواب تحت الأرض لا يوصل إليها إلاّ منها، وجعل لها أقفالاً ومفاتيح مدبّرات.

وكانت ثلاث مدائن فى كلّ مدينة ثلاث خزائن فيها عجائب العلم وطرائف الحكمة، ورموز الصنعة، وأجرام من الماء المعقود لا يتحلّل، ومن الهواء المتجمد لا يضمحلّ، وفيها مطهرة من ماء الحياة الصنعى الإلاهى، وفيها صور الكواكب على أصنافها فى بيوت شرفها وعلَى رؤوسها أكاليل الغلبة وبإزائها صور الحكماء القيّمين بأمورها بأيديهم مصاحف الصنعة وجميع الطلسمات والعلوم.

وذلك كلّه من ضروب الأحجار الرفيعة والجواهر النفيسة والأجرام العجيبة ممّا يطول الكتاب بشرحه ويخرج من حدّ ما ألفناه له باستقصائه.

وجعل تحت الأساطين الّتى هذه المدن عليها خبايا عظيمة من الجوهر النفيس والدرّ الخطير وسبائك الذهب والفضّة والحجارة الرفيعة والبورقات الأصلية والعقاقير المكتومة والأدوية المؤلّفة، وصور هذه الخزائن فى كلّ بربَى من برابى مصر قد رمزوا عليها بخطوطهم المؤلّفة، وخبرها مشهور فى جميع مصاحفهم

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

القديمة وهياكلهم المرسومة.

وبنى نقراوش مدينة عمل فيها الجنّة بزعمه وجعل لها أسرابًا تحت الأرض يوصل منها إلىَ هذه الثلاث مدائن ويوصل من بعضها إلىَ بعض، وملكهم وسنه سبع سنين.

ثمّ ملك بعده أخوه سورث، وكان فيما يقال مؤمنًا موحّدًا فأغلق هياكل الكواكب، وقلّ ماء النيل فرفضه بنو أبيه وخلعوه وملّكوا أمرهم أخاه الأصغر مصرام المتقدم الذكر[١]، وكان جبّارًا يطلب الحكمة، فزاد فى هياكل الكواكب ودخنها وقرابينها واحتفل فى كساها وسدنتها، وذلّل الأسد فركبها.

وكان له ربىّ فأمره أن يحتجب عن الناس وسحره، فألقَى علَى وجهه نورًا لا يتمكّن أحد من النظر إليه، فادّعَى الألوهية ودعا الناس إلَى عبادته، وزعم أنّ الأوطمس ألقَى فيه روحه وأمره بذلك.

وغاب عن الناس ثلاثين سنة واستخلف عليهم رجلاً من قومه يقال له اللهون، وعمل فى غيبته عرشًا عظيمًا من عظام دوابّ البحر ودوابّ ولدها من الوحوش والسباع وعمّره بالأبالسة وركبه، ومضى به الربى حتّى أشرف علَى البحر الأسود، فجعل فى وسطه صنمًا من حجر أبيض وزبر عليه اسمه وجعله قربانًا للشمس.

وعمل قلعة الفضّة الّتى فى البحر الأسود، وذكر ذلك أليوس الكاهن فى سفر ملوكهم، ورمز علَى كلّ صنم هناك: أنا مصرام الجبّار ومدوّخ الأشرار وجامع الأخيار وكاشف الأسرار والعالم القهّار، عرفت حقائق الأشياء وقدرت علَى تشتيت العقاقير ووضعت الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وأظهرت الحكمة العجيبة، وكشفت الأمور الغريبة، ونصبت الأعلام الهائلة علَى البحار السائلة، وأقمت أصنام القرابين من عظام التّنانين، ليُعلم من بعدى أنّه لا ملك مثلى.

وعمل فى برسان شجرة يؤكل منها كلّ فاكهة، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس، ووكل بأقرانها شياطين إذا اختلط الظلام نادى كلّ شيطان منها فى الناحية الّتى تليه: لا يخرج أحد من منزله حتّى يصبح، وإلاّ هلك.

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

وهو أوّل من عمل له الحمّام وركب الوحوش الصعبة وأحبّ الناس أن ينظروا إليه بعد هذه المدّة، فاجتمعوا إلى اللهون ورغبوا إليه أن يسأله ذلك، ففعل فأمر مناديًا أن ينادى فى الناس وأن يوجّه إلىَ جميع النواحى فى حشرهم وجمعهم، فلمّا حضروا جلس لهم فى مجلس عال قد زيّنه بأصناف الزينة وظهر لهم فى صورة هالتهم، وملأت قلوبهم رعبًا، فخرّوا له علَى وجوههم ودعوا وشكروا إيّاه، ومات ولم يعقب.

وبمصرام هذا سُمّيت مصر[١] لمّا دعا الناس إلىَ عبادته بعد الآلهة الّتى كان يتعبد لها، وعلىَ ذلك سمّى مصريم بن بيصر بن حام، وكان اسم مصر قبل ذلك أمسوس، وقيل إنّ اسمها كان مقدونية، وقيل إن اسمها كان فى القديم أباريا وقد قيل إنّ مصرام أوّل من بناها، وهذا لا يصحّ، وبلغ مصرام بسحره وكهانته ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده.

وملك بعده عنقام الكاهن[٢]، فأقام فيهم عادلاً بينهم رفيقًا بهم، وكانت همته الإصلاح والعمارة والإحسان إلَى الناس.

وفى أيامه رُفع إدريس عليه السلام، وحدثت فى وقته نار فى الهواء أقامت ثلاثة أيَّام، وملكهم عنقام إحدى وتسعين سنة وهلك، فأمرهم أن يدفنوه فى الهيكل الَّذى عمله للشمس فى جرن من حجر أحمر ويلطخوا جسده بالموميا وتكون أكفانه من ثياب عملها من شعور ذبائح القرابين ويجعل معه شىء من عظامها ويدفن معه سيره، وذكر أيّامه فى مصحف اتّخذه من جلود حيوان القرابين وأمرهم أن لا يقرب بشىء من الذهب ولا الطيب.

وملك بعده ابنه عرباق[٣]، وفى وقته نزل هاروت وماروت وعلّماه أصنافًا من السحر وعملا بمصر عجائب كثيرة، وكانا فى بئر هنالك يقال له ربعوة، وقال أكثر المصريين إنّ هبوطهما كان من بعد الطوفان، ثم انتقلا من أرض مصر إلى أرض بابل.

---

(١) انظر: مختصر البلدان ٥٩.

(٢) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٢ «عيقام».

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

فرفض عرباق الهياكل واستخف بالسدنة، وكان منهمكًا فى الشرب والفسوق يشرب كلّ يوم مائتى رطل ويغتصب النساء علَى أنفسهنّ، ولا يسمع بامرأة حسناء إلاّ نقلها إليه، وقتل مَن رادّه فى ذلك، وأقام يسوم قومه كلّ خسف ثمانين سنة، وكان يسكن الجنّة الّتى عملها نقراوش الملك.

فسمّته امرأة من المغتصبات يقال لها شارد، هكذا فى كتاب الوراثة لهود، وفى كتاب المصريّين هرشة.

وملك بعده لوحيم[١] من ولد نقراوش الملك، فأحسن السيرة وأجهد نفسه فى مصالح الرعية وبدأ بإصلاح الهياكل وتجديد المصاحف، وأمر بإحضار الكهنة والعلماء من أصحاب الطبائع والطبّ والصنائع والنجامة والهندسة، فكانوا سبعة آلاف رجل ومائة وأربعين رجلاً، منهم الكهنة ألفان وثلاثمائة، فيهم من الناظرين وهم رؤساء الكهّان ـ سبعمائة، وبقية العدد حكماء فى جميع الأعمال والعلم.

فأمر بإثبات أسمائهم وإجراء ما يكفى كل واحد منهم، وأمر أن يعمل له كل واحد أغرب ما يقدر عليه من الأعمال، وأمر أن يبنى له بناحية رقودة ـ وهى الإسكندرية مدينة، ميلا فى ميل من رخام ملّون مشقوقة بجميع الأنهار، ويقال إنّ هذه المدينة مدفونة تحت الإسكندرية، وفيها حكم عجيبة.

وفى وقته عملت أصنام درج الفلك ثلاثمائة وستّين صنمًا، وسمّاها أرباب الصناعات لأنّ فى يد كلّ واحد منهم صناعة يعالجها.

وفى وقته عمل بيت الموجة، وصوّرت فيه صورة كلّ كوكب فى كلّ درجة من درج الفلك.

وفى وقته عملت المدينة اللطيفة الّتى تدور عن القاصد إليها فلا يقدر علَى دخولها إلاّ بحكمة قد عملت لها وجعلت إلىَ الوصول إليها.

وعمل فى وقته القبّة التّى عليها الأصنام الموجّهة إلىَ جميع الجهات، وفى أعناقها أجراس، فإذا قصد بلدهم قاصد تحرّكت الأجراس الّتى تلى تلك الناحية وعلَى قدر الزيادة والنقصان فى أصواتها يكون ما يتخوفونه من ضرر ذلك الوجه، فيتأهّبون لإزالته عنهم، وما عملوه بتلك الصور لحق من قصدهم من المكروه

---

(١) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٢ «الوخيم بن نتراس».

مثله، وعمل مارستانات جعل فيها جميع الأدوية والعقاقير للمرضى، ولم يترك حالة من وجوه البرّ إلاّ عمله.

وخرج إلىَ ناحية المغرب حتّى بلغ وادى الرمل وعمل هناك منارًا، ويقال إنّه قطع الوادى بالحيلة والسحر حتّى أشرف علَى الفُوه الّتى يعتصر ماء البحر فيها وسمع دويًا عظيمًا أجزعه وهاله، فرجع إلَى أمسوس وسكن الجنّة التى عملها أبوه.

وقد كان زوج هرشة الّتى سمّت عرباق، فولدت له كسفون، فقلّده الملك وطاف به على الهياكل وصوّر صورته فيها، ثم استتر يرصد الفلك حتّى رأى مسير الكواكب، ومات فى استتاره، وكان ملكه إلَى أن قلّد ابنه مائة سنة.

فلمّا ملك كسفون لم تكن له همّة إلاّ الأكل والشرب والنساء، واستوزر سبعة من الكهنة يقيمون أمره، فكان أجلّهم عنده رجل يسمى مزنة وكان له روحانى يتبعه، فأمره بوقود النار والتقرّب إليها، فأعلم بذلك كسفون وقال له: إنّ فى ذلك قوام ملكك، فأطلق له فعله فبنيت بيوت النيران، وعظمت وأقيمت لها الأعياد، فكانت تلك النار لا تضرّ البرىء إذا دخل فيها وتحرق المذنب، فكان الناس يتناصفون قبل الوصول إليها.

وفى وقته كانت سمندارة الكاهنة، وكانت تناله بصنم لها يقال له أبرنج، ولها عرش تجلس فيه، فكانت الشمس لا تصل إليه، وكانت تخبرهم بما يعملون فى بيوتهم وما يجرى بينهم. وبين نسائهم وتجترُّ الأشياء إليها بسحرها ولها مع كسفون خبر طويل، وهى الّتى نفخت فى إحليل فتَى كانت تحبّه فهيّمته، وأخرجها قومها من بينهم إلى ناحية الشام.

وهلك كسفون بعد أن ملكهم سبعًا وسبعين سنة من سقطة سقطها من بناء عال فاندقّت عنقه ومات.

وملك ابنه خصليم[1]، وكان أبوه قد شرك فى الملك بينه وبين ابنته أخت

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

خصليم من أمه، وكانت من أعقل أهل زمانها، وهى التى عملت علَى حافة النيل بيتًا من رخام وفى وسطه بركة صغيرة وفيها ماء موزون علَى مقدار معلوم، وعلَى البركة طائران من نحاس علَى صورة عقابين ذكر وأنثى، فإذا كان فى أول الشهر الّذى تسميه القبط بئونة . . وهو الشهر الّذى يزيد فيه الماء ـ فتح الباب وأحضر أمناء الكهّان وتكلّموا بكلام لهم، فيصفّر أحد الطائرين، فإذا صفر الذكر كان الماء زائدًا وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصًا، ثمّ يفتقدون الماء، فكل إصبع يزيد علَى الماء الموزون فهو ذراع من زيادة النيل، وكلّ إصبع ينقص من ذلك الماء فهو ذراع ينقص من ماء النيل، فإن رأوه زيادة مسرفة تفقّدوا الجسور وإن رأوا نقصانًا زادوا فى حفر الترع.

وولّد خصليم من الحمر والبقر دوابًا مركوبة لها قوة شديدة وعمل عجائب.

وتعشّق جارية لأخته يقال لها خولا ووقع بينه وبين أخته نفَارٌ من أجلها، فتحولّت إلىَ شرقى النيل وبنت هناك مدينة لطيفة وهيكلاً تنفردُ فيه حتّى رأت وهى نائمة فى هيكلها الذى بنته للزُّهَرة كانها بين يدى الزُّهَرَة وهى تخاطبها وتقول لها: لأىِّ شيءٍ وَجَدْتِ على أخيك فى جاريتك فلانة؟ قالت: لأنى أنفت له منها ولم آمن أن تلدَ له فتضع من قدره.

قالت: وأىّ ضعة فى ذلك وأنتم معشر البشر من أب واحد وأم واحدة؟ وإنما تعاليْتُم فاستعبد بعضكم بعضًا، واعلمى أنه لابد لأخيك منها، وأنّه لا يُولدُ له من غيرها، وسَيُولدُ له منها وَلَدٌ ويكون مرضيًا عدلاً معظّمًا للآلهة تنزل روحانياتها عليه ويملك الناس دهرًا طويلاً وتكون أيَّامه سعيدة، ولا يزال الناس بعده فى دون أيَّامه إلى أن تكون الآية الحادثة من السَّماء، وإلى كذا وكذا يكون اجتماعهما وتحمل منه بعد كذا وكذا وهو وقت مسعود، وسيراها أخوك فى منامه وتشكو إليه وجدها به، فيزداد شغفه بها وسيذكر لك أمرها فلا تخالفى فيها عليه.

فلمَّا كان بعد حين خاطبها أخوها فيها فعرّفته أنّها لم تكن منعته إلاَّ ضنًا بمثله عنها، إلى أن عرفت أنّه لا يكون له ولد إلا منها، ولعل فى اجتماعهما خيرًا كثيرًا.

وزَيَّنت الجارية بأحسن زينة وأجلّ المتاع وبعثتها إليه، وخلا بها الملك وسُرَّ بها

سروراً مفرطًا وعزم الملك علَى أخته خردادمة أن تعود إلىَ موضعها وتنظر فيما يخصُّ ويعمُّ من أمر المملكة.

وسار إليها جماعة من الكهنة فأعلموها أن قيامها بشأن الرعية وانقيادها لأمر أخيها أَعْوَدُ عليها بما تبتغيه من الأجر، فرجعت إلى دار الملك وكانت تزور موضعها ذلك وهيكلها.

ووضعت خولا للملك ولدًا سماه هرصال أى خادم الزهرة، وشبّ أحسن شباب وطلب الحكمة من كلّ فن فصار من أهلها.

ومات أبوه من سيل أصابه بعد أن ملكهم ثمانيًا وسبعين سنة.

وملك بعده ابنه هرصال[1]، فعمل عجائب منها صنم يدور بدوران الشمس فيمسى مغربًا ويصبح مشرقًا، وتنكر حتى تشق الأمم وتبين اختلاف الأهوية وأخلاق الناس وعجائب البلدان.

ثم انصرف بعد مدّة، وفى أول أيَّامه ولد نوح عليه السلام.

وبعد مائة سنة من ملكه لزم بعض الهياكل متعبدًا وتجلت عليه روحانية الكواكب فيما زعموا، فحجبته عن أعين الناس فلم يعرف له خبر ولا عمل له ناووس وتجلت عليه تلك القوى بعد لزومه الهيكل عشرين سنة.

وبقى الناس بعد ذلك لا يشكون فى حياته سبع سنين إلى أن تشاجر بنوه فاستبان الناس أنه مفقود، وكانت مدة ملكه مائة وسبعًا وعشرين سنة.

ثم ملك الناس بعده ابنه فدرشان[2] بعد اختلافهم فى أىّ بنيه يملكونه، فغلبت عليه امرأة من نسائه من بنات الكهنة فسحرته فانفردت به، وكان أكثر مقامها معه فى جبل المقطم فى مصانع بناها أجداده على نهر هناك، فتصيّد يومًا بين تلك الجبال فسقط فى وهدة فهلك.

وقد كان أولد الساحرة ولدًا مشوه الخلق، وكانت أمه قد جعلته وقفًا على الشمس وسادنًا لضم الشمس.

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٢) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٣ «قدرسان».

وقد كان وقت هلاك أبيه صغيرًا، فسترت الساحرة موته وكانت تراسل الناس عنه وتوهمهم أنه حيّ، فأقامت على ذلك تسع سنين إلى أن تداعى إخوته بعصيانه، وقد كان غرّبهم ونفاهم، فرجعوا إليه فيمن قدروا من الناس والقائم بأمرهم شمرود بن هِرحبال، فكانت بينه وبين السَّاحرة حروب، ثم غلب على أمسوس دار الملك، فكانت مدة ملك فدرشان إلى أن ملك شمرود أربعًا وثمانين سنة.

فملكهم شمرود وأُيّد وقهرهم وغير معالم أخيه فدرشان وجعل لمن ورد عليه من ولده ما فعل هو بهم، واحتجبت عنه الساحرة وابنها بسحرها فلم يقدر عليها، واحتملت هى وابنها إلى مدينة كان السحرة يجتمعون بها فى ذلك الزمان بناحية أنصتا، فأقامت بينهم وعرّفتهم أنّ ابنها هو الملك وأن أباه قلده ولابد له من الغلبة والقهر.

فصدقتها جماعتهم وبنوا للغلام بنيانًا عظيمًا تحصّن به هو وأمّه، وحصّنت الساحرة تلك المدينة وبنت عليها الطلسمات وأظهرت الأموال ودعت الناس إلى ابنها، فاستفحل أمرها وجيّشت الجيوش إلَى شمرود، فكانت بينهم حروب وضروب من السحر من التصادم فى الهواء وإظهار النيران فى الجو وغير ذلك، وكانت الغلبة لها، فتعلق شمرود ببعض البلاد هو وإخوته وظفرت هى بدار المملكة والجنّة الّتى كانت لهم، وأجلست ابنها على سرير الملك.

وكان اسمه تُسيدون باسم الشمس، ولم تزل فى طلب شمرود إلى أن ظفرت به، فأمرت بشد رأسه بأسطوانة ورجليه بأخرى.

وكان طوله فيما تقول القبط عشرين ذراعًا، فتزعم القبط أنّ السَّاحرة جعلته حجرًا، وقيل أيضًا إنّها كانت تجفّف منه عضوًا عضوًا حتى جفّ كلّه.

ووطّأت الملك لابنها وخرج كاهنًا عرافًا منجمًا، وجلبت إبليس وكان يسعى فى حوائجه وأكثر العجائب عملت فى وقته منها قبة الزجاج الكرية الدائرة بدوران الفلك وفيها صور الكواكب الثابتة والنيرة ودرجها، فكانوا يأخذون الطالع منها، وهذا من عمل الشياطين وغير ذلك مما لا نستجيز ذكره لخروجه عن المعقول.

وبعد ستين سنة من ملكه ماتت الساحرة، وقيل إنها أمرت أن يُحمل جسدُها

تحت صنم القمر فتخبرهم بكلّ ما يسألونه عنه، ففعلوا ذلك وكان كما قالت، وعلّمت ابنها كثيرًا من علمها.

ونكح ابنها أخته فولدت له ولدًا سماه سرياق[١] باسم أحد الأبالسة الّذين تجلّبتهم إليه.

ولما علم بحضور وفاته أمر أن يعُمل له صورة صنم من زجاج علَى شقّتين ويوضع فى إحداهما ويطبق عليه الأخرى ويلحم بزجاج ولا يوضع علَى جسده غير لطوخ الموميا والعقاقير الممسكة، وأن يوضع ذلك الصنم الهيكل مع الأصنام القائمة الناطقة.

وملك ابنه سرياق وعمل عجائب، منها أنّه عمل علَى كل مدينة من مدنه صورة بطّة من نحاس، فإذا جاء الغريب ليدخل إليها صرخت تلك البطّة وسفقت بجناحيها، فيُعلم أن غريبًا دخل فَيُطْلَب.

وإنما فعل ذلك لأنّ بعض الملوك أراد غدره، فظفر به سرباق وملكهم مائة وثلاث سنين.

ثمّ ملك أخوه شهلوق، وهو الّذى رتب مراتب الناس وقسم ماء النيل أقسامًا، ورتّب علَى أهل كل صناعة رئيسًا، وأقام سحرة لقسم الطرقات على الوحش فلا يسلك بعضها طريق بعض، وأقام لجميع أسباب الضرر طلسمات بدفعها ولم يترك شيئًا فيه خير وفضل إلاّ عمله.

فلما تفرغ من ذلك انفرد لجمع العلوم وتخليدها فى الكتب وكنز الكنوز، وكنز خمسة وأربعين كنزًا.

وملكهم مائة وتسع سنين.

ثمّ ملك ابنه سوريد صاحب الأهرام، قد تقدّم ذكره.

وملك بعده أخوه هرجيت، وهو أول من كسا الهرمين بألف ألف ثوب فى عرض كثير وطول كبير إعظامًا لأبيه وأخيه، وفى زمنه ابتدأ عقم النساء لما تقارب من وقت هلاك الأمة.

---

(١) قارن حسن المحاضرة سرقاق ١/ ٣٣.

وملك بعده ابنه مناوش[١]، فظلم وسفك الدماء واغتصب مائة وسبعين امرأة واستخرج كثيرًا من كنوز أبيه، فبنى منها قصورًا ورصّعها بالجوهر والياقوت وعمل فيها بركًا صبّ فيها الجواهر وأرسل عليها المياه، واستجهل من مضَى من آبائه، واستعبد الناس واستخف بالهياكل.

وفى زمنه كان فرناس الّذى كان يعد بألف رجل وحده وكان يقاتل أمة وحده، وكان من رجاله، وقد وفد عليه من بقية ولد آدم، وكان يختطف الرجل بيده فيضرب به الجماعة فيقتلهم معًا.

وأقام مناوش ملكًا ثلاثًا وثلاثين سنة.

وملك بعده أخوه أَفْرَوُس[٢] فترك الظلم وتحبّب إلَى الناس وعمل عجائب، منها قبة فى الجنة التى كانت لنقراوش لطخها بلطوخات، فإذا كان الليل اشتعلت نار ترى علَى البعد واتقدت إلى الصبح، فإذا طلعت الشمس ارتفع ذلك الوقيد.

وطلب النسل من ثلاثمائة امرأة فلم يقدر عليه لأن أرحام النساء عقمت.

وفى وقته شاع خبر نوح عليه السلام وإنكاره للأصنام. وملك أربعًا وتسعين سنة ولم يكن له ولد ولا أخ.

فارتضى الناس من أهل بيت المملكة أرمالينوس[٣] فشرك فى أمره فرعان بن مسور من بنى عمه، وكان أحد الجبابرة فرعان هذا ومن رؤساء السحرة، فقهر له أعداءه وفتح البلاد، فبعثت فيه امرأة من نساء الملك ووافقته على أن تقتل الملك بالسم ويلى فرعان الملك ففعلت.

وملك فرعان وتجبر وعلا وقهر، وأصل الفراعنة مشتق من اسمه.

وكتب إلَى فرعان درمشيل بن عويل الأكبر يذكر له خبر نوح أنه قد ظهر، فكتب إليه فرعان يشير عليه بقتله، فهلك هو ودرمشيل فى الطوفان، والله بغيبه أعلم.

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٣) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٣ «مالينوس».

ذكر أول من نزل مصر بعد الطوفان

وأول من نزلها بعد الطوفان مصريم بن بيصر بن حام[١] بن نوح بدعوة سبقت له من جده.

وروى عن ابن عبّاس أنّه قال: دعا نوح عليه السلام لمصريم بن بيصر بن حام ابن نوح، وهو أبو القبط، فقال: اللّهمّ بارك فيه وفى ذريته وأسْكنْه الأرض المباركة الّتى هى أم البلاد وغوث العباد والّتى نهرها أفضل أنهار الدُّنيَا، واجعل فيها أفضل البركات وسَخِّرْ له ولولده الأرض وذَلِّلْها لهم وقَوِّهم عليها.

وكان السبب فى نزوله إياها أنّ فيلمون الكاهن سأل نوحًا عليه السلام أن يخلّصه بأهله وولده بعد أن صدّقه وآمن بالله.

فلمّا انجلى الطوفان قال له: يا نبىّ الله اجعل لى رفعة وقدرًا أذكر به بعده.

فزوّج نوح بيصر بن حام من بنت فيلمون، فولدت له ولدًا سماه فيلمون مصريم باسم جده.

فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فيلمون: يا نبىّ الله إنّ بلدى أولَى الناس به ابنى، فابعثه معى وأمضى به إليه وأظهره علَى كنوزه وأوقفه علَى علومه ورموزه.

فأنفذه معه ومع جماعة من أهل بيته ذوى أيدٍ وقوة، فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع.

وقيل إنّ عددهم كان ثلاثين رجلاً وبنوا مدينة سموها ماقة، ومعنَى ماقة بلغتهم ثلاثون، وهى مَنْف[٢].

وكشف فيلمون عن كنوز مصر وعلّمهم خط البرابى وأبان لهم المعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك وأطلعهم علَى عمل الصنعة، فجعل الملك

---

(١) عن ابن لهيعة فى فتوح مصر ٢٧ وقارن بحسن المحاضرة ١/ ٣٤ ومختصر كتاب البلدان ٥٩.
(٢) فتوح مصر ٢٨.

أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى، فسمّى به المقطم.

وتزوج مصريم امرأة من بنات الكهنة، فولدت له أربعة نفر منهم قفطيم.

وإليه عهد بعد موته، وأمره أن يحفر له تحت الأرض سربًا ويفرشه بالمرمر الأبيض ويجعل جسده فيه ويدفن معه جميع ما فى خزائنه.

فحفروا له سربًا طوله مائة وخمسون ذراعًا وجعلوا فى وسطه مجلسًا مصفّحًا بصفائح الذهب، له أربعة أبواب علَى كل باب تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر، جالس علَى كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد، ونقشوا فى صدر كل تمثال آيات عظامًا واسمًا من أسماء الله تعالى مانعة من أخذه.

وجعلوا جسده فى جرن من زبرجد مصفح بالذهب ورمزوا على مجلسه: مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة سنة مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرم ولا أسقام، ولا حزن ولا اهتمام، وحصن مجلسه هذا باسماء الله العظام، لا يصل إليه إلاّ ملك ولد له سبعة ملوك، يدين بدين الملك الديّان ويؤمن بالمبعوث بالقرآن الداعى إلَى الإيمان الطاهر فى آخر الزمان.

وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس وألف برنية مملوءة درًا من الدر الفاخر، ووضعوا هناك الصنعة الإلاهية والعقاقير السريه والطلسمات العجيبة وأكوام سبائك الذهب بعضها علَى بعض، وسقفوا ذلك بالصخور العظام وجعلوا فوقها الرمال بين جبلين متقابلين بينهما علامات.

وولى ابنه قفطيم[1] الملك بعده وأقباط مصر بنوه، وهو أول من عمل العجائب وشق الأنهار ولحق البلبلة وخرج منها بهذه اللغة القبطية، وملكهم ثمانين سنة، ودفن فى سرب تحت الجبل الكبير الداخل وصفح بالمرمر وجعلت فيه منافذ للريح، فهى تتخرّق فيه بدوىّ عظيم هائل وجعلت أكراس نحاس مطلية بأدوية مشعلة لا تطفأ أبدًا، ولطخوا جسده بالّمر والكافور والموميا، وجعلوه فى جرن من ذهب فى ثياب منسوجة بالدر والمرجان، وكشفوا عن وجهه، والجرن تحت قبَّة

(١) فتوح مصر ٢٨.

عظيمة على عمد مرمر ملونة، وفى وسط القبّة جوهرة معلّقة كالسراج المضىء، وبين كلّ عمودين تمثال فى يده أعجوبة، وجعلوا حول الجرن توابيت مملوءة جوهرًا ودرًا نفيسًا ومصاحف الحكمة، وسدّوا على جميع ذلك الصخور والرصاص ورمزوا عليه كما رمزوا علَى ناووس أبيه.

وتولى بعده ابنه قفطويم[1]، وكان جبارًا عظيم الخلق، وفى أيَّامه هلكت عاد بالريح.

وبقى ملكًا أربعمائة سنة، وكان قد عمل لنفسه قبل موته سربًا تحت الأرض معقودًا علَى آزاج فى الجبل الغربى قرب مدينة العمد، ونقر تحت الجبل كهيئة الدار العظيمة، وجعل تحت دورها خزائن واسعة منقورة، وجعل فى أعلاها مسارب الرّياح، وبلطت جميع الدار بالمرمر.

وجعل فى وسط الدار مجلسًا مثمنًا ملونًا مصفحًا بالزجاج الملون والذهب، وجعل فى سقفه جوهرًا وحجارة تسرج، وفى كلّ ركن من أركان المجلس تمثال ذهب بيده كالبوق الّذى يبوق به، وجعل تحت القبّة دكة مصفحة بالذهب مطوقة بالزبرجد، وفرش فوق الدكّة خزّا منسوجًا بالذهب، وجعل جسده عليها بعد أن طلى بالأطلية المجففه وجعل حواليه آلات كافور مخروطة، وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مكلّل وعلَى صدره من فوق الثياب سيف صاعقى قائمه زبرجد، وعلَى جوانب الدكّة أربعة تماثيل مجوفة من زجاج مسبوك فى صور النساء وألوانهنّ وبأيديهن كالمراوح من ذهب.

وجعل فى تلك الخزائن من الزبرجد والياقوت والذهب المسبوك وفاخر الجوهر والدرر بربى الحكمة وأصناف العقاقير والطلسمات والمصاحف والحاوية لجميع العلوم ما لا يحصى قدره كثرة.

وجعل علَى مدخل كل أزج صورتين من نحاس مشوهتين بأيديهما سيفان كالبرق، وقدامها بلاطة تحتها لوالب، فمن وطئها ضرباه بسيفيهما فقتلاه.

وسدت أبواب الآزاج بالأساطين المرصعة ورصوا علَى سقف البلاط بالصخور العظام وردموا فوقها الرمال ورمزوا علَى باب الأزج: هذا المدخل إلَى جسد الملك

(١) فتوح مصر ٢٩.

العظيم المهيب الكريم السيد قفطويم ذى الأيد والفخر والغلبة والقهر، فلا يصل أحد إليه ولا يقدر عليه، أَفُلَ شخصه وجسمه، وبقى ذكره وعلمه.

ثمّ ملك بعده ابنه البودشير، وهو الذى بعث هرمس المصرى إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمل له هناك هيكل التماثيل من النحاس وعدل البطيحة التى ينصبّ إليها ماء النيل، وعدل جنبى النيل وقد كان يغيض وربما انقطع فى مواضع.

والبودشير هو الذى أمر بعمارة بلاد الواحات فى المغرب وحول إليها جماعة من أهل بيته، فعمروها.

وكانت أرضًا واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة الكلأ والعشب، وأقاموا كذلك مدة وخالطهم البربر ونكح بعضهم فى بعض، ثم وقع بينهم تحاسد وبغى وجرت لهم حروب، فخرب البلد وباد أهله إلا بقية يسيرة.

وللبودشير فى السحر عجائب سيأتى ذكر شىء منها بعد هذا إن شاء الله.

ثم ملك بعده ابنه عديم وهو أول من صلب، وذلك أن امرأة ورجلاً زَنَيا فأمر بصلبهما على منارين بنيا لهما، وجعل ظهر كلّ واحد منهما إلى ظهر صاحبه، وزبر على المنارين اسميهما وما فعلا وتاريخ الوقت الذى عملا ذلك فيه، فانتهى الناس عن الزنا.

وناووس عديم هذا من أعاجيب الدنيا، وهو فى صحراء قفط على وجه الأرض، قبّة عظيمة من زجاج أخضر قطرها مائة ذراع براق معقود على ثمانية آزاج، وارتفاع القبّة فى الهواء أربعون ذراعًا يخضرّ بخضرتها ما حولها من الأرض، وعلى رأس القبّة طائر من ذهب منشور الجناحين موشح بجوهر يمنع من الوصول إليها وجسده فى وسط القبّة على سرير من ذهب مشبّك، وهو مكشوف الوجه عليه ثياب منسوجة بالذهب، منظومة بالجوهر، وفى جنبات القبّة مائة وسبعون مصحفًا من مصاحف الحكمة وسبع موائد عليها آوانيها، منها مائدة من أدرك رومانى أحمر وأوانيها منها، ومنها مائدة ذهب فليمونى تخطف الأبصار، وهو الذهب الذى يعمل منه تيجان الملوك وآنيتها منها، ومنها مائدة من حجر الشمس المضىء بآنيتها، ومائدة من الزبرجد الذى يخالط لونه شعاع أصفر بآنيتها.

وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها، ومائدة كبريت أحمر مدبّر على ما ذكروه من تدبيره فى مصاحف حكمتهم بآنيتها، ومائدة من ملح أبيض برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها ومائدة من زئبق أحمر معقود، وحافتاها وقوائمها من زئبق أصفر معقود وآنيتها من زئبق أحمر معقود.

وجعل فى القبّة معه جواهر عظيمة وبرابى صنعة مدبرة، وجعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية، وجعل معه تماثيل أفراس من ذهب عليها سروج من ذهب وعدّة توابيت مملوءة من الدنانير التى ضربها وصوّر عليها صورته.

وقد ذكر من رأى القبّة وأقاموا عليها أيَّامًا، فما قدروا على الوصول إليها وأنهم إذا قصدوها وكانوا على مقدار ثمانية أذرع منها دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها.

ومن أعجب ما فيها أنّهم كانوا يحازون آزاجها أزجًا أزجًا فلا يرون من أزج من الآزاج إلا مثل الذى يرون من الآخر على معنى واحد لا يختلف.

وذكروا أنهم رأوا وجهه فى قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير ولحيته كبيرة وقدروا طول بدنه عشر أذرع وزيادة ورأوا بها عجائب عظيمة.

ثم ملك بعده ابنه شدات، وهو أول من اتّخذ الجوارح للصيد وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب، وعمل البيطرة وعلاجات الدوابّ، واتخذ من الطلسمات والمصانع ما لا يحصى كثرة، وجمع التماسيح بطلسم عمله لها فى بركة بناحية أسيوط وكانت تنصب إليها من النيل انصبابًا، فيقتلها ويستعمل جلودها فى السفن وغيرها.

وعمل صورة صنم قائم له إحليل ظاهر، إذا أتاه المعقود والمسحور والمعترض ومن لا ينتشر فمسحه بكلتا يديه أنعظ وذهب ما به.

وعمل صورة بقرة لها ضرعان كبيران إذا مسحت عليها المرأة التى لا يدرّ لبنها درّ لبنها لحينه.

فأقام شدات تسعين سنة ملكًا.

وخرج يطرد صيدًا فأكبّه فرسه من وهدة فقتله.

وكان قبل ذلك قد خالفه بعض خدمه فى أمر، فألقاه من أعلى جبل إلى أسفله فتقطع جسده وندم على فعله ذلك، فرأى أنّه سيصيبه مثله.

فكان يتوقى أن يعلو جبلاً أو شرفًا، وأمر أن يجعل ناووسه فى الموضع الذى يلحقه فيه ما يلحقه ويزبر عليه: ليس ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب ولا يفعل ما لا يجوز له فعله.

هذا ناووس شدات الملك، عمل ما لا يحل له فكوفئ عليه بمثله.

ثم ملك بعده منقاوش ابنه، وهو الذى نشر الحكمة فى الناس وبثّ منها ما كان مكتومًا، وأمر بنسخ مصاحفها بخطوط العامة ليتعلّموها.

وهو أول من عمل الحمّام من ملوك مصر، ويقال إنّه هو الذى بنى مدينة منف لبناته وكن ثلاثين بنتًا، ورحلن إليهن.

وكان له عدة من النساء من بنات عمّه وبنات الكهنة.

وعمل تمثالا روحانيًا من صفر مذهب، فكان لا يمر به زان ولا زانية إلا كشف عورته بيده.

فكان الناس يمتحنون بذلك، فامتنعوا من الزنا.

وبنى هيكلاً للسحرة على جبل القصير وقدّم عليهم رجلاً منهم، وكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب إلا بضريبة يأخذونها من أهلها.

وكان إذا ركب عملوا بين يديه التخاييل الهائلة فتعجب الناس من أعمالهم.

وقسم خراج البلد أرباعًا، وكان منتهاه حينئذ مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف، فربع للملك خاصة يصرفه فيما يشاء، وربع لأرزاق جنده، وربع ينفقه فى مصالح الأرضين والمدن وما يحتاج إليه من عمل جسور وحفر خليج وبناء آبار وتقوية أهلها على العمارة، وربع يكنز ويدفن عدة للملك.

وهلك منقاوش بعد إحدى وسبعين سنة من ملكه من طاعون أصابه، وقيل سمّ فى طعامه، وعمل ناووسه فى صحراء المغرب.

ثمّ ملك بعده ابنه مناوش؛ وهو أوّل من عبد البقر، وذكروا أنّ السبب فى ذلك أنه كان اعتلّ علّة يئس فيها من نفسه، وأنه رأى فى منامه صورة روحانى

عظيم يخاطبه ويقول له: لا يخرجك من علّتك إلا عبادتك للبقر لأنّ الطالع كان عند حلولها به فى صورة ثور بقرنين.

فأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة، وعمل له مجلسًا فى قصره عليه قبّة مذهبة ووكل به سادنًا، وكان يبخره ويطيبه ويتعبد له سرًا من أهل مملكته.

فبرئ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله.

وقال آخرون إن السبب فى ذلك أنه كان أوّل من عملت له العجل ورصعت بالذهب وعملت له عليها قباب من خشب وفرشت بفاخر الفرش، وكانت البقر تجرّه، فإذا مرّ بالمكان النزه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخرب أمر بعمارته، وقيل إنه نظر إلى ثور من البقر التى كانت تجره أبلق حسن الشبه، فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه، وجعل عليه حللاً من فاخر الديباج، فتفرّد به يومًا ينظر إليه، فبينما هو قائم بين يديه إذ خاطبه الثور فقال: لو رفهنى الملك كفيتُه جميع ما يريد وعاونته على أموره وقوّيتُه على ملكه وأزلت عنه جميع علله.

فارتاع الملك لذلك وأمر به حينئذ أن يغسل ويطيّب ويدخل الهيكل، وأمر بعبادته، فأقام ذلك الثور يعبد مدّة وكانت فيه آية: لا يروث ولا يبول ولا يأكل إلا أطراف ورق الشجر فى كل شهر مرّة.

فافتتن الناس به وصار ذلك أصلاً لعبادة البقر.

ثم إن ذلك الثور بعد مدة من عبادته أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف وتؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن لحاء قرونه شىء، ومن أظلافه وتجعل فى ذلك التمثال، وعرّفهم أنه يلحق بعالمه، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجارة وينصب فى الهيكل وينصب تمثاله عليه، ويكون ذلك وزحل فى شرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر زائد، وتنقش على التمثال علامات الكواكب السبعة، ففعلوا ذلك.

وعملت صورة الثور من ذهب وكلّلت بأصناف الجواهر وصنعوا سائر ما أمرهم به فى الوقت الذى حدّه لهم.

فكانت تلك الصورة تخبرهم بالعجائب وما يحدث وقتا وقتا وتجيبهم عن جميع ما يسألونه، وعظم أمر ذلك التمثال ونذرت له النذور وقربت له القرابين وقصده

الناس من الآفاق، وكان يخبرهم بما يريدون.

وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس، وقد جاز بها قوم ضلّوا الطريق، فسمعوا بها عزيف الجنّ.

ورأوا ضوء نيرانهم.

وأقام مناوش ملكًا تسعًا وثلاثين سنة وعهد إلى ابنه مرنيش، وكان مضعفًا لم يعمل فى وقته أعجوبة، وبقى ملكًا إحدى عشرة سنة.

وانتقل الملك إلى أشمون[1] بن قفطيم أخى قفطويم، وكان ينزل الأشمونين سماها باسمه، وكان طولها اثنى عشر ميلاً فى مثلها، ونقل إليها أهله وولده.

وهو اتّخذ الملاعب بأنصنا، وبنى البهنسا وغيرها من المدن وأكثر فيها من العجائب.

والقبط تقول إنه أكثر ملوكهم أعجوبة وسحرًا وأطول ملكوهم مدّة، ملك ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، وانتزع قوم عاد الملك منه بعد ستمائة سنة من ملكه، فاستوبئوا بلده وانتقلوا إلى الدثنية من طريق الحجاز إلى وادى القرى، فعمروها واتخذوا بها المنازل، فسلّط الله عليهم الذرّ فأهلكتهم.

فعاد ملك مصر إلى أشمون وبنى مدينة فى المشرق فى سفح الجبل سماها أوطيراطيس وجعل لها أربعة أبواب على كلّ باب منها طلسم، وأسكنها الروحانيون بسحره، فكانت تنطق إذا قصدها القاصد وتخبره بما يريد ولا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها.

وجعل فيها شجرة يطلع فيها كلّ لون من الفاكهة، ومنارًا فى وسطها طوله ثمانون ذراعًا على رأسه قبّة تتلون كل يوم لونًا حتى تمضى سبعة أيام، ثم تعود إلى اللون الأول، فتكسو المدينة تلك الألوان.

وأسكنها السحرة وكانت تعرف بمدينة السحرة ـ وهى معنى أوطيراطس ـ ومنها كانت تخرج أصناف السحر.

---

(١) هو أشمن بن مصر فى فتوح مصر ٢٩.

وهو أول من عمل النيروز إكراما للكواكب، ودفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية.

وملك بعده ابنه أشاد، وكان جباراً معجبًا، أكثر همه اللهو واللعب والنساء، فجمع كل مُلْهٍ، وقصده من الأقطار كل من هذه سبيلُه، ورفض العلوم والهياكل والكهنة، وملك خمسًا وسبعين سنة.

وملك بعده ابنه صاه[١].

وبعض القبط يزعم أن صاه ابن مرقونيس أخى أشاد، فنفى الملهين وردّ الكهنة إلى مراتبهم، وهو بنى أكثر مدينة منف، وبنى فى أقصى الواحات مدينة جعل طول سورها فى الارتفاع خمسين ذراعًا وأودعها أموالاً وحكمًا كثيرة، وهى التى وقع عليها موسى بن نصير فى زمن بنى أمية وغلب عليها الرمال، وكانت تحت الأرض.

وكانت مدة حياته وسنّه ستمائة سنة وسبعين سنة، وناووسه فى وسط منف تحت الأرض والمدخل إليه من خارج المدينة فى غربيها، وكان فيه أربعة آلاف تمثال من ذهب مختلفة الصور بريّة وبحرية وأموال عظيمة وجوهر كثير.

وعهد إلى ابنه ندراس[٢]، وكان محكمًا مجربا ذا أيد وقوة، وبنى غربى منف بيتًا عظيمًا للزهرة رمز فيه العلوم وكساه الحرير وعمل له عيدًا عظيمًا، وكان صنم الزهرة من لازورد مذهب متوّج بذهب يلوح، وسوّره بسوارى زبرجد أخضر، وكان فى صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب، وفى يدها قضيب مرجان، وهى تشير بيدها كالمُسلّمة على من فى الهيكل.

وحذاءها مطهرة من أخلاط الأجساد على عمود من مرمر مجزع، وفى المطهرة ماء مدبر للزهرة يستشفى به من كلّ داء، وجعل فيه كراسى الكهنة مصفحة بالذهب والفضّة، وكان يقرّب له ألف رأس من الضأن والوحش والطير.

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

(٢) فى فتوح مصر ٢٩ «تدارس بن صا».

وكان فى قبة منه صورة زحل راكب على فرس له جناحان ومعه حربة فى سنانها رأس إنسان معلّق.

وبقى هذا الهيكل إلى زمان بخت نصر وهو الذى هدمه.

وعلى رأس ثلاثين سنة من ملكة طمع الزنج والنوبة فى أرضه فخرجوا إليها وعاثوا فيها، فجمع الجيوش وغزاهم فى البرّ ثلاثمائة ألف وفى البحر ثلاثمائة سفينة، فى كلّ سفينة كاهن وساحر يعمل أعجوبة من عجائب السحر، فلقوا جيوش السودان فى زهاء ألف ألف، فهزموهم وقتلوهم أقبح قتل وأسروا منهم خلقًا كثيرًا عظيمًا.

ثم ملك بعده ماليق بن ندراس[1] وكان موحّدًا على دين قفطيم ومصريم، وكانت القبط تذمّه لذلك، وكانت عبادتهم للكواكب والبقر.

وكان يستعمل الغزو والجولان فى البلاد ليغيب عن أهل مصر، وزعم بعض أهل مصر أن الله أيده بمَلَك من الملائكة يعضده ويرشده، وربما أتاه فى نومه فأخبره ونهاه وأمره، وهو جمع الجيوش واتّخذ فى بحر المغرب أربعمائة سفينة، وغزا جموع البربر برًا وبحرًا فهزمهم واستأصل أكثرهم، وبلغ إلى إفريقية وقتل أكثر أهلها وسار منها.

وكان لا يمرّ بأمّة إلاّ أبادها إلى أن غزا من ناحية الأندلس يريد إفرنجة، وكان بها ملك عظيم يقال له أرقيوش، فحشد عليه أمما نواحيه وأقام يحاربه شهرًا، ثم طلب سِلْمَهُ وأهدى إليه هدايا كثيرة فسار عنه.

ودوّخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر وأطاعه أكثرها، وعمل أعلامًا على البحر زبر عليها اسمه وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجأهم إلى ذُرى الجبال، ورجع فتلقاه أهل مصر بصنوف اللهو والطيب والرياحين وفرشت له الطرقات، ودخل قصره موفورا.

وأمر أن يعمل له ناووس، فكان يحضره ويتعبد فيه، وأمر أن لا يدفن معه ذهب ولا جوهر، فلم يدفن معه سوى الطيب وصفيحة مكتوبة بخطّه فيها: هذا

---

(١) هو ماليق بن تدارس فى فتوح مصر ٢٩.

ناووس الملك ماليق، مات مؤمنا بالله لا يعبد معه غيره بريئًا من الأصنام وعبادتها، مؤمنًا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة فليدِنْ بما دان به.

واستخلف بعده ابنه حريبًا[1]، وقد شرح له التوحيد وأمره أن يدين به ونهاه عن عبادة الأصنام، وكان معه على ذلك فى حياته، ثمّ رجع عنه بعد وفاته إلى دينهم.

وكان سبب رجوعه إلى عبادة الأصنام أن أمه كانت من بنات كبير من الكهان نقلته بعد موت أبيه إلى دينها، وكان ليِّنا سهل الخلق مجيبا.

وكان ملك من ملوك الهند يقال له مسور خرج على عهد حريبا، فعمل حريبا مائة سفينة على سفن الهند وتجهّز. وحمل امرأته معه، وكانت من بنات عمّه قد غلبت عليه وهام بها بسحر قهرمانة كانت له، وكانت تسمى أسيوط، ساحرة لا تطاق، وكانت أوحشت ما بين الملك وأمه لتستبدّ امرأته به، فآلى فى غزوته أن ينصرف فى البلاد ولا يرجع إلى مصر أو تموت أمه.

ففعل ذلك، وغزا بلاد الهند، واستخلف على مصر ابنه كلكلن وجعل معه وزيرًا من الكهان يقال له ويسموس، فخرج ومرّ على ساحل اليمن وعاث فى سواحله وبلغ سرنديب، فأوقع بأهلها وغنم منها أموالاً عظيمة، وحمل معه حكيمًا لهم، وكان لا يأخذ مدينة إلا أقام بها صنما وزبر عليه اسمه ومسيره ووقت أخذه لذلك الموضع.

وجعل ينتقل فى تلك الجزائر عدة سنين، ويقال إنه أقام فى سفره سبع عشرة سنة ورجع إلى مصر غانمًا موفورًا بعد أن هلكت أمه.

وهابته الملوك، وبنى عدة هياكل وأقام بها أصنامًا للكواكب لأنها هى التى أيدته فى سفره بزعمه وأظهر الحكيم الذى حمل من الهند بمصر عجائب مشهورة، وحمل معه صنمين من أصنام الهند من الذهب مرصعين بالجوهر ونصبهما فى

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

بعض الهياكل، وكان حكيم الهند يقوم بهما ويخدمهما ويقرب لهما على رسمه، وكان يخبرهم بما يريدونه منهما.

وغزا حريب الشام، فأدّى إليه أهلها الطاعة، وأخاف النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه إليه.

وأقام فى ملكه خمسًا وسبعين سنة وعمل لنفسه فى صحراء الغرب ناووسًا على نحوما تقدم ذكره من نواويس آبائه.

وملك بعده ابنه كلكلن[١] فعقد تاج الملك على رأسه بالأسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرًا ورجع إلى منف.

وكان يحب الحكمة وإظهار العجائب وتقرب أهلها، ولم يزل يعمل الكيمياء طول ملكه، فخزن أموالاً عظيمة واستغنى أهل ذلك الزمان عن معادن الذهب، فلم يثيروها ولم يكن الذهب قطّ أكثر منه فى وقته.

وكان يطرح المثقال الواحد على القناطير الكثيرة فيصبغها وتحكى القبط عنه أنه اخترع أشياء تخرج عن العقل حتى كانوا يسمونه حكيم الملوك، وغلب على جميع الكهنة فى علومهم حتى كان يخبرهم بما يغيب عنهم، فخافوه واحتاجوا إلى علمه.

وفى وقته كان نمرود إبراهيم عليه السلام.

وكان جبارًا مُشَوَّه الخلق يسكن سراة العراق، وكان قد أوتى قوة وبطشا فغلب على أكثر الأرض، فاستزار النمرود كلكلن فوجه إليه كلكلن أن يلقاه منفردًا عن أهله وحشمه بموضع كذا، فسار النمرود إلى الموضع الذى ذكره، فأقبل كلكلن تحمله أربعة أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار وصور مهيبة قد خيل بها، وهو متوشح تنّينًا عظيمًا والتنين فَاغِرٌ فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنّين رأسه ضربه بالقضيب.

فلما رآه النمرود هاله أمره واعترف له بجليل حكمته وسأله أن يكون له ظهيرًا.

فزعم القبط أن كلكلن كان يجلس على الهرم الغربى فى قبّة تلوح على رأسه

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

ويجتمع أهله وحشمه ورعيته حول الهرم، ويزعمون أنه أقام على رأس الهرم أيامًا لا يأكل ولا يشرب، واستتر عنهم مدة حتى توهموا أنه هلك، وهابته الكهنة هيبة لم تهبها أحدًا قبله حتى صورته فى هياكلهم.

وبنى فى آخر زمانه هيكلاً لزحل من صوان أسود وجعل له عيدًا، وجعل فى وسطه ناووسه وحمل إليه ما أراد من الذهب والجوهر والحكم، وعرفهم بموته وجعل على الناووس طلسمات مالغة وغاب عنهم فلم يقفوا على شىء من أمره ولا عرفوا موته.

وعهد إلى أخيه ماليا[1]، وكان همه فى الأكل والشرب والرفاهية غير ناظر فى شىء من الحكمة، وإنما استقام له الأمر مدة كونه فيهم لهيبة أخيه كلكلن وتقديرهم أنه لم يمت.

وكان أكبر بنيه يقال له طوطيس، وكان يستجهل أباه، فأعمل الحيلة فى قتله وحملته على ذلك أمه وبعض وزراء أبيه، فهجم على أبيه فى رواقه وهو سكران، فقتله وقتل معه امرأة كانت له من بنات ملوك منف كانت قد غلبت عليه، وحمته النساء فقتلها وصلبها، ثم جلس على سرير الملك، وكان جبارًا جريئًا شديد البأس مهيبًا، والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وأنه فرعون إبراهيم عليه السلام وأن الفراعنة سبعة هو أولهم.

واستخفف بأمر الهياكل والكهنة.

وكان إبراهيم عليه السلام من كوثى من سواد العراق، فلما هرب من النمرود حذر إن أقام بالشام أن يلحقه قومه فيردوه إلى النمرود، فاستمر إلى مصر فجرى له ما هو مذكور عند ذكر إبراهيم، وأخدم سارة بهاجر.

وإنما سمى فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته وخدمه ونساءه وكثيرًا من الكهنة والحكماء، وكان حريصًا على الولد، فلم يرزق غير ابنته حوريا، وكانت تسدده كثيرًا وتمنعه من أمور سوء يريدها، فلما رأت أمره يزداد فسادًا خافت على زوال ملكهم فسمته بعد أن ملكهم سبعين سنة.

وتنازعوا تمليكها.

(١) فتوح مصر ٢٩.

ثم اجتمعوا عليها إلا أهل مدينة أبريت، فإنهم ملّكوا عليهم رجلاً من ولد أبريت بن مصريم بن بيصر بن حام الذى سميت به المدينة يقال له أنداحس، وجرت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على أنداحس ففر إلى الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وأخبره بأمره وقرّب عليه أمر مصر وسهل تصييرها إليه، فجهز معه جيشًا عظيمًا إلى مصر واستقود عليه رجلا يقال له جيرون.

فلما قرب من مصر بعثت حوريا ظئرا لها إلى جيرون تستجلبه وتظهر الميل إليه والمحبة فيه وأنها داخلة فى طاعته، تعرفه وصيتها بتزويجها لأنها لا تختار أحدًا من أهل بيتها وأنها إن قتل أنداحس تزوّجت وصيرت إليه ملك مصر ومنعت منه صاحبه.

فلما بلغ ذلك جيرون سرّ سرورًا عظيمًا ورغب فيه وسمّ أنداحس بسمّ أنفذته إليه فقتله.

فبعثت إليه أنه لا يجوز لى أن اتزوجك حتى تظهر فى بلدى قوتك وحكمتك وتبنى لى مدينة عجيبة أدخل عليك بها، فإنى أكره أن أدخل عليك فى مدينتى وبين أهلى وأهل بلدى، وإن مدينة حصينة كانت لأوائلنا قد خربت، فاقصد موضعها واظهر حكمتك فيها.

فمضى وجدّ فى عمل الإسكندرية، وبعثت إليه مائة ألف ألف عامل، فأقام فى بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من الأموال.

فلما فرغ من بنيان المدينة وجه إليها يعلمها ويحثها على القدوم إليه.

فوجهت إليه فرشا فاخرة وآلات عجيبة وقالت: أقسم جيشك أثلاثًا وانفذ إلى ثلثى حتى إذا بلغت ثلث الطريق فانفذ الثلث الثانى، فإذا بلغت نصف الطريق فانفذ الثلث الثالث، فيكون من ورائى لئلا يرانى أحد.

فإذا دخلت إليك فلا يكون عندك إلا صبية يخدمونك.

ثم أقامت تنفذ إليه الجهاز والأموال حتى علم مسيرها، فوجه إليها ثلث جيشه.

فعملت لهم الأطعمه والأشربة والطيب المسموم، فلم تصبح منهم عين تطرف.

فسارت ثم فعلت بالثلث الثانى كذلك، ثم بالثلث الثالث كذلك.

وهى توجه إليه: إنما أنفذت الجيش إلى مصر يحفظونها، إلى أن دخلت إليه هى وظئرها وجوارٍ كن معها.

فارتعدت مفاصله وخدرت قواه ولم يملك من نفسه شيئًا فقال: من ظن أنه يغلب النساء فقد كذب نفسه، ثم فصدت عروقه وأسالت دمه حتى مات نزفا وقالت: دماء الملوك شفاء.

وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها فنصبته عليه وحملت بيوت الأموال إلى منف، وبنت منار الإسكندرية، وزبرت عليه اسمها واسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت.

ولما اتصل خبرها بالملوك الذين يتاخمون بلدها هابوها، وأقطعت أهل بيتها وقوادها وحشمها أقطاعًا كثيرة، وبنت حصنًا على حدّ مصر من ناحية النوبة وأجرت ماء النيل إليه تحت قنطرة.

واعتّلت حوريا ولم يكن فى زمانها أحد من ولد أبيها ولا أهل بيتها يصلح للمُلْك، فقلدت المُلْك ابنة عمها دليقة بنت فاقوم ورفعت إليها مفاتيح خزائن الأموال وأطلعتها على مواضع الكنوز وأماكن الخبايا وهلكت من علّتها.

فخرج على دليقة أيمين الأتريبى يطلب ثأر خاله أنداحس، فاستنصر بملك العمالقة صاحب الشام، فجدّ فى نصره لفعل حوريا بقائده، وجرت بينه وبين دليقة حروب كثيرة وأخبار طويلة كان الظهور فيها لأيمين لأجل ساحر كان معهم من أهل قفط لا يقوم له أحد غلب بسحره دليقة.

فكان أصحاب دليقة إذا هرب أصحاب أيمين أظهر بسحره نارًا تحول بينهم وبين أصحاب دليقة، وتسمع أصوات تفزع القلوب وتؤلم الإسماع.

فلما أيقنت دليقة بالغلبة وقد حسرها أيمين بقوص سمّت نفسها فهلكت.

ثم إن أمير العمالقة غلب على مملكة مصر، وهو الوليد بن دومغ العملقى[1]، وأباد الأمم حتى بلغ جبل القمر الذى ينبعث النيل منه، وإنما سمى جبل القمر لأن

(١) فتوح مصر ٣٢و ٣٣.

القمر لا يطلع عليه لأنه خارج عن خط الاستواء، وبلغ هيكل الشمس فدخله وبلغ أرض الذهب، وهو قضبان نابتة، وهى آخر بلاد علوة.

واستعبد الوليد القبط وملكهم مائة وعشرين سنة.

وركب فى بعض الأيام متصيّدًا، فوقص به فرسه فقتله، ودفن فى بعض الأهرام.

وملك ابنه الريان بن الوليد[1]، وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نقراوش، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلاً محسنًا إلى الناس، أسقط عنهم الخراج ثلاث سنين وفتح الخزائن وفرّق أكثر ما فيها على الناس، فأحبّوه وشكروا أيامه، إلا أنه مال إلى الراحات وغلبت عليه اللذات، وملك أمر الناس رجلاً من أولاد الوزراء من أهل بيته يقال له أظفير، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز.

وكان عاقلاً حصيف الرأى نزيه النفس مؤثرًا للعدل، وأمر أن ينصب له فى قصره سرير من فضة يجلس عليه ويكون الكتّاب وجميع الوزراء بين يديه.

فكَفى نقراوش أحسن كفاية وقام بجميع أموره، ونقراوش غير ناظر فى شىء من أمور الناس.

وقد عملت له مجالس الزجاج الملون والبلّور المصبوغ، وأرسل حولها المياه ووضع فيها السمك، وكان إذا وقعت عليه الشمس أرسل شعاعًا عجيبًا يبهر العيون.

وعملت له عدة منتزهات على عدد أيام السنة ينتقل كل يوم إلى منتزه منها معلوم اليوم.

ثم يعود الدور فى أول السنة الثانية تمّ عددها، وفى كل موضع منها من الفرش والآنية ما ليس فى غيره.

فلما اشتغل عن أمور الناس واتصل نزهه طمع فيه ملوك النواحى، فقصده رجل من ملوك العمالقة يقال له علكن بن شجوم ويكنى أبا قابوس، فأنفذ إليه

---

(١) فتوح مصر ٣٣.

العزيز جيشًا فأقام يحاربه ثلاث سنين، ثم كان الظفر للعملقى، فدخل حدود مصر وعاث فى أرضها وهدم مصانع كثيرة، فضجّ أهل مصر واجتمعوا إلى قصر الملك، فسمع ضوضاءهم وسأل عن شأنهم، فأخبر بأمر العملقى وما انتهى إليه حاله وأنه قاصد قصر الملك.

فارتاع لذلك الريان واستيقظ من غفلته وانتبه من سِنَته، فعرض جيشه وأصلح أمره وخرج إلى العملقى فى سبعمائة ألف مقاتل سوى الأتباع.

فالتقوا من وراء الأجواف فى تلك الصحراء، فاقتتلوا قتالا شديدًا، وانهزم العملقى واتبعه نقراوش إلى حدود الشام وقتل فى أصحابه وأسر، وقيل إنه بلغ إلى الموصل وضرب على أهل الشام خرجًا.

ثم انصرف واستعد لغزو ملوك المغرب فخرج فى تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحَّى عن طريقه ومنهم من دخل تحت طاعته.

فأتى إفريقية وقرطاجنة فصالحوه على شيء يؤدونه إليه، ومر حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر إلى بحر الروم، وهو موضع أصنام النحاس وأقام هناك صنما وزبر عليه اسمه.

وضرب على أهل تلك النواحى خرجًا وعبر إلى الأرض الكبير وإفرنجة والأندلس، وصاحبها لذريق الأصغر، فحاربه وقتل من أصحابه جماعة وصالحه على ذهب مضروب عليهم، وانصرف راجعًا وجاز حتى عبر البحر مشرقًا، فشقّ بلاد البربر، فلم يمر بموضع إلا أهدوا إليه ودخلوا فى طاعته ولا بأمة إلاّ أثر فيها إلى أن بلغ بلاد النوبة، فصالحهم على مال يحملونه إليه، ثم أتى دمقلة.

فأقام بها علمًا وزَبَرَ عليه اسمه، ثم انصرف إلى منف، فهناك تلقّاه جميع أهل طاعته مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب والملاهى والهدايا، وأقام هناك مع الناس يأكلون ويشربون أيامًا كثيرة فى مصانع أعدّها له العزيز من الزجاج الملون مفروشة بالفرش المذهبة قد غرس حولها جميع الرياحين والأشجار الطيبة.

وفى أيامه كان من أمر يوسف عليه السلام ما كان وخبره مع امرأة العزيز هذا، وهى زليخا ابنة صاحب عين شمس، ثم تزوجها يوسف ﷺ بعد ذلك.

وقيل: إنّ نقراوش آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفًا من فساد ملكه.

وهو الذى امتحن يوسف ليعلم مبلغ علمه، فأمره بعمل الفيوم لابنته وكانت مغايض ماء النيل، والنيل لا يجرى حينئذ، فأقامها وبنى اللهون وأتى بتلك الحكمة المعجزة والآية البينة فى أربعة أشهر، وقيل فى سبعين يومًا، وشق تلك الخلج الثلاثة وكان ذلك ابتداء جرى النيل.

فلما نظر إليه الملك قال لوزرائه: هذا عمل ألف يوم[١].

فسميت الفيوم.

ذكر ذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم عن هشام بن إسحاق.

* * *

ذكر ما نقله القبط من أمر يوسف عليه السلام

قالوا: «أدخل مصر غلام من أهل الشام، احتال عليه إخوته وباعوه، وكانت قوافل الشام تعرّس بناحية الموقف اليوم، فأوقف الغلام، ونودى عليه وهو يوسف عليه السلام، فبلغ وزنه ذهبًا وورقًا، فاشتراه أطفير العزيز، ليهديه إلى الملك».

فلما أتى به منزله، ورأته امرأته زليخا بنت صاحب عين شمس، بنت عمّ أطفير، قالت له: «اتركه لنا نُربّيه»، ففعل، فكان من أمر افتتانها به ما نَصَّه الله ـ تعالى ـ فى كتابه.

وكانت تكتم ذلك حتى غلب الأمر عليها، فجاءت له، وتزيّنت له، وعرّفته أنها تحبُّه، وأنّه إِن واتاها على ما تدعوه إليه جاءته بمال عظيم، وأحلَّته المحلّ الكريم، فامتنع عليها، ورامت أن تقبّله، ولم تزل تمارسه وهو يمتنع بجهده، إلى أن أتى زوجها، ووافقه وهو هارب منها.

وكان زوجها عِنِّينًا، لا يأتى النساء، فجعل يوسفُ يعتذر إليه، وقالت هى: «كنت نائمة، فأتانى يراودنى عن نفسى»، ففطن أن الأمر منها، فقال ليوسف:

(١) فتوح مصر ٣٥.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[١]؛ أى عن اعتذارك، وقال لها: ﴿استغفرى لِذَنْبِك﴾[٢].

واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء أصحاب الملك، فَخضْنَ فيه، وقد كان خبر الغلام بلغ الملك، وابتياع أطفير له، وسأل عنه فأنكره، ومنعه الخروج عن قصره، وكان محجوبًا لا يراه أحد.

والملكُ غير عادل عن العكوف على لذاته، والاحتجاب عن الناس فأحْضَرَتْ جماعةً منهنّ وأحضرت لهن طعامًا وشرابًا، وجلست فى مجلس حذاء مجلس، مذهبين جميعًا، وفرشتهما بالديباج الأصفر المذهب، وأسدلت عليهما ستور الدّيباج المذهب، وأمرت المواشط بتزيين يوسف، وإخراجه إلى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه، وكان ذلك المجلس محاذيًا للشمس.

فنظم المواشط شعر يوسف بأصناف الجواهر، وألبسنه ثوب ديباج أصفر منسوج بذارات حمر مذهبة، فيها أطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء، وأكمامه جوهر ملون، ومن تحته غلالة حمراء، ووضعن على رأسه تاجًا منظومًا بدرّ وجوهر نفيس، وأخرجن من تحته طُرَز شعر على جبهته، ورددن ذوائبه على صدره، وعقربن صدغيه على خديه، وكحلن عينيه، ودفعن إليه مذبّة ذهب شعرها أخضر.

فلما أكلن وفرغن من طعامهن، أحضرت الشراب والفاكهة، وسقتهن أقداحًا، وقدمت إليهن سكاكين، نصبها جوهر، فقالت لهن: «اقطعن من هذه الفاكهة»، وقيل إن الذى كان بين أيديهن أترج، وهو المتكأ.

فلما أخذن فى شربهن، قالت لهن: «قد بلغنى ما خِضْتُنّ فيه من أمرى مع عبدى»، قلن لها: «الأمر كما بلغك؛ لأنك أعلى قدرًا من هذا، وأنت تجلّين عن أولاد الملوك، فكيف رضيت بغلامك؟» فقالت: «لم يبلغكن الصدق عنى، ولو كان لكان أهلاً لذلك».

ثم أرسلت إلى المواشط فى إخراجه، ورفعت ستور المجلس الذى يحاذى

---

(١) سورة يوسف، آية ٢٩.

(٢) سورة يوسف، آية ٢٩.

مجلسها، وأقبل يوسف خارجًا منه، مستقبلاً للشمس، فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف وما عليه، وأرسل ذلك شعاعًا كاد أن يخطف أبصارهن.

وأقبل يوسف والمذبّة معه، وهنَّ يَرْمُقْنَه حتى وقف على رأسها يذبُّ عنها، وهى تخاطبهن، وهن لا يفهمن خطابها؛ للذى أذهلهن من النظر إليه، فقالت: «ما لكن قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر إلى عبدى»[١].

قلن لها: «معاذ الله، ما هذا عبدك، وما هذا إلا ملك كريم»، ولم تبق منهن واحدة إلا حاضت وأنزلت شهوةً من محبّته، فقالت لهن زليخا عند ذلك: ﴿فَذَلكُنَّ الذى لُمْتُنَّنى فيه﴾[٢]، فقلن: «ما ينبغى لأحد أن يلومك بعدها، ومن لامكِ فقد ظلمك، فدونكه»، قالت: «قد فعلت فأبى علىّ، فخاطبنه لى».

فكانت كل واحدة منهن تخاطبه وتدعوه سرًا إلى نفسها، وتبذل له، وهو يمتنع منها، فإذا يئست منه لنفسها خاطبته لزليخا، ووعدته بالحظوة والرفعة والأموال، فيقول: «ما لى بذلك من حاجة».

فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبًا، فقالت زليخا: «لا يحسن ذلك، ولا يقع موقعًا، ولكنه إن لم يفعلِ لأمنعنه اللذات، ولأسجننه»، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يدْعُونَنى إليه﴾[٣].

وأقسمت بإلاهها ـ وكان صنمًا من زبرجد أخضر باسم عطارد ـ أنه إن لم يفعل ذلك لتجعلنَّ به ذلك، فأبَى عليها، فأمرت بنزع ثيابه وألبسته الصوف، وسألت زوجها حبسه؛ ليزول عنها ما قذفت به، فمال إلى قولها؛ ليميط عن أهله القبيح، وينفى عنها المقالة، فأمر به فحبس فى السجن سبع سنين[٤].

فرأى الملك فى منامه كأن آتيًا أتاه، فقال: «إن فلانًا وفلانًا قد عزما على

---

(١) فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لله مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة يوسف، آية ٣١].

(٢) سورة يوسف، آية ٣٢.

(٣) سورة يوسف، آية ٣٣.

(٤) فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ سورة يوسف، آية ٣٥.

قتلك»؛ يريد صاحبى طعامه وشرابه، فلما أصبح قررهما، فاعترف أحدهما، وأنكر الآخر، فأمر بحبسهما.

وكان اسم صاحب الطعام راشان، وصاحب الشراب مرطش(١)، فأخبرا يوسف برؤياهما كما نطق به القرآن، ثم أُخْرِجا من السجن.

فقُتل الذى أَقَرَّ، ونجا الذى لم يقر وهو صاحب الشراب، فلما رأى الملك رؤياه فى البقر، عرَّفه الساقى خبر يوسف، فأرسل إليه إلى السجن ففسرها له.

وقيل إن الملك قال للرسول: «سله عن الرؤيا قبل أن تقصها عليه»، ففعل، فأعلمه بها، وعبر له عن معناها، فقال الملك عندها: «جئنى به»، فقال يوسف: «لا أخرج حتى يكشف أمر النسوة اللواتى من أجلهن حُبست»، فلما كشف عن ذلك، واعترفت زليخا بالقصة، وجّه إليه الملك فأخرجه، وأمر بغسله من درن السجن، وألبسه من ثياب الملوك.

فلما دخل عليه ورآه، امتلأ به سرورًا، وألقيت عليه منه محبة، وسأله عن الرؤيا، ففسرها له كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى كتابه، فقال له الملك: «ومن يقوم لى بذلك؟» فقال: «أنا، فإنى عليم به»، فخلع عليه، وألبسه تاجًا، وأمر أن يركب معه الجيش، ويطاف به فيرد إلى قصر الملك، ويجلس على سرير العزيز- وكان العزيز قد هلك ـ فاستخلفه الملك على ملكه، وسماه العزيز مكانه، وزوجه امرأته، فقال لها يوسف: «هذا أصلح مما أردت»، فقالت: «اعذرنى؛ فإن زوجى كان عنّينًا، ولَمْ تَرَك امرأةٌ فى حسنك وهيئتك إلاَّ صبا قلبهُا إليك»(٢).

فلما جاء سِنو الخصب، أخذ يوسف فى توفير الغلات، والاستكثار من الأقوات، ثم جعل فى سنى الجدب لما نقص النيل، وتوالى نقصانه، يحسن التدبير

(١) قال السيوطى الفتيان هما: مجلب ونبوا الدر المنثور ٤/ ٥٣٥.

(٢) فذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتنَّ يُوسُفَ عَنْ نفسه قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عليه من سُوءٍ، قَالَت امْرَأَتُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحق أَنَا رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّه لمنَ الصَّادقين، ذَلِك لِيَعْلَمَ أَنى لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى كَيد الخائنين﴾ [سورة يوسف، الآيات ٥٠ـ٥٢].

والسياسة، ولولا ذلك لهلك الناس.

فصار إلى يوسف بما باع من الطعام جميع أموال أهل مصر من الذهب والفضة والجوهر والثياب والدواب والآنية والعقار.

وقحط أهل الشام عند ذلك، فكان من أمر يوسف مع إخوته ما قَصَّ الله - تعالى - فى كتابه.

ووجه يوسف إلى أبيه، فحمله من الشام بجميع أهله، وخرج فى وجوه أهل مصر وكبرائهم، فتلقَّاه وأدخله على الملك، وكان يعقوب - عليه السلام - نبيًا جميلاً، فقرَّبه الملك، وأحبه وأعظمه، وكان له يومئذ عشرون ومائة سنة، فأقام يعقوب مع نقراوش، يعظّمه ويجلّه، ويعقوب يدعوه إلى توحيد الله، ونبذ الأصنام والآلهة، ويوسف يعقبه بمثل ذلك، فيقال إنه آمن وكتم إيمانه خوفًا من فساد مُلْكِه.

ولم يزل يعقوب مكرمًا معظمًا عنده حتى حضرته الوفاة فى حياة نقراوش، فأوصى أن يُدْفنَ بمكانه من الشام، فوُضِع فى تابوت، وخرج معه يوسف وكبار أهل مصر حتى بلّغوه إلى موضعه، فمنعهم عيصو من دفنه هناك؛ لأن إسحاق وهب له الموضع، فاشتراه يوسف منهم، ودفن فيه يعقوب، ووُلِد ليوسف بمصر.

وملك نقراوش مائة وعشرين سنة، كما تقدم، وكان من أمر ابنه مع يوسف ما ذكرناه.

واستوزرَ دارم[1] بعد يوسف رجلاً من الكهان يسمى بلاطش، فأطلق له ما كان يوسف يحذره عنه، وحمله على أذى الناس، وأخذ أموالهم، وغلبتهم على كلّ امرأة حسناء يسمع بها فى النواحى.

ومكث كذلك زمانًا قد بلغ من الناس أشد مبالغ الأذى ونال منهم كل مكروه، حتى ركب يومًا فى النيل متنزهًا، فعصفت به ريح أغرقته ومن كان معه، واستراح الناسُ من شَرِّه.

وملك بعده ابنه معدايوس، وهو خامس الفراعنة، وأهل مصر يسمونه معدان،

(١) مروج الذهب ١/ ٣٧٣.

فأسقط عن الناس الخراج، وأحسن فيهم السيرة، ولزم الإقبال على الهياكل والتعبّد لها.

فتذكر القبط أنه كان يومًا فى هيكل زحل وحذاء صورته، وكان قد جهد نفسه فى التعبُّد له إلى أن تغشّاه نور، وتجلّى له زحل وخاطبه فقال له: «قد جعلتك ربًا، وحبوتك بالقدرة، وسأرفعك إلىَّ، فلا تَخْلُ من ذكرى»، فأخبر الناس سدنة الهيكل بما رأوه من النور، وسمعوا من الخطاب، فأعظم الناسُ أمرَه، وسموه ربًا بأمر زحل.

فجمع الناس، وقال لهم: «قد وقفتم على ما خصصت به دون الملوك، وهذه موهبة يلزمنى الشكر عليها لواهبها، ولست أتفرغ للنظر فى أموركم، وقد جعلت أمر الملك إلى ابنى أقشامش، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصى عنكم كما وعدت، وقد أيدته بالناظرين، فانظروا كيف تكونون فإنكم منّى بمرأى ومَسْمع»، فرضوا ذلك.

وجلس أقشامش[1] على سرير الملك، وتتوج بتاج أبيه، وهو الذى يسميه أهل الأثر كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع، وهو سادس الفراعنة.

وسُمّوا فراعنة بفرعان الأول، فصار اسمًا لكل من تجبَّر وعلا أمره.

واحتجب معدايوس أبوه عن الناس.

وكان أقشامش أول من ذَلَّل الإسرائيليين للقبط، وقال للقبط: «هم عبيد لكم»، حتى صار رجالُهم خدمًا لرجالهم، ونساؤهم خدمًا لنسائهم، وإنْ ضرب الإسرائيلى القِبْطِىّ قُتِل به.

وقيل إن منارة الإسكندرية بنيت فى زمانه، وإنه هو الذى جعل عليها المرآة.

وكان قد استوزر رجلاً من أهل بيت المملكة يقال إنه من ولد أشمون الملك، يسمى طلمى بن قومس[2]، وكان شجاعًا حكيمًا، كاهنًا داهية.

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٣٩ـ٤٠.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٤٠.

فتغيب أقشامش بعد إحدى وثلاثين سنة من ملكه، وطلمى يدبر أمر المملكة، فيقال إنه سلب عقله، ويقال إن طلمى سمَّه وقتله؛ لأن نفسه كانت تنازعه الملك.

فلما فقد الناس الملك اضطربوا على طلمى، وتغيروا عليه، فولّى لاطش بن أقشامش، وأجلسه على سرير الملك، وألبسه التاج.

فاستقر له الأمر، وكان حدثًا معجبًا، فصرف طلمى عما كان عليه من خلافته، واستخلف رجلاً يقال له لاهوف من ولد ندراس الملك، وتجبر ودعا إلى عبادته، وأمر أن يجلس أحد فى قصره، لا كاهن ولا غيره، بل يقوموا على أرجلهم إلى أن ينصرفوا.

وزاد فى أذى الناس، والعسف بهم، ورَتَّبَهم على الأبواب، وجمع أموالهم وكثرها، وطلب النساء وابتزّ منهن خلقًا كثيرًا، وفعل من ذلك أضعافًا مما فعله من تقدم ذكره، واستعبد بنى إسرائيل، وهو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسى، فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب العملقى[1].

وقد تنازع الناس فيه، فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشام، ومنهم من رأى أنه من الفرس من مدينة إصطخر.

وقد زعم قوم من الأعاجم أنه من الأندلس من مدينة قرمونة، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصريم بن بيصر، والقبط تثبت ذلك، ونسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم، وتقول إن دليل ذلك ميله إليهم، ونكاحه فيهم.

وذكر قوم أنه دخل مدينة منف على أتان تحمل خباءً أحمر ليبيعه، وكانوا قد اضطربوا فى تولية ملك، فأجمعوا على أن يملّكوا عليهم أول من يطرأ من الناس، فكان هذا.

فبذل الأموال، ورغب من أطاعه، وقتل من خالفه، وبنى المدن، وخندق الخنادق، وبنى الحصون على حدود مصر.

واستخلف هامان، وكان منه بقربى، وهو حفر خليج سردوس، وهو أول من عرَّف العرفاء على الناس، وكان من أمره مع موسى ـ عليه السلام ـ ما هو مذكور فى موضعه.

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٤٠.

ذكر فتح مصر

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم[١]: «لما كانت سنة ثمانى عشرة، وقدم عمر ـ رضى الله عنه ـ الجابية، خَلاَ به عمرو بن العاص، وكان قد دخل مصر فى الجاهلية، وديارها، وعرف أحوالها، فجعل يعظّم عنده أمرها، ويهوّن عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر، وعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عكة، ويقال ثلثهم من غافق.

فقال له عمر: «سيروا وأنا مستخير الله، وسيأتيك كتابى سريعًا ـ إن شاء الله، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن أرض مصر قبل أن تدخلها، فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك، فاستعن بالله واستنصره»[٢] فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يَشْعُرْ به أحدٌ.

واستخار عمر (رضى الله عنه) فكأنه تخوَّف على المسلمين، فكتب إلى عمرو أَنْ ينصرف بمن معه، وأدركه الكتاب وهو برفح، فتخوّف عمرو إن قرأ الكتاب أن يكون فيه أمر بالانصراف كما عهد إليه.

فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، ثم قال عمرو لمن معه: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟»، فقالوا: «بلى»، قال لهم: «فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع إليه، وإن كتابه لم يلحقنى حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى»[٣].

قال[٤]: «فلما بلغ المقوقس أمر عمرو توجّه إلى الفسطاط، وكان يجهز إلى

(١) فتوح مصر والمغرب ٧٦ـ٧٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٧٧.

(٣) فتوح مصر والمغرب ٧٨.

(٤) فتوح مصر والمغرب ٧٩.

عمرو الجيوش، وقال جماعة من مشايخ أهل مصر إن أسقفًا كان بالإسكندرية للقبط يقال له أبو بنيامين، لما بلغه قدوم عمرو إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو.

فأول موضع قوتل فيه عمرو «الفرما»، قاتله فيه الروم نحوًا من شهر، ثم فتحها الله عليه، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا لعمرو أعوانًا لما أعلمهم به أبو بنيامين[1].

ثم تقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى فتح بُلْبَيْس[2] وأم دنين، وكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف.

ثم سار عمرو إلى الحصن، وقد خندقوا حوله وجعلوا للخندق أبوابًا، وجعلوا حسك الحديد موتدة بأفنية تلك الأبواب.

وكان عمرو يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، ويغدو فى الأسحار فيصفّهم على أبواب الخندق، وعليهم السلاح.

ثم قدم على عمرو الزبير بن العوّام فى اثنى عشر ألفًا، فتقوّى المسلمون، وجعل عمرو يلح عليهم بالقتال، ووضع المنجنيق على الحصن، وكان عمرو إنما يقف تحت راية بَلِيّ.

قال: «وكانت أمه بلوية»، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «هذا من قائله وهم، وإنما هى عنزية».

فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير ـ رضى الله عنه ـ: «أنا أهب نفسى لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك للمسلمين»، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام، ثم أمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير واقف على رأس الحصن يكبرّ، والسيف فى يده، فتحامل المسلمون على السلم، حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن يكسر، فهرب أهل الحصن جميعًا، وعمد

(١) أبو بنيامين: أُسقُف للقبط بالإسكندرية، لمّا بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أن لا تكون للروم دولة، وأن مُلْكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو، فيقال: إن القبط الذين كانوا بالفَرَما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا. فتوح مصر والمغرب ٨٠.

(٢) فى بلبيس استمر القتال نحوًا من شهر. فتوح مصر والمغرب ٨٠.

الزبير إلى باب الحصن، ففتحه واقتحمه المسلمون[١].

ثم حاصر المسلمون باب أليون[٢]، وبه أكابر الروم والقبط ورؤساؤهم، وعليهم المُقَوْقِس، فقاتلوهم بها شهراً.

فخاف المقوقس على نفسه ومن معه، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط، وخرجوا على الباب القبلى، وترك هناك جماعة يقاتلون، فصار بالجزيرة - موضع دار الصناعة اليوم - وأمر بقطع الجسر، وذلك فى مجرى النيل.

فأرسل المقوقس إلى عمرو: «إنكم قد دخلتم فى بلادنا، وطال مقامكم بأرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، جهزوا إليكم الجيوش، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فعسى أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فتندموا»[٣].

فردّ عمرو مع رسله أنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما دخلتم فى الإسلام وكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد **﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** وإما جاهدناكم بالصبر والقتال **﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾**.

فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: «كيف رأيتموهم»، قالوا: «رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على الرُكَب، وأميرهم كواحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء، وإذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها أحد منهم، يتخشعون فى صلاتهم».

فقال المقوقس: «والذى يُحلَف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لزلزلوها، وما

(١) فتوح مصر والمغرب ٨٥.

(٢) بابليون: اسم مدينة مصرية وجدت فى القرون الوسطى جنوبى موقع القاهرة، ويراد بهذا الاسم المدينة القديمة والحصن الذى أقامه الرومان، لا تزال بقايا هذا الحصن باقية إلى اليوم فى قصر الشمع. سقط فى قبضة العرب فى ٩ أبريل ٦٤١. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٩٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ٨٧.

يقوى على قتال هؤلاء أحد، وإن لم يغتنم صلح هؤلاء القوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض»[١].

وكان ذلك وقت خروج النيل وفيضه، والمسلمون قد أحدق بهم الماء من كل جهة، ولا يقدرون على النفوذ إلى الصعيد ولا غيره من القرى.

وبعث عمرو إليهم عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت[٢]، وأمره أن يكون متكلم القوم، وأن لا يجيبهم إلى شيء إلا إلى إحدى هذه الثلاث خصال.

فركبوا السفن إلى المقوقس، فدخلوا عليه، فتقدم عبادة بن الصامت، فهابه المقوقس لسواده، وقال: «نَحُّوا عنى هذا الأسود وقدّموا غيره»، فقالوا جميعًا: «إن هذا الأسود سيدنا، وأفضلنا رأيًا وعلمًا».

فكلمه عبادة، فازداد المقوقس له هيبة، وقال لأصحابه: «لقد هبت منظره، وإن قوله عندى لأهيب، وإن هذا وأصحابه إنما أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها».

فقال له المقوقس: «يعطى كل رجل منكم دينارين دينارين، فأميركم مائة دينار، وخليفتكم ألف دينار»، فلم يجبه عبادة إلا على إحدى الثلاث خصال[٣].

فقال المقوقس لأصحابه: «ما ترون؟»، فقالوا: «أما ما أرادوا من دخلونا فى دينهم فهذا ما لا يكون[٤]، نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا أن يجعلونا عبيدًا أبدًا فالموت أيسر من ذلك، ولو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم كان أهون علينا».

فانصرف عبادة، ولم يتفقوا على شيء.

وألح المسلمون فى القتال، حتى أذعن المقوقس بالجزية عن القبط خاصة،

(١) نفسه ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن قيس ثعلبة الخزرجى شهد بدرًا والمشاهد كلها بعد بدر، وشهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد ترجمته فى الإصابة ٢/ ٢٦٨ـ٢٦٩ ورقمها ٤٤٩٧.

(٣) فتوح مصر والمغرب ٨٨.

(٤) فتوح مصر والمغرب ٨٩ـ٩١.

والروم مخيّرون فى المقام على مثل ذلك، أو الخروج إلى أرض الروم.

فأحصى يومئذ من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط خاصة، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكانوا ستة آلاف ألف ممن بلغ الحلم، سوى الشيخ الفانى، والصغير والنساء.

ففرض على كل نفس دينارين دينارين، فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار، ثم كانت بمن استقر هناك من النصارى، وساكنيهم من النوبة، خمسين ألف ألف دينار.

وجعل عمرو يبحث عن الأموال، ويضمها إلى بيت المال، وذكر لعمرو أن عند عظيم الصعيد مالاً، فبعث إليه، فقال: «ما عندى مال»، فسجنه، فسأل عمرو من يدخل عليه هل يسمعونه يذكر أحدًا، قالوا: «نعم، راهبًا بالطور»، فبعث عمرو، فأوتى بخاتم المسجون، وكتب كتابًا على لسانه بالرومية، وختم عليه، وبعث به إلى الراهب، فأتى بقلّة من نحاس مختومة برصاص، فإذا فيها كتاب، فيه: «يا بنى آدم إذا أردتم ما لكم فاحفروا تحت الفسقية».

فبعث عمرو أمناء إلى الفسقية ـ وهى السقاية ـ فحفروا، واستخرجوا خمسين أردبًا من دنانير، والأردب قنطار ونصف.

* * *

ذكر الفسطاط [١]

وإنما سميت مصر الفُسْطَاط؛ لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرَّخ، فقال عمرو ـ رضى الله عنه ـ: «لقد تحرّم منا بمتحرم» فأمر بالفسطاط، فأقِرّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر.

فلما قفل المسلمون من الإسكندرية بعد فتحها قالوا: «أين ننزل؟»، قالوا: «الفسطاط، فسطاط عمرو الذى كان خلّفه»، وكان مضروبًا فى موضع الدار التى

(١) راجع فى وصف الفسطاط: المسالك والممالك للأصطخرى ٣٩ـ٤٠ وصورة الأرض ١٣٧ـ١٣٨.

تعرف اليوم بدار الحصى، وهى عند دار عمرو الصغيرة[١].

وبنى عمرو بن العاص رضى الله عنه المسجد، قال الليث بن سعد: «وكان ما حوله حدائق وأعنابا».

ونصبوا الحبال حتى استقام لهم، ووضعوا أيديهم، فلم يزل عمرو قائمًا حتى وضعوا القبلة، هو وأصحاب رسول الله ﷺ، واتخذ فيه منبرًا.

قال أبو تميم الجيشانى: «وكتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إليه: أما بعد، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرًا ترقى فيه على رقاب المسلمين، أو ما بحسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحتك؟ فعزمت عليك لما كسرته».

وكان أبو مسلم الغافقى[٢] صاحب رسول الله ﷺ يؤذّن لعمرو، وكان يخدم المسجد.

واختطّ المسلمون بمصر، فاختط عمرو بن العاص داره التى هى اليوم عند باب المسجد، بينهما الطريق، وداره الأخرى اللاصقة إلى جانبها، وفيها دفن عبد الله ابنه.

واختط عبد الله ابنه الدار الكبيرة، التى عند المسجد الجامع، وبناها قصرًا على تربيع الكعبة الأولى[٣]، واختط حول دار عمرو والمسجد قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، وجُهَيْنة.

واختط وَرْدان[٤] مولى عمرو ـ ويكنى بأبى عبيد ـ القصر المنسوب إلى عمر بن مروان اليوم، اشتراه عبد العزيز بن مروان، فوهبه لأخيه.

واختط قيس بن سعد بن عُبادة[٥] دار الفلْفل فى قبلة الجامع، وأوصى عند وفاته أنها للمسلمين، ينزلها ولاتهم، وسميت دار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخى حين ولى مصر، اختزن فيها فلفلاً بعشرين ألف دينار، كان الوليد بن

(١) فتوح مصر والمغرب ١١٥.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١١٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٢٢.

(٤) فتوح مصر والمغرب ١٢٢.

(٥) فتوح مصر والمغرب ١٢٣.

عبد الملك أراد أن يهديه إلى صاحب الروم.

واختط مَسْلمة بن مُخَلَد[١] دار الرمل، وكانت من رَحَى الكعك إلى حمام سوق وردان، ثم وهبها لمعاوية، واختط له معاوية داره التى بسوق وردان، وكانت بجنبها دار لعُقْبَة بن عامر، فوهبها لرملة بنت معاوية؛ فبها سميت دار الرَّمْل، حرّفته العامة، وقيل إنما سميت دار الرمل لكثرة ما ينقل إليها من الرمل لدار الضرب.

واختط قيس بن أبى العاص السهمى[٢] داره التى عند دار ابن رُمّانة[٣]، وكانت دار ابن رمانة بينها وبين المسجد، ودخل بعضها إلى المسجد حين زاد عبد الله بن طاهر فى عرضه، وكان عمرو ولّى قيسًا القضاء.

واختط عُبادة بن الصامت[٤] إلى جانب دار ابن رُمَّانة، وأنت تريد إلى سوق الحمام.

واختط خارجة بن حُذافة[٥] غربى المسجد إلى أصحاب الحِنَّاء، وأصحاب السويق.

واختط عبد الرحمن بن عُدَيْس الدار البيضاء، ومروان بن الحكم بناها بناءها اليوم لما ولى مصر سنة ستين.

واختط ثقيف فى ركن المسجد الشرقى إلى السَّرَّاجين، واختط أبو ذر[٦] ومن معه من غِفار من زقاق القناديل راجعًا إلى قصر ابن جبر إلى سوق بربر.

واختط كعب بن يسار بن ضِنّة[٧] ـ وهو ابن بنت خالد بن سنان العبسى، التى قال لها رسول الله ﷺ: «ابنة نبى ضيّعة قومه»ـ الدار المعروفة بدار النخلة فى

(١) فتوح مصر والمغرب ١٢٤.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٢٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٢٨.

(٤) فتوح مصر والمغرب ١٢٩.

(٥) فتوح مصر والمغرب ١٢٩.

(٦) اختطّ أبو ذر الغَفارى دار العُمُد ذات الحمَّام التى أخذ بركة بن منصور الكاتب بيرها، بابُها فى زقاق القناديل وبابُها الآخر مما يلى دار بركة. فتوح مصر والمغرب ١٣٥.

(٧) فتوح مصر والمغرب ١٣٧.

طرف زقاق القناديل، وكان يقال لزقاق القناديل زقاق الأشراف؛ لأن عمرو بن العاص كان فى طرفه، وفى الطرف الآخر كعب بن يسار، وبينهما دار أبى ذر، وزكريا بن الجهم، وعبد الرحمن بن شرحبيل، وغيرهم من الأشراف.

واختط كعب بن عدىّ القَيْسارية، فلما أراد عمر بن عبد العزيز بناءها اشتراها منهم، وخط لهم دارهم التى فى بنى وائل.

والحمام الذى يُعرف اليوم بحمام أبى مُرة كان خطه لرجل من تنوخ، فسأله إياه عبد العزيز بن مروان، فوهبها له، فبناه حمامًا لزبّان ابنه، وبزبان كان يعرف، وفيه يقول الشاعر يصف صنم رخام كان فيه على خلقة المرأة: [بسيط]

مَن كانَ فى نَفْسه للبَيض مَنْزِلةٌ فَلْيَأْتِ أَبْيَضَ فى حَمَّـــامِ زَبَّان

لاَ رُوحَ فِيـهِ، وَلاَ شُفْرٌ يُقَلِّبُـه لكنهُ صَنَمٌ فِى خَلْقِ إِنْسـان[١]

فى أبيات.

وكسر هذا الصنم، وكان عجبًا من العجائب، حين أمر يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام سنة اثنتين ومائة.

واختط الزبير بن العوّام داره التى بسوق وردان، وفيها السُّلَّم الذى كان الزبير نصبه،وصعد عليه إلى حصن الروم، وكان عبد الملك بن مروان قد اصطفاها، فردها أبو جعفر على هشام بن عروة، وكانت لهشام منه ناحية، وقال أبو جعفر: «ما مثل أبى عبد الله يؤخذ له شىء»؛ يعنى: الزبير.

واختط أبو بَصْرَة الغفارى[٢] عند دار الزبير، واختط أسلم[٣] مما يلى دار أبى ذر، ومن خِطَطها دار الصبَّاح، والزقاق الذى فيه دار ابن بُلادة، ولهم أيضًا من قصر ابن جبر إلى الحجامين الذين بسوق بربر.

واختط الليثيون عند أصحاب القراطيس، واختط خلفهم بشر بن أبى أرطأة.

واختط بنو مُعاذ فى زقاق عبد الملك بن مسلمة، واختط عَنَزَة فى أصل العَقَبة التى عند دار ابن الصامت.

(١) البيتان بلا نسبة فى فتوح مصر ١٤٠.
(٢) فتوح مصر والمغرب ١٤١.
(٣) فتوح مصر والمغرب ١٤٢.

واختط بلىّ خَلْفَ دار خارجة بن حُذافة[1]، ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد إلى دار مسلمة، وإلى دار واضح إلى درب الزجاج، ثم مضوا إلى أصحاب الزيت، ثم مضوا يشرعون فى قبلة سوق وَرْدان حتى بلغوا مسجد القُرون، ثم داخل الزقاق إلى مسجد بنى عَوْف، وهو من خطة بلىّ، وإنما كثرت بلىّ بمصر لأن رجلاً نادى بالشام: «يا آل قضاعة» فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إلى عامل الشام أن يصير ثلث قضاعة إلى مصر، فنظر فإذا بلىّ ثلث قضاعة، فسيَّروا إلى مصر[2].

واختط بنو بَحْر، وهم من الأزد، مما يلى بلى، ثم شروعا إلى البحر.

واختط مَهْرة[3] موضع دار الخيل وما والاها على سفح الجبل الذى يقال له جبل يَشْكر مما يلى الخندق إلى شرقى العسكر، إلى جنان بنى مسكين اليوم، وهناك كان مسجد مهرة، وأدخله طريف الخادم فى دور الخيل حين بناها.

واختطت لخم[4] قبلى ثقيف، وانحدروا إلى مسجد عبد الله، واختطت غافق بين مهرة ولخم، ومضوا بخطتهم حتى برزوا إلى الصحراء مما يلى الموقف، ولغافق من درب السراجين إلى درب بنى وردان.

فما كان عن يمينك وأنت تريد المسجد الجامع فى الطريق إلى دور الوردانيين من مسجد عبد الله، فهو للخم، وما كان عن يسارك فلغافق.

والموقف لابنة مسلمة بن مخلد، فتصدقت به على المسلمين.

وإذا سلكت زقاق أشهب فما كان عن يمينك وأنت تريد الموقف فهو لغافق، وما كان عن يسارك فهو للأزد، ثم مضت الأزد حتى أخذت ما شرع فى السويقة، قِبَال دار سعيد بن عفير وزقاق السرّاجين، حتى انتهت إلى دار حُوَى، ودار عبد الرحمن بن هاشم، ثم اختطت مما يلى السويقة العُنَقاء، وإذا هبطت من وادى

---

(١) اختطَّ اللَّيثيون الذين كانوا مع عمرو بن العاص، وهم آل عروة بن شُيَيْم عند أصحاب القراطيس. فتوح مصر والمغرب ١٤٢.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٤٣.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٤٥.

(٤) فتوح مصر والمغرب ١٤٦.

حُوَى وقعت فى هذيل، فما كان عن يمينك وأنت تريد الخندق فلهذيل، وما كان عن يسارك فلدهْنَة من الأزد.

واختطت الصَّدِف[١] قبلى مَهْرة، فمضوا بخطتهم حتى لقوا حضرموت دون الصحراء، ولقوا مما يلى القبلة بنى سعد من تُجيب.

واختطت تُجيب شرقى الحصن، وقبلى منزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ومضوا بخطتهم حتى لقوا مهرة والصدف من مهب الشمال.

واختطت خَوْلان قبلى الحصن من مهب الجنوب، ومضوا بخطتهم حتى لقوا بنى وائل والفارسيين فى السهل، حتى لقوا تُجيب ورُعَيْنًا فى الجبل، ولقوا مرادًا فى الشرق، ولقوا تجيبًا من مهب الشمال.

واختطت مَذْحِج بين خولان وتجيب[٢].

فأما الجيزة فإن معظم خططها للحمراء[٣]، وهم قوم من العجم والفارسيين، وكانوا دخلوا مع عمرو بن العاص، منهم بنو ينَّة، وبنو الأزرق، وبنو روبيل.

وإلى ابن ينّة تنسب السقيفة التى بفسطاط مصر، وإنما أرادوا أن ينفردوا عن العرب، ونزلها معهم قوم من همدان، وذى أصبح، ومنهم شَمِر بن أبرهة.

قد تقدم ذكرنا لبناء عمرو المسجد بمدينة الفسطاط، ثم مَسْلمة بن مخلد الأنصارى أخذ فى زيادته، وذلك سنة ثلاث وخمسين، وبنى المنار وكتب عليه اسمه، ثم هدم عبد العزيز بن مروان المسجد كله فى سنة سبع وسبعين، وبناه.

ثم كتب الوليد بن عبد الملك إلى قُرّة بن شريك العبسى، وهو واليه على مصر، سنة بضع وتسعين، فهدمه كله وبناه بناءه هذا اليوم، وزخرفه، ونجره، وذهّب رؤوس العُمد التى فى مجالس قيس خاصة، وحوّل قرّة المنبر إلى قيسارية العسل، وكان الناس يصلون فيها الصلوات، ويجمّعون فيها الجُمع، حتى فرغ من بناء المسجد، والقبلة فى القيسارية إلى اليوم.

---

(١) فتوح مصر والمغرب ١٥٢.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٥٣.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٥٦.

وكان الوليد قد عزل عبد الله بن عبد الملك عن مصر، وولاّها قرة بن شريك، وقال الشاعر فى ذلك [خفيف]:

عَجبًا مَـا عَجِبْـتُ حِينَ أتانا ... أنْ قَد أمَّرْتَ قُرَّةَ بنَ شَرِيك

وعَـزَلْتَ الفَتَى المُبَـارِكَ عَنَّا ... ثُمَّ خَالَفْتَ فيــه رأى أبيك[١]

ثم زاد بعد ذلك موسى بن عيسى الهاشمى فى مؤخره سنة خمس وسبعين ومائة، ثم زاد عبد الله بن طاهر بإذن المأمون له فيه سنة ثلاث عشرة ومائتين، وأدخل فى الزيادة دار الرمل كلها، إلا ما بقى منها من دار الضرب، ودار ابن رمانة، وغيرها.

ثم أول مسجد بُنى بمصر بعد مسجد عمرو، المسجد الذى فى أصل حصن الروم، عند باب الرّيْحان بإزاء الموضع المعروف بالقالوس،ويسمى مسجد القلعة[٢].

ومن مساجدها المشهورة مسجد عبد الله، وهو عبد الله بن عبد الملك ابن مروان، وكان أبوه ولاه مصر سنة ست وثمانين، وكان أهل مصر يسمونه مُكَيَّسًا، قال الليث بن سعد: «وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية، وإنما كانت بالعجمية، وهو أول من نهى الناس عن لبس البرانيس».

ومسجد ملك، وهو مسجد ينسب إلى ملك بن شرحبيل الخولانى القاضى، وكان ولى القضاء بمصر سنة ثلاث وثمانين، وكان الحجاج يبعث إليه فى كل عام بحُلّة وثلاثة آلاف درهم، ولم يزل على القضاء حتى مات.

وأما قيساريات مصر، فقيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، وقيسارية عبد العزيز، وهى التى يباع فيها البزّ، وقيسارية هشام يباع فيها البز أيضًا، وهو هشام بن عبد الملك.

وأول ما بنى المسلمون بمصر من الحمامات حمام الفأر، وكانت حمامات الروم ديماسات كبارًا، فلما رأوا هذا الحمام وصغره قالوا: «من يدخل هذا؟ هذا حمام الفأر»، فغلب عليه.

---

(١) البيتان بلا نسبة فى فتوح مصر ١٥٨ وحسن المحاضرة ١/٥٨٧ وفضائل مصر للكندى ٦٣.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٥٩.

وبين الفسطاط ومدينة القاهرة نحو ميلين فى خراب، كانت مساكن لكتامة وغيرها، وهناك اليوم ثلاثة مشاهد على الطريق من الفسطاط إلى القاهرة، بناها الحاكم، ولها السَّدنة والخدمة، وتوقد فيها السّرج الكثيرة الليل كله.

وزعموا أنه كان أراد نقل جثة رسول الله ﷺ، وجثة أبى بكر، وجثة عمر - رضى الله عنهما - إليها، وقد كانت توجهت له الحيلة فى ذلك حتى أظهر الله أهل المدينة على أمره؛ وقاية لرسوله ﷺ، وردًا لكيد عدوه - لعنه الله -.

وذلك أن الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته، احتفروا فى بعض الدور المجاورة لمسجد رسول الله ﷺ سربا تلقاء القبر، وقد رفعوا ذرع ما بين الدار والقبر، فإذا وازوا موضع القبر خرقوا فى البيت غلوة، وتمكنوا من إرادتهم.

فأطلع الله على ذلك أهل المدينة، وقد أمعنوا فى الحفر، وأشرفوا على ما يريدون، فقتلوا أولئك الفعلة الفسقة، ومثّلوا بهم، ورصفوا تلك الحفرة بالحجارة، وأفرغوا عليها الرصاص، فلا يطمع فى الوصول إليها طامع أبدًا.

* * *

ذكر كور مصر

الفيوم، الدير، السرداب، عين شمس، نوبة، شطا، الكوير، سجامك، هيت، سطيطس، كفرطس، السما، الفرما، سابور صير، المحلة، دميرة، دمقلة، تنّيس، دمياط، منف، وسيم، الإسكندرية، أنطابلس، دلاص، أهناس، العمر، طحا، أسيوط، قهقى، البهنسا، وقال: «البهنسا اثنان هذه المذكورة، وبهنسا الواحات»، أنصنا، أبنود، قفط، أرمنت، أسوان، القلزم، الطور، أيلة، مسطل، البلندس، قرطسا، بوسى، الملقون، الأوضية، طرة، ميذق العليا، ميذق السفلى، قسيس، برلس، النجوم، صعيرة، البحيرة، سمنّود، الحوف الغربى، الحوف الشرقى، أسفل الأرض، بطن الريف، السرور، المغيرة، أطرابية، برسط، الجيزة، المدقوق، الشراك، ترنوط، أسمير، أسيوط، الأشمون بورة، وهذا الأشمون موضع، وأشمون طناح موضع آخر، والأشمونان ثالث، وقال: «الأشمون وهما اثنان: أشمون ابن كرسلة، وأشمون الفراص».

ذكر المسافات من هذه الكور والمشهور من مدنها وغرائبها

مَنْف[1]: بين منف ودَلاَص[2] تسعة فراسخ، ومدينة منف هى التى كان نزلها فرعون، اتخذ لها سبعين بابًا، وجعل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجرى تحت سريره، وكانت أربعة أنهار.

وحدث شيخ من آل أبى طالب، من ولد على، قال: «رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشى فى مشاربه ومجالسه وغرفه وسقائفه، وإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كانوا أحكموا بناءه حتى صار فى الاستواء والإملاس حجرًا واحدًا، لا يستبان فيه مجمع حجرين، ولا ملتقى صخرتين، فهذا عجب، وإن كان جبلاً واحدًا فنقرت الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخاريق، فإن هذا الأعجب»، وليس بمصر كلها جبل.

وقال إبراهيم بن منذر الخولانى: «خرجت إلى منف، فإذا بعثمان بن صالح جالس على باب كنيسة، فسلمنا عليه، فقال لنا: أتدرون ما هذه الكتابة على باب هذه الكنيسة؟ قلنا: وما هى؟ قال: هى أنا فلان ابن فلان، يلوموننى على صغر هذه الكنيسة، وإنى اشتريت الذراع منها بمائة دينار، قلنا: إن لهذا قصة، قال: هاهنا وكز موسى عليه السلام الرجل، فقتله».

ودلاص مجمع سحرة مصر، وبين دلاص والفيوم ثمانية وعشرون فرسخًا،

(١) مَنْف: بالفتح ثم السكون والفاء: اسم مدينة فرعون، وأصلها بلغة القبط منافة، فَعُرِّبت إلى مَنْف، وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ وفيها دار فرعون، وهى ذات غرَف ومجالس وصفاف، وكلها من حجر واحدٍ منقور أو منهدم حتى لا يبين وصله. وآثار هذه المدينة ظاهرة إلى الآن.
وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ.
وقيل: كانت ثلاثين ميلاً بيوتًا متصلة، وقيل: كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها فى موضع سرير فرعون، بها منزل يوسف الصديق.
انظر: مراصد الاطلاع ٣/ ٣٢٣ وآثار البلاد ٢٦٥و٢٧٤ والمسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

(٢) دَلاَص: كورة بصعيد مصر، غربىّ النيل، ولاية واسعة ودَلاَص مدينتها، معدودة فى كورة البَهْنَسا. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣١.

وبين الفيوم وأهناس خمسة فراسخ، وبين أهناس[١] والبَهْنَسَا[٢] ستة عشر فرسخًا، وبين البهنسا والعمر ثلاثة فراسخ، وبين العمر وَطَحا[٣] ثمانية فراسخ، وبين طحا والأشمونين[٤] خمسة عشر فرسخًا، وبين الأشمون والقهقى ثمانية فراسخ، وبين القهقى[٥] وإخميم[٦] ثمانية فراسخ، وبين بورة وبوصير أربعة فراسخ.

وقال: «هما بوصيران[٧]: بوصير الصعيد، وبوصير أسفل الأرض؛ وهى بوصير سمنّود».

وبين بوصير وأرمنت[٨] ثمانية، وبين أرمنت وأسمير ثمانية فراسخ، وبين

---

(١) أهْنَاس بالفتح: اسم لموضعين بمصر، أحدهما اسم كورة بالصعيد الأدنى، وأهناس قَصَبَتُها، وهى قديمةٌ قد خرب أكثرها على غربى النيل، ليست ببعيدة عن الفسطاط.
وأهناس الصغرى: قرية كبيرة بكورة البهنس. مراصد الاطلاع ١/ ٣٥.

(٢) البَهْنَسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى، غربىّ النيل، وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفّة النيل، وهى عامرة كثيرة النخل، وبظاهرها مشهد يُزَار، يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين. مراصد الاطلاع ١/ ٢٣٥.

(٣) طَحَا: بالفتح والقصر: كورة بمصر شمالى الصعيد، غربى النيل. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٠.

(٤) الأَشْمُونين: مدينة قديمة أزليّة عامرة، قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى، غربىّ النيل، ذات نخيل وزروع، ويرتفع من الأشمونين ثيابٌ كثيرة. المسالك والممالك للأصطخرى ٤١ ومراصد الاطلاع ١/ ٨٤.

(٥) مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٧ وفيه أنها قَهْقُوه: كورة بصعيد مصر.

(٦) إخْميم: أقدم حاضرة بمصر، أسسها إخميم بن مصرائيم بن كوش بن حام على الضفة الأسيوية للنيل بعيدًا عن القاهرة بنحو ٣٠٠ ميل، وفيها عجائب كثيرة، منها البرابى، وهى أبنية قديمة فيها تماثيل وصور، ومنها ذو النون المصرى.
وصف إفريقيا ٢/ ٢٣٧ ومراصد الاطلاع ١/ ٤٣ وآثار البلاد ١٣٩ ورحلة ابن جُبَير ٣٥-٣٦ والمسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

(٧) بُوصير: بكسر الصاد وياء ساكنة وراء: اسم لأربع قرى بمصر: بُوصير قوريدس، بها قُتل مروان بن محمد، وبوصير السِّدر: بُليدة فى كورة الجيزة وبُوصير دفدنو: من كورة الفيوم، وبُوصير بَنَا: من كورة سَمَنُّود.
ويقال إن سحرة فرعون الذين حشرهم فى يوم موسى من بُوصير.
انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢ ووصف إفريقيا ٢/ ١٩٣ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٣٠.

(٨) أَرْمَنْت: كورة بصعيد مصر، بينها وبين قوص من الجنوب مرحلتان وبينها وبين أسوان مرحلتان. مراصد الاطلاع ١/ ٦٠.

أسمير وأسوان تسعة فراسخ، وبين بوصير وسَمَنُّود[١] فرسخان، وبين سمنُّود وبوسى فرسخ، وبين بوسى ودميرة[٢] ثلاثة فراسخ، وبين دميرة ودُمْقُلة[٣] عشرة فراسخ، وبين دمقلة ودمياط ثمانية فراسخ، وبينهما نوبة ودبقوا جزيرتان يصنع فيهما الدبيقى[٤]، وبين دمياط وجزيرة تنّيس اثنا عشر فرسخًا.

والمسافات التى ذكرناها من بوصير إلى تنّيس هو الطريق فى عمل مصر مما يلى أسفل الأرض، وطريق آخر أيضًا فى أسفل الأرض من الفسطاط إلى ميذق العلياء ستة عشر فرسخًا، ومن ميذق العلياء إلى السفلى ستة فراسخ، ومنها إلى فيد سبعة فراسخ.

ومن فيد إلى السرور ستة فراسخ، ومن السرور إلى المغيرة ثلاثة، ومن المغيرة إلى البَرَلُّس ثلاثة.

وعين شمس بناؤها كله من الصخر، وبيوتها كلها منقورة فى الصخر، كل بيت صخرة واحدة طولها عشرون ذراعًا وأكثر، وقد سقف كل بيت بصخرة واحدة، وحيطانها فى الإملاس والاعتدال كالمراقى، فيها أساطين منحوتة من الصخر عليها تماثيل ونقوش.

وفى صخرة من تلك الصخور بحيرة منقورة كالنهر الصغير، كان يصب فيها الشراب لفرعون إذا جلس هناك.

وعلى أبواب تلك القصور تمثال امرأة من صخرة، يذكرون أنها كانت ماشطة بنت فرعون، فمسخت حجراً.

وتلقى قبل أن تصل إلى هذه القصور أزيد من عشرين منارة، فيها ما طوله مائة ذراع، عليها كلها كتابة لا تفهم ولا تفك.

---

(١) سَمَنُّود: على شاطئ النيل، كثيرة المراكب، حسنة الأسوار، بينها وبين المحلة الكبيرة ثلاث فراسخ. رحلة ابن بطوطة ٥٣ ومعجم البلدان ٣/ ٢٥٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٦.

(٣) دُمْقُلة: مدينة كبيرة ببلاد النوبة فى الجنوب لها أسوار عالية لا ترام مبنية بالحجارة مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٤.

(٤) مراصد الاطلاع ٢/ ٥١٣.

وعين شمس هى كانت هيكل الشمس، وفيها عجائبها وملاعبها، وفيها العمودان اللذان لم يُر أعجب منهما ولا من شأنهما، ليس لهما أسس، وطولهما فى السماء نحو خمسين ذراعًا، وعلى رؤوسهما شبه طوقين من نحاس، فوقهما صورة إنسان على دابة، فإذا كان آخر الليل جرى من آخر العمودين من تحت الطوق ماء، فيرى من موضع جريانه من العمود أخضر.

* * *

ذكر جبل المقطم وما ورد فيه (١)

وهو متصل بجبل الزمرد، والمقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة وما بعد ذلك من التخوم.

وذكر بعض أهل العلم أن المقطم من الطور، وأنه داخل فيما وقع عليه القدس، وكذلك ذكره كعب الأحبار، وقال كعب: «كلم الله ـ عز وجل ـ موسى بالطور فالمقطم من القدس(٢)، وروى فى التوراة أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يناجى ربه بالوادى الذى فيه المقطم عند مقطع الحجارة، وكان فى أعلى جبل المقطم بناء للأوّل، ويذكر أنه كان مطبخ فرعون(٣)، فغيرّ وبنيت فيه المساجد، والناس يقصدونها ليالى الجُمَع ويتهجدون فيها، ويقال إن ذلك البنيان على المقطم كان موقدًا يوقد فيه إذا ركب فرعون من منف إلى عين شمس، ومن عين شمس إلى منف، وكان على القصير موقد آخر، فإذا رأوا النار علموا بركوبه، فأعدوا له ما يريد ـ والله أعلم».

وروى أسد بن موسى، قال: «شهدت جنازة مع ابن لهيعة بالمقطم، فجلسنا حوله، فقال: إن عيسى ـ عليه السلام ـ تصفّح هذا الجبل وأمه إلى جانبه،

(١) انظر فى وصف المقطم ومقبرته: رحلة ابن بطوطة ٥٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٨٥.

(٣) على رأس جبل المقطم فى قُلَّته مكان يُعرف بتنُّور فرعون، يقال إنه كان إذا خرج من أحد هذين الموضعين يُوقَدُ فيه، فَيُعَدُّ فى المكان الآخر ما يُعَدُّ له. المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

فالتفت إليها وقال: يا أماه، هذه مقبرة أمة محمد ﷺ.

وبينا عمرو بن العاص يسير فى صفح المقطم، ومعه المقوقس، إذ قال له: «ما بال جبلكم هذا أقرع؛ ليس عليه نبات؟ ولو شققنا صفحه بنهر من النيل وغرسناه»، فقال له المقوقس: «وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارًا ونبتًا وفاكهة، وكان المقطم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح ينزله، فلما كانت الليلة التى كلم الله عز وجل فيها موسى عليه السلام أوحى الله إلى الجبال: (إنى مكلم نبيًّا من أنبيائى على جبل)، فسمحت الجبال كلها وتشامخت، إلا جبل بيت المقدس فإنه تضاءل وهبط، فأوحى الله ـ تبارك وتعالى ـ إليه: (لم فعلت هذا؟) وهو أعلم، فقال: (إعظامًا لك وإجلالاً يا رب)، قال: (فأمر الله الجبال أن يَحْبوه كل جبل بما عليه من النبت، فجاد له المقطم بما عليه حتى بقى كما ترى، فأوحى الله (عز وجل) إليه: (إنى معوّضك على فعلك بشجر الخلد وغراس الجنة)».

وكتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: «إنى لا أعلم شجر الجنة غير المسلمين، فاجعله لهم مقبرة».

وروى أن عمرًا سأل رهبانهم لِم تركوا جبل المقطم من غير بنيان ولا غرس؟، فأخبروه أنهم سمعوا مشايخهم عن أوائلهم يقولون إن هذا فحص سيغرس فيه غروس من أغراس الجنة؛ فلذلك تركناه من غير عمارة، فكتب بذلك عمرو إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، فكتب إليه عمر: «إنى لا أعلم شيئًا فى الدنيا من غراس الجنة إلا أجساد المؤمنين، فاجعل ذلك الفحص لهم مقبرة»[١].

وروى ابن لهيعة أن كعب الأحبار أرسل فى جراب من تربة المقطم، فلما حضرته الوفاة أمر أن يفرش فى لحده تحت جنبه الأيمن.

وقيل إن أول من قبر فيها رجل من المعافر يقال له عامر، وقيل عمرت، وقد قيل إن أول من قبر فيها عمرو بن العاص، ولا يصح هذا؛ لأن عمرًا جعلها مقبرة، وتوفى عمرو بعد أن ولى مصر لمعاوية ثلاث سنين، وتوفى يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين[٢].

(١) فتوح مصر ١٨٦.

(٢) فتوح مصر ١٨٦.

وليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى، ولا أعظم، ولا أطيب منها تربة؛ تربتها مثل الكافور، وقبر فيها من أصحاب رسول الله ﷺ المعلومين: عمرو ابن العاص، وعبد الله بن حُذافة السهمى، وعبد الله بن الحارث الزبيدى، وأبو بصرة الغفارى وعُقبة بن عامر الجُهنى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى.

والفيوم قد تقدم ذكرها فى مواضع من هذا الكتاب، وسابورصير، وخليج الفيوم يصل إليها من خليج سابورصير، وهو الخليج الكبير، فإذا وصل إلى نصف الطريق وجد حجرًا مصنوعًا، وهو حجر اللّهون.

وفى أرض سابورصير نحو مائة ضيعة فى بساط واحد، فإذا زاد النيل أحدق بها الماء، وصارت كل ضيعة منها كالجزيرة، وصارت مواشيهم محصورة معهم.

وفى سابورصير القبور القديمة التى لا يدرى من أى زمان هى، فيها أموات صحاح الأجسام، عليهم أكفانهم، لم يتغير منظرهم، وتجمع فى هذه القبور الموميا القبورية التى لا تعدل ثمنًا.

ومدينة أخميم، وهى مدينة مسوّرة فى الضفة الشرقية من النيل، فيها أسواق وحمامات ومساجد، وهى كثيرة المساجد، وداخل سورها البربَى المذكور، لم يتغير منه شىء، وفيها مسجد جامع جليل.

مدينة أسيوط، وهى على الشاطىء الغربى من النيل، وهى مدينة مسوّرة، جميلة النصبة، كثيرة الخير والفوائد، وفيها أيضًا بربَى[١]، فى وسط سوقها، قد تهدم بعضه.

وأسيوط[٢] أكثر بلاد الصعيد قصب سكر، وأطيبه.

مدينة أَنْصِنا[٣]، وأكثرها اليوم خراب، وهى كانت مدينة السحرة، وكان بها أيضًا

---

(١) البربى: كلمة مصرية قديمة معناها المقبرة وسبق بيانُها.

(٢) أسيوط: من مدن الصعيد المشهورة، بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال، وهى جميلة المنظر، حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق. رحلة ابن جبير ٣٥ وآثار البلاد ١٤٧.

(٣) أَنْصِنَا: مدينة أزلية من صعيد مصر، فيها برابى وآثار كثيرة ووصفها ابن جُبير فى رحلته ٣٣ بأنها قرية جميلة، بها آثار قديمة وكانت فى السالف مدينة عتيقة، وكان لها سور عتيق، هدمه صلاح الدين.

بربى لم يبق منه اليوم إلا بيت واحد، كأنه من صخرة واحدة، حيطانه وأعلاه.

ومارية التى أهداها المقوقس إلى رسول الله ﷺ من كورة أنصنا، من قرية يقال لها جفن.

ومدينة أنْصِنا لا يقربها تمساح، والناس منها آمنون هناك، وأكثر ما يكون عدوانًا من الشاطىء الغربى الذى يحاذى أنصنا فى قرية يقال لها الأشمون، لا يقدر أحد أن يقرب من شاطئها، وإذا كان التمساح فى حدّ أنصنا تحول على ظهره مستلقيًا حتى يخرج منها[١]، وكذلك يصنع من فسطاط مصر على نحو عشرة أميال، حتى يخرج عن حدها بمثل ذلك.

ومدينة قوص[٢]، وهى على شرقى النيل بين أسوان وأخميم، وبينها وبين أسوان مسيرة ثلاث أيام، وهى مدينة كبيرة، وفيها آثار عظيمة للأوائل، وفيها أسواق، وحمامات، ومعاصر للسكر، يخدم الدار الواحدة منها مائة رجل.

ولها ضياع جليلة، وبينها وبين أسوان غيران منحوتة فى جبال هناك، فيها قبور أموات تستخرج منها الموميا الطيبة، وهم يجدونها فى رممهم وبين أكفانهم.

ويقال إن فى تلك الصحراء التى بين قوص وأسوان الجبل الذى فيه معدن الزمرد الأخضر، إلا أن الخوف من البجاة، والنوبة، وقبائل عرب تلك الصحارى تمنع منه، مع أن غيرانه بعدت، وانهارت وتهدمت؛ لبعد العمارة، وانقطاع الناس.

ومدينة قِفْط[٣]، وهى متوسطة المقدار، بينها وبين النيل ثلاثة أميال، عليها سور، ولها جامع وسوق، وبينها وبين مدينة قوص أربعة أميال، وفيها بربى، وبغربيها شَعْرى كثيفة، ليس بينها وبين مدينة قوص شىء إلا شجر السنط، الذى هو حطب مصر.

ومن مدينة قفط إلى مدينة أخميم ثلاثة أيام.

---

(١) آثار البلاد ١٤٩.

(٢) قُوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، وهى قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وبينها وبين قِفط فرسخ. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣.

(٣) قِفْط: بالكسر ثم السكون وطاء مهملة: مدينة بالصعيد الأعلى لها مزارع وبساتين كثيرة، وفيها النخل والأترج والليمون، والجبل يطل عليها، وانظر الحديث عنها عند ذكر بِرْبى قِفْط. مراصد الاطلاع ٣/ ١١١٣.

ومدينة أسوان، وهى آخر مدن الإسلام وثغرهم من بلاد مصر، وهى متصلة ببلاد النوبة.

وبين أسوان ـ وهى آخر بلاد الإسلام ـ والعريش ـ وهو آخر حد مصر ـ حائط العجوز، قد حوّط أرض مصر كلها.

وبين مدينة أسوان ومدينة صور، التى هى أول بلاد النوبة، صحراء فيها أعراب يعُرفون ببنى حمار، وبنى هلال، وبنى كنانة، وبنى جهينة، يؤدون أعشارهم إلى صاحب مصر.

وأسوان فى أول الصحراء إلى ساحل بحر النعم، إلى مدينة على ساحل البحر تسمى عيذاب، وهى فى صحراء تتجول فيها قبائل السودان من البجاة ومسجد الردّ بُنى آخر عمل أسوان، وهو رباط أسوان.

* * *

الطريق من أسوان إلى عَيْذَاب

وَعَيْذَاب[١] مدينة على ضفة البحر الغربى، وهى مرفأ الحجاج، ومن سلك إلى اليمن وغيرها، ويسكنها قوم يعرفون ببنى يولس، ويقال إنهم من البجاة، ويقول آخرون إنهم من العرب، وإنهم فزارة، قوم نفاهم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ.

وإلى أسوان فى عيذاب طريقان: طريق يعرف بالوضح، وهو ثمانى عشرة مرحلة فى قفر ورمال ليس فيها عمران، وهى رمال قليلة الماء، متهيلة، تمور مع الرياح فتعفى الآثار، ولا يهتدى فيها لمسلك ولا سبيل، وإنما يقتدى فيها الجَمّالون بإبل معروفة، يقدمونها فيهتدون بها.

والطريق الآخر يعرف بطريق العلاقين، وهى ثمانى عشرة مرحلة أيضًا، وليس

(١) عَيْذَاب: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، وآخره باء موحدة: بليدة على ساحل بحر القلزم، وهى مرسى المراكب التى تفد من عدن إلى الصعيد ومنها يُعَدّى إلى جدة. مراصد الاطلاع ٢/ ٩٧٤.

فيها عمران، إلا مدينة فى وسط الطريق، تنسب إلى نهر هناك يعرف بالعلاّقين، وهى كثيرة الثمار والخير، ويسكنها أناس كثيرة، يزعمون أنهم من العرب من كلب ابن وبرة، وهم على استقامة وحفظ لمن مر بهم.

وأكثر جبال هذه الطريق فيها معادن الذهب والفضة، ويسكن فى الجبال الممتنعة منها البجاة، منهم مسلمون يتاجرون المارة بهم ويبايعونهم.

وفى هذه الصحراء من أسوان إلى عيذاب إلى رأس القلزم الفيلة والزرافات.

وعلى القرب من أسوان جزيرة بلاق، وهى جزيرة يحيط بها النيل، وبها مدينة ومنبر وخلق من المسلمين من بلاد مصر وأسوان، وهذه الجزيرة بالموضع المعروف بالجنادل.

* * *

الطريق من الفسطاط إلى دمياط إلى جزيرة تنيس

تسير فى النيل منحدرًا حتى تأتى محلّة المحروم، وهى على ساحل طنرثى، وطنرثى مدينة كبيرة فيها الحمامات، والفنادق الكثيرة، والأسواق، وهى غير مسوَّرة، وبينها وبين ساحل محلّة المحروم ثلاثة أميال، وهى بين خليجين من النيل، وبينها وبين النيل من ناحية الشرق ميلان.

وهو الخليج الذى ينزل إلى دمياط، ومن عبره يأتى مدينة مليج، وهى مدينة كبيرة فى أول منبعث هذا الخليج، ووراء مدينة مليج[(١)] خليج آخر يذهب أيضًا إلى دمياط.

وهناك مدينة تسمى نيطائى، وهى مدينة جليلة فيها أسواق كثيرة، ومسجد جامع، وتسير من مدينة نيطائى مع النيل إلى مدينة دَمْسِيس[(٢)]، وهى كبيرة كثيرة

(١) مَلِيج: بالفتح ثم الكسر وياء تحتها نقطتان ساكنة وجيم: قرية بريف مصر، قرب المحلة. رحلة ابن جبير ١٨ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٣١٠.

(٢) دَمْسِيس: قرية من قرى مصر بينها وبين سَمَنُّود أربعة فراسخ، ينسب إليها كورة يقال لها كورة دمسيس ومنوف. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٣.

الخير والبساتين، وهى على شاطئ النيل، وبإزائها من العدوة الثانية مدينة تسمى شبرى دمسيس، وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير والبساتين.

وعلى مقربة منها مدينة فجنجين، واسعة ذات أسواق، ويخرج عندها خليج من النيل يجرى إلى بحيرة تنّيس، ويسمى أول مدخل إلى هذه البحيرة الديجور، وهى كالبحر عظماً.

ومن مليج المذكورة إلى مدينة صَهْرَجت[١] نصف يوم، وعلى مقربة من صهرجت مدينة بلبيس، مدينة جليلة، بين الشرق والشمال من مصر، وبينها وبين مصر بحيرة الأسرا، ويخرج إليها الماء من خليج بقرب مدينة رشيد من الضفة الشرقية، وهى بحيرة ملحة، وفيها مدينة سنجار، وبهذه المدينة أكثر السفن التى تجرى إلى مصر فى النيل بالأطعمة كل عام.

وبين هذه البحيرة وبحيرة أخرى جسر يتصل بالبحر الكبير، وهو جسر من بنيان الأوّل، متقن الصناعة، محكم التدبير، وفى هذا الجسر حفائر وكُوى مصنوعة، يأوى إليها الحوت، وإذا أرادوا صيده فتحوا أسداداً هناك بين البحرين، فيدخل الماء من البحيرة التى تلى البحر الكبير إلى هذه البحيرة الثانية، فإذا أحس الحوت بدخول الماء، تواثب من تلك الكوى، فتساقط على الجسر، فيأخذون منه ما شاؤوا بلا كلفة، ويبيعونه بالأموال الكثيرة من أصحاب الدواب، بعد إخراجه إلى البر الكبير، فيحمل إلى مصر على رتب.

وينحدر الخليج الذى يدخل من طنرثى إلى مدينة تسمى الملحة، وهى مدينة جليلة، لها مسجد جامع، وأسواق، وحمامات، وهى قاعدة العمال من مصر.

ويسير منها إلى مدينة تسمى دميرة، وهى قاعدة كبيرة، ومجمع للناس ولها أسواق عظيمة، ومنها يسير إلى دمياط.

وخليجها على القرب منها يفترق فرقتين، فتأخذ شعبة منه على شرقيها، وشعبة

---

(١) صَهْرَجت: قريتان بمصر متاخمتان لِمُنْية غَمر شمالى القاهرة، معروفتان بكثرة زراعة السكر، وتعرف بمدينة صهرجت بن زيد، وهى على شعبة النيل، بينها وبين بنها ثمانية أميال. مراصد الاطلاع ٢ /٢٥٨.

على غربيها، ثم تلتقيان فى البحيرة، فتصير إلى المدينة فى جزيرة، وهى مدينة مسورة، لها خمسة أبواب، وفيها مساجد كبار، ولها حصون تسمى بالمحاريس يسكنها الفقراء والصالحون.

وبقربها موضع يعرف بالصحراء، فيه يقصر القصارون تلك الثياب الشروب، وهى تكتفى عند اعتدال هوائهم وموافقته له بقصارة اليوم الواحد فتبيض.

وهذه البحيرة يسلكها الملاّحون، ذاهبين إلى تنيس من دمياط، وراجعين من تنيس إليها، بريح واحدة بحكمة فى سفنهم، وشراعها تزاحم به الريح.

وجزيرة تنّيس فى وسط هذه البحيرة، وهى بحيرة تعذب عند زيادة النيل، فتبقى ستة أشهر حلوة، ثم تملح ستة أشهر أخرى، وقال قوم إنها تعذب إذا هبت الجنوب، فيطرقون لها عند ذلك إلى مصانع قد اتخذوها، فإذا هبّت الشمال ملحت.

ومدينة تنّيس كبيرة، لها مسجد جامع وأسواق، وأهلها ذوو يسار وثروة، وأكثرهم حاكة، وثيابها الشروب لا يصنع مثلها فى الدنيا، فصنع بها لصاحب مصر قميص لم يدخل فيه الغزل لُحَمًا سوى أوقيتان، ونسج فيه من الذهب أربعمائة دينار.

وقد أحكمه الصانع، حتى لم يخرج فيه إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب، فبلغت القيمة فيه ألف دينار، وليس فى الدنيا طراز كتان يبلغ الثوب منه، وهو ساذج دون ذهب، مائة دينار عينًا غير طراز تنيس ودمياط.

وبجزيرة تنّيس أزيد من عشرة آلاف من النصارى، ولهم على شاطىء البحر كنائس كثيرة.

وقبور المسلمين فى جزيرة تنّيس بأفنية دورهم؛ لضيق مساكنهم، وهم يصيدون الطير من السمانى وغيرها على أبواب دورهم، بشباك يمدونها على سككهم.

وقد ذكرنا فى أخبار مصر خبر الأكوام التى بتنّيس، وأن تنيس كانت جزيرة عظيمة، وكانت كثيرة الجنات والمتنزهات والقصور، فغلب الماء على أكثرها.

وقد زعم قوم أنها كانت مقسومة بين ملكين من ولد أبرويت بن مصريم، وكان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البر، حتى باع من أخيه

الكافر حصته من تنّيس، فزاد فيها غروسًا، فجرّ فيها أنهارًا، وبنى مصانع، واحتاج أخوه إلى ما فى يده، فمنعه، وسطا بماله وحشمه عليه، وحقره لفقره.

فقال له أخوه: «فما أراك شاكرًا لله تعالى ـ على ما رزقك، ويوشك أن ينتزع ذلك منك، ويغير نعمته عندك»، فأرسل الله على جناته ومصانعه الماء، فأصبحت خاوية على عروشها، فهما اللذان عنَى الله تعالى بقوله فى سورة الكهف[١].

فتركب السفن من جزيرة تنيس إلى الفرما، وهى مدينة جليلة، كثيرة الخير، وهى فى الساحل، ويذكر أن هاجر أمّ إسماعيل من قرية من قراها تسمى أمّ العرب، وهى على مقربة منها.

والفرما[٢] قديمة البناء، ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليه البحر، وكان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام المجزّع الأبيض.

وقال يحيى بن عثمان: «أرابط بالفرما وبينها وبين البحر قريب من يوم، يخرج المرابطون إلى ساحله، فيقيمون عليه، ثم غلب البحر على ذلك كله» فالفرما اليوم على البحر، فصار ما بين الفرما والقلزم هو الحاجز الذى ذكره الله ـ تعالى ـ فى كتابه، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[٣]؛ وهما بحر الروم وبحر الصين، ولا يتقاربان فى بقعة من الأرض تقاربهما فى هذا الموضع، فإن الذى ما بين الفرما والقلزم مسيرة ليلة واحدة، وبينهما فى غير هذا الموضع مسيرة شهور.

ووجّه ابن المدبر إلى الفرما، وكابتنّيس فى هدم أبواب لها من حجارة فى شرقى الحصن، فاحتاج أن يعمل منها كلسًا، فمنع من ذلك أهل الفرما، فخرجوا إلى رسله فى السلاح، وقالوا: «هذه من الأبواب التى قال الله ـ عز وجل ـ فيها على

---

(١) سورة الكهف، آية ٣٢.

(٢) الفَرَما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهى مدينة حصينة، وبها قبر جالينوس اليونانى، ومن الفرما إلى تَنِّيس نحو فرسخين من البحيرة.
وبينها وبين بحر القلزم أربعة أيام، وهو أقرب موضع بين البحرين. المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٠٣١.

(٣) سورة النمل، آية ٦١.

لسان يعقوب (عليه السلام): ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[١].

ومن عجائب الدنيا نخل الفرما؛ فإنه يثمر حين ينقطع البُسر والرطب من تلك البلاد، ويبتدئ هذا بالأرطاب، حين تلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر، ولا يوجد هذا فى بلد من البلاد سوى الفرما، ويكون منه ما وزن البسرة عشرون درهما، وطولها فِتْر.

* * *

الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية[٢]

تخرج من الفسطاط، فتعبر النيل إلى الجزيرة إلى الجيزة، وهى الضفة الغربية من النيل، وبقرب الفسطاط على رأس ميل منها قرية يقال لها وسيم.

وعن بكر بن سوادة، عن أبى عطية، عن عبيد بن رفيع، قال: «قال لى عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: يا مصرى أين وسيم[٣] من قراكم؟ قال: فقلت: على رأس ميل يا أمير المؤمنين، قال: ليأتينكم أهل الأندلس حتى يقاتلوكم بها».

فلما قام الوليد بن عابرة الأندلسى ببرقة، وحشد الناس، وغزا مصر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، نزل يحاصر مصر من قرية وسيم، وهى على ثلاثة فراسخ من مصر.

ثم تسير من الجيزة إلى ذات الكرم، إلى ترنوط، ويَحْدو الجمّالون، فيقولون:

من ترنوط[٤] إلى ذات الساحل
مرحـــلة أعيـت على المراحــل

(١) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٢) انظر: صورة الأرض ١٣٠ـ١٣١.

(٣) وسيم: قرية على ميل من الفسطاط، وقيل على ثلاثة فراسخ منه. مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٣٧. وتنطقها العامة الآن أُوسيم.

(٤) تَرْنوط: قرية بين مصر والإسكندرية على النيل، وأكثر فواكه الإسكندرية منها. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٠.

وتسير من ترنوط إلى تروجى[1]، قال الحكيم: «تورج»، ثم إلى مدينة الأسكندرية.

وطريق أخرى تركب السفن من الفسطاط إلى محلّة المحروم، ثم إلى مدينة رشيد، وهى مدينة على كثيب رمل عظيم متهيل، إذا هبت الريح الغربية ـ وهى تشتد عندهم ـ ملأت عليهم منه بيوتهم، ولا يقدرون على التصرف فى أسواقهم.

ومن أعجب متنزهات الدنيا ضفتا النيل، من مصر إلى مدينة رشيد، ولا غلة لثمار الأرض كغلات هذه الناحية.

أخبرنى غير واحد أن ضيعة كانت لرجل بقرية منها تعرف بذيبة، وهو رجل من أهل مصر يعرف بابن داود، يغلّ رمانها وموزها فى العام خمسة عشر ألف مثقال، وأشجار رمانهم تطعم من سنتها، وتزداد نماءً وفائدة إلى العام الرابع، ثم تذوى وتبيس، وهناك كانت ضيعة الليث بن سعد ـ رحمه الله.

قال قتيبة بن سعيد: «سمعت الليث بن سعد يقول: يدخل علىّ فى كل سنة خمسون ألف دينار، ما وجبت علىّ زكاة قط»، وكان أجود الناس، لا يبقى شيئًا يزكّيه.

وتسير من مدينة رشيد إلى مصب النيل فى البحر، وهو موضع مخوف على السفن؛ لأن أمواج البحر تعظم هناك مع قوة جريان النيل، فيثير ذلك أكوام رمال تحت الماء، فربما حمل شدّة جريان الماء السفن إلى تلك الرمال، فهلكت، ثم تسير السفن من هذا الموضع فى البحر مسيرة يوم أو أقل إلى الأسكندرية.

فأما الطريق من مدينة رشيد إلى الإسكندرية على البر، تسير منها نحو ثلاثة أميال إلى الغرب فى رمال، ثم تفضى إلى فُوهة بحيرة قد دخلت فى البر أميالاً كثيرة، فتخوض الدواب الماء حتى تقطع تلك البحيرة نحو نصف ميل بعلامات قد وُضعت فى البحيرة، فإذا حادت دابّة عن تلك العلامات سقطت فى بحر بعيد القعر، فهلكت وهلك ما عليها من المتاع أو فسد، إلا إن تدورك وخلص.

---

(١) تَرُوجة: قرية من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية، أكثر ما يزرع بها الكمون. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٠.

ويسمى ذلك الموضع الأُشْتُوم[١]، فإذا عبروا تلك البحيرة، صاروا إلى أجم، وغياض، وهضاب رمال، فساروا فيها نحو عشرة أميال.

ويستعمل الصيادون فى هذا الموضع من الطير غلات جزلة من لحمها وريشها، والطير تخرج من البحر إلى مصايدهم.

ثم تسير بعد ذلك نحو خمسة أميال إلى باب مدينة الإسكندرية، وبقرب هذا الباب من خارج سورها صور أصنام، فإذا دخلت الباب فهناك قبة خضراء على ستة عشر عمودًا من الرخام، ويسرة هذه القبة بساتين كثيرة، فيها جميع الفواكه، وأكثرها الجميز، ويمنة من هذه القبة المدينة والبحر.

ومن تروجَى إلى مدينة الإسكندرية خمسة وعشرون ميلاً.

* * *

ذكر مدينة الإسكندرية[٢]

وذكر أن اسمها رقودة، ولها خمس عشرة كورة، قال عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم: «كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض: منّة، وهى موضع المنارة وما والاها، والإسكندرية وهو موضع قَصَبَة السلطان اليوم، ونَقِيطة، وكان على كل واحدة منها سور»[٣].

وقال عبد الله بن طريف الهمدانى: «كان على الإسكندرية سبعة حصون، وسبعة خنادق»، وقال: «إن الإسكندر لما استقام مُلْكه فى بلاده، سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء، فأتى موضع الإسكندرية، فأصاب أثر بنيان، وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المُسْنَد ـ وهو القلم الأول من أقلام حِمْيَر وملوك عاد ـ: أنا شدّاد بن عاد، شددت بساعدى الواد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال الأطواد، وبنيتُ إِرَم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى

(١) الأُشْتُوم: موضع قرب تَنِّيس، وعنده يصبُّ النيل عن شمالى دمياط. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.
(٢) انظر آثار البلاد ١٤٤ـ ١٤٧ ومراصد الاطلاع ١/ ٧٦ وصورة الأرض ١٤٢.
(٣) فتوح مصر والمغرب ٦٢.

البلاد، أردت أن أبنى هاهنا كإرم، وأنقل إليها كل ذى قَدَم، من جميع العشائر والأمم، وذلك أن لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم، فأصابنى ما أعجلنى، وعمّا ذهبت إليه قطعنى، حال طال مع وقوعها همِّى وشجنى، وقلّ نومى ووَسَنى، فارتحلت عن هذه الدار، لا لقهر جبار، ولا خوف جيش جرّار؛ ولكن لتمام المقدار، وانقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثرى، وعرف خبرى، وطول عمرى، ونفاذ بصرى، وشدة حذرى، فلا يغترّ بالدنيا بعدى»[١].

وقال ابن لهيعة: «بلغنى أنه وُجد حجر بالإسكندرية مكتوب فيه: أنا شدّاد بن عاد، وأنا الذى نصب العماد، وجيّد الأجياد، وسدّ بذراعه الواد، بَنَيْتُهنّ إذ لا موت ولا ميت، وإذا الحجارة فى اللّين مثل الطين».

ثم قال ابن لهيعة: «الأجياد المعادن».

فبعث الإسكندر إلى البلاد، فحشر الصُّنَّاع، واختط الأساس، وجعل طولها وعرضها أميالاً، واستجلب العمد والرخام، وأنواع المرمر والأحجار فى البحر من جزيرة صقليّة وبلاد إفريقية وإقريطش، ووضع على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة، وفصل بها حبالاً مَنُوطة بعضها ببعض، يرجع جميعها إلى عمود رخام كان أمام مضربه.

وعلّق على العمود جرسًا عظيمًا مصوتًا، وعلّق على كل قطعة من الحبال جرسًا صغيرًا، فإذا حُرّك حبل الجرس الكبير الذى عند العمود، خفق الجرس، وتحرّكت سائر الحبال، وخفقت الأجراس بحركات فلسفية، وحيل حكيمة.

وأمر الصنّاع أن يصنعوا أساس المدينة دفعة واحدة، إذا أذنتْهم تلك الأجراس[٢].

فأخذت الإسكندر نعسةٌ فى حال ارتقابه للوقت المحمود الطالع، فوقع غراب على حبل الجرس الكبير، فحرّكه فتحركت الأجراس، فوضع الأساس، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الإسكندر من رقدته وسأل عن الخبر، فأُعلِم بصحة ذلك، فعجب من ذلك، وقال: «أردت أمرًا، وأراد الله غيره، ويأبى

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٥ وفتوح مصر ٦١.

(٢) عن المسعودى ٢/ ٣٨٥.

الله إلا ما يريد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها»[١].

فلما شُيّدت أمر أن يكتب على بابها: «هذه الإسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح، واليُمن والسرور، والثبات على الدهور، فلم يرُد الله - تعالى - ذلك، فبنيتُها على ما أراد، وأحكمتُ بُنيانها، وشيّدت سورها، وآتانى الله من كلّ شىء علمًا، وحكمًا، وسهّل علىّ وُجوه الأسباب، فلم يتعذر علىّ فى العالم شىء مما أردته، صنعًا من الله - تعالى - لى، وصلاحًا لعباده من أهل عصرى، والحمد لله ربّ العالمين».

ورسم بعد هذا كل ما يحدث فيها بعده فى مستقبل الأزمان من الخراب والعمران.

وبنى سورها آزاجًا وطبقات، قد عمل لها مخاريق ومتنفّسات للضياء، يسير فيه الفارس بفرسه، وبيده رُمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج.

وكذلك أسواقها وشوارعها وسككها مقنطرة كلها، لا يصُيب أهلها شىء من المطر.

وكانت الإسكندرية تضىء فى الليل بغير مصباح[٢]؛ لشدة بياض الرخام، وربما عُلّق فيها شقاق الحرير الأخضر؛ لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس.

وقد كان لها سبعة أسوار، من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها، بينها خنادق، بين كل خندق وسور فصيل.

وكان سكان البحر - على ما زعموا - يؤذون بالليل، ويختطفون، فاتّخذ الإسكندر على أعمدة هناك تُدْعَى المسالّ الطلسمات، وهى باقية إلى هذه الغاية، كل عمود منها على هيئة السروة، طولها ثمانون ذراعًا، على عمد من نحاس، وجعل تحتها صورًا وأشكالاً، وكتابة تدفع وتمنع.

وقد ذكر أيضًا فى غير هذه القصة، وفى غير هذا الكتاب، ما كان من دخوله البحر فى التابوت، ورؤيته أشخاص تلك الدوابّ المضرّة للبناء وغير ذلك.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٦.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٣٨٦.

فلما صنع أمثالها، وجعلها على الأسوار، خرجت من النيل تلك الصور على حالها، وظنت أن ذلك يصنع بها إذا خرجت وامتنعت عن الخروج، والله أعلم بكيفية ذلك كله[١].

* * *

ذكر منارة الإسكندرية[٢]

فأما المنارة فذهب كثير من الناس أن الإسكندر بناها على حسب ما ذكرنا فى المدينة، ومنهم من رأى أن دَلُوكَة الملكة بَنَتْها، وقال بعضهم إن العاشر من فراعنة مصر بناها، وقيل إن الذى بناها هو الذى بنى مدينة رومة.

وبنى الإسكندرية والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر؛ لشدة استيلائه على ممالك العالم، وإن الإسكندر لم يطرقه فى البحر عدو، ولا هاب ملكًا يرد إليه، فيكون يجعل مرقبًا[٣].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «كان أول من ملك الإسكندرية فرعون، اتخذها مصانع ومجالس، وهو أوّل من عمّرها، ثم تداولها الملوك بعد فرعون، فبنت دلوكة بنت زبّان منارها، ثم تداولها الملوك، فلما كان سليمان ﷺ اتخذها مجلسًا، وبنى فيها مسجدًا.

ثم إن ذا القرنين هدم ما كان فيها من بناء الملوك، إلا بناء سليمان، فإنه أصلح ما كان رثّ فيه، وأقرّا المنارة على حالها، وبنى الإسكندرية من أوّلها هذا البناء، ثم تداولها ملوك الروم وغيرهم، فكل ملك أبقى فيها أثرًا، فيقال إن فيلبس بن الإسكندر المقدونى، المعروف بالبناء، هو الذى بنى الإسكندرية، وهو الذى كان معلمه أرسطاطاليس، وبين بناء الإسكندرية وبين الهجرة تسعمائة سنة، وخمس وأربعون سنة، وأحد وأربعون يومًا.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٨.

(٢) انظر فى وصف المنارة: رحلة ابن جبير ١٤-١٥ وآثار البلاد ١٤٥ وصورة الأرض ١٤٢ والموسوعة المصرية ١/ ٤٨٨.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٨٩.

وقد ذكرنا فى أخبار ملوك مصر أن أول من بناها جيرون، بأمر حوريا، على ما سقناه من أمرها.

ومنهم من رأى أن أول من بناها قلوبطرة، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، وهى التى بلطت قاعته.

وإن الذى بنى المنارة جعلها على كرسى من زجاج، على هيئة السرطان، فى جوف البحر على طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر، وجعل طولها فى الهواء ألف ذراع، وجعل فيها المرآة وتماثيل النحاس، فمنها تمثال[١] قد أشار بسبَّابة يده اليمنى نحو الشمس حيثما كانت من مغرب أو مشرق أو أفق، وتمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو فيه على نحو ليلة، فإذا دنا وأمكن أن يُرى بالبصر، سُمع له صوت هائل على ميلين أو ثلاثة.

وتمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سُمع له صوت مُطْرب، بخلاف الصوت الذى كان منه فى الساعة قبل.

وهذه المنارة من دخلها تلف فيها، إلا أن يكون عالمًا بها؛ لكثرة بيوتها وحجراتها وطبقاتها.

وذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر[٢]، فى جيش صاحب المغرب، دخل جماعة منهم على خيولهم المنارة، فتلفوا فيها، وفيها طرق تؤول إلى مهاوٍ إلى سرطان الزجاج، ومخاريق إلى البحر، فتهوّروا بدوابّهم، وفقد منهم عدد كبير[٣].

وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه المطوّعة.

وكان حول المنارة مغاوص، تستخرج منها أنواع جوهر يُتخذ منه فصوص الخواتم، منها الأسباذ جُشَم، والكركهن، والباقَلَمون، وهذا الباقلمون حجر يتلّون فى المنظر ألوانًا مختلفة، كتلوّن ريش الطاوس الهندية؛ فإنها تتلون ألوانًا لا تحصى، ولا تشبه بلون من الألوان لما يترادف من تَموج الألوان فى ريشها.

(١) آثار البلاد ١٤٥.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٩٢.
(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٩٢.

ولتلك الطواويس شأن عجيب، وخلق عظيم، وما خرج منها من أرض الهند صغر جسمه، وكدر لونه، كما يفعل ما نقل منها من النارنج والأترجّ، فإنها تصغر، وتعدم تلك الأرواح العطرية؛ لعدم ذلك الهواء والتربة.

فمن الناس من رأى أن الإسكندر غرق هذه الأنواع من الجواهر حول المنارة، لكى لا تخلو من الناس؛ لأن من شأن الجواهر أن تكون مطلوبة على الأعصار، وقيل إنها كانت آلات شراب الإسكندر، فلما مات كسرتها أمُّه، ورمت بها فى تلك المواضع.

وقد كان ملك الروم فى خلافة الوليد بن عبد الملك، أنفذ خادمًا من خواصّ خدمه، ذا دهاء ورأى ووطأة على ما يذكره، فجاء مستأمنًا إلى بعض الثغور، فحُمل إلى الوليد، فأعلمه أنه كان من خواص الملك، وأنه أراد قتله لموجدة لم يكن لها أصل، وأنه رغب فى الإسلام، فأسلم.

وأظهر له النصح للوليد فى دفائن، استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت له، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر، شرهت نفسه، واستمكن طمعه، وباحث عما عنده من علم هذا، فقال: «إن الإسكندر لما استولى على الأموال، والجواهر التى كانت لشدّاد بن عاد، وملوك العرب، وغيرهم، بنى لها الآزاج، والسراديب، والأقباء، وأودعها تلك الذخائر من الأموال والجواهر، ثم بنى فوق تلك المنارة».

فبعث معه الوليد بأناس من خواصّه وثقاته، فهدم نصف المنارة، وأزيلت المرآة، فضجّ الناس من أهل الإسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة، فلما استفاض ذلك هرب فى الليل فى مركب قد كان أُعدّ له، فبقيت المنارة على ما ذكرنا إلى هذا الوقت[1].

* * *

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٩٠.

صفة المنار اليوم وارتفاعه [١]

وأما المنار اليوم[٢] فهو ثلاثة أحزم: الأول مربع البناء، قد عمل أحسن عمل من الحجارة المربعة التى قد أخفى إلصاقها حتى صارت كالحجر الواحد، ولم يغير الزمان من ذلك شيئًا، وارتفاع هذا المربع ثلاثمائة ذراع وعشرون ذراعًا بالذراع المعروفة.

ثم ترك فى أعلاه غلظ حائط البناء، وهو ثمانية أشبار ونحو عشر أذرع سوى ذلك الغلظ، ورفع على ما بقى من البناء بناء مثمّن الشكل، طوله ثمانون ذراعًا، ثم بنى على هذا البناء المثمَّن، بعد أن ترك غلظ حائطه، وهو أقل من غلظ الأسفل، وثمانى أذرع سوى ذلك الغلظ، عليه بناء مربع، ارتفاعه خمسون ذراعًا أو نحو هذا.

وفى أعلى ذلك مسجد محكم البناء ينسب لسليمان، وفى الناحية الشمالية من البناء المثمّن كتابة بالنحاس لم يفكّها أحد.

وباب المنار من حديد لا يعلم له عهد، يرقى إليه من أسفل المنار فى علو، ويصعد من أسفلها إلى أعلى بنائها الأول، فى طريق يمشى فيه فارسان متواكبان

---

(١) انظر: الأعلاق النفيسة ٨٠ وآثار البلاد ١٤٦ـ١٤٧.

(٢) وصفه ابن بطوطة فى رحلته ٣٩ـ٤٠ قصدتُ المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدِّمًا، وصِفَتُه أنه بناءٌ مُرَبَّعٌ ذاهبٌ فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل.
وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض المَمَرّ بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرًا، وهو على تَل مرتفع، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحدٌ فى بَرٍّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتّصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصّل إلى المنار فى البرِّ إلاَّ من المدينة.
وفى هذا البرِّ المتَّصل بالمنار مقبرة الإسكندرية.
وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة وجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه».

فى أرض سهلة، لا يكاد يعلم الراقى فيه هل هوراقٍ أو ماشٍ فى سواء من الأرض.

وفى كل عطف من هذا المصعد باب دار داخلها بيوت مربعة، سعة كل بيت من عشرين ذراعًا إلى عشر أذرع، قد فتح لها مضاوٍ متنفّسات للهواء، ولئلا تهدّمها الرياح.

وعدد ما فيها من البيوت ثلاثمائة وستة وستون بيتًا، وعطف مطالعها من أسفلها إلى أعلاها اثنان وسبعون عطفًا، فى كل عطف اثنتا عشرة درجة، وبيوتها كلها آزاج معقودة.

وبناء المنار كله معقود بخشب الساج، وعدد أبوابها الظاهرة من خارجها اثنان وعشرون بابًا، فتحت فيها لئلا تهدمها الرياح.

والبحر قد أثر فى أسفل المنارة من غربيّها، حتى صار تحتها كالكهف العظيم، فسدّ بعض أمراء مصر ذلك الثلم بأساطين الرخام بعضها فوق بعض، فالبحر يضرب اليوم فى تلك الأساطين، ولا يؤثر فيها شيئًا.

وفى الشمال من المنارة بناء عريض واسع، قد رفع من قعر البحر، حتى ظهر على الماء، يدل على أنه كانت عليه مصانع قد ذهبت، ويسمى ذلك البنيان الفاروس، وفى أسفله ترفأ السفن؛ لأن ذلك البناء يكف عنها الموج.

وقد زعم قوم أن ذلك الظاهر ليس ببناء، إنما هو مما هدم من حجارة المنارة، والله أعلم.

وتسير من الإسكندرية إلى المنارة، فتخرج على باب الأشتوم، وتسير على ضفة البحر نحو نصف ميل، ثم تميل نحو الشمال فتسير نحو ذلك، ثم تسير على بناء فى البحر كالقناطر، ولها منافس، والبحر يضرب من جانبيه نحو أربعمائة خطوة، فإذا خرجت من ذلك البناء صرت فى فضاة داخلة فى البحر كأنها جزيرة.

والمنار فى أعلى هضبة منها، وقد أحاط البحر بالمنارة من ناحية الجنوب، والشمال، والغرب.

ولهذه المنارة مجمع فى العام، فى يوم يسمّونه بخميس العدس، وهو أول

خميس من شهر بابه، لا يتخلف فى مدينة الإسكندرية أحد إلا خرج إلى المنارة، وقد تقدموا فى إعداد الأطعمة، ولابد فى ذلك الطعام من عدس، فيفتح بابها للناس، فيصيرون فيها.

فمِن ذاكر الله عز وجل ومصلٍّ، ومن لاهٍ متفرّج، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون.

وسمع الليث بن سعد، مسلمة بن على يقول: «بارك فى العدس سبعون نبىٌّ»، قال الليث: «إلا نبى واحد، وإنه لردىء مؤذٍ».

ومن ذلك اليوم يبتدأ بإحراس البحر، ولهم فى المنارة قوم مرتّبون لذلك من النصارى، فهم يوقدون النار الليل كله فى أعلى الحزام الأول من ناحية البحر، فيؤمّ أهل السفن من جميع البلاد سمت تلك النار، ويوقد صاحب السفينة النار، فإذا رأى المحترس نارًا فى البحر زاد فى وقوده، وأوقد نارًا أخرى إلى ناحية المدينة.

فإذا رأى ذلك الذين بالمدينة، زادوا فى ضرب البوقات والأجراس؛ حذرًا من العدو، فاستعد أهل المدينة لذلك.

قال: «والقصر الأعظم بالإسكندرية خراب، وهو على ربوة عظيمة بإزاء باب المدينة، طوله خمسمائة ذراع، وعرضه على النصف من ذلك أو نحوه، ولم يبق منه إلا سواريه، فإنها قائمة لم يسقط منها شىء.

وبابه أحكم البناء وأتقنه، كل عضادة منه حجر واحد.

وعدد أساطين القصر أزيد من مائة أسطوانة، غلظ كل أسطوانة نحو عشرة أشبار، وفى ناحية الشمال منه أسطوانة عظيمة غلظها ستة وثلاثون شبرًا، وهى من الارتفاع بحيث لا يدرك أعلاها قاذف بحجر، وعليها رأس محكم الصناعة، يدل أن بناءً كان عليها، وقاعدتها حجر أحمر مربع محكم، عرض كل ضلع من أضلاعه اثنان وعشرون شبرًا فى ارتفاع ثمانية أشبار.

والأسطوانة منزّلة فى عمود قد خرقت به الأرض، فإذا اشتدت الرياح جعلت تحت الأسطوانة الحجارة، فتطحنها لشدة حركتها.

وبمدينة الإسكندرية كان الهيكل الأعظم الذى اجتمع فيه ثلاثمائة أسقف، وثمانية عشر أسقفًا، فأسسوا القول بالتثليث، وكفّروا من خالفهم، وذلك فى زمن قيصر يولش.

وقال حمزة بن محمد المصرى إن بعض ولاة مصر دخل الإسكندرية، فنظر إلى قصر عظيم من بناء الأوّلين، فدعا الصنّاع فسألهم أن يبنوا له مثله، فقام إليه شيخ منهم، فقال له: «أنا أبنى لك مثله إن أزحت علىّ» فقال: «سل»، قال: «ائتنى بثورين مطيقين وعجلة»، فأمر له بذلك، فدخل مقابر الإسكندرية، واحتفر فى قبورها، فاستخرج جمجمة عظيمة، فوضعها فى العجلة، فما جرّها الثوران إلا بعد جهد، فجاءه بها فقال: «أصلح الله الأمير، إن أعطيتنى من تكون رؤوسهم مثل هذا الرأس بنيت لك مثل هذا القصر»، فعلم أنه لا حيلة له فيه.

وقال حمزة بن محمد المصرى: «رأيت بالإسكندرية عند قصّاب ضرس إنسان يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال».

والإسكندرية كلها دفائن وكنوز، فإذا أمطرت مطرًا شديدًا، وسال ترابها مع الماء، خرج الرجال والنساء والصبيان من المدينة يلتمسون حواليها، فيجدون قطع الذهب والفضة، من الحلَى وغيره، والدرّ والياقوت والزمرد، وليس يرجع أحد منهم بغير شىء.

وإذا زاد النيل فى أيام زيادته، دخل فى الخليج الذى صنع لذلك حتى يصل إلى الإسكندرية، فإذا وصل إلى أعلى المدينة، ولهم هناك آبار مصنوعة ومواجل، فيسقون منها بالسواقى من ماء النيل، ويصبّون فيها، فيجرى الماء منها فى قَنىً قد أحكمت إلى آبار فى دور المدينة من عمل الأُوّل، وذلك أكثر من ثلاثة أميال.

وليس بمدينة الإسكندرية دار إلا فيها بئر وماجل، فإذا وصل الماء إلى الآبار استسقى أهل الآبار، وصبّوا فى المواجل، فيشربون منه باقى عامهم.

وكان بالإسكندرية دار ملعب، قد بُنيت بضرب من الحكمة، لا يرى أحد فيها شيئًا دون صاحبه، ووجه كلّ جالس فيها تلقاء وجه صاحبه، إن عمل أحد منهم شيئًا، أو تكلم، أو نفث، سمعه ونظر إليه جميعهم سماعًا ونظرًا متساويًا قريبهم وبعيدهم.

وكانوا يترامون فيها بالكرة، فإذا وقعت فى كمّ أحد منهم، فلابد له من ولاية مصر، كان هذا عندهم معروفًا لا يشكّون فيه.

وإن عمرو بن العاص سافر إلى الإسكندرية قبل الإسلام تاجرًا بالقطن والأدم، فحضر ذلك الملعب، فلعبوا بالكرة، فدخلت كمّه ثلاث مرات، فقالوا: «كذَّبَتْنَا هذه الكرة هذه المرة»، فأتى الله عزو جل بالإسلام، وفتحت مصر، ووليها عمرو ثلاث مرات.

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: «لما غزا عمرو بن العاص الإسكندرية من مصر، فلم يقدر عليها، وذلك بعد تسعة أشهر من موت هرقل، غمّه ذلك فاستلقى على ظهره مطرقًا، ثم جلس فقال: إنى فكرت فى هذا الأمر، فإذا هو لا يُصْلِح آخره إلا ما أصلح أوله؛ يريد الأنصار، فدعا عُبادة بن الصامت، فعقد له على حربها، ففتحها الله على يديه، وفتحت يوم الجمعة مستهلّ المحرّم سنة عشرين عنوة، بغير عهد ولا عقد، ولم يكن بصلح ولا بأمن»[١].

ولم يكن بالإسكندرية خِطط، إنما كانت أخايذ، مَن أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه.

ونزل عمرو بن العاص القصر الذى صار لعبد الله بن أبى سرح، ويقال إن عمرا وهبه له لمّا وليها.

قال يزيد بن أبى حبيب: وكان المسلمون ينزلونها فى رباطهم، فإذا قفلوا ابتدر الواردون منازلها، فمن ركز رُمْحه فى دار كانت له، فتنزل الدار القبيلتان والثلاث.

فكان يزيد بن أبى حبيب يقول: «لا يحلّ من كرائها شىء، ولا يبيعها ولا يُورَّث منها شىء، إنما كانت للمسلمين يسكنونها فى رباطهم»[٢].

فقال عوف بن مالك لأهل الإسكندرية: «ما أحسن مدينتكم يا أهل الإسكندرية»، فقالوا إن الإسكندر قال حين بناها: «إنى أبنى مدينة إلى الله فقيرة،

---

(١) فتوح البلدان ٣١٢.

(٢) فتوح البلدان ٣١٢.

وعن الناس غنية»، فبقيت بهجتها، وإن الفرما ـ وهو أخو الإسكندر ـ بنى الفرما، وقال: «إنّى أبنى مدينة، عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة»، فذهبت بهجتها، ولا يزال ينهدم منها كل يوم شىء ولا ينجبر، وبقيت الإسكندرية بجِدّتها.

وروى بعض المصريين أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما دخل الإسكندرية وهو إذ ذاك أمير مصر قال لعاملها لما رأى آثارها وعجائبها: «أخبرنى كم كان عدد أهل الإسكندرية فى أيام الروم»، فقال: «والله يا أمير ما أدرك علم هذا أحد، ولكن أخبرك كم كان بها من الملوك، فإن ملك الروم أمر بإحصائهم، فوجدهم ستمائة ألف»، قال: «فما هذا الخراب الذى أرى بأطرافها؟» قال: «بلغنى عن بعض ملوك فارس حين ملكوا مصر، أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم بمصر لعمران الإسكندرية، فأتاه كبراء أهلها، فقالوا: أيها الملك لا تتعب فى هذا، فإن ذا القرنين أقام على بنائها مرة، وانتهت عمارتها وتمت بعد ثلاثمائة سنة، وأنه أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون إلا بخرق سود فى أيديهم، خوفًا على أبصارهم من شدة بياضها».

وذكر الليث بن سعد عن زهرة بن معبد، قال: «قال لى عمر بن عبد العزيز: أين تسكن من مصر؟، قلتُ: أسكنُ الفسطاط. قال: أف، فأين أنت عن الطيّبة؟ قال: قلت: فأيتهنّ الطيبّة؟ قال: الإسكندرية، فعزمت عليك لتسكنها أبا عقيل، ثم قال: ما على الأرض بلدة أحبّ إلىّ أن يكون قبرى فيها من الإسكندرية».

قال الليث: «ثم عدنا أبا عقيل وهو شديد الوجع، ونحن خائفون عليه، فعدناه غداة يوم فقال: رأيت الليلة عمر بن عبد العزيز فى النوم، فقال: أين تسكن أبا عقيل؟ قلت: الإسكندرية، كما عزمت علىّ، قال: أبشر فى ذلك بما يسرّك فى دنياك وأخراك مرّتين، فقلت: الحمد لله».

وقال أحمد بن صالح: قال سفيان بن عُيينة: «الإسكندرية كنانة الله، يجعل فيها خير سهامه».

وقال عبد الله بن مودق الصدفى: «لما نُعى إلىّ ابن عمى خالد بن يزيد، وكان توفى بالإسكندرية، لقينى عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، مفترقين كلاهما، قال لى: أليس قد مات بالإسكندرية؟

فأقول: بلى، فيقول: هو حىّ عند الله يرزق، ويجُزى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك».

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن إرم ذات العماد هى الإسكندرية، وقال الناظرون فى الأعمار، والأهوية، والبلدان، وترب الأقاليم والأمصار: «لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمريوط، قرية من قرى الإسكندرية ووادى فرغانة، ومريوط بقرب مدينة الإسكندرية، قرية كبيرة لها بساتين كثيرة، ومنها تجلب الفواكه إلى الإسكندرية، ولوزها رقيق القشر يُحتّ باليد».

وقد ظهر فيمن بقى بالإسكندرية بعد فتحها من الروم، منويل الخصّى[1]، وعادوا حربًا على المسلمين.

قال الليث بن سعد: «قال يزيد بن أبى حبيب: جاءت الروم، وعليهم منويل الخصّى فى المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، وقد كان عثمان عزل عمرو بن العاص، وولّى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح، فسأل أهل مصر عثمان أن يُقّر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم، ففعل، وكان على الإسكندرية سور لا يعدل به فى الحصانة والإتقان والمنع، فنذر عمرو لئن أظهره الله عليهم لَيَهْدِمَنّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية، يؤتَى من كل مكان».

فجيَّش إليهم عمرو فى البر والبحر.

قال الليث: «وكان معه المقوقس فيمن أطاعه من القبط، فأما الروم فلم يُعطه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضْهم قبل أن يكثر عددهم، ولا أمْن أن تنتقض مصر كلُّها، فقال عمرو: لا، ولكن أَدَعُهم حتى يسيروا إلىّ، فيصيبوا من مَرُّوا به من الروم، فيُخزى الله ببعضهم بعضًا.

فخرجوا من الإسكندرية، فجعلوا ينتهبون ما مروا به، فلم يَعْرِض لهم عمرو حتى بلغوا نَقْيُوس، فلقوهم فى البر والبحر، فرمت الروم بالنُّشَّاب رميًا شديدًا، حتى أصابت يومئذ لَبّة فرس عمرو، فعُقِر واستأخر المسلمون عنهم، فحملوا حملة ولّى المسلمون منها، وانهزم يومئذ شريك بن شحيم فى خيله.

(١) فتوح البلدان ٣١٢-٣١٣.

ثم نصر الله ـ عز وجل ـ المسلمين، وهزم الروم، وقتلوهم قتلاً ذريعًا، إلى أن أمر عمرو بن العاص برفع السيف فى الموضع الذى يسمى بمسجد الرحمة، وإنما سمى بهذا الإسم لرفع عمرو السيف هناك.

وهدم سورها كله، وذلك سنة خمس وعشرين، وأقام عمرو بعد فتحها شهراً ثم عزل، وقد كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يكون عمرو على الحرب، وعبد الله بن أبى سرح على الخراج، فأبى عمرو وقال: أكون كماسك البقرة بقرنيها، وغيره يَحْلِبُها».

* * *

ذكر المشهور من المدن والقرى فى الطريق من مصر إلى برقة والمغرب كله [١]

ترنوط[٢]: وهى قرية جامعة على النيل، بها أسواق ومسجدجامع وكنيسة وخراب كثير، خربتها كتامة إذ كانوا بها هناك مع أبى القاسم بن عبيد الله الشيعى وأكثر بنيانها بالآجر وبها معاصر سكر.

فمن ترنوط إلى المنَى:ـ وهى ثلاث مدن قائمة البنيان خالية، فيها قصور شريفة فى صحراء رمل وبها قطع فيها الأعراب على الرفاق، وتلك القصور (محكمة البناء منجدة الجدر وأكثرها على آزج معقودة) يسكن بعضها رهبان، وبها آبار عذبة قليلة الماء.

ومنها إلى أبى مينى: وهى كنيسة عظيمة فيها عجائب من الصور والنقوش توقد قناديلها ليلاً ونهاراً لا تطفأ، وفيها قبو عظيم (فى أحد مبانيها) فيها صورة جملين

(١) من هنا يبدأ المطبوع بعنوان المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى.

(٢) تَرْنوط: فحص على ستَّة أميال من المهديّة، منه زاحف أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار المهدية، وبه كانت محلّته أيام حصاره لها. وفى كتب الحدثان: إذا ربط الخارجى خيله بترنوط لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط ـ أهل السواد أهل الساحل ـ وفيها: وَيْلٌ لأهل السواد من مخلد ابن كيداد. الروض المعطار ١٣٣.

من رخام عليهما صورة إنسان قائم رجلاه على الجملين، إحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة، يقال إنها صورة أبى مينى، كل ذلك من رخام.

وفى هذه الكنيسة صور الأنبياء عليهم السلام كلهم، صورة زكريا ويحيى وعيسى فى عمود رخام عظيم على ذات يمين الداخل يغلق عليها باب، وصورة مريم قد أسدل عليها ستران، وصورة سائر الأنبياء.

ومن خارج الكنيسة صور جميع الحيوان وأهل الصناعات، من جملتها صورة تاجر الرقيق ورقيقه معه وبيده خريطة مفتوحة الأسفل، يعنى أن التاجر بالرقيق لا ربح له.

وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمانى صور يزعمون أنها صور ملائكة، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابه إلى القبلة (لا يصلى فيه إلا المسلمون) حولها ثمار كثيرة (وعامتها اللوز الأملس والخروب المعسل الرطب ويعقد منه الأشربة، وكروم كثير) تحمل أعنابها وشرابها إلى مصر.

ويقولون إن سبب بنيان هذه الكنيسة: أن قبرًا كان فى موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلاً من أهلها كان مقعدًا، فزال عنه حماره فزحف فى طلبه ليصرفه حتى وصل إلى القبر، فلما صار عليه (يتبصر القبر) انطلق ماشيًا، فمشى إلى حماره واستوى عليه راكبًا (وانصرف إلى موضعه صحيحًا.

فتسامع الناس ذلك فلم يبق عليل إلا قصد ذلك القبر فجلس عليه فأفاق، فبنيت عليه هذه الكنيسة، وقصدها أولو الأسقام ليستشفوا بها، فبطل ذلك بعد بنائها. ويؤدى من القسطنطينية إلى هذه الكنيسة (فى كل عام ألف دينار).

وذات الحمام:ـ وهى سوق (جامعة بها) جامع بناه زيادة الله بن الأغلب منصرفًا من المشرق إلى أفريقية، بإزائه بئر طيبة حولها جباب وبساتين وبها قصر خرب يتداول سكناه روابط صاحب مصر.

وسميت ذات الحمام لأن كل من شرب من مائها حمّ إلا من عافاه الله، ولذلك يقول الحداة: ربّ سلّمنا من الحجاز وغلاها ومن مصر ووباها ومن ذات الحمام وحماها.

وأما الحنية فهى شطر حنية قائمة فى وسط فحص بينها وبين البحر شُرف يقال إنها كانت باب الإسكندرية، وينزل حولها لواته ومزاته خصائص، وبين الحنية وذات الحمام مائدة رخام أسود يقال إنها كانت مائدة فرعون تحتها جبّ يعرف بالتيس.

والكنائس: وهى ثلاثة قصور مهدمة بالقرب منها عقبة تعرف بآبار قيس، وهما بئران عذبتا الماء بعيدتا الأرشية.

ومن جب العوسج إلى قباب معان بينهما ثلاثون ميلاً، وهى جباب حولها هذه القباب وهى المعروفة بخرائب القوم.

قال محمد: خرائب القوم مدينة خربها الروم، فيها جباب، وبغربى خرائب القوم قصر أبى معد نزار بن خالد بن يحيى بن بابان، فنزله من قريش من قرابة جبير بن مطعم نحو عشرين بيتًا وأحياء كثيرة من بنى مدلج ومن قبائل البربر نحو ألف بيت من فاضلة وبنى عقيدان.

ويذكر أن كثيرًا ما تتبدل صورة المولود عندهم فتصير فى خلق الغول والسعلاة وتعدو على الناس حتى تغلّ وتقيّد. قال محمد بن يوسف: أخبرنى محمد بن قاسم صاحب إِستِجة(١) أنه صح عنده ذلك أو شاهده.

ومنها إلى مدينة الرمادة(٢): وهى مدينة لطيفة بقرب البحر، لها سور ومسجد جامع وحولها بساتين بأنواع الثمار، وبالقرب منها قصر الشماس وفيه عمارة يسيرة. ومن خرائب القوم إلى مدينة الرمادة خمسة وثلاثون ميلاً.

ومنها إلى خرائب أبى حليمة: وهو قصر معمور به سوق وآبار خمس وجباب على البعد، فإذا أتيت قصر الروم، وهى أقباء طوب يشرف عليها جبل فى سفحه جباب ماء (أكبرها تعرف بالطفلة، فإذا جئت وادى مخيل، وهو حصن فيه جامع

(١) إِستِجة: كورة بالأندلس تتّصل بأعمال ريَّة، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة. مراصد الاطلاع ١/ ٧٠.

(٢) الرّمادة: موضع بين الإسكندرية وبرقة، وهى أوّل منازل البربر، يسكنها قوم من مزاتة وغيرهم من العجم الغدم، وبها قوم من العرب من بلى وجهينة وبنى مدلج وأخلاط. الروض المعطار ٢٦٩.

وله سوق عامرة حواليه جباب ماء) وبرك، وليس ينبط فيه ماء، وهو راخى السعر كثير الخير بينه وبين أجدابيه خمس مراحل.

بَرْقَة: واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس تفسيره: خمس مدن وصار إليها عمرو بن العاص حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفًا يؤدونها إلى جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم(١).

قال الليث بن سعد: كتب عمرو بن العاص على لواته فى شرطه عليهم أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية، وسمع عمرو يقول على المنبر لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به. ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين(٢).

ومدينة برقة فى صحراء حمراء التربة والمبانى فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها. وعلى ستة أميال منها الجبل، وهى دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقّة فوق جبل وعر لا يرقى إليها فارس على حال، وهى كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفاكهة، وتتصل بها شَعْراء عريضة من شجر العرعر.

وبمدينة برقة قبر (رويفع)(٣) صاحب رسول الله ﷺ وحول مدينة برقة قبائل من لواته ومن الأفارق.

وفى الطريق من برقة إلى إفريقية وادى مسوس فيه قباب خربة وجباب يقال إن عددها ثلاثمائة وستون، وبها بساتين، وفى هذا الوادى التربة التى يغلى منها العسل.

* * *

(١) فتوح البلدان ٣١٤ـ٣١٥ وفتوح مصر والمغرب ١٩٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٩٧.

(٣) انظر: رحلة التجانى ١٢٤ وترجمته فى أسد الغابة ٢/ ١٩١.

ذكر مدينة أجدابية[١]

وهى مدينة كبيرة فى صحراء أرضها صَفًا وآبارها منقورة فى الصَّفا طيبة الماء، وبها عين ماء عذب ولها بساتين لطاف ونخل يسير، وليس بها من الأشجار إلا الأراك، وبها جامع حسن بناه أبو القاسم بن عبيد الله، له صومعة مثمنة بديعة العمل، ولها حمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة، وأهلها ذوو يسار وثروة وأكثرهم أقباط، وبها نبذ من صرحاء لواته، ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور له ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً.

وليس لمبانى مدينة أجدابية سقوف خشب، إنما هى أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها. وهى راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجلة أصناف التمور.

* * *

ذكر مدينة سُرْت[٢]

وهى مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور طوب وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قبلى، وجوفى، وباب صغير إلى البحر ليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة، وذبائحهم المعز ولحمانها عذبة طيبة ليس يؤكل بطريق مصر أطيب من لحومها.

وأهل سرت من أخَسِّ خلق الله خلقًا، وأسوأهم معاملة[٣] لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وربما نزل المركب بساحلهم موسقًا بالزيت ـ وهم أحوج الناس إليه ـ فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها ثم

---

(١) انظر: مراصد الاطلاع ١/ ٣٠ وينسب إليها صاحب كفاية المتحفظ فى اللغة (ابن الأجدابى).

(٢) سُرْت: مدينة على بحر الروم بين برقة وطرابلس الغرب وأجدابية فى جنوبها إلى البر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٤.

(٣) الروض المعطار ٣١٢.

يصفّونها فى حوانيتهم وأفنيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر، فلو أقام أهل المركب عندهم ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلا على حكمهم.

وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة وهم يغضبون من ذلك.

قال الشاعر يهجوهم: [من الوافر]

عَبِيـــدُ قُرُلَّةٍ شَـرُّ البَـرَايا ... معاملـةً وأَقْبَحُهُـمْ فعَـالاً
فَلا رَحِمَ المهيمنُ أَهْلَ سرت ... ولا سقـاهم عـذبًا زلالا[1]

وقال آخر: [من السريع]

يا سرت لا سُرَّت بك الأنفس ... لسان مـدحى فيكم أخرس
ألبستـم القبـــح فلا منظـر ... يروق منكم لا ولا ملبس
بخستم فى كل أكرومـــــة ... وفى الخنا واللوم لم يبخسـوا

ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربى ولا عجمى ولا بربرى ولا قبطى لا يعرفه غيرهم، وهم على خـلاف أخـلاق أهـل أطرابلس، فإن أهل أطرابلس أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرّهم بغريب.

ومن سُرْت إلى أطرابلس عشر مراحل، ومن سرت إلى أجدابية ست مراحل، ومن أجدابية إلى برقة ستّ مراحل أيضًا.

* * *

ذكر مدينة أطرابلس[2]

ويذكر أن تفسير أطرابلس بالأعجمية الإغريقية: ثلاث مدن، وسماها اليونانيون طربليطة وذلك بلغتهم أيضًا ثلاث مدن: طر معناه ثلاث، وبليطة يعنى مدينة.

ويذكر أن (أشفاروش قيصر) هو الذى بناها. وتسمى أيضًا مدينة أطرابلس مدينة إياس.

(١) البيتان بلا نسبة فى الروض المعطار ٣١٢.
(٢) انظر: رحلة التجانى ٢٣٧_٢٤٥.

وعلى مدينة أطرابلس سور صخرى جليل البنيان وهى على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة.

وبأطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب[1] مقصود، وحولها أقباط فى ذى البربر كلامهم بالقبطية، فى قرارات فى شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام إلى موضع يعرف ببنى السابرى، وفى القبلة مسيرة يومين إلى حدّ هوارة. وفيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح.

ومغداس:ـ ومنها إلى قصور حسان مرحلة، ومن سرت إلى مغداس مرحلة ومن قصور حسان إلى الراشدة ـوهى بئر شريب سماها بهذا الاسم حسان بن النعمان هذا، وأنت تتوجه من مصر إلى المغرب.

ومغداس: هو صنم قائم على شاطئ البحر حوله أصنام وبه قصر بناه الأعرابى عامل سرت لبنى عبيد الله.

وبمغداس التقى أبو الأحوص بن عمرو العجلى مع أبى الخطاب عبد الأعلى بن الشيخ القائم بدعوة الإباضية، فاقتتلوا على البحر فانهزم أبو الأحوص العجلى إلى مصر واحتوى أبو الخطاب على معسكره وقتل بشرًا كثيرًا من أصحابه وانصرف إلى أطرابلس، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة.

ولما قتل زهير بن قيس ببرقة استعمل عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى على أفريقية، فخرج إليها فى المحرم سنة ثمان وستين، فلقى عساكر الكاهنة بأرض قابس وعلى مقدمتها القائد الذى كان مع كسيلة بن لهزم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان بطريق مصر.

وقتل من أصحابه عدد كثير وأسر منهم نحو ثمانين رجلاً، فأحسنت الكاهنة إليهم وأطلقتهم غير واحد وهو يزيد بن خالد القيسى، فوصلوا إلى حسان

(١) قال التجانى فى رحلته ٢٤٧ «وأثنى البكرى على مسجد الشعاب وهو الآن خَرِبٌ».

وأخبروه بخبر يزيد، فسر بذلك حسان وكتب إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة ويسأله أن يمده بالجيوش.

فكتب إليه عبد الملك أن يقيم بمكانه، فبنى هناك قصرين وهما اليوم خربان حولهما ماء زعاف برز فى بئرين وبها جباب كثيرة.

والقصر الأبيض هو قصر خرب، وهو أدنى المراحل إلى خرائب أبى حليمة على ظهر العقبة بقرية جب خرب.

قال محمد ـ وهو حدثنا وآخر ذات الحمام ـ قال محمد: حدثنى تميم عن أبيه عن فرات عن أبى المهاجر قال: أخبرنى بعض الإسكندرانيين أن رسول الله ﷺ قال «من كثرت ذنوبه فليلقى لوبيا وراء ظهره» قال: والقصر الأبيض أخر حد لواته أيضًا، ويسكن تحت تلك العقبة مزاته.

ومدينة أطرابلس المذكورة كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين حليلة فى شرقيها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة، يرفع منها الملح الكثير.

وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر أبى الكنود (وهم يُعَيَّرون به ويحمق من يشرب منه، فيقال للرجل إذا أتى بما يلام عليه: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبى الكنود. وأعذب آبارها بئر القبة.

وذكر الليث بن سعد قال: غزا عمرو بن العاص مدينة أطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التى على الشرف من شرقيها، فحاصرها شهرًا لا يقدر منهم على شيء، فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم (من عسكر عمر) متصيدًا فى سبعة نفر فمضوا غربى المدينة فاشتد عليهم الحرُّ فأخذوا راجعين على ضفة البحر ـ وكان البحر لاصقًا بسور المدينة ـ ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن البحر شارعة فى مرساها إلى بيوتهم. ففطن المدلجى وأصحابه، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خفّ لهم فى مراكبهم، وغنم عمرو ما كان فى المدينة.

وإنما بنى سور مدينة أطرابلس مما يلى البحر هرثمة بن أعين[١] حين ولايته القيروان.

ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوفجين يصاب فيه بعض السنين للعبة مائة حبة، وهم يقولون: فحص سوفجين[٢] يصيب سنة فى سنين.

ومن أطرابلس إلى جبل نفوسة مسيرة ثلاثة أيام، وجبل نفوسة على ستة أيام من القيروان، وطول جبل نفوسه من الشرق إلى الغرب ستة أيام، وتليه قبيلة يقال لها بنو رمور ولهم حصن يسمى تيرقت فى غاية المنعة لا يطمع فيه أحد ولا يقدر عليه.

وبعد هذا الحصن قبيلة بنى تدرميت لهم ثلاثة حصون، وفى وسط هذه القبائل مدينة كبيرة تسمى جادوا لها أسواق ويسكنها يهود كثير.

قال محمد بن يوسف: أم قرى جبل نفوسه مدينة شروس وهى كبيرة آهلة جليلة، أهلها إباضية ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى، وهى أزيد من ثلاثمائة قرية آهلة لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة بهم.

وبين أطرابلس ومدينة شروس خمسة أيام، بينها حصن لبدة حصن من بناء الأول بالصاروج والحجر حوله آثار عجيبة للأول وخرائب كثيرة، يسكن هذا الحصن قوم من العرب جملتهم نحو ألف فارس وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر، وهم أزيد من عشرين ألفًا بين راجل وفارس وظاهرون عليهم.

ويروى فى هذا الحصن فى كتب الحدثان أمور شنيعة من العسكر الغربى الصادر إلى افتتاح مصر وذلك فى آخر الزمان.. والله أعلم.

وفى وسط جبل نفوسه النخيل والزيتون والكثير والفواكه، ويجتمع فيما حوله من القبائل إذا تداعوا ستة عشر ألف رجل.

وافتتح عمرو بن العاص ـ رحمه الله ـ نفوسة وكانوا نصارى، ومن نفوسة رجع عمرو بكتاب عمر ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) الروض المعطار ٣٩٠.

(٢) الروض المعطار ٣٩٠.

ومن أراد الطريق من نفوسة إلى مدينة زويلة فإنه يخرج إلى مدينة جادوا المذكورة، ثم يسير ثلاثة أيام فى صحراء ورمال إلى موضع يسمى تيرى، وهو من سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل، ثم يصعد فى ذلك الجبل فيمشى فى صحراء مستوية نحو أربعة أيام لا يجد الماء ثم ينزل على بئر تسمى أودرف، ومن هناك يلقى جبالاً شامخة تسمى تارغين يسير فيها الذاهب ثلاثة أيام حتى يصل إلى بلد يسمى تامرما فيه نخيل كثير يسكنه بنو قلدين وفزانه.

وعندهم غريبة، وهو أن السارق إذا سرق عندهم كتبوا كتابًا يتعارفونه، فلا يزال السارق يضطرب فى موضعه ذلك ولا يفتر حتى يقر ويرد ما أخذ وما يسكن عنه ما به حتى يمحى ذلك الكتاب.

ويسير من هذا البلد إلى بلد يسمى سباب يومين، وهو بلد كثير النخل وكذلك الذى قبله.

وأهل سباب يزدرعون النبات الذى يكون منه الصبغ المعروف بالنيل.

ويسير من سباب فى صحراء مستويه لا شىء فيها غير رمل رقيق لا يشوبه حجر ولا مدر، (إذا رأى الرائى العظم فى تلك الصحراء من بعيد حسبه قصرًا، وإن رأى بعرة حسبها رجلاً).

ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم.

وهى بجوفىّ مدينة أجدابية، وهى مدينة غير مسورة فى وسط الصحراء، وهى أول حد بلاد السودان، وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفقة من كل جهة منها، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم، وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالإبل، ولما فتح عمرو برقة[1] بعث عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين.

وبزويلة قبر دعبل الخزاعى ـ قال بكر بن حماد: [من الكامل]

المـوت غـــادر دعبلا بزويلة وبأرض برقة أحمد بن خصيب

وبين زويلة ومدينة أجدابية أربع عشر مرحلة، ولأهل زويلة حكمة فى

---

(١) فتوح البلدان ٣١٤ وفتوح مصر والمغرب ١٩٨.

احتراس بلدهم، وذلك أن الذى عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة فيشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرائد النخل ينال سعفها الأرض، ثم يدور بها حوالى المدينة، فإذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على جمال السروج وداروا بالمدينة فإن رأوا أثرًا خارجًا من المدينة اتبعوه حتى يدركوه أينما توجه لصًا كان أو عبدًا أو أمة أو بعيرًا.

وزويلة[١] من أطرابلس بين المغرب والقبلة، ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية أفريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر.

وبين زويلة وبلدة نم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم وهم سودان مشركون.

ويزعمون أن هنالك قومًا من بنى أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زِىٍّ العرب وأحوالها.

وبين مدينة زويلة ومدينة سبهى مسيرة خمسة أيام، وهى مدينة كبيرة بها جامع وأسواق، وبين مدينة سبهى ومدينة هلّ مثل ذلك، وهى مدينة عامرة كثيرة النخل وعيون الماء.

ومن مدينة هلّ إلى مدينة ودّان[٢] يوم، ولها قلعة حصينة وللمدينة ضروب وهى مدينتان، فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون، فتسمى مدينة السهميين دلباك ومدينة الحضرميين مدينة بوصى، وجامعهما واحد، وبين الموضعين والقبيلتين تنازع وتنافس قد آل ذلك بهم مرارًا إلى الحرب والقتال، وعندهم فقهاء وقرّاء وشعراء، وأكثر معيشتهم من التمر ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح.

ومن مدينة ودّان إلى مدينة تاجَرَّفْت[٣] ثلاثة أيام، وهى ودينة آهلة بها جامع يسكنها أهل ودان، والتمر بها كثير، وأكثر أجناسه البَرْنِىّ، ومنها يخرج إلى مدينة

---

(١) مراصد الاطلاع ٢/٧٦٧ وآثار البلاد ٩٤.

(٢) نقله القزوينى عن البكرى فى آثار البلاد ٢٨٠.

(٣) تَاجَرَّفْت: مدينة آهلة فى طرق إفريقية بين ودَّان وزويلة وودَّان شرقيها. مراصد الاطلاع ٢٤٨/١.

سُرْت[1] وبينها وبين زويلة مسيرة اثنى عشر يومًا، وبينها وبين ودان مثل ذلك، وهى متوسطة بينهما زويلة بغربيها وودان بشرقيها. هكذا قال محمد بن يوسف.

والذى مر هناك من ذكر المسافة بين تاجَّرْفت وزويلة أربعة عشر يومًا على الطريق الأقصر، ومن تاجرفت إلى الفسطاط تسع وعشرون مرحلة. وطريق آخر من زويلة إلى تاجرفت: من زويلة إلى مدينة تَمسىً يومان، ومدينة تمسى كبيرة بها جامع وأسواق يسيرة، ومنها إلى مدينة زلهى ثمانية أيام فى صحراء، وفى وسط الطريق منزل لأهل ودان، ومدينة زلهى كبيرة واسعة فيها جامع ولها نخل كثير وعين ماء نزة، يسكنها مزاته.

ثم تمشى ستة أيام إلى فحص بركانه، ثم إلى الفاروج وهو قصر (قد خرب) بجوار جب وحوله سبخة وبينه وبين سرت خمس مراحل، ثم إلى مدينة أجدابية مرحلة، ثم منها ثلاثة أيام إلى قصر زيدان الفتى، ثم تمشى أربعة أيام إلى مدينة أوجلة وهى مدينة عامرة كثيرة النخل، وأوجلة اسم الناحية واسم المدينة أرزاقية.

وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثيف وفواكه وبمدينتها مساجد وأسواق ثم أربعة أيام إلى مدينة تاجرفت.

ومن سلك من أطرابلس إلى ودَّان فإنه يسير فى بلد هوارة نحو الجنوب فى قياطن وبيوت شعر، وهناك مرأيات ومنازل إلى قصر ابن ميمون، وذلك كله من عمل أطرابلس.

ثم من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبنى على ربوة يسمى كرزة، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به فى أموالهم إلى اليوم.

ومن هذا الصنم إلى ودان مسيرة ثلاثة أيام.

وكان عمرو بن العاص قد بعث إلى ودَّان بسر بن أرطأة وهو محاصر أطرابلس فافتتحها، وذلك سنة ثلاث وعشرين.

---

(١) سُرْت: مدينة على بحر الروم بين برقة وطرابلس الغرب، وأجدابية فى جنوبيها إلى البر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٤.

وقال ابن عبد الحكم[١]: ثم إنهم نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن أرطأة فرض عليهم، فخرج عقبة بن نافع الفهرى إلى المغرب بعد معاوية بن حديج وذلك سنة ست وأربعين، ومعه بسر بن أرطأة وشريك بن سُحيم المرادى، فأقبل حتى نزل بغدامس من سرت، فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوى، ثم سار بنفسه فى أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها وأخذ ملكهم، فجدع أذنه، فقال: لم فعلت هذا: قد عاهدنى المسلمون؟ قال: أدبًا لك، إذا ذكرت أذنك ذكرت ذلك فلم تحارب العرب، واستخرج منه ما كان بُسْر فرض عليه ثلاثمائة رأس وستين رأسًا.

ثم سألهم عقبة: هل وراءكم أحد؟ قالوا: جرمة، وهى مدينة خزان العظمى، فسار إليها ثمانى ليالى من ودان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منهم على ستة أيام وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلاً حالت بينة وبين موكبه فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب وأعيى وكان ناعمًا فجعل يبصق الدم فقال: لم فعلت هذا وقد أتيتك طائعًا؟

قال عقبة: أدبًا لك، إذا ذكرته لم تحارب العرب. وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدًا.

ثم مضى عقبة من فوره إلى قصور فزان فافتتحها قصرًا بعد قصر حتى انتهى إلى أقصاها، ثم سألهم: هل وراءكم من أحد؟ قالوا نعم أهل خاوار، وهى قصر عظيم على رأس المفازة على رأس جبل وعر، وهو قصبة كُوار.

فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم بشىء، فمضى أمامه على قصور كُوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها، فأخذه وقطع إصبعه، فقال: لم فعلت هذا بى؟ قال: أدبًا لك، إذا أنت نظرت إلى إصبعك ذكرت فلم تحارب العرب، وفرض عليهم ثلاثمائة وستين رأسًا.

ثم سألهم: هل من ورائكم أحد[٢]؟ (فلم يعلموا من ورائهم أحد)، فكرّ

(١) النص فى فتوح مصر والمغرب ٢٢٢ وفتوح البلدان ٣١٦.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٢٢٤.

راجعًا إلى قصر خاوار فلم يعرض له أحد، ولم ينزل به وسار ثلاثة أيام فأمنوا وانبسطوا.

وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم ماء الفرس، فنفذ ماؤهم وأصابهم عطش كاد يهلكهم، فصلى عقبة بأصحابه ركعتين ودعا الله ـ عز وجل ـ فجعل فرس عقبة يبحث بيديه فى الأرض حتى انكشف عن صفاة فانفجر منها الماء، فنادى عقبة فى الناس أن احتفروا فاحتفروا ماءً معينًا طيبًا فسمى لذلك ماء الفرس.

ثم كر راجعًا إلى خاوار من غير طريقه التى أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً فوجدهم مطمئنين قد آمنوا، فاستباح مافى مدينتهم من ذراريهم ونسائهم وأموالهم وقتل مقاتلهم.

ثم انصرف راجعًا حتى أتى زويلة ثم ارتحل حتى قدم عسكره بعد خمسة أشهر، فسار متوجهًا إلى المغرب وجانب الجادة وأخذ إلى أرض مزاته فافتتح كل قصر بها، ثم صار إلى قَفْصَة[1] فافتتحها وافتتح قَسطيلية، ثم انصرف إلى القيروان.

* * *

الطريق من أوجلة المتقدمة الذكر إلى الواحات

من أوجلة إلى بلد سنترية عشر مراحل فى صحراء ورمال قليله الماء. وسنترية هذه كثيرة العيون والثمار والحصون، أهلها بربر لا عرب فيهم.

وتسير من سنترية على طرق شتى إلى أودية الواحات، ومن سنترية إلى بهنسى الواحات عشر مراحل ـ (وهى غير بهنسى الصعيد) ومن بهنسى الواحات إلى أريش الواحات ثمانى مراحل.

بهنسى الواحات مدينة مسورة فيها أسواق ومساجد.

وذكر محمد بن سعيد الأزدى رجل من أبناء مدينة سفاقس أنه دخلها ورأى فيها فى يوم عيد النصارى ـ وأهلها عرب مسلمون وقبط نصارى ـ تابوتا فيه رجل ميت

(١) قَفْصَة: بلدة صغيرة فى طرف إفريقيا من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير. مراصد الاطلاع ٣/٣١٢.

يجعلونه على عجلة يسمونه ابن قرمى، ويزعمون أنه من الحواريين يتطوفون به فى سكك البلد ويتبركون بذلك ويتقربون إلى الله وتجر تلك العجلة البقر، فإن نفرت من موضع ولم تسر فيه، علموا أن فى ذلك الموضع نجاسة.

وأريش بلد كثير العيون الجارية والثمار والنخيل مياهها كلها حامّة.

ومن أريش ثلاثة أيام إلى الفرفرون، وبالفرفرون معادن الشبوب المريش والقصبى وفيه أنواع الزاج وفيه العيون الحامضة وغير ذلك من المياه المختلفة الأطعمة.

والفرفرون هذا بلد كثير الأشجار والنخيل وفيه قرى كثيرة وأهلها قبط نصارى.

وتسير من الفرفرون إلى ألواح الداخل أربع مراحل فى صحراء لا ماء فيها ولا عمارة، وهذا الواح الداخل كثير الأنهار والعمارات والحصون منها حصن يسمى بالقصر، وفى وسطه عين ماء ثرثار تتشعب منه أنهار تسقى زرعهم ونخلهم وثمارهم.

وتسير منه فى قرى متصلة إلى حصن يسمى قَلَمون[1] مياهه حامضة منها يشربون ويسقون، وبها قوامهم، وإن شربوا سواها من المياه العذبة استوبؤوه.

وأخر هذا الواح الداخل قرية كبيرة تسمى القصبة لها مياه عذبه سائحة تسقى نخلها وثمارها، ولها ثلاث عيون ملحة يجتمع ماؤه فى سباخ فيكون ملحًا: ملح العين الواحدة أبيض، وملح العين الثانية أحمر وملح العين الثالثة أصفر وهذا الأصفر هو المستعمل بمصر وبرقة.

ومن هذا الواح إلى الواحين الخارجين ثلاث مراحل، وهو أخر بلاد الإسلام وبينه وبين بلاد النوبة فى صحراء ست مراحل وفى بعض الواحات قبائل من لواته.

وزعموا أن فى أقصى الواحات بلد يقال له واح صبروا وأنه بلد لا يقع عليه الا من ضل فى الصحراء فى النادر من الزمان، فالواقع عندهم يقول إنه يكون فى

---

(١) قَلَمُون: حصن فى واح الداخلة، مياههم حامضة، منها شربهم ويستوبئون غيرها. مراصد الاطلاع ١١١٨/٣.

بلادهم ما شاء وهم فى أخصب عيش، فإذا أراد الرجعة أروه صوب بلاده.

وقد وقع فى هذا البلد من عرب بنى قرة رجمة بن قائد القرى ورجع إلى موضعه، ثم طلبه بعد ذلك فلم يقدر عليه.

فأعد مقرب بن ماضى أمير بنى قرة بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة زادًا وماءً كثيرًا وظهرًا وذهب فى الصحراء يطلب واح صبروا وبقى يجولُ فى الصحراء مدة فلم يقدر عليها حتى خاف نفاذ الزاد، فكرّ راجعًا فنزل ذات ليلة ربوة من الأرض فى بهماء تلك الصحارى، فوجد بعض أصحابه فى ناحية من تلك الربوة بنيانًا للأول، فبحثوا عنه فإذا هو لبن نحاس أحمر محيط بالربوة أساس سور الأول، فأوقروا منه جميع ما كان عندهم من الظهر ورحلوا عنه فلو قدروا على إصابة موضعه لم يفرغ من نقل ما فيه من النحاس الا فى الزمان الطويل.

وأتى مقرّب (فى منصرفه) الواح الخارج، فأخبره رجل من أهله أنه غدا إلى حائط، فوجد عنده أكثر تمره قد أكل ووجد أثر قدم إنسان لا يشبه هذا الخلق فى العظم، فاحترسه هو وأهله ليالى حتى طرقهم فى بعض الليالى خلق عظيم لم يعهد مثله وجعل يأكل التمر، فلما أهموا به وأحس بهم بارى الريح حضرًا ولم يعلموا له أمرًا، فنهض معهم مقرب إلى الأثر حتى وقف عليه، فاستعظمه، وأمرهم أن يحفروا زبية فى الموضع الذى كان يدخل منه ويغطوا أعلاه بالحشيش ويرقبوه ليالى (تباعًا ففعلوا).

فلما كان بعد ليال أقبل على عادته، فتردى فى الزبية، فبدروا فغلبوه بكثرتهم وتردّيه، فإذا هى امرأة سوداء عظيمة الخلق مفرطة الطول والعرض لا يفقه منها كلمة، فكلموها بكل لسان عُلم هناك فلم تجاوب منهم أحدًا، فبقيت عندهم أيامًا يأتمرون فى أمرها ثم اتفقوا على ارسالها وركوب الخيل والنجب فى أثرها إلى أن يقفوا منها ومن موضعها على حقيقة خبر، فلما أرسلت لم يكن طرف العين يلحقها وفاتت شأو النجب والخيل ولم يقف أحد من أمرها على حقيقة.

ويذكرون أن هناك رمالاً عظيمة تعرف بالجزائر كثيرة النخل والعيون لا عمران فيها، ولا أنيس بها، وأن عزيف الجن يسمع بها الدهر كله.

وربما أقام بها غزاة السودان ولصوصهم لانتهاز الفرصة فى المسلمين، ويتكادس

التمر هناك أعوامًا لا يقع عليه أحد ولا يبلغ إليه حتى ينتجعه الناس فى السنين الجدبة وعند الحاجة والضرورة.

* * *

الطريق من مدينة أطرابلس إلى قابس

من أطرابلس إلى صبرة وهو بلد معمور يسكنه زواغة، ثم الطريق من صبرة على ما تقدّم قبل هذا عند ذكر الطريق إلى القيروان.

ومدينة قابس[١] مدينة جليلة مُسَوَّرة بالصخر الجليل من بنيان الأوّل ذات حصن حصين وأرباض وأسواق وفنادق وجامع وحمامات كثيرة، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شىء.

ولها ثلاث أبواب بشرقيها وقبليها أرباضها، ويسكنها العرب والأفارق، وفيها جميع الثمار، والموز بها كثير، وهى تمير القيروان بأصناف الفواكه، وبها شجر التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها، وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس فى عمل إفريقية حرير الا فى قابس، واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها، وأصل هذا الماء من عين خَرَّارة فى جبل بين القبلة والغرب منها يصب فى بحرها وبها قصب السكر كثير.

وبقابس منار منيف، ويحدو الحادى عند قدومه من مصر إلى إفريقية فيقول: [من الرجز]

لا نوم لا نوم ولا قرارا حتى أرى قابس والمنارا[٢]

وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان، وحوالى قابس قبائل من البربر: لواته ولمايه ونفوسه وزواغه وزواوة وقبائل شتى أهل أخصاص.

وكانت ولايتها منذ دخل عبيد الله إفريقية تترد فى بنى لقمان الكتامى.

---

(١) قابس: مدينة بين أطرابلس وسَفَاقُس ثم المهدية على ساحل بحر المغرب، من أعمال إفريقيا، وبها مرفأ السفن فى كل مكان، بينها وبين البحر ثلاثة أميال. مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٥٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٣/ ١٥٢ وبلا نسبة فى رحلة التجانى ٩٦-١٠٠.

قال الشاعر: [من السريع]

لولا ابن لقمان حليف الندى سُلَّ على قابس سيف الرَّدَى[1]

وتجاورها جزيرة فى البحر تعرف بجزيرة رازو بينهما مسيرة أكثر من يوم، عامرة آهلة وكثيرًا ما يمتنع أهلها على السلاطين وبين مدينة قابس والبحر ثلاثة أميال.

ومما يذكرون من معائبها[2] أن أكثر دورهم لا مذاهب فيها، وإنما يتبرزون فى الأفنية ولا يكاد أحد منهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ما يكون منه لتدمين البساتين، وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاجرون فيه فيخص به من أراد منهم، وكذلك نساؤها لا يرين فى ذلك عليهن حرجًا إذا سترت إحداهن وجهها ولم يعلم من هى.

ويذكر أهل قابس أنها كانت أصلح البلاد هواءً حتى وجدوا بها طلسمًا ظنوا أن تحته مالاً، فحفروا موضعه فأخرجوا منه تربة غبراء، فحدث عندهم الوباء من حينئذ بزعمهم.

وأخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبى ـ وكان كاتبًا لمؤنس صاحب إفريقية ـ أنهم كانوا فى ضيافة ابن وانَّموا الصَّنْهاجى صاحب مدينة قابس، فأتاه جماعة من أهل البادية بطائر على قدر الحمامة غريب اللون والصورة، ذكروا أنه لم يروه قبل ولا عهدوه، كان فيه من كل لون أجمله وهو أحمر المنقار طويله، فسأله ابن وانّمو من حضره من العرب والبربر وغيرهم هل رآه أحد منهم، فلم يعرفه أحد ولا سمَّاه.

فأمر ابن وانّموا بقص جناحيه وأرسل فى القصر، فلما جن الليل جُعل فى القصر مشعل نار، فما هو إلا أن رآه ذلك الطائر فقصد قصده وأراد الصعود إليه، فدفعه الخدام وجعل يلح فى التكرار على المشعل، فأعلم ابن وانّمو بذلك فقام وقام من حضر معه، قال جعفر: وكنت فيمن حضر، فأمر ابن وانّمو بترك الطائر وشأنه، فصار فى أعلى المشعل وهو يتأجج نارًا واستوى فى وسطه وجعل يتلقى كما يفعل سائر الطير فى الشمس، فزاد تأجج النار فأمر ابن وانّمو بزيادة الوقود

(١) بلا نسبة فى رحلة التجانى ٩٦.

(٢) انظر تفصيل ذلك فى رحلة التجانى ٨٩.

فى المشعل من خرق القطران وغير ذلك، فزاد تأجج النار والطائر فيه على حالته لا يكترث ولا يبرح، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشى لم يَرِبْه ريب، وأخبر قوم من أهل إفريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير، وأهلها مفسدون فى البر والبحر وهم خوارج، وبينها وبين البر الكبير مجاز.

وقال حنش بن عبد الله الصنعانى: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة فقام فينا خطيبًا فال: «أيها الناس لا أقول فيكم الا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ما زرع غيره»[1]، يعنى إتيان الحبالى من السبى.

* * *

الطريق من مدينة قابس إلى سفاقس

من مدينة قابس إلى عين الزيتونة، وهى عين جارية على بحر ميت عليها مرصد لجابى إفريقية، وهى عين مذكورة فى كتب حدثان إفريقية.

قال ابن أعقب فى أرجوزته التى يذكر فيها وقائع أفريقية:

عند حلول الجيش بالزيتونهْ تكون هناك الواقعة الملعونهْ

ومن عين الزيتونة إلى تاورقى، وهو منزل عامر فى طرف ساحل الزيتونة، ومن هنا إلى غافق وهو بلد معمور، ومنه إلى مدينة سفاقس وهى مدينة على البحر مسورة، ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وطوب ولها حمامات، وفنادق وبوادٍ عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر، منها محرس بطوية وهو أشرفها، وفيها منار مفرط الارتفاع يرقى إليه فى مائة وست

(١) الحديث فى كنز العمال رقم ٩٨٢٨ عن الطبرانى عن رويفع بن ثابت وذكر فى رحلة التجانى ١٢٤ وفتوح مصر والمغرب ٣٠٩.

وستين درجة، ومحرس حبلة ومحرس أبى الغصن ومحرس مقدمان ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة[١].

وسفاقس فى وسط غابة زيتون، ومن زيتها يمتار أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم، وربما بيع الزيت منها أربعين ربعًا قرطبية بمثقال واحد.

وهى محط السفن، فإذا جزر الماء بقيت السفن فى الحصاة وإذا مدّ رجعت السفن.

يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتاع والزيت وعمل أهلها فى القصارة والكمادة كعمل أهل الإسكندرية وأكثر وأجود.

ويقابل سفاقس فى البحر سفينة جزيرة تسمى قرقنة، وهذه الجزيرة فى وسط القصير، بينها وبين مدينة سفاقس فى ذلك البحر الميت القصير القعر نحو عشرة أميال، وليس للبحر هناك حركة فى وقت.

وبحذاء هذا الموضع فى البحر على رأس القصير بيت مشرف مبنى بينه وبين البحر الكبير نحو أربعين ميلاً، فإذا رأى قلب البيت أصحاب السفن الواردة من الإسكندرية والشام وبرقة أداروها إلى مواضع معلومة.

وجزيرة قرقنة المذكورة فيها آثار بنيان ومواجل للماء، ويدخل فيها أهل سفاقس دوابهم ومواشيهم لأنها خصبة.

* * *

الطريق من سفاقس إلى مدينة القيروان

من مدينة سفاقس إلى طرفَى وهو بلد معمور، ومنه إلى قصر رباح وهو معمور أيضًا، ومن قصر رباح إلى القيروان.

* * *

(١) رحلة التجانى ٨٥.

الطريق من سفاقس إلى المهدية

من سفاقس إلى لَجَم[١] وهو حصن الكاهنة وهو طرف سوق الحسينى، وفى هذا السوق قرية كبيرة آهلة تعرف بأرزلس، بها جامع وحمام وأسواق وهى من قرى الساحل، ومن لجم إلى مدينة المهدية.

* * *

ذكر إفريقية وبلادها وحدودها ولم سميت إفريقية وذكر غرائبها

قال قوم: إنها إفريقية: أى صاحبة السماء، وقال آخرون: سميت إفريقية لأن إفريقش بن أبرهة بن الرائش (غزا نحو المغرب) حتى انتهى إلى طنجة فى أرض بربر، وهو الذى بنى إفريقية وباسمه سُمِّيت.

وقيل سميت بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورى. وقال قوم: إنما سموا الأفارقة وبلدهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصريم[٢].

وقد زعموا أن اسم إفريقية ليبية فسميت ببنت يافوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيش بمصر، وهى التى ملكت ملك إفريقية أجمع فسمى بها.

وحد إفريقية[٣]: طولها من برقة شرقًا إلى مدينة طنجة غربًا واسم طنجة مورطانية، وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى أول بلاد السودان، وهى جبال رمال عظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق وفيه يصاد الفنك الجيد.

وروى جماعة من سحنون بن سعيد وموسى بن معاوية جميعًا عن ابن وهب

(١) لَجَم: قلعة إفريقية حصينة جدًا بقرب المهدية. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٠٠.

(٢) قال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ٢١٢ «وإنما سموا بالأفارقة فيما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة وغيره، أنهم من ولد فارق بن بَيْصَر، وكان فارق قد حاز لنفسه من الأرض ما بين برقة إلى إفريقية، فبالأفارقة سُمِّيت إفريقية. وانظر الروض المعطار ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) انظر: وصف إفريقيا للحسن الوزان ١/ ٢٧ـ٢٨.

عن سعيد بن أبى أيوب عن شرحبيل بن سويد عن عبد الرحمن الجيلى قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فقفلوا فذكروا لرسول الله ﷺ شدة برد أصابهم، فقال رسول الله ﷺ لكن أفريقية أشد بردًا وأعظم أجرًا[١].

وأسنداه أيضًا، عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة الجذامى أن سفيان بن الحارث حدثهم عن أشياخهم أنهم قالوا لمقداد بن الأسود صاحب النبى ﷺ: «إنك ثقلت وأنت تخرج فى هذه المغازى؟ فقال: خفيفًا كنت أو ثقيلاً لا أتخلف عنها لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**انفِرُوا خفافًا وَثقَالاً**﴾[٢] ثم قال: قدمت سرية على النبى ﷺ فذكروا البرد، فقال رسولَ الله ﷺ إن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية[٣].

وروى ابن أبى العرب قال: «حدثنى فرات حدثنى عبد الله بن أبى حسان عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبى عبد الرحمن الجبلى قال: قال الرسول ﷺ: «ينقطع الجهاد من البلاد كلها فلا يبقى إلا بموضع بالمغرب يقال له إفريقية، فبينما القوم بإزاء عدوهم نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون لله تبارك وتعالى سجدًا، فلا ينزع عنهم أخلاقهم إلا خدّامهم فى الجنة»[٤].

وكان عبد الرحمن بن زياد بن أنعم يقول: ينقطع الجهاد من كل بلد وسيعود إلى إفريقية وليضربن القبائل من الآفاق إلى إفريقية لعدل إمامهم ورخص أسعارهم.

وروى ابن أبى العرب عن عبد الله بن عمر العمرى عن ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو قال: والله ليباعن الجمل بمصر بعشرة دنانير، ثم ليباعن بمائه دينار لمغالاة الناس بها وكأنى أسمع صرير المحامل على عقبة الثنية من مصر إلى إفريقية يطلبون بها الجهاد والعدل، وليملكن إفريقية رجل يعدل فيهم اثنتين أو أربعًا وعشرين سنة.

---

(١) الروض المعطار ٤٧.

(٢) سورة التوبة، آية ٤١.

(٣) الروض المعطار ٤٧.

(٤) الروض المعطار ٤٧.

ذكر مسجد القيروان

قد تقدم أن أول من وضع محرابه وبناه هو عقبة بن نافع، ثم هدمه حسان حاشى المحراب وبناه وحمل إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراءون مثلهما من كنيسة كانت للأوّل فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، ويقولون إن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبًا فابتدروا الجامع بهما، ويذكر كل من رآهما أنه لم ير فى البلاد ما يقترن بهما.

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها وأن يدخلها فى المسجد الجامع، ففعل وبنى فى صحنه ماجلاً وهو المعروف بالمجال القديم بالغرب من البلاطات، وبنى الصومعة فى بئر الجنان ونصب أساسها على الماء، واتفق أن وقعت فى نصف الحائط الجوفى.

وأهل الورع يكرهون الصلاة فى هذه الزيادة ويقولون إنه أكره أهل الجنة على بيعها.

والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعًا وعرضها خمس وعشرون ولها بابان شرقى وغربى، وعضائد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما.

فلما ولى إفريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين ومائة هدم الجامع كله حاشى المحراب وبناه، واشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيها، وهو الذى كان يصلى عليه القاضى أبو العباس عبدون.

فلما ولى زيادة الله بن إبراهيم (بن الأغلب) هدم الجامع كله وأراد هدم المحراب فقيل له: إن من تقدَّمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة ابن نافع ومن كان معه، فلج فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثرًا لغيره حتى قال له بعض البناة: أنا أدخله بين الحائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك، فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه إلى اليوم.

والمحراب كله وما يليه مبنى بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله، وهو مخرم منقوش كله منه كتابة تقرأ، ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام فى غاية الحسن، والعمودان الأحمران المذكوران يقابلان المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب.

وعدد ما فى الجامع من الأعمدة أربعمائة وأربعة عشر عمودًا، وبلاطاته سبعة عشر بلاطًا، وطوله مائتان وعشرون ذراعًا وعرضه مائة وخمسون ذراعًا.

وكانت فيه مقصورة فلم يزل بناء زيادة الله فيه، والمقصورة اليوم إنما هى دار بقبلى الجامع بابها فى رحبة الثمر، لها باب عند المنبر يدخل منه الإمام بعد أن ينزل فى هذه الدار حتى تقرب الصلاة.

وبلغت النفقة فى بنيانه ستة وثمانين ألف مثقال.

ولما ولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب زاد فى طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب، وفى دورها اثنتان وثلاثون سارية من بديع الرخام، وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه، وقد فرش من الصحن بين أيدى البلاطات نحو خمس عشرة ذراعًا.

وللجامع عشرة أبواب، ومقصورة للنساء فى شرقيها بينها وبين الجامع حائط آخر مخرم محكم العمل.

* * *

ذكر مدينة القيروان [١]

ومدينة القيروان[٢] فى بساط من الأمر مديد، فى الجوف منها بحر تونس وفى الشرق بحر سوسة والمهدية، وفى القبلة بحر سفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقى، بينها وبينه مسيرة يوم (وبينها وبين الجبل مسيرة يوم)، وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم، وشرقيها سبخة (ملح عظيم طيب نظيف) وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربى وهو المعروف بفحص الدارة يصاب فيه فى السنة الخصبة للحبة مائة. وهواء هذا الجانب طيب صحيح.

وكان زياد بن خلفون المتطبب إذا خرج من القيروان يريد مدينة الرقادة وحاذى باب أصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه كالمتداوى به لصحته.

وللقيروان من القديم سبعة محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها.

وكان للقيروان فى القديم سور طوب سعته عشر أذرع بناه محمد بن الأشعث ابن عقبة الخزاعى سنة أربع وأربعين ومائة، وهو أول قائد دخل إفريقية للمسودة، وكان فى قبليه باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب، وبين القبلة والمشرق باب أبى الربيع، وفى شرقيه باب عبد الله وباب نافع، وفى جوفيه باب تونس، وفى غربيه باب أصرم وباب سلم، فهدم هذا السور زيادة الله بن إبراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومائتين لما قام عليه أهل القيروان مع المنصور المعروف بالطنبدى.

فلما انهزم عن القيروان يوم الأربعاء للنصف من جمادى الأولى من هذه السنة وخرج أهل القيروان إلى زيادة الله فرغبوا فى العفو عنهم والصفح هدم سور القيروان عقوبة لهم، ثم بناه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ومبلغ تكسيره اثنان وعشرون ألف ذراع وجعل السور مما يلى صبرة

---

(١) انظر: الروض المعطار ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) القيروان: هى أَجَلُّ مدينة بأرض المغرب خلا قرطبة بالأندلس فإنها أعظم منها، وهى المدينة التى كان يقيم بها وُلاة المغرب، وبها كان مقام الأغلب وبنيه إلى أن أزال ملكهم أبو عبد الله المحتسب. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

صبرة كالفصيل، حائطان متصلان إلى مدينة صبرة وبينهما نحو نصف ميل.

ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس إلا بعد جوازه على مدينة صبرة.

وللمدينة اليوم أربعة عشر بابًا منها المذكورة باب النخل والباب الحديث، وللفصيل بابان وباب الطراز (والباب الحديث) وباب القلالين وباب أبى الربيع، وباب سحنون الفقيه.

ومدينة صَبْرة[١] متصلة بالقيروان، بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسماها المنصورية، وهى منزل الولاة إلى حين خرابها، ونقل إليها معد ابن إسماعيل أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات ولها خمسة أبواب: الباب القبلى، والباب الشرقى، وباب زويلة وباب كتامة - وهو جوفى - وباب الفتوح ومنه كان يخرج بالجيوش.

ويذكر أنه كان يدخل واحد أبوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم.

وكان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلاً من القبلة إلى الجوف، وطوله من باب أبى الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل، وكان سطحًا متصلاً منه جميع المتاجر والصناعات، وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك.

وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلاً للماء سقايات لأهلها من بنيان هشام ابن عبد الملك وغيره، أعظمها شأنًا وأفخمها منصبًا ماجل أبى إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بباب تونس، وهو مستدير متناهى الكبر فى وسطه صومعة مثمنة فى أعلاها قصبة لرقبة مفتحة على أربعة أبواب (على أحد عشر رجلاً لا خلل بينهم كيلا يصل مخط، فإذا امتلأ الماجل كان دلكًا، وسطح هذه القصبة نحو ذراعين، كان ابن الأغلب يدخل إلى هذه القبة فى مركب يسمى بالزلاج)، ويتصل بهذا الماجل فى قبليه أقباب طويلة معقودة آزاجًا على آزاج.

---

(١) صَبْرَة: بلدة قريبة من القيروان، وتسمَّى المنصورية، وهى الآن خراب. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٣٢.

وكان زيادة الله قد بنى على غربى هذا الماجل (قصرًا، وبجوفى هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقية) يقع فيه ماء الوادى إذا جرى (على جنبتين كبيرتين) تكسر فيه شدة جريان الماء، ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير إذا ارتفع الماء فى الفسقية قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السرح.

وكان هذا الماجل عجيب الشأن غريب البنيان، وكان عبيد الله يقول: رأيت بإفريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق:

الحفير الذى بباب تونس ـ يعنى الماجل ـ والقصر الذى بمدينة رقادة المعروف بقصر البحر.

وفى القيروان ثمانية وأربعون حمامًا، وأحصى ما ذبح بالقيروان فى بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة فانتهى تسعمائة وخمسين رأسًا.

ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها ليس لهم محتطب غيره، وإن ذلك لا يؤثر فى زيتونها ولا ينقص منه.

وسنة اثنتين وخمسين سُبِيت القيروان وأُخْلِيت ولم يبق فيها إلا ضعفاء أهلها.

والقفيز بالقيروان، وأعمالها ثمانى ويبات، والويبة أربعة أثمان والثمنة ستة أمداد بمدّ أوفى من مُدِّ النبى ﷺ ومقدار تلك الزيادة فى القفيز كله اثنا عشر مدًا، فصار (القفيز القردى) مائة مدّ وأربعة أمداد بمدّ النبى ﷺ، وذلك بكيل قرطبة خمسة أقفزة غير ستة أمداد، ورطل اللحم والتين وسائر المأكولات عشرة أرطال فلفلية، وقفيز الزيت عندهم ثلاثة أرطال فلفلية، (والمسطر عندهم كيل يسع خمسة أقفزة من زيت).

* * *

ذكر مدينة رقادة[1]

وهى من القيروان على أربعة أميال، ودورها أربعة وعشرون ألف ذراع (وأربعون ذراعًا)، وأكثرها بساتين، وليس بإفريقية أعدل هواءً ولا أرق نسيمًا ولا أطيب تربة من مدينة رقّادة.

ويذكر أن من دخلها لم يزل ضاحكًا مستبشرًا من غير سبب، وذكروا أن أحد بنى الأغلب أرق وشرد عنه النوم أيامًا فعالجه إسحاق الذى ينسب إليه إطريقل إسحاق فلم ينم، فأمر بالخروج والمشى، فلما وصل إلى موضع رقادة نام، فسميت من يومئذ رقادة واتخذت دارًا ومسكنًا وموضع فرحة للملوك.

والذى بنى مدينة رقادة واتخذها دارًا ووطنًا إبراهيم بن أحمد وانتقل إليها من مدينة القصر الجديد، وبنى بها قصورًا عجيبة وجامعًا، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق، ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبنى الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبى عبد الله الشيعى، وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهديّة سنة ثمان وثلاثمائة.

ولأن ابتداء تأسيس إبراهيم لها سنة ثلاث وستين ومائتين فلما انتقل عنها عبيد الله إلى المهدية دخلها الوهن وانتقل عنها ساكنوها، ولم تزل تخرب شيئًا بعد شىء إلى أن ولى معد بن إسماعيل، فخرب ما بقى منها وعفا أثرها وحرث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها.

ولما بناها إبراهيم بن أحمد وجعلها داره، منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة.

فقال بعض ظرفاء أهل القيروان: [من سريع]

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن إليــه الرقاب منقــادهْ

---

(١) رَقَّادة: بلد كانت بإفريقيا، بينها وبين القيروان أربعة أميال كبيرة ذات بساتين، لم يكن بإفريقيا أطيب هواء منها، ولا أرقَّ نسيمًا، وقد خربت الآن. مراصد الاطلاع ٢/ ٦٢٤ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

مـا حرم الشرب فى مدينتنا   وهــو حـلال بأرض رقّاده[1]

قال محمد بن يوسف: إنما سميت بهذا الاسم لأن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى القائم بدعوة الإباضية بأطرابلس لما نهض إلى القيروان لقتال ورفجومة كانوا قد تغلبوا عليها مع عاصم بن جميل - التقى بهم بموضع رقادة وهى إذ ذاك منية، فقتلهم هناك قتلاً زريعًا فسميت رقّادة؛ لرقاد جثثهم بعضها فوق بعض.

فأما مدينة القصر القديم فإن الذى أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة أربع وثمانين ومائة، وصارت دار أمراء بنى الأغلب وهى بقبلى مدينة القيروان وعلى ثلاثة أميال منها، بها جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرًا، وحمامات كثيرة، وفنادق وأسواق جمة ومواجل للماء.

وإذا قحطت القيروان وفقد الماء فى مواجلها نقلوا الماء من مدينة القصر.

وكان لها من الأبواب: باب الرحمة قبلى، وباب الحديد قبلى وباب غلبون شرقى، وباب الريح شرقى، وباب السعادة غربى يقابل المقبرة الكبيرة.

وداخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان، (ويجاور مدينة القصر بنية) تعرف بالرصافة.

ولما أتى إبراهيم مدينة القصر وانتقل إليها خرب دار الإمارة التى كانت بالقيروان بقبلى الجامع منذ فتحت.

وإذا خرج المتوجة إلى مصر من القيروان على باب الطراز تلقى مدينة القيروان يسرة، ويسلك بين مدينة رقادة ومدينة القصر، فأوّل ما يلقى وادى السراويل شتوى، ثم المنية المعروفة وهى كبيرة آهلة، ثم قرية زرور، وهى كثيرة البقول لا سيما الجزر، وأهلها قوم يضرب بهم المثل فى سوء الحال بإفريقية، ويقال: مشايخ زرور شهد منهم سبعة على قبضة إسفنارية، فقال الحاكم للطالب: زِدْبِنّة.

ثم وادى الطرفا كبير شتوى إذا حمل أهلك ما حوله من القرى والمنازل،

(١) البيتان بلا نسبة فى مراصد الاطلاع ٢/ ٩٢٤.

وسعته إذا حمل أزيد من ثلاثة أميال.

ثم مدينة فلشانة، ومن القيروان إليها اثنا عشر ميلاً، كبيرة آهلة بها جامع وحمام ونحو عشرين فندقًا، وهى كثيرة البساتين وشجر التين، وأكثر تين القيروان الأخضر منها.

وأبواب الدور بمدينة فلشانة قصار، ليس تدخلها الدواب، فعلوا ذلك خوفًا من نزول العمال والجباة.

* * *

ذكر مدينة المهديّة

مدينة المهدية منسوبة إلى عبيد الله المهدى(١) الذى بناها على ما ذكر فى التاريخ، وبينها وبين القيروان ستون ميلاً. تخرج من القيروان فتنزل منزل كامل، ثم تخرج فيها فتأتى المهدية، وطريق آخر تخرج من القيروان إلى مدينة تُماجر مرحلة، إلى المهدية (مرحلة أخرى). ومدينة تماجر كبيرة آهلة بها جامع وأسواق وفنادق وحمام وماؤها زعاق، وفى وسطها غدير ماء وحولها غابة زيتون وشجر أعناب، وبين مدينة تماجر والمهديّة الوادى الملح الذى كانت فيه الوقعة المشهورة بين أبى يزيد وأبى القاسم قتل فيها من أصحاب أبى القاسم عدد لا يحصى (ففر منه أبو القاسم فى من كان يختص به.

والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهاتها، وانما يدخل إليها من الجانب الغربى، ولها ربض كبير يعرف بزويلة فيه الأسواق، والحمام ومساكن أهلها، وبنى على الربض المعز بن باديس سورًا يحيط به، وطولها اليوم نحو ميلين وعرضها يضيق ويتسع وأوسعه أقل من بسط طولها، وجميع بنيانها بالصخر (ولمدينتها بابا حديد) لا خشب فيهما وزنة كل باب ألف قنطار، وطوله ثلاثون شبرًا فى كل مسمار من مساميرها ستة أرطال، وفى البابين صور الحيوان.

---

(١) المهديَّة: مدينة صغيرة استحدثها عبيد الله المستولى على المغرب وسمَّاها بهذا الاسم، وهى على البحر، وعبيد الله تحوَّل إليها من القيروان. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٣.

وفى المهدية من المواجل العظام ثلاثمائة وستون غير ما يجرى إليها من القناة التى فيها، والماء الجارى بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية منانش وهى على مقربة من المهدية فى أقداس ويصب فى صهريج داخل المهدية عند جامعها، ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب، وكذلك يستقى أيضًا بقرية منانش من الآبار ويصب فى مجلس يجرى منه فى تلك القناة.

وهى مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها، ومرساها منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبًا، على طرفى المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد، فإذا أريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة، ثم مدّوها كما كانت بعد ذلك تحصينًا لئلا تطرقها مراكب الروم.

وعرض المدخل إلى المهديّة من القبلة إلى الجوف قدر غلوة، وردم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله فى المهدية فاتسع الموضع.

وفيه ستة عشر برجًا ثمانية منها فى السور الأول، وثمانية فى الزيادة، منها برج أبى الوزان النحوى، وبرج عثمان، وبرج عيسى وبرج الدهان نسبت إليهم لقرب مساكنهم منها.

(والجامع ودار البحر ودار المحاسبات فيما ردم من البحر وغير ذلك من المنازل)، والجامع سبع بلاطات متقن البناء حسنه.

وقصر عبيد الله كبير سرى المبانى بابه غربى، وقصر ابنه أبى القاسم بإذائه بابه شرقى بينهما رحبة فسيحة. ودار الصناعة بشرقى قصر عبيد الله اتسع أكثر من مائتى مركب، وفيها قبوان كبيران طويلان لآلات المراكب وعددها لئلا ينالها شمس ولا مطر.

وكان سبب بنيان عبيد الله للمهدية قيام (أبى عبيد الله) وجماعة كتامة عليه وما حاولوه من خلعه وقتل أهل القيروان رجال كتامة.

فكان ابتداؤه بالنظر فيها سنة ثلاثمائة وكمل سورها سنة خمس وانتقل إليها سنة ثمان فى شوال.

وكان لها أرباض كثيرة آهلة عامرة أقربها إليها ربض زويلة فيه الأسواق والحمامات.

وربض الحمى كان مسكنًا لأجناد إفريقية من العرب والبربر، قصرُ أبى سعيد وبقة وقاساس والغيطنة وربض قفصة وغيرها، ولم تزل دار ملك لهم إلى أن ولى الأمر إسماعيل بن القاسم سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، فسار إلى القيروان محاربًا لأبى يزيد واتخذ مدينة صبرة واستوطنها بعده ابنه معه، وحلّت أكثر أرباض المهدية وتهدّمت.

ومن المهدية إلى مدينة سلقطة ثمانية أميال، ومن المهدية إلى قصر لجم وهو المعروف بقصر الكاهنة ثمانية عشر ميلاً.

وذكر أن الكاهنة حصرها العدو فى ذلك القصر فحفرت سربًا فى صخرة صماء من هذا القصر إلى مدينة سلقطة يمشى فيه العدد الكثير من الخيل، وكان ينتقل إليها فيه الطعام سائر ما تحتاج إليه.

ومن مدينة سلقطة إلى قصر لجم هذا ثمانية عشر ميلاً أيضًا، وفى دور قصر لجم نحو ميل، وهو مبنى بحجارة طول الحجر منها خمسة وعشرين شبرًا ونحوها، وارتفاعه فى الهواء أربع وعشرون (قامة وهو من داخله مدرج كله إلى أعلاه وأبوابها طاقات بعضها فوق بعض بأحكم صناعة).

وترنوط فحص على ستة أميال من المهدية، (ومنها زاحف أبو يزيد مخلد المهدية) وبهذا الفحص كانت محلتة أيام حصاره المهدية.

وفى كتب الحدثان: إذا ربط الخارجى بترنوط، لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط ـ أهل السواد أهل الساحل ـ وفيها: ويل لأهل السواد من مخلد بن كيداد[1].

والأخوان: منزل بين القيروان والمهدية، وفى هذا المنزل قتل أبو يزيد لميسرة الفتى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.
قال على بن على بن ظفر يمدح أبا يزيد هذا: [من الكامل]

هذا وكم من وقعة مشهورة ... أبقيتهـــا مثلاً لكلّ ممثّـل
بثنية الأخـــوين يوم تركتهم ... متوسّدين وسائدًا من جندل

(١) الروض المعطار ١٣٣.

مدينة جلولا

ومن مدينة القيروان إلى مدينة جلولا[١] أربعة وعشرون ميلاً.

وبجلولا آثار وأبراج قائمة للأول وآبار عذبة وخرائب وجد فيها بعض الرعاة تاج ذهب بجوهرة، فأخذه منه ابن الأندلسى.

وبقرب جلولا منتزه يعرف بسردانية ليس بإفريقية موضع أجمل منه، فيه ثمار عظيمة وفيه من النارنج خاصة نحو ألف أصل وجلولا مدينة لها حصن وهى مدينة أولية قديمة مبنية بالصخر، وفيهاعين ثرة فى وسطها، وهى كثيرة الأشجار والثمار وأكثر رياحينها الياسمين، وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها وجرس نحلها له، وبها يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين وبالورد والبنفسج، وبها قصب السكر كثير ومنها كان يرد إلى القيروان (كل يوم) من أحمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة. وحولها (الجنات وقبائل) ضريسة فى القرارات.

وفتح مدينة جلولا كان على يدى عبد الملك بن مروان[٢]، وذلك أنه كان فى جيش معاوية بن حديج التجيبى، فبعثه إلى مدينة جلولا فى ألف رجل، فحاصرها أيامًا فلم يصنع شيئًا، فانصرف راجعًا فلم يسر إلا يسيرًا حتى رأى فى ساقة الناس غبارًا شديدًا فظن أن العدو يتبعهم، فكر جماعة من الناس لذلك وبقى من بقى على مصافهم، فإذا مدينة جلولا قد تساقط من سورها حائط، فدخلها المسلمون، وغنموا ما فيها فانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج، فاختلف الناس فى الغنيمة، فكتب (فى ذلك) إلى معاوية فراجع يقول إن العسكر ردة للسرية فقسم الفىء بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتى درهم وللفرس سهمان.

قال عبد الملك: فأخذت لنفسى ولفرسى ستمائة درهم واشتريت بها جارية.

ويقال: بل نازلها معاوية بن حديج، فكان يقاتلهم على باب المدينة صدر النهار، فإذا مال الفىء انصرف فقاتلهم يومًا، فلما انصرف نسى عبد الملك قوسه

---

(١) مراصد الاطلاع ١/ ٣٤٣.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٢٢١.

معلَّقة بشجرة فانصرف إليها، فإذا جانب من المدينة قد انهدم، فصاح فى أثر الناس فرجعوا فقد رأوا غبرة شديدة فظنوا أن العدوَّ قد ضرب فى ساقتهم فغنموها.

قالوا: فلما كان من عبد الملك بن مروان ما كان ومنازعته لمعاوية بن حديج على فيئها ثقل على معاوية بن حديج، فكان يتجهمه ولا يقبل عليه، فرأى حنش الصنعانى عبد الملك بن مروان وهو متفكر متغير اللون، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إنى أبعد قريش مجلسًا من الأمير، فقال له حنش: لا تغتم فو الله لتلين الخلافة (بعد هذا) وليصيرن الأمر إليك.

فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك، وبعث الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير رحمه الله، أخذ حنشا الصنعانى أسيرًا فبعث به إلى عبد الملك، فقال له عبد الملك: ألست الذى بشرنى بالخلافة؟ قال: بلى قال: فلم ملت عنى إلى ابن الزبير؟ قال: رأيته يريد الله ورأيتك تريد الدنيا فملت إليه، فعفا عنه وأطلقه.

* * *

ومن الغرائب ببلاد إفريقية ببلاد كتامة منها

قال أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبى خالد المتطبب ـ وقد ذكر الماء الذى يجرى فى الأشهر الحرم خاصة: إن عندنا بالمغرب (ببلاد كتامة) عين الأوقات معلومة، إنما يجرى ماؤها فى اليوم والليلة خمس مرات فى أوقات الصلوات الخمس وينقطع ما بين ذلك، وقد ذكرنا موضع هذه العين عند ذكر المراسى بعد هذا. وقد حدث جماعة ممن قصد إليها ورآها ووقف عليها بمثل ذلك.

وببلاد كتامة حجر اللازورد الجيد ومعادن النحاس والحديد.

وكانت بكنيسة شقبنارية فى سلطان الروم أعجوبة مرآة كانت إذا اتهم الرجل امرأته فنظر ُفى تلك المرآة يرى وجه المبتلى بها.

وكانت البربر قد تنصرت فكان منهم بربرى قد أظهر اجتهادًا فى النصرانية حتى صار شماسًا، واتهم رجل من الروم امرأته، فإذا بوجه البربرى الشماس، فدعا به الملك فقطع أنفه ومثل به وطرده من الكنيسة، فطرق قومه المرآه فكسروها، فأرسل الملك إلى حيهم فاستباحه.

مدينة سُوسة[1]

ومن القيروان إلى مدينة سوسة ستة وثلاثون ميلاً قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح: الشمال والجنوب والشرق، وسورها صخر منيع حصين متقن البناء يضرب فيه البحر ويدخل إلى دورها من قنى من الجهة الشرقية.

وفى ركن مدينة سوسة الذى بين المغرب والقبلة منار عال يعرف بمنار خلف الفتى، وبها ثمانية أبواب أحدها باب كبير جدًا شرقى يعرف (بباب دار الصناعة) منها تدخل المراكب وتخرج، ولمدينة سوسة بابان غربيان يقابلان الملعب، والملعب بنيان عظيم للأوَّل أقباء مرتفعة واسعة معقودة بحجر النشفة الخفيف الذى يطفو على الماء المجلوب من بركان صقلية، وحوله أقباء كثيرة يفضى بعضها إلى بعض.

وحول مدينة سوسة آثار عظيمة للأول، وبنيان سوسة كلها بالصخر المحكم، وبسوسة أسواق كثيرة وهى مخصوصة بكثرة الأمتعة والثمر، ولحم سوسة أطيب اللحوم، وهى رخيصة الأسعار، والفواكه، كثيرة الخير، وهى قديمة البناء.

وكان معاوية بن حديج قد بعث إليها عبد الله بن الزبير فى جمع كثيف، وكان بلغه أن نقفور - بطريقًا من بطارقة الروم - أنفذه ملكهم فى ثلاثين ألف مقاتل فنزل بذلك الساحل، فسار عبد الله حتى نزل شرفًا عاليًا ينظر منه إلى البحر بينه وبين سوسة اثنا عشر ميلا، فلما بلغ ذلك نقفور رجع إلى مراكبه وصدر عن ذلك الساحل، فركب عبد الله بن الزبير فى جيشه حتى بلغ البحر ونزل على باب مدينة سوسة وانحط عن فرسه وصلّى بالناس صلاة العصر، والروم يتعجَّبون من أمره وقلة اكتراثه بهم، (فأخرجوا إليه جمعًا منهم كثيرًا من كماتهم رجالاً وركبانًا، فزحفوا إليه) وهو مقبل على صلاته لا يروعه ذلك ولا يهوله حتى إذا قضى صلاته، شدَّ على فرسه فركبه وحمل عليهم فانكشفوا عنه فهزمهم وولوا أدبارهم حتى لجؤوا إلى مدينتهم فانصرف عنهم.

(١) انظر: رحلة التجانى ٢٥-٤٥ والروض المعطار ٣٣٢ ومراصد الاطلاع ٢/ ٧٥٥.

ومدينة سوسة منيعة ممتنعة على من رامها، قد جبل أهلها على الشدة والبأس، وحاصرها أبو يزيد مخلد شهورًا، ثم انهزم عنها وكان عليها فى ثمانين ألف حصان، ففى ذلك يقول سهل بن إبراهيم الوراق: [من الكامل]

إنَّ الخوارجَ صدَّها عن سوسة ... منا طعان السمر والأقدام

وجلاد أسياف تطاير بينها ... فى النقع دون المحصنات الهام[1]

وقال أحمد بن بلج السوسى: [من الوافر]

ألم بسوسة وبغى عليها ... ولكن الإله لها نصير

مدينة سوسة للغرب ثغر ... تدين لها المدائن والقصور

لقد لُعِنَ الذين بغوا عليها ... كما لعنت قريظة والنضير

أعز الدين خالق كل شىء ... بسوسة بعدما التوت الأمور

ولولا سوسة لدهت دواه ... يشيب لهولها الطفل الصغير

سيبلغ ذكر سوسة كل أرض ... ويفشى أهلها العد الكثير[2]

والخروج إلى القيروان من سوسة على الباب القبلى المعروف بباب القيروان، ومقبرة سوسة عن يمين هذا الطريق.

وكان زيادة الله بنى سورها وكان يقول: ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات: بنيانى المسجد الجامع، بالقيروان، وبنيانى قنطرة الربيع، وبنيانى حصن مدينة سوسة، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء إفريقية.

وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجامع للصالحين، وداخلها محرس عظيم كالمدينة، مُسَوَّرٌ بسور متقن يعرف بمحرس الرباط، وهو مأوى للأخيار والصالحين، داخله حصن ثان يسمى القصبة، وهو بجوفى المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل الذى هو فى سنده شرقى وأعلى المدينة غربى.

(١) رحلة التجانى بلا نسبة ٢٨.

(٢) الأبيات لأحمد بن أفلح فى البيان المغرب لابن عذارى ١/ ٣٢٧ ورحلة التجانى ٢٨.

ومدينة سوسة فى سند عال ترى دورها من البحر إذا قصدوا من صقلية وغيرها، ولهذا الهيكل أربعة أدراج يصعد من كل واحد منها إلى أعلاه، وهو هيكل واسع بين بابه الذى يدخل منه والثانى الذى يخرج منه مسافة طويلة.

والحياكة بسوسة كثيرة ويغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب، وبسوسة تقصر ثياب القيروان الرفيعة.

وجباية ساحل القيروان: سوسة والمهدية وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخراج الذى لغير بيت المال ثمانون ألف مثقال.

* * *

مدينة منستير[١]

ومن مَحَارِس سُوسَةَ المذكورة محرس المُنَسْتِير، الذى جاء فيه الأثر[٢] المتقدِّم الذِّكر.

ويُذْكر أن الذى بنى القصرَ الكبير بالمُنَسْتِير هو هرثمة بن أعين[٣] سنة ثمانين ومائة.

وله فى يوم عاشوراء موسمٌ عظيمٌ، ومجمع كثير.

---

(١) المُنَسْتير: مدينةٌ عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدةٌ بنحو اثنى عَشَر ميلاً من سُوسَة، تُحيطُ بها أسوارٌ متينةٌ عالية البناء، ودورها مَبْنيةٌ من الداخل بعناية كذلك.

وصف إفريقيا ٢/ ٨٤ وفى خُلاصة تاريخ تونس ٧٤ «المُنَسْتير: رباطٌ للمسلمين لحماية الثغر من نصارى البحر المتوسط، أسَّسه هرثمة بن أعين حين بَعَثَهُ الرَّشيد واليًا على إفريقيا عام ١٧٩هـ».

(٢) الأثر الوارد فى المُنَسْتير: «بساحل قمونية بابٌ من أبواب الجَنَّة، يقالُ له المُنَسْتير، مَنْ دَخَلَهُ فَبِرَحمة الله، ومَنْ خَرَج منه فبعفو الله». الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ١/ ٢٢٨ ونزهة الأنظار ١/ ٥٠٠.

وورد أيضًا عن أنس قال: قال ﷺ: «مَنْ رَابَط بالمُنَسْتير ثلاثة أيام، وَجَبَتْ له الجَنَّة». الحلل السندسية ١/ ٢٢٩.

(٣) هرثمة بن أعين: عامل الرشيد على إفريقيا عام ١٧٩هـ.

وبالمُنَسْتِير البيوتُ والحجر، والطَّواحينُ الفارسيةُ، ومواجِلُ الماء[١].

وهو حِصْنٌ عالى البناء، متقن العمل، وفى الطَّبَقَة الثانية منه مسجدٌ لا يخلو من شيخ فاضلٍ، يكون مدَارُ القوم عليه، وفيه جماعةٌ من الصَّالحين والمُرَابطين[٢]، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر.

قال محمد بن يوسف: هو قصرٌ كبيرٌ عالٍ، داخله رَبَض[٣] وَاسِعٌ، وفى وسط الرَّبَضِ حِصْنٌ ثان كبير كثير المساكن والمساجد.

والقِصَابُ العاليةُ طبقاتٌ بعضُها فوق بعضٍ، وفى القبلة منه صحنٌ فسيحٌ، فيه قبابٌ عَالية متقنة البناء، تنزلُ حولها النساءُ المرابطاتُ تعرف بقباب جامع. وبها جامعٌ مُتْقَنُ البناء، وهو آزاج[٤] معقودة كلُّها، وأَقْبَاء لاخَشَبَ فيها، ولها حمَّامات كثيرة، وكان أهلُ القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصَّدقات الجزْلَة.

وبقرب المُنَسْتِير مَلاَّحةٌ عظيمة[٥]، تُشْحَنُ فيها السفنُ بالملح إلى البلاد، وبقربه محارس خمسة مُتْقَنَةُ البناء معمورةٌ بالصَّالحين.

* * *

ذكر مدينة تونس

ومن القيروان إلى مدينة تونس مائة ميل، وهى ثلاث مراحل: فإلى فندق شكل مرحلة، وإلى مُنَسْتِير عثمان مرحلة، وإلى القيروان مرحلة.

وطريق آخر إلى منزل بَاشُو إلى الدَّوَاميس إلى القَيْرَوَان.

ودور مدينة تونس أربع وعشرون ألف ذراع[٦]، وفى سنة أربع عشرة ومائة بنى

(١) الماجل: الماء الكثير المجتمع، معرَّب. اللسان (مجل) ١٣/ ٣٢.

(٢) انظر: تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ٤٢.

(٣) الرَّبَضُ: ما حولَ المدينة، وقيل: هو الفضاء حول المدينة، ووسط الشىء. اللسان (ربض) ٥/ ١١١.

(٤) الأَزَجُ: بناءٌ مستطيلٌ مُقَوَّس السَّقف، جمعه آزُجٌ وآزاج. المعجم الوسيط (أزج) ١/ ١٥.

(٥) الروض المعطار ٥٥١.

(٦) وصف إفريقيا ١/ ٨٨.

عُبَيْد الله بن الحبحاب الجامعَ ودار الصناعة بمدينة تونس.

وأَهْلُهَا موصوفون بدناءة النفوس.

واسم مدينة تونس فى الأول: تَرْشِيش[١]. ويُقَال لبحرها بحرُ رَادِس، وكذلك يُسَمى مَرْسَاها مَرْسى رَادِس[٢].

وافتتحها حَسَّان بن النُّعْمَان[٣] بن عَدِيّ بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر الأزدى.

وروى جماعةٌ عن أبى المهاجر قال: سار حسَّان بن النعمان إلى أَرْطَة فقاتل الروم بِفَحْصِ تُونُسَ، فسأله الروم أَلاَّ يدخل عليهم، وأن يضعَ الخَرَاجَ عليهم، ويقومُوا له بما يَحْمِلُه وأَصْحَابُه، فأجابهم إلى ذلك.

وكانت لهم سُفُنٌ مُعَدَّةٌ من ناحية الباب الذى يقال له بَابُ النساء فاحتملوا فيها أَهْلَهُم وأَمْوَالهم وَهَرَبُوا ليلاً، وأَسْلَمُوا المدينة، فدخلها حَسَّان فحرَّق وخَرَّب، فبنى بها مسجداً، وبقى هناك طائفةٌ من المسلمين.

وكذلك كان من مَكْرِ صاحب قرطَاجَنَّة أيضًا بَحسَّان بن النعمان أَنَّ الرُّومَ لما فروا عنها وبقى فيها مرْنَاق[٤] صَاحِبُها، ليس معه إلاَّ أَهْلُه، بعث إلى حسَّان: هَلْ لَكَ أَنْ تُعَاهِدَنى وولدى وتقطع لى قَطَائِعَ أَشْتَرِطُها عَلَيْك، وأَفْتَحُ لك بابًا فتدخلَ المدينة على من فيها؟

فأجابه إلى مسألته، فاشترط عليه المنازل التى بين الجبلين التى يقال لها فَحْص مرْنَاق[٥]، وهى إذ ذاك ثلاثمائة وستون قرية، ثم فتح لهم الباب، فلم يجد بها أحدًا غيره وغير ولده وأهله، فتم له حسان ما اشترطه، وانصرف إلى القيروان قال: وأغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين فى مدينة تونس، وخرجت إليهم فى المراكب، فقتلوا مَنْ بها وسَبُوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين

---

(١) نزهة الأنظار ١/ ١١٧.

(٢) وصف إفريقيا ١/ ٨٨.

(٣) صورة الأرض ٧٥ ووصف إفريقيا ١/ ٨٨.

(٤) الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ١/ ٥٤٤ـ٥٤٥ ونزهة الأنظار ١/ ٢٢٩.

(٥) الحُلَل السُّنْدُسية فى الأخبار التونسية ١/ ٥٤٤ـ٥٤٥.

شىءٌ يُحَصِّنُهم من عَدُوِّهم، إنّما كانوا معسكرين هناك، وبلغ حَسَّانُ ذلك فرحلَ إلى تونس، وأرسلَ أربعين رَجُلاً من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام هناك مُرَابطًا ينتظر رَأْىَ عبد الملك(١).

فلمَّا بلَغ ذلك عبد الملك، عَظُمَ عليه، وكان إذا ذاك التَّابعون متوافرين، فيهم اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ أَنَسُ بن مالك، وزيد بن ثابت، فقالا للمسلمين: «مَنْ رَابَطَ بِرَادَسَ يومًا فلَهُ الجَنَّةُ حَتْمًا»(٢).

وقالا لعبد الملك: امْدُدْ هذه البلاد، وانْصُرْ أَهْلَها لتأْمَنُوا من العَدُوِّ، ويكونَ لك ثوابُها وأَجْرُها، فإنها من البلاد المُقَدَّسَة المَرْحومِ أهلُهَا، وهى حَرَسٌ لمقدونية»(٣) يريدون القيروان، وَرُوِىَ أنَّ ببحر رَادس خَرَقَ الخضرُ عليه السَّلام السَّفينة وأنَّ الملك الذى كان يأخذ كُلَّ سفينة غَصْبًا: الجَلَنْدَى(٤)، ملك قرطاجنة.

فخرق الخضر السَّفينة ببحر رادس(٥)، وقتل الغلام بطَنَّبدة، وهى اليوم تُسَمَّى «المُحَمَّدِيَّة»، وهناك فارقَ موسى الخِضْرَ عليهما السلام وَطَنَّبْدَةَ: على أميال يسيرة من تونس.

فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز، وهو والى مصر أَنْ يُوَجِّهَ إلى معسكر تونس ألفَ قِبْطِىٍّ بأهله وولده، وأَنْ يحملَهم من مصر، ويحسنُ عَوْنَهم حتى يصلوا إلى تَرْشِيش(٦)، وهى تونس.

---

(١) الحلل السندسية ١/٥٤٨.

(٢) الأثر فى الحلل السندسية ١/٥٤٥.

(٣) فى الحلل السندسية «قمُّودة».

(٤) الحُلَل السندسية ١/٥٤٦.

(٥) ذكر صاحب الحُلَل السُّنْدُسية ١/٥٤٧ عن التجانى فى رحلته ٥-٨ أنَّ قولَ مَنْ قال: إنَّ السَّفينة إنَّما خرقت ببحر رَادس، وأنَّ الجدار أقيم بالمحمَّدِيَّة هو قولٌ يخالفه أكثر المفَسِّرين، فعن بعضهم أنَّ القرية التى استطعما أهلها: بَرْقة، وعن بعضهم أنها الجزيرة الخضراء بالأندلس، وقال بعضهم: أنطاكية وعن بعضهم: الأيْلة، فأَهْلُ أَيْلَةَ معروفون بالبُخْلِ، ويروى أنهم أَتَوْا إلى عمر بن الخطاب، فرغبوا إليه أن يثبتَ لهم قوله سبحانه: ﴿فَأَبوا أن يُضَيِّفُوهما﴾ [الكهف: ٧٧] بالتاء المُثَنَّاة».

(٦) وصف إفريقيا ٢/ ٧٠ وتاريخ البحرية الإسلامية ٣٣.

وكتب إلى ابن النُّعْمَان أنْ يَبْنِيَ لهم دارَ صِنَاعَة[١] تكونُ قُوَّةً وَعُدَّةً للمسلمين إلى آخر الدهر، وأنْ يجعلَ على البَرْبَرِ جَرَّ الخَشَبِ لإنشاء المراكب؛ ليكون ذلك جاريًا عليهم إلى آخر الدهر، وأنْ يصْنَعَ المراكبَ ويجاهد الرُّومَ في البَرِّ والبَحْرِ، وأنْ يَغارَ منها على سواحل الروم فيشتغلوا عن القيروان، نظرًا للمسلمين وتحصينًا لشأنهم.

فَوَصلَ القِبْطُ إلى حسَّان وهو مقيم بتونس[٢]، فأجرى البحرَ من مَرْسى رادس إلى دار الصِّناعة، وجَرَّ البَرْبَرُ الخشبَ، وجَعلَ فيها المراكب الكثيرة، وأمرَ القِبْطَ بعمارتها.

وَبِشَرْقِيِّ مدينة تونس بحيرةٌ كبيرة، دورُها أربعةٌ وعشرون ميلاً، في وسطها جزيرة تُسَمَّى «شكْلَة» مقدار ميلين، تُنْبِتُ الكَلْخَ، وبها آثارُ قَصْرٍ خرب[٣].

فصارت دار صناعة تونس مُتَّصِلةً بالمِينَى، والمِينَى مُتَّصِلٌ بالبُحَيْرَةِ، والبُحَيْرَةُ مُتَّصِلَةٌ بالبحر.

وعلى شاطىء المِينَى مسجدٌ يُعْرَفُ بمسجد عبد الله، وبِقِبْلِيِّ المِينَى قَصْرٌ مَبْنِيٌّ بالحجارة مُتْقَنُ البِنَاءِ، وفي الجَوْفِ منه حائطٌ صخرٌ كالسور، فصار المدخل بالسُّفُن في هذا المِينَى بَيْنَ حائطِ القصر وهذا السور، وتعرضُ بينَهُما سِلْسِلَةُ حديدٍ تمنع المراكب من الدُّخولِ والخروج ما دامت مُتَعَرِّضَةً.

وهذا القصرُ يُعْرفُ «بقصر السِّلْسِلَة».

وبقِبْلِيِّ القصر صهريجان كبيران، كان ملوكُ بني الأغلب يرسلون فيها ماء البحر وَيملَؤُنَهَا بالسَّمك.

وقد تقدَّم أنَّ عُبَيْد الله بن الحَبْحَاب[٤] بنى دار الصِّناعة، فلعلَّ من روى ذلك

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: تاريخ البحرية الإسلامية ٣٣ـ٤١.

(٢) إلى هنا النقل عن البكري في الحلل السندسية ١/ ٥٤٩.

(٣) الحُلَل السندسية ١/ ٥٤٥.

(٤) هو عُبَيْد الله بن الحَبْحاب السلولي الموصلي: أميرٌ، من الرؤساء النبلاء الخطباء، كان مولى لبني سلول، ونشأ كاتبًا، وولي مصر زمنًا. ونقله هشام بن عبد الملك إلى إفريقية سنة ١١٧هـ، أو قبلها، فسار إليها وضبط أمورها، وسَيَّر الغُزَاةَ إلى صقلية والسوس وأرض =

يريدُ أَنَّ عبيدَ الله جَدَّدَها وزادها تحصينًا، فلم تزلْ تونس معمورة من يومئذٍ، يغزو منها المسلمون بلادَ الرُّوم، ويكثرون فيهم النّكاية ولهم الإِذَاية.

ومدينة تونس فى سَفْحِ جبلٍ يُعْرَف بجبلِ أُمِّ عمرو[1]، ويدورُ بمدينتها خندقٌ حَصِينٌ، ولها خمسةُ أبواب: بابُ الجزيرة قِبْلِىٌّ يُنْسَبُ إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة، وهو جبلٌ عالٍ لا يُنبتُ شيئًا.

فى أعلاه قَصرٌ مَبْنِىٌّ مشرفٌ على البحر، وبشرقى هذا القصر غارٌ منحنى الباب يُسَمَّى المعشوق، وبالغرب منه عين ماء، وبغربِىٍّ هذا الجبل جبلٌ يُعْرَف بجبل الصيادة، فيه قرى كثيرة الزيتون والثمار والمزارع، وفى هذا الجبل سبعة مواجل للماء، أقباء على غرار واحدٍ.

وبغربىّ هذا الجبل أشراف ومزارع مُتَّصلة بموضع يعرف بالملعب، فيه قصر لبنى الأغلب، قد غرس بجميع الثمار وأصناف الرّياحين.

وبشرقىّ مدينة تونس المِينَى والبحيرة ـ التى ذكرناها ـ وسَنَجةٌ وبشرقيها أيضًا باب قرطاجنة دونه داخل الخندق بساتين كثيرة، وآبار بسوانٍ تعرف سوانى المرج.

وباب السَّقَّائين جوفىّ، نُسب إلى السَّقَّائين؛ لأن بئرًا تعرف ببئر أبى القفار تقابِلُه، وهى بُئر كبيرة غزيرةٌ عذبة الماء، نَميرةٌ.

وهناك قصور لبنى الأغلب وبساتين، فيها أصناف الثمار والرَّياحين، ويتَّصل بها جبلٌ أَجْرَدُ يقالُ له جبل خفاجة، فى أعلاه آثار بنيان. وباب أَرْطة غَرْبِىٌّ، وتجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب من داخل الخندق غدير كبيرٌ يُعرفُ بالفَحَّامين. ورَبَضُ المرضى خارجٌ عن المدينة، وبقبلِىّ رَبَضَ المرضى مَلاَّحة كبيرة، منها ملحهم وملح مَنْ يجاورهم.

وجامع مدينة تونس رفيعُ البناءِ، مُطِلٌّ على البحر، ينظر الجالسُ فيه إلى جميع

= السودان، واتخذ بتونس «دار صناعة» لإنشاء المراكب البحرية، وأنشأ الجامع الأعظم بتونس «جامع الزيتونة». وفى أيامه انتشر مذهب الإباضية والصفرية فى برابرة المغرب، فثاروا، وكان بعض عُمّاله قد أساءوا السيرة، فاضطرب عليه أمر البلاد، فاستقدمه هشام إليه وعزله سنة ١٢٣هـ الأعلام ٤/ ١٩٢.

(١) فى الحلل السندسية ١/ ٥٤٣ «جبل أبى عمرو».

جواريه، ويُرْقى إلى الجامع من جهة الشرق على اثنتى عشرة درجة، وبها أسواق كثيرةٌ ومتاجرُ عجيبةٌ.

وبمدينة تونس خمسة عشر حَمَّامًا، وفنادق كثيرة رفيعة.

وعُضَادات أبواب دور مدينة تونس كُلُّها رخام بديعٌ، لوحان قائمان، وثالث معترض عليهما مكان العتبة.

ومن أمثالهم: «دور تونس أبوابها رُخامٌ ودَاخِلُها سُخَامٌ»(١).

ومدينة تونس دارُ عِلْمٍ وَفِقْهٍ، وَلِىَ منها قضاءً إفريقية جماعةٌ كثيرة. ومع هذا الفضل الذى فيها، هى مخصوصة بالقيام على الأمراء والخلاف للولاة، خالفت نحو عشرين مَرَّةً، وامْتُحِنَ أهلُها أيَّام أبى يزيد(٢) بالقتل والسَّبْىِ وذهاب الأموال وقال الجربى صاحب الحدثان: [من الطويل].

فويلٌ لِتَرْشِيشَ وَوَيْلٌ أَهْلِهَــا من الحَبَشِىِّ الأسودِ المُتَغَاصِبِ(٣)

وقال بعض الشعراء: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا أَلْفَيْتُ تُونُسَ كَاسْمِهَا وَلَكِنَّنِى أَلْفَيْتُها وَهِىَ تُوحِشُ(٤)

وتصنع بتونس آنية للماء من الخزف تعرف بالرِّيحيَّة، شديدة البياض، فى نهاية الرِّقَّة تكادُ تشِفُّ، ليس يُعْلَمُ لها نظيرٌ فى جميع الأقطار وعامَّة الأمصار.

ومدينة تونس من أشراف مدائن إفريقيا، وأطيَبها ثمرًا وأنفسها فاكهةً، فمن ذلك: اللُّوزُ الفَرِيك، يَفْرُكُ بعضُه بعضًا من رِقَّة قِشرِهِ، ويُحَتُّ باليد، وأكثرهُ حَبَّتان فى كُلِّ لوزة، مع طيب المضغة وعِظَمِ الحَبَّةِ.

والرُّمَّانُ الضعيفُ، لا عجم لِحَبِّه أَلْبَتَّةَ، مع صِدْق الحلاوة وكثرة المائية. والأتْرُجُّ الجليل الطَّيِّب الطَّعْم الذَّكِىُّ الرائحة البديع المنظر.

(١) المثل فى الروض المعطار ١٤٣.

(٢) هو أبو يزيد الخارجى.

(٣) للجربى صاحب الحدثان فى معجم البلدان (تونس) ٢/ ٤٦٧ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٩٨.

(٤) بلا نسبة فى معجم البلدان (تونس) ٢/ ٤٦٧ والروض المعطار ١٤٤ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٥٢٢.

والتِّينُ الخارمى أسود كبير رقيق القشر، كثير العسل، لا يكاد يُوجَدُ له بذرٌ، والسَّفَرْجَلُ المتناهى كبراً وطيبًا وعطرًا.

والعناب الرَّفيع فى قدر الجوز. والبصل الفلورى فى خَلْقِ الأترجّ، مستطيلٌ سابرىّ القشر، صادق الحلاوة، كثير الماء.

وبها من أجناس الحوت الذى لا يكون مثله فى غيرها ما لا يحصى كثرةً فى أجناس تجرى فى البحر مع شهور العجم، فى كُلِّ شهرٍ من تلك الشهور يجرى فيه جنسٌ منه، لا يوجَدُ فى البحر إلى دخول ذلك الشهر من العام المقبل. فَهُمْ مِنْ تَجدُّدِها فى لَذَّة موصولة، ونعمة غير مملولة، وكل جنس منها يصير ويبقى السنين صحيح الجرْمِ، طيِّب الطَّعم، منها جِنْسٌ يُعْرَف بالعبانق، وجنسٌ يعرف بالأكتوبرىّ، وجنسٌ يُعرف بالأشبارش وجنس يعرف بالملكوس، وجنسٌ يُعرف بالبقونس، ومن أمثالهم: «لولا البَقُونس لم يخالف أهل تونس»[1].

وفى الطريق بينها وبين القيروان منزلٌ يُقال له: (مجقَّة).

إذا كان أوانُ طِيب الزيتون بالساحل قصدته الزَّرَازِرُ فباتت فيه وقد حمل كل طائر منها زيتونتين فى مخلبيه، فيلقى الزيتون هناك. وله غَلَّةٌ عظيمةٌ تبلغُ سبعين ألف درهم.

* * *

ذكر مدينة قرطاجنة[2]

ومن مدينة تونس إلى قرطاجنة اثنا عشر ميلاً، ويقالُ إنَّ الذى بنى قرطاجنة: (ديدون الملك) زمن داود ـ عليه السلام.

ويقالُ إنَّ بين بناء قَرْطَاجَنَّة وبناء مدينة رومية اثنتين وسبعين سنة. ولو دخَلَها الدَّاخِلُ أيام عمره وتَدَبَّر فيها، لرأى كُلَّ يومٍ مستأنفٍ أُعْجُوبةً لم يَرَها فى السَّالف.

---

(١) الروض المعطار ١٤٤.

(٢) انظر فى وصف قرطاجنة: الروض المعطار ٤٦٢ـ٤٦٥ والحُلَل السُّنْدُسية ١/ ٥٢٢ ووصف إفريقيا٢/ ٩٨ ـ٩٩ ونزهة الأنظار ١/ ١٢٠ـ١٢٢.

وهى على شاطئ البحر، يصيبُ سورها أمواجه. وكان تكسير سورها أربعة عشر ألف ذراع.

«وقال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبِّب[١] القيروانىّ فى مغازى إفريقية: إن موسى بن نُصَير[٢] لَمَّا دخل الأندلس، فأتى على ما أراد منها قال لهم: دُلُّونى على أسَنِّ شيخ فيكم، فَأُتِىَ بشيخٍ قد وقعت حاجباه عن عينيه من الكِبَر. فقال له موسى: مِنْ أيْنَ أنت يا شيخ؟

قال: مِنْ قرطاجنّة إفريقية.

فقال له موسى: فما الذى أصارَك هنا؟ وكيف كان خبر قرطاجنة؟

قال له: أتعرفُ مَنْ بنى قرطاجنة؟

فقال له الشيخ: بناها قومٌ مِنْ بقية العادين الذين هلك قومهم بالرِّيح فبقيت بعدهم خرابًا ألف سنة حتى بناها أردمين بن لاوين بن نمرود الجبّار، وجلَب إليها الماء العذب من دلالا، فحفرَ له فى الجبال وبنى القناطر فى بطون الأودية حتى استوى جرى الماء فيه بعد عمل أربعين سنة، قال: فلمَّا حفرَ أساسَ تلك القناطر فى طول الأودية أُصِيبَ فيه حجرٌ عليه كتابةٌ، فإذا فيه: إنَّ هذه المدينة ليست تخربُ إلاَّ إذا ظهر فيها الملح. قال الشيخ: فبينما نحن ذات يوم فى مجرى قرطاجنة جلوسٌ، إذا بملحٍ على حجر، فعند ذلك رحلتُ إلى هاهنا»[٣].

وكان سببُ خراب قرطاجنة أن أنيبل[٤] ملك إفريقية ـ وكانت قرطاجنة دار

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد، أبو جعفر القيروانى، ابن الجزار: طبيبٌ مؤرخ، من أهل القيروان، له زاد المسافر وقوت الحاضر فى الطب، والتعريف بصحيح التاريخ، والبغية فى الأدوية المركبة، وغيرها، توفى سنة ٣٦٩هـ الأعلام ١/ ٨٥.

(٢) موسى بن نُصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء، أبو عبد الرحمن: فاتح الأندلس أصله من وادى القرى بالحجاز، كان أبوه نُصير على حرس معاوية. ونشأ موسى بدمشق وولى غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى بها حصونا، وخدم بنى مروان، وولى لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة فى عهد الحجاج، وغزا إفريقية، وفتح الأندلس ولد عام ١٩ هـ وتوفى سنة ٩٧ هـ.

(٣) الحلل السندسية ١/ ٥٢١ والاستبصار ١٢٤.

(٤) فى الحلل السندسية ١/ ٥٢٣ «أنيبال».

مُلكه ـ مضى إلى بلد إيطالية الذى فيه مدينة رومة ولاقى قوّاد رُومة، وكان أهل رومة يومئذ لا ملك لهم، إنما كان تدبير مملكتهم إلى سبعين رجلاً من كبائرهم يخرجون من أنفسهم كل عام اثنى عشر قائدًا، يقرعون بينهم على نواحيها فيخرج كل واحدٍ إلى النَّاحية التى وقعت عليها قرعته، فهزمهم أنيبل وقتلهم فى عِدّة مواطن، حتى بعث إلى إفريقية بثلاثة أمداء من خواتم الذهب التى كانت فى أيدى أشراف من قتل منهم وملوكهم، فكتب إليهم: هذا عدد من قتلته من الأشراف والعقاد، فضلاً عن غيرهم.

فأقام فى بلاد إيطالية محاربًا لمدينة رومة ومُضيقًا على نواحيها نحوًا من ستّ عشرة سنة، فركب قائدٌ من قُوَّادهم يُقال له: (شبيون) فى المراكب خفية حتى أتى صقلّية، فحشر من اجتمع له بها، ثم مضى إلى بلد إفريقية وترك (أنيبل) محاصرًا لبلد رومة، فنصر على الإفريقيين، وعَمَّ بلد إفريقية قَتْلاً وسَبْيًا واحتراقًا، وبقى مُحاصِرًا لقرطاجنة، فبعث أهلها إلى أميرهم: أنيبل يعلمونه بما دَهَمَهُم من أهل رومة ويسألونه الإسراع لغياثهم، فعجب من ذلك أنيبل وقال: إنّى كنت أرى أنَّ التزامى محاصرة هذه المدينة يقطع اسم الرومانيين من الدُّنيا، فأظُنُّ أنَّ إله السماء لا يأذن لى بذلك.

ثم ركبَ المراكبَ وأسرع الرُّجوع إلى إفريقية، فزحفَ إليه شبيون قائد الرومانيين، فهزمه فى كل مَشْهَد.

فجعل أنيبل يخاطبه ويقول: أين كنتم معشر الرومانيين من هذه النجدة إذْ كُنَّا نُقَاتلكُم ونهزمكم فى أفنيتكم؟

فقال له شبيون: إذ كُنْتُم فى بلدنا قد بَعُد عنكم بَلَدُكم وحُصُونكم، ونحنُ فى حُصُوننا وبلدنا كُنَّا أشد منكم خورًا، وكنتم أشدَّ منَّا استثباتًا، فلمَّا صرْنا فى بلدكم انتقل الأمرُ، وتبدَّل الحكم، فغلب عند ذلك أهل رومة على أهل إفريقية، وهدموا مدينة قرطاجنة.

وأعجب ما بقرطاجنّة: دار الملعب، وهم يُسَمُّونها الطَّياطِر[1] قد بُنيت أقواسًا على سوارى، وعليها مثلها ما أحاط بالدَّار وقد صورَّ فى حيطانها جميع الحيوان

(١) الحُلَل السُّندسية ١/٥٢٦ والروض المعطار ٤٦٣ ونزهة الأنظار ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

وصور أصحاب جميع الصناعات.

وروى الثِّقاتُ عن عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعَم[١] قال: كنتُ وأنا غلامٌ مع عَمِّي بقرطاجنة، نمشى فى آثارها، ونعبر بعجائبها، فإذا بقبرٍ مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبد الله بن الأواس رسولُ رسولِ الله صالح[٢].

وفى رواية أخرى: أنا معتب، بُعِثْتُ إلى أهل هذه القرية، أدعوهم إلى الله، أتيتهم ضُحًى، فقتلونى ظُلْمًا، فحسيبهم الله.

وقال إسحاق بن عبد الملك المَلَشُونى: لم يدخل إفريقية نَبِىٌّ قطّ، وأَوَّلُ من دخلها بالإيمان حَوَارِىّ عيسى ابن مريم عليه السلام.

وفيما بين مدينة سُوسة[٣] ومدينة تونس، جزيرة شَرِيك[٤]، تُنْسَب إلى شَرِيك العَبْسى، كان عاملاً عليها.

وأُمُّ إقليم جزيرة شَرِيك: منزل بَاشُوا، وهى مدينةٌ كبيرةٌ آهِلَةٌ، بها جامع وحمَّامات، وثلاث رحاب، وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى، القائم على ابن الأغلب.

(١) عبد الرحمن بن زياد بن أنْعَم المعافرى الإفريقى، أبو خالد: (٧٥-١٦١هـ) قاضٍ من العلماء اشتهر بالجرأة على الملوك وزجرهم عن الجور والعسف، وولد ببرقة، وهو أول مولود فى الإسلام بإفريقية، ونشأ بها، وولى قضاء القيروان مرتين. ثم رحل إلى بغداد، فاتصل بالمنصور العباسى قبل أن يلى الخلافة، وجمعت بينهما جامعة الاشتغال بالعلم، وأحبه المنصور، فكان رفيقه. ولَمَّا وُلِّى المنصور الخلافة دعاه إليه، فوعظه ابن أنعم وحذّره من ارتكاب المظالم، وانتقد بعض أعماله، واستأذنه فى العودة إلى القيروان، فأذن له، ولم يجئه بعد ذلك توفى فى القيروان وأخباره كثيرة له مسند فى الحديث جزءان. الأعلام ٣/٣٠٧ وطبقات علماء إفريقية ٢٧-٣٣ وتاريخ بغداد ١٠/ ٢١٤.

(٢) الروض المعطار ٤٦٥ والاستبصار ١٢٤.

(٣) سُوسة: مدينة كبيرة عتيقة، بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، على بعد ميل من تونس، اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالى لَمَّا ملكوها وملكوا الشاطئ وصف إفريقيا ٢/ ٨٣ وصورة الأرض ٧٤-٧٥.

(٤) جزيرة شريك: تنسب إلى شريك العبسىّ، أحد عُمَّالها فى قديم الزمان وهو والد قُرَّة بن شريك والى مصر من قِبَل الوليد بن عبد الملك الذى يقول فيه الشاعر:

عجبًا ما عجبتُ مِمَّن أتانا ... حين أَمَّرْت قُرَّة بن شريك

الحلل السندسية ١/ ٥٣٢.

وكان يجرى إلى هذا المصنع الماءُ المجلوبُ من عين جقار إلى قرطاجنة على مسيرة أيام فى قناة عظيمة تُغَيَّب مَرَّةً تحت الأرض، وتكون فى موضع آخر فى قناطر، فوقه قناطر حتى تساوى السَّحاب.

ومن عين جقار كان عُبَيْد الله الشِّيعى[١] يشرب الماء، يَرِدُ عليه كُلَّ يومٍ سِتَّةَ أحمالٍ معروفة.

وبقرطاجَنَّة قصران من رخام يعرفان: بالأخْتَين[٢]، ليس فيهما حجرٌ سواه مُحْكم البناء، رُخَامُه كُلُّه مدخل بعضه فى بعض، وبهذين القصرين ماءٌ مجلوبٌ يأتى من قبل الجوف لا يعرف من أين منبعثه يَصُبُّ فى البحر، وعليه نواعير[٣] لقرى قرطاجنة، وبها سوارى قائمة، طولُ الظَّاهِرِ فوق الأرض منها: أربعون ذراعًا. قد عقد عليه قبو من حجر النشفة: وهو الحجرُ الخفيف الذى يطفو فوق الماء.

وبها قُبَّةٌ لا يلحقها الرَّامى بأشَدِّ نَزْعِ السِّهام عَلُوًا وسُمُوًا، حولها سَطْحٌ مفروش بالفُسَيْفِساء، خمسون ذراعًا فى مثلها.

وخرائب قرطاجنة اليوم قُرى رفيعة مفيدة عامرة، وأصناف ثمارها متناهيةٌ فى الطِّيب، لا يكاد يُرَى ما يفضُلُها.

وجُعِلت فيه صور الرِّياح، وجُعَل صورة الصَّبَا وَجهٌ مُسْتَبْشِرٌ، وصورة الدَّبُور

---

(١) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، أبو عبد الله، المعروف بالشِّيعىّ، ويلقَّب بالمُعَلِّم: ممهِّد الدولة للعبيديين، وناشر دعوتهم فى المغرب، كان من الدُّهاة الشجعان، من أعيان الباطنية وأعلامهم، من أهل صنعاء، اتَّصل فى صباه بالإمام محمد الحبيب (أبى المهدى الفاطمى) وأرسله محمد إلى «أبى حوشب» فلزم مجالسته وأفاد من علمه، ثم بعثه مع حُجَّاج اليمن إلى مكة وأرسل معه «عبد الله بن أبى ملا» فلقى فى الموسم رجالاً من «كتامة» فأخذوا عنه المذهب ورحل معهم إلى المغرب، ودعا «كُتَامة إلى بيعة» المهدى، وامتلك القيروان وأجلى عنها ملكها (زيادة الله الأغلبى) وبايع عبيد الله المهدى وأقام دولة، ثم قتله عُبَيْد الله المهدى بأن أمر اثنين من رجاله بقتله وقتل أخ له يعرف بأبى العباس.، وكان قتله سنة ٢٩٨هـ الأعلام ٢/ ٢٣٠ ووفيات الأعيان ١/ ١٦٢ والمقدمة لابن خلدون ٣/ ٣٦٢.

(٢) الحُلل السُّندسية ١/ ٥٢٧.

(٣) النواعير: جمع ناعورة، وهى دولابٌ ذو دِلاءٍ أو نحوها، يدور يدفع الماء أو جَرِّ الماشية، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. المعجم الوسيط (نعر) ٢/ ٩٤٢.

وَجْهٌ عابِسٌ.

ورخام قرطاجنة لو اجتمع أهل إفريقيا على نقله واستخراج جميعه ما أمكنهم ذلك لكثرته.

وفيها قَصْرٌ يُعْرف: بالمعلّقة، مُفْرط العظم والعُلُوِّ، أقباءٌ معقودةٌ وطبقاتٌ كثيرة، مُطِلٌّ على البحر، فى غربيِّه قَصْرٌ يُعْرَف بالطَّيَاطر، وهو الذى فيه دار الملعب المذكور.

وهو كثير الأبواب والتراويح، وهو أيضًا طبقاتٌ كثيرةٌ، على كل باب صورة حيوان رخام، وصور جميع الصُّنَّاع.

وقصرٌ يُقَال له: قُومش، طبقات كثيرة أيضًا فى سوارى رخام مفرطة الكبر والعظم، يتربَّعُ على رأس السَّارية منها اثنا عشر رَجُلاً وبينهم سُفْرَةُ طعام أو شراب، وهى مشطَّبَةٌ كالثَّلج بياضًا، والمهاة صفاءً، بعض تلك السَّوارى قائمة، وبعضها ساقطة.

وبها قَبْوٌ عظيمٌ لا يدرك الطرف آخره، فيه سبعة مواجل للماء كبار تُعَرف بمواجل الشياطين، فيها ماءٌ قديم لا يدرى متى دخلها.

وبقرب قصر (قومش) سجنٌ، أقباءٌ بعضها فوق بعض، مُظلمٌ مهيب الدُّخول، فيه جُثَثُ الموتى على حالهم إلى اليوم، فإذا مُسُّوا تَلاَشوا.

وداخل المدينة مِينَى، كانت المراكب تدخلُها بِشُرُعِها، وهى اليوم مَلاَّحَةٌ[1]، عليها قَصْرٌ ورباطٌ يُعْرَف ببرُج أبى سليمان، وفى وسط المدينة صهريج كبير حوله في وقتنا هذا ألف وسبعمائة حنيةٍ قائمة سوى ما انهدمَ منها.

ويجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبد الله بن سعد بن أبى سرح[2]

---

(١) الحُلَل السندسية ١/٥٢٨.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح القرشى العامرى، من بنى عامر بن لُؤَى، من قريش: فاتح إفريقية، وفارس بنى عامر، من أبطال الصحابة. أسلم قبل فتح مكة وهو من أهلها، وكان من كُتَّاب الوَحْيِ للنبى ﷺ وكان على مَيْمَنَة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، وولى مصر سنة ٢٥هـ بعد عمرو بن العاص، فاستمر نحو ١٢ عامًا، زحف إلى إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا على وعبد الله بن عباس وعقبة بن نافع، ولحق بهم عبد الله بن الزبير، فافتتح =

المغرب، وتبادروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها، ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوصرة، وهى بين صقليّة وإفريقية، وكانت إذ ذاك عامرةً، فيقال: إنهم أقاموا بها إلى خلافة عبد الملك بن مروان.

فأغزى عبد الملك بن مروان عبد الملك بن قطن فى البحر، ففتح ما كان هنالك من الجزائر والقصور وخرَّبها وقفل ظافراً.

ومن تونس إلى منزل باشُوا[١] هذا مرحلةٌ، بينهما قرى كبيرة آهلة كثيرة الزيتون والشجر، بينهما قصر الزَّيت وفندق ريحان ووادى الرمان.

ومن قرية الدواميس إلى القيروان مرحلة بينهما قصور ومنازل وقرى.

وبحذاء جزيرة شريك فى البَرِّ نحو الجنوب: جبل زغوان[٢]، وهو جبلٌ منيفٌ مشرف يُسَمَّى كَلب الزقاق؛ لظهوره وعُلُوِّه واستدلال المسافرين به أينما توجَّهوا، فإنه يُرَى على مسيرة الأيام الكثيرة ولعلُوِّه ترى السحاب دونه، وكثيراً ما يُمْطَر سَفْحُهُ ولا يُمطر أعلاه.

وأهل إفريقية يقولون لمن يستثقلونه من الناس: «هو أثقل من جبل زغوان، وأثقل من جبل الرَّصاص»[٣]. وهو على تونس.

وقال الشاعر يخاطب حمامةً أرسلها بكتابٍ من القيروان إلى تونس: [وافر]

وَفِي زَغْوَانَ فَاسْتَعْلَى عُلُوًا وَدَانَى فِي تَعَالِيكَ السَّحَـابا[٤]

وبزغوان قرى كثيرة آهلة، كثيرة المياه والثمار والبساتين منها فندق شكل المحلَّة المعروفة، وهى على مرحلة من تونس: قرية كبيرة آهلة، ومنها قرية قَلمَنْجَة، كان

= ما بين طرابلس الغرب وطنجة ودانت له إفريقيا كلها، وغزا الروم بحراً، وظفر بهم فى معركة «ذات الصوارى» سنة ٣٤هـ، واعتزل الحرب بين على ومعاوية بصفّين، ومات بعسقلان فجأة سنة ٣٧هـ وهو قائم يصلى. الأعلام ٤/ ٨٨ـ٨٩.

(١) منزل باشُوا: مدينة فى إقليم الجزيرة واسعة العمل، خصبة، أوسع من سُوسة على صاحبها دخلاً، وأكثر منها جباية وأهلاً، ولا يدخلها صحيح إلا مرض، وجميع الفواكه بها، ولباشُوا أسواق فى كل شهر تُحَضَّر لأيَّام معروفة. صورة الأرض ٧٥ والحلل السندسية ١/ ٥٢٤.

(٢) وصف إفريقيا ٢/ ١٠٤ـ١٠٥.

(٣) المثل فى الروض المعطار ٢٩٤.

(٤) البيت بلا نسبة فى الروض المعطار ٢٩٤.

أبو القاسم بن عَبَيْد الله شرع فى بنيانها، واتخذها مدينة يسكنها الغريب السَّابل من هوَّارة ونفوسة.

وهذا الجبل مأوى للصَّالحين وخيار المسلمين.

وبغربى جبل زغوان مدينة لربُس[(١)]، بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام، وهى مدينةٌ مُسَوَّرَةٌ، لها رَبَضٌ كبيرٌ وبأرضها يكون أطيب الزعفران، ويعرف ببلد العنبر، وبها صار إبراهيم بن أبى الأغلب حين خرج من القيروان.

وفى سنة ستٍّ وتسعين ومائتين زحف إليها أبو عبيد الله الشيعىّ، ونازلها وبها جمهور أجناد إفريقية مع إبراهيم[(٢)]، ففرَّ عنها ابن أبى الأَغْلَب فى جماعة من القُوَّاد والجُنْد إلى أطرابُلس، ودخلها الشيعىّ عُنْوَةً، ولجأ أهلها ومن بقى فيها من فَلِّ الجُنْدِ إلى جامعها، وركب بعض الناس بعضًا، فقتلهم الشيعىّ أجمعين حتى كانت تسيل الدِّماء من أبواب المسجد كسيلان الماء بوابل الغيث.

وقيل: إنه قُتِل داخل المسجد ثلاثون ألفًا وذلك من وقت صلاة العصر إلى آخر الليل.

وكانت وِلاية بنى الأغلب إفريقية مائة سنة وإحدى عشرة سنة[(٣)].

ومن مدينة لرُبس إلى مدينة الأنصارين مسيرة يوم، نسبت إلى قومٍ نزلوها من الأنصار من ولد جابر بن عبد الله، وهى طيِّبةُ الأرض، كثيرة الرِّيع، وحنطتها أجَلُّ حنطة بإفريقية.

ومن مدينة القيروان إلى مدينة قَفْصَة[(٤)] ثلاثة أَيَّام، وهى مدينةٌ مبنيَّةٌ كُلُّها على أساطينَ وطيقان رخام، قد بُنى خلالها بالصخر الجليل بأحكم عمل.

---

(١) فى الروض المعطار ٢٥ «الأُرْبُس» وكذا نزهة الأنظار ١/ ١٢٥.

(٢) هو إبراهيم بن سالم، كان رئيسًا شريف النفس فاضلاً نبيلاً عالمًا فصيحًا حسن السيرة، وَلاَّه إفريقية هارون الرشيد ليضايق على إدريس جدّ أشراف المغرب، فاحتال عليه إبراهيم فى خبر طويل نزهة الأنظار ١/ ٣٢٢.

(٣) انظر: الروض المعطار ٢٥.

(٤) قَفْصَة: مدينة قديمة بناها الرومان، وبقيت فى أيدى دوقاتهم إلى أنْ فتحها عبد الله بن سعد ابن أبى سَرْح. وصف إفريقيا ٢/ ١٤٣ ونزهة الأنظار ١/ ١٠٥.

ويذكر أنَّ بانى هذا السُّور: شنيان غلام نمرود، وقد زَبَرَ عليه اسمَهُ، وهو مقروءٌ فيه إلى اليوم، وسورها كأنما قد فرغ من عمله بالأمس.

وداخل مدينة قَفْصَة عينان نَضَّاختان تنبعان بنهرين خَرَّارين يسقيان بساتينها ومزروعاتها، وفى داخل جامعها عينٌ كبيرةٌ مبنيَّةٌ بالصَّخر من بُنْيَان الأوَّل، أربعون باعًا فى مثلها.

وقَفْصَةُ أكثر بلاد القيروان فُسْتُقًا، ومنها ينتشر بإفريقية ويُحْمَل إلى مصر والأندلس وسِجِلْماسة. وبها تَمْرٌ مثل بيض الحمام، وهى تمير القيروان بأنواع الفواكه والتمر، وحولها أكثر من مائتى قصر، عامرة آهلة، تَطَّرِد فيها وحواليها المياه، تُعرَفُ بقصور قَفْصة. وجبايةُ قَفْصَة خمسون ألف دينار.

ومن قصور قَفْصة: مدينة طراق، وهى فى منتصف الطريق من قَفْصَة إلى فَجِّ الحِمار، وأنت تريد القيروان.

ومدينة طراق كبيرة آهِلَةٌ، بها جامعٌ وسوقٌ حافِلَةٌ، وإليها يُنْسَبُ الكساء الطراقِى، وهو من جهاز مصر، وهى كثيرة الفستق.

وتسيرُ من القيروان إلى مدينة نَفْزاوة[1] فى ستَّة أيام نحو الغرب، ولمدينة نَفْزَاوة عينٌ تُسَمَّى بالبربرية: تَاورْغَى، وهى عينٌ كبيرةٌ لا يُدْرَكُ لها قَعْرٌ.

ولمدينة نَفْزاوة سور صخر وطوب، ولها سِتَّةُ أبواب، وبها جامع وأسواق حَافلَةٌ، وهى على نهرٍ كثير النخل والثمار، وحواليها عيونٌ كثيرةٌ، وبقبليِّها مدينةٌ أَوَّلِيَّةٌ تُعْرَفُ بالمدينة، عليها سورٌ، وبها جامعٍ وحمام وسوق، وحولها عيون وبساتين.

وبين مدينة نَفْزَاوة وقابس ثلاث مراحل، وبينها وبين قفصة مرحلتان، وهى على ثلاث مراحل من قيطون بياضة، ومن قَيْطُون بَيَاضة إلى مدينة نفطَة مرحلة، إلى مدينة تُوزَر مرحلة، إلى مدينة نَفْزَاوة مرحلة.

ومن نَفْزَاوة تسيرُ إلى بلاد قسطيلية، وبينهما أرضٌ سوَّاخَةٌ لا يُهْتَدى الطريق

---

(١) تتكون نفزاوة من ثلاثة قصور، كثيرة السكان، لكنها مُسَوَّرَةٌ بأسوار كئيبة، والأرضُ تَصلُح للتُّمور، ولا تُنْبِتُ أىَّ نوعٍ من الحبوب، والسكان فقراء؛ لأن مَلِكَ تونس يُثْقِلُ كواهلهم بالإتاوات، وهم على مسافة نحو ٥٠ ميلاً من البحر المتوسط. وصف إفريقيا ٢/ ١٤٥.

فيها إلا بخُشُبٍ منصوبة. وأدلاَّءُ تلك الطريق: بنو موليت؛ لأنَّ هناك ظواعينَهم، فإنَّ ضَلَّ أحدٌ يمينًا أو شمالاً غرق فى أرض دبياس، تُشبَّه فى الرطوبة بالصابون. وقد هلكت فيها العساكر والجماعات مِمَّن دخلَها ولم يَدْرِ أَمْرَها. وتُسَمَّى هذه الأرضُ بالسَّوَّاخَة.

وتصلُ هذه الأرضُ السَّوَّاخَةُ إلى مدينة غواسين، وقيل إلى مدينة غَدَامس[١].

* * *

ذكر بلاد قسطيلية

فأمَّا بلادُ قَسْطيلية، فإنَّ من مُدنها تُوْزر[٢] والحمّة ونفطة.

وتُوْزر: هى أُمُّها، وهى مدينةٌ كبيرةٌ عليها سورٌ مَبْنِيٌّ بالحجر والطُّوب، ولها جامع مُحْكَم البناء، وأسواقٌ كثيرة. وحولها أرباضٌ واسعةٌ، وهى مَدينَةٌ حَصينَةٌ، لها أربعةُ أبوابٍ، كثيرة النَّخْلِ والبساتين والثمار، إلاَّ أَنَّ قَصَبَ السُّكَّر واللوز لا يصلحان بها. وحولها سَوَادٌ عظيمٌ من النَّخْلِ، وهى أكْثَرُ بلاد إفريقية تمرًا، ويخرجُ منها فى أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرًا وأزْيَد. شُرْبُها من ثلاثة أنهارٍ، تخرجُ من رمالٍ كالدرمك رِقَّةً وبياضًا، يُسَمَّى ذلك الموضع بلسانهم: سرش. وإنما تنقسمُ هذه الثلاثة الأنهار بعد اجتماع مياه تلك الرِّمال بموضعٍ يُسَمَّى: وادى الجمال، يكون قعرُ النهر هناك نحو مائتى ذراع، ثم يَنْقَسِمُ كُلُّ نَهرٍ من هذه الأنهار الثلاثة على ستَّة جداول، وتتشعَّب من تلك الجداول سواقى لا تُحصى كثرة، تجرى فى قنواتٍ

---

(١) غَدَامِس: مدينة بالمغرب ثم فى جنوبيّه، ضاربة فى بلاد السودان بعد بلاد زافُون، تُدْبَغُ فها الجلود الغدامِسية، وهى من أجود الدِّباغ، لا شىء فوقها فى الجودة كأنها ثياب الخزّ فى النعومة والإشراق، وفى وسطها عَيْنٌ أزلية، وعليها أثر بُنيان عجيب روميّ، وأهلها بَرْبَر يُقال لهم: تناوريَّه. معجم البلدان (غدامس) ٣/ ٣٧٧.

(٢) تُوزَر: قاعدة البلاد الجريدية، وليس فى بلادِ الجريد غابةٌ أكبر منها ولا أكثر مياهًا. وأَصْلُ مياهها من عيون تنبعُ من الرَّمل وتجتمع خارجَ البلد فى وادٍ مُتَّسِع، تتشعَّب منه جداول منها مذانب يقسِّمونها بينهم على أملاكٍ لهم مُقَرَّرة، ومقاسم من المياه معروفة. الحُلَل السُّنْدسية ١/ ٣٧٦ ونزهة الأنظار ١/ ١٠٥.

مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيدُ بعضُها على بعض شيئًا، كُلُّ ساقية سعة شبرين فى ارتفاع فِتر، يلزم كُلُّ من يسقى منها أربعة أقداس مثقال فى العام، وبحساب ذلك فى الأكثر والأقَلِّ، وهو أنْ يَعْمَدَ الذى يكون له دولة السَّقْيِ إلى قدسٍ فى أَسْفَلِه ثقبَة بمقدار ما يسدُّها وَتَرُ النَّدَّاف، فيملؤها بالماء ويعلقّه ويَسْقِى حائطه أو بُسْتَانَه من تلك الجداول حتى ينفدَ ماءُ القدس، ثم يملؤها ثانيةً، وهم قد علموا أنَّ سَقىَ اليوم الكامل هو مائةٌ واثنان وتسعون قدسًا.

ولا يُعْلَمِ فى بلدٍ مثلُ أُتْرُجِّها[١] جلالة وحلاوةً، وبها التُّرُنْجِين والمخيطا والأبلج.

وجباية قسطيلية مائتا ألف دينار، وأهلها يستطيبون لحم الكلاب[٢] ويُسَمِّنونها فى بساتينهم ويطعمونها التمر، ويأكلونها وأخبرنى مَنْ ضَافَ منهم رَجُلاً فأطعمه لحمًا استطابه واستحسنه فسأله عنه، فقال له: لحم جَرْوٍ مُسَمَّن.

ولا يُعْرَف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان، إلاَّ الفَنَك.

إنَّما هى رِمالٌ وأَرَضُون سَوَّاخَة، وهم يخبرون أن قومًا منهم أرادوا معرفة ما وراء بلادهم، فاستعدُّوا الأزواد وذهبوا فى تلك الرِّمال أيامًا، فلم يَروا أَثَر العمران، وهلك أكثرهم فى تلك الرِّمال.

* * *

الطريق من مدينة القيروان إلى قلعة أبى طويل

وهى قَلْعَةٌ كبيرة ذاتُ مَنَعَة وحصانة، فلمَّا كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهى اليوم مَقْصِدُ التّجار، وبها تحلُّ الرجالُ من العراق والحجاز ومصر والشَّام وسائر بلاد المغرب، وهى اليوم مُسْتَقَرُّ مملكة صَنْهَاجة، وبهذه القلعة كان احتضن أبو يزيد مخلَّد بن كَيْدَاد[٣] بن إسماعيل على ما نذكره فى موضعه من

---

(١) نزهة النظار ١/ ١٠٥.

(٢) الحُلَل السندسية ١/ ١٧٨ ورحلة التجانى ١٥٩.

(٣) هو أبو يزيد الخارجى، ويقال: وَيْلٌ لأهل السَّواد من مخلّد بن كيداد الحُلَل السندسية ١/ ٤٤٢.

هذا الكتاب ـ إن شاء الله .

تخرجُ من القيروان إلى وادى الرمال أربعون ميلاً، وهى قريةٌ زيتونها كثير، ورمالها حمر، ومنها إلى سبيبة: وهى مدينة أَوَّلِيَّة ذات أنهار وثمار، ومنها إلى قلعة الدِّيك، ومنها إلى السَّكَّة: قلعةٌ جليلة، وبها مجمع سوق، ومنها إلى مدينة مجانة المطاحن: وهى مدينةٌ قديمةٌ، وبها مقطع حجارة الأرحاء، وليس على الأرض مثلُه، ومنها إلى نهر قلاَّق: نهرٌ عظيم عليه آثارٌ قديمةٌ، وفى الشرق منه مدينة: تِبَسَّة[1]: وهى مدينة أَوَّلِيةٌ، فيها آثارٌ للأَوَّل كثيرة، وهى كثيرة الثمار والأشجار، ومنها إلى قرية: مِسْكِيَانَة[2]: وهى على نهر.

وهذه المواضع كُلُّها مُحَلاَّةٌ باسم من يأتى بَعْدُ ـ إن شاء الله ـ ومنها إلى مدينة بَاغَاية[3]: وهى مدينةٌ جليلةٌ أَولِيَّة ذات أنهارٍ وثمارٍ ومزارع ومسارح، على مَقْرُبَةٍ منها جبل: أَوْرَاس: وهو المُتَّصلُ بالسُّوس، وبهذا الجبل أقام أبو زيد مخلّد بن كيداد الزناتى.

ومن باغاية إلى مدينة قاساس: وهى مدينةٌ قديمةٌ على نهرٍ، وفى غربيِّها جبلٌ شامخ، ومنها إلى قبر مادغوس: وهو قبرٌ مثل الجبل الضَّخم، بُنِى بآجُرٍّ رقيق، قد خرق وبنى طيقانًا صغارًا، وعقد بالرَّصاص، وصُوِّرت فيه صور الحيوان من الأَنَاسِيِّ وغيرهم.

وهو مُدَرَّج النواحى، وفى أعلاه شجرة نابِتَةٌ، وقد أجمعَ على هَدْمِه من سَلَف، فلم يقدروا على ذلك.

وفى الشرق من هذا القبر بحيرة مادغوس، وهى مجمع لكل طائر وتسير من هناك إلى بلزمة لمزاتة: حصْنٌ أَوَّلِىٌّ، وهو فى بساط من الأرض، كثير المزارع والقرى، وفى قُرَاهُ حُصُونٌ كثيرة. وتسيرُ منها إلى مدينة نِقَاوَس[4]، وهى مدينة

(١) تِبَسَّة: مدينة عتيقةٌ حصينةٌ بناها الرومان فى تخوم نوميديا على بعد مائتى ميل جنوب البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية متينةٌ سميكة، مُشَيَّدةٌ بحجرٍ ضخمٍ منحوت شبيه بحجر الكوليزى فى روما. وصف إفريقيا ٢/ ٦٣.

(٢) انظر عنها: العبر ٦/ ١٠٩ والروض المعطار ٢٥٨ وتاريخ إفريقيا والمغرب ٢٤.

(٣) انظر عنها: تاريخ إفريقيا والمغرب ١٠ والروض المعطار ٧٦ـ٧٧.

(٤) نكَاوَس: مدينة تُتَاخم نوميديا، بناها الرومان على بُعْدِ نحو ١٨٠ ميلاً من البحر المتوسط، =

كثيرةُ الأنهار والثِّمار والمزارع وبشرقيها مدينة اللُّوز.

وتسيرُ نْقَاوَس إلى مدينة طُبْنَة[١]: وهى مدينةٌ كبيرة، سورها اليوم من بناء المنصور أبى الدَّوانيق، وهى مِمَّا افتتح موسى بن نُصَيْر فبلغ سَبْيُها عشرين ألفًا، وهرب ملكهم: كَسِيلة.

وسورها مَبْنِىٌّ بالطوب، وبها قَصْرٌ وأرباضٌ، وداخل القصر جامعٌ وصهريج كبير يقع فيه نهرها، ومنه تُسْقَى بساتينُها.

ويقالُ: إنَّ الذى بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلَّبى المعروف بهزارمرد، يسكنها العربُ والعجمُ، بينهما الاختلاف والحربُ، ويسكن حولها: بنو زقراح.

وقال محمد بن يوسف: إنَّ قصر طُبْنَة قديمٌ أَوَّلىٌّ كبير جليلٌ، مبنىٌّ بالصخر الضخم، عليه آزاج كثيرة، ينزله العُمَّال، وهو مُلاَصِقٌ لسور المدينة من جهة القبلة، عليه باب حديد هو شرقىٌّ.

ولمدينة طُبْنَة من الأبواب: بابُ خاقان، مَبْنِىٌّ بالحجر، عليه باب حديد، وهو سرِّىٌّ. وبابُ الفتح: غربّى باب حديد أيضًا، وبينهما سماط يشقُّ المدينة من الباب إلى الباب.

وباب تهوذا: قبلىّ، عليه باب حديد، وهو سِرِّىٌّ أيضًا، والباب الجديد: حديدٌ أيضًا، وباب كُتَامة: جوفى.

وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سورٌ مضروبٌ على فحص فسيح يكون مقدار ثلثى مدينة طُبْنَة: بناه عُمر بن حفص هزارمرد.

ويَشُقُ سِكَك المدينة جداول الماء العذب، وبها أسواق كثيرة غير السّماط المذكور، ولها بساتين يسيرة مُلاَصِقَةٌ للرَّبَض، ومقبرتُها بشرقيها، وبقرب المقبرة

= وثمانين ميلاً من مسِيلة، تحيطُ بها أسوار مدينة عتيقة، ويجرى قربها نهر ينبت على ضفافه شجر التين والجوز.

(١) طُبْنَة: أعظم بلاد الزَّاب، بينها وبين المسيلة مرحلتان، وهى حَسَنَةٌ كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير، وعليها سور تراب، وبها أخلاطٌ من الناس،وبها صنائع وتجارات ولأهلها تَصَرُّف فى ضروب من التجارات والتمر، وسائر الفواكه بها كثيرة. الروض المعطار ٣٨٧ ومراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٩ ونزهة الأنظار ١/ ٩٥.

غديرٌ يُعْرَفُ بغدير فرغان، وهو بجوفيّ مُصَلَّى العيد.

وليس من القيروان إلى مدينة سِجِلْمَاسة مدينة أكبرُ منها، واسم نهرها: بيطام، وإذا حملَ سقَى جميعَ بسائِطها وفحوصها، ويقول أهلها: «بِيطام: بيت الطعام». لجودة زرعها.

وإذا كانت الحربُ بين العرب والمُوَلَّدين، استمدَّ العربُ بعرب مدينة تهوذا وسطيف، واستمدَّ المُوَلَّدون بأهل بِسْكِرَةَ وما والاها، وقال أحمد بن محمد المروذى فى قصة إسماعيل بن أبى القاسم:

سِرنَا وقـد حَلَّ بِقُرْبِ طُبْنَه
وصارَ منها أَهْلُها فى مِحْنَه
فأعظـمَ الله العزيزُ المنّـه
وبدَّلوا من بعــدنا نار جَنّة

وفج زَيْدَان[1] يُطِلُّ على مدينة طُبْنَة، وإياه عنى أبو عبد الله الشيعى فى قوله: [من الكامل].

مَنْ كان مُغْتَبِطًا بلين حشيَّة ... فَحَشِيَّتى وأَريكتى سَرْجِى
مَنْ كــان يُعْجِبُه ويُبْهِجُـهُ ... نَقْرُ الدُّفُـوف ورَنَّةُ الصَّنْجِ
فأنـا الذى لا شىء يُعْجِبُنى ... إلاَّ اقتحامى لجَّـة الوَهْـجِ
سَلْ عن جيوشى إذا طَلَعتُ بها ... يومَ الخميس ضُحىً من الفَـجِّ[2]

ومن طُبْنَةَ إلى مدينة مقرَّة: وهو بَلَدٌ كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع، ومنها إلى قلعة أبى طويل.

ومن بَاغَايَة إلى بلد بِسْكِرَة[3]: أربعة أيام، وبِسْكِرَة: كورةٌ فيها مَدُنٌ كثيرة،

(١) مراصد الاطلاع ٣/١٠١٨.

(٢) الأبيات لعبد الله الشيعى فى مراصد الاطلاع ٣/١٠١٨ ومعجم البلدان (فج زيدان) ولعبد الله السبيعى فى مجمع أشعار معجم البلدان ١/١٧٣ وأظنه تصحيف.

(٣) بِسْكرة: مدينة عريقة فى القِدَم، أُسِّسَت أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر، وخُرِّبت بعد ذلك، ثم أُعِيد بناؤها لما دخلت الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا، وهى الآن عامرة كما ينبغى =

وقاعدتها بِسْكِرَة، وهى مدينةٌ كبيرة كثيرة النخل والزَّيتون وأصناف الثمار، وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ عليها خندقٌ. وبها جامع ومساجد كثيرة وحمَّامات، وحواليها بساتين كثيرة، وهى فى غابةٍ كبيرة مقدار ستَّة أميال، فيها أجناسُ التُّمورِ، منها جنسٌ يعرفونه بالكسبا، وهو: الصيحانى، يضربُ به المثل لفضله على غيره، وجنسٌ يعرف باللبارى: أبيض أملس، كان عُبَيد الله الشيعىّ يأمر عُمَّاله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه وبَعْثِ ما هنالك منه إليه، وأجناسٌ كثيرة يطولُ ذِكْرُهَا، لا يعدل بها غيرها.

وحول بِسْكِرَة أرباضٌ خارجة عن الخندق المذكور.

وبِبِسْكِرَة عِلْمٌ كثير، وأهلها على مذهب أهل المدينة[١]، ولها من الأبواب: باب المقبرة، وباب الحمَّام، وبابٌ ثالث.

سُكَّانُها المُولَّدون، وحولها من قبائل البربر: سدراته وبنو مغراوة: أهل بيت بنى خرز، وبنو يزمرتى.

وداخل مدينة بِسْكِرَة آبارٌ كثيرة عذبة، منها فى الجامع بئر لا تنزف[٢] وداخل المدينة جنان يدخل إليها الماء من النهر، وبها جَبَلُ ملح، يقطع منه الملح كالصخر الجليل، ومنه كان عُبَيْد الله الشيعىّ وبنوه يستعملونه فى أطعمتهم. وتعرف بِبِسْكرة النخيل.

قال أحمد بن محمد المروذى:

ثم أَتى بِسْكِـرَةَ النخيلِ
قد اغتدى فى زِيّه الجميل[٣]

ومن مدنها: مدينة جمونة، ومدينة طولقة، ومدينة مْلِيلَى، ومدينة بنطيوس:

= تكثر فيها العقارب التى تقتل بلسعها حالاً، ولذلك يفارقها السكان فى الصيف لإقامة فى ممتلكاتهم خارجها إلى شهر نوفمبر. وصف إفريقيا ٢/ ١٣٩ وانظر: معجم البلدان (بِسْكِرة) ٢/ ١٨٢.

(١) أى مذهب الإمام مالك ـ رضى الله عنه.

(٢) لا تنزف: لا تجف وتمنع.

(٣) البيتان لأحمد بن محمد المروذى فى مراصد الاطلاع ١/ ٩٧.

وهى من بنيان الأوَّل.

وشُرْبُ بِسْكِرَةَ من نهر كبير يجرى فى جوفِيّها، منحدرٌ من جبل أوراَس، وقرية من قرى بِسْكِرَةَ تُسَمَّى: مَلَشون منها: أبو عبد الله المَلَشُونى، وابنه اسحاق: عالمان، يُحْمَل عنهما العلم، سمع منهما أبو عبد الله بن ميمون ومقاتل وغيرهما.

أخبرنى أحمد بن عمر بن أنس قال: أخبرنى قاسم بن عبد العزيز أنَّ فى الطريق إلى بِسْكِرَةَ جبلاً يُعرف بزِيغيزى فى وسطة كهفٌ فيه رجلٌ قتيلٌ لم يُغَيره مَرُّ الزمان وتقادُم الدهور، تَبُضُّ جِراحُه دماء كأنما قُتِل منذ يومين، وتُخْبِر الكافَّةُ عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدمًا، وقد نقله أهل تلك النواحى ودفنوه فى أفنيتهم تَبَرُّكًا به. ثم لم ينشبوا[1] أن وجدوه فى الكهف على حاله، يحدّث بذلك ثقات أهل تلك الناحية، والله فَعَّالٌ لما يشاء.

وقال محمد بن يوسف فى كتابه: إنَّ هذا القتيل فى شقّ جبلٍ بشرقى عين أربان، وهذه العينُ بين مدينة قرطاجنة ومدينة سبيبة المذكورة أيضًا. وذكر أنه يظهر كما ذبح من يومه، وأنّه هناك من قبل فتوح إفريقية، ولم يذكر أمْرَ دفنه، والله أعلم بأمره.

* * *

وطريق آخر من القيروان إلى قلعة أبى طويل

من القيروان فى قرى وعمارات إلى مدينة أبّة ثلاثة أيام: وهى مدينةٌ أَوَّلية يكون بها الزعفران الجيّد، وعلى ستة أميالٍ منها مدينة لرُبْس المذكورة قبل هذا.

ومن مدينة أَبّة إلى نهر ملاق: وهو نهرٌ عظيم يسقى نواحى فحص بُل، ومن نهر مُلاَّق إلى مدينة تامديت: وهى مدينة فى مضيق بين جبلين فى سند وعر، ولها مزارع واسعة، وحنطتها موصوفة. ومنها إلى مدينة تيفاش: وهى مدينة أَوَّلِيَّة شامخة البناء، وتسمى تِيفَاش[2] الظالمة، وفيها عيون ومزارع كثيرة، وهى فى صفح

---

(١) أى لم يلبثوا أن وجدوه.

(٢) تِيفَش: مدينة بناها الأفارقة فى العصر القديم على بعد نحو خمسين ميلاً جنوبى عنابة، =

جبلٍ، وفيها آثار للأوّل كثيرة، ومنها إلى قصر الإفريقى: وهى مدينة جامعة على شَرَفٍ من الأرض، ذات مسارح ومزارع كثيرة، ومنها إلى وادٍ يُعْرَف بوادى الدَّنانير: وهو وادٍ خصيبٌ.

ومنها إلى مدينة تِيجَس: وهى مدينةٌ أَوَّلِيَّة شامخة البناء كثيرة الكلأ والرَّبيع.

ومنها إلى مدينة توبوت على بلاد كتامة، ويُسَمَّى هذا الطريق بالجناح الأخضر، ومنها إلى مدينة تَابَسْلكى: وهى صغيرة فى سفح جبلٍ يُسَمَّى أنف النسر.

ومنها إلى النهرين: وهى قرى كثيرة فى فحص عريض وبساط من الأرض مديد، ومنها إلى مدينة تامسلْت: وهى مدينة جليلةٌ للزَّرع والضَّرْع.

ومنها إلى مدينة دكّمه: وهى على نهر كبير ذات مزارع ومسارح.

ومنها إلى مدينة الغدير: تخرج منه عيون نهر سهر، وهو نهر المسيلة وهو المعروف بالوادى الرئيسى ـ على ما نذكره بعدُ ـ إن شاء الله.

ومنها إلى قلعة أبى طويل.

* * *

الطريق من القيروان إلى مدينة بُونة

تخرجُ من القيروان إلى جَلُولاء[١] ـ كما تقدَّم ـ ومنها إلى أَجَر[٢]: ولها حِصْنٌ، وبها قنطرةٌ، وهو موضِعٌ وَعْرٌ كثير الحجارة، مُتكابِد المسالك مأْسَدَة[٣] لا يكاد

= وكانت فى الزمان الغابر مُتَحَضِّرةً كثيرة السكان، مُزْدَانةً ببناءات جميلة، لكنها دُمِّرت عند مجىء الأعراب إلى إفريقيا، ثم عُمِّرت من جديد، ثم استولى عليها أعراب آخرون. وصف إفريقيا ٢/ ٦٣.

(١) جَلُولاء المقصودة هنا: مدينة مشهورة بإفريقيا، بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً، وبها آثار وأبراج من أبنية الأوَّل، وهى مدينة أَزَلِيَّةٌ مبنيَّة بالصخر، وبها عَيْنٌ ثَرَّةٌ وسطها، وهى كثيرة الأنهار والثمار، وأكثر رياحينها الياسمين، وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها، فتحت على يدى عبد الملك بن مروان. معجم البلدان (جَلُولاء) ٢/ ٧١.

(٢) أَجَر: بالتحريك قرية لها حِصْنٌ وقنطرة، وهى موضع وعْرٌ، كثير الحجارة صعب المسلك، لا يكاد يخلو من الأسد. معجم البلدان (أجر) ١/ ٩٠.

(٣) أى كثير الأسد فيه.

يخلو من أسدٍ، دائم الرِّيح العاصفة، ولذلك يقولون: إذا جئت أجر فَعَجِّل، فإنَّ فيه أسداً يَفْرِي، وحجراً يبرى وريحًا تذرى.

وحولها قبائل من العرب والبربر: ضريسة ومرنية.

ومنها إلى الفهمين، وهي قرية كبيرة، وبها سوق جامعة. ومنها إلى جزيرة أبى حمامة، ومنها إلى الأنصاريين، وقد تقدَّم ذكرها.

وبقرب هذا الموضع فَحْص[١] بل: وهو من أطيب أرض إفريقية مزدرعًا ومن جزيرة أبى حمامة خمس مراحل إلى مدينة بُونَةَ: فى قرى وعمارة أَوَّل المراحل من مدينة بونة إلى القيروان، زانه خصوص، وقرارات للبربر، بها عيون ماء فى شَعْرَاء عظيمة، شجرها كُلُّه زان، ومنه يُجْلَب إلى إفريقيا.

* * *

(ذكر مدينة بُونَة)[٢]

ومدينة بُونَة: مدينة أَوَّلية، وهى مدينة أقشتين العالم بدين النَّصْرَانية، وهى على ساحل البحر من نَشَزٍ من الأرض منيع مُطلّ على مدينة سبوسى، وتُسَمَّى اليوم مدينة زاوى، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمَّام، وهى ذاتُ ثمر وزرع، وقد سُوِّرت بُونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة.

وفى بونَة الحديثة بئرٌ على ضفّة البحر، منقورةٌ فى حجرٍ صَلْدٍ تُسَمَّى بئرَ النَّثْرة، منها يشربُ أكثر أهلها.

---

(١) قال ياقوت: الفَحْصُ بفتح أوَّله وإسكان ثانيه وآخرهُ صاد مهملة، بالمغرب من أرض الأندلس، مواضع عدَّة تُسَمَّى الفحص.
وسألت بعض أهل الأندلس ما تعنون به؟ قال: كل موضع يُسْكن سهلاً كان أو جبلاً، بشرط أن يزرع، نسميه فحصًا، ثم صار علمًا لعدة مواضع. معجم البلدان (فحص) ٣/٤١٥.

(٢) بُونَة: مدينة بإفريقيا بين مرسى الخزر وجزيرة بنى مزغنَّاى وهى مدينةٌ حصينةٌ مُقتدرةٌ كثيرة الرُّخص والفواكه والبساتين القرنية، وبها معدن الحديد، وهى على البحر، ويُطِلُّ على بُونة جبل زَغُوغ. مراصد الاطلاع ١/٢٣٢ ومعجم البلدان (بُونة) ١/٤٠٢ ونزهة الأنظار ١/١٢٤.

وبغربيِّ هذه المدينة ماءٌ سايخٌ يَسْقى بساتينها، وهو مُسْتَنْزَهٌ حَسَنٌ. ويطلَ على بُونَةَ جبل زَغُوغ[١]، وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب: أَنَّ فيه مسجدًا لا ينزل عليه شيءٌ من ذلك الثلج، وإنْ عَمَّ الجبلَ كُلَّهُ.

ومدينة بُونَه: قرية بحريّة، كثيرة اللَّحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لُحْمَانِهم البقَر، إلاَّ أنه يصحُّ به السُّودان ويسقم البِيضَان.

وحول بُونَة قبائل كثيرة من البربر: مَصْمُودة وأوربة وغيرهما.

وأكثر تجارها أندلسيون. ومُسْتَخْلَص بُونَةَ غير جباية بيت المال: عشرون ألف دينار.

وبشرقيّ مدينة بُونَة، مدينة مَرْسَى الخَرَز[٢]: فيه المرجان، وهى مدينةٌ قد أحاط بها البحر إلاَّ مَسْلكًا لطيفًا، ربَّما قطعه البحر فى الشتاء، عليها سورٌ وبها سوقٌ عامرةٌ، وقد صُنِعَ بها مرفأٌ للسفن منذ مُدَّة قريبة.

وفى هذه المدينة تُنْشأ السفن والمراكب الحربية التى يغزى بها إلى بلاد الرُّوم، وإلى هذه المدينة يقصد الغُزَاة من كُلِّ أفقٍ؛ لأنَّ مقطعها يقرب من جزيرة سردانية، بينهما نحو مَجْرَأين وبإزاء مدينة مرسى الخرز، بئر وَبِئة الماء تُعَرف ببئر أَزْرَاق، يقولُ أهلُها: طعنةٌ بمزراق، خيرٌ من شربة من بئر أزراق.

وهذه المدينة كثيرة الحيَّات، فاسدة الهواء، يمتاز أَهلُها من غيرهم بِصَفْرَةِ ألوانهم، ولا يكادُ يخلو عُنُق أحدٍ منهم من تميمةٍ.

وجباية هذه المدينة عشرة آلاف دينار.

* * *

(١) معجم البلدان (بونة) ١/ ٤٠٢.

(٢) نزهة الأنظار ١/ ١٢٤.

الطريق من القيروان إلى طبرقة

من مدينة القيروان إلى مُنَسْتِير عثمان[١] ستٌّ مراحل، : وهى قريةٌ كبيرة بها جامع وفنادق كثيرة وأسواق وحمَّامات، وبئر لا تنزف، وقَصْرٌ للأوَّل مَبْنِيٌّ بالصخر كبير.

وأرباب المُنَسْتِير قومٌ من قريش من ولد الربيع بن سليمان وهو اختطَّها عند دخوله إفريقية، وبها عربٌ وبربر وأفارقة ومنها إلى مدينة بَاجَة ثلاث مراحل فى قرى غير متصلة.

«ومدينة بَاجَة[٢]: كبيرة، كثيرة الأنهار، وهى على جبلٍ يُسَمَّى عين الشمس فى هيئة الطَّيْلَسَان، يَطَّرد حواليها المياه، وفيها عيون الماء العذب، ومن تلك العيون عين تُعْرَف بعين الشمس هى تحت سور المدينة، والباب هناك منسوب إليها، ولها أبوابٌ غير هذا.

وفى داخل الحصن[٣] عين أخرى عَذْبَةٌ غزيرة الماء، وحصنها أَوَّلى مَبْنِيٌّ بالصخر الجليل أتقن بناء، ويقال إنه من عهد عيسى ـ عليه السلام. ولها رَبَضٌ كبيرٌ فى شرقِيِّ الحصن، وسور الحصن مِمَّا يلى الرَّبض مهدوم، وبها جامع متقن البناء قبلته سور المدينة، وفيها خمسة حَمَّامات، ماؤها من العيون وفنادق كثيرة.

وبها ثلاث رحاب لبيع الأطعمة، وعيون خارجها لا تحصى كثرة وهى دائمةُ الدَّجن والغَيْم، كثيرة الأمطار والأنداء، قلمَّا يصحى[٤] هواؤها، وبها يضرب المثل فى كثرة المطر.

ولها نَهْرٌ من جهة الشرق، جارٍ من الجوف إلى القبلة، على ثلاثة أميال منها،

---

(١) النص نقله ياقوت عن البكرى فى معجم البلدان (مُنَستير) ٤/ ٣٢٩.

(٢) باجة: من مشترك البلدان، وهى خمس مدن، والمادة بتمامها نقلها ياقوت عن البكرى فى معجمه البلدان (باجة) ١/ ٢٥١.

(٣) فى معجم البلدان (البلد).

(٤) فى معجم البلدان (نصَح).

وحولها بساتين عظيمة تطَّرد فيها المياه، وأرضها سوداء مُتَشَقِّقة يجود بها جميع أنواع البذور،وبها حمصٌ وفولٌ قلما يُرَى مِثْلُهُ، وتُسَمَّى: هُرَى إفريقية؛ لِرَيْع زرعها وكثرة رفاعِهَا، وإنها خصيبة ليِّنة الأسعار أمحلت البلاد أو أخصبت. وإذا كانت أسعار القيروان نادرةٌ، لم يكن للحنطة بها قيمةٌ، ربما اشْتُرِى وَقْرُ البعير من الحنطة بدرهمين.

ويَرِدُها كُل يوم من الدوابّ والإبل العدد العظيم الآلاف(١)، والأكثر لانتقال(٢) المِيَرة فلا يؤثِّر ذلك فى سعرها لكثرة طعامهم»(٣).

ثم تسير منها مرحلة إلى باسلى: وهى قرارات للبربر ببلد ورداحة على عيون عذبة.

ومن قرى باجة: المغيرية، قريةٌ شريفةٌ فيها آثار عظيمة عجيبة للأوَّل من كنائس قائمة البنيان، محكمة العمل كأنَّما رُفِعت عنها الأيدى بالأمس، وكلها مفروشة بالرُّخام النفيس، يقف عليها من الغربان عدَدٌ لا يُحْصَى كثرةً، حتى يُظنَّ المرءُ أَنَّ غِرْبان الأرض قد تجمَّعت هناك، ويزعمون أَنَّ بها طلسمًا.

وامتحن أهل مدينة باجة أيام أبى يزيد بالقتل والسَّبْى والحرق قال الراجز فى هجوه لأبى يزيد(٤): [من الرجز]

وبعدها باجـة أيضًا أفسـدا
وأهلها أَجْلَى ومنهـا شَرَّدا
وهدَّم الأسواق والقصورا
والدُّورَ قد فَتَّشَ والقُبُـورا(٥)

ولم يزل النَّاسُ يتنافسون فى ولاية باجة، وكان المتداولون فيها لذلك بنى(٦)

(١) فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ «الآلاف».
(٢) فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ «تنقل».
(٣) إلى هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان فى هذه المادة.
(٤) هو أبو يزيد مخلد بن يزيد الشيبانى، وقد سبقت ترجمته.
(٥) الأشطر بلا نسبة فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ ومراصد الاطلاع ١/ ١٤٨.
(٦) فى الأصل «بنو».

على بن حُمَيد الوزير، فإذا عُزِل منهم أحدٌ، لم يزل يسعى ويتلطَّف ويهُادى ويُتَاحِفُ حتى يرجعَ إليها.

فقيل لبعضهم: لِمَ ترغبون فى ولاية مدينة باجة؟

فقال: لأربعة أشياء: قمحُ عِنْدَةَ، وسَفَرْجل زانة، وعنب بِلَطَة، وحوت دَرْنَة.

وبها حوتٌ بُورِىٌّ، ليس له فى الآفاق نظير، يخرج من حوت واحدٍ عشرة أرطال شحم وأكثر، إذا كان من جلّتها.

وكان يُحْمَل إلى عُبَيْد الله[١] حُوتُها فى العسل فيحفظه ويظل طريًا.

ودَرْنَة[٢]: بين طَبَرْقَة وباجة. ومنها إلى مدينة طَبَرْقة[٣]، وهى على شاطئ البحر، وفيها آثارٌ للأَوَّل، وبنيانٌ عجيبٌ، وهى عامرَةٌ، لورود التجّار إليها، وبها نَهْرٌ كبيرٌ تدخُلُه السُّفُن الكَبار وتخرج فى بحر طَبَرْقَة.

وروى أَنَّ الكاهنة[٤] قتلت بطبرقة.

«وبشرقى مدينة طبرقة على مسيرة يوم وبعض آخر: قلاعٌ تُسَمَّى بقلاع بَنْزَرْت[٥]، وهى قلاعٌ يأوى إليها أهل تلك الناحية إذا خرج الرُّومُ غزاةً إلى بلادهم، فهى مفزعٌ لهم وغَوْثٌ، وهى رباطاتٌ للصالحين.

(وقال محمد بن يُوسف فى ذكر السَّاحِل من طَبَرْقَة إلى مرسى تونس، فقال: مَرْسى القُبَّة: عليه مدينة بَنْزَرْت: وهى مدينةٌ على البحر يَشُقُّها نهرٌ كبيرٌ كثير الحوت، ويقع فى البحر، وعليها سور صخر، وبها جامعٌ وأسواق وحمَّامات وبساتين، وهى أَرْخَص البلاد حوتًا، وافْتَتَحها مُعَاوية بن حُدَيْج[٦] سنة إحدى

(١) يعنى الملقَّب بالمهدى جد ملوك مصر معجم البلدان ١/ ٢٥١.

(٢) دَرْنَة: موضعٌ بالمغرب قرب أنطابلس من عمل باجة. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٢٤.

(٣) طَبَرْقَة: مدينة صغيرة وَبِيَّةٌ، بها عقارب قاتلة، وبها فى البحر معدن المرجان، وليس يُعرف فى الأرض معدن المرجان إلاَّ بها. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٤) الحلل السندسية ١/ ٥١٦.

(٥) معجم البلدان (طبرقة) ٣/ ٢٤٧ و(بنزرت) ١/ ٣٩٣.

(٦) معاوية بن حُدَيْج بن جَفْنَة بن قنبر، أبو نعيم الكندى ثم السكونى: الأمير الصحابِىّ، قائد الكتائب ـ كما نعتَه الذهبى ـ وَالِى مصر ـ كان ممن شهد صفّين فى جيش معاوية بن أبى سفيان، وَلاَّه معاوية إمْرَةَ جيش جَهَّزه إلى مصر، وكان الوالى عليها محمد بن أبى بكر =

وأربعين، وكان معه عبد الملك بن مروان، فشدَّ عن الجيش فَمَرَّ بامرأة من العجم من عمل بَنْزَرْت فَقَرَتْهُ وأكرمَتْ مثواه، فشكر ذلك لها، فلمَّا وُلِّى الخلافةَ كتب إلى عامله بإفريقية فى المرأة وأهل بيتها، فأحسن إليهم وظاهَر النِّعَم لديهم)[١].

وتوالى هذه المراسى مذكورة بعد هذا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله.

وعلى ساحل هذه القلاع بحيرة تنسبُ أيضًا إلى بَنْزَرْت، يدخل إليها ماء البحر الكبير، فيوجد فيها فى شهرٍ ما من السنة صِنْفٌ من الحوت لا يشبه غيره، ولا يوجد هناك فى غير ذلك الشهر.

وفى هذه البحيرة أعجوبة، وهى أَنَّ الصيَّاد إذا أتاه البَحَّار لشراء الحُوت، يقول لهم: على أىِّ شىء أُرْسِلُ شبَكتى؟ فيتفق معهم على عدَّة معلومة، فيأتى الصيَّاد بحوت يُقال: إنه أُنْثى الصنف المعروف بالبُورِىّ، فيرسلُها فى البحيرة ثم يتبعها بشبكته فَيُخْرِجُ العدَّةَ التى اتفقوا عليها، لا يكاد يُخْطِئُ.

وعلى مَقْرُبَة من هذه البحيرة بُحَيْرَتان: إحداهما حُلْوَةٌ، والأخرى مِلْحَة، فيصُبُّ كل واحدة منهما فى الأخرى نصف العام على السَّوَاء، فلا يتغير لواحدة منهما طعم.

وبغربِىِّ مدينة بُونة بِرْكَةٌ بينها وبين بُونَة مسيرة يوم طولُها ثلاثة أميال فى مثلها، وفيها سَمَكٌ جليلٌ، وفيها الطائر المعروف بالكيكل، يُعَشِّش على ماء تلك البحيرة ويفرخ فيها، فإذا أَحَسَّ بحيوان فى البَرِّ دفع عشَّ فراخه قُدَّامَهُ إلى وسط البركة وهو الطائر الذى يُسَمَّى بمصر بالخواص، يُصْنَع من جلوده الفراء ويُباع بالأثمان الغالية.

= الصدّيق من قِبَل عَلِىّ بن أبى طالب فقتل محمدًا، وأخذ بيعة أهل مصر لمعاوية، ثم وَلِى إمرة مصر ليزيد وَوَلِىَ غزو المغرب مرارًا، آخرها سنة ٥٠هـ، واستولى على صقليّة، وفتح بنزرت، وأُعِيد إلى مصر وعُزِل عنها سنة ٥١هـ، وتوفى بها سنة ٥٢هـ، وبقيت فيها ذرّيته إلى القرن الثامن الهجرى، له فى إفريقيا آثار منها: آبار فى القيروان تعرف بآبار حُدَيج، وهى خارج باب تونس منحرفة إلى الشرق، وكان أعور، ذهبت عينه يوم دهقلة ببلاد النوبة عاقلاً حازمًا واسع العلم مقدامًا، وهو ابن «كَبْشَة» بنت معدى كرب الشاعرة.

الأعلام ٧/ ٢٦٠-٢٦١ وانظر أيضًا: الإصابة - ترجمة ٨٠٦٤ والمُحَبَّر ٢٩٥ والبيان المغرب ١/ ١٧ وشذرات الذهب ١/ ٥٨ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠٣.

(١) معجم البلدان (بنزرت) ١/ ٣٩٢.

الطريق من قلعة أبى طويل إلى مدينة تنس

يخرجُ من القلعة إلى مدينة المسِيلَة[١]، وهى: مدينة جليلة على نهر يُسَمَّى بنهر سَهْر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عُبَيْد الله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

وكان المتولِّى لبنائها علىّ بن حمدون بن سمَّاك بن مسعود بن منصور الجذامىّ المعروف بابن الأندلسىّ[٢]، واستعمله عليها فلم يزل عليها إلى أن هَلَكَ فى فتنة أبى يزيد، وبقى ابنه جعفر فيها وصار أميرًا على الزاب كُلِّه إلى أنْ خرَجَ عنها فى سنة ستين وثلاثمائة على ما نحن ذاكروه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

وهى مدينةٌ فى بساط من الأرض، عليها سوران، بينهما جدول ماء جارٍ يستديرُ بالمدينة، وله منافذ يسقى منها عند الحاجة.

وللمدينة أسواقٌ وحمَّامات، وحولها بساتين كثيرة، ويجود عندهم القطن، وهى كثيرة اللَّحْم، رخيصة السِّعر، وبها عقارب مُهْلِكة لا يتخلّص من لسعتها.

وبقرب منها جبل عجيسة وهوَّارة وبنى برزال، ولهم كانت أرض المسيلة. وبقبلىّ مدينة المسيلة موضعٌ يعرف بالقباب، فيه قبابٌ من بُنْيَان الأوَّل، وعلى مَقْرُبَة منها مدينة للأوَّل خَرِبَةٌ يقال لها: بشليقة، فيها جدولان من ماء عذب جلبته الأوَّل إليها يقال لها: تارقًا أنو ودى، تفسيره: ساقية السمن.

---

(١) مسيلَة: مدينة عتيقة بناها الرومان فى تخوم نوميديا داخل الأراضى على بعد نحو ١٤٠ ميلاً من بجَاية، والأسوارُ المحيطةُ بها جميلة، بخلاف الدور فإنها قبيحة، والسُكَّان كُلُّهم صُنَّاعٌ أو فلاَّحون. وصف إفريقيا ٢/ ٥٢ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٢٧٣ والبلدان (مسيلة) ٤/ ٢٦٧.

(٢) علىّ بن حمدون بن سمَّاك بن مسعود بن منصور الجذلمى، ويقال له ابن الأندلسى: أوَّل من وَلِىَ إمرة «الزاب» بإفريقية فى عهد الفاطميين وكان على اتصالٍ بهم وهم فى المشرق، قبل ظهور دعوتهم، فلمّا تملكوا فى المغرب ولّوه على الزاب، فأقام فيها إلى أن كانت فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد فى أيام القائم بأمر الله الفاطمى، فأمره القائم بأن يجند قبائل البربر ويوافيه إلى «المهدية» فنهض بعسكر ضخم، وقارب باجة بإفريقية، فهاجمه أيوب بن أبى يزيد، فاقتتلا، فسقط ابن حمدون من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤هـ الأعلام ٤/ ٢٨٢، وراجع المقدمة لابن خلدون ٤/ ٨٢.

وقال أحمد بن محمد المروذى يذكر نزول إسماعيل بالمسيلة، والشيعة تسمِّيها المحمَّدية: [من الرَّجز]

ثُمَّ إلى مدينة مَرْضِيَّهْ
أُسِّتْ على التَّقْوى مُحَمَّدِيّهْ
أَقْبَلَ حتى حَلَّها ضَحِيَّهْ
بالنُّور من طَلْعَته المُضِيَّهْ
فَحَلَّ فى عَسْكَرِ المسيلهْ
فى هَيْئَةٍ كاملةٍ جميلهْ
للنَّصْرِ فى أرجائه مخيلهْ
بنعمةٍ من ذى العُلَى جليلهْ

ونهر سَهُر[(١)] الذى عليه مدينة المسيلة منبعثه من عيون داخل مدينة غدير وَارُّوا وهى مدينة كبيرة أوليّة بين جبال فيها عين ثرّة عذبة عليها الأرحاء وعين أخرى، وتحتهما عين خرّارة يقال لها عين مُخَلّد تجتمع فيها، ومن هناك منبعث نهر سَهْر.

وبمدينة الغدير جامع وأسواق عامرة وفواكه كثيرة وهى رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار، قنطار عنب فيها بدرهم، وسكانها هوارة يعتدون فى ستين ألفًا.

وبشرقى مدينة الغدير قرية أوّلية يقال لها طَرْفَلَة لا تعدل بها قرية وهم يقولون طَرْفَلَة طَرَفٌ من الجنة، ومدينة الغدير ما بين سوق حمزة وطُبْنَة وهى على مرحلتين من طُبْنَة.

وتسير من مدينة المسيلة إلى نهر يسمى جوزة، ومن جوزة إلى مدينة أشير وقال محمد بن يوسف إنّ الذى بنى أَشير[(٢)] زيرى[(٣)]، والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون[(٤)]: [من السَّريع]

---

(١) انظر: الاستبصار ١٦٧ وتاريخ إفريقيا والمغرب ١٢.

(٢) أشير: مدينة فى جبال البربر بالمغرب فى طرف إفريقيا، مقابل بَجَّانة فى البر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٥.

(٣) هو زيرى بن مناد الصنهاجى، وهو جَدُّ المعزّ بن باديس.

(٤) الأبيات لعبد الملك بن عيشون فى الروض المعطار ٦٠.

يا أيُّها السَّائلُ عن عَزْبنا | وعن محلّ الكفر أشير
عَنْ دَارِ فِسْقٍ ظَالِم أَهْلُها | قد شُيِّدت للكفر والزُّورِ
أَسَّسَها[١] الملعونُ زيريَّها | فَلَعنهُ الله على زَيرِى

وهى جليلة حصينة يذكر أنه ليس فى تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولاً ومرامًا، ولا يوصل إلى شىء منها بقتال إلاّ من موضع يحميه عشرة رجال، وهو فى شرقيها الذى ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام.

وهى مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها، وداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر، إحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالانتيرغ.

والذى بنى سورها بلجّين يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى سنة سبع وستين وثلاثمائة، وخرَّبها يوسف بن حماد بن زيرى، واستباح أموالها، وفضح حرمها وذلك بعد أربعين وأربعمائة، ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين وأربعمائة.

وتسير من مدينة أَشِير إلى قرية تسمّى سوق هَوَّارة، ومنها إلى قرية تسمى سوق كرام وهى على نهر شلف، ومنها إلى مدينة مليانة[٢]: وهى مدينة رومية فيها آثار وهى ذات أشجار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء، جَدَّدَها زيرى بن مناد وأسكنها ابنه بلجّين[٣]، وهى عامرة، ومنها إلى مدينة الخضراء وهى مدينة جليلة كثيرة البساتين وهى على نهر إذا حمل دخل بعضها، ومنها إلى مدينة قديمة مدينة بنى واريفن، وهى واسعة المسارح كثيرة الكلأ، ومنها إلى مدينة قارية: وهى مدينة لطيفة ذات أعين كثيرة وهى فى سفح جبل، ومنها إلى مدينة تَنَس.

ومدينة تَنس[٤] بينها وبين البحر ميلان، وهى مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة

(١) فى معجم البلدان داشير ١/ ١٦٤ «أشمخها».

(٢) انظر فى مليانة: آثار البلاد ٢٧٣ والاستبصار ١٧١ والروض المعطار ٥٤٧.

(٣) فى الروض المعطار (بلكين).

(٤) تَنَس: مدينة كبيرة، وهى عدوة إلى الأندلس، إلاّ أنها وَبِيَّة. =

صعبة المُرتَقى ينفرد بسكانها العمال لحصانتها.

وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة، وهى على نهر يسمى: تناتين يأتيها من جبل على مسيرة يوم فيأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق فى البحر، وبها حمّامات.

وتَنَس هذه التى تسمى تَنَس الحديثة. وعلى البحر حصن يذكر أهل تَنَس أنّه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة، وتَنَس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكَرْكَدَنُّ وابن عائشة[١] والصَّقر وصُهَيْب وغيرهم، وذلك سنة اثنتين وستين ومائتين.

ويسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل ألبيرة وأهل تدمير، وأصحاب تَنَس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن عَلِىٍّ بن أبى طالب.

وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس فى مرسى على ساحل البحر، فتجمَّع إليهم بَرْبَر من هذا القطر، ورغبوا فى الانتقال إلى قلعة تَنَس وسألوهم أَنْ يتخذوها سوقًا ويجعلوها سُكنَى، ووعدوهم بالعون والرِّفق وحُسْن المجاورة والعِشْرة، فأجابوهم إلى ذلك، وانتقلوا إلى القلعة وخَيَّمُوا بها، وانتقل إليهم مَنْ جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم.

فلمَّا دخل عليهم الرَّبيعُ، اعتلُّوا واسْتَوْبَئُوا الموضعَ، فركبَ البحريّون من أهل الأندلس مراكبهم، وأظهروا لمن بقى منهم أنهم يمتارون، فحينئذٍ نزلوا قرية بجَّانة[٢]، وتغلبوا عليها، على ما يأتى ذكره ـ إن شاء الله.

ثُمَّ إنَّ الباقين بتَنَس لم يزالوا فى تَزَيُّد ثروةً وعددًا. ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم، وكانوا فى أربعمائة بيت، فوسَّع[٣] لهم أهل تَنَس فى منازلهم وشاركوهم

= انظر فى تَنَس: الروض المعطار ١/ ١٣٨ والاستبصار ١٣٣ والمسَالك والممالك للأصطخرى ٣٤ ووصف إفريقيا ٢/ ٣٥.

(١) معجم البلدان ١/ ٤٥٧، فى الأصل «وأبو».

(٢) فى معجم البلدان (بجاية).

(٣) فى الأصل «فتوسّع».

فى أموالهم، وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحِصْنَ الذى فيها اليوم.

ولها بابان إلى القبلة وباب البحر وباب ابن ناصح وباب الخوخة شَرْقِىٌّ يخرجُ منه إلى عين تعرف بعين عبد السَّلام، ثَرَّة عذبة.

وكَيْلُهم يُسَمَّى الصَّحفة، وهى ثمانيةٌ وأربعون قادوسًا والقَادوسُ: ثلاثَةُ أَمْدَاد بِمُدِّ النَّبِىِّ ﷺ ورَطْلُ اللَّحْمِ بها سَبْعٌ وستون أوقية، ورطلُ سائر الأشياء: اثنتان وعشرون أوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدلٍ بوزن قُرْطبة، والجارى عندهم قيراط ورُبْع درهم وصقل وحبَّتَان مضروبة كُلُّها. ودِرْهَمُهم: اثنتا عشرة صقليةً عددًا.

وقال سعيد بن واشكل[1] التيهرتى فى علَّته التى مات بها بِتَنَس: [طويل]

نَأَى النَّوْمُ عَنِّى واضْمَحلَّتْ عُرَى الصَّبْرِ
وَأَصْبَحْتُ عن دارِ الأَحِبَّة فى أَسْرِ

وأصبحتُ عن تيهرت فى دار معزل[2]
وأَسْلَمَنى مَرُّ القضاءِ من القدر

إلى تَنَس دار النُّحوس فإنَّها
يُسَاقُ إليها كُلُّ مُنْتقض العمر

بلادٌ بها البرغوثُ يحملُ راجلاً
ويَأْوِى إليها الذِّئْبُ فى زُمَر[3] الحَشْرِ

ويَزْحَفُ فيها العامّ فى كُلِّ ساعةٍ
بجيشٍ من السودان تغلَّب بالوتر[4]

ترى أهلَها صَرْعَى دوى أُمِّ مِلدم
يروحون فى سُكْرٍ ويَغْدُون فى سُكْرِ[5]

(١) فى مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٧ (سعيد بن أشكل).
(٢) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «غربة».
(٣) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «زمن».
(٤) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «يُغلب بالوفر».
(٥) الأبيات لسعيد بن أشكل فى مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٧ ومعجم البلدان (تنس) ١/ ٤٥٧.

وقال غيره: [من الرمل]

أَيُّها السَّائلُ عن أَرْضِ تَنَسْ ... مقعد اللؤم المُصَفَّى والدَّنَسْ
بَلْدَةٌ لا ينزلُ القَطْرُ بها ... والنَّدى فى أهلها حَرْفٌ دَرَسْ
فصحاءُ النُّطْقِ فى لا أبدا ... وَهُمُ فى نَعَمْ بكم خرس
فمتى يَلْمُمْ بها جاهلُهَا ... يَرْتَحِلْ عن أَرْضِها قَبْلَ الغَلَسْ
وماؤها من قُبْحِ ما خُصَّتْ به ... نَجَسٌ يجرى على نَجَسْ
فمتى تَلْعَنْ بلادًا مرَّةً ... فَاجْعَلِ اللَّعْنَةَ دأْبًا لِتَنَسْ[1]

فأمَّا الطريقُ من تَنَس إلى تيهرت فإلى باجة، إلى مدينة الغزاة، إلى تيهرت خمس مراحل.

* * *

الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة

[2] [من القيرون إلى مَجَّانة على ما تقدَّم، ومنها إلى مدينة تَيْجَس، ومدينة تَيْجَس عليها سور صخر رومى، ولها رَبَضٌ، وبها أسواق وجامع وحَمَّام، وبها من قبائل البربر: نفزة وورغروسة وبنو نموا وكزناية وحمزة من زناتة.

ثم تسير من مدينة تَيْجَس[3] إلى مدينة قُسَنْطينة، وهى مدينة أَوَّلية كبيرة، أهلَةٌ ذات حصانة ومَنَعَة، ليس يُعْرَف أحصنُ منها وهى على ثلاثة أنهار عظام، تجرى فيها السُّفنُ، قد أحاطت بها، تخرجُ من عيون تُعرف بعيون أشقار، تفسيره: سود.

وتقع هذه الأنهار فى خندق بعيد القعر، متناهى البُعد، قد عُقِدَ فى أسفله قنطرة على أربع حنايا، ثم بُنِى عليها قنطرة ثانية، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان (تنس) ١/ ٤٥٧ والأبيات بلا نسبة فى الروض المعطار ١٣٩ ومعجم البلدان ١/ ٤٥٧ (تنس).

(٢) من هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان (ميلة) ٤/ ٥١.

(٣) تَيْجَس: بمقربة من تيفاس بقرب وادى الدنانير عند قصر الإفريقى وهى مدينة أوَّلية شامخة البناء كثيرة الكلأ والربيع. الروض المعطار ١٤٦.

ثلاث حنايا، ثم بنى فوقهن بيت ساوَى حافتى الخندق، يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء فى قعر هذا الوادى من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده، ويُسَمَّى هذا البيت: العبور؛ لأنه معلَّق فى الهواء][1].

ويسكن قُسَنْطينة قبائل شَتَّى من أهل مِيلَة ونفزاوة وقَسْطيلية، وهى لقبائل من كتامة. وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة وبينها وبين مرسى سِقدة مسيرة يوم.

[ومن مدينة قُسَنْطينة إلى مدينة مِيلَة، وفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة فى شوال خرج المنصور من القيروان غازيًا لكتامة، فلمَّا قرب من مِيلَة زَحَفَ إليها بانيًا على استلام أهلها واستباحتهم، فخرج إليها النساء والعجائز والأطفال بعد أن عَبَّأ جيوشه لمحاربتها ونشرَ البنودَ، وضربَ الطبول، فلمَّا رأى مَنْ خرَج إليه منها بكَى وأمرَ أَنْ لا يقتل منهم أحد من أهلها، وأمرَ بهدم سورها، وتَسْيير مَنْ فيها إلى مدينة بَاغَاية، فخرجوا جماعتهم يريدونها وقد تحمَّلوا ما خَفَّ من أمتعتهم، فلقيهم ماكش[2] بن زيرى بعسكره فأخذ جميع ما كان معهم.

وبقيت مِيلَةُ خرابًا، ثُمَّ عُمِّرت بعد ذلك، وعليها سور صخر اليوم وبها جامع وأسواق وحمَّامات، والمياه تطَّرِد حولها، يسكنها العرب والجند والمولَّدون، وهى من غُرَر[3] مدن الزاب][4].

ولمدينة مِيلَة بابٌ شرقى يعرف بباب الرُّوس، وعلى مقربة منه جامعها، وهو مُلاَصقٌ لدار الإمارة، وباب جوفى يعرف بباب السفلى، ويليه داخل المدينة عين تُعرف بعين أبى السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بنى ياروت[5]، يشقُّ منها سوقها ساقية فإذا قَلَّ الماء فى الصَّيف أُجْريت يوم السَّبْت والأحد من الجمعة لا غيرُ، ولها حمامان فى رَبَضها، وبها عَيْنٌ تُعْرَف بعين الحُمَّى: يُرَشُّ منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشِدَّة بردها. ثم تسيرُ من مدينة مِيلَة إلى مَرْسَى الزيتونة، وهو جبل جيجل.

---

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى مادة (ميلة) فى معجم البلدان ٤/ ٥٤.

(٢) فى معجم البلدان (ميلة) ٤/ ٥٣٥٦ (ماكس).

(٣) فى معجم البلدان (أصل).

(٤) ما بين المعقوفين نقله ياقوت فى مادة (مِيلَة) ٤/ ٣٥٦.

(٥) معجم البلدان ٤/ ٣٥٦ وفيه بنى ساورت وهو تحريف.

[الطريق من مدينة أشِير إلى مرسَى الدَّجاج

تخرجُ من مدينة أشير إلى شعبة: وهى قرية، ومنها إلى مضيق بين جبلين، ثم تُفضى إلى فَحْص أفيح، تجمع فيه عروق عاقر قرحا: ومن هذا الموضع تحمل إلى الآفاق، وهناك مدينة تُسَمَّى: حمزة[١]، نزلَها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان ابن الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ، والحسن ابن سليمان هو الذى دخل المغرب، وكان له من البنين: حمزةُ هذا، وعبد الله، وإبراهيم، وأحمد، ومحمد والقاسم، وكُلُّهم أعقبَ، وعَقِبُهم هناك.

وتسيرُ من حمزة إلى بلياس، وهى فى جبلٍ عظيم، ومن بلياس إلى مرسى الدجاج][٢]، ومدينة مرسى الدجاج: قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب بسور من الضفّة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يَدْخل إليها. وأسواقُها ومسجد جامعها داخل ذلك السور، له بابٌ واحد، ولها مَرفأ غير مأمون لضيقه وقرب قعره، وبها عيونٌ طيِّبة يسكنها الأندلسيون وقبائل منَ كتامة، وبشرقيّها مدينة بنى جنَّاد، وهى أصغر منها.

ومَنْ أرادَ الطريق من القيروان إلى مرْسى الدجاج، فإنه يأخذ إلى المسِيلة ـ على ما تقدَّم، ثم إلى أوزقور: وهى عينٌ عذبَةٌ باردَةٌ عليها شجرة عظيمة، وهذا آخر حَدّ بلد صَنْهاجة إلى سوق ماكسن: وهى مدينةٌ على وادى شلف لصنهاجة عليها سورٌ، ولها عيونٌ، إلى سوق حمزة[٣]: وهى مدينةٌ عليها سورٌ وخندقٌ، وبها آبارٌ عذبَةٌ، وهى لصنهاجة، وكان نزلها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ إلى بنى جنَّاد: وهى مدينة صغيرة على جبَلٍ بينها وبين البحر نحو ميل، ومنها إلى مرسى الدَّجاج.

(١) حمزة: مدينة بالمغرب، انظر: مراصد الاطلاع ٢/ ٤٢٥ والبلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

(٢) ما بين المعقوفين نقله ياقوت نصًا عن البكرى فى معجم البلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

(٣) قال ياقوت: سوق حمزة: بَلَدٌ آخر بالمغرب، وهى مدينة عليها سورٌ، ينزلها صنهاجة، منسوبة أيضًا إلى حمزة بن حسن بن سليمان وهى فى قرب من الأول. معجم البلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

الطريق من مدينة أشير إلى مدينة جزائر بنى مَزْغَنّى

من أَشِير إلى الْمَدْية[١]: وهى بلدٌ جليلٌ قديمٌ، ومنها إلى قَزْرونة: وهى مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين، ويُقَالُ لها متيجَة، ولها مزارع ومسارح، وهى أكثر تلك النواحى كتَّانًا ومنها يُحْمَل، وفيها عيون سائحة وطواحينُ ماء.

ومنها إلى مدينة أغزر، ومنها إلى مدينة جزائر بنى مَزْغَنَّى: وهى مدينةٌ جليلةٌ قديمة البنيان، فيها آثار للأوَّل، وآزاج محكمةٌ تدلُّ أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم. وصحْن دار الملعب فيها قد فُرِش بحجارة مُكوَّنة صِغار مثل الفُسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم العمل وأبدع صناعة، لم يغيرّها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجدٌ جامع.

وكانت بمدينة بنى مَزْغَنَّى كنيسة عظيمةٌ، بقى منها جدار مُدِيرٌ من الشرق إلى الغرب، وهى اليوم قبلة الشريعة للعيدين تفَصَّصٌ كثير النقوش والصُّور، ومرساها مأمونٌ، له عَيْنٌ عَذْبة، يقصد إليه السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما.

ومن أشِير إلى تَامَغَلْت ثلاثون ميلاً، وهى مدينةٌ مبنيَّةٌ فى سطح جبل على رأس الصحراء.

* * *

الطريق من القيروان إلى تنس

من القيروان إلى مدينة الغُزَّة على ما تقدَّم، ثم منها إلى مدينة تَاجَنَّة[٢]: وهى مدينة سَهْليةٌ آهِلَةٌ عليها سورٌ، وبها جامعٌ، سُكَّانُها قجانة، وحولها كزناية. ومن مدينة تاجَنَّة إلى مدينة تَنَس.

(١) الْمَدْيَة: ـ مدينة بناها الأفارقة فى تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانين ميلاً فى البحر المتوسط، وتقع فى سهلٍ خصيبٍ جدًا، تحيطُ بها جداول ماء كثيرة وبساتين، سكّانها أثرياء ويرتدون لباسًا أنيقًا ويسكنون دورًا. وصف إفريقيا ٢/ ٤١.

(٢) تَاجَنَّة: مدينة صغيرة بإفريقية، بينها وبين تَنَس مرحلة وبين سوق إبراهيم مرحلة. معجم البلدان (تاجَنة) ٢/ ٤٢٥.

(الطريق من الغزة إلى تيهرت)[١]

فإن أردتَ من الغُزَّةِ إلى مدينة تيهرت، فمن مدينة الغُزَّة إلى تَاجموت على مضيق مكناسة إلى عين الصبحى: عَيْنٌ خرَّارةٌ فى سفح جبل لمطماطة، إلى تاغربيت إلى مدينة تيهرت.

(ومدينة تيهرت مُسَوَّرَةٌ لها أربعة أبواب[٢]: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن. وهى على نهرٍ يأتيها من جهة القبلة يُسَمَّى: مِينة، وهو فى قِبْلِيِّها[٣].

ونهرٌ آخر يجرى من عيون تجتمع تُسَمَّى: تاتُش، ومن تَاتُش شرب أهلها وبساتينها، وهو فى شرقيّها، وفيها جميع الثمار، سفرجَلُها يفوق سفرجل الآفاق حُسْنًا وطعمًا وشمًا وسفرجلها يُسَمَّى الفارس[٤].

وهى شديدة البرد، . كثيرة الغيوم والثلج، قال بكر بن حمَّاد وهو أبو عبد الرحمن، وكان ثقةً مأمونًا حافظًا للحديث، سمع بالمشرق من ابن مُسَدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر، وبإفريقية من سحنون وغيرهم، وسكن بتيهرت، وبها توفى، فقال: [سريع]

ما أخْشَنَ البردَ وريعانه ... وأطرف الشمسَ بتيهرتِ
تبدو من الغيم إذا ما بَدَتْ ... كأنَّها تُنْشَرُ من تَخْتِ
فنحنُ فى بحرٍ بلا لُجَّة ... تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ
نفرحُ بالشمس إذا ما بَدَتْ ... كفَرْحَةِ الذِّمى بالسَّبْتِ[٥]

---

(١) انظر فى تَيْهَرت: الروض المعطار ١٢٦ والاستبصار ١٧٨ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) فى الأصل: «ثلاثة».

(٣) فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٦ «قبلتها».

(٤) فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٦ (بالفارس).

(٥) الأبيات لبكر بن حمَّاد فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ١٥٥.

ونظر رجلٌ من أهل تَيْهَرت إلى تَوَقُّدِ الشمس بالحجاز فقال: «احرقى ما شئت، فوالله إنَّك بتاهرت لذليلةٌ».

وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تيهرت القديمة، وهى حِصْنٌ لبرقجانة، وهو فى شرقى الحديثة.

ويقال: إنَّهم لَمَّا أرادوا بناء تيهرت، كانوا يبنون النهار، فإذا جَنَّ اللَّيْلُ وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تَهَدَّم، فبنوا حينئذ تيهرت السُّفْلَى وهى الحديثة. وبقبليّها: لواطة وهوَّارة فى قرارات، وبغربيّها: زواغة، وبجوفيها: مطماطة وزناتة ومكناسة)[١].

وقد ذكرنا أنَّ شرقيها حصنًا لبرقجانة، وهو تيهرت القديمة.

(وكان صاحب تيهرت: ميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبَهْرَام هذا مَوْلى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بايكان بن سابور ذى الأكتاف: الملك الفارسىّ.

وكان ميمون رأس الإباضيّة وإمامهم وإمامَ الصُّفْرِية والواصلية، وكان يُسَلَّم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبًا من تيهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفًا فى بيوت كبيوت الأعراب يحملونُها.

وتعاقب مملكة تيهرت بنو ميمون وبنو أخويه عبد الرحمن وإسماعيل بن الرستميَّة إلى سنة ستٍّ وتسعين ومائتين، فوصل أبو عبد الله الشيعىّ إلى مدينة تيهرت فدخلَها بالأمان، ثم قتلَ فيها من الرستمية عددًا كثيرًا، وبعث برءوسهم إلى أخيه أبى العباس، وطِيفَ بها بالقيروان ونُصِبت على باب رقَّادة، وملك بنو رستم تيهرت مائة وثلاثين سنة)[٢].

(وذكر محمد بن يوسف أنَّ عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لأبى الخطَّاب عبد الأعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة أَيَّام تَغَلُّبه على إفريقية، فلمَّا قتل محمد ابن الأشعث الخزاعى أبا الخطاب، وذلك فى صفر سنة أربع وأربعين ومائة، هرب عبد الرحمن بأهله وما خَفَّ من ماله وترك القيروان، فاجتمعت إليه الإباضية، واتَّفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم فنزلوا موضع تيهرت اليوم، وهو غَيْضَة

---

(١) معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧.

(٢) معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧.

أَشبَةٌ، ونزل عبد الرحمن منه موضعًا مَرْبعًا لا شَعْراء فيه، فقال البربر: نزل تاقَدْمت، تفسيرُه: الدُّفُّ، وشَبَّهوه بالدُّفِّ لتربيعه.

وأدركتهم صلاةُ الجمعة، فَصَلَّى بهم هنالك، فلمَّا انقضت الصَّلاةُ ثارت صيحةٌ عظيمةٌ على أَسَدٍ ظهر فى الشَّعْرَاء فأخذ حيًا وأُتِىَ به إلى الموضع الذى صَلُّوا فيه، وقُتِل هناك.

فقال عبد الرحمن بن رستم[1]: هذا بَلَدٌ لا يفارقه سَفْكُ دمٍ ولا حربٍ أبدًا.

وابتدأوا من تلك الساعة فبنوا فى ذلك الموضع مسجدًا، وقطعوا خشبهُ من تلك الشعراء، فهو كذلك إلى اليوم، وهو مسجد جامعها، وهو من أربعة بلاطات، قال: وكان موضع تيهرت مِلْكُها لقوم مستضعفين من مراسة وصَنْهَاجَة، فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا، فوافقهم على أَنْ يُؤدوا إليهم الخراجَ من الأسواق ويبيحـوا لهم بنيان المساكن، فاختطُّوا وبنوا، وسُمِّى الموضعُ: معسكر عبد الرحمن بن رُسْتُم إلى اليوم)[2].

قال: وبتيهرت أسواقٌ عامرةٌ، وَحَّمامات كثيرة، يُسَمَّى منها اثنى عشر حمَّامًا، وحواليها من البَرْبر أُمَمٌ كثيرة. ومُدُّهم الذى يكتَالُون به خمسةُ أقفزةٍ ونصف قُرْطُبِّيةٍ. وقنطار الزيت وغيره عندهم: قنطاران غير ثلث إلاَّ المجلوب من الفُلْفُلِ وغيره، فإنّه قنطارُ عِدْلٍ. ورطلُ اللحم عندهم خمسة أرطال.

* * *

---

(١) عبد الرحمن بن رستم، مؤسّس الدولة الرستمية (١٤٤ـ٢٩٦هـ) فى المغرب الأوسط (الجزائر)، ويقال إنه من أصل فارسى، كانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت، ولجأ عبد الرحمن إلى تقوية دولته فعقد حلفًا مع دولة خارجية أخرى قامت فى سِجلماسة وهى دولة بنى مدرار، وتوفى سنة ١٦٨هـ وترك الأمر شورى فى سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذى مالت الأغالبة إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة، بينما اتخذ المخالفون جانبًا معارضًا، ولهذا سُمُّوا بالنكّار أو النكّرية. انظر: فى التاريخ العباسى والفاطمى، لأحمد مختار العبادى ٢٢٦.

(٢) ما بين المعقوفين بنصه فى معجم البلدان (تيهرت) ٢/ ٤٢٧.

الطريق من تنس إلى أشِير

وإن أردت طريق السَّاحل من تَنَس إلى أشِير زِيرى، فمن تَنَس إلى بنى جلّيداش: مدينة لطيفةٌ لمطفرة، يسكنها الأندلسيون والقرويون، ولا يدخلها برقجانى من وقت غدرهم بها.

وهى بلدةٌ طَيْبةٌ، بها عيونٌ عذبة، وهى مُطلَّةٌ على فحص شلف.

وهناك مدينة شلف على نهر، بها سوقٌ عَامِرَةٌ تُعرف بِشِلْفِ بنى واطيل لزواغة، ومنها إلى بنى واريفن لمطغرة على نهر شلف، بها حوانيت، إلى مدينة ملْيَانة[1]: وهى أَوَّلِيَّةٌ شريفةٌ، جدَّدها زِيرى بن مناد، وأسكنها ولده بلَّجين، وهى مُشْرِقَةٌ على جميع ذلك الفحص الذى فيه بنو واريفن وغيرهم، وهى عامرة آهِلَةٌ على نهرٍ، ولها آبارٌ عذبَةٌ وسوق جامعة، ومنها إلى مدينة أشير.

* * *

الطريق من تيهرت إلى البحر

وإنْ أردتَ الطريق من تيهرت إلى البحر، فإنَّك تَمُرُّ بين قبائل البربر حتى تأتى شلف بنى واطيل، ومن هناك إلى الغُزَّة يومان، والغُزَّة: ساحل تيهرت، وبقرب هذا الموضع على البحر قلعة مغيلة دلول: وهى فى أعلى جبل منيف هناك شديد الحصانة، بينها وبين البحر خمسة فراسخ، وبها عين ماء تُسمى عين كُردى.

وبين قلعة دلول ومدينة مستغانم مسيرة يومين، وهى على مقربة من البحر، وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويُبْذَر فى أرضها القطنُ

(١) مَلْيَانة: مدينة كبيرة جدًا وقديمة، بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكَّنانة، لكن العرب حرَّفوا هذا الاسم. وذكر أحمد توفيق مدنى فى كتابه الجزائر صـ٢٤٠ أن مَلْيانة من تأسيس الملك الصنهاجى بلَّقين بن مناد فى القرن الرابع الهجرى.

ولمليانة دور متقنة الصنع، فى داخلها كُلّها سقايات جميلة، يكاد يكون سُكَّانها كلهم صنَّاعًا. وصف إفريقية ٢/ ٣٤.

فيجود، وهى بقرب مصبّ نهر شلف فى البحر، وبغربى هذه المدينة على نحو ثلاثة أميال منها مدينة تامزغران: وهى مدينة مُسَوَّرة لها مسجد وجامع، وعلى مقربة منها قلعة هَوَّارة، ويسمُّونها: تاسقدالت: وهى قلعةٌ فى جبلٍ، لها ثمارٌ ومزارع، وتحت هذه القلعة يجرى نهر سيرات: وهو النهر الذى يسقى به فَحْص سيرات، وطول الفحص نحو أربعين ميلاً، ليس منه شىءٌ إلا ينالُه ماء هذا النهر، إلاَّ أنه اليوم غامِرٌ غير عامرٍ ولا أهل فيه؛ لأن الخوف أجلى أهْلَهُ.

وفى ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو: وهى مدينةٌ روميّة خالية فيها آثارٌ عظيمة للأوّل باقية، يحارُ مَنْ دخل فيها لكثرة عجائبها.

وبقرب مدينة أرزاو جبلٌ كبير فيه قلاعٌ ثلاث مُسَوَّرةٌ، ورباطٌ يقصدُ إليه، وفى هذا الجبل معدن للحديد وللزئبق، وإذا أرسلت النار فى شجرة تفاوحت منه أرياحٌ عطرة.

وبين مدينة أرزاو هذه ووهران أربعون ميلاً.

ومدينة وَهْرَان: حصينةٌ ذات مياه سائحة، وأرحاء ماء وبساتين، ولها مسجد جامع، وبنى مدينة وهران: محمد بن أبى عون ومحمد بن عدوُن وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتّفاق منهم مع نفزة وبنى مُسْقِن، وهم من أزداجة، وكانوا أصحاب القرش سنة تسعين ومائتين، فاستوطنوها سبعة أعوام.

وفى سنة سبع وتسعين ومائتين زحفت قبائل كثيرة إلى وهران يطالبون أهلَها بإسلام بنى مُسْقِن ليهم لدماءٍ كانت بينهم، فأبى أهل وهران من إسلامهم إليهم، فنصبوا عليهم الحرب وحاصروهم ومنعوهم الماء.

فخرج عنهم بنومُسقن ليلاً هاربين، واستجاروا بأزداجة[1] وأجاروهم وتغلَّبوا على أهل مدينة وهران، وخرجوا عنها مُسَلّمين فى أنفسهم، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم، وخُرِّبت وهران وأُضْرِمت نارًا وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة.

ثم عاد أهل وهران إليها فى السنة بعدها، سنة ثمان وتسعين ومائتين بأمر أبى

---

(١) أزداجة: بطن عظيم من البربر انظر: جمهرة أنساب العرب ٤٩٥.

حُمَيد دوَّاس بن صولات، ويقال داود عامل تيهرت، وابتدؤا بنيانها فى شعبان من هذه السنة، فعادت أحسن ممَّا كانت، وولَّى عليهم داود بن صولات، وابتدؤا بنيانها فى شعبان من هذه السَّنة، فعادت أحسن مَّما كانت، وولَّى عليهم داود بن صولات اللهيصى محمد بن أبى عون.

فلم تزل فى عمارة وكمال وزيادة وحُسْنِ حال إلى أن أوقع يَعْلَى بن محمد بن صالح اليفرنى بأزداجة بجبلٍ قيدر، وفَرَّق جماعتهم، وكانت الوقيعة بينهم يوم السبت للنصف من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. فدخل يعلى مدينة وهران، وملكها ثم نقل أهلها إلى مدينته المعروفة، وذلك فى ذى القعدة من العام المؤَرّخ، وخربت مدينة وهران وحرقها، وبقيت كذلك سنين، ثم تراجع الناس إليها وبنيت)[1].

وفى عمل وهران قرية أهلها موصوفون بعظم الأجساد، ومعروفون بشدة الأبدان، أخبرنى غير واحد أنه رأى الرجل الكامل فى الخلق المعهود يكون إلى دون منكب الرجل منهم، وأنه كان منهم رجلٌ يحملُ ستَّة نفرٍ ويخطو بهم خطوات، يحمل على عاتقه اثنين، ويتأبط اثنين، ويحمل على ذراعيه اثنين، وأنَّ رجلاً منهم أراد عمل بيت فاقتطع ألف نخلة وحملها على ظهره وسوَّى منها بيتًا مُعَرَّشًا.

* * *

الطريق من وهران إلى القيروان

تخرجُ من وهران إلى تَانْسَالمت: قرية لأزداجة بها سوق وعين عَذْبَةٌ، وهى فى طريق جبل جَيْدَر، ومنها إلى جراوة لعْزيزوا وهى سوق عبيدون بن سنان الأزداجى، ومنها إلى قصر ابن سنّان، ثم الجادَّة على ما تقدَّم، وهى خمسٌ وعشرون مرحلة.

وطريق آخر من وهران إلى القيروان على بلد قسطيلية، من وهران كما ذكرنا

(١) معجم البلدان (وهران) ٤/ ٤٦٤.

إلى قصر منصور بن سنان، ثم إلى العلويين: وهى مدينة يعلى بن باديس، عليها سور، وهى على نهر كبير وداخلها عيون.

ومنها إلى نهر سِى سِى بن دمر: وهو نهر كبير عليه بساتين كثيرة، ومنها إلى أحساء عقبة بن نافع القرشى[1]، وهى: آبار كثيرة مبنية بخشب العرعار، وتعرف بآبار العسكر، يريدون عسكر عقبة، ويُسمَى بالبربرية: أرسان.

ثم تمشى فى مفاوز ربَّما نزلها بنو مغراوة ثلاث مراحل أو أربعًا إلى ساقية ابن خزر، يسمونها إزمرّين، عليها قصر خرب حوله ثمار ونخيل، إلى مدن بنطيوس: وهى ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، وفى كل مدينة جامع، فالاثنان لأهل السُّنَّة، والثالثة لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية، إباضِيَّة، إحداهما يسكنها قومٌ من الفُرسْ يُعرفون بنى جُرَيْج.

وبغربيها نهر جارٍ ينحدر إليها من ناحية الجوف، وهذا النهر يسقى الثلاث المدن، والثانية يسكنها المُوَلَّدون، والثالثة يسكنها البربر، وأكثر ثمارها النخل والزيتون.

والثلاث المدن فى سهلة عريضة أرِيضة، عليها كُلُّها أسوار وخنادق، وبغربيها صحراء بنطيوس، تُسقى بثلث النهر المذكور. وإذا كمل الرجل فيها زريعته عرف مبلغ إصابته من الطعام لا يخطئ.

وآبارها ملحة، وبقرب منها قرى كثيرة، وبجوفى بنطيوس طولقة: وهى ثلاث مدن، كُلُّها عليها أسوار طوب وخنادق وحولها أنهار، وهى كثيرة البساتين بالزيتون والأعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار، إحداهما يسكنها المُوَلَّدون، والثانية يسكنها اليمن، والثالثة يسكنها قيس.

---

(١) عَقبة بن نافع بن عبد القيس الأموى القرشى الفهرى (١ق هـ-٦٣هـ) فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام، وهو بانى مدينة القيروان، وُلد فى حياة النبى ﷺ ولا صحبة له، وشهد فتح مصر، وكان ابن خاله عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢هـ واليًا عليها فافتتح كثيرًا من تخوم السودان وكورها فى طريقه، وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالاً سنة ٥٠ هـ، وسير إليه عشرة آلاف فارس فأوغل فى بلاد إفريقية حتى أتى وادى القيروان فبنى فيه مسجدًا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وبلغ فى تقدمه البحر المحيط ودفن بالزاب. الأعلام ٤/ ٢٤١.

ثم من بنطيوس إلى مدينة بِسْكِرَة[١]، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنها إلى مدينة تهوذا[٢]، وتعرف بمدينة السِّحر، وهى مدينة آهلةٌ كثيرة الثمار والنخل والزرع، وتهوذا مدينة أوَّلية، بنيانها بالحجر، ولها أموال كثيرة، وحولها رَبَضٌ قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة، وبها جامع جليل ومساجد كثيرة وأسواق وفنادق، ونهرٌ يَصُبُّ فى جوفيّها من جبل أوراس، سُكّانها العرب وقومٌ من قريش. وإن كانت بينهم وبين من يجاورهم حربٌ، أرسلوا ماء النهر فى الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوّهم به.

وفى المدينة بئرٌ لا تُنْزَح، أَوَّلِيَةٌ، وآبارٌ كثيرة طَيِّبة.

وأعداؤهم: هَوَّارة، ومكناسة إباضِيَّة، وهم بجوفيها.

وأهل تهوذا على مذهب أهل العراق، وحولها بساتين كثيرة من أصناف الثِّمار، وضروب البذور تجود بها، وحواليها أزيد من عشرين قرية.

وروى أبو المهاجر عن رجاله عن شَهْر بن حَوْشب أنَّ النَّبىَّ ﷺ نَهَى عن سُكْنَى هذه البقعة الملعونة التى يقال لها تهوذا»[٣].

ويقال إنه قال: «سوف يُقْتَل بها رجالٌ من أُمَّتى على الجهاد فى سبيل الله، ثوابهم ثواب أهل بدر وأهل أُحُد، والله ما بَدَّلوا حتى ماتوا».

وكان شَهْرُ بن حَوْشب يقول: واشوقاه إليهم، وكان يقول: سألت بعض التابعين عن هذه العصابة فقال: ذلك عقبة بن نافع قَتَلَه البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهوذا، فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم حتى يقفوا بين يَدَى الله تعالى.

---

(١) بِسْكِرة: مدينة عريقة فى القِدَم، أُسِّسَت أيام الرومان يحكمون البربر، وخُرِّبَت بعد ذلك، ثم أُعيدَ بناؤها لمّا دخلت الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا.

أمَّا السكان فمؤدبون، لكنهم فقراء، لأن أرضهم لا تنتج شيئًا غير التمر. وصف إفريقيا ١٣٨/٢.

(٢) انظر فى تهوذه: الروض المعطار ١٤٢-١٤٣ والاستبصار ١٧٤ وهى بالدال المهملة فى نزهة الأنظار ٢١٦/١.

(٣) الأثر فى الروض المعطار ١٤٢.

قال أبو المهاجر: قَدِم عُقْبَةُ بن نافع مصر، وعليها عمرو بن العاص من خلافة معاوية بن أبى سفيـان، فنزل منزلاً من بعض قُرَاهـا ومعـه عمرو بن العـاص وعبد الله بن عمرو وجماعة، فلمَّا تناولوا الطعامَ ضَرَبت حِدَأَةٌ على الطعام الذى بين أيديهم، فأخذت منه عرقًا، فقال عقبة: اللَّهمَّ دُقَّ عُنُقَهَا.

قال: فأقبلت الحدَأَةُ مُنْقَضَّة حتى ضربت بنفسها الأرض، فاندَقَّ عَنُقَها، فاسترجع عمرو فَسَمِعَه عُقْبَةُ يترجَّعُ، فقال: مَابَالُك يا أبا عبد الله؟ قال: بلغنى أَنَّ نفرًا من قريش يخرجون إلى هذا الموضع فيُسْتشهدون جميعًا.

فقال عقبة: اللَّهُم وأنا منهم.

ثُمَّ إنَّ عُقْبَة بن نافع خرج من عند يزيد بن معاوية فى جيشٍ على غزو المغرب، فمَرَّ على عبد الله بن عمرو وهو بمصر، فقال له عبد الله: يا عقبة لعلَّك من الجيش الذين يدخلون الجنَّة برحالهم.

قال أبو المهاجر: فبلغ عقبة بن نافع فى غزواته إلى السُّوس الأَدْنَى والأقصى والبحر المحيط، وأدخل فيه فَرَسَهُ حتى بلغَ الماءُ لَبَبَ فرسه وانصرفَ إلى إفريقية، فلمَّا دنا منها تفرَّق أصحابُهُ عنه فَوْجًا فوجًا، فلمَّا وصلَ إلى مدينة طُبْنَة، أَذن لسائرمَنْ بَقِى فى عِدَّة يسيرة، وقال فى طريقه: أَمُرُّ إلى مدينة تهوذا وإلى مدينة باديس وأعرف ما يكفيهما من العدَّةِ والجيوش، وكانتا فى ذلك الوقت من أعظم مدائن المغرب.

فلمَّا انتهى إلى مدينة تهوذا اعتمده كَسِيلَة بن لَهْزَم[1] فى جيوش الروم وأقبلت إليه جيوش الروم وعساكر البربر، وقد علموا بافتراق عساكر عقبة، فزحفوا إليه، فكسر عقبة وأصحابُه أجفان سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا.

وقبر عقبة معروف بمدينة تهوذا، ولَمَّا أراد معدّ بن إسماعيل بن عُبَيْد الله تحريف قبلة مسجد القيروان، وقلَعَ من محرابه آجُرًّا وذلك سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، بلغه أَنَّ أَهلَ القيروان يذكرون دُعَاء عُقْبة للقيروان وتأسيسه جامعها، وأنهم يقولون: إنَّ الله عزَّ وَجَلَّ يمنعه منه بدعاء صاحب نَبِيِّه ﷺ، فأمر معدٌ لعنَهُ الله بنبش قبر عقبة وإحراق رِمَّته بالنار، وبعث إلى مدينة تهوذا لذلك خمسمائة بين

(١) نزهة الأنظار ١/ ٢١٧.

فارسٍ وراَجلٍ، فلما دنوا من قبره وحاولوا أمرهم به، هَبَّت ريحٌ عَاصِفَةٌ ولاحت بروقٌ خاطِفَةٌ، وقَعْقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم، فانصرفوا ولم يعرضوا له.

ومنها إلى مدينة باديس مرْحَلَةٌ، وبمدينة باديس حصنان فيهما جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة يزدرعون بها الشعير مرَّتين فى العام على مياه سائحة كثيرة عندهم.

ومن باديس إلى قيطون بياضة، وهو أوّل بلد سماطة، ومنه يفترق الطريق إلى بلاد السودان، وإلى أطرابلس وإلى القيروان إلى مدينة نفطة مرحلتان: وهى مدينة مَبْنِيَّةٌ بالصَّخر، عامِرَةٌ آهِلَةٌ، بها جامع ومساجد وحمَّامات كثيرة، وهى كثيرة المياه السائحة وشُرْبُ جميع بلاد قسطيلية بوزنٍ إلاّ نَفْطة[1] فإن شُرْبها جُزَاف.

وجميع أهلها شيعة، وتُسَمَّى الكوفة الصغرى.

إلى مدينة تَوْزَر[2]، وهى آخر أقاليم بلاد قسطيلية ـ وقد تَقَدَّم ذكرها وبينها وبَين بِسْكِرَة خمسة أيام، ثم تسير منها إلى قَفْصَة مرحلتان ومن مدينة قَفْصَة مرحلتان إلى فَجِّ الحمار، وبه فندق ومواجل للماء. إلى الهروية، وهى آخر قرى قَمُّونية، إلى مدينة مَذْكود، وهى أُمُّ أقاليم بلد قَمُونِيَّة[3]، بها جامع وحمَّامات وأسواق ومساجد كثيرة وفنادق عِدَّة، وآبار عذبة الماء بعيدة الرِّشاء.

وحولها ثمارٌ كثيرة من جميع الأصناف، أكثرها شجر التين وهو يفوق تين إفريقية طيبًا.

ومنها يُحْمَلُ التِّينُ زبيبًا إلى القيروان، فيكون أغلى من سائر التين ثمنًا وأكثر طلبًا، وهى فى غابة من شجر التين الأخضر لا تظهر لمن قَصَدَها حتى يبلغها.

ومن مدينة مَذْكود إلى جمونس الصابون: قرية كبيرة آهِلةٌ بها آبارٌ عذبةٌ. وهى

(١) نزهة الأنظار ١/١٠٦.

(٢) تَوْزَر: مدينة عتيقة بناها الرومان فى صحراء نوميديا على جدول ماء صغير، يأتى من بعض الجبال من ناحية الجنوب، وكانت أسوارها متينة تحيط بأرض شاسعة، لكن المسلمين خَرَّبوها وخَرَّبوا فى نفس الوقت عدة قصور جميلة. وصف إفريقيا ٢/١٤٢ ورحلة التجانى ١٥٧ـ١٧٢.

(٣) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٧.

فى سند جبل حولها رملٌ كثير وشجر الزيتون وبها جامع وسوقٌ عامِرَة وحمَّام.

وفيها قصرٌ كبيرٌ، وهو مخزن لجماعة أهلِهَا، بها غدير ماء كبير، ولها قرى كثيرة عامرة مفيدة، إلى قرية: مجدول. آهلة كبيرة أيضًا مثل التى قبلها صفةً ولها غدير أيضًا يعرف ببحيرة مجدول، منه شربهم، ولهم آبار كثيرة طيِّبة، ومنها إلى بنى دَعام: قرية جامعة عامرة، إلى مدينة القيروان وذلك من وهران إلى القيروان على قسطيلية ثلاث وأربعون مرحلة.

* * *

الطريق من تنَس إلى تيهَرت

ومن أراد الطريق من تَنَس إلى تيهرت، فمن تَنَس إلى الغَزَّة[1] على ما تقدّم، إلى تاجموت على مضيق مكناسة، إلى عين الصبحى: عين كبيرة فى سند جبل لمطماطة، إلى تاغريبت، إلى مدينة تيهرت.

ومدينة الخَضْراء على مقربة من تَنَس، وهى مدينة كبيرة على نهر خَوَّار عليه الأرحاء، وإذا حمل دخل المدينة، وحولها بساتين كثيرة، وَيكْتَنفُهُا من قبائل البربر: مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن، وهى مدينة تَنَس، ومدينة إغزر، وقد تقدَّم ذكرها، وهى أقزرْنة متِيجة.

ومدينة سَطِيف[2] على مرحلتين من المسيلة، تخرج من المسيلة إلى غدير واروا، يسكنه بنو يغمراسن: من هَوَّارة، على عيون طيِّبة يعتُّدون فى ستين ألفًا، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنها إلى مدينة سَطِيف، وهى مدينة كبيرة جليلة أَوَّلية، كان عليها سورٌ خَرَّبته كتامة مع أبى عبد الله الشيعى؛ لأنها كانت فى الأول لكتامة، غلبتهم عليها

(١) الغَزَّة: من المشترك، وهى مدينة بإفريقيا، بينها وبين القيروان نحو ثلاثة أيام فى طريق الجزائر. مراصد الاطلاع ٢/ ٤٩٤.

(٢) سَطِيف: مدينة فى جبال كتامة بين تَاهَرْت والقيروان ببلاد المغرب ومنها خرج أبو عبد الله الشيعى داعية عُبَيْد الله المُسَمَّى بالمهدى. مراصد الاطلاع ٢/ ٧١٥ ومعجم البلدان (سطيف) ٣/ ٤٦.

العرب، وكانوا يعشّرونهم إذا دخلوها، وهى اليوم دون سور، لكنها عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار.

وبين سطيف والقيروان عشر مراحل، وبينها وأقزرنة عشر مراحل أيضًا. ومدينة تاناجللت على مرحلة من مدينة سطيف، على مقربة من مدينة ميلة المذكورة قبل هذا.

وتاناجللت: مدينة لكتامة عامرة آهلة، ليس بها مسجد.

وغدير واروا المذكور على مرحلتين من طُبْنَة. وبين تاناجللت ومدينة القيروان ثمانى عشرة مرحلة.

وبين مدينة وهران ومدينة تلمسان مرحلتان.

* * *

(ذكر مدينة تلمسان وما والاها من المغرب)[١]

وهى مدينة مسورة فى سفح جبل شجرة الجوز، ولها خمسة أبواب ثلاثة منها فى القبلة: باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوجة، وفى الشرق: باب العقبة، وفى الغرب: باب أبى قرة، وفيها آثار للأوَّل قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة، وكثيرًا ما يوجد الرِّكاز[٢] فى تلك الآثار، وكان الأول قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال.

وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها الأسواق، ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار، وأنها عليها الطواحين، وهو نهر سطفسيف، وهى دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق، ونزلها محمد بن سليمان[٣] بن

---

(١) انظر فى تلمسان: وصف إفريقيا ٢/ ٧ـ٦٤ والروض المعطار ١٣٥ـ١٣٨ والاستبصار ١٧٦.

(٢) الرِّكاز: ما ركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية، والكنز، والمال المدفون قبل الإسلام. المعجم الوسيط (ركز) ١/ ٣٧٠.

(٣) محمد بن سليمان بن عبد الله الحسنى الطالبىّ: مؤسّس إمارة آل سليمان فى تلمسان وأطرافها =

عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن ولده عيسى أبو العيش[١] بن إدريس بن محمد بن سليمان الذى بنى جراوة، وكان أميرها وبها توفى، ولم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب مالك.

وفى الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والأنهار، ويتصل بها جبل تارف، وهو وما يليه جبال معمورة، إلى مدينة تيزيل: وهى أول الصحراء ومنها يسافر إلى مدينة سِجِلْمَاسَة، وإلى وارجلن إلى القلعة، وهى مدينة معمورة فيها آثار للأول وبها مسجد.

وفى الشمال من تلمسان منزل يسمى باب القصر فوقه جبل يسمى جبل البغل ينبعث من أسفله نهر سطفسيف، ويصب فى بركة عظيمة من عمل الأول، ويسمع لوقوعه فيها خرير شديد على مسافة، ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهماز، وإلى ولج الحناء إلى جنان الحاج حتى يصب فى نهر أسر، ثم ينصب فى نهر تافنا، وهو نهر يصل إلى مدينة أرشقول، وهناك ينصب فى البحر، وأرشقول ساحل تلمسان، بين مدينة أرشقول على نهر تافنا، وتلمسان فحص أزيدور طوله خمسة وعشرون ميلاً.

ومدينة أرشقول على نهر تانى يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها، ويدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة، وبينهما ميلان، وهى مسورة.

وبمدينة أَرَشْقُول مسجد جامع حسن فيه سبعة بلاطات، وفى صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح غربى، وباب الأمير قبلى، وباب مَرْنيسة شرقى محنيّة كلها عليها منافس، وَسَعَةُ

= وُلِدَ بالمدينة، وكان صغيرًا حين قُتِل أبوه بوقعة «فخّ» بمكة، واشتدَّ ضغط العباسيّين على الطالبيين فى الحجاز والعراق، فخرج محمد إلى إفريقيا، ونزل تلمسان، فكانت له ولبعض بنيه إمارتها وإمارة ما حولها.

قال ابن حَزْمٍ: وهم ـ أى أحفاده ـ بالمغرب كثير جدًا. توفى نحو ٢٣٠هـ الأعلام ٦/١٤٩.

(١) عيسى بن محمد بن سليمان الحسنى الطالبىّ: أميرٌ من أحفاد سليمان بن عبد الله المقتول «بفخ»، وكان مع أبيه فى تلمسان، والأرجحُ أن تكون ولادته فيها بعد هجرة أبيه إلى المغرب، وانتقل إلى مدينة آرشْقُول (وهى ساحل تلمسان) فولى إمارتها، واستمرَّ بها إلى أن تُوفّى سنة ٢٩٢هـ وتوارثها بنوه من بعده. الأعلام ٥/١٠٧ وجمهرة الأنساب ٤٢.

سورها ثمانية أشبار وأمنع جهاتها جوفيها، وبها آبار عذبة لا تَغُور تقوم بأهلها ومواشيهم، ولها ربَضٌ من جهة القبلة وكَيْلُهم ستون مُداً بمُدِّ النبى ﷺ، ويُسَمُّونه عمورة، ورطلهم اثنتان وعشرون أوقية ودرهمهم ثمانى خراريب، والخروبة أربع حبات، وكان يسكنها التجار ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان المذكور قبل هذا ووليَها وتوفى فيها سنة خمس وتسعين ومائتين، وولد له فيها إبراهيم بن عيسى الأرشقولّى، ووليها بعده ابنه يحيى بن إبراهيم، وهو الذى حبسه أبو عبد الله الشيعى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

وتُقَابِلها جزيرة فى البحر تُسَمَّى جزيرة أَرَشْقُول[1] بينها وبين البر قدرُ صوت رَجُلٍ جَهيرِ الصوت فى سكون البحر، وهى مستطيلة من القبلة إلى الجوف عالية منيفةٌ. وإليها لجأ الحسن بن عيسى بن أبى العيش صاحب جراوة، وتخلّى مما كان بيده لّما غلب، على ذلك موسى بن أبى العافية[2] على ما نُبَيِّنه بعد هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ فكتب موسى بن أبى العافية إلى صاحب الأندلس عبد الرحمن بن محمد يسأله نُصْرَتَه عليه، ويُقَرِّبُ له المَأْخَذَ، وأعانه على ذلك أبو محمد عبد الملك ابن أبى حَمَامة عند موسى بن محمد بن جَدير، فأمر عبد الرحمن أهل بجّانة وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبًا حربية، ثم جهَّزها بالرجال والسلاح والأزودة والأموال، فأحاطت بهذه الجزيرة، وقتلوا كثيرًا ممن كان فيها

(١) وصف إفريقيا ٢/ ١٦.

(٢) موسى بن أبى العافية بن أبى بسَّال بن أبى الضحَّاك المكناسيّ: مؤسس الإدارة المكناسية بمراكش، وتُسَمَّى إمارة آل أبى العافية. كانت له بلدة مكناسة وعقد له ابن عمّه مَصَالة بن حَبُوس على سائر ضواحى المغرب وأمصاره سنة ٣٠٥هـ، بالإضافة إلى عمله من قبل وهو: السَّول، وتازا، وكرسيف وأقرَّهُ عُبَيْد الله المهدى الفاطمى، ثم ضَمَّ إليه مدينة فاس سنة ٣١٣هـ.

وقاتَل الأدارسة وأجلاهم عن بلادهم، وصار فى مُلْكه سنة ٣١٧هـ من أحواز تيهرت إلى السُّوس الأقصى، وملك تلمسان سنة ٣١٩هـ وانتظم فى مُلْكه المغربان الأقصى والأوسط، وأقام فى العِدْوَة الغربية ونقضَ دعوة المهدى الفاطمى فى هذه السنة، وخطب لعبد الرحمن الناصر الأمويَ فظلت الحرب سجالاً إلى أن قُتِلَ موسى فى بعض الصحارى سنة ٣٤١هـ وكان شجاعًا داهية.

الأعلام ٧/ ٣٢٤ وانظر: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ـ١٣٥ والاستقصا ١/ ٨٠ـ٨٣ والبيان المغرب ١/ ١٩٤ـ١٩٩.

وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشًا لما نفدت مياه البحر جِبَابِهم حتى تَدَارَكَهُم الله بغيثٍ وابلٍ، فلم يَطْمَعْ فيهم أهل الأسطول حين سَقَوا وانصرفوا قافلين، فوصلوا إلى المَرِّية فى شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة، ثم ظفر البورىُّ ابن موسى بن أبى العافية بالحسن بن عيسى الذى لجأ إلى أَرَشْقُول، وبعث به إلى عبد الرحمن بن محمد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

* * *

ذكر الحصون التى بساحل تلمسان سوى مدينة أرشقول

مدينة أَسْلَن، وهى شرقى أَرَشْقُول: حصينة، وهى مدينة قديمة عليها سور صخر وبها جامع وسوق، يسكُنُها مَغِيلة، ولها نهر يصب فى البحر من شرقيها يسقى منه بساتينهم وثمارهم، وهى مقطوعة منحوتة السور بنهر من كل ناحية، ولها عيون تجرى بينها وبين البحر، وكان عبد الرحمن افتتحها، وبعث إليها محمد ابن أبى عامر حُمَيْد بن يزد فبناها وجدَّدَها.

فأما الطريق من أرشقول إلى القيروان[١]، فمنها إلى أسلن، ومن أسلن إلى قصر ابن سنان مرحلة لطيفة، ثم الطريق على ما تقدّم من أسلن إلى تيهرت أربع مراحل، ومن تيهرت إلى القيروان تسع عشرة، ومنها إلى حصن تانكرمت، وهو أيضًا على الساحل، ستة أميال وله مزارع واسعة وبسائط حصيبة، وعلى مرحلتين من أسلن مدينة فكان بينهما نهر سى، وعليه المنزل فى المرحلة الأولى، ومدينة فكَّان[٢] كانت سوقًا قديمة من أسواق زناتة، فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى[٣]، وكان ابتداء تأسيسه لها سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وارتحل إليها أهل

---

(١) انظر: وصف إفريقيا ٢/ ١٦ ومقدمة ابن خلدون ٤/ ٣٤ـ٣٦.

(٢) فى البيان المغرب ٢/ ٢١٦ و٢٢٢ «آفكان» بالهمزة الممدودة. وفى معجم البلدان (أفكان) ١/ ١٨٧ قالوا: هو اسم مدينة ليَعْلَى بن محمد، ذات أَرْحِيَة.
أمّا البكرى فقيَّدها بالكاف المشدَّدة بلا همزة «فكَّان».

(٣) يَعْلَى بن محمد بن صالح اليَفَرْنَى: أميرٌ من أشراف البربر، من أهل تاكرونة، كانت له مدينة (آفكان) فى إفريقيا استقلالاً، ابتدأ بتأسيسها سنة ٣٣٨ هـ، وفى هذه السنة دخل وهران =

المعسكر، وهى فى سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها، ولهذا الجبل شعراء غامضة، وبقلبها نهر سيرة، ومنبعثه من عيون بشرقيها عليه الأرحاء والبساتين من كلتا ضفتيه، وبغربى فكان أسفل بساتينها مجمع الأودية: وادى سيرة، ووادى سى، ووادى هنت، وعلى مدينة فكان سور طوب، وبها جامع وحمام وخنادق.

وبين هذا الحصن وحصن مرنيسة البير ثلاثة أميال، وهو حصن حصين، ومنها إلى حصن ابن زينى ثلاثة أميال أيضًا، ولهذا الحصن نهر كثير الثمار.

ومن بنى زينى إلى حصن الفروس ميلان، وهو على كنة جبل على ضفة البحر، ومنه إلى حصن الوردانية ميلان، وهو مثله على جبل بساحل البحر ومن الوردانية إلى حصن هنين أربعة أميال، وهو على مرسى جيد مقصود، وهو أكثر الحصون المتقدمة الذكر بساتين وضروب ثمر، يسكنها قبيلة تسمى كومية، وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة، ومسافة ما بين هذا الحصن والمدينة ثلاثة عشر ميلاً.

ومدينة نَدْرُومة[1] هى فى طرف جبل تاجرا، وغربيها وشماليها بسائط طيبة ومزارع وبينها وبين البحر عشرة أميال، وساحلها وادى ماسين، وهو نهر كثير الثمار، وله مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك به، إذا سرق فيه أو أتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته قد تعارفوا ذلك من بركته وحُسْن صَنْعِ الله فيه. ومدينة نَدْرُومة مُسَوَّرة جليلة لها نهر وبساتين وفيها من جميع الثمار، ولها سور ومساجد وجامع.

وبين مَرْسَى ماسين وَتَرْنَانا عشرة أميال، وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ ولها أسواق وجامع، وبساتين كثيرة، وبينها وبين ندرومة ثمانية أميال، ويسكن مدينة ترنانا، فخذ من بنى دمر يسمون بنى يلول، وكان بها عبد الله الترنانى بن إدريس بن

= ومَلَكها، واستمرَّ فى إمارته إلى أنْ قتَلَهُ جوهر (قائد جيش معد بن إسماعيل) صاحب إفريقيا غدرًا سنة ٣٤٧هـ. الأعلام ٨/ ٢٠٤.

(١) نَدْرومة: مدينة تابعة لملك تلمسان، أسس هذه المدينة الرومان قديمًا عندما كانوا يحكمون المنطقة، وبنوها على بقعة واسعة فى سهل، بعيدة بنحو ميلين من الجبل، واثنى عشر ميلاً من البحر المتوسط، ويمرُّ قربها نهرٌ قليل الأهمية. وصف إفريقيا ٢/ ٣٥٠ و٢/ ١٣.

محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وعلى ساحل ترنانا حصن تونت، وهو حصن منيع على جبل منيف قد أحاط به البحر من ثلاث جهات، وله مرتقى وعر من ناحية الشرق ولا يطمع فيه أحد، وينزله قبيل من البربر يعرفون ببنى منصور، وفى جبل الحصن معدن الإثمد، وله بساتين وشجر كثير، يحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحى. وعلى هذا الساحل أيضًا حصن أبى جنون، وحصن كاربيوا.

قال: ومن مدينة ترنانا إلى تابحريت عشرة أميال، وهى مدينة مسورة على ساحل البحر، لها مسجد جامع متقن البناء مشرف على البحر ولها أسواق جامعة، وهى محط السفن ومقصد التجار لقوافل سجلماسة وغيرها، ويسكنها من البربر مدغرة، وهم أعدل من هناك من قبائلهم.

وفى الشرق من تابَحْريت مدينة مصكاك بينهما نحو ثلاثة أميال، وهى مدينة مسورة على شاطئ البحر ذات بساتين، وسوقهم بِتَابَحْرِيت، وهى أقدم من تابحريت وإنما جدَّد مدينة تابحريت الحاج بن مرامر بعد العشرين وأربعمائة، وتابَحْرِيت ساحل مدينة وَجْدَة[1] بينهما أربعون ميلاً، ومن تلمسان إلى مدينة وجدة ثلاث مراحل، ومن تلمسان إلى الحمَّة[2]، ومن الحمة إلى قرية تسمى بالشهباء، ومنها إلى مدينة وجدة.

ومُدُّ وَجْدَة يسمى بالوَجْدَات، وهى مدينتان مسورتان، أحدث إحداهما يعلى ابن بلجين الورتغنينى بعد الأربعين وأربعمائة، يسكن فى المحدثة التجار، وفيها الأسواق، والجامع خارج المدينتين على نهر قد أحدقت به البساتين، وهى كثيرة الأشجار والفواكه، طيبة الغذاء، جيدة الهواء، يمتاز أهلها من غيرهم فى نضارة ألوانهم ونعمة أجسامهم، ومراعيها أنجع المراعى وأصلحها للظلف والحافر، ينتهى شحم شاة من شياههم مائتى أوقية.

---

(١) وَجْدَه: مدينة قديمةٌ بناها الأفارقة فى سَهْلٍ فسيح جدًا على بعد نحو ٤٠ ميلاً جنوب البحر المتوسط، وعلى نفس البعد تقريبًا من تلمسان، محاذية غربًا مفازة أنكاد. وصف إفريقيا ٢/ ١٢-١٣.

(٢) الحمَّة: مدينة بإفريقيا من عمل قسنطينية، من نواحى الجريد. وهى من مشترك البلدان. مراصد الاطلاع ١/ ٤٢٧.

وعلى مقربة من تابحريت مدينة تَافَرْجنّيت، وهى ساحل جراوة، وعلى مدينة وَجْدَة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق إلى سِجِلْماسة[١] وغيرها من بلاد المغرب، والطريق منها إلى سجلماسة، تخرج من وجدة إلى صاع، وهى قرية ذات نهر وثمار ومزارع، ومنها إلى تَامَلَلْت، ومنها إلى جبل بنى يَرْنيان ومنه إلى قير، ومنه إلى الأحساء، ومنها إلى الأَمْسَلى، ومنه إلى دار الأمير، ومنه إلى سِجلماسة.

***

الطريق من وَجْدَة إلى فاس

تخرج منها أيضًا إلى صاع، ومنها تَابَرِيدا، تفسيره: تَلُّ الأمير، ومنه إلى مكْنَاسَة، وهم أهل أخصاص، ومنها إلى مدينة فاس.

فأمّا الطريق من وَجْدَة إلى مليلَة، فإلى صاع ومنها إلى أجرسيف مرحلة، وهى قرية عامرة على نهر ملوية، يأتيها من جانب مُطْغَرة، والمخاضة إليها من جهة القبلة، ومن أجرسيف إلى قلوع جارة، وهى حِصْنٌ منيع فى أعلى جبل لا مُتَنَاوَلَ له ولا مطمعَ فيه، ومنه إلى مدينة مليلَة، وهى: مدينة مُسَوَّرَةٌ بسور حجارة، وداخلها قَصَبَةٌ مانعة[٢]، وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق، وهى مدينة قديمة، ويذكر أن بنى البورى بن أبى العافيه المكناسى جددوها، ويسكنها بنوورْتَدى، وهم يَقْتَرِعون على من يدخل عندهم من التجار، فمن أصابته قُرْعَةُ الرجل منهم كان تَجرُه على يده، ولم يصنع شيئًا إلاَّ تحت نظره وإشرافه، فيحميه عمَّن يريدُ ظلمَهُ ويأخذُ منه الأجرَ على ذلك، ويأخذ منه الهديَّة لنزوله عنده.

وذكر محمد بن يوسف وغيره أن عبد الرحمن الناصر لدين الله افتتحها سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وبنى سُورها معقلاً لموسى بن أبى العافية وقال أحمد بن محمد بن موسى الدارانى الرازى يذكر ذلك.

---

(١) سجِلْمَاسة: مدينة وسطة من حَدّ تاهرت، إلاَّ أنها منقطعةٌ لا يُسْلك إليها إلاَّ فى القفار والرمال، وهى قريبة من معدن الذهب المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٣/ ١٣١١.

والملك النـــاصر لدين الله فِيما يَحُوطُ الدِّينَ غَيرُ سَاه

بنىَ لموسَى عـدَّة مدينـة مَنِيعـةً شاهقــةً حَصِينَـة

ذَلّت لهـا تيهرت والأَفَارِقَة ولَمْ يطق بُنيَانَها العمالقة

وكَيْلُهم يُسَمُّونه المُدَّ، وهو خمسة وعشرون مُداً بمُدِّ النبى ﷺ، ورطلهم مثل رطل نكُور، اثنتان وعشرون أوقية، والأوقية خمسة عشر درهما، وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل، والدراهم بها عدة قراريط كل قيراط خمسة أثمان درهم.

فأما الطَّرِيق من القيروان إلى مليلَة، فمن القيروان إلى صَاع على ما تقدَّم قبل هذا، ومن صَاع إلى مليلَة على ما ذكرنا آنفا، وذلك ثلاث وثلاثين مرحلة، وذلك من مليلَة إلى مدينة جَرَاوة مرحلتان، ثم الطريق من جراوة كما يأتى بعد هذا فى الطريق من فاس إلى القيروان كذلك إحدى وثلاثون مرحلة، وبقبلىّ مدينة ترنانا على مقربة منها حصنان، أحدهما حصْنُ الزنجراعة والآخر حصن بنَى، منازلهما منيعة ومزارعها طَيِّبة مُتَّسِعَةٌ، وحِنْطَتُهَا تقاوم حنطة سائر تلك النواحى، وهى بلاد سهلية جبلية.

* * *

ذكر المراسى واتصالها

ومن المراسى مرسىَ مليلَة صَيْفِىّ، يوازيه من بَرّ الأندلس مرسى مدينة شلوبينة وسنذكر اتصال المراسى من نكُور آخذًا إلى الشرق وما يحاذيها من مراسى الأندلس إلى مرسى مليَلة.

ويلى مرسى مليَلة إلى الشرق، مرسى مدينة جراوة، وهو مأمون، وله نهر يريق فى البحر وبينه جزائر ملوية فى البر ثمانية أميال، ويقابله من بر الأندلس مرسى قمجلة بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى عجرود، وهو مرسى صيفى يكون بغربيه، وفيه آبار وهو مسكون، ويوازيه من بر الأندلس مرسى دلاية بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى تَرْنَانة، وهو صيفى وعليه سكنى وله آبارها ماء،

وبينه وبين مرسى عَجْرُود عشرة أميال، ويحاذيه من بَرّ الأندلس مرسى مرية بجانة.

ويليه مرسى مدينة أرشقول[١] المذكور قبل هذا، وجزيرة أرشقول فى هذا المرسى، ويقابل هذا المرسى من بَرّ الأندلس قابطةُ بنى أسود، بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى أَسْلَن.

فأما اتّصال المراسى من مرسى أَسْلَن إلى الشرق، فأَدْنَى المراسى إليها مرسى الماء المدفون والسُّكْنَى منه على مَقْرُبَة، وله عيونُ ماءٍ تَسِيلُ فى البحر، وبينهما ثلاثة عشر ميلاً، ويُقَابله من بَرِّ الأندلس مرسى الرَّاهب، بينهما مجريان وثلث.

ويليه مرسى جبل وَهْرَان مرسى كبير شتوى سكن من كل ريح، بينهما ستة أميال، ويقابله من بَرِّ الأندلس مرسى أَشْكُوبرش، المرسى القديم الذى نزله البحريون قبل نزولهم بجّانة بينهما مجريان ونصف.

ويليه إلى الشرق أيضًا مرسى عين فروج[٢]، وهو مرسى شتوى مأمون، وله آبار ماء، والسكنى منه على مقربة، وبينه وبين وهران فى البر أربعون ميلاً، ويقابله من بر الأندلس مرسى آقلة، وهو مرسى مدينة على البحر غير مسكونة، وفيها ماء مجلوب، وأَحْسَاء ماء، ومرساها غير مأمون. ويوازيه من بر الأندلس مرسى قرطاجنة.

ويليه مرسى مَغِيلة بنى هاشم، وهو مرسى صيفىّ لا يكنُّ من ريح، وله رباط على ضفة البحر مسكونٌ وماؤه كثير، وبينه وبين قصر الفُلُوس[٣] خمسة وثلاثون ميلاً، ويقابله من برّ الأندلس مرسى قبطيل تدمير.

ويليه مرسى مدينة تَنَس وهو صيفىّ، يكنّ بشرقيه وغربيه، وله ماء معين، بينهما مَراسٍ لِطَاف، ويقابل مرسى تَنَس من بر الأندلس مرسى شنتبول.

ويلى مرسى تَنَس إلى الشرقى مرسى جزيرة وقور بينهما أزيدُ من عشرين ميلاً،

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٣.

(٢) فى تاريخ البحرية الإسلامية صـ٥٣ عين فروج بالخاء المعجمة: فرضة تاهرت.

(٣) قصر الفلوس: من مرافئ وهران، وهى مدينةٌ مُحْدَثَةٌ، لها سور وهى لطيفةٌ جدًا، وسورها من تراب طابية، وماؤها من عين ماء جارية. صورة الأرض ٧٨ـ٧٩.

وله نهر لطيف يصبُّ فى البحر، والجزيرة قريبة من البرّ، ويقابلُ من بر الأندلس مرسى لقننت ويقطع البحر بينهما فى خمس مجارٍ، ثم مرسى شَرْشَال، عليه مدينة عظيمة للأوّل غير مسكونة، وله أحساء ماء يكنّ بشرقيه وغربيه، ويقابل من بر الأندلس مرسى مريرة، بينهما خمس مجار ونصف، وكان لمدينة شَرْشَال مبنى ارْتَدَم، وفيها رِبَاطَاتٌ يجتمعُ إليها فى كل عام خلقٌ كثير.

ويليه جبل شنوة، وله مرسى يسمى البطَّال، وهو غير مسكون، يكنّ بغربيّه، وله ماءٌ يسير، ويقابل من عُدْوَة الأندلس جبل قرون، بينهما خمسُ مجارٍ ونصف، ثم مرسى هور، ثم إلى أنْفِ القناطر، وهناك آثار قناطر قائمة، ثم إلى مرسى الذيّان، ويليه مرسى جنابية جزيرة، وهناك مدينة للأوّل غير مسكونة لها نهر يريق فى البحر، ويقابل من بر الأندلس مرسى دانية، وبينهما ست مجارٍ.

ويليه مرسى الجزائر وتعرف بجزائر بنى مزغنى، وقد تقدم ذكر مدينتها، وهو مرسى مأمون شتوى بين جزيرة سطفلة من الشرق إلى الغرب، وبين البر وبالمرسى عين عذبة، ويقابل من برِّ الأندلس مرسى بنشكله[1] بينهما ست مجارٍ.

ويلى هذا المرسى من المراسى المشهورة مرسى الدّجاج[2]، وهو صيفى غير مأمون، ويقابل من جزاز الأندلس جزيرة ميورقة، وبقرب منها مرسى مدينة بجاية أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون شتوى، قد خرج عن محاذة جزيرة الأندلس، ثم مرسى مأمون، ومرسى بجاية[3] هو ساحل قلعة أبى طويل، وعلى هذا المرسى فى تلك الجبال قبائل كتامة، وهم شِيعةٌ يكرمون مَنْ مَالَ إلى مذاهبهم ويُبَرِّرُون من وافق اعتقادهم، وجزيرة جُوبَة قبل مرسى بجاية.

ثم يلى مرسى بجاية مرسى سبيبة، وعلى مرسى سبيبة فى جبال كتامة عين الأوقات معروفة، وإذا كانت أوقات الصلوات جرى الماء فيها، فإذا خرجت الأوقات غاض وانقطع، ومن هذا المرسى تدخلُ السفن إلى جزيرة العافية.

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية صـ٥٤.

(٢) من مراسى المغرب الأوسط. تاريخ البحرية الإسلامية ٥٤

(٣) بجاية: من مراسى المغرب الأوسط. انظر: تاريخ البحرية الإسلامية ٥٣.

ثم مرسى جيجل فيه آثار للأول، وهو معمور اليوم، وعلى هذه المواضع كلها من جبال كتامة معادن النحاس، ومنها يحمل إلى إفريقية وغيرها، وبهذا الجبل حجر اللاّزورد الطيب، ومن هذا المرسى إلى مرسى الزيتونة وقد تقدم وصفه، وهذا الجبل أوَّلُ حَدِّ الجبل الذى يعرف بجبل الرحمن، وهو جبل عظيم خارج فى البحر يقابل جزيرة سَرْدَانية، وهو كثير الثمار والأنهار، يسكنه قبائل البربر من كتامة وغيرها، وفيه مزارع كثيرة ومراعٍ مريعة، ومنه يحمل عودُ الخرط إلى إفريقية وما وَالاَها، وفيه أسواقٌ كثيرة ومراسٍ، ومنها مرسى الخرَّاطين، ومرسى الشجرة، وفى آخره مرسى القلّ.

ومنه تسير إلى مرسى أَسْتُورة، وهو مرسى مدينة تَاسِقْدَة، وهى مدينة أَوَّلية قديمة فيها آثار للأول عجيبة، ثم إلى مرسى الروم وهو شتوى مأمون، إلى جزيرة عُمَر إلى مرسى تكوش، مرسى مأمونٌ فيه قرى كثيرة يتصل به جبلٌ كثير الفواكه والخير.

ثم إلى رأس الحمراء، ثم إلى مرسى ابن الألبيرى، ثم إلى مرسى الخرُّوبة، ثم إلى مرسى منيع، وهو مرسى بُونَة[١]، وبقربه بئر النَّثْرة المذكورة، وهى بئر منقورةٌ فى صخرة صماء من عمل الأوَّل على ضفة البحر، إذا ارتجّ البحر وصل إليها، ومن مرسى بُونةَ تخرج الشوانى غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سَرْدَانية وكرشقة وما وَالاَها.

ثم مدينة مرسى الخرز[٢]، ثم مرسى طبرقة[٣]، ويلى طبرقة من المراسى المشهورة مرسى قرطاجنة، وبينهما من المراسى الصغار مرسى أنف أبى خليفة، قبالته جزائر الأخوين، ثم مرسى الروم، ثم مرسى القبة، وهو مرسى بنزرت، وعلى مقربة منه جزيرة قملاريه منه يقطع قواطع الطير من الأندلس وغيرها إلى بلاد الروم، وهناك ترتقب سكون الريح لطيرانها فتستعلى على أوطانها ثم مرسى رأس الجبل، وهو مشتى مأمون، ثم مرسى الثنية، ثم رباط قصر أبى الصقر، وقبالته جزائر الكراث التى قتل فيها زيادة الله عمومته وإخوته، ثم مرسى رباط

---

(١) صورة الأرض ٧٧ وتاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٢) صورة الأرض ٧٦.

(٣) صورة الأرض ٧٦.

قصر الحجامين، ثم مرسى قرطاجنة.

ثم مرسى قصر الأمير، بينه وبين مدينة تونس ثمانية أميال فى البر، وهو متصل بها فى البحيرة المحفورة، وهذا القصر على الخليج المحفورة فى البحر إلى مدينة تونس، ثم مرسى كبير يسمى رادس، وقد تقدم ذكره، وما ورد فيه عند ذكر مدينة تونس.

ويلى مرسى تونس[١] إلى القبلة من المراسى الكبار مرسى سُوسَة وبينهما من المراسى الصغار رباط الحمّة، ثم جون النخلة، ثم مرسى بُونَة فى قبليّه جزيرتان إحداهما تعرف بالجامور الكبير والأخرى بالجامور الصغير وهى أصغر.

ثم جبل أَدَار يظهر منه جبل صَقَلِّية، وفى هذا الجبل قوم متعبّدون تَخَلَّوا عن الدنيا وسكنوا فى هذا الجبل مع الوحش، لِبَاسُهم البردى، وعيشهم من نَبَاتِ الأرض، ومن صَيْدِ البحر، يتناولون من ذلك ما يكون بُلْغَةً لهم، إذا جَاعُوا، والدعوة من أكثرهم مستجابة، وهذا الجبل معروف بالتزام هؤلاء فيه منذ فُتِحت إفريقية.

ثم جون الملاَّحة، ثم مرسى مدينة إقليبية: مدينة كبيرة أهلة، ثم المرسى المدفون وهو بحر صعب كثيرًا ما تُعْطَبُ فيه السفن، ثم مرسى مدينة ريهان، ثم مرسى هرقلة، ثم مرسى قصر ابن عُمَر الأغلبى، ثم مرسى مدينة سُوسَة[٢].

ثم تسير من مرسى سُوسَة إلى ناحية القبلة إلى مرسى خفانص، وهو مشتى عليه قصر كبير مَحْرَسُ رباط، ثم إلى مرسى محرِس المُنَسْتِير، وليس بإفريقية أجل من هذا المحرس، وقد مضى ذكره، وبقرب هذا المرسى مَلاَّحة لمطة، وهى ملاَّحة كبيرة، ومِلْحُها لا يفوقه ملح، ومنها يحمل إلى ما جاورها من البلاد.

ثم إلى مرسى قصر القُورِيَّتين، وهما جزيرتان فى البحر كبيرتان تشق السفنُ بينهما، ومنهما إلى مدينة المهديّة على ساحل القيروان[٣]، ومَحَطٌّ للسفن لمن قَصَدَها من جميع الجهات.

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٢) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٣) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

*** فأما سلوك السفن من المهديّة إلى الإسكندرية:**

فمن مرسى المهديّة إلى مرسى سلقطة وعليه قصر، إلى مرسى قبودية وهى قصورٌ، إلى رأس الجسر وهو أول القصير، إلى الزرقاء الكبيرة والصغيرة، وهما جزيرتان من الماء، إلى جزيرة قرقنة، وهى جزيرة كبيرة فيها سبعة أجباب وفيها آثار قديمة، ويدخل فيها أهل الساحل مواشيهم ويبذر أكثرها وهى قبالة مدينة سفاقس.

ثم إلى رأس الرَّمْلَةِ، ثم إلى الجرف، ثم إلى قصر الروم وهو بحر مَيِّتٌ، ثم إلى مدينة قابس.

ثم إلى جزيرة جَرْبة، وهى جزيرةٌ معمورةٌ يسكنها قوم من البربر خوارج، وهى كثيرة الذهب، وبينها وبين البرّ الكبير مجاز، وهى آخر القصر إلى الشرق، وأهلُها غَدَّارُون شِرَارٌ لا تُؤْمَنُ ناحيتهم، وطول هذا القصر فى البحر نحو خمسين ميلاً، وفى داخل البحر من داخل القصر بنيان من بنيان الأوَّل فهو يسمى قصر البيت، وتجرى من قصر البيت إلى الشمال نحو خمسين ميلاً إلى جزيرة نموشت وجزيرة أنبدوشة.

ثم تخرج السفن من جزيرة جَرْبَة إلى مرسى الأندلسيين، ثم إلى قصر الدرق، وهو بحرمَيِّتٌ، ثم إلى عُقَيْبلات يدخل إليها فى مجلة فى البحر، ثم إلى جبل قنطبير.

وجبل قنطبير المتقدم الذكر هو موضع مخوف فى البحر، ثم إلى مرسى مدينة أَطْرَابُلس، ومَرْسَاها مأمون جيد، ولها دار صناعة للأساطيل، ثم تخرج منه إلى رأس الشعراء، ثم إلى لبدة، ثم إلى رأس قانان، ثم إلى قصر العبادى، ثم إلى سرت، ثم إلى أَجْدَابية، ثم إلى اليهودية، ثم إلى حجر عبدون، ثم إلى عين أبى زياد، ثم إلى رأس أَوْتَان وفى رأس أوتان قالة الشينى، ثم إلى سُوسَة بَرْقة، ثم إلى شُقَّة الفلفل، ثم إلى شُقَّة التَّيْس، ثم إلى مرسى درنَى، ثم إلى مرسى يَتْنَى، ثم إلى طُبْرُق، ثم إلى جزيرة الطرفا، ثم إلى جزائر الحمام، ثم إلى وادى ملالى، إلى رأس المَلاَّحة إلى مرسى الزيتونة، إلى مرسى عمارة، إلى مرسى السلوم إلى رأس العَوْسَج إلى الكنائس إلى الشقراء إلى بوصير إلى مِينَى الزُّجَاج إلى مِينَى الأندلسيين إلى منارِ الإسكندرية.

* فأمَّا سلوكُ السُّفن من الإسكندرية إلى أنطالية:

فإنها تخرج من مدينة الإسكندرية إلى بوقير، ثم إلى دمياط، ثم إلى بحيرة تَنّيس، ثم إلى جزيرة دَبْقُو، وهى التى تصنع فيها الثياب الدُّبَيْقية، ثم إلى تيدارميماس، وفيها قصر مبنى للصحابة رضى الله عنهم، ثم إلى غَزَّة، ثم إلى مَلاَّحة الواردية، ثم إلى عَسْقَلان، ثم إلى قَيْسَارِيَّة، ثم إلى يَافَا، ثم إلى رأس الكرمان، ثم إلى حَيْفَا، ثم إلى عكَّة، وفيها قنطرة مبنيَّة للأوَّل تدخل تحتها السفن بشُرُعها، ثم إلى مدينة صُور، وهى داخل البحر، وهى ساحل بيت المَقْدِس، ثم إلى صَيْدَا، ثم إلى بيروت، ثم إلى أَطْرَابُلس الشام، ثم إلى الَّلاذقية، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى أنطالية، ومن أنطالية تدخل إلى الجزائر المؤلَّفَة.

فهذا مَسْلَكُ المراكب من مدينة أَسْلَن على التوالى إلى هذا الموضع، وقد بقى فى أقاصى المغرب مَرَاسٍ نذكرها إن شاء الله حتى نوصلها بأصيلى.

أخبر مُؤْمِن بن يُومر الهَوَّارى: أَنَّ بجزيرة آوى مَشْتًى على ضفّة البحر، وهذه الجزيرة تمشى منها الرفاق مُوَاجِهة للمشرق شهرين مَشْىَ الإبل إلى مدينة نُول، ومدينة نُول آخر بلد الإسلام، وأول العمران من الصحراء.

وتسيرُ السفن من ساحل نُول إلى وادى السُّوس ثلاثة أيام، ثم من وادى السُّوس إلى مرسى أمقدول، وهو مرسى مشتى مأمون، وهو ساحل وادى السُّوس، ثم إلى مرسى قوز، وهو رباطٌ يَعْمُرُهُ الصَّالحون وهو ساحل أغمات، ثم إلى مرسى أسفَى، ثم إلى البيضاء وهو رأسُ جبلٍ داخل فى البحر، ثم إلى جزيرة فضالة، وهو ساحل بلد تَاسَمْنَى بلد برغواطة، ثم إلى مرسى ماريفن.

ثم إلى وادى سلَى، وهناك مدينةٌ أَوَّلِيَّة آثارها قائمة تسمى شلَّة، وفى ناحية الشرق من وادى سلَى على البحر غارٌ عظيم، وفى أعلاه منافس كأفواه الآبار، وظهرُ الغَارِ مزروعٌ.

ثم إلى وادى سبو، ثم إلى وادى سفدد، ولا يسكن فى وادى سَفْدَد أبيض اللون إلا اعتلَّ وَقَلَّ ما يَسْلَمُ من علَّته، وإنما يسكنه السُّودان، وإذا رَأَوْا رَجُلاً أبيضَ اللون قد دخل عندهم ينادى بعضهم بعضًا: ميزميز، ثم من وادى سفدد إلى حوض أَصِيلة، ثم على ما تقدَّم.

ذكر بلد نكور[١] وَحَدُّهُ

ينتهى من جانب الشرق إلى زواغة جراوة الحسن بن أبى العيش. ومسافة ذلك نحو خمسة أيام، ويجاورهم من هاهنا مطماطة وأهل كيدان، ولمرنيسة الكدية البيضاء، وغساسة أهل جبل هرك، وقلوع جارة التى لبنى وَرْتَدى.

وينتهى من جانب الغرب إلى قبيل من غمارة يعرفون ببنى مروان، وبنى حميد إليهم، تنسب الحميدية، وإلى مسطاطة وصنهاجة، ومن ورائهم أوربة حزب فرجون، وبنو وليد وزناتة أهل تابريدا وبنو يرنيان وبنو مراسن حزب قاسم صاحب صاع والكدية المعروفة بتاوررت[٢].

والمراسى المنسوبة إلى نكور مرسَى ملوية وهرك وكرط ومرسى الدار وأوفنيس من مراسى تمسامان، وهو الجبل المعروف بأبى الحسن الذى لجأ إليه بنو صالح[٣]، ووادى البقر والمزمَّة، بينه وبين مدينة نكور خمسة أميال، والمزمة فى القبلة من المرسى، ويقابله من برٍّ الأندلس مدينة مالقة، ويقطع الغدير بينهما فى مجرى ونصف، ومرسى باديس ومرسى بقوية وبالش مرسى صَنْهَاجة وغيرها.

ومدينة نكور بين رواب منها جبل يقابل المدينة يعرف بالمصلّى، وبها جامع على أعمدة، من خشب العرعار، وهو والأرز أكثر خشبها، ولها أربعة أبواب فى القبلة باب سليمان وبين القبلة والجوف باب بنى ورياغل، وفى الغرب باب المصلَّى،

(١) نُكور: ميناء صغير فى شمال المغرب الأقصى على شاطئ البحر المتوسط على مصبّ نهر صغير يُسَمَّى وادى أكال بين مَلِيلَة والحسيمة. وهذا الوادى على صغره يحملُ الماء الكثير، فهو يجمعُ واديين: أحدهما وادى نَكُور، ومخرجه من ناحية كزناية، والثانى من وادى عيسى، ومخرجه من بلاد بنى ورياغل (قبيلة عبد الكريم الخطابى) وقد زالت نكور اليوم، وربما كانت قريبة جدًا من فرضة تميد.

انظر: تاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس ٤٢٦ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤ والروض المعطار ٥٧٦ـ ٥٧٧.

(٢) صورة الأرض ١٠٢ـ ١٠٣.

(٣) أسَّس بنو صالح دولة نكور من ٩١هـ إلى ٤٧٣هـ. انظر فى ذلك: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٥ـ ٤٢٧.

وفى الجوف باب اليهود، وسورها من اللبن، وبها حمامات كثيرة وأسواق عامرة مفيدة، وهى بين نهرين أحدهما: نكور ومخرجه من بلاد كزناية من جبل بنى كوين، والثانى: نهر غيس مُنْبَعَثُهُ من بلد بنى ورياغل، ومسافة مجرى كل نهر منهما إلى مَصَبِّه فى البحر مسيرة يوم وبعض ثان، وعلى نهريها الأرحاء، ومن جبل كوين أيضًا ينبعث النهر المعروف بنهر وَرْغَة، وهو من مشهور أنهار أرض المغرب، ويجتمع نهر نكور وغيس بموضع يقال له أكدال، ثم يتشعب هناك جداول، وفى طرف هذا الموضع رباط نكور.

وعلى نهر غيس بنى سعيد بن صالح مسجدًا على صفة مسجد الإسكندرية بمحارسه وجميع منافعه، وَعُدْوَةُ غيس هذه يقال لها تاكراكرى، وهى منيعة، وفيها يتناتج كراع آل صالح.

وبين مدينة نكور وبين البحر خمسة أميال وهو فى جوفيها، وهى كثيرة البساتين والفواكه لا سيما الكمثرى والرمان، وقال أيوب بن إبراهيم النكورى: [من الوافر]

أيا أَمَلى الذى أَبْغِى وَسُؤْلِى ... وَدُنْيَاىَ الَّتِى أَرْجُــو وَدِينِى
أَأُحْرَمُ مِنْ يَمِينك رِىَّ نَفْسِى ... وَرِزْقُ الخَلْـقِ فى تلك اليميـنِ
وَيُحْجَبُ عَنْ يَمِينك لَحْظُ طَرْفِى ... ونُور الأَرْضِ مَن ذَاكَ الجبيـنِ
وقَدْ جُبْتُ الْمَهَامة من نُكُــورٍ ... إِلَيْـكَ بِكُلِّ نَاحِيَــةٍ أَمِيـنِ[1]

وكَيْلُ نكور يسمونه الصَّحْفَة، وهى خمسة وعشرون مدًا بمدِّ النبى ﷺ، ويسمون نصف الصحفة السدس، والرطل عندهم فى جميع الأشياء اثنتان وعشرون أوقية، وقنطارهم مائة رطل، ودراهمهم عدد بلا وزن.

والذى أسسها وبناها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحِمْيَرى[2]،

---

(١) الأبيات لإبراهيم بن أيوب النكورى فى الروض المعطار ٥٧٦ وفيه (أمون) مكان (أمين).

(٢) سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميرى: أميرٌ مغربى يمانىّ الأصل كان جَدُّه صالح أحدَ الأعيان القادمين إلى المغرب من اليمن فى الفتح الأوَّل ونزل فى مرسى قرب نكُور فى شمالى المغرب بالرِّيف على البحر المتوسط وأسلمَ على يده بَرْبَرُ تلك الناحية من صنهاجة وغمارة. =

وصالح بن منصور هو المعروف بالعبد الصالح، وهو الذى افتتحها زمان الوليد بن عبد الملك، ودخل أرض المغرب فى الافتتاح الأول، فنزل مرسى تمسامان على البحر بموضع يقال له بدكون بوادى البقر، وبين مرسى تمسامان ومدينة نكور عشرون ميلاً، وهو مرسى صيفى لا يكن، ويقابله من بر الأندلس مدينة طونيانة، وعلى يده أسلم بربرها، وهم صنهاجة وغمارة، ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داود ويعرف بالرَّندى[١] وكان من نفزة.

وأخرجوا صالحًا من البلد، ثم تلافاهم الله بهداه وتابوا من شركهم وقتلوا الرندىّ، واستردوا صالحًا، فبقى هناك إلى أن مات بتمسامان ودفن بقرية يقال لها الأقطى على شاطئ البحر، وقبره بها يعرف إلى اليوم، وكان له من الولد المعتصم وإدريس أمهما صنهاجية وعبد الصمد، فولوا المعتصم ومكث فيهم يسيرًا، ومات فولِّى سعيد بن إدريس، وهو الذى بنى مدينة نكور على ما تقدم.

وقد كان صالح بن منصور أنزل نفرًا من البربر موضعًا يحاذى مدينة نكور فى الضفة الثانية من النهر، وكانوا يقيمون هناك سوقًا، فنقلهم سعيد[٢] إلى المدينة التى أسسها، وغزا المجوس لعنهم الله مدينة نكور سنة أربع وأربعين ومائتين، فتغلبوا عليها وانتهبوها، وسَبُوا من فيها إلا من خلصه الله بالفرار، وكان فيمن سبوا أَمَةَ الرحمن وخنعولة ابنتا واقف بن المعتصم، ففداهما الإمام محمد بن عبد الرحمن. وأقامت المجوس بمدينة نكور ثمانية أيام.

وقامت البرانس على سعيد بن إدريس وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى سكن، وتألَّبُوا عليه من كل جهة، وغزوه فى عقر داره، فأظهر الله عليهم وهزمهم، وقُتِلَ رَئِيسُهم وافترق جمعهم ورجع من بقى منهم إلى الطاعة، ومات سعيد بن

= وبعد وفاته انتهى الأَمْرُ إلى حفيده سعيد سنة ١٦٧، وانتعشت مدينة نكور، وقصدتها مرافق البحر من مرسى المرية، واستمرَّ مُلْكُ سعيد ٦٧ سنة، توفى سنة ٢٣٤ بنكور. الأعلام ٣/ ٩١-٩٢.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٧.

(٢) هو سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميرى (من ١٤٣- إلى ١٨٨هـ) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٥.

إدريس بعد أن ملكهم سبعًا وثلاثين سنة، وَوُلّى ابنه صالح بن سعيد(١).

وكان لسعيد من الولد: منصور، وحمود، وصالح، وزيادة الله، والرشيد، وعبد الرحمن الشهيد، ومعاوية، وعثمان، وعبد الله، وإدريس، وكان عبد الرحمن فقيهًا بمذهب مالك، وحج أربعًا، وعبر إلى الأندلس للجهاد، فقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من معه، وتخلّص عبد الرحمن على فرسه، وحضر غزوة أبى العباس القائد واستشهد فيها.

وقام على صالح أخوه إدريس فى بنى ورياغل وكزناية، فالتقوا بجبل كزناية المعروف بكوين، فانهزم صالح وانتهب إدريس معسكره، واستمر إلى مدينة نكور ليدخلها، فامتنعوا عليه، ومنعه خليفة صالح عليها فقال له: «إن صالحًا قد قتل»، فقال: «إذا صَحَّ عندى ذلك لم أدافعك»، فلما لم يجد عندهم ما يريد نزل الجبل المطل على المدينة، وأتى صالح فى جوف الليل فى خاصة من أصحابه فدخل المدينة، فلما كان من الغد أقبل إدريس على فرسه، وعليه درعه، وهو لا يعلم بأمر أخيه، فأدخلوه المدينة فأرجله فتيان صالح عن دابته، وأتوا به صالحًا أخاه، فأمر بحبسه فى داره، ثم أشار عليه قاسم الوسنانى صاحب صاع والكدية بقتله وألح عليه فى ذلك، فأمر الموالى بقتله فامتنعوا، فأمر فتى من فتيانه يقال له عَسْلُون فقتله.

وامتنعت مكناسة(٢) على صالح وحبسوا مغارمهم، فكتب إليهم يوعدهم فختم الكتاب وأدخله فى مخلاة، وشدّها على حماره، وبعثه مع ثقة من ثقاته وقال له: «إذا توسطت بلاد مكناسة فاترك الحمار بما عليه وانصرف»، ففعل فأصابت مكناسة حمار صالح، وكان معروفا بينهم، وأخذوا المخلاة، فلما قرءوا الكتاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادى على امتناعهم. ثم انصرف رأيهم إلى جمع ما كان عليهم لصالح، فجمعوه وجلّلوا الحمار بملحفة مروية وأتوا صالحا بالحمار مُجَلَّلا، ومغارمهم موفاة واستعتبوه فأعتبهم، ومات صالح بن سعيد بعد أن ملك ثمانية وعشرين عاما.

(١) حكم صالح بن سعيد نكُور ٦٢ عامًا من ١٨٨ـ إلى ٢٥٠هـ تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٧.
(٢) انظر: وصف إفريقيا ١/ ٢١٤ـ٢١٧.

فولُّوا ابنه سعيدًا[١]، وكان أصغر ولده، فلما توطَّد له الأمر واستوثق، دخل عليه عبيدهم الصقالبة فسألوه العتْقَ، فقال لهم: «أنتم جُندنا وعبيدنا، وأنتم كالأحرار، لا تدخلون المواريث ولاَ تُجرى عليكم المقاسم، فما طلبكم للعتق؟»، فألحوا عليه فى ذلك فأبى، فناله منهم جفاء وغِلظة، وقدَّموا أخاه عبيد الله وعمه الرَّضِى المُكَنَّى بأبى على، وزحفوا بهما إلى القصر، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا. وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة، فتحصنوا بها سبعة أيام، وحشد سعيد، وخرج إليهم، وظفر بهم بعد حرب شديدة، وكان الرَّضِى عمه وصهره وكانت ابنته طالت تحته فحبسه مع أخيه عبيد الله، وقتل من خرج معهما من بنى عمه، منهم الأغلب، وأبو الأغلب، ثم وَكَّل بأخيه عبيد الله من أوصله إلى مكة، فأقام بها حتى مات.

فامتعض سعادة الله بن هارون، وهو ابن عم الأغلب لقتل ابن عمه، وقال: «قتل سعيد ابن عمى وأبقى عمه وأخاه وذنْبُهما واحد»، فألّب عليه بنو يصلين أصحاب جبل أبى الحسن، ثم عقد أمره معهم وسعادة الله مع سعيد بنكور وهو لا يعلم، فلما أعلن بنو يصلين بالخلاف على سعيد، جمع أصحابه، وخرج إليهم ومعه سعادة الله.

فلما التحمت الحرب تحيز سعادة الله فيمن تبعه إلى بنى يصلين وخذل سعيدا، فانهزم سعيد، وأخذت بنو يصلين بُنُودَه وطُبُوله وقتلوا من مواليه نحو ألف رجل وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروا بنكور، فكانت لسعيد الكرة عليهم فهزمهم، وأسر ميمون بن هارون أخا سعادة الله وقتله.

وسار سعادة الله إلى تمسامان، وخرق سعيد دوره وخرَّبها، ثم صالح سعيدا، فانصرف إلى نكور، وكان شجاعا بئيسًا، فخرج سعادة الله بعد ذلك فى خاصته إلى بلاد بطوية وبنى ورتدى فأدخلوه قلوع جارة، ونَهَدَ بهم إلى مرنيسة وزناتة، فقتل فاستملك له جميع ذلك البلد، وانصرف سعادة الله إلى مدينة نكور، فأقام بها مصافيًا لسعيد.

(١) سعيد بن صالح، حكم نكور من ٢٥٠ـ إلى ٣٠٥ هـ. تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

وتزوج أحمد بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه أخت سعيد أم السعد بنت صالح وابتنى بها، وسكن معها مدينة نكور إلى أن مات، ولما تغلب عبيد الله الشيعى كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول فى طاعته والتدين بإمامته، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح، وكتب بأسفل كتابه أبياتا كثيرة، منها: [البحر الطويل]

فَأنْ تَسْتَقِيمُوا أَسْتَقِمْ لِصَلاَحِكُمْ   وَإِنْ تَعْدِلُوا عَنِّى أَرَ قَتْلَكُم عَدْلاً
وأعْلُو بِسَيْفِى قَاهِرًا لِسُيُوفِكُم   وأَدْخِلُهَا عَفْوًا وَأَمْلَؤُها قَتْلاً

فأجاب رجل من شعراء الأندلس من أهل طليطلة أمره يوسف بن صالح، وتلقب بالأحمس وكان شاعر آل صالح فى ذلك العصر بأبيات كثيرة، منها[1]: [من الطويل]

كَذَبْتَ وبَيْت اللَّه لاَ تُحْسِنُ العَدْلاَ   ولا علم الرَّحْمَنُ مِنْ قَوْلك الفَضْلاَ
فَمَا كُنْتَ إلاَّ جاهلاَ ومُنَافِقًا   تُمَثِّل لِلْجُهَّال فى السُّنَّة المثلا
وهمَّتنا العُلْيَا لِدِين مُحَمَّدٍ   وقد جَعَل الرَّحْمَنُ هِمَّتَك السُّفْلَى

فكتب عبيد الله الشيعى إلى مَصَالة بن حَبُوس[2] عامله على تيهرت يأمره بالمسير إلى بلد نكور ومحاربة سعيد بن صالح، فخرج مصالة لذلك من تيهرت غرة ذى الحجة سنة أربع وثلاثمائة، فنزل من مدينة نكور على مسيرة يوم بموضع يسمى نسافت، فخرج إليه سعيد بن صالح فحاربه ثلاثة أيام مكافيًا له.

---

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

(٢) مَصَالة بن حَبُوس المكناسى: أميرٌ بَرْبرى، كانت له رياسة مكْنَاسة، القبيلة وبلادها فى الشطر الثانى من المائة الثالثة الهجرية، وعَظُم أمرها فى حياته فتغلَّب على قبائل البربر. ولَمَّا استولى عُبَيْد الله المهدى على المغرب، كان مَصَالة بن حَبُوس من أكبر قُوَّاده، وولاَّه المهدى على مدينة تاهَرْت والمغرب الأوسط، وزحفَ مَصَالَةُ إلى المغرب الأقصى سنة ٣٠٥هـ واستولى على فاس وعلى سِجِلْماسة، واستنزل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عُبَيْد الله، وأبقاه أميرًا على فاس، وعقد لابن عمِّه موسى بن أبى العافية أمير بلدة مكناسة على سائر ضواحى المغرب وأمصاره، وقفلَ إلى القيروان، فقتله محمد بن خزر الزناتى. الأعلام ٧/ ٢٢٧ وانظر أيضًا: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ والبيان المُغْرِب ١/ ١٩٧.

وكان مع سعيد رجل من شجعان البرابر وأعلامهم يقال له حمد بن العياش من بنى بطوقت دعته نفسه إلى أن يقصد محلة مصالة فيفتك به، فوافى المحلة فى سبعة فوارس، واقتحم على مصالة، فتصايح الناس فكاثروهم، فأخذ حمد أسيرا ومن معه، فأمر مصالة بضرب عنقه فقال حمد: «ليس مثلى يُقتل»، قال مصالة: «ولم؟»، قال: «لأنك لا تطمع فى سعيد إلا بِى وعلى يدىَّ»، فاستبقاه وقرَّبه وألطف مكانه حتى أنس به، ثم أعطاه قطعة من العسكر، فقصد بها من جانب كان يعلم الغرّة به حتى دخل عسكر سعيد من المأمن، ومن حيث لا يُظن به، ففرق جمعه وغشى سعيدا ما لم يتأهب له، وتتابعت عليه العساكر، فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه، فبعث إلى مدينة نكور، فأخرج كل ما كان فى قصره وما معهم، وصاروا بحزيرة فى مرسى نكور ومعهم صالح بن سعيد وإدريس والمعتصم ابنا سعيد أخواه[1].

وظاهر سعيد بين درعين هو وفتيانه وخاصته، وقاتل حتى قتل واستبيح عسكره ودخل مصالة مدينة نكور يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة خمس وثلاثمائة، وانتهب مدينة نكور، وسبى النساء والذرية، وبعث بالفتح إلى عبيد الله وبعث برأس سعيد بن صالح، ومنصور بن إدريس بن صالح وغيرهم من بنى صالح بن منصور، فطيف بها فى مدينة القيروان، ونصبت بمدينة رقادة، وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن المروذى فى أرجوزة:

لَمَّا طغَى الأَرْذَلُ وابْنُ الأَرْذَلِ ... فى عُصْبَةٍ من الطَغام الجُهَّلِ
قال نكور دون ربى معقلى ... أتاه مختوم القَضَاءِ الفَيْصَلِ
من الإله كالحريق المشعل ... فحل أرضا طالما لم تُحَلَّلِ
حَطَّم أَهْلَ كُفْرِها بالكَلْكَلِ ... وجَماء رَأْسَ رَأْسِها المُبَذَّلِ
على القنا من الرماح الذُّبَّلِ ... ذو لَمَّةٍ شَاعِثَةٍ لم تُغْسَلِ
وِلحْيَةٍ غَبْراءَ لَمْ تُرَجَّلِ

وركب من نجا من ذرية سعيد بن صالح وأهله البحر من مرسى نكور، ونزلوا

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

مالقة[١]، وبَجَّانة[٢]، فأمر عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله بإنزالهم والتوسع لهم وحباهم بالكساء الرفيعة والصِّلات الجزلة، وخيَّرهم بين المقام بدار مملكته أو المُقام بمالقة، فاختاروا المقام بمالقة لقربها من بلدهم ورجائهم العودة إليه، وتكرر مصالة فى البلد نحو ستة أشهر، ثم استخلف عليه رجلا من أصحابه يقال له دلول، وانصرف إلى تيهرت، فافترق عن دلول من كان معه من المشارقة وبقى فى قليل من أصحابه.

فلما صحَّت الأنباء بذلك عند بنى سعيد أزمعوا الانصراف إلى بلدهم ثقة بمحبة رعيتهم، لهم وميلهم إليهم، فاتفقوا على ركاب البحر فى مراكب مختلفة، فمن وصل منهم قبل صاحبه فالولاية له، وهم إدريس والمعتصم وصالح، فركبوا البحر من مالقة فى ليلة واحدة ووقت واحد وريح واحدة، فوصل أصغرهم سنا صالح ابن سعيد إلى مرسى نكور من ليلته، وأصبح له بالمرسى المعروف بوادى البقر بتمسامان، فتسامع البربر بقدومه فتسارعوا إليه من كل جانب وجاءوه من كل جهة وعقدوا له الإمرة ولقبوه باليتيم لصغره، وزحفوا إلى دلول، فأخذوه وجميع أصحابه فصلبوهم أجمعين على ضفتى نهر نكور.

وكتب صالح بالفتح إلى عبد الرحمن بن محمد[٣]، فقرئ كتابه بجامع قرطبة ونسخه فى سائر بلاد الأندلس، وأمر بإمداد آل صالح بما يجل من الأخبية الشريفة والآلة العجيبة والكساء الرفيعة، والسروج، والحلى والبنود والطبول والدروع وجميع السلاح حتى عوضهم الله أكثر مما زال عنهم،

فتوطد الملك لصالح بن سعيد واعتاق البحر أخويه شهرين يترددان فيه، ثم وصلا بعده إلى نكور سالمين، فسلما له الأمر. ومات صالح بعد أن ملك عشرين

(١) مَالَقَة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال مريَّة، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمريّة، نُسِبَ إليها جماعة من أهل العلم، منهم: عزيز بن محمد اللخمى المالقِى، وسليمان بن المعافرى المالَقِى معجم البلدان (مَالَقَة) ٤/ ١٩٧.

(٢) بَجَّانة: مدينة بالأندلس من أعمال كورة ألبيرة، خرُبِّت، وقد انتقل أهلُها إلى المرية، وبينها وبين المريّة فرسخان، وبينها وبين غرناطة مائة ميل، وهى ثلاثة وثلاثون فرسخًا. معجم البلدان (بجانة) ١/ ٢٧٠.

(٣) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

سنة، ولم يزل آل صالح على السنة والجماعة[1] والتمسك بمذهب مالك بن أنس رضى الله عنه، وكان صالح وابنه سعيد يصليان بالناس ويخطبان ويحفظان القرآن.

فولى الأمر المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، فزحف إليه موسى بن أبى العافية فحاصره حتى تغلب عليه، فقتله واستباح المدينة وانتهبها، وهدم أسوارها، وخرب ديارها ونسف آثارها، وتركوها بلاقع تسفى عليها الرياح، وتعوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة ابن حبوس، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ثم ولى أيوب إسماعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح، فبنى المدينة القديمة التى أسسها صالح بن منصور وعمرها، وأعاد السوق فيها وسكنها إلى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

ففيها أخرج القاسم الشيعى، صاحب إفريقية صندلاً الفتى الأسود إلى أرض المغرب مدداً لميسور الفتى إذ أبطأ خبره عليه. فخرج الصندل من المهدية فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فوصل إلى جراوة الحسن بن أبى العيش فاستراح فيها أياما، ثم سار إلى هراس وكتب إلى إسماعيل بن عبد الملك صاحب نكور يأمره بالقدوم عليه، وقد كان خرج من نكور وصار بقلعة أكرى، فبعث إليه رسلا وكتب أنه فى الطاعة، فلم يرض منه صندل بذلك، وبعث إليه رسلا يستحثونه فى المسير إليه، فقتلهم إسماعيل عن آخرهم، فلما أتى صندلا خبر قتلهم زحف إلى قلعة أكرى فنزل قريبا منها بموضع يقال له نسافت، وهو الموضع الذى قتل فيه مصالة بن حبوس سعيد بن صالح. فغلب صندل على القلعة بعد قتال ثمانية أيام ومعارك قتل فى آخرها إسماعيل وأكثر أصحابه، وذلك يوم الجمعة فى شوال من السنة المذكورة، وغنم الصندل كل من كان فى القلعة من نساء إسماعيل وقرابته، وأخذ له ولدين طفلين، وولى على المدينة رجلا من كتامة اسمه مرمازو، وصار إلى صاحبه ميسور وهو على فاس يحاصرها.

وكان موسى بن المعتصم بن محمد بن قرة بن المعتصم بن صالح بن منصور،

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

وموسى هو المعروف بابن رومى بجبل أبى الحسن مع بنى يصلين. فلما زال صندل تراجع أهل نكور وقدموا على أنفسهم ابن رومى، وقتلوا مرمازو وجميع من كان معه، وبعثوا برأس مرمازو وجميع أصحابه إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد.

وقام على موسى بن رومى عبد السميع بن جرثم بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور، فأخرجه من بلد نكور، وذلك سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

فصار موسى إلى الأندلس ونزل بجانة بأهله وولده ومعه أخوه هارون بن رومى، ونزل بمالقة ابنا عمه جرثم بن أحمد ومنصور بن الفضل. ثم استدعى أهل نكور جرثم بن أحمد بن محمد بن زيادة الله بن سعيد بن إدريس بن صالح، فعبر البحر إليهم فولوه على أنفسهم، وذلك سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة، وكان بها إلى ذى الحجة سنة ستين.

وتوالت الولاية هناك فى بنى جرثم إلى سنة عشر وأربعمائة، فغلبت عليهم أزداجة، وانتقل بنو جرثم إلى مالقة، ثم انتقلت أزداجة إلى بلدهم بناحية وهران، ورجع بنو جرثم إلى بلد نكور وهو مدينة المزمة، ثم غلب على بلد نكور يعلى بن الفتوح الأزداجى[1]، وأخرج بنى جرثم من جميع بلاد نكور، وهى اليوم بأيدى ذرية يعلى بن الفتوح، وذلك سنة ستين وأربعمائة.

ويلى مرسى تمسامان المذكور إلى الشرق مرسى كرط وهو غير مكنٍ، وفيه آبار، بينهما خمسة عشر ميلاً، ويقابله من بر الأندلس مرسى قرية بلس، ويقطع الغدير بينهما فى يوم وليلة، ويليه إلى جانب الشرق طرف هرك بينهما عشرة أميال تمشى فيه المراكب الصغار، وله أحساء، ويقابله من بر الأندلس مرسى شاط، ويقطع الغدير بينهما فى مجرى ونصف، ويليه إلى شرق جون بين طرف هرك ومدينة مليلة، ويقابل هذا الجون من بر الأندلس مرسى المنكب بينهما مجريان.

ويليه إلى جانب الشرق مرسى مليلة ونهرها فى البحر بينه وبين طرف هرك مسيرة أميال، ويقابله من بر الأندلس مرسى مدينة شلوبينية.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨ـ٤٢٩.

فأما الطريق من مدينة نكور إلى مدينة القيروان فمن نكور إلى بنى يصليتن على نهر تمسامان، ومنها إلى نهر قرط مرحلة، ثم إلى قلوع جارة مرحلة، إلى وادى ملوية مرحلة، إلى مدينة جراوة مرحلة. فذلك ست مراحل، ثم الطريق كما تقدم.

ويجاور بلد نكور بلد عمارة فمنه مجكسة، وتنبأ بذلك الصقع أبو محمد حاميم ابن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال الملقب بالمفترى، وببلد مجكسة جبل حاسيم المنسوب إليه، وهو على مقربة من مدينة تيطاوان، وأجابه بشر كثير قروا بنبوته، وجعل لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس، وعند غروبها يسجدون على بطون أكفهم، ووضع لهم قرآنًا بلسانهم فما ترجم منه بعد تهليل يهللونه: «حلنى من الذنوب يا من يحل البصر ينظر فى الدنيا، حلنى من الذنوب يا من أخرج مرسى من البحر». ومنه: «آمنت بحاميم وبأى خلق يريدون أبا حاميم، وكذلك كان يكنى، وآمن رأسى وعقلى وما أكنه صدرى وما أحاط به دمى ولحمى، ، وآمنت بتانقيت، وهى عمة حاميم أخت أبى خلف من الله، وكانت كاهنة ساحرة، وكانت لحاميم أيضًا أخت تسمى دجو، وكانت ساحرة كاهنة، من أجمل الناس، وكانوا يستغيثون إليها فى كل حرب وضيق ويزعمون، أنهم يجدون نفعًا، وفرض عليهم صوم الخميس كله، ويوم الأربعاء إلى الظهر فمن أكل فيهما غرم خمسة أثوار لحاميم، ووضع لجميعهم صوم سبعة وعشرين يومًا من رمضان، وأبقى فرض صوم ثلاثة أيام، ويوم الفطر الرابع، وجعل عيدهم فى الثانى من الفطر.

وفرض زكاتهم العشر من كل شئ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وأحل لهم أكل أنثى الخنزير، وقال: إنما حرم ذكورها، وذلك فى قرآن محمد ﷺ، وحرم عليهم الحوت حتى يذكى، وحرم عليهم البيض من جميع الطير، وأنشد أبو العباس فضل بن مفضل بن عمر المذحجى لعبد الله بن محمد المكفوف الطنجى يهجو حاميم ويذكر فسقه: [من الطويل]

وقالوا افتراءً إن حَامِيمِ مُرْسلٌ ... إليهم بدين واضَح الحقّ باهرِ

فقلتُ كَذَبْتُم بَدَّد الله شَمْلَكم ... فما هو إلا عاهرٌ وابنُ عَاهرِ

فإن كان حَاميمُ رَسُولاً فإنَّنى بإرسال حاميمَ لأَوَّلُ كافرِ
رووا عن عجوزٍ ذاتِ أفك فهيمة تُفَارِقُ فى أسحارهـا كُلَّ ساحرِ
أحاديثُ إفك حَاكَ إبليسُ نسجها يُسُرونَها والله مُبْدِى السرائرِ

وقتل حاميم المفترى بمصمودة الساحل من أحواز طنجة سنة خمسة عشر وثلاثمائة، وكان له من البنين محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وعيسى، ودخل عيسى الأندلس زمان عبد الرحمن بن محمد، ولعيسى فى بلادهم قدر ويعرف بابن المفترى، وبنو وجفوال رهط حاميم ينزلون على نهر رأس وهو على ثلاثة أميال من مدينة تيطاوان.

وكان فى بعض جبال مجكسة رجل من السحرة المهرة يعرف بأبى كيسة، وكان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه طرفة عين، وإذا عصاه أحد أو خالفه حول كساه الذى يلتحف فيه، فتصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جائحة، وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك، وكان يخيل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كسائه، ولبنيه وعقبه حتى الآن مزية فى تلك الناحية ومنزلة وحظوة على من سواهم.

ومن أعاجيب بلد غمارة إمرؤ بوحلاوت، وكان فى بنى شداد منهم، وكان معه عدل مملوء برؤوس الحيوان وأنيابها من بريها وبحريها، قد نظمها فى حبل واتخذها كالسبحة، فإذا سأله أحد عن شئ من الحدثان وما هو كائن علق منه تلك السبحة وقلده إياها، ثم قلقلها عليه وانتزعها، وجعل يشمها قطعة قطعة إلى أن تمسك فى يده ما أمسك منها، ثم طفق يخبره خبره، وما الذى سأله عنه، وعما يدور له من مرض أو موت أو ربح أو خسارة أو إقبال أو إدبار أو عبرة أو غير ذلك فلا يكاد يخطئ.

ومن أعاجيب بلد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة،وهم فى وادى لو عند بنى سعيد، وبنى قطيطن، وعند بنى بروتن يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى، ولو قطع قطعا، فإذا كان بعد ثلاثة من غشيته استيقظ كالسكران، ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيء ولا يخبر بشيء، فإذا أصبح فى اليوم الثانى أتى بعجائب مما يكون فى ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك، وهذا أمر مستفيض لا يخفى.

وأخبرنى غير واحد أنه رأى بمرسى باديس رجلا قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون أنه ينبط المياه فى المواضع التى لا يعمد فيها ماء عيونا وآبارا، وأنه يخبر بقرب الماء وبعده، وأنه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير.

والمواربة عند أهل غمارة كلها كثيرة متعارفة يفخر بها نساؤهم، وذلك أن الرجل إذا دخل بامرأته البكر واربها شباب آهل ناحيتها فاحتملوها وأمسكوها عن زوجها شهرا أو أكثر، ثم يرونها، وربما فعل ذلك بها مرارا على قدر جمالها وبمقدار الرغبة فيها تفضل لذاتها، ولا يتم إكرام الضيف عندهم إلا بأن يؤنسوه بنسائهم الأيامى منهم، يبيّت الرجل مع ضيفه أخته أو بنته أو من لم تكن ذات زوج من نسائه، ولا يتركون ذا عاهة يستقر ببلدهم، ويقولون إنه يفسد النسل، وهم يرغبون فى الرجل الجميل الشجاع، وهم مخصوصون بالجمال، ولهم شعور يسدلونها كشعور النساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها.

* * *

ذكر مدينة سبتة[1]

وهى على ضفة البحر الرومى، وهو بحر الزقاق الداخل من البحر المحيط، وهى فى طرف من الأرض داخل من الغرب إلى الشرق ضيق جدا: والبحر محيط بها شرقا وشمالا وقبلة، ولو شاء ساكنوها أن يوصلوه من ناحية الشمال لوصلوه فتكون جزيرة منقطعة، وقد حفر من تقدم فى ذلك الموضع نحو غلوتين، وهى مدينة كبيرة مسوَّرة بسور صخر محكم البناء بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله، وحماماتها يجلب الماء إليها على الظهر من البحر. وبمدينتها حمام قديم يعرف بحمام خالد. ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاثة حمامات، وجامعها على البحر القبلى المعروف ببحر بسول له خمسة بلاطات وفى صحنه جبان، ولها مقبرة فى الجبل مطل على البحر، ومقبرة أخرى بجوفها على بحر الرملة.

وأهلها عرب وبربر، فعربها تنسب إلى صدف، وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة

(١) انظر فى سبته: الروض المعطار ٣٠٣ـ٣٠٤.

ولم تزل دار علم.

وبشرقى مدينتها جبل منيف، كان محمد بن أبى عامر ابتدأ فيه بناء سور لم يتم، وهذا الجبل مطل على الربض المذكور الذى فيه الحمامات، وما بينهما كروم، ودار الإمارة فى جوفى المدينة، وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه إلى المدينة قاطعا إلى الشرق إلى آخر الجزيرة خمسة أميال، والمدينة فى الجانب الغربى منها، ولسورها الغربى تسعة أبراج، والباب فى البرج الأوسط، وبين يدى هذا السور سور لطيف يستر الرجل، ويتصل به خندق عميق عريض عليه قنطرة خشب أمامها بستان وآبار ومقبرة.

والسور القبلى على أجراف عالية، والشرقى والجوفى فيه تطامن، ولها باب ثان مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة، وذرع المدينة من السور الغربى إلى الشرقى ألفان وخمسمائة ذراع وذرع ما يأخذ ثقاف الربض المتصل بالسور الغربى سبعة آلاف وأربعمائة ذراع.

وهى مدينة سكنها الأول وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات، وماؤها مجلوب من نهر أويات مع ضفة البحر القبلى فى قنا إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع.

وكان صاحبها أليان: وهو الذى أجاز طارق بن زياد وأصحابه إلى الأندلس، فلما غزا عقبة بن نافع القرشى أرض المغرب وصار إلى سبتة خرج إليه أليان بهدايا وتحف، ورغب إليه فى الأمان فأمَّنه وأقرَّه فى موضعه.

ثم دخلها العرب بعد ذلك وعمَّروها، ثم قام عليهم بربر طنجة فأخرجوهم منها وأقفروها، فبقيت خرابا يعمرها الوحش مدة، ثم دخلها رجل من غمارة يسمى ماجكن وكان مشركا، فعمرها وأسلم ورأس فيها، ثم وليها بعد هلاكه ابنه عصام، ثم ابن ابنه مجبر بن عصام، وفى دولتهم دخلها قوم كثير من أهل قلشانة أيام المحل، فاشتروا من البربر وبنوا فيها واستوطنوها، وكانوا مع ذلك يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسينين حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر لدين الله، ووليها الرضى بن عصام بعد موت أخيه مجبر، ودخلها عامله وقائده فرج بن عفير يوم الجمعة فى صدر ربيع الأول سنة تسع عشر. والملك من سبتة إلى طنجة على طرق، وهى مساكن قبائل معمورة كلها.

ذكر طنجة[1]

فأما كورة طنجة، فهى مساكن صنهاجة، وطريق الساحل من مدينة سبتة إلى طنجة تخرج من المدينة فى بسيط تعمره نحو ميل، ثم تدخل فى حد بنى سمفرة: وهم أهل جبل مرسى موسى، ثم تخرج إلى وادى مدينة اليم والقصر الأول.

وبطون معمورة تتشعب من أربع قبائل: دغاغ وأصادة وبنى سمفرة وكتامة. وبطون صنهاجة تفترق من قبيلتين: من قار بن صنهاج، وحزمار بن صنهاج، وفى القصر الأول سكنى بنى طريف، وحوله غراسات كثيرة، وتدخل المراكب فى هذا الوادى إلى حائط القصر، وبين مخرج هذا الوادى وموقعه فى البحر نحو سكتين، ومن سبتة إلى هذا القصر مرحلة، ومن القصر إلى طنجة مرحلة.

قال محمد بن يوسف: إذا خرج الخارج من طنجة إلى سبتة فى البحر فإنه يأخذ إلى جانب الشرق، وأول ما يلقى جبل المنارة ثم مرسى باب اليم، وهو غير مكن، وفيه سكنى ورباط، ووادٍ لطيف يريق فى البحر، وبين طنجة وبينه ثلاثون ميلا فى البر، وفى البحر نصف مجرى.

ويقابل باب اليم من جزيرة الأندلس مرسى جزيرة طريف، وبينهما ثلث مجرى، ثم يلقى بعد باب اليم وادى زلول، عليه ثمار وعمارة كثيرة ثم وادى باب اليمّ يصب فى البحر، حوله بساتين، وعليه سكنى وعمارة لمعمورة، ثم حجر نابت فى البحر يعرف بالمنجة، ثم مرسى موسى، وهو مرسى مأمون مشتى إلا من اللبش، وفيه نهر يريق فى البحر، وكان عليه حصن هدمه بنو محمد ومعمورة سنة اثنتين وثلاثمائة، ثم بناه أمير المؤمنين الناصر فهدموه أيضا سنة أربعين.

وحول هذا الحصن فى غربيه قبائل من البربر فى ساحل رمل فيه ماء طيب، وهو مُتَضَيَّد أهل سبتة. وبين مرسى موسى ومرسى باب اليم فى البر ثمانية أميال. وبإزاء مرسى موسى من بر الأندلس بورت لب، ويقطع الغدير بينهما فى نصف مجرى.

---

(١) انظر فى طنجة: صورة الأرض ٨١.

ومرسى موسى موضع أكثر بقع الأرض قردة، وهى تحكى ما ترى من فعل من مَرَّ بها من الناس، فإذا رأت النواتى يجدفون فى القوارب أخذت عيدانا وجعلت تحكى عملهم.

ويليه مرسى جزيرة تورة. وفى بره قرية تعرف بتورة، فنسبت الجزيرة والمرسى إليها، وهى جزيرة فى البحر كهيئة جبل منقطع عن البر يقابلها فى البر على شاطئ البحر أجراف عاليه والمرسى بينها وبين تلك الأجراف.

ثم مرسى بليونش، وبليونش: قرية كبيرة آهلة كثيرة الفواكه. وبغربيها نهر يريق فى البحر، عليه الأرحاء، وبينه وبين مرسى جزيرة تورة فى البر خمسة أميال، ثم موضع يعرف بالقصر على خندق يجرى فيه ماء كثير فى الشتاء، ويقل فى الصيف. وبهذا القصر آثار للأوَّل من أقباء وغير ذلك.

ثم موضع يعرف بماء الحياة، عيون على ضفة البحر منبعثة بين الأحجار من تحت شرف رمل طيبة عذبة، يصل إليها الموج وينبط الماء العذب فى هذا الرمل بأيد حفر.

ويذكر أن بهذا الموضع نسى فتى موسى الحوت. ويوجد فى هذا الموضع خاصة دون غيره حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثى شبر، وطوله أكثر من شبر، لحمه فى أحد جانبيه، والجانب الآخر لا لحم فيه، إنما جلدته على الشوك، ولحمه طيب نافع من الحصاة، مقوٍّ للباءة.

ثم مرسى لطيف يعرف بمرسى دنيل، بإزائه فى البر قرية تعرف بهواة، عامرة بها عيون عذبة، ثم حجر نابت فى البحر يعرف بحجر السودان ثم مدينة سبتة.

* * *

الطريق من سبتة إلى تِيطاوان [١]

وطريق البرِّ من سَبْتَةَ إلى موقع وادى المَنَاوِل فى البحر القبلى من سبتة ستة أميال، ثم إلى وادى نفزة، ومخرجه من جبل أبى جميل وعليه مساكن بنى عفَّان ابن خلف، وعلى هذا النهر الموضع المعروف بالقصر، وهو قصر للأوَّل قائم فيه حمام، وعلى هذا النهر آثار للأول كثيرة.

ثم إلى نهر أَسْمير، ومُنْبَعَثُه من جبل الدرقة وَجرْيَتُه من الغرب إلى الشرق، وعلى ضفته قرارات لبنى كترات من مصمودة.

ثم إلى الموضع المعروف بِقَبْ مُنْت؛ وهو الجبل الداخل فى البحر بقبلىّ سَبْتَة، يسكنه أيضا بنو كترات وبنو سكين.

ثم إلى نهر اليلى ومنبعثه أيضا من جبل الدرقة.

ثم إلى موضع يعرف بتاورص قرية عبد الرحمن بن فحل من بنى سكين من مصمودة، لها مزارع وأرَضُون، ومياه عذبة.

ثم إلى مدينة تيطاوان وهى بسفح جبل إيشقار، وهو متصل بجبل الدرقة ويبلغ إلى جبل رأس الثور إلى مرسى موسى بالبحر الغربى.

ومدينة تيطاوان على أسفل وادى راسن، وقال محمد: وادى مجكسة، وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر إلى أن تصل تيطاوان؛ ومسافة ما بين البحر وبينها عشرة أميال، وهى قاعدة بنى سكّين، فيها قصبة للأول ومنارٌ وبها مياه كثيرة سائحة عليها الأرحاء، وبجوفيها جبل يعرف ببلاط الشوك يُركب منه لبنى سكين مائة فارس.

وبين مدينة تيطاوان وجبل الدرقة سكة، وهو قاعدة بنى مرزوق بن عوف من مصمودة وسكناهم منه بمواضع يقال له صدينة، قرية ذات مياه سائحة وهى أطيب تلك البلاد مزارع؟ وهذا الجبل فى غاية المنعة وفى أعلاه مسارح واسعة ومُروج

(١) تيطاوان: بقرب مليلة، مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيِّبة الهواء والماء، وتُعرف الآن بالمغرب باسم تطوان. الروض المعطار ١٤٥ والاستبصار ١٣٧.

خِصبة للماشية، وهذه القرية المذكورة فى قِبْلىّ الجبل، وبين القبلة والغرب منه الجَبل المنسوب إلى حَاميم المُفترِى المتقدم الذكر.

وجبل الدرقة يتصل ببلاد غمارة ويسكن آخره من غمارة بنو حسين بن نصر، ثم إلى نهر راسن، ومنبعثه من موضع يُعرف بتيطسوان من جبل بنى حاميم.

ثم إلى سوق بنى مغراوات، وهو آخر بلد مجكسة فى غربى نهر راسن، ومُجتمع هذه السوق يوم الثلاثاء وهى جامعة.

ثم إلى فج الفرس، وبه قرارات لقبائل من مصمودة، ويركب لهم مائتا فارس.

ثم إلى مدينة ويناقام، وهى كانت قاعدة حَمُّود بن إبراهيم، وهى فى سفح جبل، ولها ثمار ومياه كثيرة على نهر سسهور، وهو بلد طيب، ومنبعث سسهور من جبل تامورات، وهو من مساكن مَتْنَة من صنهاجة.

وبين ويناقام وجبل الدرقة ميلان، وهو ما بين الغرب والقبلة من المدينة، وهو الجبل الذى يمتنع فيه صنهاجة إذا خالفوا على الملوك.

وبجبل الدرقة يتصل جبل حبيب بن يوسف الفهرى.

وبين الدرقة وطنجة سِكَّتان.

* * *

فأما الطريق من سَبْتة إلى مدينة تيقيساس

فإلى نهر راسن كما تقدم، ثم تدخل أرض غمارة، ثم تسير فى بنى جفو، ثم فى بنى نفقاوة، وهم من بنى حُمَيد من غمارة أيضا وهم على نهر لاو، وهو نهر كبير تجرى فيه السفن، ولهم نتاج معروف وخيلهم معروفة بالحُمَيْدِيّة.

ثم إلى بنى مسارة وهم السكَّان حول تيقيساس وهم أيضا من بنى حميد.

ومن المواضع المشهورة والمنازل المعمورة ما بين سبتة وطنجة نهر أليان وقصر أليان فيه آثار للأول كثيرة، وفى غربى هذا النهر موضع يعرف بكروشت، وهو آخر غمارة ومصمودة، ويتصل بهم هناك متنة من صنهاجة، ونهر الخليج وهو شرقى طنجة وموقعه فى البحر تدخله المراكب.

وجبل رأس الثور يسكنه قبائل كثيرة من مصمودة.

ونهر مجاز الفروق نهر كبير جدا، ونهر فرْميول وعنصره من جبل عين الشمس وجبل مترارة، وهو جبل وَعْرٌ كثير الشجر والمياه.

ومن هذا الجبل إلى البحر المعروف بالزقاق وادى الرمل، وهو كثير الثمرة طيب المزارع.

وعين الشمس عين ثَرَّةٌ فى قرية نصر بن جرو، عامرة آهلة بها جامع وبساتين كثيرة وأسواق، ويوم سوقها يوم الجمعة، ومن سبتة إليها مرحلة.

ويتصل بعين الشمس جبل تارَمْليل: قاعدة بنى راسن، لها قرارات حِسَان وبساتين ومسجد جامع، وهى وسط بلد مصمودة، وهذا الموضع يقابل تيطاوان، ويتصل هذا الجبل إلى مدينة باب اليم إلى البحر الغربى

ومجازفكّان، وهو موضع ملواثة يركب لهم خمسمائة فارس.

وهناك الموضع المعروف بالرّصافة وكدية تافرغالت، وفيها قرارات كثيرة لمتنة، يُركب لهم منها نحو ثمانين فارسا.

ونهر أوربة، وعنصره من قرية تعرف بالأقولس، وحواليه أرَضون كثيرة الربيع طيبة الزرع وهى قنبانية طنجة.

* * *

ذكر مدينة طنجة[1] وتعرف بالبربرية وليلى

افتتحها عقبة بن نافع وقتل رجالها وسَبَى[2] من فيها، وهى على شاطئ البحر المعروف بالزقاق مُسَوَّرة متقنة البناء، وهى محطّ السفن اللطاف؛ لأن الريح الشرقية توذى فيها، وهى طنجة البيضاء القديمة المذكورة فى التواريخ، وفيها آثار

(١) طنجة: كورة عظيمة تحيط بمدن وقرى وبَوَادٍ للبربر كثيرة، ومدينتها العظمى التى هى القصبة تسمَّى فاس. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) الحلل السندسية ١/ ٥٤٩.

للأول كثيرة: قصور وأقباء وغيران وحمام، وماؤها مجلوب فى قنًا ورخام كثيرة وصخر منجور، وتحفرُ خرائبها فيوجد فيها أصناف الجواهر فى قبور أولية وغيرها من المواضع، وهى آخر حدود إفريقية فى الغرب، وقيل إن عمل طنجة مسيرة شهر فى مثله وإن ملوك المغرب كانت دار مملكتهم مدينة طنجة، وإن ملكا من ملوكها كان فى عسكره ثلاثون فيلا.

ومسافة ما بين مدينة القيروان وطنجة ألف ميل، وقد غلب على مدينة طنجة القديمة الرمل، والعمارة اليوم فوقها.

وهناك جامع حسن وسوق عامرة، وبإزاء طنجة فى البحر المحيط وإزاء جبل أدلنت الجزائر المسماة فرطناتش أى السعيدة، سميت بذلك لأن شعراءها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة العجيبة دون غراسة ولا عمارة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة بدل الشوك، وهى بغرب بلد البربر مفترقة متقاربة فى البحر المذكور.

* * *

الطريق من مدينة طنجة إلى مدينة فاس

من مدينة طنجة إلى قلعة ابن خروب مرحلة، وهى مدينة كبيرة على ظاهر لها ثمر وشجر وهى كثيرة الزرع والضرع، وهى لكتامة من بطون مصمودة، وبقرب هذه القلعة قرية كبيرة لعرب خولان آهلة كثيرة الخير، وهى على نهر زلول، وهذا النهر تلقاه قبل الوصول إلى قلعة ابن خَرُّوب، وبالقرب منها أيضا دمنة عشيرة بلد طيب لصنهاجة.

ثم قرى متصلة لكتامة، إلى حاضرة سوق كتامَى وهى قاعدة إدريس بن القاسم ابن إبراهيم، كبيرة شريفة على نهر وادلكس بها سوق عامرة وجامع.

ثم تسير إلى قصر دنهاجة، وهو على تلٍّ وتحته نهر عظيم وفيه آثار للأول، وبه كان ينزل ملوك المغرب فى قديم الدهر.

وجبل صرصر بقبلى هذا القصر ينزله بطون كتامة وأصادة، ثم تسير من هذا

القصر إلى مدينة البصرة[١]، وهى مدينة كبيرة واسعة، وهى أوسع تلك النواحى مرعًى وأكثرها ضرعًا، ولكثرة ألبانها تُعرف ببصرة الذِبَّان، وتعرف أيضا ببصرة الكتَّان كانوا يتبايعون فى بدء أمرها فى جميع تجاراتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة، وسورها مبنىٌّ بالحجارة والطوب، وهى بين شَرَفين، ولها عشرة أبواب، وجامعها سبعة بلاطات وبها حمامان، ومقبرتها الكبرى فى شرقيها فى جبل، ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة.

وماء المدينة زُعاف، وشُرْبُ أهلها من بئر عنبة على باب المدينة تعرف ببئر ابن ذلفا، وخارجها فى جناتها عيون كثيرة وآبار عذبة.

ونساء بصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحُسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن.

قال أحمد بن فتح المعروف بابن الخزاز[٢] التيهرتى يمدح أبا العيش بن إبراهيم ابن القاسم: [من الرجز]

قبح الإله اللهــو إلا قينـةً ... بصـريةً فى حُمْـرَةٍ وبيَـاض
الخمرُ فى لحظَاتهـا والوردُ فى ... وَجْنَاتِهـا والكَشْحُ غير مُفَـاضَ
فى شكْل مرجى ونُسْكِ مُهَاجرٍ ... وعفــاف سُنِّى وَسَمْـتِ إبَاضِ
تَاهَرْتُ أنت خَلِيَّـــةٌ وبريـة ... عُوِّضْتُ منـك ببصرةٍ فاعتاضِ
لاَ عُـذْرَ للحمـراء فى كَلَفِى بها ... أو تستفيـضَ بأبْحُرٍ وحِيَـاضِ
مـا عذرهـا والبحر عيسى ربّها ... ملك الملـوك ورائض الرواضِ[٣]

ومدينة البصرة مُحدثة أيضا أُسست فى الوقت الذى أسست فيه أصيلة أو قريبا منه[٤].

ومن مدينة البصرة إلى نهر ردات مرحلة، وهو فى أصل جبل وفى أعلى الجبل

(١) المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) الروض المعطار ١٠٨.

(٣) الأبيات لابن الخزاز فى الروض المعطار ١٠٩ ومعجم البلدان (بصرة ١/٣٤٨).

(٤) ينقل ياقوت هذه المادة نصًا عن المسالك والممالك للبكرى. انظر: معجم البلدان (البصرة) ٣٤٨/١.

مدينة تسمى كرت وهى اليوم خَرِبَة.

ومن كرت إلى موضع يقال له حنّامة ـ قال محمد جنيارة ـ ويعرف بالجبل الأشهب، وهى قرى كثيرة عامرة.

ومنه إلى قرية صغيرة على نهر عظيم يسمى سبو مرحلة، ومنه إلى مدينة فاس مرحلة، ومن أخذ من طنجة على أصيلة فمن طنجة إلى مدينة أصيلة مرحلة، ثم إلى سوق كتامَى المذكور قبل هذا.

ومن مدينة البصرة طريق آخر إلى مدينة فاس، فمنها إلى وادى ورغة، ثم إلى مدينة ماسنة مرحلة، وهى مدينة عيسى بن حسين الحسنى المعروف بالحجَّام، وهى على نهر كبير.

ثم إلى مدينة سداك فى بلد مغيلة، وهى قاعدة خلوف بن يحمد المغيلى، ثم إلى مدينة فاس ـ فذلك سبعة أيام.

ومدينة أصيلة[1] أول مدن العدوة من جانب الغرب، وهى فى سهلة من الأرض حولها رواب لطاف والبحر بغربيّها وجوفيّها، وكان عليها سور له خمسة أبواب وجامعها خمسة بلاطات، وإذا ارتج البحر بلغ الموج حائط الجامع، وسوقها يوم الجمعة، وماء آبار المدينة شريب، وبخارجها آبار عذبة: بئر عدل وبئر السانية وآبار كثيرة.

ومقبرتها فى شرقيها، ومرساها مأمون والمدخل إليه من الشرق، ويستدير بالمرسى من ناحية الجوف جسر من حجارة مخلوقة تكُفُّ عن السفن المُرَفَّأة فيها هيجان البحر.

ومدينة أصيلة محدثة، وكان سبب بنيانها[2] أن المجوس خرجوا فى مرساها مرتين: فأما الأولى فأتوا قاصدين وزعموا أن لهم بها أموالا وكنوزا، فاجتمع البربر لقتالهم، فقالوا: لم نأت بالحرب وإنما لنا كنوز فى هذا الموضع، فكونوا ناحية حتى نستخرجها فنشاطركم فيها، فرضى البربر بذلك فاعتزلوا، وحفر المجوس موضعا فاستخرجوا دخنًا كثيرًا عفنًا، فنظر البربر إلى صفرته فظنوه ذهبا

(١) انظر فى أصيلة: الروض المعطار ٤٢-٤٣ والاستبصار ١٣٩.

(٢) الروض المعطار ٤٢.

فبدروا إليه، فهرب المجوس إلى مراكبهم وأصاب البربر الدخن فندموا ورغبوا إلى المجوس فى الخروج واستخراج المال، فأبوا وقالوا: قد نقضتم عهدكم فلا نثق بعذركم.

وساروا إلى الأندلس، فحينئذ خرجوا بإشبيلية، وذلك سنة تسع وعشرين ومائتين فى أيام الإمام عبد الرحمن بن الحكم[١].

وأما خروجهم الثانى هناك فإن الريح قذفتهم فى ذلك المرسى من الأندلس، وعطبت لهم على باب المرسى من ناحية الغرب مراكب كثيرة، ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس إلى اليوم، وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات فى السنة، وهو وقت اجتماعهم وذلك فى شهر رمضان وفى عشر ذى الحجة وفى عاشوراء.

وكان الموضع ملكا للواتة، فابتنى فيه قوم من كتامة واتخذوه جامعا وتسامع الناس أمرها من الأندلس وأهل الأمصار فقصدوها فى الأوقات المذكورة بضروب السلع وخيَّموا فيها.

ثم بنوا شيئا بعد شىء فعمرت، فقدمها القاسم بن إدريس فملكها وبنى سورها وقصرها وبها قبره، ووليها إبراهيم ابنه، ثم حسين بن إبراهيم ثم القاسم بن حسين، ثم صار أمرها إلى حسن الحجام منهم، حتى استولى عليهم ابن أبى العافية على ما تقدم.

وكان الحجام يستعمل عليها الولاة.

(١) عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموى، أبو المطرف: رابع ملوك بنى أميّة فى الأندلس. ولد فى طُلَيْطلة، وكان أبوه واليًا فيها قبل ولايته المُلك، وبُويع بقرطبة سنة ٢٠٦ هـ بعد وفاة أبيه بيوم واحد.. وهو أوَّل من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيّد القصور، وجلب الماء العذب إلى قرطبة، وبنى له مصنعًا كبيرًا يرتاده الناس، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد فى الأندلس، ومنها جامع إشبيلية وسورها، وعمل السقاية على الرصيف، واتخذ السكّة (النقود) بقرطبة، وضرب الدراهم باسمه، ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب وكان عالى الهمة، له غزوات كثيرة، أديبًا ينظم الشعر، مُطَّلعا على علوم الشريعة وبعض فنون الفلسفة، يُشَبَّه بالوليد بن عبد الملك فى سياسته وتأنيه، مدة ولايته ٣١ سنة و٣ أشهر، ووفاته بقرطبة (١٧٦ـ٢٣٨هـ). الأعلام ٣/ ٣٠٥.

قالوا: وتفسير أصيلة: جيِّدة، وبقبلىّ أصيلة قبائل لواتة وبنو زياد من هوّارة زلول، وبغربيها هوارة الساحل، وغار كبير على البحر وإذا مدّ وصل إليه، وبين القبلة والغرب منها عين تعرف بعين الخشب ثَرَّةٌ، وبقبليّها خندق يعرف بخندق المعزة وخندق آخر يعرف بخندق السرادق، وبغربيها خندق يعرف بتاشت، فيه مراعى مواشى أهلها.

وكيْلهم يسمى مدا وهو عشرون مدا بمد النبى ﷺ مثل الفنقة القرطبية، وكيل الزيت يسمونه قليلة وهى مائة واثنتا عشرة أوقية، ففى القنطار عشرون قليلة.

وأصيلة بغربى طنجة][1]، وأول ما يلقى الخارج من مدينة أصيلة واديها، وهو يُخاض، ثم مسجد عن يمين الطريق، ثم وادى نبرش يخاض أيضا، وهى قرية آهلة عامرة كثيرة الثمار والعيون، وهى للواتة، بينها وبين البحر قدر نصف ميل.

ثم ساحل رمل، ثم نهر كبير يُعبر فى المراكب عليه سُكنى أهل شاهدامت: وهى قرية كبيرة عامرة بها ملاَّحة، ثم ساحل رمل، ثم بركة عذبة وهى بركة قدرها مائتى ذراع، فيها ما تعَذُبٌ، بينها وبين البحر نصف ميل، فى قبليها حجارة عالية، تهب من هذه البركة ريح عاصفة شديدة تؤذى المراكب وتقلبها إذا غفل رُكَّابُها.

ثم ساحل يقابله بلد سطة، ثم جرمة يصعد منها إلى قرية كقمارية، بها يُقطع الطواجن، عامرة لصنهاجة.

ثم جبل اسبرتيل داخلٌ فى البحر متصل بالبر، فيه عيون عذبة ومسجد رباط، وبين الجبل ومدينة أصيلة ثلاثون ميلا، وإذا خرجت المراكب من أسبرتيل بالريح الشرقية، لم يكن لها بد من البحر المحيط إلا أن تدور الريح الغربية، ويقابل جبل أسبرتيل من بر الأندلس جبل الأغر على سَمْت واحد، ويقطع الغدير بينهما فى ثلثى مجرى بالريح القبلية من ذلك البر، ومن الأندلس بالريح الجوفية.

ثم تسير من هذا الموضع إلى موضع يعرف بالقالة، ثم إلى مدينة طنجة -.

ومن جبل أسبرتيل إلى مدينة طنجة أربعة أميال.

* * *

---

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى الروض المعطار ٤٢.

الطريق من سبتة إلى مدينة فاس[1]

ومن سبتة إلى دمنة عشيرة المذكورة مرحلة، ومنها إلى موضع يعرف بالكنيسة قرية مقيدة على ظاهر لكتامة.

ثم إلى وادى مغار لكتامة أيضا قرار كبير، بلد للزرع والضرع، إلى الحجر المعروف بحجر النسر قاعدة بنى محمد فى الغرب ومنه بلد رهونة، فى الشرق بنو فتركان من غمارة.

وتفترق الطريق من الحجر، فمن تيامن أخذ إلى أفتيس: مدينة جنوب بن إبراهيم لكتامة، وهى مدينة صالحة كثيرة الخير وهى من الحجر غربا، وهى على نهر وادلكس المذكور قبل هذا، وجريته من الشرق إلى الغرب وهو يلقاه عند أفتيس إليها.

ثم يهبط إلى مدينة سوق كتامى فيسمى هناك وادلكس.

ثم إلى مدينة نشومس: مدينة ميمون بن القاسم، وهى مدينة أوّلية عليها سور صخر، كبيرة آهلة كثيرة المياه والثمار، ويسمى بذلك الموضع بسغدد، ويتسع هناك، وعليه رباط يعرف برباط حارة الأحشيس: وهى قرية آهلة يتصل بها فحص مديد يعرف بفحص أبى شيار.

ثم تسير من أفتيس إلى زهجوكة: مدينة إبراهيم بن محمد، ومنها قام إبراهيم وبنوه وملكوا دار طنجة إلى حد سبتة وهى لزرهونة.

وبعدها مدينة يُجّاجين: مدينة جيدة مفيدة على نهر عذب، بها جامع وأسواق وحمام، ويعرف بالجبل الأشهب وهو على نهر سوسق: نهر كبير كنهر قرطبة، وهى من بلد جنيارة وفيها عيون، وهى لجنون بن محمد، وسكانها بنو مسارة من مصمودة.

وبعدها مدينة أصادة، فيها آثار ستة أميال أو نحوها، ويجاورها على الطريق أربعة أصنام.

(١) انظر: الروض المعطار ٤٣٤ـ٤٣٥ ووصف إفريقيا ١/١٩٣ـ٢٠٥.

ثم تأتى مجاز الخشبة على وادى ورغة فى بلد شريف وقرارات كثيرة شبيه بالمدن.

ثم قرى متصلة وأكبرها قرزاوة بنى حصين، إلى بلد مغيلة، فترقى عقبة الأفارق وتلقى حصن زالغ على يسار الطريق.

ثم قلعة ورطيطة، ثم فحص محلّى، ثم قرية خندق سدرواغ يفترق من هناك الطريق إلى كلتا عدْوَتَىْ فاس، وذلك من مدينة سبتة إلى مدينة فاس ستة أيام.

وطريق آخر إلى فاس من سبتة: إلى تيطاوان مرحلة، أول ما يلقى الخارج من سبتة وادى أويات يجرى فى خندق عليه أرحاء شتوية، وبينه وبين المدينة ميلان، ومنه جلب أليان الماء إلى سبتة على أزاج(١)، وبعضها قائم فى تلك الخنادق إلى اليوم.

ثم إلى وادى المنازل، ثم إلى وادى نكرة.

ثم الطريق كما تقدم من سبتة إلى طنجة حتى تأتى فج الفرس، ثم إلى فج الصارى بطرف جبل حبيب بن يوسف، وهو جبل كثير العيون، وبسند هذا الفج مما يلى الجوف حارة تعرف بمراد، وبين هذا الفج ومدينة أفتيس مرحلة.

ثم من أفتيس كما تقدم آنفا، وبين الفج وأفتيس قلعتان إحداهما قلعة ابن خرُّوب المذكورة.

* * *

ذكر مدينة فاس (٢)

[ومدينة فاس مدينتان مقترنتان مسوَّرتان بينهما نهر يطرد وأرحاء وقناطر، وعدوة القرويين فى غربى عدوة الأندلس، وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخترق داره.

وبالمدينتين أزيد من ثلاثمائة رحًى وفيهما نحو عشرين حماما، وهى أكبر بلاد

(١) الآزاج جمع أزج، وهو بناء مستطيلٌ مُقَوَّس السقف. المعجم الوسيط (أزج) ١/ ١٥.

(٢) انظر فى فاس: الروض المعطار ٤٣٤ـ ٤٣٥ ووصف إفريقيا ١/ ١٩٣ـ٢٠٥.

المغرب: «فاس بلد بلا ناس»، وكلتا عدوتى فاس فى سفح جبل، والنهر الذى بينهما مخرجه من عين غزيرة فى وسط مرج ببلاد مطغرة على مسيرة نصف يوم من فاس.

وأُسست عدوة الأندلسيين فى سنة اثنين وتسعين ومائة، وعَدوة القرويِّين فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فى ولاية إدريس[1] بن إدريس، ومات إدريس[2] بمدينة ملِيلَى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب، وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة ومائتين فى شهر ربيع الأول.

ولعدوة الأندلسيين من الأبواب باب الفتوح قبلى منه يخرج إلى القيروان، وباب الكنيسة شرقى يقابل ربض المرضى، وباب أبى خلوق شرقى، وباب حصن سعدون جوفى، وباب الحوض غربى يقابل عدوة القرويين، وباب سليمان مثله، ومن هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة إلى الحرب إذا كان بينهم اختلاف، وتقوم الحرب حينئذ بموضع يعرف بكدية المنول، وباب الفوارة، وبها جامع حسن فيه ستة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب وعمده أرجل كذان، وله صحن فسيح فيه أصول جوز وشجر وساقية تعرف بساقية مصمودة غزيرة الماء.

---

(١) الحلل السندسية ٢/ ٢٥.

(٢) هو إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المُثَنَّى، أبو القاسم (١٧٧-٢١٣هـ): ثانى ملوك الأدارسة فى المغرب الأقصى، وبانى مدينة فاس، ولد فى وَلِيلى بجبل زرهون على نحو ٣٠ كم من مكناس، وتوفى أبوه وهو جنين، فقام بشئون البربر راشد (مولى أبيه إدريس وأمينه)، وقتل راشد سنة ١٨٦هـ، فقام بكفالة إدريس أبو خالد العبدى، حتى بلغ الحادية عشرة، فبايعه البربر فى جامع وَلِيلَى سنة ١٨٨هـ، فتولى ملك أبيه وأحسن تدبيره، وكان جوادًا فصيحًا حازمًا، أَحَبَّته رعيته، واستمال أهل تونس وطرابلس الغرب والأندلس إليه (وكانت فى يد العباسيين بالمشرق، يحكمها ولاتهم) وغصت وليلى بالوفود والسكان، فاختطَّ مدينة فاس سنة ١٩٢هـ، وانتقل إليها، وغزا بلاد المصامدة فاستولى عليها، وقبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط، فانقادت إليه، وانتظمت له كلمة البربر وزناتة، واقتطع المغربين الأقصى والأوسط عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادى شلف. وصفا له مُلك المغرب، وضرب السكّة باسمه، وتوفى بفاس سنة ٢١هـ.

الأعلام ١/ ٢٧٨ وانظر أيضًا: الاستقصا ١/ ٧٠-٧٥ وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣ والبيان المغرب ١/ ١٠٣ وجذوة الاقتباس ٩٥ ومقاتل الطالبيين ٤٩١.

وبهذه العدوة تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى جليل من الطعم يصلح بها وله غلة ولا يصلح بعدوة القرويين، وسميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد العدوة الثانية لحذقهم بصنعته.

وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين، ولعدوة القرويين من الأبواب باب الحصن الجديد قبلى يخرج منه إلى زواغة، وباب السلسة شرقى يخرج منه إلى عدوة الأندلسيين، وباب القناطر شرقى، وباب سياج يحيى بن القاسم جوفىّ يخرج منه أيضا إلى زواغة[١] وإلى المخاض وإلى وشتاته ومغيلة، وباب سوق الأحد غربى منه يخرج إلى زواغة، وبها جامع فيه ثلاثة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب بناه إدريس بن إدريس، وله حصن كبير فيه زيتون وشجر وله سقائف، وبها نحو من عشرين حماما وهى أكثر بساتين ومياها.

وعدوة الأندلسيين يجرى الماء عليهم أولا ويجود بهذه العدوة الأترج ويعظم ولا يجود بعدوة الأندلسيين، وكلتا العدوتين جليلة الخطر عظيمة القدر.

وموقع وادى فاس بوادى سبو، وبغربى عدوة القرويين فى بلد مغيلة موضع يقال له السيخ ساخ بأهله، ومن هذا الموضع انهزم البورى بن أبى العافية سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة هزمه بنو محمد واحتووا على معسكره.

وبنهر فاس الحوت المعروف باللبيس كثير، وقال محمد بن إسحاق المعروف بالبجلى[٢] يمدح عدوة القرويين: [من البسيط]

يا عـدوة القرويّين التى كَرُمَـت	لا زال جَانِبُـكِ المحبـور[٣] ممطورا
ولا سرى الله عنكِ[٤] ثوب نعمته	أرضٌ تجنَّبَـت الآثـامَ والزُّورا[٥]

(١) معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١.

(٢) فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١ ومجمع أشعار معجم البلدان «الجليلى».

(٣) فى معجم البلدان ومجمع أشعار معجم البلدان (المحبوب).

(٤) فى معجم البلدان ومجمع أشعار معجم البلدان (عنها).

(٥) الأبيات لمحمد بن إسحاق الجليلى فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٣٣٢.

وأنشد إبراهيم بن محمد الأصيلى والد الفقيه أبى محمد المفضل بن عمر المدوجى يهجو فاسا: [من البسيط]

دخلت فاسًا ولى شوقى إلى فاس والجُبْنُ[١] يأخـذ بالعينين والرأس
فلست أدخـل فاسًا لو حييتُ ولو أُعْطِيتُ فاسًا بمـا فيهـا من الناس[٢]

وقال أحمد بن فتح قاضى تيهرت فى كلمة له يهجو أهل فاس: [من البسيط]

اسْلَح على كـل فاسى مَرَرْتَ به فى العدوتينِ مَعًا لا تُبْقِيَنْ أحـدا
قومٌ غُذُوا اللُّؤْمَ حتى قال قائلهم مَنْ لا يكونُ لئيمًا لَمْ يَعِش رَغَدًا[٣]

ومدهم يسع من الطعام ثمانين أوقية، ومديهم يسمونه اللوح وفيه من هذا المد مائة وعشرون مدا، وجميع المأكولات من الزيت والعسل واللبن، والزبيب يباع عندهم بالأوراق.

وحواليها من قبائل البربر ترهنة ومغيلة وأوربة وصدينة وهوارة ومكناسة وزواغة.

ولما وصل موسى بن نصير إلى طنجة مال عياض بن عقبة إلى قلعة يقال لها سقوما[٤] على مقربة من فاس ومال معه سليمان بن أبى المهاجر وسألا موسى الرجوع معهما، فأبى وقال: هؤلاء قوم فى الطاعة، فأغلظا له القول حتى رجع فقاتل أهل سقوما، فكان لهم على العرب ظهور.

ثم تسوَّر عليهم عياض بن عقبة من خلفهم فى قلعتهم، فانهزم القوم واشتد القتل فيهم فبادوا وقلت أوربة إلى اليوم، فذكر ابن أبى حسان[٥] أن موسى لما افتتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك: أنه صار إليك يا أمير المؤمنين من

---

(١) فى معجم البلدان (والحيْنِ).
(٢) البيَان لإبراهيم بن محمد الأصيلى فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١.
(٣) البيتان لأحمد بن فتح فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤٤٠.
(٤) انظر فى فتح سقوما: الاستبصار ١٩٤ والروض المعطار ٣٢٨ وتاريخ إفريقيا والمغرب ٤٤.
(٥) هو أبو محمد عبد الله بن أبى حسان اليحصبى، فقيه مالكى، ومؤرخ من أهل القيروان، توفى سنة ٢٢٧ على الأرجح. رياض النفوس ١/ ٢٨٤-٢٨٩ وترتيب المدارك وتقريب المسالك ٣/ ٣١٠-٣١٥.

سبى سقوما مائة ألف رأس.

فكتب إليه الوليد: ويحك أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمم[١].

***

ذكر بنى إدريس[٢]

وفاس هى دار مملكة بنى إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان نزول إدريس عند دخوله المغرب بوليلى، وهى طنجة بالبربرية، وذكر محمد أن وليلى على مسافة يوم من فاس وفيها مات إدريس ابن إدريس، فهذه غير طنجة.

وهى بغربى مدينة فاس مدينة عظيمة أَوَّلية، فنزل على إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى المعتزلى فتابعه على مذهبه، وذلك فى سنة اثنين وسبعين ومائة، وخرج إلى ماسنة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، وخرج أيضا إلى تازى، وهو موضع من أعمال بنى العافية، يوجد فى جبل منه الذهب وهو أعتق الذهب وأجوده، وكان خروجه إليها فى جمادى الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة، ومات بوليلى.

وذكر أبو الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى عن أبيه وغيره فى خروج إدريس إلى أرض المغرب غير ما ذكره المؤرخون، قال إن إدريس بن عبد الله انهزم من وقعة حسين صاحب فخ[٣]، وكانت وقعة فخ يوم السبت يوم التروية سنة تسع

---

(١) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٥.

(٢) انظر للمزيد: تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٩-٤١٩ للدكتور حسين مؤنس الفصل بعنوان «دولة الأدارسة فى المغربين الأقصى والأوسط».

(٣) يقول د/ حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٢-٣٧٣ وقد جرت العادة أن يبدأ تاريخ الأدارسة بحادث معركة «فخ» التى وقعت فى سنة ١٦٩/٧٨٦م فى خلافة الهادى العباسى، فقد أوقعت فيها قواته مذبحة بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب، وقد كان فيها ستة إخوة من أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، منهم =

وستين ومائة فاستتر مدة وألحَّ السلطان فى طلبه، فخرج به راشد مولاه وكان عاقلاً شجاعًا أبدًا ذا حزم ولطف، فى جملة الحاج منحاشًا عن الناس بعد أن غير زِيَّه وألبسه مدرعة وعمامة غليظة وسبرة كالغلام يخدمه، وإن أمره ونهاه أشرع فى ذلك، فسلما حتى دخلا مصر ليلا.

فبينما هما متحيِّران يمشيان فى بعض طرقها لا هداية لهما بالبلد إذ مرا بدار مشيدة يدل ظاهرها على باطنها ونعمة أهلها، فجلسا فى دكان على باب الدار، فرآهما صاحب الدار فعرف فيهما الحجازية، وتوسم فى خلقتهما الغريبة فقال، أحسبكما غريبين، قالا: نعم، قال: وأراكما مدنيين ـ قالا: نعم نحن كما ظننت.

فإذا الرجل من موالى بنى العباس، فقال إليه راشد وقد توسم فيه الخير فقال له: يا هذا قد أردت أن ألقى إليك شيئا ولست أفعل حتى تعطينى موثقا أن تفعل إحدى خلتين: إما أويتنا وتتقرب إلى الله بالإحسان إلينا وحفظت فينا نبيك محمد ﷺ، وإن كرهت ما ألقيته إليك سترته علينا، فأعطاه على ذلك موثقًا فقال له: هذا إدريس بن عبد الله[1] بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب خرج من موضعه مع الحسين بن على فسلم من القتل، وقد جئت به أريد بلاد البربر فإنه بلد ناء لعله يأمن فيه ويُعْجز من يطلبه، فأدخلهما منزله وسترهما حتى تهيأ خروج رفقة إلى إفريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما.

فلما عزم القوم على الشخوص قال لهما: إن لأمير مصر مَسَالح[2] لا يجوز مصر أحد إلا فتشوه، وهاهنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس، فأنا أحمل هذا الفتى

= إدريس منشئ الدولة الإدريسية، وسليمان الذى قُتل فى «فخ»، ولحق حفيده سليمان بن محمد بن سليمان بعمه إدريس فى المغرب الأقصى، فأقطعه ناحية تلمسان، وعيسى الذى هاجر أحفاده إلى المغرب الأوسط واستقروا فيه، وكان لهم شأن بناحية أَرْشَقول، وكان من الناجين أيضًا يحيى الذى فَرَّ إلى الديلم جنوبى بحر قزوين، وحاول إقامة دولة، واستقدمه الرشيد على أمان إلى بغداد، وهناك مات».

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٨.

(٢) المَسالح: جمع مَسْلَح، وهو موضع السِّلاح، وكُلُّ موضع مخافة يقف فيه الجند بالسِّلاح للمراقبة والمحافظة، والقوم المُسَلَّحون فى ثغرٍ أو مَخْفَرٍ للمحافظة. المعجم الوسيط سلح ٤٤٤/١.

معى - يعنى إدريس - فى هذه الطريق الغامضة البعيدة فألقاك به - يقول لراشد - فى موضع كذا وهنالك تنقطع مسالح مصر، فركب راشد فى أحد شقى المحمل ووضع متاعه فى الشق الآخر ومضى مع الناس فى القافلة، وخرج الرجل على فرس له وحمل إدريس على فرس آخر فمضى به فى الطريق الغامضة، وهى مسيرة أيام حتى تقدما الرفقة وأقاما ينتظرانها حتى وردت، فركب إدريس مع راشد حتى إذا قربا من إفريقية تركا دخولها وسارا فى بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة، فأقام إدريس بين ظهرانى البربر حتى انتهى إلى الرشيد خبره، فكربه وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد البرمكى[1] فقال: أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين، فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزرى، وهو رجل من ربيعة وكان متكلما من يرى رأىَ الزيدية وكان حلوا شجاعا أحد شياطين الإنس، وكانت له إقامة فى الزيدية إذ كان متكلمهم، وهو الذى جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم حين ناظره فى الإمامة.

فأرغبه يحيى بن خالد فى مال، ووعده عن نفسه وعن الخليفة بمواعد عظيمة، ودعاه إلى قتل إدريس والتلطف فى ذلك، فأجابه، فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته، ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة، فانطلق مع صاحبه فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس، وكان إدريس عالما بسليمان ورئاسته فى الزيدية، فلما وصل إليه قال: إنما جئت إليك وحملت نفسى على ما حملتها عليه لمذهبى الذى تعرفنى به، وإن السلطان طلبنى لمحبتى فى الخروج معكم أهل البيت، فجئتك لآمن فى ناحيتك وأنصرك بنفسى، فسرَّه قوله وقبله وأحسن مثواه وأكرم نزله وأنس به - وكان سليمان يجلس فى مجالس البربر فيظهر الدعاء إلى ولد رسول الله - ﷺ ويحتج لأهل هذه المقالة كاحتجاجه بالعراق، فأعجب ذلك إدريس منه فمكث عنده مدة وهو يطلب عِزَّته ويرصد الفرصة فى

---

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير السرى الجواد: سَيِّد بنى برمك وأفضلهم، وهو مؤدب الرشيد العباس ومعلمه ومربيه.
رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبى.
ونكبه الرشيد فى نكبة البرامكة، حيث قبض عليه وسجنه فى «الرقة» إلى أن مات (١٢٠-١٩٠هـ). الأعلام ٨/ ١٤٤.

أمره ويرمق باب الحيلة عليه، حتى غاب راشد مولاه غيبة فى بعض أموره، فدخل عليه ومعه القارورة، فلما انبسط إليه وخلا وجهه قال: جعلنى الله فداك فى هذا القارورة غالية حملتها معى، وليس ببلدك من الطيب ما يُتخذ هذا منه، فجئتك بها لتطيب بما فيها، ووضعها بين يديه، ففتحها إدريس وتغلف منها وشمها، وانصرف سليمان إلى صاحبه، وقد أعد فرسين قبل ذلك مُضمرين، فركباهما وخرجا مركضين يطلبان النجاة، فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان فى خياشيمه سقط مغشيًا عليه[1] لا يعقل ولا يدرى من يختص به ما شأنه، فبعثوا إلى راشد فجاء مسرعا فتشاغل بمعالجته والتخبر فى أمره.

وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا فى مدة ذلك.

وأقام إدريس فى غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب ثم مات، وتبيَّن راشد أمر سليمان بن حريز فركب فى طلبه فى جماعة من أصحابه، فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه ويتخلفون لشدة السير.

وحث الطلب حتى لحقه راشد، فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه فخبطه راشد بالسيف فكتع يده وضربه بالسيف على وجهه ورأسه ثلاث ضربات، كل ذلك لا يُصيب مقتلا مع دفع سليمان عن نفسه وما كان عليه من الجنة.

وقام فرس راشد لشدة حمله عليه، ونجا سليمان بحشاشة نفسه وصاحبه قد خذله، فلم يغن عنه شيئا ولم يكن عنده إلا الهرب، ثم نزل سليمان بعد أن أمن الاتباع وعصب جراحه.

قال أبو الحسن النوفلى: فحدثنى من رآه بعد قدومه العراق مكتّعًا[2].

وذكر أحمد بن الحارث بن عبيدة اليمانى نحو رواية النوفلى فقال: إن إدريس ابن عبد الله أفلت من وقعة فخ فوقع، بمصر على بريدها يومئذ واضح مولى

---

(١) شكَّك فى ذلك الدكتور حسين مؤنس، يقول: والحكاية لا يمكن قبولها ولكنها تصويرشعبى لاستنكار الناس لموت هذا الرجل بعد سنتين أو أربع من قيام دولته، فإن موت الرجال فى عنفوان قومهم يروع النفوس، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول. تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٢.

(٢) مقاتل الطالبيين ٤٨٩.

صالح بن المنصور وكان يتشيع، فحمله على البريد فوقع بأرض طنجة، فوجه إليه الرشيد رجلا من مواليه يقال له الشمَّاخ فى هيئة المتطبب، وكان بإدريس وجع يجده فى أسنانه، فوضع الشماخ فى ذلك الموضع ذرورًا مسمومًا وخرج من ساعته، فقتل السم إدريس فطلب الشماخ فلم يظفر به حتى أتى الرشيد فولاه بريد مصر[1].

وقال غيره: إنما أمره أن يستعمل ذلك الذرور والسنون فى السحر وفرَّ هو فى جوف الليل.

قال محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم: الصحيح عندنا أنه سَمَّهُ فى دلاعة قطعها بسكين قد سم أحد جانبيه، فلما قطعها ناوله الذى باشر السم وأكل الآخر.

وكان واضح مولى صالح بن المنصور، يميل إلى آل أبى طالب، فبلغ الرشيد ما صنع بإدريس فأمر بضرب عنقه وصلبه.

قال النوفلى: وكانت مدة إدريس التى أجابته فيها البربر إلى أن مات بوليلى سنة خمس وسبعين ومائة ثلاثة أعوام وستة أشهر.

وقال غير هؤلاء إن داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب هو الذى أفلت من وقعة فخ وهرب إلى المغرب، وذرية داود هذا بفاس وبنو إدريس يناكحونهم، وانصرف داود إلى المشرق فإنه إنما فَرَّ حين خرج أخواه على المنصور.

قال على النوفلى: أخبرنى عيسى بن جنّون قاضى أرشقول لإدريس بن عيسى ودخل الأندلس غازيا أن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن دخل المغرب أيضا ونزل تلمسان، وبه كمل عدد ولد عبد الله بن حسن ستة لأنهم محمد وإبراهيم وإدريس وعيسى ويحيى وسليمان كما ذكروا.

قال: فولد سليمان بن محمد بن سليمان، فمن ولده: محمد ويحيى وسليمان محل قريشى فى القبلة.

قال النوفلى: ومات إدريس ولا ولد له وجارية من جواريه حُبلى، فقام راشد

---

(١) النص فى مقاتل الطالبيين ٤٩٠.

بأمر البربر حتى ولدت غلاما فسماه باسم أبيه إدريس، وقام بأمره[1] وأدبه وأحسن تأديبه، وكان مولده فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفى راشد سنة ست وثمانين ومائة.

ولهذا التبنى والاتصال قال محمد بن السمهرى يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس: [من الكامل]

وَقُلْ للزَّنِيم زَنِيم طَنْجَةَ عِش بِهَا ... لا يحسـدنَّكَ فى بلادكَ حَاسِـدُ
مَنَّتْـك نَفْسُك أن تكون خليفــةً ... هيهاتَ هَذَا من حديثك باردُ
لَمَّـا رَأَيْتُـك للئــام مُصَــافِيًا ... أَيْقَنْتُ حَقًا أَنَ جَـدَّك رَاشِدُ

وقيل إن راشد مولى عيسى بن عبد الله أخى إدريس بن عبد الله، وقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن ألياس الفارسى، وأخذ بيعة البربر له يوم الجمعة السابع من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشر سنة، وقتل أبا ليلى إسحاق وهو القائم به وبأبيه يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن.

ثم نزل مدينة فاس فى عدوة الأندلسيين[2] وأقام بها شهرا، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة.

وكانت عدوة القرويين غياضا، فى أطرافها أبيات من زواغة، فأرسلو إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة، ثم خرج إلى نفيس فى المحرم سنة سبع وتسعين، ثم غزا نفزة وتلمسان ورجع سنة تسع وتسعين ومائة.

قال داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر: كنت مع إدريس بن إدريس فى المغرب، فخرجت معه يوما إلى قتال الخوارج فلقيناهم وهم فى ثلاثة أضعاف عددنا، فقاتلناهم قتالا شديدا، فأعجبنى إدريس فى ذلك اليوم وجعلت أديم النظر إليه فقال: ويحك لم توالى النظر إلىَّ؟ قلت: لخصال، أما أولها فإنك

(١) فى حيلة راشد للاحتفاظ بسلطان الأدارسة ينظر د/ حسين مؤنس تاريخ المغرب وحضارته ٣٨_٣٨٣.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٣.

تبصق بصاقا مجتمعا وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقى فلا أجده.

قال: ذلك لاجتماع قلبى وذهاب بصاقك لذهاب عقلك.

قال: قلت والثانية لما أرى من منّتك.

قال: إن النبى ﷺ صلّى علينا.

فقلت: والثالثة لما أرى من حركتك وقلة قرارك على الدابة.

قال: ذلك رُمح إلى القتال فلا تحسبه رُعْبا وأنا الذى أقول: [طويل]

أليسَ أبونا هــاشم شدَّ أزرَهُ   وأَوْصَى بنيه بالطِّعــان وبالضَّرْبِ

فلسنا نَمَلُّ الحربَ حتى تملنـا   ولا نَتَشكَّى ما نَؤُولُ من النصبِ

وتوفى إدريس بوليلى سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة بِحَبَّةِ عِنب غُصَّ بها، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وولد إدريس محمدا وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفرا ويحيى وحمزة وعبد الله والقاسم وداود وعمر.

وتولى الأمر بعده ابنه محمد، وفرَّق البلاد على إخوته على رأى جدَّته كَنْزَةَ أم إدريس بن إدريس[1]، واتَّخَذ محمد بن إدريس مدينة فاس قرارا فولّى القاسم أخاه البصرة وطنجة وما والاهما.

وولّى عمر صنهاجة وغمارة، وولى داود هوارة تاسلمت، وولى يحيى دايَ وما والاها، وولى عيسى وازَقّور وسلى، وولى حمزة الأودية بقرب وليلى، وولى عبد الله لمطة وما والاها، وتصاغر الباقون من إخوته أن يقسم لهم فصاروا مع إخوتهم.

فقام عليه عيسى أخوه صاحب وازقور ونكث طاعته، فكتب إلى القاسم يأمره بمحاربة عيسى أخيهما إذ كان يحاذيه فى البلد فأبى القاسم من ذلك وخالف أمر محمد، فكتب إلى أخيه عمر بمثل ذلك، فأجابه وسارع إلى نصرته وخرج يريد عيسى بمعسكره، فلما قرب من أحواز فاس كتب إلى محمد يستمده ومضى

(١) هذا التصرّف الغريب بناء على نصيحة جدته كنزة بتقسيم الدولة بين إخوته الكثيرين، كان سببًا فى ضعف الدولة، وهى لم يكتمل نموها تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٦.

لوجهه، فأوقع بأخيهما عيسى قبل لحاق مدد محمد وأخرجه عن بلد وازقور وهرب إلى سلى ثم أمر محمد أخاه عمر بمحاربة القاسم أخيهما، فحاربه وتغلب على ما كان من بلده بيده، فتزهَّد القاسم وبنى مسجدا على ضفة البحر بأصيلة ولزمه، وتوفى عمر بن إدريس بقرب ذلك ببلد صنهاجة بموضع يقال له الفرس وكان مُنْيَة له، ونقل إلى مدينة فاس فدفن بها، وهو جد الحموديين القائمين بالأندلس على ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

ثم هلك محمد بن إدريس وولى الأمر بعد محمد ابنه على باستخلافه له، ثم هلك فولى الأمر بعده ابن أخيه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، ثم إن يحيى ابن يحيى دخل على يهودية فى الحمام يقال لها حنة وقد راودها على نفسها فتغير عليه أهل فاس ووثب عليه عبد الرحمن بن سهل الجذامى، وهو جد أحمد بن أبى بكر بن عبد الرحمن الذى هو صاحب فاس، فأخرجه عن مدينة فاس فهرب إلى عدوة الأندلسيين فمات بها من ليلته.

وكانت زوجة يحيى بن يحيى هذا عاتكة بنت على بن عمر بن إدريس بن إدريس، فلم تخرج مع زوجها يحيى بن يحيى، فأتى على بن عمر أبوها بجنده فدخل عدوة القرويين وملكها، وانتقل الأمر عن بنى محمد بن إدريس إلى بنى عمر بن إدريس.

ثم قام على على بن عمر عبد الرازق الخارجى وكان صفريًا، ويقال إنه من ثغر الأندلس، وكان قيامه من جبل مديونة وهو بقبلى فاس، فدارت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على علىّ، فهزمه الخارجى، وأخرجه عن مدينة فاس وفر على إلى بلد أوربة ـ وأجاب عبد الرزاق أهل عدوة الأندلسيين ولم يجبه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الذى يعرف بالعدَّام، فولوه على أنفسهم فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

فتقدم يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس إلى مدينة فاس[١] فدخلها ورجع الأمر إلى بنى عمر، فلم يزل بيد يحيى حتى قدم مصالة بن حبوس سنة سبع وثلاثمائة على ما ذكرنا قبل هذا.

---

(١) الحُلل السندسية ٢/ ٥ـ٢٦.

فلما أجلى بنى صالح عن بلد نكور تقدم إلى مدينة الزيتون، وهى كانت قاعدة يحيى بن إدريس بن عمر قبل دخوله فاس وكانت موئله الذى يعتد بها ويعول عليها، فخرج إليه يحيى مدافعًا له فانهزم يحيى وانفض جمعه ولم تقم له قائمة بعد إلى أن هلك فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان هلاكه بالمهدية أيام حصار أبى يزيد لها، وكان أعلى بنى إدريس قدرًا بالمغرب لم يبلغ احد منهم مبلغه.

قال النوفلى: وكان مَصَالة بن حَبُوس[1] لما قدم المغرب قدمته الأولى سنة خمس وثلاثمائة ابتدى موسى بن أبى العافية بالإحسان وقدمه فى المغرب، وكان موسى كلما رجا بالظهور عزه يحيى بن إدريس وقطع به عن أمله ـ فلما رجع مصالة بن حبوس إلى المغرب ثانية سنة عشر وثلاثمائة سعى موسى بيحيى عنده، فأجمع مصالة على القبض عليه وطمع فى ماله وما عنده، فلم يزل يتحيل له حتى أقبل على معسكره، فقبض عليه، وانتزع جميع ما أتى به وأمره باستجلاب ما عنده من الأموال، فأحضره مالاً عظيمًا وأخرجه عن بلده وصار ما كان بيده من البلدان إلى حسن بن محمد الحجَّام وإلى موسى بن أبى العافية.

قال القاضى محمد بن عمر الصدفى: لما أجلى مصالة بن حَبُوس يحيى بن إدريس، التاثت به الحالة وانفض جمعه ومن كان معه، ثم أخذه بعد ذلك موسى ابن أبى العافية[2] فخرب مدينته وسجنه دهرًا طويلاً بمدينة لكاى، ثم أطلقه ثم نزع بنفسه إلى أصيلة وسكنها وأقطعه بنو إبراهيم شيئًا يقوم منه معاشه.

قال: وكان أبوه إدريس قد دعا الله بأن يميته بأرض غربة جوعًا، فلما كان فى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة توجه نحو المهدية فوافق قيام أبى يزيد وفعل الشيعة بأنفسهم، فلم يصل إليهم ومات جوعًا فى حصار أبى يزيد بإفريقيا.

وقدم مصالة بن حبوس على فاس ريحان بن على الكتامى وذلك سنة سبع وثلاثمائة، فأقام بها إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة، فقام حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الذى يعرف بالحجَّام[3] فنفاه ودخلها وملكها عامين، وإنما سماه

(١) فى سقوط دولة الأدارسة ينظر: الحلل السندسية ٢/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٩١.

(٣) الحلل السندسية ٢/ ٢٥ وتاريخ المغرب وحضارته ٣٩٢.

حجامًا عمه أحمد بن القاسم بن إدريس الكرتى، وذلك أنه جرى بينهما أمر أفضى بهما إلى الاختلاف والتدابر حتى زحف كل واحد منهما إلى الآخر، فالتقيا بموضع يعرف بالمدالى من بلد صنهاجة، فحمل حسن على غلام لعمه فدعسه بحربة أثبتها فى مكان المحجم، فأخبر عمه بفعله، ثم شد على آخر فأصابه فى ذلك الموضع، وقيل لأحمد أيضًا، وضرب ثالثة فوافق ذلك الموضع.

فقال أحمد: صار ابن أخى حجامًا، فلزمه ذلك، ولذلك قال شاعر من شعرائهم: [طويل]

وسُمِّيتُ حَجَّامًا ولستُ بحاجمٍ وَلَكِنْ لضربٍ فى مكانِ المَحَاجِمِ

وكان حسنُ الحجَّام فى آخر بلد المدالى يملك فاسًا، فأوقع بموسى بن أبى العافية، رجل من رؤساء البربر وقعة شنعاء لم يكن بالمغرب بعد دخول إدريس فيه أعظم منها، أجلت هزيمته له عن أزيد من ألفى قتيل، وقتل فى جملتهم ابنًا لموسى يسمى منهل فغدره على أثر ذلك بفاس حامد بن حمدان الهمدانى ويعرف باللوزى نسب إلى قرية بإفريقية، فحبسه عند نفسه وأغلق أبواب المدينة دون عسكره، وذلك كان شأن أهل فاس لا يتركون عسكر رئيس يدخل مدينتهم، فلما صار فى سجن حامد أرسل إلى موسى بن أبى العافية فأتاهم ودخل فاسًا وتغلب على عدوة القرويين وتغلب بعد ذلك على العدوة الأخرى، ثم جعل يلحف(١) على حامد فى قتل حسن الحجَّام بابنه منهل، وحامد يدافعه عنه واندلقت ساقه وجاز إلى عدوة الأندلسيين فمات بها.

وقتل موسى عبد الله بن ثعلبة بن محارب الأزدى وقتل معه ابنيه محمد ويوسف، وهرب ابنه محارب بن عبد الله، فلحق بقرطبة، وقيل بالمهدية، وأراد أيضًا قتل حامد بن حمدان الهمدانى فهرب إلى المهدية.

واستولى موسى بن أبى العافية على جميع المغرب وأجلى آل إدريس أجمعين(٢) عن مواضعهم وانحاشوا عن البلد، وصار جميعهم فى حجر النسر مقهورين، وهو حصن بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس سنة سبع عشرة

(١) اى يُلحّ بشدَّة.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٩٣.

وثلاثمائة، واعتزم موسى على محاصرتهم وإستئصالهم حتى عزله فى ذلك أكابر أهل المغرب وقالوا: قد أجليتهم وأفقرتهم، أتريد أن تقتل آل إدريس أجمعين وأنت رجل من البربر؟ فانكسر عن ذلك ولاذ عنه بعسكره، وتخلف لمراقبتهم ومنعهم من التصرف قائد جليل كان عندهم يكنى أبا قمح، فكانت محلة أبى قمح بتاوررت واستخلف موسى ابنه مدين بفاس حتى قدم حميد بن يعلى فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى المغرب ومعه حامد بن حمدان الهمدانى.

فلما أيقن مدين بقدومهما هرب من فاس وولى حميد حامدًا على فاس، وتظاهر بنو إدريس على أبى قمح فهزموه وغنموا أكثر عسكره قالوا: فبذلك سموا ذلك الموضع الكوم وتفاءلوا به وجعلوه شعارًا بينهم.

ووثب بفاس أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى، فقتل حامدًا وبعث برأسه وولده إلى موسى بن أبى العافية، فبعث بهما موسى إلى قرطبة مع سعيد بن الزراد.

وكان صار حميد بن يصلى عن موسى وعن المغرب بغير عهد، فهو كان سبب سجنه بإفريقيا حتى هرب إلى الأندلس.

ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة على ما تقدم قبل هذا فخرج أحمد بن بكر صاحب فاس يومئذ إلى معسكره فحبسه ميسور ووجه به إلى المهدية.

فقدم أهل فاس على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى وحارب ميسور مدينة فاس سبعة أشهر، ثم قفل عنهم فلم يزل حسن واليًا عليها إلى أن قدم أحمد بن بكر منطلقًا من المهدية، فتخلى له حسن عما كان بيده، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ولما ورد ميسور إلى المغرب حاصر موسى بن أبى العافية وتولى معظم تلك الحروب بنو إدريس، حتى جلى موسى بن أبى العافية إلى الصحراء وصار كما كان بيده إلى آل إدريس والرئاسة منهم فى بنى محمد بن إدريس بن إدريس، وهم حسن وجنّون وإبراهيم بنو محمد بن القاسم، وكان محمد متخلفًا فى إخوته وعشيرته لا قدر له.

ثم صارت النباهة والقدر لبنيه، وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهونى، وكان الذى يلزم صخرة النسر منه جنون وحنون من أبناء إبراهيم، واسم جنون القاسم.

ولمحمد بن إسحاق الشاعر المعروف بالنحيلى فى جنّون هذا أهاج كثيرة مقذعة، وذلك أنه غلب على أمٍّ ولدٍ كانت له، فهويها جنّون وصارت عنده فاستعان عليه بابن عمه أحمد بن القاسم بن إدريس، فكتب إليه يرغب أن يصرفها إليه وأعلمه بما يلحقه فى فعله من قبح الأحدوثة، فلم يلتفت إلى مقالته ولا انتفع محمد بن إسحاق بشفاعته، فاستأذن محمد بن إسحاق أحمد بن القاسم فى هجائه، فأذن له فى ذلك وعاهده أن لا يرى منه على هجائه له مكروها أبدًا.

فمما هجاه به: [كامل]

أترى سلاحك إذ كَدَتْك قصيدتى ... يُنْقِيه سَيْلٌ قد طما من سَفْدَدِ
أو بحر طنجا فى عصوفات الصَّبَى ... وبحر سَبْتَة يا لئيمًا فاردد
أو نِيلُ مِصْرَ إذا ارتَمَى أَذْيَه ... تعلو سَوَاحِلُه بموجٍ مُزْبِدِ
جَنُّون يزعُمُ أنَّه مُتَلَوِّطٌ ... وهو المنيكُ إذا خلا بالأمردِ
ابنا محمّد الزنيم لأنتمُ ... شرّ الورى مِمَّن يروح ويغتدِى
إن كان جنّون من آل محمّدٍ ... فأنا كفورٌ بالنَّبِىّ محمَّدِ

وقد ذكرنا خبر سَفْدَد واختلاف أسماء هذا النهر باختلاف المواضع، فأما قوله: (أو بحر طنجة فى عصوفات الصبى) فإن الريح الشرقية تؤذى فيه أشد إذاية وكذلك فى جرفيه.

وكان أعلى بنى محمد كلهم أيدًا أبو العيش بن جنون بن محمد، وكان له من البلد ما بين أجاجن وقيل إيزاجن، وهو بقبلى حجر النسر إلى مدينة فاس.

وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم، كان يحفظ السير والتواريخ وكان نسابة عاقلاً حليمًا وكان مبجلاً لعلمه، وكان يعرف أحمد الفاضل، وكان له ماجرّ من أجاجن إلى مدينة سبتة، وكان شديد الميل إلى خلفاء بنى أمية وكثير التشيع فيهم، وهو الذى استشار محمد بن عبد الله بن أبى عيسى قاضى الجماعة

فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى دخـول الأندلس، والغزو مع أمير المؤمنين عبد الرحمن[١].

فلما أعلم عبد الرحمن بذلك أمره بمخاطبته واستحثاثه فى القدوم وأن يُعلمه أنه لا ينزل مرحلة من الأندلس ما بين نزوله بالجزيرة الخضراء إلى نزوله بمحلة بلاط حميد من أقصى الثغر، وذلك ثلاثون محلة ـ إلا أمر أمير المؤمنين ببنيان قصر فى كل محلة ينزلها ينفق فيه ألف مثقال ليكون أثر إقباله إلى الأندلس باقيا مع الأيام.

ولم يكن فى بنى إدريس من شُهِرَ بالعلم شهرته إلا محمد الأكبر بن القاسم بن إدريس وهو المعروف بالكَرْتى، وكان له علم وقدر بالمغرب، وهو الذى استجلب بكر بن حماد[٢]، ووفد على أمير المؤمنين عبد الرحمن منهم حسن بن القاسم المعروف بجنون وعيسى بن جنون بن محمد بن القاسم، وذلك يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فأقاما فى كرامته إلى شهر صفر من العام الذى يليه، ثم انصرفا إلى بلدهما.

ولما دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة أجمع بنو محمد بن القاسم على هَدْم مدينة تيطاوان فهدموها، ثم تعقبوا ما فعلوا وأرادوا بنيانها، فضج أهل مدينة سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة وتقطع عنها مرافقها، فأعجل عبد الرحمن أمير المؤمنين إخراج الجيوش إليهم وتجهيز العساكر نحوهم، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، والقائد أحمد بن يعلى، حتى وصل إلى مدينة سبتة ونفذ عهد عبد الرحمن إلى حميد بن يصلى، وكان والى تيجيساس، بالتقدم إلى سبتة والتظافر بأحمد بن يعلى على حرب بنى محمد.

واجتمع العسكران فسفر حميد بن يصلى إلى بنى محمد على ابن معاذ، فأجابوه إلى التخلى عن مدينة تيطاوان على أن يبعثوا بأبنائهم إلى أمير المؤمنين فقدم أحمد بن يعلى عليه بحسن بن أحمد الفاضل بن إبراهيم بن محمد ومحمد

(١) هو عبد الرحمن بن الحكم.

(٢) هو بكر بن حمَّاد بن سمك الزناتى، أبو عبد الرحمن القاهر (ت ٢٠٠ـ٢٩٦هـ): شاعرٌ عالم بالحديث ورجاله، فقيه من أفاضل أهل المغرب، ولد بتاهرت بالجزائر، ورحل إلى البصرة سنة ٢١٧هـ، ثم إلى القيروان، وعاد منها إلى تاهرت سنة ٢٩٥ هـ، فتوفى بها وشعره كثير. الأعلام ٢/ ٦٢ والبيان المغرب ١/ ١٥٣.

ابن عيسى بن أحمد بن إبراهيم، ووصل إلى قرطبة يوم السبت لتسع خلون من رجب سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وعيسى هو أبو العيش، فبعث حسن في ابنه يحيى وبعث محمد في ابنه حسن، فوصلا إلى قرطبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، فمكثا بقرطبة وصدر أبواهما إلى بلادهما بالحباء والكرامة المجددة.

وولد ليحيى وحسن بقرطبة البنون، ثم هلكا: هلك يحيى سنة تسع وأربعين، وهلك حسن سنة خمسين، ودفنا بمقبرة الربط وصلى عليهما منذر بن سعيد القاضي.

وخلف يحيى ابنا يسمى حسينا، وخلف حسن ابنين يسميان محمدا وحسينا أيضا، فلم يزالوا مستقرين بقرطبة إلى خلافة المستنصر بالله، فبعث بهم أعلاما من ثقات أهل مملكته، وذلك في رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، فوصلوا بهم إلى أحمد وحسن ابني إبراهيم بن محمد بن القاسم، ويحيى بن أحمد أبو هذا الغلام قد هلك، فأنزل أحمد بن إبراهيم ابن ابنه حسين بن يحيى على ما كان لأبيه.

فأما ذريَّة عمر بن إدريس جد الناجمين بالأندلس فإن عمر ولد عليا بسرية، وإدريس أمه زينب بنت عبد الله بن داود بن القاسم الجعفري، وعبيد الله لجارية يقال لها ربابة، ومحمدا.

فأما عليّ فإنه أعقب من الذكور اثني عشر ذكراً وابنة واحدة وهي عاتكة التي تقدم ذكرها، امرأة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، وأكثر عقب هؤلاء بأوربة ومنهم بمدينة فاس ومنهم بكتامة.

وحمزة بن علي منهم، قتله موسى بن أبي العافية بيده، ظفر به بمدينته التي كانت تدعى بني عوسجة، وقتل معه ولديه هارون ويحيى، وكان حمزة هذا قد حضر مع حسن بن محمد الحجّام هزيمته لموسى وحضر قتل منهل ابنه، وكان حمزة قد علق منهلا على بابه ببني عوسجة فقتلهم بثأره.

وحسن بن عبيد الله بن علي منهم ابتلي بالجذام، وجنون بن إدريس بن علي، أجلاه موسى بن أبي العافية إلى زناتة فسبتة برغواطة فعقبه هناك عندها.

وعقب أبى العيش بن على منهم بالأندلس.

وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر بن إدريس، وبولده تكرر الأمر إلى أن كثرهم بنو محمد بن القاسم بن محمد بن إدريس ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة ويكنى أبا العيش، ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله، وقد ذكرنا خبر ابنه يحيى بن إدريس وملكه بمدينة فاس، وأنه كان أعلى بنى إدريس حالا بالمغرب، وذكرنا موته بالمهدية.

قال على النوفلى: كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء، وكان أبو أحمد الشافعى من جلسائه وممن يتكلم عنده فى العلم، وكان ينسخ له عدة الوراقين وشجعه[1] الناس من الأندلس وغيرها فيحسن إلى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف.

وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين ولهم عقب كثير، فأما عبيد الله بن عمر بن إدريس فولد حمزة والقاسم وأبا العيش، لم تسمَّ لنا أمهم وهى مملوكة بربرية، وعليًا وإبراهيم ومحمدا، ويقال لمحمد الشهيد، أمهم زواغية، فأما حمزة فكان شجاعا جوادا متقدما وله عقب كثير ببلد غمارة وزنانة، وأما على بن عبيد الله فلم يُعقِّب من ولده إلا جنُّون وهم بكورة الجزيرة، وأما إبراهيم فكان عَقِبُه بحجر النسر وأحد بنيه أعقب ببلد زناته، وأما القاسم بن عبيد الله فله عَقِب كثير ببلد زناته، ومحمد الشهيد عقبه أيضا ببلد زناته، وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى، فأما يحيى فله بنون بيَّازعذرا، وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة، فأما على فولى الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة واغتاله فتيان من الصقالبة فى حمام بقصر قرطبة فقتلاه ثم قُتلا به، وكان له من الولد يحيى وإدريس وولّى عهده منهما يحيى، وكان صاحب المغرب وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة.

فلما قُتل علىٌّ استدعى البربر القاسم أخاه وأدخلوه القصر وبايعه الناس وخطب له بالخلافة، فأنَفَ من ذلك ابنُ أخيه يحيى لما تقدم من عهد أبيه له، وتظافر مع إدريس أخيه على عمهما لتصوره عليهما فى خلافة أبيهما، واتفقا على

(١) أى يقصدونه ويبغون عطاءه.

أن يعبر يحيى إلى مالقة لطلب حقه، ويعبُر إدريس إلى المغرب.

فجاز يحيى إلى إشبيلية أربع عشرة وأربعمائة واستمر إلى قرطبة، واستخلف يحيى بقرطبة وتسمى بالمعتلى وخطب له بالخلافة، ثم إن البربر اضطربوا عليه ففر من قرطبة إلى مالقة، ورجع عمّه القاسم إلى قرطبة مدة أخرى وتسمى بالمأمون، ثم عزله ابن أخيه يحيى، فخرج من قرطبة إلى إشبيلية ومكث بها إلى أن أخرجه محمد بن عبّاد وصار بشريش، فحصره بها ابن أخيه يحيى حتى أخذه وبنيه هناك فسجنهم، واستوثق الأمر ليحيى بن علىّ حتى قتل فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

فلما وصل الأمر إلى أخيه، خُطب له بالخلاف فى سبتة وتسمَّى بالعزيز بالله.

ثم عبر البحر إلى مالقة فتسمى بالمتأيِّد بالله، وخطب له بالخلافة بمالقة وأعمال البربر بالأندلس وبالمرية وأعمالها، وتوفى يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة بقيت للمحرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان ولى عهده حسن بن يحيى صاحب سبتة فتسمى بالمستنصر بالله، فجاز إلى الأندلس وبويع له بمالقة ونواحيها وبغرناطة وجهاتها إلى أن توفى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

فولى إدريس بن يحيى أخوه وبويع له يوم الخميس لست خلون من جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، وتَسَمَّى بالعالى وخُطب له بذلك بمالقة وغرناطة وقرمونة وأعمالها إلى أن خلع سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

وقام محمد بن إدريس بن على وتسمى بالمهدى، وخُطب له بالخلافة هناك إلى أن تُوفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

وقام بالأمر بعده ابن أخيه إدريس بن يحيى بن إدريس بن على وتسمّى بالموفق، ولم يُخطب له بالخلافة وبقى أشهر يسيرة، ثم دخل عليه العالى إدريس بن يحيى وبويع له مرة ثانية بمالقة وبقى إلى أن توفى سنة ست وأربعين وأربعمائة.

وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن إدريس وتسمَّى بالمستعلى ولم يُخطب له بالخلافة، فأقام بمالقة إلى أن تغلَّب عليها باديس بن حبُوس بن ماكسن فى صدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة، فانقطعت دولة بنى على بن حمّود من يومئذ.

ثم استدعى محمد بن إدريس هذا من مدينة مليلة، وهو مستقر بالمرية لا يُعرف مكانه لخمول ذكره، فعبر إليها وذلك فى شهر شوال سنة تسع وخمسين وأربعمائة، فقام به جماعة بنى ورْتدى بمليلة وبقلوع جارة ونواحيهما، وهو هناك باق على ذلك إلى وقتنا هذا وهو آخر سنة ستين وأربعمائة.

* * *

ذكر ممالك برغواطة[1] وملوكهم

أخبر أبو صالح زمُّور بن موسى بن هشام بن وارد يزن البرغواطى، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكَم المستنصر بالله رسولا، من قبل صاحب برغواطة أبى منصور بن عيسى بن أبى الأنصار عبد الله بن أبى عفير يحمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف، وكان وصوله إلى قرطبة فى شوال سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة، وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذى قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشر بن السطاسى من أهل شلة مسلم من بيت خيرون بن خير.

فأخبر زمُّور أن طريفًا[2] أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغرى المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت.

وإلى طريف نسبت جزيرة طريف[3]، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف ببلدتا مسنى، وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة، فقدمه البربر على أنفسهم وولى أمرهم، وكان على ديانة الإسلام إلى أن هلك هناك وتخلف من الولد أربعة، فقدم البربر ابنه صالحا منهم.

---

(١) عن زندقه برغواطة ينظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٥ـ٣٧٨.

(٢) هو طريف أبو صالح من أتباع ميسرة المطغرى الصفرى، صارت له زعامة برغواطة، فرأسهم دهرًا طويلاً، يقال حكم خمسين سنة. تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٥.

(٣) جزيرة طريف: جزيرة على البحر الشامى فى أوَّل المجاز المسمّى بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة، وهى مدينة صغيرة، وعليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها أسواق وفنادق وحمَّامات ومنها إلى الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الروض المعطار ٣٩٣.

قال زمور: وكان مولد صالح بعد موت النبى ﷺ بمائة عام سواء.

قال: وحضر صالح مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير.

قال: وكان من أهل العلم والخير فتنبأ فيهم وشرع لهم الديانة[١] التى هم عليها إلى اليوم، وادعى أنه نزل عليه قرآنهم الذى يقرؤونه إلى اليوم.

قال زمور: وهو صالح المؤمنين[٢] الذى ذكره الله عز وجل فى قرآن محمد ﷺ فى سورة التحريم.

وعهد صالح إلى ابنه ألياس بديانته وعلَّمه شرائعه وفقهه فى دينه وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوى وأمن، فإنه يدعو حينئذ إلى ملته ويقتل من خالفه، وأمره بموالاة أمير الأندلس.

وخرج صالح إلى المشرق ووعد أنه ينصرف إليهم فى دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدى الأكبر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتل الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويُصَلِّى خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلا كما مُلئت جَوْرًا[٣]، فتكلم لهم فى ذلك كلاما كثيرا نسبه إلى موسى الكليم عليه السلام وإلى سَطِيح الكاهن وإلى ابن عباس.

وزعم أن اسمه فى العربىٍّ صالح وفى السريانى مالك وفى الأعجمى عالم وفى العبرانى وربيا وفى البربرية ورياورى،: أى الذى ليس بعده شىء، وتولى ألياس الأمر بعد خروج أبيه، يُظهر ديانة الإسلام ويُسرُّ الذى عهِدَ إليه به أبوه خوفا وتقيّة، فكان طاهرا عفيفا لم يلبس بشى من الدنيا إلى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة.

---

(١) عن تنبؤ صالح ينظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٦ ـ٣٧٧.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإِنْ تَظَاهرا عليه فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمنين﴾ [سورة التحريم، آية ٤].

(٣) استبعد الدكتور حسين مؤنس الكثير مِّما يدعى على صالح بن طريف حيث يرى هذا الزعيم القبلى المارق ـ يحسب ما تقول المصادر ـ يترك الرياسة لابنه، ويرحل هو إلى المشرق فى رحلة غامضة، وقال إنه سيعد وفى صورة المهدى المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جورًا، والغالب أنه خرج للحج واختفى بطريقة ما، وأشاع ابنه وخليفته إلياس هذه الشائعة لكى يتولى الحكم ويسيطر على عقول أتباعه وقلوبهم. تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

وولد ألياس جماعة منهم يونس، فتولى الأمر بعد أبيه فأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة، حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه، وقتل منهم بموضع يقال له تاملّوكاف، وهو حجر نايف عالٍ وسط السوق، سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا، وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وَغْدٍ، والوغد عندهم المنفرد الوحيد الذى لا أخ له ولا ابن عم، وذلك فى البربر قلّيل وإنما أحصوا الأقل ليستدل به على الأعظم الأكثر.

قال زمّور: ورحل يونس إلى المشرق وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده.

ومات يونس بن إلياس[1] بعد أن ملك أربعا وأربعين سنة.

وانتقل الأمر عن بنيه بقيام أبى غفير يحمد بن معاد بن الْيَسَع بن صالح بن طريف عليهم، فاستولى على الملك، ودان بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له وقائع كثيرة فى البربر مشهورة لا تُنسى مع الأيام، منها وقيعة تيمغسن، وكانت مدينة عظيمة، أقام القتل فى أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى الخميس، حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم، ومنها وقعة بموضع يقال له بهت عجز الإحصاء عن عدد من قتل فيها.

وكانت لأبى غفير من الزوجات أربع وأربعون زوجة كان له منهن من الولد بعددهن.

ومات أبو غفير بعد أن ملك تسعا وعشرين سنة، وذلك عند ثلاثمائة من الهجرة.

وولى الأمر بعده من بنيه عبد الله أبو الأنصار، وكان سخيا ظريفا يفى بالوعد والعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها، وكان أفطس شديد أدمة الوجه ناصع بياض الجسم طويل اللحية، وكان يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص، ولا يعتم إلا فى الحرب ولا يعتم أحد فى بلده إلا الغرباء، وكان يجمع جنده وحشمه فى كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله، فتهاديه القبائل وتستألفه فإذا

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

استوعب هداياهم وألطافهم فرق أصحابه وسكنت حركته، فملك فى دعة اثنتين وأربعين سنة ودفن بأنسلخت وبها قبره.

وولى بعده من بنيه ابنه أبو منصور عيسى بن أبى غفير، وهو ابن اثنين وعشرين سنة، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فصار بسيرة آبائه ودان بديانتهم واشتدت شوكته وعظم سلطانه، وكان أبوه قد وصّاه قبل موته بموالاة صاحب الأندلس، وكذلك يوصى جميعهم المرشح للملك بعده، قال زمور: وقال له: يا بنى أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف كما وعد، انتهى كلام زمور.

وقال أبو العباس فضل بن مفضل بن عمرو المدحجى: إن يونس[1] القائم بدين برغواطة أصله من الشدونة من وادى جربت، وكان قد رحل إلى المشرق فى عام واحد مع عباس بن ناصح وزيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية وبرغوث بن سعيد الترارى وجد بنى عبد الرزاق ويعرفون ببنى وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة وآخر ذهب عنى اسمه، فأربعة منهم فقهوا فى الدين وادعى ثلاثة منهم النبوة، منهم يونس صاحب برغواطة.

قال: وكان يونس شرب دواء الحفظ فلقن كل ما سمع حفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجان ونظر فى الكلام والجدال، وأخذ ذلك من غيلان.

ثم انصرف يريد الأندلس، فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة، فلما رأى جهلهم استوطن ببلدهم، وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول و قريبا منه، فعظم عندهم.

فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته ودعا إلى نبوته، وسمى من اتبعه بربطى لما كان من بربط، ثم أحالوه بألسنتهم وردوه إلى لغتهم فقالوا: برغواطى.

قال فضل بن مفضل: وقال سعيد بن هشام المصمودى فى وقعة بهت قصيدة طويلة اخترنا منها أبياتا: [من الوافر]

---

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

قفى قَبْلَ التَّفَرُّق فَاخبْرينا وَقُولى وَاخبْـرى خَبَرًا مُبِينًا
هُمُوم بَرابَر خسروا وَضَلُّوا وَخَابُوا لا سقَـوْا مَـاءً مَعِينا
أَلاَيم أُمَّـةً هَلَكَـتْ وَضَلَّتْ وزَاغَتْ عن سبيلِ المُسْلمينا
يقولــونَ النَّبِىُّ أبو غُفَيْر فَأَخْزَى اللَّـهُ أُمَّ الكَاذبِينَا
أَلَمْ تَسْمَع وَلَمْ تَرَ يَوْمَ بَهت على آثـار خَيْـلِهم رَنِينَـا
رَنِينَ الباكيــاتِ فَبَيْنَ ثَكْلَى وَعَـاوِيَة وَمُسْقطـة جَنِينَا
سَيَعْلَمُ قَوْمُ تامَسْنَى إذَا مَـا أَتَوا يَوْمَ النَّشُـورِ مُهَيْمنينا
هُنَـاك يُونُس وَبَنُو أبيــه يَقُــودُون البَرابرَ مُهْطعينَا
إذَا وُرِيَا وَرَى زَمَّتْ عليهم جَهَنَّـمُ قَائـد المُسْتكْبِـرِينَا
فليسَ اليـومَ رِدتَّكم ولَكِنْ لَيَــالِيَ كُنْتُـمْ مُتَمَيْسـرِينَا

هذا البيت يصدق قول زمّور البرغواطى: أن طريفًا كان من أصحاب ميسرة فيشهد له.

وأما هذا الضلال الذى شرع لهم فإنهم يقدمون مع الإقرار بالنبيين الإقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده، وأن الكلام الذى ألف لهم وَحْيًا من الله تعالى لا يشكون فيه، تعالى الله عن ذلك، وصوم رجب وأكل شهر رمضان وخمس صلوات فى اليوم وخمس صلوات فى الليلة والتضحية فى اليوم الحادى عشر من المحرم، وفى الوضوء غسل السرَّة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسيل الوجه ومسح العنق والقفا وغسل الرجلين من الركبتين، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر.

وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: ابسمن ياكُش، تفسيره بسم الله، مقر ياكُش، تفسيره الكبير الله، ويضعون أيديهم مبسوطة فى الأرض طول ما يتشهدون ويقرأون نصف قرآنهم فى وقوفهم ونصفه فى ركوعهم، ويقولون فى تسليمهم بالبربرية: الله فوقنا لم يغب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ثم يقول مقر ياكش خمسا وعشرين مرة، إيحن ياكُش مثل ذلك ومعناه:

الواحد الله، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه: لا أحد مثل الله.

وهم يجمعون يوم الخميس ضحًى، وصيام يوم من كل جمعة فرض من فروضهم ويصوم الجمعة الأخرى التى تليه أبدا. ويأخذون العشر من الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون من المسلمين شيئا، ويتزوجٍ من النساء ما استطاع على مباعلتهن والانفاق عليهن بلا حد عدد، وأن لا يتزوج من بنات عمه إلا ثلاث جدود، ولا يتسرون ولا ينكحون للمسلمين ولا ينكحون فيهم ويطلقون ويراجعون ما أحبوا.

ويقتل السارق بالإقرار أو بالبينة ويرجم فى الزنا عندهم وينفى الكاذب ويسمونه المُغيَّر، والدِّيَة عندهم مائة من البقر، ورأس كل حيوان عليهم حرام، والحوت لا يؤكل إلا أن يزكى والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة إلا أن يضطرو إليها.

وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون فى معرفة الأوقات بزقاء الديوك ولذلك حرموها، وكان يبصق فى أيديهم فيلعقونه تبركا به ويحملون بصاقه إلى مرضاهم فيستشفون به، وصار أهل برغواطة أعلم الناس بالنجوم وأحذقهم بالقضاء بها، وكانوا أجمل الناس رجالا ونساء وأشدهم أيدا، كانت الجارية البكر منهن تثب ثلاث حمر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحمر، ولا تقدر على ذلك ثيِّب.

وقرآنهم الذى وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لدن آدم، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس وفيها سورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة يأجوج ومأجوج وسورة الدجال وسورة العجل وسورة هاروت وماروت وسورة طالوت وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش ـ وكان يمشى على ثمان أرجل ـ وفيها سورة غرائب الدنيا، وهناك العلم العظيم عندهم.

* * *

ذكر كلمات مترجمة من أول سورة أيوب وهى استفتاح كتابهم [(١)]

بسم الله الذى أرسل الله به كتابه إلى الناس، هو الذى بين لهم به أخبارهم.

قالوا: علم إبليس القضية، أبى الله ليس يطيق إبليس أن يعلم كما يعلم الله.

سل أى شىء يغلب للألسن فى الأقولة، ليس يغلب الألسن فى الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذى أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق.

انظر محمدا، وعبارة ذلك بلسانهم أيمنى مامت فمامت محمد كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه حتى مات، ففسد الناس، كذب من يقول إن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله، وهى سورة طويلة.

قال زمور: إن بنى صالح بن طريف يركبون وقت أخباره فى ثلاث آلاف ومائتى فارس، وإن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم وهم على ملتهم: جراوة وزواغة والبرانس وبنو أبى ناصر ومنجصة وبنو أبى نوح وبنو واغمر ومطغرة وبنو بورغ وبنو ضمر ومطماطة وبنو وزكسبت، وعددهم ينتهى أكثر من عشرة آلاف فارس، وممن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل وبنو أفلوسة وبنو كونة وبنو يسكر وأصادة وركانة وإيزمين ومنادة وماسنة ورصانة وترارتة، ومبلغ عددهم نحو اثنى عشر ألف فارس.

قال زمور: وليس فى عسكرهم طبول ولا بنود.

وعد زمور من أنهار بلادهم الجارية أزيد من مائة نهر أعظمها نهر ماسنات، وهو يجرى من القبلة إلى الجوف، وبين عنصره وموقعه فى البحر مسيرة ستة أيام، ونهر وانسيفن يقع فى نهر شلة تحت الرباط فى البحر المحيط.

ولم تزل برغواطة فى بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى[(٢)]، وذلك بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة، فغلبهم

(١) تعالى الله سبحانه وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا.

(٢) هو تميم بن زيرى بن يَعلى بن محمد بن صالح، أبو الكمال اليفرنى: أمير شالة (فى الرباط =

على بلادهم وسباهم وجلا من بقى منهم واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا أثرهم ولم يبق لضلالهم باقية ولا من أواصر كفرهم آصرة.

وتميم هذا كان ذا جد وإيثار للعدل، وهو الذى قتل أحد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى شلة.

وجميع بلاد برغواطة اليوم على مِلَّة الإسلام.

* * *

الطريق من مدينة فاس إلى مدينة القيروان

وهى أربعون مرحلة نذكر مشهورها، أول ما تخرج من فاس على باب الفتوح من عدوة الأندلسيين إلى مرج ابن هشام إلى وادى سبوا، وهو على نحو أربعة أميال من فاس، عليه قرى كثيرة.

ثم تسير منه إلى موضع يُعرف بعقبة البقر إلى خندق الغول لمكناسة، وفى قرى متصلة وعمارات غير منفصلة وأنهار كثيرة لأزداجة وغيرها، إلى قلعة جُرماط وكانت معقل أبى منقذ بن موسى بن أبى العافية، وكان بها جامع وأسواق وحمام.

وفى الجوف منها على عشرة أميال مدينة تسول المعروفة بعين إسحاق قاعدة موسى بن أبى العافية، وكانت على ثلاثة أجبل.

وبها جامع وأسواق وحمام وعين عذبة، بنى عليها موسى قُبة فخربها ميسور

= المغرب) ودفينها. من بنى «يفرن» وهم قبيلة من زناتة نازعت الدولة المغراوية التى كانت تملك المغرب، وانتزعت منها مقاطعتى «شالة» و«تادلة» وما والاهما حوالى سنة ٣٨٥هـ.

وآلت إمارة يفرن شالة إلى صاحب الترجمة، سنة ٤٢٤، فزحف منها إلى فاس، وقاتله صاحبها يومئذ: حمامة بن المعز المغراوى، واستولى عليه تميم مُدَّة خمس سنوات، وجمع حمامة قبائل من (وَجدة) عاد بها لقتال تميم، فانصرف هذا إلى قاعدة إمارته «شالة» سنة (٤٢٩) وأقام بها يوالى الغارات على «برغواطة» إلى أن توفى سنة ٤٤٦هـ، وتناقل المؤرخون إيقاع تميم باليهود أيام استيلائه على فاس، وأنه قتل منهم نحو ستة آلاف. الأعلام ٣/ ٨٧ والاستقصا ١/ ٢٢٠.

القائد الشيعى.

ومن فاس إلى قلعة جرباط يسكنها اليوم مطغرة مرحلتان، وقال محمد: مرحلة إلى مدينة جُرادة ست مراحل، وقال محمد ثمان، منها اثنتان فى الصحراء.

فمن جرماط إلى قرية وليلى، وبها كان يسكن زاوى ابن أخى موسى بن أبى العافية، إلى فجٍّ تازى لمكناسة، إلى وادى وارُجّين نهر ملح لمكناسة، ثم إلى وادى صاع.

ثم الصحراء إلى مدينة جُرَاوَة[1]:

وهى فى سهلة من الأرض كان عليها سور مَبْنِىٌّ بالطوب، وداخلها قَصَبَةٌ وحولها أَرْبَاضٌ فى جميع جهاتها وعيون ملحة، وداخلها آبار عذبة وخمسة حمامات أحدها ينسب إلى عمرو بن العاص وجامع من خمسة بلاطات على أعمدة حجارة أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس[2] بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن سنة تسع وخمسين ومائتين، وكان لها بابان شرقيان وثالث غربى ورابع جوفى وحولها بسائط عريضة للزرع والضرع، وجبل ممالو فى قبليها وفيه حصن بناه الحسن بن أبى العيش، حواليه بساتين ومياه تطَّرد، وبينه وبين المدينة أربعة أميال.

ويتصل بالحصن فى أسفل الجبل شعارى[3] أَشِبَةٌ[4] لا تُسلك، وحول جراوة عدة قرى لقبائل من البربر: مطغرة، وبنى يفرن، وودانة، ويغمر الجبل، وبنى راسين وبنى ياداش، وبنى وريمش وغيرهم.

وكان لأبى العيش ومن خلفه مدينة تلمسان أيضا وما والاها.

---

(١) جُرَاوَة: بالضَّمِّ: موضع بإفريقيا، وهى جُراوة مكناسة. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢١ والروض المعطار ١٦٢.

(٢) عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحَسَنى الطالبى، أبو العيش: أميرٌ من آل سليمان بن عبد الله المقتول بفخ ولد ونشأ فى تلمسان وبنى مدينة جُرَاوة وتولى إمارتها ودفن بها. الأعلام ٥/ ١٠٠.

(٣) الشعار: الشجر المُلْتَف والمكان ذو الشجر. المعجم الوسيط (شعر) ١/ ٤٨٧.

(٤) أَشِبَ الشجرُ أَشَبًا، اشتدَّ التفافُه وكَثُر حتى لا مجازَ فيه فهو أَشِبٌ، ويقالُ مكانٌ أَشِبٌ وبلدةٌ أَشِبَةٌ. المعجم الوسيط (أشب) ١/ ١٨.

وأسر ابن ابنه الحسن فى الحصن المذكور. البورى بن موسى بن أبى العافية سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد انتقل إلى الحصن من جراوة بأهله وماله وولده وفى ذلك يقول بكر بن حماد[1] فى شعر طويل: [من الكامل]

سَائِلْ زواغة عن فِعَـالِ سُيُوفه ... ورِمَاحِـه فى العارضِ المُتَهَلِّلِ
وديارُ نَفْزَةَ كيف داسَ حرِيمَهـا ... والخيـلُ تَمْـرَغُ بالوشيـج الذُّبَّلِ
عَمَّتْ مَغِيلَةُ بالسيــوف مَذِلَّةٌ ... وسَقَى جراوة من نقيع الحَنْظَلِ

ولجراوة مرسى تافرجنيت. ومن جراوة إلى ترنانة: وهى سوق عامرة مرحلة، ومنها إلى مدينة تلمسان مرحلة، يسكنها زناتة، وقد تقدم ذكرها.

إلى مدينة تاندة، وهى مدينة كبيرة آهلة على نهرين، أحدهما حمة، ومنه شربهم وعليه أرحاؤهم، إلى قصر ابن سنان الأزداجى، حوله بساتين كثيرة على نهر كدال، إلى مدينة يلل، وهى كبيرة آهلة كثيرة الأشجار يسكنها هوارة وبها مسجد جامع، إلى مدينة الغزة: يسكنها مكناسة، وهى مدينة تيهرت، وقد مر ذكرها، ثلاث مراحل، إلى حصن تامغيلت، مرحلتان.

وهو مبنى بالطوب على نهر لهم ربض وسوق، يسكنه لواتة ونفزاوة.

إلى مدينة هاز على نهر شتوى، وهى خالية، أجلى أهلها زيرى بن مناد الصنهاجى. إلى بورة، نهر جار يسكن حوله بنو يرناتن، وهم كانوا أصحاب هاز.

وبورة: كثيرة العقارب، وبها سويقة.

ومنها إلى حصن موزية، وبقرب هذا الحصن قصر من بنيان الأول بالصخر يعرف بقصر العطش حوله ماء ملح، ومدينة عظيمة للأول أيضا خالية مبنية بالصخر الجليل تُسمى مدينة الرمانة تنفجر تحتها عيون طيّبة ثَرَّة طيّبة تسيل إلى مدينة المسيلة، وقد تقدم ذكرها.

ومدينة للأوَّل أيضًا خالية تسمى بالبربرية تاورست تفسيره الحمراء، وهى مبنية بالصخر على نهر عذب.

ومن حصن موزية إلى مدينة المسيلة، وقد تقدم ذكرها.

---

(١) هو بكر بن حمّاد بن سمك الزناتى، وسبقت ترجمته.

ومنها إلى مدينة أَدَنَة[١]، وهى خالية أَخْرَبَها على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة فى وقوع ميسور الفتى إلى المغرب، وبلد أدنة بلد كثير الأنهار والعيون العذبة، وهناك عين الكتّان: عين عذبة فى مفازة عليها أربع نخلات بينها وبين المسيلة مرحلة، وبشرقيها وادى مقرة، عليه سبع قرى منها قرية يكسم، وزَيْتُها أطيب الزيوت، وبين عين الكتان وأدنة نهر سَهَر ونهر النساء، ونهر أبى طويل وعين الغزال وبين نهر سَهَر ونهر النساء ثلاثة أميال، وسُمى بذلك، لأن هوارة أغاروا على نساء أدنة وذهبوا بهن فأدركهم أهل أدنة فاستنقذوا النساء هناك. والغنيمة وقتلوا جماعة من هوارة.

ومن أدنة إلى مدينة طُبْنَة مرحلتان، وقد تقدم ذكر مدينة طبنة، وحواليها بنو زنراج، ومنها إلى نهر الغابة.

ثم تمشى ثلاث مراحل فى مساكن العرب وهوارة ومكناسة وكبينة وورقلة، يطل عليها وعلى ما والاها جبل أَرْوَاس، وهو مسيرة سبعة أيام، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة، وهو على رأى الخوارج الإباضية[٢].

ومن هذا الجبل قام أبو يزيد مُخَلَّد بن كيداد النفزى الزناتى على أبى القاسم ابن عبيد الله، وفى هذا الجبل كان مستقر الكاهنة.

إلى مدينة باغاية[٣]، وهى حصن صخر قديم، حوله رَبَضٌ كبير من ثلاث نواح، وليس فيما يلى الناحية الغربية ربض إنما يتصل بها بساتين ونهر، وفى أرباضها فنادقها وحَماماتها وأسواقها، وجامعها داخل الحصن، وهى فى بساط من الأرض عريض كثير المياه، وجبل أوراس مُطل عليه.

---

(١) فى تاريخ إفريقيا والمغرب (أذنة) بالذال المعجمة صـ١١ وفى الأعلاق النفيسة ٣٥١ (أربة) وهو تحريف.

(٢) الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد فوَجَّه إليه عبد الله ابن محمد بن عطية، فقاتله بتبالة. وقيل إنَّ عبد الله بن يحيى الإباضِىّ كان رفيقًا له فى جميع أحواله وأقواله، قال: إنَّ مخالفينا من أهل القبلة كُفَّار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السِّلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرامٌ وحَرَامٌ قَتْلُهم وسَبْيُهم فى السِّرِّ غِيلَةً إلاَّ بعد نصب القتال. الملل والنحل ١/ ١٣٤.

(٣) بَاغَاية: مدينة كبيرة فى أقصى إفريقيا، بين مُجَّانة وقُسنطينة الهواء. مراصد الاطلاع ١/ ١٥٤.

ويسكن فى حصن هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة، وكلهم إباضية، وهم يظعنون فى زمن الشتاء إلى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج خوفا على نتاج إبلهم.

وإلى مدينة باغاية لجأ البربر والروم، وبها تحصَّنوا من عقبة بن نافع القرشى، فدارت بينهم حروب عظيمة وكانت الدائرة فيها على أهل باغاية، فهزمهم عقبة بن نافع وقتلهم قتلا ذريعا، ولجأ فلهم إلى الحصن وغنم منهم خيلا لم يروا فى مغازيهم أصلب ولا أسرع منها فى نتاج أوراس(١).

فرحل عنهم عقبة ولم يقم عليهم كراهة أن يشتغل بهم عن غيرهم، وأهلها اليوم كلهم رأى الإباضية.

وكيل الطعام بباغاية بالويبة، وهى أربعة وستون مداً بمدِّ النبى ﷺ. وهو قفيز ونصف قفيز قرطبى، وقفيز الزيت قروى وهو خمس ربع قرطبى، ورطل اللحم عندهم عشرون رطلا فلفلية.

ومن باغاية إلى مدينة مجَّانة(٢)، وهى كبيرة عليها سور طوب، وبها جامع وحمامات ومعادن كثيرة، منها معدن فضة للواتة يسمى الوريطسى، وتعرف بمجانة المعادن ولها قلعة مبنية بالحجر فيها ثلاثمائة وستون جبا قد تقدم ذكرها.

وهذه المدينة للعرب وحولها لواتة، وهذه القلعة تعرف بقلعة بسر بن أرطأة(٣) افتتحها عنوة، بعثه إليها موسى بن نصير، وبعث خمس غنيمتها إليه.

وبين باغاية ومجَّانة فندق مسكيانة ووادى ملاق، وهو واد صعب كثير الدهس وعر المخائص، وتسير من مجانة إلى مَرْمَاجنَّة(٤)، وهى مدينة لطيفة بها جامع وفندق وسوق وهى فى بساط مديد، وهذه طريق الصيف.

فأما طريق الشتاء فتأخذ من مسكيانة(٥) إلى مدينة تبسًّا(٦) لأن وادى ملاق تتسع

---

(١) تاريخ إفريقيا والمغرب ١٠ والروض المعطار٧٧.

(٢) انظر عنها: الروض المعطار ٥٤٠ والاستبصار ١٦٢.

(٣) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٠.

(٤) مَرْماجنَّة: قرية بإفريقيا لهوَّارة، قبيلة من البربر. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٦٠.

(٥) انظر عنها: الروض المعطار ٣٠٤ والاستبصار ١٦١.

(٦) تَبِسَّة: بلد مشهور من إفريقيا، بينه وبين قفصة ستّ مراحل فى قفر سبيبة، وهو بلدٌ قديمٌ به آثار الملوك، وقد خرُب الآن، ولم يبْق با إلاّ مواضع يسكنها الصعاليك لحُبِّ الوطن، لأن =

من سلوك تلك الطريق.

ومدينة تبسًا مدينة كبيرة كثيرة الفواكه أولية مبنية بالصخر الجليل، أخرب بعض سورها أبو يزيد مخلد بن كيداد، وهى على نهر كبير كثير الفواكه والأشجار لا سيما الجوز، فإن المثل يضرب بجلالته هناك وكبره وطيبه.

وفيها أقباء يدخلها الرفاق بدوابهم فى زمن الثلج والشتاء، يسع القبو الواحد ألفى دابة وأكثر.

ومنها إلى مدينة سبيبة[(١)]، أولية مبنية بالحجارة أى بالصخر، بها جامع وحمامات تطرد فيها المياه العذبة، تطحن عليها الأرحاء، وهى كثيرة البساتين، ويجود فى أرضها الزعفران، وحواليها جبال كثيرة يسكنها من العرب قوم يُعرفون ببنى المغلس وبنى الكسلان، وحولهم قبائل من البربر كثيرة من هوارة ومرنيسة.

وفى الطريق إلى سبيبة مرصد يعرف بعين التينة وعين تعرف بعين أربان ماء يجرى من قنى للأول.

وبشرقى هذا العين جبل منيف محدد فيه شق وفى ذلك رجل مذبوح معروف هناك قبل فتوح إفريقية لا يحل منه قليل ولا كثير، ولا نال منه سبع ولا دابة، ويقال إنه من الحواريين، وقد تقدم ذكره.

ومن مدينة سبيبة إلى قرية الجهنيين، وهى قرية كبيرة آهلة كثيرة الفنادق والحوانيت ولها أشجار وفواكه، بينها وبين القيروان مرحلة، وعليها جبل يسمى مَمْطُور[(٢)]. لأن معاوية بن حديج نزله فأصابه مطر فقال: جبلنا ممطور.

ومنها إلى منزل يقال له الهرى يجاوره مرصد، ومنه إلى كُدْيَةَ الشعير، إلى مدينة القيروان.

= خيرها قليل، وبينها وبين سطيف ستّ مراحل فى بادية يسكنها العرب، يُعْمَلُ بها بُسُط جليلة، محكمة النسج، يقيم البساط منها مُدَّة طويلة. معجم البلدان (تَبِسَّهْ) ١/ ٤٣ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٥٢.

(١) انظر عنها: الروض المعطار ٣٠٤ والاستبصار ١٦١.

(٢) ممطور: جبلٌ على مرحلة من القيروان، نزله بعض الأمراء الداخلين لإفريقيا فأصابه المطر، فقال: إنَّ جبلنا هذا لممطور، فغلب عليه هذا الاسم. رحلة التجانى ٣٢ والروض المعطار ٥٤٧.

وقال محمد بن يوسف: من مدينة سبيبة إلى ساقية مَمَّس[١]، قرية عامرة آهلة بها مسجد وفندق، ثم قرية المشفق كبيرة آهلة بها ماجلان وبئر طيبة عمقها ثلاثون قامة، ثم قصر الخير، فيه شريب، ثم قصر الزرادية ويعرف بالخطارة عامر آهل، ثم مدينة القيروان.

* * *

الطريق من مدينة فاس إلى سِجِلْمَاسة

ومدينة فاس إلى مدينة صفروى مرحلة، وهى مدينة مسورة ذات أنهار وأشجار ومنها إلى الأصنام مرحلة، ومنها إلى موضع يقال له المزى مرحلة، وهو بلد مكلاتة. ومنها إلى تاسغمرت مرحلة، وهى قرية على نهر، ومنها إلى موضع يقال له أمغاك مرحلة كبيرة نحو ستين ميلا.

ومنها تدخل فى سِجِلْماسة بين أنهار وثمار، ثلاث مراحل إلى مدينة سيبة.

وطريق آخر من سجلماسة إلى مدينة فاس، ذكرها محمد بن يوسف: هى مدينة سجلماسه إلى موضع يقال له أرفود جبل موت لا عمارة حوله، فيه همة مرحلة.

ومنه إلى موضع يقال له الأحساء: رمل، يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه فى بلد زناتة مرحلة.

ومنه إلى حصن يرارة مرحلة، عامر آهل، به سوق وجامع، وله جدول ماء، وهو بلد يحسن فيه الغنم، ويقال إن أصول أغنامهم من قيس من أرض فارس، وصوفها من أجود الأصواف، ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالا مرحلة.

ومنه إلى جبل درن المعروف بسنجنفوا، وقد ذكرناه فى عدة مواضع من هذا الكتاب، وهو كثير الصنوبر والأرز والبلوط مرحلة.

(١) انظر عن مَمَّس: تاريخ إفريقيا والمغرب ١٨ والبيان المُغرِب ١/ ٣٢.

ومنه إلى مطماطة أمسكور[1]: بلد كبير على نهر ملوية وهو منه فى قبلية، وهو بلد كثير الزرع يسقى كله من نهر ملوية كثير البقر والغنم، وبها جامع وسوق مرحلة.

ومنه إلى موضع يقال له سوق لميس فيه سوق ومسجد، وحوليه مياه سائحة عامر آهلة كان لمدين بن موسى بن أبى العافية مرحلة.

ومنه إلى مغيلة أبى تجامان: قرار يقوم من القفرية له ربض كبير، وبنو تجامان على السُّنَّة والجماعة ساكنون فى ربوة تلاصق ربضهم مرحلة.

وتسير منها فى جبال شامخة إلى مغيلة، حصن كبير له جامع وسوق كثير الأنهار والثمار، معظم شجر التين ومنه يحمل زبيبا إلى فاس مرحلتان.

إلى لواتة مدين، وقصبة لواتة منيعة لا ترام على نهر سبوا مرحلة، إلى فاس.

* * *

ذكر مدينة سجلماسة[2]

مدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا.

ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفله مبنى بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبى القاسم من ماله لم يشركه فى الإنفاق عليه أحد، أنفق فيه ألف مُدْيٍ طعام. وله اثنا عشر بابا، ثمانية منها حديد، وكان بناء

(١) الروض المعطار ٥٤٣ والاستبصار ١٩٣.

(٢) سِجِلْمَاسة: اقليمٌ يستمدُّ اسمه من المدينة الرئيسية فيه ويمتد على طول وادزيز ابتداء من الحتك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان نزولاً نحو الجنوب على مسافة ١٢٠ ميلاً حتى تخوم صحراء ليبيا، وتسكنه قبائل بربرية مختلفة إمَّا زنانية أو صنهاجية أو هوارية، وكان فى القديم خاضعًا لسلطان عاهل مستقل، لكنه خضع بعد ذلك ليوسف ملك لَمْتُونة، ثم انتقل للموحّدين. انظر: وصف إفريقيا ٢/ ١٢١ وتاريخ المغرب وحضارته ٣٥٨-٣٦٣ والبلدان لليعقوبى ٣٥٩.

اليسع له سنة تسع وتسعون ومائة وارتحل إليها سنة مائتين وقسمها على القبائل على ما هى عليه اليوم.

وهم يلتزمون النقاب، فإذا حصر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله.

وهى على نهرين، عنصرهما من موقع يقال له أجلف، تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها.

وجامعها متقن البناء، بناه اليسع فأجاده، وحماماتها رديئة البناء غير محكمة العمل.

وماؤها زُعَاقٌ[1]، وكذلك جميع ما ينبط من الماء بسجلماسة، وشرب زروعهم من النهر فى حياض كحياض البساتين، وهى كثيرة النخيل والأعمال، وجميع الفواكه وزبيب عنبها المعرش لا تناله الشمس لا يذيب إلا فى الظل ويعرفونه بالظلى، وما أصابته الشمس منه ذيب فى الشمس.

ومدينة سجلماسة فى أول الصحراء لا يعرف فى غربيها ولا فى قبليها عمران، وليس بسلجماسة ذباب، ولا يتجذم من أهلها أحد، وإذا دخلها مجذم توقفت عنه علّته.

وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب ويأكلونها[2] كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية ويأكون الزرع إذا أخرج شطأه وهو عندهم مستطرف.

والمخدرون عندهم الكنافون، والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزهم هذه الصناعة.

ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين فى صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين لا يطمأن بهم منزل، وهو مشرفة من صنهاجة، ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادى درعة، وبين سجلماسة ووادى درعة مسيرة خمسة أيام.

---

(١) الزُّعَاق من الماء: المُرُّ الغليظ لا يُطَاقُ شُرْبُه، ومن الطعام: الكثير الملح. المعجم الوسيط (زعق) ٣٩٥/١.

(٢) الروض المعطار ٣٠٦.

وملك بنو مدرار سجلماسة مائة سنة وستين سنة، وكان فيها أبو القاسم سمجو بن واسول المكناسى أبو اليسع المذكور، وجد مدرار لقى بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه، وكان صاحب ماشية وكان كثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة فاجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود[١] وولُّوه أمرهم، فشرعوا فى بنيان سجلماسة، وذلك سنة أربع ومائة.

وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأندلس، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة، وموضع سجلماسة إذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون لقرب.

وكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها، ثم تمدنت.

والأول أصح فى عمارتها، وأما مدرار فلا شك فيه أنه كان حدادا لأن ولده القائمون بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك.

فأول من وليها عيسى بن يزيد[٢]، ثم أنكر أصحابه الصُّفْرِيَّة[٣] عليه أشياء فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه فى مجلس عيسى: السودان كلهم سراق حتى هذا، وأشار إلى عيسى[٤].

---

(١) يقول د/ حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٥٨ «وقد رأينا فيما ذكرنا من تاريخ الدولة الصفرية المدرارية فى سِجلْماسة، أنَّ تلك الجماعة كان يترأسها أول الأمر رجلٌ أسود يُسَمَّى عَيسى بن يزيد الأسود، ويقالُ إنَّ أهل الأندلس اجتمعت عليه واختارته إمامًا، والغالبُ أنَّ الجماعة الصفرية التى استقرت هناك وجدت المكان مسكونًا بجماعات من السود هم الذين أيَّدوا إمامة هذا الرَّجُل».

(٢) تاريخ إفريقيا والمغرب ٣٥٨.

(٣) الصُّفْرِيَّةُ: نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر، وهم فرقةٌ من الخوارج أكثر تسامحًا واعتدالاً مع المخالفين لمذهبهم، فهم لا يرون إباحة دماء المسلمين، ولا يَرَوْن جوازَ سَبْى النساء والذريّة، بل لا يرون قتال أحدٍ سوى جيش السلطان.

(٤) هو عيسى بن يزيد المكناسىّ: مؤسس الدولة المدرارية فى سجلماسة راجع: فى التاريخ العباسى والفاطمى ٢٢٨.

فأخذوه وشدوه وثاقا إلى شجرة فى رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض، فسمى ذلك الجبل جبل عيسى إلى اليوم، ووليهم خمسة عشر عاما.

ثم ولوا أبا القاسم سمجو[١] بن مزلان بن نزول المكناسى، فلم يزل واليا عليهم إلى أن مات فجأة فى آخر سجدة من صلاة العشاء سنة ثمان وستين فكانت ولايته ثلاث عشرة سنة.

ووليها ابنه أبو الوزير إلياس بن أبى القاسم إلى أن قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع فخلعه سنة أربع وسبعين ومائة.

فولى أبو المنتصر، وكان جبارا عنيدا فظا غليظا، فظفر بمن عانده من البربر وذللهم وأخذ خمس معادن درعة وأظهر الصفرية، وبنى سور سجلماسة على ما تقدم، وتوفى سنة ثمان ومائتين.

وولى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع - ومدرار لقب - فلم يزل واليا إلى أن اختلف الأمر بين ولديه ميمون المعروف بابن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم وابنه ميمون المعروف بابن ثقية.

فتنازعا الأمر بينهما وتقاتلا ثلاثة أعوام، ومال مدرار مع ابنه ميمون ابن الرستمية فأخرج ميمون بن ثقية من سجلماسة.

وولى ابن الرستمية وخلع أباه، ثم قام عليه أهل سجلماسة فخلعوه وأرادوا تقديم ميمون بن ثقية.

فأبى أن يتآمر على أبيه فأعادوا أباه مدرارا، ثم أنس أهل سجلماسة أنه استدعى ابنه ابن الرستمية فيمن أطاعه من درعه ليوليه، فحاصروا مدرارا وخلعوه وقدموا ابنه ابن ثقية وهو المعروف بالأمير، فلم يزل عليهم واليا إلى أن مات سنة ثلاث وستين ومائتين، وفى إمرته مات مدرارا أبوه مخلوعا.

ووليها محمد بن ميمون إلى أن توفى فى صف سنة سبعين، ثم وليها اليسع بن المنتصر بن أبى القاسم إلى أن فر عنها لما تغلب عليها أبو عبد الله الشيعى فى ذى

---

(١) من تلاميذ عكرمة مولى عبد الله بن عباس، تولىّ الإمامة سنة ١٥٥هـ بعد إزاحة عيسى بن يزيد. تاريخ إفريقيا والمغرب ٣٥٩.

الحجة، وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين.

وولى عليها الشيعى إبراهيم بن غالب المزاتى، فقتله أهل سجلماسة ومن كان معه من رجال الشيعى بعد خمسين يوما.

ووليها واسول وهو الفتح بن الأمير ميمون، وذلك فى ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وتوفى فى رجب سنة ثلاثمائة، فوليها أخوه أحمد إلى أن حاصره فيها مصالة بن حبوس افتتحها عنوة فقتله، وذلك فى المحرم سنة تسع وثلاثمائة.

وولى مصالة أمرها المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار إلى أن توفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ووليها بعده ابنه محمد بن المعتز إلى أن توفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ووليها ابنه أبو المنتصر سمجو بن محمد وهو ابن ثلاث عشر سنة، تدير أمره جدته فمكث شهرين، وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح ابن الأمير فحاربه وتغلب عليه وأخرجه وتملك سجلماسة.

وكان محمد بن الفتح سنيا على مذهب المالكية يحسن السيرة ويظهر العدل، إلا أنه تسمى بأمير المؤمنين سنة اثنتين وأربعين وتلقب بالشاكر لله. وضربت بذلك الدراهم والدنانير فمكث إلى أن قربت منه عساكر أبى تميم معد مع قائده جوهر الكاتب، فخرج عن سجلماسة بأهله وماله وولده وخاصته وصار بتاسجدالت: حصن منيع على اثنى عشر ميلا من سجلماسة.

ودخل جوهر سجلماسة وملكها، ذلك سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وخرج محمد من الحصن فى نفر يسير من أصحابه إلى سجلماسة ليعرف الأخبار مستترا، فعرفه قوم من مطغرة فى بعض الطرق فأخذوه فأتوا به إلى جوهر فى رجب من ذلك العام.

ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام[1] لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة فيرتفع ما تناثر منه فى تلك الشقوق، فإذا كان فى العام الثانى حرث بلا بذر وكذلك فى الثالث.

(١) الروض المعطار ٣٠٦ـ٣٠٧.

وقمحهم رقيق صينى، يسع المد منه مُدَّ النبى ﷺ خمسة وسبعين ألف حبة، ومديهم اثنا عشر قنقلاً، والقنقل ثمانى زلافات، والزلافة ثمانية أمداد بمد النبى ﷺ.

ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددًا[1].

ومن سجلماسة إلى مدينة القيروان ست وأربعون مرحلة، وقال محمد بن يوسف ثلاث وخمسون مرحلة.

فمن سجلماسة إلى قرار الأمير لبنى مدرار، إلى حصن ابن مدرار، إلى جبل اكسرايغ، إلى مدينة أمسكور لمطماطة وهم على مدرارة لصاحب سجلماسة، وقد تقدم ذكرها، وبينها وبين سجلماسة خمس مراحل، ومنها إلى مدينة جراوة ست مراحل فى عامر وغامر، منها موضع يعرف بالصدور منه تخرج للطريق إلى مدينة مليلة، وهو موضع معروف قريب من العمارة على ماء طيب، ثم من جراوة إلى القيروان كما تقدم.

فأما الطريق من سجلماسة إلى مدينة مليلة فمن سجلماسة إلى الصدور كما ذكرنا، ثم إلى أجرسيف: قرية عامرة على نهر ملوية.

إلى جراوة موضع كثير ما ينزله البربر بالأخصاص، ويروى فيه حدثان وأن بنى أمية سيعمرونه، إلى قلوع جارة وهى مدينة عامرة فى الجبل على ماء ملح وقد تقدم ذكرها، إلى مدينة مليلة.

فذلك خمس عشر مرحلة، وقد تقدم ذكر مليلة.

* * *

(١) انظر عن الرخاء فى سِجِلْماسة ما قاله الدكتور حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٠.

الطريق من سجلماسة إلى مدينة أغمات

من سجلماسة إلى تيحمامين يومان، وفي تيحمامين معدن النحاس، ومن تيحمامين إلى وادى درعة يومان، وعلى وادى درعة شجر كثير وثمار عظيمة وهناك شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء، وبهذا التاكوت تدبغ الجلود الغدامسية.

وعلى وادى درعة سوق فى كل يوم من أيام الجمعة فى مواضع مختلفة منه معلومة، وربما كان عليه فى اليوم الواحد سوقان، وذلك لبعد مسافته وكثرة الناس عليه، وطول عمارته المتصلة سبعة أيام.

ومن وادى درعة إلى موضع يقال له أدامست، ومنه إلى ورزازات[١] يومان، وهو بلد هسكورة، وتمشى فى بلد هسكورة أربعة أيام إلى منازل قبيل يقال له هزرجة، وهناك جبل يقال له جبل هزرجة، فيه أجناس من الياقوت المتناهى فى الجودة وحسن اللون يتكون على حجارة الجبل إلا أنه خشن ضريس كالسفن، لا يأخذه العمل ولا ينفعل للسنادج، وهو كثير موجود ثمة، ومن هناك مسافة يوم إلى أغمات.

* * *

ذكر مدينة أغمات[٢]

وهى مدينتان سهليتان إحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة وبها مسكن رئيسهم وبها ينزل التجار والغرباء، وأغمات إيلان لا يسكنها غريب، وبينهما ثمانية أميال.

---

(١) ورزازات: بالمغرب، قريب من وادى درعة، وهو بلد هسكورة. الروض المعطار ٦٠٩.

(٢) أغمات: ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهى مدينتان متقابلتان، كثيرة الخير، ومن وسائها إلى جهة البحر المحيط السُّوس الأقصى بأربع مراحل، ومن سِجِلْماسة ثمان مراحل فى بحر المغرب، وهى بلد أجمع لأصناف الفواكه. مراصد الاطلاع ١/ ٩٨ ومعجم البلدان (أغمات) ١/ ١٨١ والروض المعطار ٤٦-٤٧.

ولها نهر لطيف جريته من القبلة إلى الجوف ماؤه زعاق يقال له تاقيروت.

وحولها بساتين ونخل كثير، وهو بلد واسع يسكنه قبائل معمورة فى قصور وديار وأشجار، وهو راخى الأسعار كثير الخير يحمل إليه من مدينة نفيث تفاح جميل يباع منه وفربفل بنصف درهم، إلا أنه وخم الهواء، ألوان سكانه مصفرة، كثير العقارب القتالة التى لا يداوى سليمها.

وبها أسواق جامعة، فسوق أغمات وريكة يقوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ جميع ذلك فى ذلك اليوم[1].

وكانت إمرة أهل أغمات دولا بينهم، يتولى الرجل منهم سنة ثم يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق، كذلك ذكر محمد بن يوسف القيروانى.

وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد ولا يخرج منه السفن صادرة إلا فى زمان الأمطار وتكدر الهواء واغبرار الجو، فحين إذن تصدق لهم الرياح البرية، فإن تمادى ذلك لهم سلموا، وإن أصحى الجو وصفا الهواء هبت لهم الرياح البحرية من الغرب فيهيج عليهم البحر ويقذفهم فى البرارى، فقلما يسلمون.

* * *

الطريق من مدينة أغمات وريكة إلى رباط قوز

من وريكة إلى نفيس خمسة وثلاثون ميلا، ومن نفيس إلى شفشاون ثلاثون ميلا، ومنها إلى مرامر ثلاثون ميلا، ومنها إلى رباط قوز خمسة وعِشرون ميلا، فذلك مائة وعشرون ميلا.

* * *

(١) انظر: الروض المعطار ٤٦ـ٤٧.

الطريق من مدينة أغمات إلى مدينة فاس

من أغمات إلى موضع يعرف بأبواب عبد الخالق بن سى، وهى أحقاف رمل: مرحلة.

ومنها إلى فحص أفيح فسيح يعرف بفحص نزار، ونزار بالبربرية: الغربال شبه به لأنه مدور، وهو موضع مجوف: مرحلة.

ومنه إلى وادى وانسيفن واد كبير، انبعاثه من موضع يقال له حدود بين بلد زواغة ومدغرة، ويقع فى البحر المحيط، ويعبر على الزقاق المنفوخة مرحلة.

ومنه إلى فحص يمللوا مديد واسع مرحلة، ومنه إلى موضع يعرف ببنى وارث، وهو كثير شجر الغربيون، وهى شجرة صغيرة شوكاء لها عساليج تسيل منها لبن مسهل: مرحلة.

ومنه إلى بلد زواغة[1] مرحلة، ومنها إلى بلد حصن داى، وهو فى وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر، ولهم سوق حافلة يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة بضروب الأمتعة والمتاجر مرحلة.

ومنه إلى وادى درثة نهر كبير يقع فى نهر وانسيفن المذكور مرحلة، ومنه إلى مغيلة[2]، وكان مقدمهم موسى بن جليد، وكان شديد الأيد يمسك بذنب الفرس والجواد ويهزه فارسه فلا يكون له حراك، مرحلة.

ومنه إلى موضع يعرف بأوزقور كان يسكنه قوم يعرفون ببنى موسى، منه ربضية الأندلس، فاستفسدوا إلى من جاورهم وأساءوا عشرتهم، فحاربوهم فغلب الأندلسيون وقتل منهم كثير، وافترق باقيهم ببلاد أغمات، وبقى منهم بأوزقور نفر يسير بالأمان، فهم بها إلى اليوم، مرحلة.

ومنها إلى سوق فنكور، سوق عامرة حافلة يعمل بها برانس سود، حصينة لا ينفذها الماء: مرحلة، ومنها إلى ولهاصة مرحلة، إلى كزناية مرحلة، إلى مدينة

(١) زواغة: من بلاد إفريقيا، سُمِّيت بزواغة: قبيلة من البربر. الروض المعطار ٢٩٥.

(٢) انظر: الروض المعطار ٤٧٠.

ورزيغة[١] وهى آهلة كثيرة المياه والثمار والخير، يباع فيها ألف حبة اجاص بربع درهم، قتل ميسور الفتى أهلها وسبى نساءها بعد زواله عن مدينة فاس سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ومن ورزيغة إلى مدينة أغيفى، ومعنى أغيفى حجارة يابسة لأنها مبنية بالحجر بغير طين، وهى اليوم خالية وكان القوم الذين بنوها وسكنوها قوما من ربضية الأندلس أيضا فأجلاهم عنها البربر إلى وليلى، فهم بها بقية مسيرة مرحلة.

فمنها إلى ماسيتة، بلد كبير، ويحسن فيه القطن ويجود، وبه سوق لطيفة ومنها إلى فاس مرحلة، فذلك ثمانى عشرة مرحلة.

* * *

الطريق من مدينة درعة إلى سجلماسة

مدينة درعة[٢] يقال لها تيومتين، وهى قاعدة درعة، وقد تقدم ذكر وادى درعة وأن منبعثه من جبل درن.

وهذه المدينة آهلة عامرة بها جامع وأسواق جامعة ومتاجر رابحة وهى فى شرف من الأرض، والنهر منها بقبليتها وجريته من الشرق إلى الغرب ويهبط لها من ربوة حمراء.

وكان صاحبها على بن أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس، فمن مدينة تيومتين إلى تامجائث مرحلة، وهو موضع ينبت شجرا يسمونه تامجائث وهو شجر يعظم ورقه هدب كورق الطرفاء، ومنه آنية سجلماسة، ودرعة وما والاهما.

ومن هناك إلى أمان تيسن مرحلة، وتفسيره الماء والملح.

ومنه إلى تنودادن مرحلة، وتفسيره بئر الأيائل، وهناك معدن نحاس. ومنه إلى

---

(١) ورزيغة: مدينة بين فاس وأغمات، كثيرة المياه والثمار، وهى آهلةٌ كثيرة الخيرات، تباع فيها ألف حبّة إِجَّاص بربع درهم، قتل مَيْسُور الفتى أهلها وسبى نساءها بعد زواته عن مدينة فاس سنة أربع وعشرين وثلاثمائة. مراصد الاطلاع ٦٠٨.

(٢) راجع فيها: الروض المعطار ١٣٥.

أجروا مرحلة، وهذا كله بلد سرطة قبيل من صنهاجة، ومن هناك إلى تونين أن وجليد تفسيره آبار الأمير، مرحلة.

ومنه إلى أمان يسيدان، تفسيره ماء النعام، ومنه إلى أجران ووشان: أى فدان الذئب، إلى أمرغاد: مرحلة، وأمرغاد آخر بساتين سجلماسة، ومنها إلى سِجلماسة ستة أميال.

* * *

الطريق من مدينة تامدلت إلى مدينة أودغست [١]

من تامدلت إلى بئر الجمالين مرحلة، وهذه البئر عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن بن حبيب [٢].

ومنها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة، ثم تسير فى جبل يسمى أزور ثلاثة أيام، محجر تحفى فيه الإبل بنبت أم غيلان، ومن خرج فيه عن الطريق أصاب زبر حديد مثقبة لا تذيبه النار.

وهذا الجبل كثير الثعابين، طوله مسيرة عشرة أيام من أول طريق سجلماسة إلى جانب البحر المحيط.

ويقال إن جبل أزور متصل بجبل نفوسة من جبال أطرابلس، وأحسبه جبل درن المذكور قبل هذا الذى ينبعث من تحته وادى درعة، فتسير فى هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس آبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٠.

(٢) هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى: أميرٌ من الشجعان الدهاة، كان مع أبيه بإفريقيا. وقتل أبوه سنة ١٢٢هـ فسار إلى الأندلس وحاول اقتحامها، فلم يفلح، فعاد إلى تونس، فأقام إلى سنة ١٢٦هـ، فبايعه أهلها، فسار بهم إلى القيروان، فملكها، وغزا تلمسان وصقلية وسردانية، فغنم غنائم عظيمة، ودوَّخ المغرب ولم ينهزم له عسكر قط. قتله أخواه: إلياس وعبد الوارث غيلة فى قصره بالقيروان سنة ١٣٧هـ، وكانت إمارته استقلالاً عشر سنين وسبعة أشهر. الأعلام ٣/٣٠٣ والبيان المغرب ١/٦٧ والكامل ٥/١٤٨ والحلة السيراء ٥١الاستقصا ١/٥٢.

ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى بئر كبيرة يقال لها وين هيلون، ثم تمشى ثلاثة أيام فى أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفاء تحت الرمل من بقية الأمطار، إلى ماء نزر يقال له تازقى، وتفسيره البيت.

ثم تسير منه إلى بئر أنبطها عبد الرحمن بن حبيب واحتفرها فى حجر أدعج صلب طولها أربع قامات مرحلة.

ثم تسير منها إلى بئر يقال لها ويطونان، وهى كبيرة لا تنزف، ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والأنعام، وهى من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا طولها ثلاث قامات، ثلاث مراحل.

ثم تمشى منه فى أربع مراحل إلى موضع يقال له أوكازنت: أرض زرقاء ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث.

ثم تمشى فى مجابه جبال رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أودغست، أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين آبار قريبة الرثاء فيها العذب والشريب وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش.

وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصدا لهم، لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه.

ثم تمشى منه فى بلد واران خمسة أيام مجابة فى كثبان رمل إلى بئر عظيمة فى حد بنى وارث: قبيل من صنهاجة، على تلك البئر شجر يقال له السقنى، وهو شجر الأهليلج إلا أنه لا يثمر.

ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف آبار ملحة تردها أذوات لصنهاجة فتصلح عليه وتصح به، وكل ماء ملح فموافق للإبل.

ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له أقرتندى، تفسيره: مجتمع الماء. فيه أصناف كثيرة من الشجر وفيه الحناء والحبق.

ثم تسير منه يوما فى جبل يقال له أزجونان يقطع فيه السودان، ثم تمشى يوما فى رمال شجرة إلى ماء يقال له بئر واران ماؤها زعاق.

ثم تمشى فى أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار ثلاثة أيام

ثم تسير منه إلى شرف عال مشرف على أودغست فيه طير كثير يشبه الحمام واليمام إلا أنه أصغر رؤوسا وأغلظ مناقر، وفيه أشجار الصمغ الذى يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج، مرحلة إلى أودغست.

* * *

ذكر مدينة أودَغَشت [١]

وهى مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئا، بها جامع ومساجد كثيرة آهلة فى جميعها المعلمون للقرآن، وحولها بساتين النخل، ويزرعون فيها القمح بالقوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقاثى تجود عندهم.

وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا، وبها جنان حناء لها غلة كبيرة، وبها آبار عذبة والغنم والبقر أكثر شىء عندهم، يشترى بالمثقال الواحد عشرة أكبش وأكثر.

وعسلها أيضا كثير، يأتيها من بلاد السودان، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة، وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبابعهم بالتبر، وليس عندهم فضة.

وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة، وهو بلد وبىء، ألوان أهله مصفرة وأمراضهم الحميات، والطحال لا يكاد يخلو من إحدى العلتين أحد منهم.

وتجلب إليها القمح والثمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد، وسعر القمح عندهم فى أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك الثمر والزبيب، وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار.

---

(١) انظر فيها: مراصد الاطلاع ١/ ١٣٠ ومعجم البلدان (أودغشت) ١/ ٢٢١.

وبها سودانيات طباخات محسنات، تباع الواحدة بمائة مثقال وأكثر، تُحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك.

وبها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثينات القدود، لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقات الفروج، المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا.

قال محمد بن يوسف: أخبرنى أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسى شيخ من أهل الحج والخير قال: أخبرنى أبو رستم النفوسى وكان من تجار أودغست أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها، وكذلك يفعلن فى أكثر حالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن، ورأى ولدها طفلا يلاعبها ويدخل من تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم رِدفها ولطف خصرها.

والحيوان الذى يعمل منه الدرق حوالى أودغست كثير جدا، ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنة، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم.

والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود ذهب الأرض وأصحه.

وكان صاحب أودغست فى عشر الخمسين وثلاث مائة تين يروتان بن ويسنوا ابن ترار: رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون إليه الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين فمن مثلها فى عمارة يعتد فى مائة ألف نجيب، واستمده معر بن ملك ماسين على ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب، فدخلت بلاد أوغام وعساكره غافلة، فغنمت البلد وأحرقته.

فلما نظر أوغام إلى ما حلَّ ببلده، هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله عن دابته وجلس عليها، فقتلته أصحاب تين يروتان.

فلما عاينت نساء أوغام إليه قتيلا تردَّين فى الآبار، وقتلن أنفسهن بضروب القتل أسفا عليه، وأنَفَةً من أن يملكهن البيضان.

* * *

الطريق من أودغشت إلى سجلماسة

فأما الطريق من أودغشت إلى سجلماسة، فمن أودغشت إلى تامدلت[1] على ما ذكرناه أيضًا، وذلك أربعون مرحلة.

ومن تامدلت إلى سجلماسة على ما ذكرناه قبل هذا ـ إحدى عشرة مرحلة فذلك إحدى وخمسون مرحلة. وبين أودغشت ومدينة القيروان مائة مرحلة وعشر مراحل.

* الطريق من مدينة أغمات إلى السُّوس على ما ذكره مؤمن بن يُومر الهوارى من أغمات وريكة إلى مدينة نفيس، وهى تعرف ببلد النفيس، كثير الأنهار والثمار، ليس فى ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظرا، وهى قديمة أوَّلية، غزاها عقبة بن نافع ـ صاحب رسول الله ـ ﷺ، وحاصر بها الروم والنصارى ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى افتتحها وبنى بها مسجدا هو باق إلى اليوم.

وأصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنتين وستين.

وهى اليوم عامرة، بها جامع وحمام وأسواق جامعة، بينها وبين البحر مسيرة يوم، يسكنها قبائل من البربر، أكثرهم مصمودة.

وكان صاحبهم حمزة بن جعفر الذى نُسب إليه السوق من بنى عبيد الله بن إدريس بن إدريس، مرحلة.

ومن مدينة تفيس إلى مدينة أنيفن مرحلة، وهى مدينة فى بطحاء كثيرة المياه والفواكه.

ومنها إلى مدينة تامرورت مرحلة، وهى مدينة لطيفة طيبة.

ومنها ترقى فى جبل درن، وهو جبل معترض فى الصحراء، معمور بقبائل

---

(١) تَامَدَلْت: بلدٌ من بلاد المغرب مشرقى لمطة. مراصد الاطلاع ١/ ٢٥٠ والبلدان (تامدلت) ٤٢٦/١.

صنهاجة وغيرها، وهو الجبل الذى يقال إنه مُتصل إلى المقطم بمصر.

ومن هذا الجبل ينزل إلى بلاد السوس.

وذكر محمد بن يوسف فى كتابه: أن تامرورت هو أول صعود هذا الجبل ويقال إنه أكبر جبال الدنيا، وهو يتصل بجبل أوراس، وبجبل نفوسة المجاور لأطرابلس.

وفى الحديث: «أن فى المغرب جبلاً يقال له درن، يُزَفُّ يوم القيامة بأهله إلى النار كما تُزَفُّ العروس إلى بعلها»[١].

قال: وتمشى فى الجبل إلى موضع يقال له الملاحة، وفى أعلى الجبل نهر عظيم كبير، والجبل كثير الأشجار والشعراء والثمار.

ومن الجبل إلى موضع يعرف بأسطوانات أبى علىّ فى الجبل أيضا.

وعن يمين هذا الموضع على مسيرة يوم الموضع المعروف بتازرارت، وفيه معدن الفضة، قديم غزير المادة.

ومن أسطوانات أبى على إلى قبيل من البربر، يعرفون ببنى ماغوس ولهم سوق عامرة.

وعن يمين بنى ماغوس قبيل يقال لهم بنو لماس.

وهم كلهم روافض، ويعرفون بالبجليين، نزل بين ظهرانيهم رجل يجلى من أهل نفطة قسطيلية، قبل دخول أبى عبيد الله الشيعى إفريقية، يقال له: محمد بن ورسند، ودعاهم إلى سب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأحل لهم المحرمات، وزعم أن الربا بيع من البيوع، وزادهم فى الآذان بعد «أشهد أن محمدا رسول الله»، «أشهد أن محمدا خير البشر»، ثم بعد: «حى على الفلاح»، «حى على خير العمل» آل محمد خير البرية».

وهم على مذهبه إلى اليوم، وأن الإمامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين وكان صاحبهم إدريس بن القاسم بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس».

---

(١) حديث منكر، لا أصل له.

فإن صح الحديث الذى ذكرنا، فإن المراد به هؤلاء. والله أعلم.

ويلى بنى لماس قبيل من البربر فى جبل وعر، مجوس، يعبدون كبشا، لا يدخل أحد منهم السوق إلا مستترا.

ومن بنى ماغوس إلى إيجلى[1]: قاعدة بلاد السُّوس[2] ومدينته مرحلة، وهى مدينة على نهر كبير كثير الثمر وقصب السكر، ومنها يحمل السكر إلى جميع بلاد المغرب.

وعلى هذا الوادى أسواق كثيرة إلى البحر المحيط. ويقال: إن الذى جلب الساقية إلى مدينة السوس عبد الرحمن بن مروان، أخو محمد الجعدى. وإنه هو الذى عمر وادى السوس، إلى وادى ماسّت[3]، مسيرة يومين عليه قرى كثيرة، وهو ينصب فى البحر المحيط.

وماسّت: التى أضيف إليها الوادى رباط مقصود عندهم، له موسم عظيم ومجمع جليل، وهو مأوى للصالحين.

ومن وادى السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل فى عمارة جزولة ولمطة.

ومدينة نُول[4] آخر مدن الإسلام، وهى فى أول الصحراء، ونهرها يصب فى البحر المحيط.

* * *

(١) إيجلى: هو قاعدة بلاد السُّوس الأقصى، وهى مدينة كبيرة قديمة فى سهل من الأرض على نهر كبير، وهى كثيرة البساتين والتمر وجميع الفواكه وقصب السكر بها كثير، افتتحها عقُبة بن نافع عند دخوله بلاد المغرب وأخرج منها سَبْيًا لم يُرَ مثله حُسْنًا. الروض المعطار ٧١ ومراصد الاطلاع ١/ ١٣٦.

(٢) السُّوس: بلد بالمغرب، كان الروم يسمُّونه قمُّونيه، وقيل كورة مدينتها طنجة، وبالمغرب موضع يُسَمَّى السُّوس الأقصى: كورة مدينتها طَرْقَلة بينها وبين السُّوس الأدنى مسيرة شهرين. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٥.

(٣) الروض المعطار ٥٢٢.

(٤) انظر فيها: الروض المعطار ٥٨٤.

ذكر مدينة نول

ومن مدينة نول إلى مدينة درعة: ثلاثة مراحل، ومدينة إيجلى: مدينة كبيرة سهلية، بغربيها نهر كبير جار من القبلة إلى الجوف، عليه بساتين كثيرة متصلة ولم يتخذوا قط عليه رحى، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك، قالوا: كيف يسخر هذا الماء العذب فى إدارة الأرحاء.

وهى كثيرة الفواكه والخير، وربما بيع حمل التمر بها بدون كراء الدابة من البستان إلى السوق.

وقصب السكر أكثر شىء، بها يحمل الرجل بربع درهم منه ما يؤذيه ثقلاً، ويعمل بها السكر كثيرًا. وقنطار سكرها يبتاع بمثقالين وأقل.

ويعمل بها النحاس المسبوك، يتجهَّز به إلى بلاد الشرك، وبها مسجد جامع وأسواق وفنادق. والذى افتتحها عقبة بن نافع، وأخرج منها سبيًا لم ير مثله حسنًا وتمامًا، وكانت تباع الجارية الواحدة منهن بألف دينار وأكثر.

ودخلها عبد الرحمن بن حبيب بعد ذلك، وبها معسكره إلى اليوم.

وبالسوس زيت الهرجان[1] وشجره يشبه شجر الكمثرى إلا أنه لا يفوت اليد وأغصانه ثابتة فى أصله لا ساق له، وهى شوكاء وثمرها يشبه الإجاص، فيجمع ويترك حتى يذبل، ثم يوضع على النار فى مقلى فخار فيستخرج دهنه، وطعمه يشبه طعم القمح المقلو، وهو جيد محمود الغذاء يسخن الكلى ويدر البول.

وبالسوس عسل يفوق عسل الأمصار، يلقى النبيذيون على الكيل الواحد منه خمسة عشر كيلاً عن ماء فحينئذ يأتى شرابًا، وإن كان أقل من ذلك بقى حلوًا ولا ينحل إلا فى الماء الشديد الحرارة، ولونه لون الرماد.

وتبايع أهل سوقه بالحلى المكسورة أنقار الفضة، والدرهم المسكوك عندهم قليل، ومثاقيلهم تُعرف بالقزديرية لأن رجلا تولى سكَّهم يُعرف بأبى الحسن

---

(١) فى الروض المعطار «البرجان».

القزديرى، وبالسوس تُوفى عبد الله بن إدريس وبها قبره.

وبقبلى إيجلى وعلى ست مراحل منها مدينة تامدلت، أسسها عبد الله بن إدريس بن إدريس، وهى سهلية عليها سور طوب وحجر، وبها حمامات وسوق عامرة ولها أربعة أبواب، وهى على نهر عُنصره من جبل على عشرة أميال منها، وما بينهما بساتين، وعلى هذا النهر أرحاء كثيرة وأرضها أكرم أرض وأكثرها ريعا تُعطى للحبة مائة، وبها معدن فضة غزير كثير المادة.

وبشرقى تامدلت مدينة درعة، بينهما مسيرة ستة أيام، وتسير من تامدلت إلى وادى درعة ثلاث مراحل.

ومنها إلى أجرواست مراحل كلها على مياه، ومنها إلى مرغاد مرحلة، ومنها إلى سجلماسة ستة أميال.

وأهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم لرزق ما يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب، وبأرض أغمات والسوس شجر الهلجان لا يكون إلا هناك، يستخرج من حبه زيت طيِّب كثير النفع، وذلك أنهم يجنون ثمره فتعلفه الماشية، ثم يعمدون إلى عجنه فيطحن ويطبخ ويستخرج منه دهنه فيكادون يستغنون به عن جميع الزيوت لكثرته عندهم.

* * *

الطريق من وادى درعة[1] فى الصحراء إلى بلاد السودان

من وادى درعة خمس مراحل إلى وادى تارجا، وهو أول الصحراء، ثم تمشى فى الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة حتى تصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة وهى إلى الملوحة أقرب قد أنبطت فى حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بنى أمية صنعتها.

وفى الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين، وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى تاللى

(١) دَرْعة: مدينة صغيرة بجنوبىّ المغرب، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ. مراصد الاطلاع ٢/٢٥٣.

كلها غير عذبة، وبين هذه الآبار الثلاث وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام.

ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية أدراران وزال، وتفسيره جبل الحديد مثل ذلك، وفى هذا الجبل مَجابة ماؤها على ثمانية أيام، وهى المجابة الكبرى، وذلك الماء فى بنى ينتسر من صنهاجة، ومن بنى ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة يعرفون ببنى لمتونة ظواعن رحّالة فى الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ويصيغون فى موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين، وهم إلى بلاد السودان أقرب.

وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزا، وإنما أموالهم الأنعام وعيشُهم من اللحم واللبن، وينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزا ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار فى بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون للسودان.

وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشنى من أهل الفضل والخير والدين والحج والجهاد وهلك بموضع يقال له قنغارة - وقيل كنكارة - من بلاد السودان، وهم قبيل من السودان بغربى مدينة بنكلابين، وهى مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببنى وارث من صنهاجة.

وخلف بنى لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بنى جدالة وهم يجاورون البحر، وليس بينهم وبينه أحد.

وهذه القبائل هى التى قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق وردِّ المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة ومتمكسون بمذهب مالك بن أنس رضى الله عنه وكان الذى نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين[1].

(١) عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولى المصمودى: الزعيم الأول للمرابطين وجامع شملهم وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، كان من طلبة العلم فى دار أنشئت بالسُّوس وسُمِّيت دار المرابطين، أرسل إلى صَنهاجة مع يحيى بن إبراهيم الكدالى الصنهاجى لتفقيهها وتعليمها أمور دينها، ورأى البدع فاشية فيهم، فاشتد فى وعظها وإقامة حدود الشرع فيها، فأعرضت عنه، =

وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بنى جدالة وحج فى بعض السنين ولقى فى صدره عند حجه الفقيه أبا عمران الفاسى، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب، فلم يجد عنده علمًا بشئ إلا أنه رآه حريصًا على التعلم صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال له: لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم.

ورغب إلى أبى عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه.

فقال له أبو عمران: إنى قد عدمت بالقيروان بغيتكم وإن بملكوس فقيهًا حاذقًا ورعًا قد لقينى وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلوى، فَمُرْ به فربما ظفرت عنده ببغيتك.

فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبى عمران، فاختار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين واسم أمه تينى يزمارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت فى طرف صحراء مدينة غانة، فوصل به إلى موضعه واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له فى سبعين رجلاً.

فغزو بنى لمتونة وحاصروهم فى جبل لهم فهزموهم وجعلوا ما اتخذوا من أموالهم مغنما، فلم يزل أمرهم يقوى واستعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورعا عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، إنما كان عيشه من صيد البرية.

ثم أمر ببناء مدينة سموها أرتننى وأمرهم ألا يشف بناء بعضهم على بناء بعض، فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها،

= فاعتزلها مع بضعة أشخاص فى جزيرة قريبة منها فى النيجر، ولحق به جماعة، ثم آخرون، حتى بلغ من عنده زهاء الآلف فسمَّاهم المرابطون» وأخضع بهم قبائل صنهاجة كلها، وافتتح درعه وسِجلماسة واستولى على تاوردانت قاعدة السُّوس وفتح بلاد المصامدة حربًا وامتد سلطانه من نواحى السنغال إلى سِجلماسة ومن درعه إلى إغمات إلى حاحة والشياظمة وتقدم إلى برغواطة، وقتل سنه ٤٥١هـ. الأعلام ٤/ ١٤٤. وانظر: نزهة الأنظار ١/ ٤٣١-٤٣٢.

وكأنهم وجدوا فى أحكامه بعض التناقض.

فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكّم مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر ايتتكوا، فعزلوه عن الرأى والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتهبوا ما كان فيها من أثاث وفرش.

فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوى فقيه ملكوس، فعاتبهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله فأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر فأمر عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه وقتل خلقا كثيرا ممن استوجب القتل عنده بجراية أو فسق، واستولى على الصحراء كلها وأجابه جميع تلك القبائل ودخلوا فى دعوته والتزموا السنة بها. ثم نهضوا إلى لمطة وسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان، وهكذا سن لهم عبد الله فى الأموال المختلطة، فأجابوهم إلى ذلك ودخلوا معهم فى دعوتهم.

وأول ما أخذوا فى البلاد المخالفة لهم درعة، ولهم فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالا صفوفا بأيدى الصف الأول القنى الطوال للمداعسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى.

ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعا، فكانوا أثبت فى الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه.

وهم يقتلون الكلاب لا يستصحبون منها شيئا.

وكان يحيى بن عمر[1] أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره

(١) يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى، أبو زكريا، مؤسس دولة المرابطين فى المغرب الأقصى، كان من رؤساء لمتونة فى الصحراء، اعتزل مع عبد الله بن ياسين، وجعله عبد الله بن ياسين أميرًا لهم فى الحرب، ودخل بلاد درعة وكانت بين جيشه وجيش جدالة وقائع قتل فيها، وقُتل معه بشر كثير. الأعلام ٨/ ١٦٠-١٦١ وانظر: نزهة الأنظار ١/ ٤٣٢.

به، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له فى بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقا أدبا.

فقال له يحيى: فما الذى أوجبه على؟ قال له عبد الله: إنى لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك.

فطاع له الأمير بذلك وحكمه فى بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم.

وغزا المرابطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وانودين المغزاوى، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم فى جيش عدته ثلاثون ألف جمل سرج، فقتلوا مسعودا واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم.

فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عددا كثيرا، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة.

وندم أهل سجلماسة على ما فعلوا وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين أن يرجع إليهم العساكر ويذكرون أن زناتة زحفت إليهم، فندب عبد الله المرابطين إلى غزو زناتة ثانية، فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر.

فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ فى طوله مسافة ست أيام وفى عرضه مسافة يوم، وهناك حصن يسمى أركى حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر.

فصار يحيى فى جبل لمتونة، وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة سجلماسة فى مائتى رجل فى قبائل صنهاجة ونزل موضعا يقال له تامدولت، حصن فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك.

فاجتمع لعبد الله جيش كثيف من سرطة وترجة ولهم هناك حصون، وكان أبو بكر بن عمر بدرعة مع أحمد بن أمدجنو، فأمره عبد الله مكان أخيه يحيى المتخلف بجبل لمتونة.

ثم رجعت جيوش بنى جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه فى الجبل، وذلك سنة ثمان وأربعين، وهم فى نحو ثلاثين ألفا. وكان مع يحيى أيضا عدد كثير وكان معه لبى بن وارجاى: رئيس نكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلى بين تاليونى وجبل لمتونة.

فقتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون فى هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منهم سيف ولا درقة ولا شىء من أسلحتهم ولا ثيابهم، ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بنى جدالة.

وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغشت، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء وهى فى العظم كشجر الزيتون، وهى كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة، وهى متقنة المبانى حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوما.

وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر.

فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئا،وقتل فيها عبد الله ابن ياسين رجلا فى العرب المولّدين من أهل القيروان معلوم بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحج البيت يسمى زباقرة، وإنما نقموا عليه أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه.

وغزا عبد الله بن ياسين أغمات[١] سنة تسع وأربعين، واستولى على بلاد المصامدة سنة خمسين، وقتل ببرغواطة سنة إحدى وخمسين بموضع يسمى

(١) أغْمات: ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب، قريبة من مراكش وهى مدينتان متقابلتان، كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل، وأهلها فرقتان: يقال لأحدهما الموسوية من أصحاب ابن ورسنْد، والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقة. والفرقة الأخرى مالكية، وبينهما قتال دائم، وكل فرقة تصلى فى الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى، وبينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ، وهى فى سفح جبل هناك. مراصد الاطلاع ٩٨/١.

كريفلد، وعلى قبره اليوم مشهد مقصود ورابطة معمورة.

ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها والسوس كله وأغمات ونول والصحراء.

وما يذكرونه ولا يشكون فيه، فى براهين صلاح عبد الله أنه ذهب فى بعض أسفاره فعطشوا، فشكوا ذلك إليه.

فقال: عسى الله أن يجعل من أمرنا فرجا.

ثم سار بهم ساعة وقال لهم: احفروا بين يدى، فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه.

ويذكرون أنه نزل منزلا تقرب منه بركة ماء، وكانت كثيرة الضفادع لا يسكت نقيقها، فإذا وقف عبد الله على البركة، لا يسمع لها ركز، وهم الآن لا تقدم طائفة منهم أحد للصلاة إلا من صلى وراء عبد الله وإن كان فى تلك الطائفة أقرأ منه وأروع ممن لم يصل وراءه.

وكان عبد الله نكاحا للنساء، يتزوج فى الشهر عددا منهن ويطلقهن لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها، ولا يتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل.

* * *

ذكر ما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام

من ذلك أخذه الثلث من الأموال المختلطة، وزعم أن ذلك يطيب باقيها ويحله، وقد تقدم ذكرها.

هذا وأن الرجل إذا دخل فى دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: «قد أذنبت ذنوبا كثيرة فى شبابك، فيجب أن تقام عليك حدودها وتطهر من إثمها»؛ فيضرب حد الزانى مائة سوط وحد المفترى ثمانين سوط وحد الشارب مثلها، وربما زيد على ذلك.

وهكذا يفعلون بمن تغلبوا عليه وأدخلوه فى رباطهم، وإن علموا أنه قتل، قتلوه سواء أتاهم تائبًا طائعًا أو غلبوا عليه مجاهرًا عاصيًا لا تنفعه توبته ولا تغنى

عنه رجعته.

ومن تخلف عن مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط.

ويأخذون الناس بصلاة الظهر أربعا قبل صلاة الظهر فى الجماعة، وكذلك فى سائر الصلوات، ويقولون: «إنك لابد قد فرطت فى سالف عمرك فاقض ذلك».

وأكثر عوامهم يصلون بغير وضوء إذا أعجلهم الأمر جزعا من الضرب، ومن رفع صوته فى المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب ـ له صلاح ـ.

وزكاة الفطر يأخذونها وينفقونها على أنفسهم.

ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب عنده، فقال التاجر فى بعض مراجعته لخصمه: «حاشا لله أن يكون ذلك» فأمر عبد الله بضربه وقال: «لقد قال كلامًا فظيعًا وقولاً شنيعًا يوجب عليه أشد الأدب»، وكان بالحضرة رجل قيروانى فقال لعبد الله: «وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك فى كتابه فقال حكاية عن النسوة اللائى قطعن أيديهن فى قصة يوسف: ﴿**حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيم**﴾[1].

فرفع الضرب عن ذلك الرجل.

وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة[2] ـ أبو بكر بن عمر، وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء، وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام؛ حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقوا ذلك فى حال من الأحوال، ولا يميز رجل منهم وليه ولاحميمه إلا إذا تنقب، وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وسار ذلك لهم ألزم من جلودهم وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس ـ أفواه الذبان ـ بلغتهم.

وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن،

---

(١) سورة يوسف، آية ٣١.

(٢) عاين ذلك البكرى، حيث كانت وفاته ٤٨٧هـ.

وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، يبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة،

ومن سير أهل الصحراء فى المتهم بالسرقة أن يعمدوا إلى عود فيشق باثنين ويشد على صدغيه فى مقدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته.

ومما فى هذه الصحراء من الحيوان اللمط، وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرناه حتى يكون أكبر من أربعة أشجار.

وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العواتق منها، وهى التى طال قرناها لكبر سنها فمنع الفحل علوها.

دواب الفنك أكثر شىء فى هذه الصحراء، ومنها يحمل إلى جميع البلاد. وعندهم الكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل، وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها، وهى أحسن الغنم خلقا وألوانا.

ولا تنبت هذه الصحراء ولا بلاد أغمات ولا السوس شجر المرسين، وهو شجر الآس وهو عندهم عزيز يجلب إليهم من سائر البلاد.

ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما، تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر، ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض وتقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تانتال وعليه حصن مبنى بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح.

ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان، والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة.

ومعدن للملح آخر عند بنى جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطىء البحر، ومن هناك تتحمله الرفاق إلى ما جاوره.

وبقرب أوليل فى البحرجزيرة تسمى أيونن، وهى عند المدّ جزيرة لا يوصل إليها

من البر وعند الجزر يوصل إليها على القدم، ويوجد فيها العنبر، وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف وهى أكثر شىء عندهم فى ذلك البحر وهى مفرطة العظم، وربما دخل الرجل منهم فى محار ظهورها فيتصيد فيها كالقارب وسنذكر من كبر السلاحف بطريق تيرقى ما هو أشنع من هذا، ولهم أغنام ومواشى، وهذه الجزيرة مرسى من المراسى، والطريق منها إلى نول على ساحل البحرلا يفارقه مسيرة شهرين مشى العير فى أرض أكثرها صفى ينبو عنه الحديد وتكل فيه المعاول.

وإنما يشربون فى طريقهم من قلات يحتفرونها عند جزر البحر فتبض ماء عذبا.

وإذا مات لهم ميت فى طريقهم هذا لم يمكنهم مواراته لصلابة الأرض وامتناعها على الحفر فيسترونه بالحطام والحشيش أو يقذفونه بالبحر.

* * *

ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها

المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة، هم آخر الإسلام خطة، وأقرب بلاد السودان منهم صَنْغَانة[١]، بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتى النيل وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط.

ويلى مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكْرور[٢] أهلها

---

(١) صَنْغَانة: فى بلاد السودان، وهى مدينتان على ضفتى النيل متَّصلة إلى البحر المحيط. الروض المعطار ٣٦٠.

(٢) تكْرور: مدينة فى بلاد السودان عظيمة مشهورة، أهلها أشبه الناس بالزنوج. قال الفقيه على الجنحانى المغربى: شاهدتها وهى مدينة عظيمة لا سورلها وأهلها مسلمون وكفار، والملك فيها للمسلمين، وأهلها عراة، رجالهم ونساؤهم إلاَّ أشراف المسلمين، فإنهم يلبسون قميصًا طولها عشرون ذراعًا، ويحمل ذيلهم معهم خدمهم للحشمة. ونساء الكفار يسترن قُبلهن بخرزات العقيق ينظمنها فى الخيوط ويعلقنها عليهن، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم. انظر: آثار البلاد ٢٦ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٦٨ ونزهة المشتاق ١/ ١٧ـ١٨.

سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم: الصنم حتى وليهم وارجابى بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها.

وتوفى وارجابى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فأهل تكرور اليوم مسلمون.

وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سَلَى[1]؛ وهى مدينتان على شاطئ النيل أيضا وأهلها مسلمون؛ أسلموا على يدى وارجابى - رحمه الله - وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوما فى عمارة السودان القبيلة.

وملك سلى يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم مسيرة يوم واحد، وهم أهل مدينة قلنبو[2]، وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة.

وتبايع أهل سلى بالذرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكايات.

والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضأن ولا ماعز، وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون.

وفيما يتصل ببلادهم من النيل فى موضع يقال له صحابى حيوان فى الماء يشبه الفيل فى عظم خلقته وفنطيسته وأنيابه يسمونه قفوا، وهو يرعى فى البرارى ويأوى إلى النيل، ويميزون موضعه من النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدونه بمزاريق حديد، فصار فى أسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب فى أسفل النيل، فإذا مات طفا على الماء، فجذبوه

(١) سَلا: على ضفة النيل وشماله ببلاد السودان، مدينة حاضرة بها مجتمع السودان، ومتاجرها صالحة، وأهلها أهل بأس وعدة، وهى من عمالة التكرورى، وهو سلطان له عبيد وأجناد، وله حزم وجلادة وعدل مشهور، وبلاد آمنة. وموضع مستقرّه مدينة تكرور، وهى جنوبى النيل، وبينها وبين سلا مقدار يومين فى البحر وفى البر. الروض المعطار ٣١٩ ونزهة المشتاق ١٨-١٧/١.

(٢) قلنبوا: فى بلاد السودان، وهم على النيل، وأهلها مشركون، وهى مدينة كبيرة، والنيل يشق جميع تلك البلاد، ويسقى أكثرها، وفى تلك البلاد حيوان يشبه الفيل فى عظم خلقته وخرطومه وأنيابه يرعى فى البر ويأوى إلى النيل، ويصطادونه فيأكلون لحمه، ويصنعون من جلده الأسواط التى يسمونها السرياقات. الروض المعطار ٤٦٩ والاستبصار ٢١٧-٢١٨.

وأكلوا لحمه وصنعوا من جلده هذه الأسواط التى تسمى السرياقات، ومن هناك تحمل إلى الآفاق.

ويلى هذا البلد مدينة قلنبو بينهما مسيرة يوم على ما تقدم، وهى على النيل وأهلها مشركون.

وتتصل بمدينة قلنبو مدينة ترنقة[١]، وهو بلد عريض، وعندهم تصنع الأزر المسماة بالشكايات التى تقدم ذكرها، وهى أربعة أشبار فى مثلها.

وليس فى بلدهم كثير قطن غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة قطن.

وحكم أهل هذه البلاد والمذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة فى بيع السارق أو قتله، وحكمهم فى الزانى أن يسلخ من جلده.

ومن ترنقة تصل العمارة بالسودان إلى بلد زافقو[٢]، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب، رأسه كرأس البختى، وهو فى مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب.

وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز إليهم.

وإذا هلك وال من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها، فإذا نكزته ولت إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطئهم ذلك بزعمهم[٣].

وتليهم بلاد الفرويين، وهى مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شىء فى تقوية الباءة والعون

---

(١) انظر فى ترنكة: الاستبصار ٢١٨ والروض المعطار ١٣٢-١٣٣.

(٢) فى الروض المعطار ١٢٢ (راكنو) وزافو فى الاستبصار.

(٣) إلى هنا ينقل صاحب الروض المعطار عن البكرى ١٣٣.

عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شىء إلى غيرهم، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر.

قد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدايا نفيسة واستهداه شيئا من هذا النبات، فعارضه على هديته وكتب إليه يقول: «إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء ألا تقدر على إمساك نفسك فتأتى بما لا يحل لك فى دينك، ولكنى قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له».

وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب.

***

ذكر غانة[1] وسير أهلها

وغانة سمة لملوكهم[2]، واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم - وهى سنة ستين وأربعمائة - تنكامنين، وولى سنة خمس وخمسين.

وكان اسم ملكهم قبله بسى، ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين، وعمى فى آخر عمره، وكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يده أشياء فيقول: «هذا حسن وهذا قبيح».

وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول، فلا تفهمه العامة.

وبسى هذا خال تنكامنين، وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا فى ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته وهو يشك فى ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به.

(١) انظر فى غانة: الروض المعطار ٤٢٥-٤٢٦ والاستبصار ٢١٩.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ١٨٥.

وتنكامنين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان.

ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون، وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم.

وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات.

ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط.

وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور، وفى مدينة الملك مسجد يُصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك.

وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم.

وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن أحد فيها انقطع عن الناس خبره.

وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه، ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولى عهده، وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم.

وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رءوسهن، وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير[1] المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة.

وهو يجلس للناس والمظالم فى قبة ويكون حوالى القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفَّروا رءوسهم بأنواع الذهب وعليهم الثياب الرفيعة، ووالى المدينة بين يدى الملك جالس فى الأرض وحواليه الوزراء جلوسا

(١) الروض المعطار ٤٢٦.

على الأرض.

وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، فى أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون فى الساجور عدد رمانات ذهب وفضة.

وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا، وهو خشبة طويلة منقورة فيجتمع الناس، فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رءوسهم فتلك تحيتهم له.

وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقًا باليدين.

وديانتهم المجوسية وعبادة الدَّكاكير[1]، وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأدخلوه فى تلك القبة، ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التى كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتى كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد.

وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور.

ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب فى إدخاله البلد، وديناران[2] فى إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل.

وأفضل الذهب فى بلاده ما كان بمدينة غياروا، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما فى بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة.

وإذا وجد فى جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الرقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب فى أيدى الناس حتى يهون.

والندرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم.

وبين مدينة غياروا والنيل اثنا عشر ميلا وفيها من المسلمين كثير، وغَانَةُ بلدة

---

(١) الدكاكير: الأصنام.

(٢) صورة الأرض ٩٨.

مستوية غير آهلة لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان فى غربانها عند استحصاد الزرع.

* * *

الطريق من غانة إلى غيارو [١]

فأما الطريق من غانة إلى غياروا فإلى مدينة سامقندى أربعة أيام، وأهل سامقندى أرمى السودان بالنّشاب.

ومنها إلى بلد يسمى طاقة[٢] يومان، وأكثر شجر طاقة شجر يسمى تادموت، وهو شجر الأراك إلا أن له ثمرا كالبطيخ داخله شىء يشبه القند تشوب حلاوته بحموضة نافعة للمحمومين.

ومن هناك إلى الخليج من النيل يقال له زوغو مسيرة يوم تخوضه الجمال، ولا يعبره الناس إلا فى القوارب.

ومنه إلى بلد يقال له غرنتل، وهو بلد كبير ومملكة جليلة لا يسكنه مسلمون ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم، وتلد عندهم الفيلة والزرافات.

ومن غرنتل[٣] إلى غيارو.

---

(١) انظر فى غيارو: الروض المعطار ٤٢٦.

(٢) الطاقة: إحدى بلاد السودان، أكثر شجرها يسمونه تادموت وهو شجر الأراك، إلاَّ أنَّ ثمره كالبطيخ داخله شىء يشبه القند، تشوب حلاوته حموضة، نافع للمحمومين، ومن هناك إلى خليج من النيل يقال له زوغوا مسيرة يوم، لا يعبره الناس إلاَّ فى القوارب. الروض المعطار ٣٨٠.

(٣) غرنتل: فى بلاد السودان، بلد كبير ومملكة جليلة، لا يسكنها مسلمون، ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم وعندهم الفيلة والزرافات، ومن غرنتل إلى غيارو وهى على ضفة النيل وهى مدينة لطيفة القدر فى سفح جبل، وشرب أهلها من النيل، وأكلهم الذرة ولباسهم الصوف، وعندهم الحوت والألبان، وهم يضربون فى تلك البلاد بضروب التجارات التى تدور بين أيديهم. الروض المعطار ٤٢٧.

وملك غانة إذا احتفل ينتهى جيشه مائتى ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألف، وخيل غانة قصار جدا، وعندهم الأبنوس الجيد المجزع.

وهم يزدرعون مرتين فى العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عندهم وأخرى على ثرى أيضا.

وبغربى غيارو على النيل مدينة يرسنى يسكنها المسلمون وما حولها مشركون.

وفى يرسنى معز قصار، فإذا وضعت الماعزة ذبحوا الذكور وأبقوا الإناث، وعندهم شجر تحتك بها هذه المعزة فتحمل من ذلك العود تلد من غير ذكر، وهذا معلوم عندهم غير منكر، وحدث به جماعة من المسلمين الثقات.

ومن يرسنى يجلب السودان العجم المعروفون ببنى نغمرانة وهم تجار التبر إلى البلاد.

وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية أيام سمة ملكهم دو، وهم يقاتلون بالنشاب.

ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلمانى، وإنما سمى بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء.

وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك وما دهمهم من ذلك فقال له: «أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك»

فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله.

ثم استأنى به إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها به طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزوا إلى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك عن يمينه يأتم به، فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو والملك يُؤَمِّن، فما انفجر الصباح إلا والله قد عمهم بالسقى.

فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون، فوسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلمانى.

ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة[1] ويعرف أهله بالبكم، وبينه وبين غانة مسيرة أربعة أيام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس.

وحدث أبو عبد الله المكّى أنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنت أن يكون شعر لحيته فى عانتها، فامتلأ العربى غضبا وأوسعها سبا.

والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة، ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله.

وبغربى مدينة غانة مدينة أنبارة[2]، وملكها اسمه تارم وهو معاند لملك غانة.

وعلى تسع مراحل من مدينة أنبارة مدينة كوغة وبينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة، وأهلها مسلمون وحواليها المشركون.

وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس والغربيون، والودع والغربيون أنفق شىء عندهم، وحواليها من معادن التبر كثير، وهى أكبر بلاد السودان ذهبا.

وهناك مدينة ألكن وملكها يسمى قنمر بن بسى ويقال إنه مسلم يخفى إسلامه.

وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجه.

وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان.

وببلاد غانة حكم الماء، وذلك أنه من ادعى عليه بمال أو دم أو غير ذلك عمد أمينهم إلى عود فيه حرافة ومرارة ورقة، وصب عليه من الماء قدرًا معلومًا وسقاه

(١) انظر فى سامة: الروض المعطار ٢٩٩.

(٢) أنبارة: بلد بقرب غانة من بلاد السودان، ملكها معاند لأهل غانة، وهى مدينة كبيرة، ولأهلها بأسٌ شديدٌ فى الحروب وبينها وبين مدينة كوغة تسعة أيام. الروض المعطار ٣٧.

المدعى عليه، فإن رماه من جوفه علم أنه برىء وهنئ بذلك، وإن لم يرمه وبقى فى جوفه صحت الدعوى عليه.

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزى تنبت فى الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق.

وأخبر الفقيه عبد الملك أن أهل اللامس بلدة هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الثمر.

ومن هذا الجنس حجارة بوادى درعة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتى فى قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار فى شىء من ذلك.

وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسجلماسة، وأخبرنى الثقة أنه شاهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى فردلند صاحب الجلالقة وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غناه، وبعث به فردلند إلى صاحب قسطنطينية ليوضع فى كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وأمره بالتتويج.

وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبى فضل البغدادى تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان.

وإذا سرت من غانة تريد مطلع الشمس فإنك تسير فى طريق معمورة بالسودان إلى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم، ثم تسير من هناك أربعة أيام إلى موضع يقال له رأس الماء، وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان، وعليه قبائل من البربر مسلمين يسمون مداسة، وبإزائهم من الشط الثانى مشركو السودان.

ثم تسير من هناك ست مراحل على النيل إلى مدينة تيرقى، ويجتمع فى سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تاد مكة.

وتعظم السلاحف بتيرقى[1] وتتخذ فى الأرض أسرابا يمشى فيها الإنسان ولا يطيقون استخراج واحدة منها إلا بعد شد الحبال فيها واجتماع العدد الكثير عليها.

وأخبرنى الفقيه أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة أن قومًا عرسوا فى طريق تيرقى، والأرضة هناك تأتى على ما تجده وتفسد ما وصلت إليه وتخرج من التراب أكواما كالروابى، ومن الغرائب أن ذلك التراب ثرند، والماء هناك غير موجود على أبعد حفر.

فلا توضع الأمتعة إلا على الحجارة المجموعة أو الخشب الموضوعة.

فارتاد كل واحد من القوم لمتاعه حرزا من الأرضة، وبدر أحدهم فيما ظن إلى صخرة كبيرة فأنزل عليها وقر بعيرين كانا معه، فلما هب من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها، فارتاع ونادى بالويل والحرب.

فاجتمعوا إليه يسألونه عن خطبه فأخبرهم فقالوا: «لو طرقك لصوص لأخذوا المتاع وبقيت الصخرة».

فنظروا فإذا أثر سلحفاة ذاهبة من الموضع، فاقتفوه أميالا حتى أدركوها وحمل المتاع على ظهرها، وهى التى حسبها صخرة.

ومن تيرقى[2] يرجع النيل نحو الجنوب فى بلاد السودان، فتسير على نحو ثلاث مراحل فتدخل بلاد سغمارة، وهم قبيل من البربر فى عمل تادمكة، ويحازيهم من الشطة الثانى مدينة كوكو للسودان ـ وسيأتى ذكرها وما والاها إن شاء الله ـ.

* * *

(١) انظر: نزهة المشتاق ١/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) تيركى: من عمل غانة فى بلاد السودان، وهى مدينة عظيمة، لها أسواق حافلة يجتمع فيها أمم كثيرة من بلاد متفرّقة من بلد غانة ومن تادمكه. الاستبصار ١٢٢ والروض المعطار ١٤٥.

الطريق من غانة إلى تاد مكة(١)

فأما الجادة من غانة إلى تاد مكة وبينهما مسيرة خمسين يوما، فمن غانة إلى سفنقو ثلاث مراحل، وهى على النيل وهى آخر عمل غانة إلى تاد مكة، وبينهما مسيرة عشرين يوما.

ثم تصحب النيل إلى بوغرات فيه قبيل من صنهاجة يعرفون بمداسة.

وأخبر الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأى فى بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس: «قتل الحسين قتل الحسين» يكرر مرارا، ثم يقول «بكربلا» مرة واحدة.

قال عبد الملك: «سمعته أنا ومن حضر من المسلمين معى».

ومن بوغرات إلى تيرقى، ثم تسير منها فى الصحراء إلى تاد مكة، وتاد مكة أشبه بلاد الدنيا بمكة ـ شرفها الله وزادها تشريفا وتعظيما ـ .

ومعنى تاد: عندهم هيئة إذ أنها على هيئة مكة، وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهى أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو.

وأهل تاد مكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال، ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولى وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء.

ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة(٢).

ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسنا، والزنا عندهم مباح، وهن يبادرن التجار أيهن تحمله إلى منزلها.

* * *

(١) انظر فى تادمكه: الاستبصار ١٨٦ والروض المعطار ١٨٦.

(٢) الروض المعطار ١٢٨.

الطريق من تادمكة إلى القيروان

فإن أردت من تادمكة إلى القيروان فإنك تسير فى الصحراء خمسين يومًا إلى وارجلان، وهى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن، أى: حصن العهود.

ومنها إلى مدينة قسطيلية أربعة عشر يوما، ومن قسطيلية إلى القيروان سبعة أيام على ما تقدم، وبين وارجلان وقلعة أبى طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما.

* * *

الطريق من تاد مكة إلى غدامس

ومن تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة فى الصحراء، والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة أحساء.

وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون[1]، وبِغُدَامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التى كانت بإفريقية.

وأكثر طعام أهل غدامس التمر، والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الأرانب جحره.

وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام فى الصحراء، وبين نفوسة ومدينة أطرابلس ثلاثة أيام ـ على ما تقدم ـ .

وطريق آخر من تاد مكة إلى غدامس؛ تسير من تاد مكة ستة أيام فى عمارة سغمارة، ثم فى مجابة أربعة أيام إلى الماء، ثم فى مجابة ثانية أربعة أيام، وفى هذه المجابة الثانية معدن بحجارة تسمى تاسى النسمت، وهى حجارة تشبه العقيق وربما كان فى الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض وربما وجد فيها فى النادر الحجر الجليل الكبير، فإذا وصل به إلى أهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه

(١) انظر من غُدَامس: آثار البلاد ٥٧.

الرقائق، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى، وهو يجلى ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس، كما يجلى الياقوت ويثقب بالسنباذج، لا يعمل فيه الحديد شيئا إلا بالتنتواس ولا يوصل إليه، ولا يعلم موضعه حتى ينحر الإبل على معدنه وينضج دمه، فحينئذٍ يظهر ويلقط.

وفى بونو معدن للتاسى أنسنت أيضا، ومعدن هذه المجابة أفضل.

وتسير من هذه المجابة الثانية إلى مجابة ثالثة وفى هذه المجابة معدن الشب ومنه يحمل إلى البلاد.

وتسير من هذه المجابة إلى مجابة رابعة أحد عشر يومًا فى رمال جدد لا ماء فيها ولا نبت، يتزود الرفاق الماء والحطب فيها كما يتزود الطعام والعلف، وعلى يسار السائر فى هذه المجابة جبلِ الرمل الأحمر الذى يتصل بسجلماسة، وهو الذى يكون فيه الفنك والثعلب الدَّهِى، وهو آخر حد إفريقية.

وإذا صار السائر من بلاد كوكو على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع إليهم، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده، وفى بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم فى صورة امرأة يتألهون له ويحجونه.

وبين تاد مكة ومدينة كَوْكَو[1] تسع مراحل، والعرب تسمى أهلها البزركانيين. وهى مدينتان مدينة للملك ومدينة للمسلمين، وملكهم يسمى قندا.

وزيهم كزى السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم، وهم يعبدون الدكاكير كما يفعل السودان.

ويضرب بجلوس الملك الطبل وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة، ولا يتصرف أحد منهم فى مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه فى النيل، فيجلبون عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه.

وإذا ولى منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم.

---

(١) كَوْكَو: مدينة كبيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالورع. رحلة ابن بطوطة ٧٠٢ ونزهة المشتاق ١/٢٨.

وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين، ويزعمون أنهم إنما سموا كوكو لأن الذى يفهم من نغمة طبلهم ذاك، وكذلك أزور وهيرزويلة يفهم من نغمة طبلهم زويلة زويلة.

وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم، والملح يحمل من بلاد البربر يقال لها توتك من معادن تحت الأرض إلى تاد مكة، ومن تادمكة إلى كوكو، وبين توتك وتادمكة ست مراحل.

* * *

ذكر نبذ من سير البربر وسياساتهم سوى ما وقع منها مفترقًا فى موضعه من هذا الكتاب

ذكروا أن رجلاً شيخًا خرج مع امرأته وكانت شابة يريد قلعة حماد فصحبه فى بعض الطريق فتى شاب كلف بتلك المرأة وكلفت به، فتواطيا على أن يدعى كل واحد منهما زوجية الآخر ويسقطا الشيخ.

فلما وصلا إلى القلعة شكا ذلك الشيخ إلى حماد ما دهمه من أمرهما ووصف له حاله معهما، فوقف حماد الشاب والمرأة فتقارا على نكاحهما وأنكرا ما يدّعيه الشيخ.

فجعل حماد يباحث الشيخ: هل صحبهم فى طريقهم أحد، وهل له شبهة؟ فقال: «ما صحبنا فى طرقنا أحد غير هذا الكلب»، فاندلى لكلب كان معه.

فأمر الشيخ بربط الكلب إلى شجرة أو وتد كان هناك، ثم أمر المرأة بحله، فذهبت إليه فأرسلته، ثم أمرها بربطه، والكلب لا ينكر شيئًا من ذلك، ثم قال للشاب: «قم فأرسل الكلب، ثم اربطه»، فلما هم بذلك نبحه الكلب وأنكره، فقال للمرأة: «هذا زوجك الشيخ، وهذا الفاسق يخلفك عليه» وأمر بضرب عنقه.

وذكر أن رجلاً كان له امرأتان وكان كلفًا بآخرتهما نكاحًا. فقالت له الأولى: «إن هذه التى تكلف بها تخونك وإنها تفجر مع غلام لها» فاستعمل الركوب

والسقوط عن الدابة وسيق إلى منزل امرأته الأخيرة محمولاً لا يقلب عضوًا بزعمه، فاجتمع أهله ونساؤه إليه يمرضونه ويلطفونه إلى أن مضى هزيع من الليل، فعزم عليهم وصرفهم إلى منازلهم، وبقى مع امرأته واستعمل النوم والتثاقل حتى كأنه مغمًى عليه.

فرأى امرأته قد خرجت عنه إلى البيت الذى كان فيه المتهم بها، فجمع حسه وسار عند باب البيت يستمع، فسمعه يقول لها «أبطأت على وتركتنى بلا عشاء» فقالت: «حبسنى عنك شغلى بهذا الرجل، فلا تلومنى فأنت للنفس وهو للولد»، فصمت على ما سمع وتغافل عنه ورجع إلى مضجعه، فما كان إلا ضحى الغد حتى تنادى حى ذلك الموضع: وَا صُبْحَاهُ، فثاروا إلى العدو، ورأى هذا الساقط التحامل على نفسه والأنفة من تخلفه، فلبس سلاحه وركب فرسه وحمل ذلك المتهم فيمن حمل من أتباعه معه السلاح، فلما برزوا إلى عدوهم أمر ذلك المتهم بالتقدم بين يديه، فلم يجد إلى الحيدة سبيلاً.

فلما خالط به العدو وكلل عنه مبدرا، فكان أول صريع، ولم يعلم أحد شيئا من أمرهما، ثم انصرف إلى منزله فحمدت امرأته الله على سلامته، فقال لها «لكن الذى للنفس لم يسلم، فإنى إنما للولد»، فعلمت أنه قد سمع مقالتها فقالت: «أرسلنى إلى أهلى» فقال: «اذهبى»، فلما أبطأت عليه أتى أهلها فقال: «ما بال امرأتى لا تعود إلى منزلها؟»، فقالوا له: «إنا لا نقدر على صرفها» فقال: «وأنا لا أقدر على فراقها»، فلج بهم الأمر حتى افتدت منه بجميع ما حمل إليها فى صداقها وما تكلف لها عند إملاكها، فلما قبض ذلك ووصل إليه قال لهم: «أما إذا وصلت إلى حقى فإنى الشأن كيت وكيت»، وأخبرهم بالقصة، فكرروها أهلها واستبانوا الريبة فيها، فقتلوها، فبلغ بسياسته إلى التشفى منها بغير يده وتخلص من عشيرته وعشيرة امرأته واسترجع جميع حقه.

وشبيه بهذا عن بعض كبرائهم أيضا أنه اتهم امرأته وأخبر أنه إذا غاب خالفه رجل من أهل ناحيتهم إلى امرأته، فاستعمل سفرا بعيدا وذكر ذلك لقبيله، فتجهز نفر معه لذلك، فلما ساروا وانتهوا إلى أدنى مرحلة اعتذر لهم بعذر يضطره إلى الانصراف، وعزم عليهم فى النفوذ لطيتهم، فكر راجعا حتى أتى بعض الشعاب

مساءًا، فأخفى فيه فرسه وسلاحه وأتى أهله مستترا متجسسا، فتسلق جدارا أو مكانا يطلع منه على منزله آمنا أن يعلم به منه، فرأى امرأته على ما يكره مع ذلك الرجل المتهم، فولى راجعا إلى الشعب ولبس سلاحه وركب فرسه وأتى المنزل، فلما علم به أهله ارتاعوا وأخفوا ذلك الفاجر فى بيت من الدار، ودخل رب المنزل غير مكترث، واعتذر فى رجوعه بعذر قبلته امرأته وجعلت تحاول له طعاما، فلما كمل قربته إليه، فقال: «أحضرى ضيفك»، قالت: «وهل لى من ضيف؟» قال: «نعم هو ذاك فى الكذا»، فناكرته فقام إليه واستخرجه وقال: «هلم إلى طعامنا» فقال له: «مالى إلى الأكل من حاجة وإنى إلى الموت أحوج لما نالنى من هذه الفضيحة» قال: «لا بأس عليك فقد افتتن من هو خير منك» ولم يزل به حتى طعم. ثم أرسله عن منزله مستترا مسلما لم ير به ريب، ثم أقبل على امرأته فقال: «لا تعيى مما جرى لك فإن النساء قد يذللن ويملن بهواهن، والمعصوم من الناس قليل وعندى من الستر لأمرك والطى لخبرك ما يسرك، وقد علمت أنه لم يحملك على ما صنعتِ إلا هوى غلب عليك غيه، وأنا تارك بينك وبين هذا الذى أحببته تنكحينه وتتشفين منه جهارا من غير ريبة، على أن تشترطى لى شرطا وتعقدى على نفسك عقدا تلتزمينه»، فأجابته إلى ذلك، وقالت: «ما شرطك»؟، قال: «إنك إذا أكملت عنده عاما أن ترسلى إلى فأمر بك وهو حاضر، فتخرجين إلى متزينة فى ثياب تشف وتتكلمين معى فى أمره وتتشكين سوء عشرته، فتستعمله الغيرة على طلاقك، فأعود إلى حالى معك بعد أن تقضى حاجة نفسك وترتفع عنى الريب فى أمرك باختيارك لى على هذا الذى قد مال بك»، وقد علم سوء خلق صاحبه وتهافته إلى الشر وقلة ملكه لنفسه، فعاقدته على ذلك.

ثم أرسل لأبيها وأهل بيتها فصنع لهم طعاما فأطعمهم، ثم قال: «سلوا وليتكم كيف كانت صحبتى لها ومعاشرتى إياها» فسألوها فأثنت خيرًا ووصفت مجاملة وبرًا، فقال: «اسألوها ما بالها أتريد المقام عندى» فسألوها فقالت: «إنى أكرهه وأبغض قربه وأحب بعده ولا أجد من نفسى معينا على غير ذلك، وقد جاهدتها على الاستمرار فى صحبته، فعزفت بى عن ذلك عزوفا لا رجعة معه، فلا تتركونى معه فإن ذلك يقتادنى إلى الحِمَام، ويفضى بى إلى أنواع السقام، وقد

تبرأت إليه من جميع حقه» والزوج فى ذلك كله يظهر الرغبة فيها والإشفاق من مفارقتها، فما انفض جمعهم حتى ملكت أمرها ورجّعوا على زوجها ما صيّر إليها من حقها وشكروه على بره بها وولَّوها الملامة فى جميع أمرها، فلما حلت للأزواج كان الغادر بها أول خاطب لها، فتزوجته ومكثت معه حولا وهى تستبطئ مرور الحول لما خبرته من فضل الأول على هذا، فلما انقضى بعثت إلى الأول على ما عاقدته معه، فخرج مارا على منزلها فتلقته فى قميص يصفها وينم بجسمها، تشكو زوجها وهو قاعد مع جماعتها، فلما رأى ذلك لم يتمالك غيرة أن قام إليها وطعنها طعنة كانت فيها نفسها، فعمد إليه أهلها وإخوتها فقتلوه واختلف الفريقان وزحف بعضهم إلى بعض، فكادت الحرب تفنيهم، وتم للزوج الأول المراد فيهما ولم يرزأ فى نفسه ولا فى ماله بمقدار قلامة.

وحدثوا أن حمادا قال: «ما تداهى أحد قط على ولا خدعنى إلا امرأة وكْعاء من البربر»، قيل له: «كيف كان ذلك؟»، قال: «نعم إن صاحبا كان لى بالقيروان نشأ معى نشأة واحدة لم يفرق بيننا مكتب ولا مشهد، وكنت قد خلطته بنفسى وجعلته محل أنسى، فلم يزل على ذلك حتى صرت إلى ما أنا فيه ففقدته، فجعلت أفتقده فلا أقدر عليه ولا أجد سببا للوصول إليه، فلما أن عتبت على أهل باغاية وشننت عليها الغارات لم أنشب صبيحة ذلك اليوم أن سمعت مناديا ينادى: يالله يا للأمير»، فقلت: «ما بالك ومن أنت؟» فقال: «أنا فلان بن فلان»، فإذا به صاحبى المطلوب قد حبسه عنى نسكنه وغلب علىَّ هواه ورع لملكه، فأظهرت البشر بمكانه والجذل بشأنه، ولو شفع فى جميع باغاية لشفعته، فجعلت ألطفه وأؤنسه وهو كالولهان، فسألته عن أمره فقال: «إنه فقد بنته فيمن فقد من النساء» فقلت له: «والله لو خرجت إلىَّ بالأمس لحقنت دماء أهل بلدك لحُرمتك عندى»، فقال: «القدر غالب والمحروم خائب».

قال حماد: «ثم أمرت القواد فأحضروا جميع ما كان فى جيوشهم من النساء، فعرف فيهن بنته، فقال: «فأمرت بسيرها وحملها مع أبيها»، فرفعت صوتها قائلة: «لا والله يا حماد، لا رجعت مع أبى ولا رجعت مع الذى غصبنى»، قلت: «وما تريدين ويلك؟» قالت: «إنى لا أصلح إلا للملوك فلا حاجة لى فى السوقة»،

فلما سمع ذلك أبوها سكن ما كان فى نفسه وظن أنها قد فشت وفسدت عليه، قال حماد: «قلت لها: ومن أين لا تصلح إلا للملوك؟» قالت: «لأن عندى علمًا لا أشارك فيه ولا يدعيه غيرى» قلت: «ألا أريتنا شيئًا من ذلك»، فقالت: «نعم، تأمر بقتل إنسان، تحضر أمضى سيف أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره ويعود بيد حامله أكل من قائمه» قال حماد: «فقلت: الذى يجرب هذه فيه لمغرور»، قالت: «أويتهم أحد أن يريد قتل نفسه»، قلت: «لا»، قالت: «فإنى أريد أن يجرب ذلك فى»، فتكلمت على سيف اختاره، ومدت عنقها، فضربها السياف ضربة أبان رأسها.

فاستيقظت من غفلتى وعلمت أنها تداهت علىّ وكرهت العيش بعد الذى جرى لها وعليها، واستبان لأبيها من ذلك مثل الذى بان لى، فجعل يلقى بنفسه عليها ويتمرغ فى دمها أسفا لما حل به فيها، واغتباطا بها لما رأى من عظم أنفتها واختيارها الموت على ما نزل بها.

وبنو وارسفيان قبيل من البربر إذا أرادوا مباشرة الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ ـ وهم عندهم الشياطين ـ ويقولون: «هذا ذبح للشماريخ»، ويفتحون أوعيتهم فى تلك الليلة من الطعام والعلف فلا يكون له وكاء ولا سداد، ويقولون: «هذا طعام أو علف للشماريخ».

فإذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح فيقولون: «قد جاءت الشماريخ أولياؤكم لتقيكم»، فيحملون عند ذلك فينتصرون بزعمهم، ويقولون: «إن ذلك لا يخطئهم وجماعتهم يعتقد ذلك غير مستترين به».

وهم إذا أضافوا الضيف جعلوا من طعامه للشماريخ ويزعمون أنه يأكلونه الذى يوضع لهم، وينهون عن ذكر اسم الله عند شىء من ذلك[1].

* * *

(١) إلى هنا تنتهى نسخة كتاب المغرب فى ذكر إفريقيا والمغرب.

ذكر بلاد الأندلس[١] وخواصها والمشهور من مدنها

ذكر أن اسمها فى القديم إبارية من وادى أبرة، ثم سميت بعد ذلك باطقة من وادى بيطى، وهو نهر قرطبة، ثم سميت إشباينة من أجل رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان.

وقيل إنما سميت بالإشبان لأن الأشبان سكنوها فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه، وقال قوم إن اسمها على الحقيقة إشبارية مسماة من بشيرى، وهو الكوكب المعروف بالأحمر. وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش[٢] الذين سكنوها على ما يأتى ذكره.

وحدَّث الأوائل عن الأندلس بعبارات مختلفة، وحدَّها قسطنطين حدودا ستة جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة[٣]، وهو حد ما بين غاليش[٤] وبين الأندلس وأضاف إليها سبع مدن بما حواليها وهى بطرش[٥] وطليوشة ومقلونة ونومشو وقرقشونة.

وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم تسمى شنت مرية غراثية فيها سبع سوار من فضة، ولها يوم عيد يرده العجم من الآفاق، وبينها وبين برشلونة مسيرة خمسة وعشرين يومًا.

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة وهو حوز جليقة وشلطيانة وهو بلد ابن غومس، فجعل لها اثنتى عشرة مدينة بما حواليها، منها مدينة برطقال ومدينة توذى ومدينة أَوْرَبَة[٦] ومدينة لكه ومدينة برطانية ومدينة أشتيرقية ومدينة شنتاياقو، وفيها

(١) انظر فيها: صورة الأرض ١٠٤-١١٢ والروض المعطار ٣٢-٣٥.

(٢) الروض المعطار ٣٢.

(٣) انظر: الروض المعطار ٣٣و١٢٤.

(٤) انظر: الروض المعطار ٩٠.

(٥) انظر: الروض المعطار ١٦٩.

(٦) أَوْرَبَة: مدينة بالأندلس، وهى قصبة كورة جيَّان، وقيل من قرى دانية بالأندلس. مراصد الاطلاع ١/ ١٣٠.

كنيسة الذهب ولها يوم يرد فيه من إفرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها، ومدينة إبرية ومدينة بطقة ومدينة شارة.

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونة[١] وأضاف إليها مدينة سرقسطة[٢] وأشقة[٣] ولاردة[٤] وطرطوشة[٥] وتطيلة[٦] وأعمال بلد شانجو كلها وبلد بلياسن وبرشلونة[٧] وجرندة.

ومدينة أنبوريش، ومدينة بنبلونة[٨]، ومدينة أوقة[٩] ومدينة قلهرة ومدينة طرسونة[١٠]، ومدينة أماية.

وجعل الجزء الرابع: عشرين مدينة، قاعدتها مدينة طُلَيْطُلة[١١] وأضاف إليها

---

(١) طركونة: بالأندلس، مدينة أزلية، قاعدة من قواعد العمالقة، وجعلها قسطنين فى القسم الثالث من الأندلس، وأضاف إليها مدن ذلك القسم. الروض المعطار ٣٩٢.

(٢) انظر: الروض المعطار ٣١٧.

(٣) الروض المعطار ٣١٧.

(٤) الروض المعطار ٥١٨.

(٥) الروض المعطار ٣٩١.

(٦) الروض المعطار ٣١٣.

(٧) الروض المعطار ٨٦.

(٨) بنبلونة: مدينة بالأندلس، بينها وبين سَرَقُسْطة مائة وخمسة وعشرون ميلاً، بها كانت مملكة غرسية بن شانجة سنة ثلاثين وثلاثمائة، وهى بين جبال شامخة وشعاب غامضة قليلة الخيرات، أهلها فقراء جاعة لصوص وأكثرهم متكلمون بالبشقية (لغة الباسك) لا يفهمون، وخيلهم أصلب الدواب حافرًا لخشونة بلادهم ويسكنون على البحر المحيط فى الجوف. الروض المعطار ١٠٤.

(٩) انظر: الروض المعطار ٤٩٣.

(١٠) طَرَسُونة: بالأندلس كانت مستقر العمَّال والقُوَّاد بالثغر، وكان أبو عثمان عُبَيد الله بن عثمان [وال أموى أيام عبد الرحمن الداخل] المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها منزلاً، وكانت ترد عليه عشور مدينة أربونة وبرشلونة. ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم لها، لفضل بقعتها واتساع خطتها، وبينهما اثنا عشر ميلاً. الروض المعطار ٣٨٩ ومعجم البلدان (طرسونة) ٣/ ٢٥٧.

(١١) طُلَيْطلة: بالأندلس، بينها وبين البرج المعروف بوادى الحجارة خمسة وستون ميلاً، وهى مركز لجميع بلاد الأندلس؛ لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسبه تسع مراحل أيضًا، ومنها إلى المرية فى البحر الشامى تسع مراحل أيضًا.

للمزيد راجع: الروض المعطار ٢٩٣-٢٩٤ ومعجم البلدان (طُلَيْطُلة) ٣/ ٢٦٥.

مدينة أوريكا[١] ومدينة شقوبية[٢] ومدينة أركبيقة ومدينة وادى الحجارة ومدينة شقونة ومدينة أكشومة[٣] ومدينة بلنسية[٤] ومدينة بلازية ومدينة أوْرِيُولة[٥]، ومدينة آلش[٦] ومدينة شاطبة[٧] ومدينة دانية[٨] ومدينة بياسة ومدينة قسطلونة ومدينة منتشية ومدينة وادى آشى[٩] ومدينة بسطة[١٠]، ومدينة أرس، وهى بجانة.

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة[١١]، وأضاف إليها اثنتى عشرة مدينة، وهى: باجة، ومدينة أكشونية[١٢] ومدينة صيوتلة[١٣]، ومدينة يابرة، وشِنْتَرَة[١٤]،

(١) راجع: الروض المعطار ٦٦ ومراصد الاطلاع ١/ ١٣١.
(٢) انظر: الروض المعطار ٣٠٠.
(٣) انظر: الروض المعطار ٩٧.
(٤) بَلَنْسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، مُتَّصِلة بِحَوْزَة: كورة تُدْمير، وهى شرقى قرطبة، بَرِّية بحرية، وتعرف بمدينة التراب مراصد الاطلاع ١/ ٢٢٠ والروض المعطار ٩٧.
(٥) أوْرِيُوله: مدينة قديمة بالأندلس، بساتينها مُتَّصِلَة ببساتين مُرْسية. مراصد الاطلاع ١/ ١٣١ والروض المعطار ١٧.
(٦) انظر: الروض المعطار ٢٨٣.
(٧) شاطبة: بالأندلس، مدينة جليلة متقنة البناء، حصينة كلها قصبتان ممتنعتان، وهى قريبة من جزيرة شُقْر، ويُعمل بها كاغد لا نظير له بمعمورة الأرض، يعمّ المشرق والمغرب. آثار البلاد ٥٣٩ والروض المعطار ٣٣٧.
(٨) راجع: الروض المعطار ٣٣١.
(٩) راجع: الروض المعطار ٦٠٤.
(١٠) بسطة: مدينة بالأندلس، من أعمال جيَّان مراصد الاطلاع ١/ ١٩٧.
(١١) ماردة: مدينة بجوفى قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلاً، وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثرت بها آثارهم، والمياه المستجلبة إليها الروض المعطار ٥١٨-٥١٩.
(١٢) أكشُونية: مدينة بالأندلس يتَّصل عملها بعمل أشْيُونة، غربىّ قرطبة، وهى كثيرة الخيرات، بَرِّية بحريّة، قد يُلْقى بحرها على ساحلها العنبر الفائق الذى لا يقصر عن الهندى. مراصد الاطلاع ١/ ١٠٨ والروض المعطار ٣٤٧.
(١٣) انظر: الروض المعطار ٣٧٣.
(١٤) شِنْتَرة: من مدائن الأشيونة بالأندلس، على مقربة من البحر، ويغشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهى صحيحة الهواء، تطول أعمار أهلها، ولها حصنان فى غاية المنعة، وبينها وبين البحر قدر ميل، وهى أكثر البلاد تفاحًا، وكذلك الكمثرى، وبجبل شِنْتَرة ينبت البنفسج بطبعه، ويخرج من شِنْترة عنبر جيِّد. آثار البلاد ٥٤٢ والروض المعطار ٣٤٧.

وشَنْتَرين[١] والأُشْبُونَة[٢]، وقلنيرية[٣]، وقورية[٤]، وشلمنقة، وصمورة، وهى محدثة برا إلى شنت ياقوب[٥].

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة إشبيلية[٦]، وأضاف إليها لَبْلَة[٧]، وقرطبة[٨] وقرمونة[٩] ومورِدن ومدينة مَرْشانة[١٠] والجزيرة وتاكرنا[١١]، ورية، وأشبونة[١٢]،

---

(١) شَنْتَرين: بالأندلس مدينة معدودة فى كورباجة، وهى مدينة على جبل عال كثير العلو جدًا، ولها من جهة القبلة حافّة عظيمة، ولا سور لها وبأسفلها رَبَضٌ على طول النهر. وشرب أهلها من العيون ومن ماء النهر ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل، وبينها وبين بطليوس أربع مراحل. آثار البلاد ٥٤٢ والروض المعطار ٣٤٦.

(٢) أُشْبُونَة: مدينة بالأندلس، تتَّصل بِشَنْتَرين، قريبة من البحر المحيط قيل على مصبت نهر شَنْترين إلى البحر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.

(٣) انظر: الروض المعطار ٤٧١.

(٤) قورية: بالأندلس. قريبة من ماردة، بينها وبين قنطرة السيف مرحلتان.
ولها سورٌ منيع، وهى أولَّية البناء واسعة الفناء، من أحصن المعاقل وأحسن الفواكه، ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طَيِّبة وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها العنب والتين. الروض المعطار ٤٨٥.

(٥) الروض المعطار ٣٤٨.

(٦) إشْبيلية: مدينة كبيرة عظيمة، ليس بالأندلس أعظم منها، دار الملك بالأندلس، غربى قرطبة، وبينهما ثلاثون فرسخًا، وهى قريبة من البحر، يُطِلُّ عليها جبل الشرف، وهو جبل كثير الشجر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠ والروض المعطار ٥٨-٥٩.

(٧) لَبْلَة: فى غرب الأندلس، مدينة قديمة بها ثلاث عيون إحداها عين تهشر وهى أغزرها، والثانية عين تنبعث بالشبّ، والثالثة عين تنبعث بالزاج وتعرف لَبْلَة بالحمراء، وفيها آثار للأوَّل كثيرة. الروض المعطار ٥٠٧.

(٨) الروض المعطار ٤٥٦ ويأتى الحديث عنها لاحقًا.

(٩) قرمُونة: مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية، وبينها وبين استجة خمسة وأربعون ميلاً، وهى مدينة كبيرة قديمة، وهى باللسان اللطيتى: كار مويه معناه «صديقى». الروض المعطار ٤٦١.

(١٠) مَرْشانَة: مدينة بكورة إشبيلية، ومرشانة أيضًا من حصون المرية. الروض المعطار ٥٤٢.

(١١) تاكَرُنَى: كورة كبيرة بالأندلس، ذات جبال حصينة، يخرج منها عدة أنهار. مراصد الاطلاع ١/ ٢٤٩ وانظر: الروض المعطار ١٢٩.

(١٢) سبق التعريف بها وانظر: مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.

وإِسْتِجَة[١]، وقَبْرة[٢] وأعمالها إلى بجانة، وإلبيرة[٣]، وجيّان[٤]، ومنتيشة وبيرة[٥] وأرجونة[٦]، وملكونة، وأبدة[٧]، وبياسة.

وبلد الأندلس مثلث الشكل، فالركن الواحد منها الموضع الذى فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة بإزاء جبل إفريقية المسمى أولانية، ومنه يخرج إلى البحر المتوسط الخارج إلى الشام الآخذ بقبلى الأندلس.

والركن الثانى هو بشرقى الأندلس بين مدينة نربونة[٨] ومدينة بُرْذِيل[٩] بإزاء جزيرتى ميورقة[١٠] ومنورقة بمجاورة البحرين البحر المحيط والبحر الشامى

(١) إسْتِجة: ـ كورة بالأندلس، تتَّصل بأعمال ريَّة، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة. مراصد الاطلاع ١/ ٧٠.

(٢) قَبْرَة: مدينة بالأندلس، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً، ذات مياه سائحة من عيون شتى. الروض المعطار ٤٥٣.

(٣) إلبيرة: كورة كبيرة من كور الأندلس، ومدينة متَّصلة، بأراضى كورة قَبْرَة. فى أرضها معادن فضّة وذهب وحديد ونحاس وحجر التوتيا وفيها عدة مدن، منها: قسطيلية وغرناطة، وغيرهما. مراصد الاطلاع ١/ ١١١ والروض المعطار ٢٨.

(٤) انظر الروض المعطار ١٨٧.

(٥) بيرة: بلد بالأندلس قريبة من البحر. مراصد الاطلاع ١/ ٢٤١.

(٦) انظر: مراصد الاطلاع ١/ ٥٢ والروض المعطار ٢٦.

(٧) الروض المعطار ٦.

(٨) الروض المعطار ٣٣ و ١٢٤.

(٩) بُرْذيل: فى بلاد جليقية، وإقليم بُرْذِيل من أشرف أقاليم تلك الناحية، وهو كثير الكروم والفاكهة والحبوب، وهو مدينة كبيرة مبنية بالكلس والرمل، وهو على نهر عجاج يُسَمَّى جرونة، وربما عطبت مراكب المجوس فيه عند الأهوال لاتساعه وانحراقه. الروض المعطار ٩٠.

(١٠) ميورقة: جزيرة فى البحر الزقاقى، تسامتها من القبلة بجاية من بر العدوة، بينهما ثلاثة مجارٍ، ومن الجوف برشونة من بلاد أرغون، وبينهما مجرى واحد، ومن الشرق إحدى جزيرتيها مزقة، وبينهما مجرى فى البحر طوله أربعون ميلاً، وشرقى ميورقة هذه جزيرة سردانية بينهما فى البحر مجريان، وغربيها جزيرة يابسة، بينهما مجرى فى البحر طوله سبعون ميلاً. وميورقة أمّ هاتين الجزيرتين وهما بنتاها وإليها مع الأيام خراجها، وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلاً.

فتحها المسلمون سنة تسعين ومائتين، إلى أن تغلَّب عليها العدو البرشلونى وخرّبها سنة ثمان وخمسمائة. الروض المعطار ٥٦٧.

المتوسط، وبينهما المدخل الذى يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، وسافهنت بين البحرين مسيرة يومين، ويقابل مدينة بؤذبل مدينة مذبونة على البحر المحيط.

والركن الثالث حيث ينعطف البحر من الجوف إلى الغرب حيث المنارة فى الجبل المومتى على البحر، فيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس، وهو البلد الطالع على بلد برطانية.

وقال أوروشيوش: «يسمى البلد الذى فيه الصنم برغشية، وحيث هذا الصنم ينقطع موز جليقية».

فى جوفى الأندلس وغربيه البحر المحيط، وفى قبليه البحر الشامى وهو البحر المعروف ببحر تيران، ومعناه الذى يشق دائرة الأرض.

وفى شرقيه منحرفا إلى الجوف يسيرًا بلد البشكنش آخذا مع نهر أبره إلى بلد شنت مرية.

وذكر بطليموس أن قلوباطرة فتحت فى الجبل الحاجز بين الأندلس وإفرنجة طريقا بالحديد والنار والخل، وكان فعلها ذلك من العجائب.

* * *

ذكر فضل الأندلس وغريب أخبارها

والأندلس شامية فى طيبها وهوائها، يمانية فى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها، أهوازية فى عظم جبايتها، صينية فى جواهر معادنها، عدنية فى منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة للأول من اليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة[1].

وكان ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلش، وله الأثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والآخر فى مدينة طركونة الذى لا نظير له.

---

(١) الروض المعطار ٣٣.

ومن الجبال المشهورة بالعظم فى بلد الأندلس، منها جبل إلبيرة[١] وهو جبل الثلج، وهو متصل بالبحر المتوسط منتظم بجبل ريه ولاصق بالجزيرة مع البحر.

ويذكر ساكنوه أنهم لا يزالون يرون الثلج نازلا فيه شتاء وصيفا، وهذا الجبل يرى من أكثر بلاد الأندلس ويرى من عدوة البحر ببلاد البربر.

وفى هذا الجبل أصناف الفواكه العجيبة، وفى قراه المتصلة به يكون أفضل الحرير والكتان الذى يفضل على كتان الفيوم.

ومنها جبل ألبرت، وهو الحاج بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ومبتدؤه من البحر القبلى ـ المتوسط المجاور ـ طرطوشة ومنتهاه إلى البحر الغربى بين الأشبونة وجليقية، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة.

* * *

ذكر ما خصت به الأندلس من الأشجار والمعادن والأحجار[٢]

يوجد فى ناحية ولاية من إقليم البشرة عود النضوح لا يقارنه العود الهندى ذكاء وعطرا، وقد سيق منه إلى خيران الصقلبى صاحب ألمرية أصل كان منبته بين أحجار هناك.

وبأكشنبة جبل يعرف بجبل الجنة كثيرا ما يتصوع منه ريح العود الذكى إذا أرسلت فيه النار، وببسم شحذونة يوجد أطيب العنبر الغربى الوردى، وفى جبل المتلون المحلب الذى لا يعدل به.

قال أحمد بن محمد بن موسى الرازى: وهو المقدم فى الأفاوة المفضل فى أنواع الأشنان لا ينبت بشىء من الأرض إلا بالهند وبالأندلس.

وفى جبل بإلبيرة السنبل الفائق الطيب، وبنواحى المتلون يكون البرباريس العجيب.

---

(١) إلبيرة: كورة كبيرة من كور الأندلس، ومدينة متصلة بأراضى كوة قَبْرَة، فى أرضها معادن فضة وحديد ونحاس وحجر التوتيا، وفيه عدة مدن، منها قسطيلية وغرناطة وغيرهما. مراصد الاطلاع ١/ ١١١.

(٢) انظر فى ذلك: صورة الأرض ١٠٩.

وبجبل أندة يوجد القسط الطيب المر المذاق، ويوجد أيضا بالجبل المنسوب إليه جبل القسط، وهو بين حصن قاشتروا ومارتش.

والجنطيانا يجلب من الأندلس إلى جميع الآفاق وهو عفير رفيع يوجد بلبلة.

وبجزيرة سطين الزبد النفيس المصمغ الطرفين، ويوجد بجبال قلعة أيوب المر الطيب، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة.

وأطيب القرمز قرمز الأندلس وأكثر ما يكون بنواحى إشبيلية ولَبْلَة وشذونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق، وبناحية لورقة من ناحية تدمير يكون حجر الأزدرد الجيد، وقد يوجد فى غيرها.

وعلى مقربة من حصن منتون من عمل قرطبة معدن البلور بجبل شجيران، وهو بشرقى قبرة.

وحجر البجادى موجود بناحية مدينة الأشبونة، فى جبل هناك يتلألأ فيه ليلا كالسرج، والياقوت الأحمر يوجد فى ناحية حصن منت ميور من عمالة مالقة، إلا أنه دقيق جدا لا يصلح للاستعمال لصغره.

وحجر يشبه الياقوت الأحمر فى ناحية مدينة بجانة فى خندق بقرب ناشر يوجد أشكالا مختلفة كأنه مصنوع حسن اللون صبورا على النار.

وحجر المغنطيس الجاذب للحديد يوجد بموضع يعرف بالصنهاجين من كورة تدمير، وحجر الشادنة بجبل قرطبة كثير، وهو يرقى الدم ويستعمل فى ذلك التذاهيب، والحجر اليهودى فى ناحية حصن البونت، وهو أنفع شيء للحصى.

وحجر المرقشيتا الذهبية فى جبال أنطاندة التى لا نظير لها فى الدنيا ومن الأندلس يحمل إلى جميع الآفاق لفضلها.

والمغنيسيا بالأندلس كثير، وكذلك حجر الطلق، ويوجد اللؤلؤ بناحية مدينة برشلونة، إلا أنه جامد اللون.

والمرجان يخرج من بحر الأندلس، وقد خرج منه فى ساحل بحر إلبيرة من عمل المرية ما لقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين قنطارا.

ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع بها منه كثير ويجمع أيضًا فى ساحل الأشبونة.

ومعادن الفضة بالأندلس كثيرة فى كورة تدمير وجبال حمة بجانة، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل، وبأكشونبة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة، وله معادن بناحية إفرنجة وليون، ومعدن الزئبق فى جبل البرانش ومن هناك يتجهز به إلى الآفاق، ومعدن الكبريت الأحمر بالأندلس ومعادن الأصفر كثيرة.

ومعادن التوتيسا الطيبة بساحل إلبيرة بقرية تسمى بطرنة، وهى أزكى توتيسا وأقوى فى صنع النحاس، وبجبال قرطبة توتيسا وليست كالبطرنية.

ومعدن الكحل المشبه بالأصبهانى بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها إلى جميع البلاد، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس والرصاص بالأندلس أكثر من أن تحصى.

(١) [والأندلس دار جهاد وموطن رباط قد أحاط بشرقها وشمالها وبعض غربها أصناف أهل الكفر.

وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كتب إلى من انتدب إلى غزو الأندلس: أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس وإنكم إن استفتحتموها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر والسلام.

وروى عن كعب الأحبار أنه قال: «يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها يعرفون بنورهم يوم القيامة»(٢).

ودخل الأندلس رجل واحد من أصحاب النبى ﷺ، وقال عبد الملك بن حبيب: «اسمه المنيذر الإفريقى»، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قال رضيت بالله ربا إلى آخرها فأنا الزعيم له لآخذن بيده فأدخله الجنة».

ودخلها من التابعين حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن نهر بن قنان بن ثعلبة بن ثامى النسائى يكنى أبا راشد، وهو صنعانى من صنعاء الشام ويعد فى المقربين، ويقال حنش بن على، والصواب ابن عبد الله، وهو الذى أسس المسجد الجامع بسرقسطة، وكان مع على بالرقَّة.

---

(١) من هنا يبدأ النقل عن البكرى فى الروض المعطار ٣٣.

(٢) الروض المعطار ٣٣.

فلما قتل انتقل إلى مصر وموضع محرابه وقبره بسرقسطة معلوم.

ومنهم على بن رباح اللخمى البصرى ويكنى أبا موسى، لقى أبا هريرة وعمرو ابن العاص وعلقمة بن عاد وروى منهم، وقبره أيضا بمدينة سرقسطة معلوم.

ومنهم حيوة بن رجاء التميمى وأبو عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد الجبلى الأنصارى وعياض بن عقبة الفهرى وموسى بن نصير بن عبد الرحمن بن يزيد يقال بكرى ويقال لخمى، ويقال إن نصيرا وحمدان مولى عثمان من سبى عين التمر وإن نصيرا أعتقه صبيح مولى أبى العاص بن أمية.

ومن كتب الخزانة غير المترجم أن نصيرا أصابه خالد بن الوليد فى علوج عين التمر وادعوا أنهم رهن وأنهم من بكر بن وائل نصار وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه فمن أجل هذا يختلف فيه.

وعقد الوليد لموسى على إفريقية سنة ثلاث وثمانين، وكان مولد موسى سنة تسع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان معاوية قد جعل نصيرا أبا موسى على حرسه فلم يقاتل معه عليا ـ رضى الله عنه ـ فقال له معاوية: «من منعك فى الخروج معى على علىّ ولم تكاف يدًا لى عليك؟»، فقال له: «لم يمكنى أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى منك»، قال: «ومن هو؟» قال: «الله تعالى»][1].

ومسافة ما يملك المسلمون من الأندلس ـ وذلك من مدينة أكشوبنة إلى مدينة أشقة ـ فذلك ثلاثمائة فرسخ طولا، ومن قرطاجنة الخلفاء إلى الفهمين ثلاثون فرسخا عرضا.

* * *

(١) إلى هنا يقف النقل فى الروض المعطار عن البكرى ٣٣.

ذكر مدينة قرطبة[1]

ذكر أن تفسير قرطبة بلسان القوط قرطبة بالظاء المعجمة، ومعناه بلسانهم القلوب المختلفة، وقيل: «معنى قرطبة آخر فاسكنها».

ودور مدينة قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع، ولها من الأبواب باب القنطرة وهو بقبليها ومنه يعبر النهر على القنطرة، والباب الجديد وهو بشرقيها، وباب عامر وهو بين الغرب والجوف منها، وغيرها.

وقصر مدينة قرطبة بغربيها متصل بسورها القبلى والغربى، وجامعها بإزاء القصر من جهة الشرق، وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المحجة العظمى التى بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة.

وكان طول سقف البلاطات من المسجد الجامع وذلك من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسًا وعشرين ذراعًا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وثلاثين ذراعا، ثم زاد الحكم فى طوله فى القبلة مائة ذراع وخمس أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعا.

وزاد محمد بن أبى عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة الشرق ثمانين ذراعا، فتم العرض مائتين وثلاثين ذراعًا.

وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطًا عرض أوسطها ست عشرة ذراعا وعرض كل واحد من اللذين يليانه شرقًا واللذين يليانه غربًا أربع عشرة ذراعا، وعرض كل واحد من الستة الباقية إحدى عشرة ذراعًا، وزود ابن أبى عامر فيه ثمانية بلاطات عرض كل واحدة عشر أذرع.

وطول الصحف من المشرق إلى المغرب مائة وثمان وعشرون ذراعا، وعرضه من القبة على الجوف مائة وخمس أذرع، وعرض السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعًا.

---

(١) انظر فى ذلك، الروض المعطار ٤٥٦ـ٤٥٩ والبلدان لليعقوبى ٣٥٤ وصورة الأرض ١٠٧ ونزهة المشتاق ٢/ ٥٧٤ـ٥٨٢.

وعدد أبوابه تسعة منها ثلاثة فى صحنه غربا وشرقا وجوفا وأربعة فى بلاطه اثنان غربيان واثنان شرقيان، وفى مقاصير النساء من السقائف بابان. وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمود أساطين رخام كلها.

وقباب مقصورة الجامع مذهبة وكذلك جد المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محصنة، وارتفاع الصومعة اليوم ـ وهى من بناء عبد الرحمن بن محمد ـ ثلاث وسبعون ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستدير فيها المؤذنون.

وأرؤس هذه القبة تفاح ذهب وفضة وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعا، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانى عشرة ذراعا.

وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصى وضبط أربعمائة وواحد وتسعون مسجدا.

وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة، وكانت جباية هذه الأقاليم فى أيام الحكم بن هشام من ناص الحسد وناص الظبل وناص البيزرة للعام مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، ومن ضيقة القمح مديا أربعة آلاف مدى وستمائة وسبعة وأربعين مديا، ومن الشعير سبعة وأربعين ألف مدى.

قال المؤلف: «عقب الفتنة التى كانت على رأس أربعمائة من الهجرة واستمرت إلى وقتنا هذا. وهو سنة ستين وأربعمائة عفت آثار هذه القرى وغيرت رسوم ذلك العمران فصار أكثرها خلاء بندب ساكنه».

وكذلك حكم الله فى كل جديد أن يبليه وفى كل أهل أن يخليه حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

* * *

ذكر مدينة إشبيلية[1]

وهى قديمة أولية، زعم أهل العلم باللسان اللطنية أن أصل تسميتها إشبال معناه المدينة المنبسطة، ويقال إن الذى بناها يولش قيصر وأنه أول من تسمى قيصر وكان سبب بنائه إياها أنه لما دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجب بكرم ساحته وطيب أرضه وجبله المعروف بجبل الشرف، فردم على النهر الأكبر مكانا وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر صلب، وبنى فى وسط المدينة قصبتين عجيبتين تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس واشتق لها اسما من اسمه ومن اسم رومية فسماها مدينة رومية يوليش، ولم تزل معظمة عند العجم من ذلك الوقت، وقد كان منها رجال ولوا قيادة العجم العظمى والمملكة بمدينة رومية.

وروى ابن وضاح أن المرأة التى قتلت يحيى بن زكريا عليه السلام من إشبيلية من قرية طالقة، وقد قيل إن رأس أشبيلية لقيصر أكتبيان ومدينة أشبيلية موفية على النهر وهى فى غربيها ويذكر فى بعض الأخبار أن إشبان بن طيطش من ذرية طوبيل بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ كان أحد ملوك الإشبانين خص بملك أكثر الدنيا وأن بدء ظهوره كان من إشبيلية فغلظ أمره وبعد وصيته وتمكن فى كل ناحية سلطانه.

فلما ملك نواحى الأندلس وطاعت له أقاصى البلاد خرج فى السفن من إشبيلية إلى إيليا فغنمها وهدمها وقتل بها من اليهود مائة ألف وسبى مائة ألف وفرق فى البلاد مائة ألف، ونقل رخامها إلى إشبيلية وماردة رباجة، وأنه صاحب المائدة التى ألقيت بطليطلة وصاحب الحجر الذى وجد بمارده وصاحب قليلة الجوهر التى كانت بماردة أيضًا على حسب ما ذكر فى فتح الأندلس، وأنه حضر خراب المقدس الأول مع بخت نصر وحضر الخراب الذى كان مع قيصر بشبيشان

---

(١) انظر فى إشبيلية: البلدان لليعقوبى ٣٥٤ والروض المعطار ٥٨ـ٦٠ ونزهة المشتاق ٢/ ٥٤٠ـ٥٤١.

وأدريان، ويذكر أنه من طائفة إشبيلية.

وفى سنة عشرين من دولته أتقن بنيان إيلياء.

من مضى من ملوك الأعاجم يتداولون بمسكنهم أربعة من مدن الأندلس: إشبيلية وماردة وطليطلة وقرطبة، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها.

وكان سور إشبيلية من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر أحكم بناء.

وكذلك جامعها اليوم من بنائه وهو من عجيب المبانى وجليلها، وصومعته بديعة الصنعة غريبة العمل أركانها الأربعة عمد فوق عمد إلى أعلاها، فى كل ركن ثلاثة أعمدة.

فلما مات عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج - وذلك فى محرم سنة إحدى وثلاثمائة - قدم أهلها أحمد بن مسلمة، وكان من أهل البأس والنجدة، فأظهر العناد وجاهر بالخلاف، فأخرج إليه عبد الرحمن بن محمد قائدا من قواده بعد قائد حتى افتتحها على يدى الحاجب يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة، واستعمل عليها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، فهدم سورها وألحق أعاليه بأسفله وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور صخر رفيع وأبراج منيعة، وهو على ذلك إلى اليوم.

وبنى سور المدينة فى الفتنة بالتراب، وله من الأبواب باب أبى العاص غربى ومنه الخروج إلى الشرق، وباب حميدة غربى أيضا بإزاء المقبرة، وباب قرمونة شرقى.

ويطل على إشبيلية جبل الشرف، وهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة فراسخ فى فراسخ طولا وعرضا، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه.

ولها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة.

وبإشبيلية آثار للأول كثيرة، وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها.

وإشبيلية من الكور المجندة نزلها جند حمص، ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق.

ولإشبيلية من الأقاليم: إقليم المدينة، إقليم أليه، إقليم السهل، إقليم الشعراء، إقليم البصل، إقليم طالقة، إقليم الشرف، إقليم الوادى، إقليم طشانة، إقليم الفحص، إقليم قرطشانة، إقليم المنستير.

وانتهت جبايتها فى أيام الأمير الحكم بن هشام خمسة وثلاثين ألف دينار ومائة دينار.

وفى إقليم طالقة وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى وكأن حية تريده، لم يسمع فى الأخبار ولا رئى فى الآثار صورة أبدع منها جعلت فى بعض الحمامات وتعشقها جماعة من العوام.

* * *

ذكر الجزيرة[1]

ومدينة الجزيرة على ربوة مشرفة على البحر ولها أقاليم.

وكانت جباية كورة الجزيرة ستمائة دينار وثمانية عشر دينارا.

قال محمد بن وضاح: حدثنا زهير بن عباد الكلاعى عن ابن عم وكيع بن الجراح الكوفى قال: لقيته بمصر ولقيته فى رحلتى الثانية بالشام وأخذت عنه علما كثيرا شيخ ثبت، قال: أهل الجزيرة من بلاد الأندلس هم الذين أبوا أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام.

بها أقام الخضر الجدار وخرق السفينة وأسلم الجلندى، وكان يأخذ كل سفينة غصبا كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز.

* * *

(١) انظر فى ذلك: البلدان لليعقوبى ٣٥٤.

ذكر ماردة وبَطَلْيَوْس

ماردة[١] بجوفى قرطبة منحرفة إلى الغرب قليلا، وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثرت بها آثارهم والمياه المستجلبة إليها.

وكان قد أحدق بها سور عرضه اثنتا عشرة ذراعا وارتفاعه ثمانى عشرة ذراعا، وعلى بابها كتابة ترجمتها: براءة لأهل إيليا من عمل فى سورها خمس عشرة ذراعا.

ولماردة حصون وأقاليم، من ذلك مدلين وحصن مورش وحصن أم غزالة وحصن الأرش وحصن أم جعفر وحصن الجزيرة وحصن الجناح وحصن الصخرة المعروفة بصخرة أبى حسان وحصن لقرشان وحصن سنت أقروج فى غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره، وغيرها من الحصون يكثر ذكرها.

وبطليوس[٢] هى حديثة الاتخاذ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى بإذن الأمير محمد لما أخرجه من قلعة الحنش ولجأ إلى حصن مرنيط من حصون جليقية، انعقد سلمه على أن يستقر ببطليوس ويتخذها دارا، وهى إذ ذاك خالية، فبناها لنفسه ومن معه.

فلما توطد له الملك كتب إلى الأمير عبد الله ـ وقد تولى الأمر ـ أن يجدد له سجلا على بلده وعقدا على قومه المولدين، فأجابه إلى ذلك، ثم كتب إليه ألا مسجد جامع له يعلن فيه الدعاء للأمير ولا حمام يغتسل فيه، فهم على كثرتهم بادية وإن تحضروا، وسأله أن يرسل إليه فعلة يبنون له الجامع والحمام فيلحق البلد بالحواضر، فأجابه إلى ما أراد.

ولبطليوس أقاليم وحصون كثيرة.

* * *

(١) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤٥ـ٥٤٦.

(٢) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤٥.

ذكر مدينة طليطلة[١]

معنى طليطلة باللطينى تولاظو[٢]، معناه فرح ساكنها يريدون لحصانتها ومنعتها.

وفى كتب الحدثان كان يقال: طليطلة الأطلال، بنيت على الهرج والقتال، إذا وادعوا الشرك، لم يقم لهم سوقة ولا ملك، على يد أهلها يظهر الفساد، ويخرج الناس من تلك البلاد.

ومدينة طليطلة قاعدة القوط ودار مملكتهم، ومنها كانوا يغزون عدوهم وإليها كان يجتمع جنودهم، وهى إحدى القواعد الأربع المتقدم ذكرها وهى أقدمهن، ألفتها القياصرة مبنية، وهى أول الإقليم الخامس من السبعة الأقاليم التى هى ربع معمور الأرض، وإليها ينتهى حد الأندلس الأدنى ويبتدئ بعدها الذكر للأندلس الأقصى.

وأوفت على نهر تاجة وبها كانت القنطرة التى كان يعجز الواصفون عن وصفها، وكان خرابها فى أيام الإمام محمد.

ومن خواصها أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على مر السنين يتوارثها الخلف عن السلف، وزعفران طليطلة هو الذى يعم البلاد ويتجهز به إلى الآفاق، وكذلك الصمغ السماوى.

وأول من نزل بها من ملوك الأندلس لوبيان، وهو الذى بنى مدينة رقوبل وهى على مقربة من طليطلة، وسماها باسم ولده، ومنها ولّى الأساقفة على الكور وبها

---

(١) طُلَيْطِلة: إحدى المدن الأربع التى بُنيت فى مدة قيصر أكتبيان الذى يُؤرخ من مُدَّته مُدَّة الصُّفْر، وتأويل اسمها: أنت فارح وهى فى الإقليم الخامس مَوْسَطة، منها إلى الحاجز الذى هو درب الأندلس نحو نصف شهر، وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شِلْبة ومنها إلى قرطبة وإلى غرناطة وإلى مُرَسِية، إلى بَلَنْسِية نحو سبعة أيام، ونهر تاجة قِبْلِيّها.
وهى مدينة منيعة جليلة، ليس فى الجزيرة مدينة أمنع منها، وأهلها يخالفون على بنى أمية، وهم أخلاط من العرب والبربر. ولهم نهر عظيم يقال له دُوير. انظر المغرب فى حلى المغرب ٨/٢ والبلدان ٣٥٥.

(٢) الروض المعطار ٣٩٤.

مجتمعهم للمشورة، وكان عددهم ثمانين أسقفا لثمانين مدينة من حوز الأندلس كجليقة وطركونة وقرطاجنة.

وكانت قبل ولايته فرقًا، فائتلف أمر الناس وانقطع الخلاف وأحبه الخاص والعام.

وهو الذى بنى الكنائس الجليلة والمعالم الرفيعة، وبنى الكنيسة المعروفة بالمردقة واسمه مزبور على بابها، وهى بين حاضرة إلبيرة ووادى آش.

ولها أقاليم وحصون.

* * *

ذكر طلبيرة[١]

ومدينة طلبيرة أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التى يدخل منها إلى أرض المشركين، وهى قديمة على نهر تاجة.

* * *

ذكر تطيلة[٢]

وكان بتطيلة بعد الأربعمائة من الهجرة أو على رأسها امرأة لها لحية كاملة سابغة كلحى الرجال، وكانت تتصرف فى الأسفار وسائر ما يتصرف فيه الناس حتى أمر قاضى الناحية نسوة من القوابل بالنظر إليها، فأحجمن عن ذلك لما عاينه من منظرها فأكرههن على ذلك فإذا بها امرأة، فأمر القاضى بحلق لحيتها وأن تتزيا بزى النساء ولا تسافر إلا مع محرم.

ولتطيلة مدن وبناءات، منها طرسونة وغيرها، وقلعة أيوب محدثة.

(١) نزهة المشتاق ٢/ ٥٥٠ـ٥٥١.

(٢) تُطيلة: باشتهارها فى الحرب وطيب الزرع يُضرب المثل فى الأندلس وهى مُحْدَثة، بنيت فى مُدّة سلاطين لبنى مروان، كان فيها فى مدة بنى مروان بنو موسى، تغلَّبوا على الثغر، وكان لهم فى طلب الملك دوىّ، ولمَّا ثارت ملوك الطوائف صارت تابعة لَسَرَقُسْطة داخلة فى دولة بنى هود. المغرب فى حلى المغرب ٢/ ٩٤٩ وانظر البلدان ٣٥٥.

ذكر مدينة بربشتر

ومدينة بربشتر من بلاد بريطانية وبعضها فى ملك المسلمين وبعضها للعجم اليوم.

وحصن بربشتر على نهر تارة، وبربشتر من أمهات مدن الثغر الفائقة فى الحصانة البائنة فى الامتناع.

وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة أهل غاليش والروذمانون، وكان عليهم رئيس يسمى البيطين وكان فى عسكره نحو أربعين ألف فارس، فحاصرها أربعين يوما حتى افتتحها، وذلك سنة ست وخمسين وأربعمائة، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذرارى المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة.

ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه.

وفتحها بعد ذلك أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة مع أهل الثغور واستنجد بحلفائه من رؤساء الأندلس، ونهد إليها فى جمع كثيف ذوى جد وحد، ففتحها الله عز وجل على يديه عنوة، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية، وأدخل منها سرقسطة نحو خمسة آلاف سبية ونحو ألف فرس وألف درع وأموالاً كثيرة وثيابًا جليلة.

وكان افتتاحه لها لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، ومنذ ذلك تسمى أحمد بن سليمان المقتدر بالله.

ولبربشتر حصون. . .

* * *

ذكر مدينة برشلونة[١]

وأما مدينة برشلونة فهى من القسم الثالث من الأندلس مسوّرة على ساحل البحر، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة ولها ربض خارج منها.

وصاحب برشلونة اليوم راى مند بن بلنقير بن برّيل، وكان خرج يريد بيت المقدس سنة ست وأربعين وأربعمائة فنزل مدينة نربونة على رجل من كبراء أهلها، فتعشق امرأته وتعشقته، ثم تمادى فى سفره حتى وصل بيت المقدس، ثم كر راجعا حتى أتى نربونة فنزل على ضيفه بها، وليس له هم إلا امرأته، فتحكم ذلك التعاشق بينهما واتفق معها على أن تعمل الحيلة فى الهروب إليه من بدلها فيزوجها من نفسه، فلما وصل إلى برشلونة أرسل إليها قوما من اليهود فى ذلك.

ودخل صاحب طرطوشة فى الأمر فأوصلهم فى الشوانى إلى نربونة، فلم تتوجه اليهود الحيلة فى أمرها وأحس زوجها ببعض شأنها وكان بها كلفا، فثقّفها فكان تثقيفه لها سببا لمعونة أهلها على مرادها.

فوصلت مع قوم منهم إلى برشلونة، فنزل راى مند عن امرأته وتزوج النربونية، فلبست الأولى المُسُوح وخرجت مع جماعة من أهل بيتها إلى رومة حتى أتت عظيمها وصاحب الدين بها، وهو الذى يسمونه البابه، فشكت إليه ما صنع زوجها وأنه تركها بغير سبب، وهو أمر لا يحل فى دينهم، وأنه لا يجوز لهم فعله، وإنما حمله على ذلك عشقه للنربونية.

وشهد لها شهود قبلهم، فحرم البابه على صاحب برشلونة دخول الكنائس وأمر ألا يدفن له ميت وأن يتبرأ منه جميع من يعتقد النصرانية، فلما علم ذلك علم أنه لا حيلة له معه ولا بقاء فى أفق يكون فيه لنصرانى حكم.

فبذل الأموال ودس مشاهير الأساقفة والقسيسين وأوطأهم على الشخوص إلى البابه وأن يشهدوا له بأنه تقصى عن نسب المرأة التى ترك فوجدها منه بقربى يحرمها عليه، وأن النربونية فرّت من زوجها لذلك لأنه كانت منه بنسب وكان

(١) انظر فيها: نزهة المشتاق ١/ ٢٣١ والروض المعطار ٨٦ـ٨٧.

يكرهها على المقام معه.

فنفذ القوم إلى البابه وشهدوا للقومس ما أوطأهم عليه، فقبلهم وأباح له دخول الكنائس ودفن من مات له وسائر ما حجر عليه.

* * *

ذكر بلد جليقية(١)

قسمه الأوائل على أربعة أقسام:

فالقسم الأول: هو الذى يلى الغرب وينحرف إلى الجوف، وساكنوه هم الجلالقة وموضعهم جليقية، وكانوا حوالى مدينة براقرة التى هى متوسطة الغرب.

ومدينة براقرة هى مدينة أولية من بنيان الروم، وقواعدهم وبعد مملكتهم شبيهة بمدينة ماردة فى إتقان بنائها وصنعة أسوارها، وهى اليوم مهدومة الأكثر خالية هدمها المسلمون وأجلوا أهلها.

القسم الثانى: هو المسمى بأشتورش وسمى بذلك بواد لهم يقال له اشترو منه شرب جميع بلادهم.

والقسم الثالث: ما كان من جليقية بين الغرب والقبلة ويسمى أهله البرتقالش.

والقسم الرابع: ما كان بين الشرق والقبلة ويسمى بقشتيلة، وقشتيلة القصوى وقشتيلة الأدنى، فالأدنى من حصونها غرنون والقصير وبرغش وأماية.

* * *

---

(١) انظر فيها: الروض المعطار ١٦٩ـ١٧٧ ونزهة المشتاق ٢/ ٧٢٥.

جملة القول فى بلاد الجليقين
وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة
على ما أورده إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى

قال إبراهيم: بلد الجليقين سهل جميعه والغالب على أرضه الرمل، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتخذ من الدقيق.

وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون[١] ولا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم تنعم أجسامهم وتصح أبدانهم، وثيابهم أضيق الثياب وهى مفرّجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم.

ولهم بأس وشدة لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه.

* * *

ذكر بلاد إفرنجة[٢]

فى وسط الإقليم الخامس، وهواؤها غليظ لشدة بردها ومصيفها معتدل، وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج، ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء.

وآخر حدودها بحر الشام وحد آخر البحر المحيط، البحر الشامى بقبليها، والبحر المحيط بجوفيها، وتتصل ببلاد رومة أيضًا من ناحية القبلة، وتتصل أيضًا من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفّة مسيرة الأيام الكثيرة، وتتصل فى الشرق أيضا بالصقالبة، وتتصل فى الغرب بالبشكنس، وتتصل أيضا ببلاد

---

(١) الروض المعطار ١٦٩.

(٢) راجع فى ذلك: الروض المعطار ٥٠.

بيورة، وهم الذين يعرفون بالأمانيش ولهم كلام غير كلام الإفرنج.

وتتمادى أعمال إفرنجة فى الطول والعرض مسيرة شهرين فى شهرين مع غيرها من القبائل، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة فى الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين.

فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلى الشامى حتى يلزق بجزيرة رومة وبلد لنقبردية.

ويتمادى مع الجبل المعترض فى الجوف إلى البحر المحيط، ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش، وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند.

***

ذكر البرتونين

لهم لغة تَمُجُّها الأسماع، ومناظر قبيحة، وأخلاق سيئة، وهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسترقونهم والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد.

ومن البرتونيين والجلالقة والبشاكسة كان حشد طيطش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس.

***

تم بحمد الله كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

***

• الفهارس العامة •



١ . فهرس الآيات القرآنية

سورة الأعراف (٧)

سورة الأنفال (٨)

سورة التوبة (٩)

سورة يونس (١٠)

سورة هود (١١)

* * *

٢ ـ فهرس الحديث والأثر

* * *

٣ـ فهرس الأمثال والأقوال

* * *

٤ ـ فهرس الكتب الواردة فى الكتاب

❊ ❊ ❊

٥ـ فهرس القوافى

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		قافية الهمزة			
عَصَتْ	السَّمَاءُ	الوافر	مرثد بن سعد	٢	١/ ٤٨ ـ ٤٩
تُدَبِّرُ	ما يشاءُ	الوافر	—	١	٢/ ١٤١
		قافية الباء			
		فصل الباء المفتوحة			
أَبُوكَ	رَاغبا	الطويل	سالم بن زرارة الغطفانى	٢	١/ ١٠٩
يا عمرو	أَنصَابا	البسيط	شحنة بن خلف الجرهمى	٣	١/ ٣٠٠
وفى زغْوَانَ	السحابا	الوافر	—	١	٢/ ٢٢٢
وكان منَّا	مَسَارِبَهَا	المنسرح	أبو نواس	١	١/ ٢٧
		فصل الباء المضمومة			
فَقُلْتُ	لَطَبِيبُ	الطويل	—	١	١/ ١١٦
عَجِبْتُ	اضطرابُ	الوافر	الزبير بن عبد المطلب	٩	١/ ٣١٣
الموتُ	خَصِيبُ	الكامل	بكر بن حمَّاد	١	٢/ ١٨٢
		فصل الباء المكسورة			
فَوَيْلٌ	الْمُتَغَاصِب	الطويل	الجربى	١	٢/ ٢١٥
أَلَيْس	وبالضَّرْبِ	الطويل	إدريس بن إدريس الحَسَنى	٢	٢/ ٣٠٨
ألا نَادَتْ	للصَّوَابِ	الوافر	أبو العتاهية	٢	١/ ٢٣٩
الموتُ	خَصِيب	الكامل	بكر بن حمَّاد	١	٢/ ١٨٢
ابْدِى	فارْكَبِى	مشطور الرجز	—	٣	١/ ١٠١
		قافية التاء			
		فصل التاء المفتوحة			
بِدَمْعِهَا	مَاتَا	البسيط	ذو جدن الحميرى	٢	١/ ٢٦٥

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
			فصل التاء المكسورة		
ما أحْسَنَ	بتيهرتِ	السريع	بكر بن حماد	٢	٢/ ٢٤٨

قافية الجيم

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
			فصل الجيم المكسورة		
مَنْ كَان	سَرْجِى	الكامل	أبو عبد الله الشيعى	٤	٢/ ٢٣٠

قافية الحاء

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
			فصل الحاء المضمومة		
ألَمْ تَدْرِ	رَائحُ	الطويل	عَبِيد	٢	١/ ١١٤
لَسَلَّمَتْ	صَائحُ	الطويل	تَوْبَة بن الحُمَيْر	١	١/ ١٠٣
تَغَيَّرتْ	قَبِيحُ	الوافر	ـــ	٦	١/ ٢٣

قافية الدال

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
			فصل الدال المفتوحة		
إذَا	وأسودا	الطويل	إسحاق بن يزيد العدوى	٣	١/ ٢١٢
سَيُغْلَبُ	وأكيدا	الطويل	ـــ	٢	١/ ٩٤
ومأمورة	رُشْدًا	الطويل	أبو نواس	٢	١/ ١٨٥
اسْلَخْ	أَحَدا	البسيط	أحمد بن فتح التيهرتى	٢	٢/ ٣٠٧
فَزِعَتْ	مُؤَيَّدا	الكامل	ـــ	٢	١/ ٩٣
اختَرْتَ	أَرْمَدا	مشطور الرجز	ـــ	٤	١/ ٤٧ ـ ٤٨
وبعدها	أفْسَدا	مشطور الرجز	ـــ	٤	٢/ ٢٣٦
يا سيِّد	مُنْقادَهْ	المنسرح	ـــ	٢	٢/ ٢٠٠ـ٢٠١
			فصل الدال المكسورة		
ونَحْنُ	ومُلْحد	الطويل	عمرو بن الحارث	١	١/ ١٩٧
ألم يأتِيكَ	العَبِيدِ	الوافر	ـــ	٤	١/ ٢١٦
أَبَا سَعْد	ثَمُودِ	الوافر	معاوية بن بكر	٦	١/ ٤٧
لو أنَّ	هُودِ	مشطور الرجز	النبهان بن الخليل	٣	١/ ٤٤٨

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
قد قال	الهندِي	مشطور الرجز	ـــــ	١٠	١/ ١٧٠ـ١٧١

قافية الراء

فصل الراء الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
شكَوْنا	البَقَرْ	المتقارب	ـــــ	٢	٢/ ٥

فصل الراء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وَأبْنَاءُ	السَّنَّوَّرا	الطويل	جرير	٢	١/ ٢١٢
يا عُدْوَةَ	مَمْطُورا	البسيط	محمد بن إسحاق البجلى	٢	٢/ ٣٠٠
لا نَوْمَ	ولا قرارا	مشطور الرجز	ـــــ	٢	٢/ ١٨٩

فصل الراء المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
كأن	سَامِرُ	الطويل	مضاض بن عمرو بن الحارث	٢	١/ ٢٩٨
وكنَّا	ظاهِرُ	الطويل	مضاض بن عمرو بن الحارث	١	١/ ٢٩٦
واصبِرْ	القَدَرُ	البسيط	ـــــ	٢	١/ ٢٨٥
مَنْ ذا	تَنصرُهُ	مجزوء البسيط	ـــــ	١	١/ ٢٣٧
ألَمَّ	نَصِيرُ	الوافر	أحمد بن بلج السوسى	٦	٢/ ٢٠٨
نَقَضَ	تدورُ	الكامل	ـــــ	٣	١/ ٢٣٩
وبنُو	مَذْكُورُ	المتدارك	عَدِىّ بن زيد العبادى	١	١/ ٦١

فصل الراء المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
دَعَا	لوبَارِ	الطويل	رجل من وبار	١	١/ ١٠٣
وقالوا	باهِرِ	الطويل	عبد الله بن أحمد الطنجى	٦	٢/ ٢٨٣ـ٢٨٤
نَأى	أسْرِ	الطويل	سعيد بن واشكل التيهرتى	٦	٢/ ٢٤٤
مُلوكُ	والجَمْرِ	الطويل	المنتصر بن المنذر	٣	١/ ٦٦
ولَمَّا	الكراكرِ	الطويل	حسان بن ثابت	١	١/ ١٢٠
كانَتْ	جارِ	البسيط	حُبَاب بن عمرو	٢	١/ ٢٣٠
كما قال	لأمْرِ	الوافر	ـــــ	٢	٢/ ١٥
أبَعْدَ	والسَّدِيرِ	الوافر	عبد المسيح بن بقيلة	٤	١/ ١٧٣
وقامَ	الكُفْرِ	السريع	ـــــ	١	٢/ ٨٠
نَوَادِرُ	الجَمْرِ	السريع	ـــــ	٢	١/ ١٨٤

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يا أيُّها	أشيرِ	السريع	عبد الملك بن عيشون	٣	٢/ ٢٤١
يوم	الأخيارِ	الخفيف	ــــ	٦	١/ ٢٧١

قافية السين

فصل السين الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
لا أحَدَ	جديسْ	الرجز	عفيرة بنت مازن	٢	١/ ١٠١
أيُّها	والدَّنَسْ	الرمل	ــــ	٦	٢/ ٢٤٤

فصل السين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يَاسِرْتُ	أَخْرَسُ	السريع	ــــ	٢	٢/ ١٧٨

فصل السين المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
دَخَلْتُ	فاسِ	الرجز	إبراهيم بن محمد الأصيلى	٤	٢/ ٣٠١

قافية الشين

فصل الشين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وإذا	وَوَحْشُهُ	مشطور الرجز	عمرو بن الحارث	٤	١/ ٢٩٧

قافية الضاد

فصل الضاد المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
قَبح	وبَيَاضِ	الرجز	ابن الخزاز	٥	٢/ ٢٩٣

قافية العين

فصل العين الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
إنْ أذُقْ	الشَّنَعْ	الرمل	سويد بن أبى كاهل اليشكرى	٢	١/ ٢٧٢

فصل العين المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
أَلَمْ تَرَ	تَمزَّعَا	الطويل	عوف بن سعيد الجرهمى	٢	١/ ٧٠

فصل العين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
ولو نَطَقَتْ	وتُبَّعُ	الطويل	رجل من بنى نعيف	١	١/ ٣٣٤
ومَنْ يَسْكُن	جَائِعُ	الطويل	ــــ	١	١/ ٢٨٥

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
أَبْنى	أَرْفَعُها	البسيط	قُصَىّ بن كلاب	٢	١/ ٣٠٠

قافية الفاء

فصل الفاء المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
فَبَيْنَا	نتنصَّفُ	الطويل	حرقة بنت النعمان	٢	١/ ٢٧٥

قافية القاف

فصل القاف المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يا رِجْلَ	نَهِيقا	مشطور الرجز	—	٢	١/ ١٠٥

قافية الكاف

فصل الكاف الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
شَقٌّ	ولَكْ	مشطور الرجز	علقمة بن صفوان	٣	١/ ١٠٨
عَلْقَمُ	لَكْ	مشطور الرجز	شق الكاهن	٣	١/ ١٠٨
لاَهُمَّ	عبادَكْ	مشطور الرجز	عمرو بن الحارث	٣	١/ ٢٩٦

فصل الكاف المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
عَجَبًا	شَرِيكِ	الخفيف	—	٢	٢/ ٢٤٤

قافية اللام

فصل اللام المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
كَذَبْتَ	الفَضْلاَ	الطويل	الأحمسى	٣	٢/ ٢٧٨
فَإِنْ تَسْتَقِيموا	عَدْلاَ	الطويل	أبو عبد الله الشيعى	٢	٢/ ٢٧٨
لِيَطْلُبِ	أَحْوالاَ	البسيط	أبو زمعة	٣	١/ ٢٧١
عُبيد	فعَالا	الوافر	—	٢	٢/ ١٧٨
لَمْ تَرَ	مُثْقَلَهْ	الرجز	—	١	١/ ٢٤٥
مَضَى	السَّلْسَلَهْ	السريع	—	١	٢/ ٤٠
وأَدْهَمَ	الخَيْعِلاَ	المتقارب	تأبّط شراً	٥	١/ ١٠٤ـ١٠٥

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل اللام المضمومة			
أَقْسَمْتُ	رَحِيلُ	الكامل	الرمق بن زيد بن امرئ القيس	٤	١/ ٣٢٦
		فصل اللام المجرورة			
كأنَّ	مُزَمَّلِ	الطويل	امرؤ القيس	١	١/ ٣١٤
أَيُصْلِحُ	النَّمْلِ	الطويل	هزيلة بنت مازن	٤	١/ ١٠١
إذا مات	رِغَالِ	الوافر	جرير	١	١/ ٢٦٦
هذا	مُمَثَّلِ	الكامل	على بن ظفر	٢	٢/ ٢٠٤
سَائِلْ	الْمُتَهَلِّلِ	الكامل	بكر بن حماد	٣	٢/ ٣٢٧
إنْ كان	ظِلاَلَهْ	مشطور الرجز	امرأة من مأرب	٣	١/ ١١٧
لَمَّا طغى	الأَزْزَلِ	رجز	أحمد بن محمد المروزى	٢	٢/ ٢٧٩
ثم أتى	الجميلِ	السريع	أحمد بن محمد المروزى	١	٢/ ٢٣٠

قافية الميم

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل الميم الساكنة			
أَبْصَرْتُ	السَّقَمْ	الرجز	—	٦	١/ ١١٨
ففى ذلك	العَرِمْ	المتقارب	الأعشى	٥	١/ ١١٨
أقام	القُدُمْ	المتقارب	الأعشى	١	١/ ٢١٥
		فصل الميم المفتوحة			
أَتَيْنا	ظالمَا	الطويل	هزيلة بنت مازن	٣	١/ ١٠٠
لا خَيْرَ	محروما	البسيط	كشاجم	٣	١/ ١٨٥
إنَّك	الخَنْدَمَهْ	مشطور الرجز	حماس بن قيس	٧	١/ ٣١٣
من سَبَإٍ	العَرِمَا	المنسرح	الأعشى	١	١/ ١١٦
		فصل الميم المضمومة			
كُنَّا إذا	واغْتَرَمُوا	البسيط	قيس بن الخطيم	٢	١/ ٣٢٥
إنَّ الخوارِجَ	والإقدامُ	الكامل	سهل بن إبراهيم الوراق	٢	٢/ ٢٠٨
سُلِّط	هَامُ	الخفيف	—	١	١/ ١٠٣
أبا البخترىَّ	شَتَّامُهَا	المتقارب	—	٤	١/ ١٠٩

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل الميم المكسورة			
وَسُميتَ	للمحاجمِ	الطويل	—	١	٢/ ٣١١
زَمْزَمت	الأقدمِ	السريع	—	١	١/ ٢١٣
إنَّ	الإسلامِ	الخفيف	—	٢	٢/ ١٤_١٥

قافية النون

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل النون الساكنة			
أصبحَ	الجَنَنْ	مشطور الرجز	رجل من حضرموت	٤	١/ ٢٦٨
لم تَرَ	الاثنينْ	مشطور الرجز	أبو السنابل	٥	١/ ٤٤ ـ ٤٥
أصَمُّ	اليَمَنْ	الرجز	عبد المسيح بن بقيلة	٦	١/ ٢١٩
أزالَ	يَزَنْ	المتقارب	الأعشى	١	١/ ٧٥
		فصل النون المفتوحة			
يا أيُّها	تَسيرُونَا	البسيط	عمرو بن مضاض الجرهمى	٦	١/ ٢٩٩
نُفُوا	قاهرينا	الوافر	أميَّة بن أبى الصَّلت	٢	١/ ٢٦٧
وَهُمْ	الكاتبينا	الوافر	دعبل الخزاعى	٢	١/ ٢٠٤
قفى	مُبينَا	الوافر	سعيد بن هشام المصمودى	١٠	٢/ ٣٢٧
واقْتَنَينا	قاينا	مشطور الرجز	على بن الجهم	٤	١/ ٢١
عند	بالزيتونة	مشطور الرجز	—	٢	٢/ ٢٩١
سِرْنا	طُبْنَهْ	مشطور الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٤	٢/ ٢٢٩
بنى	حَصينَهْ	مشطور الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٢	٢/ ٢٦٦
		فصل النون المضمومة			
أمَّا سَألتَ	غَسَّانُ	البسيط	—	١	١/ ١٢٠
ما نالَ	ولا قارونُ	الرجز	—	١	١/ ٢٨
		فصل النون المكسورة			
ألَمْ تَروْا	وبُنْيان	الطويل	أبو الطمحان القينى	١	١/ ١١٧
من كانَ	زَبَّانِ	البسيط	—	١	٢/ ١٤١
أيا أمَلِى	وَدِينى	الوافر	أيوب بن إبراهيم النكورى	٤	٢/ ٢٧٤
الويل	دهانى	مشطور الرجز	—	٨	١/ ١٠٦

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وَبنَا سُمِّى	الفتيانِ	الخفيف	خطاب بن المعلى الفارسى	١	١/ ٢٠٧
نحن	السودانِ	الخفيف	ـــ	٣	١/ ٢٧٠
خَبِّرينى	بهَجينِ	الخفيف	جذيمة	٢	١/ ٢٧٣
أَنْتَ	للتَّزْيينِ	الخفيف	رقاش أخت جذيمة	٢	١/ ٢٧٤
وأرى	السَّاطرونِ	الخفيف	أبو دؤاد الإيادى	٢	١/ ٢١٤

قافية الهاء

فصل الهاء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
هَامِى	والمكروهَا	الكامل	أمية بن أبى الصَّلْت	١	١/ ١٠٣

قافية الياء

فصل الياء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
ثم أتَى	مَرْضِيَّهْ	الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٨	٢/ ٢٤٠

قافية الألف المقصورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
لولا	الرَّدَى	السريع	ـــ	١	٢/ ١٩٠

* * *

٦ـ فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

* * *

٧ ـ فهرس الأمم والقبائل والجماعات والفرق والطوائف ونحوها

❊ ❊ ❊

٨ـ فهرس الأماكن والجبال والمياه والمراسى ونحوها

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

٩ ـ فهرس مصادر الدراسة والتحقيق

(أ)

* آثار البلاد وأخبار العباد، للقزوينى ـ دار صادر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* أخبار الزمان ومن أباده الحَدَثان، لعلى بن الحسين المسعودى ـ تحقيق عبد العظيم الصاوى ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.
* أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى.
* الاستبصار فى عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول ـ تحقيق د/ سعد زغلول عبد الحميد ـ الإسكندرية ـ ١٩٥٨م.
* الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد السلاوى ـ القاهرة ـ ١٣١٢هـ.
* أسْد الغابة فى معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير ـ تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين ـ دار الشعب ـ ١٩٧٠م.
* الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى ـ مطبعة السعادة ١٣٥٨هـ.
* الأصمعيات، اختيار عبد الملك بن قريب الأصمعى ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ (ط) ٣ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ.
* الأعلاق النفيسة، لأحمد بن عمر رسته ـ بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والعرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (ط) ١٠ ـ ١٩٩٢م.
* الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ (ط) دار الثقافة ـ بيروت ـ (ط) (٦) ـ ١٩٨٣م ـ و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٢م.
* الإكليل، للهمذانى ـ جـ (٨) تحقيق الأب أنستاس الكرملى ـ ١٩٣٦م.
* أنساب الأشراف، للبلاذرى ـ تحقيق د/ محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.
* الأنوار فى محاسن الأشعار، لأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى ـ تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف ـ الكويت ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(ب)

* البَدْء والتاريخ، لمطهر بن طاهر المقدسى ـ تحقيق كلمان هوار ـ باريس ١٩١٩م.
* بدائع الزهور فى وقائع الدهور، لابن إياس الحنفى ـ دار الكوثر ـ دمشق بلا تاريخ.
* البداية والنهاية، لابن كثير ـ تحقيق محمد أبو ملحم وغيره ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٣) ـ ١٩٨٧م.
* البلدان، لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* البلدان، لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذانى، المعروف بابن الفقيه ـ تحقيق يوسف الهادى ـ عالم الكتب ـ ط (١) ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
* البيان المُغْرِب، لابن عذارى المراكشى ـ تحقيق كولان وليفى برفنسال ـ ليدن ـ ١٩٤٨م.
* البيان والتبيين، للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

(ت)

* تاج اللغة وصحاح العربية = الصحاح، للجوهرى ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط (٢) ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* تاريخ ابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تاريخ الخلفاء، للسيوطى، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
* تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، للحسين بن محمد الدياربكرى ـ مصر ١٢٨٣هـ.
* تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط (٤) ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ. و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٣) ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* تاريخ المغرب وحضارته، للدكتور حسين مؤنس، دار الغرب الإسلامى ـ بيروت.
* تاريخ مكة، للأزرقى، (ط) دار مكتبة الباز ـ السعودية.
* تاريخ مكة، للفاكهى.

* تاريخ اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبى ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠م.
* تحفة الناظرين، لعبد الله الشرقاوى ـ بهامش فتوح الشام ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تحفة النظار = رحلة ابن بطوطة.
* تذكرة الحفاظ، للذهبى ـ حيدر آباد الدكن بالهند ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.
* ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضى عياض ـ تحقيق د/ أحمد بكير محمود ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير الثعلبى= عرائس المجالس، للثعلبى ـ القاهرة ـ ١٢٨٢هـ.
* تفسير الطبرى = جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
* تفسير ابن عباس، بهامش الدر المنثور للسيوطى ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير القرطبى = الجامع لأحكام القرآن ـ مصر ـ ١٣٥٤ ـ ١٣٦٩هـ.
* تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٢) ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
* تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة ـ ط(١) ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
* تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للمزى ـ تحقيق بشار عواد معروف ـ ط(١) ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
* التيجان فى ملوك حمير، لوهب بن منبّه ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ـ ١٩٩٦م.

(ج)

* جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير ـ تحقيق محمد كامل الفقى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ ط(٢) ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
* جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبى جعفر الطبرى ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر، و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

* الجامع الصحيح = سنن الترمذى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

* الجامع الصغير، للسيوطى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

* الجامع الكبير، للطبرانى ـ دار الرشيد ـ العراق.

* الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

* جذوة الاقتباس فى تاريخ فاس، لابن القاضى ـ فاس ١٣٠٩هـ.

* جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

* جمهرة اللغة، لابن دريد ـ تحقيق رمزى منير البعلبكى ـ بيروت ـ لبنان ـ دار العلم للملايين ـ (ط) ١ـ ١٩٨٧م.

(ح)

* حسن المحاضرة، للسيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٦٧م.

* الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، لآدم متز، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ القاهرة ـ ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.

* حضارة العرب، لغوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر ـ القاهرة ٢٠٠٠م. ضمن سلسلة مكتبة الأسرة.

* الحلة السيراء، لابن الأبار، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٤٨م.

* الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، لمحمد بن محمد الوزير ـ دار الغرب الإسلامى.

* حلية الأولياء، لأبى نعيم، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٣٥٨هـ.

* الحماسة البصرية، لعلى بن الحسن البصرى ـ تحقيق الدكتور عادل جميل سليمان ـ القاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

* الحور العين، لنشوان بن سعيد الحميرى، تحقيق د/ كمال مصطفى ـ القاهرة ١٩٤٨م.

(خ)

* الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدى ـ دار الرشيد ـ العراق ١٩٨١م.

* الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، للدكتور محمد ضياء الريس ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط(٢) ـ ١٩٦١م.

* خزانة الأدب، للبغدادى ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ١٩٧٩م ـ ١٩٨٣م.
* خلاصة تذهيب الكمال، للخزرجى ـ القاهرة ـ ١٣٢٢هـ.

(د)

* الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، للسيوطى ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* الديباج، لأبى عبيدة معمر بن المثنى ـ تحقيق الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع، والدكتور عبد الرحمن العثيمين ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة ـ ط(١) ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر.
* ديوان الأعشى، نشرة د/ محمد كامل حسين ـ القاهرة.
* ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ط(٥) ـ ١٩٩٠م.
* ديوان أمية بن أبى الصلت، جمعه بشير يموت، بيروت ـ ط (١) ـ ١٩٣٤م.
* ديوان جرير بن عطية، تحقيق الدكتور نعمان أمين طه ـ دار المعارف بمصر ـ ط(٣) ـ ١٩٨٦م.
* ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ـ دار صادر بيروت ـ ط(٢) ـ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
* ديوان أبى نواس، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(ذ)

* الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لآقابزرك الطهرانى ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(ر)

* رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط(٢) ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٨م.
* رحلة التجانى، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجانى ـ قدَّم لها حسن حسنى عبد الوهاب ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا وتونس ـ ١٩٨١م.

* رحلة ابن جبير ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.
* رسالة الغفران، لأبى العلاء المعرى ـ تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥م.
* الروض الأنف، تفسير السيرة النبوية، للسهيلي ـ القاهرة ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.
* الروض المعطار فى خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميرى ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ مؤسسة ناصر للثقافة ـ ط(٢) ـ ١٩٨٠م.
* رياض النفوس، للمالكى ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥١م.

(س)

* سمط اللآلى، لأبى عبيد البكرى ـ تحقيق عبد العزيز الميمنى ـ لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م.
* سنن أبى داود ـ دار الريان للتراث ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م.
* السيرة النبوية، لابن كثير ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٩م.
* سيرة ابن هشام، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

(ش)

* شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى ـ المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٥م.
* شرح أبيات سيبويه، لابن النحاس ـ تحقيق الدكتور زهير غازى زاهد ـ دار النهضة العربية، وعالم الكتب ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٩٨٦ ـ ١٣٠٦هـ.
* شرح المعلقات السبع، للزوزنى ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.
* شعراء النصرانية، للويس شيخو ـ دار المشرق ـ بيروت ـ ط(٣) ـ ١٩٦٧م.
* الشعر والشعراء، لابن قتيبة ـ تحقيق أحمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٦م.
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، للفاسى ـ مصر ١٩٥٦م.

(ص)

* صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ لأحمد بن على القلقشندى ـ المؤسسة المصرية العامة ـ بلا تاريخ.

* صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة بلا تاريخ.
* صفة جزيرة العرب، للهمدانى ـ تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى ـ القاهرة ـ ١٩٥٣م.
* صفة الصفوة، لابن الفرج الجوزى ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٥٥هـ.
* صورة الأرض، لابن حوقل ـ دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

(ط)

* طبقات الحفاظ، للسيوطى ـ تحقيق على محمد عمر ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.
* طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحى ـ تحقيق.
* طبقات الفقهاء، لأبى إسحاق الشيرازى ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ بيروت ١٩٧٠م.
* طبقات القراء، للذهبى = غاية النهاية فى طبقات القراء ـ نشر برجشتراسر القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
* الطبقات الكبرى، لابن سعد ـ بيروت ـ ١٩٦٠م.
* طبقات المفسرين، للداودى ـ تحقيق على محمد عمر ـ القاهرة ١٩٧٢م.

(ع)

* العبَر فى خبر من غبر، للذهبى ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ الكويت ـ ١٩٦٠م.
* عرائس المجالس، للثعلبى ـ القاهرة ـ ١٢٨٢هـ.

(غ)

* غاية النهاية فى طبقات القراء، لابن الجزرى ـ تحقيق برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٣٢م.

(ف)

* فتح البارى، لابن حجر العسقلانى ـ (ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* فتح القدير الجامع بين فَنَّى الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن على الشوكانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

* الفتح الكبير فى ضَمِّ الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطى - دار الكتاب العربى بيروت - بلا تاريخ.
* فتوح البلدان، للبلاذرى - تحقيق عبد الله أنيس الطبَّاع وعمر أنيس الطباع - مؤسسة المعارف - بيروت - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
* فتوح الشام، للواقدى - دار إحياء التراث العربى - بيروت - بلا تاريخ.
* فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، حققه وقدَّم له الدكتور على محمد عمر - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
* فضائل مصر، للكندى - تحقيق الدكتور على محمد عمر - القاهرة - ١٩٧١م.
* الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة، للشوكانى - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
* فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٩٥١م.

(ق)

* القاموس المحيط، للفيروزآبادى - القاهرة - ١٩٣٠م.
* قصص الأنبياء، لابن كثير - نشر مكتبة الباز - السعوية.

(ك)

* الكامل فى التاريخ، لابن الأثير - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥م.
* الكامل، للمبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٦م.
* كتاب الاختيارين، للأخفش، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م.
* كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمَّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعجلونى - دار إحياء التراث العربى - بيروت - بلا تاريخ.
* كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٩م.

(ل)

* اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة، للسيوطى - بيروت - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* لسان العرب، لابن منظور، نشر مكتبة دار إحياء التراث ـ لبنان ـ بلا تاريخ.

(م)

* مجمع الأمثال، للميدانى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م.
* مجمع الزوائد، للهيثمى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* محاسن أصفهان، للمفضل بن سعد بن الحسين المافروضى ـ تحقيق السيد جلال الدين الحسينى الطهرانى ـ طهران ـ بلا تاريخ.
* محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهانى ـ مصر ـ ١٣٢٦هـ.
* مختار الأغانى، لابن منظور ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥م.
* مختصر كتاب البلدان، لأحمد بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمذانى ـ تحقيق دى غويه ليدن ١٣٠٢ ـ ١٨٨٥م ـ و(ط) دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزى ـ حيدر آباد الدكن بالهند ـ ١٩٥١م ـ ١٩٥٢م.
* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.
* مروج الذهب، للمسعودى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* المسالك والممالك، للأصطخرى ـ تحقيق الدكتور محمد جابر الحينى ـ القاهرة ١٣٨١ ـ ١٩٦١م.
* المسالك والممالك، لابن خرداذبة، تحقيق دخويه ـ ليد ١٨٨٥ و(ط) دار إحياء التراث العربى ـ تحقيق الدكتور محمد مخزوم ـ ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م.
* المستدرك للحاكم.
* المسند، للإمام أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ.
* المصنف، لابن أبى شيبة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

* المعارف، لابن قتيبة ـ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر ـ ط(٣).
* معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شراب ـ دار الجيل ـ بلا تاريخ.
* معجم البلدان، لياقوت الحموى ـ (ط) ـ دار صادر ـ بلا تاريخ.
* معجم الشعراء، لعفيف دمشقية ـ بيروت.
* المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.
* معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكرى ـ تحقيق الدكتور جمال طلبة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٨ ـ ١٩٩٨م.
* معجم النساء الشاعرات.
* المعجم الوسيط ـ نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
* المعرب، للجواليقى، تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٦١هـ.
* المغرب فى حلى المغرب، لعلى بن موسى بن سعيد، القاهرة ـ ١٩٥٣م.
* المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، لأبى عبيد البكرى ـ نشر أرسلان دار الكتاب الإسلامى ـ بلا تاريخ.
* المفضليات، للمفضل الضبى ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون القاهرة ـ ١٣٦١هـ.
* مقاتل الطالبيين، لأبى الفرج الأصفهانى، شرح وتعليق السيد أحمد صقر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
* المقدمة لابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية ١٩٧٩م.
* الملل والنحل، للشهرستانى ـ تحقيق محمد سعيد كيلانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ط(٢) ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
* المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزى ـ تعليق عبد الله القاضى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٢م.
* منتهى الطلب من أشعار العرب، لمبارك بن ميمون ـ مخطوط مكتبة لاله لى بتركيا ـ وعنه مصورة بمعهد المخطوطات العربية ـ القاهرة.
* المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، للآمدى مكتبة القدسى ـ القاهرة ـ ط(٢) ـ ١٩٨٢م.
* الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار نهضة لبنان ـ ١٩٨٠م.

* الموطأ، للإمام مالك بن أنس ـ تعليق محمد فؤاد عبد الباقى ـ القاهرة ـ دار الحديث ١٩٦٣م.
* ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ القاهرة بلا تاريخ.

(ن)

* النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٣م.
* نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، للشريف الإدريسى ـ عالم الكتب ـ بيروت ط(١)ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* نكت الهميان، للصفدى، (ط) مصر.
* نهاية الأرب فى فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٣م.
* النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ـ تحقيق محمود الطناحى وطاهر أحمد الزاوى ـ القاهرة ١٩٦٣م.

(و)

* وصف إفريقيا، للحسن الوزان ـ نشر دار الغرب الإسلامى.
* وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، لعلى بن عبد الله السمهودى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ط(٣) ـ ١٤٠١هـ ١٨٩١م ـ دار إحياء التراث ـ بيروت.
* الولاة والقضاة، للكندى ـ بيروت ١٩٠٨م.
* وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧١م.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

* * *